

كهربة القطر المصري

لحسين بك سري

المقتطف

العلم والصوفية

للدكتور مشرّفة وكيل كلية العلوم

الكولونل لورنس

والثورة العربية

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

ذكاء الحيوان

للدكتور محمد ولي من اساتذة كلية العلوم

اجنحة المستقبل

لمستنبط الاوتوجيرو ده لاشيرفا

المقتطف

الجزء الاول من المجلد التاسع والتسعين

١ يونيو سنة ١٩٤١ — ٦ جماد الاول سنة ١٣٦٠

النبات الاخضر

والبحث عن سر الحياة والغذاء

لو كانت الارض تتلقى طاقة الشمس فحماً لا ضوءاً ، لكان نصيب كل فدان من الارض كومة من الفحم تزن من سبعين الى ثمانين طناً في الشهر . فالعلماء يذهبون الى ان كل فدان من الارض يتلقى من ضوء الشمس وطاقتها قدراً يعادل طاقة ٢٤٣ طناً من الفحم في اثناء اشهر الصيف الثلاثة . ولكن الارض لا تستعمل من هذه الطاقة العظيمة سوى جزء يسير منها . والنبات دون غيره من الاحياء معدٌّ من قبل الطبيعة لاستعمالها ، وبقية الطاقة تضيع جزافاً

فضوء الشمس أعظم وأرخص مورد للطاقة ، لا تجاريه في ذلك أصناف الوقود المختلفة من فحم ونفط وغيرهما . ولكن النبات وحده قادر على استخدام ضوء الشمس وما فيه من طاقة . فالنبات يستطيع بفعل التركيب الضوئي ان يحول ثاني اكسيد الكربون المستخرج من الهواء والماء الممتص من الارض الى سكر وغيره من المواد النشوية ، وهذا تفاعل كيميائي عجز أبرع الكيميائيين حتى الآن عن مجاراته . وطريقة النبات في احداث هذا التفاعل ما فتئت لغزاً يحير ألباب العلماء ، والتوصل الى سره غاية يحدى اليها ركابهم

وقد صاغ البحاثة تشارلز كترنج هذا المعنى في عبارة تستوقف الانظار إذ قال « أريد أن أعرف سرَّ خضرة النبات » . ويذهب فريق غير يسير من العلماء الى ان العلم يخطو خطوة كبيرة نحو فهم سرِّ الحياة متى استطاع رجاله ان يدركوا أسرار أساليب النبات في بناء المواد

اللازمة للغذاء من العناصر الأولية، بينما سائر أنواع الأحياء تعتمد على ما يصنعهُ النبات من طعام

وليس من المنتظر في دوائر العلم، استعمال أسلوب التركيب الضوئي، في صنع مواد الطعام صنعاً رخيصاً واسع النطاق. فما زالت النبات متولية هذا العمل الحيوي، ولا نستطيع ان نجاريها فيه. ولكن اذا كشف سرُّ التركيب الضوئي، تمكن العلماء من ابتكار الف طريقة وطريقة لاستعماله استعمالاً مفيداً، وللظفر بإحداث تفاعلات شتى تبدو مستحيلة الآن. فقد يكون طريقهم مثلاً الى صنع المواد الايدروكربونية وفقاً للحاجة والمرام، وصنع المواد الايدروكربونية، يرفع عن الحضارة شبح الخوف من نفاد النفط في موارده الطبيعية، وظلّ نفقاته البالغة في صنعه من الفحم او غيره. وقد تكون طريقة التركيب الضوئي كذلك سبيلاً الى صنع مقادير كبيرة من الفيتامينات بغير نفقة تذكر

واليخضور (الكلوروفيل) هو المادة الخضراء في النبات التي تمتص ضوء الشمس وتستعمله. وهو مركب معقد يحتوي على الحديد والمغنيزيوم وغيرهما ومبنيٌّ على غرار اليحمور (هيموجلوبين او المادة الحمراء في الدم). ففي كل بوصة مربعة من سطح ورقة خضراء توجد ملايين من حبات اليخضور تحتويها خلايا خاصة. وفي الوسع استخراجها مادة خضراء غامقة، وقد استخرجت فعلاً من عهد حديث واستعملت في علاج الزكام وغيره من الاصابة التي مردُّها الى البكتيريا

ولكنها متى وضعت في انبوب الاختبار والتجربة، فقدت تلك المزايا الخاصة التي تمكنها وهي في الورقة الحية، من امتصاص ضوء الشمس واستعماله في بناء المواد النشوية من الماء وثاني اكسيد الكربون

وقد قدَّر العلماء أن مساحة تبلغ ذراعاً مربعاً من سطح الورق الأخضر، تركب ثلث أوقية من السكر في النهار أو نحو ثلاثة أرطال في فصل النمو، ولا تحتاج في هذا التركيب الى مواد اولية غير ثاني اكسيد الكربون والماء. والنبات يستعمل هذا السكر في نموّه ثم يبدأ بخزنهُ

وقد تمكن العلماء من تحويل ثاني اكسيد الكربون والماء الى سكر في المعمل، بتحويل بعض المواد الأولية الى فورملدهيد. ولكن قيمة هذا السكر من الناحية الغذائية دون قيمة السكر الذي تولدهُ النباتات. وكان الرأي أولاً ان النبات يولد السكر بفعل شبيه بالفعل الذي يولد به في المعمل. ولكن الدكتور روبين Rubin أحد أساتذة جامعة كاليفورنيا ردَّ هذا القول. فقد حوَّل قدراً من ثاني اكسيد الكربون مشعًّا بفعل الجهاز الرحوي (السيكلوترون) وتتبع امتصاص النبات لهذا المركب المشع، متوقعاً بحسب الرأي المتقدم ان يرى فورملدهيداً مشعًّا فخاب ظنهُ وخلص الى القول بأن النبات يعتمد على طريقة أخرى في تركيب السكر غير طريقة الفورملدهيد المستعملة في المعمل

يولد ثاني اكسيد الكربون المشع باطلاق قذائف الجهاز الرحوي على ذرات البورBoron فتقذف منها ذرات كربون مشع فتستعمل في توليد جزيئات ثاني اكسيد الكربون فتكون مشعة وتوضع هذه الجزيئات في جو وعاء تنمو فيه نباتات مثل الشعير والقمح ودوار الشمس فتمتصه ثم تشرح النباتات وتحلل تحليلاً كيميائياً ، لمعرفة مصير ذرات الكربون فيها

وقد عانى هذا العالم مشقة عظيمة في بدء البحث ، لأن ذرات الكربون المشعة تفقد قدرتها الاشعاعية، في خلال ست ساعات . ولذلك عمد الى ذرات نظير من نظائر الكربون ، لا تفقد نصف قدرتها الاشعاعية (بعد تحويلها مشعة بفعل الجهاز الرحوي) إلاّ بعد انقضاء خمسمائة الف سنة . وبها ستجرّب التجارب المقبلة

نواحي الموضوع المختلفة

موضوع التركيب الضوئي موضوع يحيّر الألباب حقاً ، لذلك عمدت طوائف شتى من الباحثين الى دراسته من نواحٍ مختلفة . وقد تقدم ذكر الدكتور روبين وبحثه اياه من الناحية الاشعاعية . وفي جامعة ستانفورد فريق يوجّه عنايته الى تركيب اليخضور واصباغ pigments النبات الأخرى . وفريق آخر معنيٌّ يبحث البكتريا الخضراء والفرمزية وطريقة استعمالها للضوء . وثمة فريق ثالث في جامعة كاليفورنيا يعنى بدرس تكوُّن اليخضور

ومن الحقائق التي تستوقف الانظار وتحمل على التأمُّل ان جميع انواع النبات تستعمل اسلوباً واحداً في التركيب الضوئي ، وتحويل العناصر الى مركبات غذائية ، وان هذا الاسلوب لم يتغير على طول الزمن خلال عصور التطوُّر . فأكبر الاشجار واصغر انواع الفطر، النباتات البحرية والنباتات الصحراوية على السواء، محرزة بما عكتها من التركيب الضوئي . ليست جميع النباتات خضراً، فبعضها اصفر مائل الى السمرة، وبعضها رمادي، وبعضها يميل الى اللون القرمزي . ولكن اليخضور (المادة الملونة الخضراء) موجود فيها جميعاً، اما مختلطاً بالاصباغ الأخرى واما مرصوف الحبات تحت السطح . والواقع هناك نوعان من اليخضور واثنا عشر نوعاً من الصبغ الأصفر وهي جميعاً قاعدة الأسلوب الذي تستعمله النباتات في التركيب الضوئي . ولكن العمل الخاص لكل من هذه المواد الملونة لم يعرف بعد

أن أكثر النبات يمتص طاقة الشمس من طرفي الطيف المرئي ، أي من ناحية الأحمر وناحية البنفسجي ويمتص من الأحمر والازرق أكثر مما يمتص من أمواج جميع الالوان التي بينهما . ولكن البكتريا القرمزية وهي نبات مجهري له قدرة التحرك تمتص قدراً يسيراً من الضوء من طرف الطيف الأحمر وقدراً كبيراً من الاشعة التي تحت الأحمر . والبكتريا الخضراء لا تمتص شيئاً من أمواج الطيف المرئي ، وانما تمتص أمواجاً تتفاوت بين ٧٠٠٠ و ٨٠٠٠ انجستروم في المنطقة

التي تحت الاحمر . ويبدو في الحالين أن سبب ذلك كون هذه البكتريا تعيش في البطائح وتحت طبقات من الوحل والماء العكر لا تنفذها أشعة الطيف المرئي ولكن تنفذها الاشعة التي تحت الاحمر

واحياناً تولد الطبيعة نباتاً لا يخضور فيهِ . فنبات من هذا القبيل يعوزه الجهاز الطبيعي الذي يركب بهِ طعامه فيعيش مدى ما يكفيهِ الغذاء المخزون في بذرتهِ . ثم يذوي ويموت. ولكن اذا نقل هذا النبات الى المعمل وغذي بالسكر والمواد النشوية المحلولة في الماء عاش ونما. وفي كاليفورنيا شجرة من نوع الاشجار الكبار المعروفة باسم Redwood وهي خالية من اليخضور ولكنها تعيش بامتصاص الغذاء من أمها فكأنها من الطفيليات. ويلوح أن طريق اليخضور من الأم اليها مسدود فلا تتصل بها حياتهُ ولا تأخذ من امها الا الطعام المركب. أما الفطر وغيره من النبات الذي يعيش في الظلام فليس فيه يخضور ولا هو في حاجة اليه فهو طفيل يغتذي بالطعام المخزون في الأرض

وقد جرَّب فريق من العلماء اساليب شتى لتحويل ضوء الشمس الى طاقة . ولكن جميع الباحثين يرون ان أفضل طريقة لتحويل ضوء الشمس الى طاقة هي طريقة التركيب الضوئي . وعندهم الآن ، ان النبات يركب المواد النشوية من ثاني اكسيد الكربون والماء بأسلوب معقد تدخل فيه طائفة من المعادن فتفعل فعل الوسيط Catalyst

اليخضور الشافي

قلنا في ما تقدم من المقال ان اليخضور يفيد في العلاج . وهو قول مقتضب وغريب في آن . ولكننا اطلعنا قبل ان يمثل هذا المقال للطبع ، على آخر جزء وصلنا من رسالة العلم الاسبوعية ، الاميركية فاذا هو يحتوي على بيان مفصَّل عن اليخضور الشافي ، تجتمع فيهِ عجائب البحث العلمي الحديث ، فلخصناهُ في ما يلي

في الصلة الخفية بين ضوء الشمس والنباتات الخضر ، مقدمات لأعظم نصر احرزهُ الناس في كفاحهم المرض على مرّ العصور . فاليخضور عاملٌ جديد من حيث منزلتهُ في علم الطب، ولكنهُ قديمٌ كالحياة نفسها . فاذا أنكر طبيبك علمهُ بالصلة بين اليخضور والطب فلا تعجب . فالموضوع جديد وفي الولايات المتحدة ١٧٥ الف طبيب جلهم لم يسمع بهِ . ولكن الدليل على ان لليخضور قيمة طبية قوي ناهض وهو يبعث على الثقة والأمل . والمتوفرون على البحث الطبي في اميركا يقولون ، في تقاريرهم العلمية الدقيقة انهم لمسوا أثر اليخضور في شفاء ألف مصاب من علل شتى ولا سيما الجروح وانواع الزكام . وأبعث على الدهشة في رأيهم ، ان الشفاء يتمّ بسرعة وبغير ان يحدث تهيجاً في خلايا الانساج كما تفعل المطهرات القوية . فاليخضور الشافي يفتك بالجراثيم ، ولكنهُ لا يفتك بالخلايا ولا يهيجها . أما كيف يفعل ذلك ، فلا يزال سرَّ الطبيعة المكنون . وهو ما يكون بالسحر

من أقدم العصور سأل الناس أنفسهم وبعضهم بعضاً ما سرُّ خضرة النبات . ومن نحو قرن

من الزمان استخرجوا المادة الملونة من النبات وأطلقوا عليها اسم الكلوروفيل (اليخضور). ولكن بحث جزيء اليخضور، بحثاً علميًّا دقيقاً لا يرتد إلاّ الى سنة ١٩١٣ عند ما عني الكيميائي الالماني الدكتور ڤلستاتر Wilstatter به فاستخرج من بحوثه احكاماً عامة عظيمة القدر وتوَّجها بقوله إن عجيبة الخضرة في الطبيعة متصلة بسرّ الحياة نفسها

وقراء المقتطف ليسوا بحاجة الى اقامة الدليل، على ان جميع انواع الطاقة مردُّها الى طاقة الشمس، وان النباتات الخضر وحدها من المخلوقات الحية، تملك السرّ في اقتناص طاقة الشمس وتحويلها وخزنها ثم اتاحتها للانسان والحيوان بوجهٍ عام

تقع شعاعة من ضوء الشمس على ورقة خضراء، فيحدث الفعل العجيب. ان في داخل هذه الورقة جزيئات من الماء وثاني اكسيد الكربون، فتنحلّ، وهذا الانحلال فعل لا يستطيعهُ الكيميائي الاّ بنفقة كبيرة ومشقة عظيمة. ثم تعيد الورقة تركيب الذرات منشئة منها مواد نشوية وأنساجاً حية. وفي أثناء هذا التحول يُطلق الأكسجين حرًّا في الهواء الذي نتنفس وتخزن الطاقة في جزيئات المواد السكرية والنشوية

وهذه الجزيئات أساس الحياة، لأن الحيوان بوجهٍ عام والانسان بوجهٍ خاص لا يستطيع ان يركّب غذاءهُ الحيويّ من المواد الأصلية والعناصر البسيطة. فالاعتماد على ما تركبهُ النباتات في معامل أوراقها الخضر. والانسان يأكل النبات فيتناول الطاقة سكراً ونشاء، او يأكل لحم حيوانات أخرى تعتمد في الأصل على الغذاء الذي يصنعهُ النبات. ثم ان الانسان يعتمد على الفحم والنفط والغاز الخلقي مصادر للطاقة المحركة، وهي تعود الى مبدئها في النبات عندما خزنت قوة الشمس في أنساجها ثم دفنت أنساجها في باطن الارض فتولد منها في أحوال شتى وبتأثير عوامل مختلفة الفحم والنفط والغاز الخلقي

فالخلية النباتية تصدُّ تيار الطاقة المنحدر. أما الانسان — وسائر الحيوان — فعاجز عن ذلك. وقد أثبت العلم ان تيار الطاقة أبداً سائر في سبيل الانحطاط. تخرج الطاقة من بواطن الشموس قوية الفعل قصيرة الأمواج، ثم تنحدر رويداً رويداً في خلال اختراقها رحاب الفضاء فتضعف قوة وتطول أمواجاً، ولكن النبات الأخضر يقف في سبيل الانحدار سدًّا منيعاً. فيلتقط الطاقة ويخزنها. ثم تنطلق من المواد التي تخزن فيها فعالة سواء أحرارة سكر في الجسم كانت أم حرارة فحم ونفط. فليس بالغريب ان نرى بعض العلماء في دراسة التركيب الضوئيّ خطوة نحو البحث عن سرّ الحياة

هذه بعض الحقائق التي استخرجها فلستاتر وهي بحدّ نفسها كافية لاستيقاف النظر. ولكن بحثهُ أفضى الى نتائج أخرى أبعث على العجب والحيرة. فبين جزيء اليخضور وجزيء اليحمور

(الهيموجلوبين وهو المادة الحمراء في الدم) شبهاً كبيراً . فجزيء اليحمور مركَّب من ذرات الكربون والايدروجين والأكسجين والنتروجين حول نواة هي ذرة واحدة من الحديد . وجزيء اليخضور مركب على شاكلته من ذرات العناصر نفسها ولكن حول نواة هي ذرة واحدة من المغنيزيوم . فما معنى هذا الشبه ؟

هذه الحقائق حركت همم العلماء وأنهضتها . ولكن الدكتور تشارلز كترنج Kittering الذي بدأ ببحث عن أساليب اليخضور في اقتناص ضوء الشمس واستعماله بحدوه الأمل بكشف أسلوب صناعي يمكنهُ من مجاراته . ومنهم الدكتور هانس فيشر حائز جائزة نوبل الكيميائية سنة ١٩٣٠ وقد حصر بحثهُ في اليحمور وتمكن من ان يركب مادة الهيمين Hemin وهي إحدى المواد الداخلة في تركيب اليحمور (الهيموجلوبين) . وفي اثناء دراسته اليحمور بحث عن احتمال فائدة اليخضور في الطب. أما كترنج فأنشأ معهداً خاصاً في كلية انطاكية بولاية أوهايو الأميركية وجمع حولهُ فريقاً من الباحثين لبحث موضوع اليخضور من جميع نواحيه

وكان السؤال الاول الذي حاولوا الاجابة عنهُ — ماذا يحدث لليخضور في أثناء مروره في القناة الهضمية للحيوانات والناس . فوجدوا في حشيش لم يهضم هضماً كاملاً مركباً شديد الشبه بجزء من جزيء اليحمور . فلما أُخذ هذا العشب المهضوم نصف هضم وغذيت به الجرذان تنبه فيها فعل توليد الكريات الحمر في الدم

وحوالي الوقت نفسه أعلن الدكتور فيشر في المانيا انهُ مضى عليه زمن ما وهو يستعمل اليخضور في معالجة الأنيميا وان التجربة أسفرت عن نتائج تبعث على الأمل ولكنها غير حاسمة

فالاتجاه في مباحث جماعة كيترنج ومباحث فيشر كان كافياً لحث العلماء، ولا سيما علماء الكيمياء الحيوية ، على انفاق عقولهم في البحث والتجريب . وبين هؤلاء جماعة في جامعة تمپل بمدينة فيلادلفيا الأميركية . فقد كشف الاطباء هناك حقيقة غريبة وهي أن محلولاً من اليخضور يكثف جدران الخلايا الحية في اجسام الحيوانات ويعززها . وهذه الحقيقة حملتهم على السؤال التالي: ألا ترجى فائدة ما من اليخضور في مقاومة الجراثيم التي تغزو الجسم ؟

هنا ناحية في البحث الطبي اهم من مجرد استعمال اليخضور في شفاء فقر الدم (الانيميا). فالبحث الطبي مدى سنين أسفر عن كشف مواد مطهرة كثيرة . ولكنها جميعاً تشترك في نقص واحد يلازمها وهو انهُ اذا كان المحلول المطهر على جانب وافر من القوة للفتك بالجراثيم فانهُ يؤذي الانسجة الحية التي حول بؤرة الجراثيم . فخير مطهر في عرف الطبيب هو محلول يفتك بالجراثيم ويكون في الوقت نفسه في منزلة البلسم للانسجة . فهل يصح ان يكون اليخضور هذه المادة ؟

غير ان اليخضور حيَّر العلماء في انهُ اذا وضع في انبوب الاختبار ظهر عاجزاً عن الفتك

بالجراثيم . فكأنهُ لا يعمل فعله بمعزل عن النسيج الحي . ولكنهُ اذا وضع على نسيج حي عزز قدرة الخلايا على المقاومة وحدّ من نمو الجراثيم فيمنع الجراثيم من نفث سمومها . وكان سر فعله هذا في قدرته على حل ثاني اكسيد الكربون واطلاق الاكسجين حرًّا فيفتك الاكسجين بالجراثيم وهي على ما يُعلم لا تنمو إلاَّ في الجراح المختومة بعيدة عن الهواء . ثم ثبت ان في الوسع استعمال مقادير كبيرة منهُ بغير ان يفضي ذلك الى تهييج الانساج ، بل يفضي الى تلطيفها

وكانت الخطوة التالية ، عناية قسم الباثولوجيا التجريبية في جامعة تمبل باستخلاص مقادير من اليخضور من القرَاص الاخضر واعدات محلولات ومراهم للاستعمال ثم بدأ الأطباء المعالجون في اقسام جامعة تمبل وعياداتها في استعمالها في أحوال خاضعة للضبط العلمي

وفي شهر يوليو الماضي (١٩٤٠) نشرت مجلة الجراحة الأميركية American Journal of Surgery البيان الاول عن فائدة اليخضور في العلاج . فوصف اليخضور بأنهُ عقار عظيم الشأن . وأيد ذلك فريق من كبار الاطباء . وقد عولج به نحو ١٢٠٠ مصاب تتفاوت اصاباتهم من الزكام الى التهاب البريطون الى قرح الدماغ الى التهاب اللثة (بيوريا) الى اضطرابات الجلد . وقد عولج كل منهم بمحلول اليخضور او بمرهمه وسجّلت اعراض الاصابة وتفصيلات العلاج ، وفي كل سجل من هذه السجلات كانت كلمة الطبيب الاخيرة « شفي »

من هذه الاصابات أناس كانوا مصابين بالتهاب حاد في الزائدة ، او بالتهاب منتشر في البريطون ، فعملت عملية استئصال الزائدة ثم استعمل محلول اليخضور في منع انتشار الالتهاب . فأدخل المحلول في الجراح العميقة بأنابيب خاصة ، او استعمل المرهم على المصائب الرطبة .

ومن هذه الإصابات جراح دب فيها الفساد والتهاب نخاع العظم (Osteomyelitis) والشرايين المتورمة المتقرحة (ulcerated varicose veins) واصابات الفم كالتهاب اللثة والتهاب الحلق الدفتيري وغيرها . وكان اليخضور في جميع هذه الحالات ناجماً

ولكن أعظم النتائج التي أسفر عنها استعمال اليخضور وأشدها استيقافاً للنظر جاء من استعماله في معالجة التهابات الأنف الداخلية المستعصية وأنواع الزكام . وقد عولجت الف اصابة من هذا القبيل تحت اشراف طبيبين مختصين فقالا في تقريرها « ليس بين هذه الحوادث حادثة واحدة لم يتم فيها الشفاء التام أو لم تتحسن حالة المصاب » . وكانت المواد اليخضورية تحقن في منخفضات الانف العظمية فتفضي الى تحسن سريع في خلال أربع وعشرين ساعة

كيف يؤثر اليخضور في الجسم . العلماء يعترفون بجهلهم ويقولون صراحة أن ما اثبتوه حتى الآن لا يتعدى معرفتهم أنهُ يعزز الخلايا ويحدُّ من نمو الجراثيم ويتيح لانساج الجسم الفرصة لتعبئة قواها للدفاع

أثر العوامل الجوية

في شدة اصابة شمال الدلتا [1]

بدودة ورق القطن واستنباط طريقة جديدة لمقاومتها

للدكتور محمد خليل عبد الخالق بك

استاذ علم الطفيليات بكلية الطب ومدير اقسام الامراض المتوطنة

القطن كما تعلمون هو أهم مصدر للثروة المصرية ، والانواع الممتازة منه تزرع في شمال الدلتا وهي الأنواع التي اكسبت مصر شهرة عالمية بالنظر الى طول تيلتها ومتانتها ونعومتها . الاّ ان القطن الذي يزرع في هذه المناطق الشمالية ، أكثر تعرضاً لفتك دودة ورق القطن من الأقطان التي تزرع في الأنحاء الجنوبية من الدلتا والتي تزرع في الصعيد

وفي مثل هذه الايام من كل عام (مايو) تستعد البلاد لشن الغارة على دودة ورق القطن ويجند لهذا الغرض الآلاف من الصبيان والبنات البالغين لتنقية اوراق القطن المصابة . ويتعاون مع وزارة الزراعة في هذا العمل رجال الادارة ، وتسرّح وزارة المعارف أطفال مدارسها الالزامية والاولية . وتستمر هذه الحملة بدون هوادة ثلاثة شهور على الاقل

وقد بذلت جهود جبارة للوصول الى علاج ناجع لمقاومة هذه الآفة ورصدت لذلك المكافآت الطائلة ، وانشئت لها معاهد للابحاث ، واشترك في دراستها الاخصائيون في علم الحشرات وفي الكيمياء عدا رجال الزراعة . ورغماً عن العدد الكبير من المركبات الكيميائية التي اقترحت لقتل هذه الحشرة في بعض أدوار حياتها وطرق المقاومة الاخرى فما زال جل الاعتماد في المقاومة على نزع أوراق شجرة القطن التي تضع الفراشة بويضاتها عليها ، قبل أن يتم فقسها ويبدأ انتشار يرقاتها . وهذه هي الطريقة التي نصح باتباعها أول مجلس استشاري ألف لدراسة هذه المشكلة في مصر في أواخر القرن الماضي أخذاً برأي العلاّمة الدكتور عثمان باشا غالب استاذ علم الحياة بمدرسة الطب حينئذ . وقد جاء في مؤلف هذا الطبيب العلاّمة المسمى (الحيوانات اللافقرية) طبعة سنة ١٨٨٦ فصل عن (دودة البرسيم التي تصيب البرسيم وورق القطن) ما يأتي : —

---

(١) محاضرة الرآسة في المؤتمر السنوي الذي عقده المجمع المصري للثقافة العلمية

« وأهم طريقة لازالة هذه الحشرة وتجنب أذاها هي رفع الاوراق الموجود »
« عليها البيض وهذه الطريقة وان كانت بسيطة للغاية الا أنها تحتاج لالتفات »
« زائد فيبتدأ في البحث في الخامس عشر من شهر مايو فان وجد على الورق بيض »
« قطعت وأحرقت قبل الري ، ثم يبحث بعده مرة ثانية لرفع الأوراق الموجود »
« عليها البيض التي سها الباحثون عن ازالتها في المرة الاولى . هذا مما يجب الاعتناء »
« به كثيراً لأن الحرارة والرطوبة يساعدان على نمو البيض فيفقس ويخرج منه »
« رقات تضر بالمزروعات كثيراً ونحن متأكدون من انه اذا فعل المزارعون ذلك »
« باعتناء تام في جميع أنحاء الديار المصرية مدة ثلاث سنوات تقريباً لارتفع الضرر »
« المتسبب عن هذه الحشرة المتوقف على زوالها ثروة المصريين »

على ان هذه الطريقة كثيرة الكلفة خصوصاً في شمال الدلتا ، حيث يصرف على الفدان في المتوسط ما بين جنيه ونصف وأربعة جنيهات في بعض الزراعات

وقد لوحظ منذ زمن بعيد ان الاصابة بهذه الحشرة تتفاوت في الشدة حتى في الزراعات المتجاورة ، وقد عزا ذلك عثمان باشا غالب الى تأثير الرياح « بنقلها الحشرات من مكان الى آخر حتى تقابل مانعاً يعوقها عن الانتقال كحاجز الأشجار او الغاب مثلاً حيث تقف وتضع بيضاً تنشأ عنه يرقات تتلف أشجار القطن . ومن ذلك تتضح علة اصابة قطعتين متباعدتين من الأرض مع بقاء القطعة الموجودة بينهما سليمة . والعادة ان الحشرة ويرقاتها توجد بكثرة في مزروعات القطن المنخفضة الأراضي وتقل في ذات الأراضي المرتفعة المعرضة لتأثيرات الرياح »

وقد لوحظ أيضاً ان شدة الاصابة تقع في شمال الدلتا وتقل كلما اتجهنا جنوباً حتى تكاد تنعدم في مديرية أسوان

أي ان الاصابة تقل في أشد المناطق حرارة في المملكة المصرية بينما تبلغ أشدها في أشد المناطق برودة . وهذه الظاهرة تخالف تمام المخالفة مايشاهد في الحشرات على وجه العموم، فهي جميعاً اذا تماثلت سائر العوامل الاخرى اكثر انتشاراً وأسرع نمواً كلما ازدادت حرارة الجو. ولا يوجد لهذه القاعدة شواذ . وكل مخالفة لذلك يكون سببها تغير في احد العوامل الاخرى الضرورية لنمو هذه الحشرات . وعلى ذلك يجب ان يكون انتشار حشرة دودة ورق القطن انتشاراً مضاداً لعامل الحرارة في المملكة المصرية ناشئاً عن عامل آخر من العوامل ذات الأثر الفعال في حياة الحشرات ، وهذا العامل هو عامل الرطوبة الجوية في محيط شجرة القطن

[وأود ان أؤكد هنا ان عامل الرطوبة الجوية العام قد يكون مخالفاً لعامل الرطوبة المحيطة بشجرة القطن . ولكن ليس ذلك في كل الأحوال ، فاذا تشبع الجو بالرطوبة تشبعاً تاماً

— كما في حالة الضباب — فيكون هذا التشبع عامًّا كذلك في محيط شجيرة القطن وهي أكثر الحالات ملاءمة ولكي تضع الفراشة بويضاتها كما سيأتي فيما بعد . وأما في حالة انخفاض نسبة الرطوبة الجوية فقد يكون المحيط بشجرة القطن في غيط ما مشبعاً بالرطوبة في حالة ري هذا الغيط وعدم هبوب الرياح . وهذا ما عبر عنه خبراء الظواهر الجوية بكلمة Micro climate اي الجو المباشر بالمقارنة مع الجو العام

وكما قدمنا فان القاعدة العامة هي انهُ كلما زادت الحرارةُ الجوية انتعشت الحشرات وكثر تناسلها ونمت بسرعة فتفقس بويضاتها في أقصر وقت وتتم ادوارُ اليرقة والحورية بسرعة كبيرة . وذلك لأن الحشرات ليس لاجسامها حرارة ذاتية ، فهي تعتمد على حرارة الجو فتنشط صيفاً ويكاد ينعدم نشاطها شتاء ، حيث يبطىء او يقف نمو اليرقات والحوريات فدورة حياة حشرة ورق القطن من دور البويضة الى دور الحشرة البالغة تمتد من ٣٠ يوم تقريباً في شهر يوليو الى أكثر من أربعة أشهر من دسمبر الى ابريل . والمشاهدات المتعددة وخبرة المزارعين تؤيد أن الرطوبة أهم عامل يسبب هذا التفاوت العظيم في شدة الاصابة بدودة ورق القطن في المناطق المختلفة والامثال التالية وهي ليست على سبيل الحصر تبين ذلك بوضوح

١ — تضع الحشرة بويضاتها بكثرة عقب الري ، حتى ان بعض الزراع يؤخرون موعد ري أقطانهم في ذروة موسم الدورة تفادياً لشدة الاصابة . ولو قارنا في هذا الوقت عدد اللطخ في يوم واحد في زراعتي قطن متجاورتين إحداهما رويت حديثاً والاخرى لم ترو ، لوجدنا أن الأولى بها أضعاف اضعاف ما بالثانية من اللطخ وقد تخلو الثانية منها تماماً . وهذه المشاهد التي يدركها تماماً ويقدرها كل فلاح لا تترك سبيلاً إلى اغفال هذا العامل الذي يزيد في الرطوبة الجوية المباشرة في محيط شجرة القطن في الارض المروية

وقد قام الباحث ابراهيم افندي بشارة بتجربة ، اذ روى جزءاً في غيط برسيم وترك الجزء الباقي بدون ري ، وأحصى عدد يرقات دودة القطن في كل من القسمين ورصد مواقعها في خارطة بينت بجلاء أن اليرقات تتكاثف في الجزء المروي وتكون قليلة متباعدة في الجزء الذي لم يرو

٢ — تكثر اللطخ (كتلة البويضات) كثرة هائلة في الليل الذي يعقبه شبورة في الصباح أي حينما يكون الجو مشبعاً تشبيعاً تامًّا بالرطوبة حتى يبلل الندى أوراق الاشجار وكذلك الأرض والاعشاب النامية بها . وهذا ما دعا الفلاحين الى تسمية هذه اللطخ (بالندوة) لملاقة ظهور اللطخ بالندى بل هم يعتقدون أن الندى هو السبب المباشر لظهور اللطخ

وفي حالة الشبورة لا يقتصر وضع البويضات على أوراق شجيرات القطن بل يوجد على مزروعات متعددة كاشجار الحدائق والاعشاب بل وعلى أعمدة التليفونات والتلغرافات مما يبين بجلاء أن هذه الحالة الجوية هي الحالة المثلى لكي تضع الفراشة بويضاتها

وهذه الظاهرة تشير أيضاً الى أن الفراشة عندها القدرة على الاحتفاظ بالبويضات داخل جسمها منتجنبة أحوال تشبع الجو بالرطوبة وربما كان هذا هو السبب في تفاوت عدد البويضات الموجودة في اللطعة الواحدة ، اذ أن هذا العدد يتفاوت بين ٣٠ و ١٠٠٠ بويضة

٣ — تموت البويضات اذا تعرضت لهبوب الرياح الساخنة التي يلقبها الفلاحون بالشرد وهم يتفاءلون خيراً عند هبوبها في موسم دودة ورق القطن ويقولون ان اللطع تطير حيث انها تجف وقد تفارق ورق القطن ولا تفقس وان كانت قد فقست حديثاً فان اليرقات تموت في أيام حياتها الأولى وهذه الحالة الجوية تكون الرطوبة فيها منخفضة والهواء جافا

وربما كان هذا تعليلاً معقولاً لعدم ظهور اللطع دائماً عقب ري القطن أو ري البرسيم . فالفلاحون يذكرون دائماً أن بعضهم قد روى قطنه أو برسيمه ونجا من اللطع، وكان أكبر عقبة في سبيل تنفيذ قانون عدم ري البرسيم بعد عشرة مايو اذ أن نتائج الري ليست على وتيرة واحدة دائماً فاذا كان اليوم الذي يعقب الري شرداً لم تضع الفراشة بويضاتها لأن الرياح تبدد الرطوبة المباشرة وتجفف اللطع وتذروها . أما اذا كانت الرياح ساكنة تكاثفت الرطوبة المباشرة في الأرض المروية وصارت ملائمة لوضع اللطع ويفسر الفلاح هذا التفاوت الذي لا يدرك سببه بأنه من عند الله

٤ — تضع الفراشة بويضاتها ليلاً ولا تضعها نهاراً وربما كان هذا راجعاً الى زيادة تشبع الجو بالرطوبة أثناء الليل تبعاً لانخفاض الحرارة ويحدث ذلك بالرغم من أن الفراشة يجتذبها الضوء وقد اتبع فعلاً في وقت سابق وضع «كلوبات» مضيئة في زراعات القطن ثم صيدها وقتلها وقد اقلع عن هذه الطريقة لأنه وجد ان القطن القريب من الضوء يصاب اصابة شديدة أكثر مما تصاب به الزراعات البعيدة عن الضوء وذلك لأن الفراشة في طريقها الى الضوء وبالقرب منه تضع بويضاتها . وهذا يتعارض مع القول بأن الظلام هو العامل الاكبر في وضع البويضات ليلاً . وقد عزى بعضهم ذلك الى ان هذه الحشرة ليلية بطبيعتها وان اجتذابها بالضوء الصناعي ليس دليلاً قاطعاً على ان الضوء الطبيعي يجذبها باختلاف في طيف كل منهما وهي مسألة تحتاج الى تحقيق علمي بسيط نرجو ان يقوم به بعض الباحثين في هذا الموضوع

٥ — يصاب القليل من القطن في مديريات بني سويف والمنيا وأسيوط وهو القطن المجاور لمجاري المياه كالترع الكبيرة . وقد أجمعت المراجع على ذلك والمعروف انه كلما ارتفعت حرارة الجو قلت نسبة الرطوبة به الا اذا كان هناك مصدر قريب لتبخر الماء ولم تكن هناك رياح تبدد هذا البخار وتقلل من تركزه محليًا. ويشاهد هذا أيضاً في مناطق الوجه البحري فالخطان او الخطوط الثلاثة المجاورة للترع هي التي تصاب اكثر من غيرها

يؤيد ذلك ان أهم زراعة تتأثر بدودة ورق القطن في مديريات بني سويف وأسيوط وجرجا وقنا هي زراعات البرسيم الحجازي في شهر اغسطس إبان الفيضان وامتلاء الحياض بالماء وما ينتج

عن ذلك من تشبع الجو بالرطوبة ، ولا يصاب القطن في ذلك الوقت لقربه من النضوج وجفاف أوراقه نسبياً . وربما كان هذا هو أهم سبب في عدم انتشار زراعة البرسيم الحجازي في الدلتا على الرغم من احتياج الفلاح الشديد الى تغذية مواشيه بغذاء كالبرسيم ، إبان شهور الصيف إذ ان هذا البرسيم الحجازي تفضله فراشة دودة ورق القطن على كل محصول آخر لوضع بويضاتها فتفتك به

وقد شوهد ذلك أيضاً في ممالك مختلفة إذ ان الحشرة في بعض هذه البلاد قد لا تصيب القطن مطلقاً رغم وجوده ، بينما تصيب أنواعاً أخرى من النباتات التي تلائمها أكثر من سواها والأرز هو النبات الرئيسي الذي يصاب بدودة ورق القطن في بعض الممالك لكنهُ لا يكاد يصاب في مصر ، ومما لا شك فيه ان النبات المفضل في مصر هو البرسيم وتنتقل الاصابة الى القطن عند انتهاء موسم البرسيم — وأما البرسيم الحجازي الذي يستمر طوال العام فلا تفارقه دودة ورق القطن وهذا هو الذي دعا الى الكف عن زراعته في المناطق التي تلائم فيها العوامل الأخرى انتشار دودة ورق القطن ، كما دعا الى صدور تشريع يمنع ري البرسيم العادي بعد العاشر من شهر مايو حتى لا يكون ملائماً لوضع البويضات ونمو اليرقات به كما دلت الخبرة عليه وسببهُ كما تبين الآن هو الاستفادة من خفض نسبة الرطوبة في محيط البرسيم كيما تكون غير ملائمة لان تضع الفراشة بويضاتها

٦ — لاحظ عثمان باشا غالب سنة ١٨٨٦ كما أسلفنا الاشارة ، ان الحشرة ويرقاتها توجد بكثرة في مزروعات القطن المنخفضة الأراضي وتقل في ذات الاراضي المرتفعة المعرضة لتأثيرات الرياح ولاشك في ان العامل الهام في ذلك هو رطوبة الجو المباشر فهي عالية في الارض المنخفضة الرطبة خصوصاً عند عدم وجود مصارف كما كان الحال في العهد الذي كتب فيه عثمان باشا غالب

وقد حاول عثمان باشا غالب ان يفسر عدم اصابة بعض الأراضي المزرعة قطناً مع وجودها بين أراض قطنها مصاب فلم يوفق في ذلك إذ ظن انهُ يرجع الى أن الفراش تحمله الرياح حتى يصادف الحراج والغابات في طريقه فيقف ويضع بويضاته فيما حوله من الحقول فلا شك ان مثل هذه العوائق نادر الوجود في المناطق المزرعة قطناً

٧ — لوحظ في صيف سنة ١٩٤٠ ان الاصابة بدودة ورق القطن في شمال الدلتا عدا مديرية البحيرة كانت أقل منها في سنة ١٩٣٩ أما في مديرية البحيرة فقد كانت الاصابة شديدة على خلاف المعتاد . فالحالة في مديرية البحيرة وشمال الغربية تكون متماثلة واذا رجعنا الى حالة الري في المديريتين في صيف سنة ١٩٤٠ وجدنا ان رشح ماء الري وتأخر الفيضان كان له أثر بالغ في مديرية الغربية بينما تمتعت مديرية البحيرة بالمقادير العادية من مياه الري بواسطة طلمبات المطف المركبة على النيل عند مأخذ ترعة المحمودية . وغير خاف ما هنالك من العلاقة بين وفرة مياه الري وارتفاع منسوب الماء في الترع وارتفاع منسوب المياه الجوفية من جهة وبين مقدار

الرطوبة الجوية عند سكون الرياح . ومجموع ما تقدم يبين بجلاء منزلة الرطوبة الجوية المباشرة وما لها من شأن في وضع انثى الفراشة بويضاتها

وقد عملت ابحاث معملية لاختبار تأثير الحرارة والرطوبة في نمو البويضات واليرقات في وزارة الزراعة وللاسف كان البحث لكلٍّ من الحرارة والرطوبة مستقلاً أحدهما عن الآخر بينما تأثير احدهما في الآخر له شأن عظيم فبينما درجة ٤٠ سنتيجراد تؤثر تأثيراً سيئاً في اليرقات في حالة جفاف الجو نجدها محتملة في حالة تشبعه بالرطوبة . وهذا مخالف للحال في الانسان والحيوانات ذات الدم الحار فالاخيرة لا تطيق الجو الحار المشبع بالرطوبة وقد تموت فيه بينما تحتمل حرارة مرتفعة في الجو الجاف وذلك لان عامل التبخر من سطح الجسم (أي العرق) يضمن احتفاظ الجسم بدرجة حرارته الطبيعية — اما الحشرات فليست لها حرارة ذاتية تذكر فهي لا تحتمل الحرارة الجافة وتلائمها الرطوبة مع ارتفاع الحرارة

وفي ضوء المشاهدات العديدة التي سبق ذكرها تبين اننا في مصر من غير قصد وفرنا لفراشة دودة ورق القطن عامل الرطوبة في شمال الدلتا من ثلاث وجوه : —

اولاً — زراعة الارز خلال مزارع القطن وما يصحب ذلك من تعريض سطح هائل للتبخر يتراوح بين ٢٠٠٠٠٠ و ٦٠٠٠٠٠ من الافدنة المغطاة بالماء باستمرار . وثانياً — أن نظام الري في مناطق الارز يستلزم رفع الماء بالترع الى منسوب عال ويتبع ذلك رفع منسوب الماء الجوفي . ثالثاً — تستدعي زراعة الارز تقصير المناوبات بجعلها اربعة ايام ري واربعة ايام بطالة بدلاً من ٤ و ١٢ كالمعتاد

ولولا هذه العوامل مجتمعة لكانت الاصابة بدودة ورق القطن في شمال الدلتا اقل من الاصابة في جنوبها نظراً لانخفاض درجة الحرارة الجوية في الاولى عنها في الثانية

وقد لاحظ ابراهيم افندي بشارة الاخصائي في ابحاث دودة ورق القطن بوزارة الزراعة ان هناك علاقة بين مساحة المزروع ارزاً وانتشار دودة ورق القطن ويعزو ذلك الى عدم توفر الايدي العاملة للقيام بأعمال المقاومة حيث أن الفلاح في ذلك الوقت يكون مشغولاً بأعمال اخرى وقد جاء في رسالته ما ترجمته حرفيًّا : —

(فعند ما تكون الاصابة شديدة بدودة ورق القطن في معظم السنين تكون زراعات الأرز واسعة النطاق) . ويضاف الى ذلك ان السنين التي يُصرَّح فيها بمساحات كبيرة لزراعة الأرز يكون فيضان النيل عالياً وتزيد المياه المتدفقة في الترع وتزيد تبعاً لذلك الرطوبة الجوية المباشرة في الحقول . ولعلَّ الرطوبة المباشرة حول ورق شجرة القطن بالذات هي العامل المهم في اختيار الأوراق الصغيرة المملوءة بالعصارة دون الاوراق القديمة الجافة ولعلها تكون السبب في تفضيل الفراش للسطح السفلي للورقة لوضع بويضاته حيث توجد الفتحات التي منها يخرج بخار الماء في النبات فيكون الجو المباشر أكثر رطوبة على سطح الورقة السفلي منهُ على سطحها العلوي ما

دامت الرطوبة الجوية العامة قليلة . وهنا نجد تفسيراً للحالات القليلة التي فيها تضع الفراشة بويضاتها على سطح الورقة العلوي إذ تحدث ذلك عندما يكون الجو العام مشبعاً بالرطوبة التي يتعرض لها سطحا الورقة بدرجة واحدة

والآن ننتقل الى الاقتراح العلمي الذي يرمي الى الاستفادة من عامل الرطوبة في مقاومة انتشار دودة ورق القطن في شمال الدلتا وهو يرمي الى اصلاح الخطة المتبعة الآن وهي زراعة الأرز بجوار القطن في شمال الدلتا مما يساعد على رفع نسبة الرطوبة الجوية وتهيئة الظروف الملائمة لدودة ورق القطن . ويتلخص الاقتراح في تقسيم شمال الدلتا الى قسمين متساويين في المساحة تقريباً أحدهما شمال مديرية الغربية والآخر شمال مديرية البحيرة وشمال الدقهلية والشرقية . يزرع الأرز في أحد القسمين والقطن في القسم الآخر في عام وفي العام التالي بعكس الحال

وتباح بالقسم الذي يزرع قطناً جميع الزراعات الأخرى ما عدا زراعة الأرز وفي القسم الذي يزرع الأرز فيه تباح جميع الزراعات ما عدا القطن . وهذا الاقتراح لا يؤثر في المساحة المخصصة لكل من القطن والارز ففي المتوسط يزرع القطن في هذه المناطق في ثلث الزمام وكذلك الأرز والأذرة والحاصيل الأخرى . وفي النظام المقترح يزرع القطن في ثلثي الزمام في المنطقة المخصصة له وكذلك الأرز في المنطقة الأخرى . ولهذا الاقتراح المزايا الآتية : —

١ — تقليل نسبة الرطوبة في الجو في المنطقة المزرعة قطناً في شمال الدلتا نتيجة للعوامل الآتية

[ا — يمنع زراعة ٢٠٠ر٠٠٠ الى ٦٠٠ر٠٠٠ فدان من الارز تكون مغمورة باستمرار بالماء خلال زراعة القطن وما يتبع ذلك من تشبيع الجو المحيط لهذه المنطقة بالرطوبة الناشئة من تبخر ماء هذه المساحة الواسعة

[ب — تقليل مقادير المياه المنطلقة في الترع في المنطقة التي تخصص لزراعة القطن اذ تكون المناوبات بها ٤ أيام ري و ١٢ يوماً جفاف بدلاً من ٤ أيام ري و ٤ أيام جفاف كما تتطلب زراعة الارز

[ج — خفض المياه الجوفية تبعاً لقلة منسوب المياه المطلوبة لري زراعات القطن اذ أن ارتفاع المياه الجوفية له أثر كبير في ازدياد الرطوبة الجوية

٢ — توفير مياه الري لزراعات الارز بتوزيع المياه المخصصة لهذا المحصول على نصف عدد الترع التي توزع عليها في الوقت الحاضر . وسيكون لهذا أثر كبير في تحسين محصول الارز وتقليل الشكوى من قلة المياه في نهايات بعض الترع وتفادي هلاك بعض الزراعات بسبب قلة مياه الري

٣ — حصر القطن في شمال الدلتا في نصف المساحة الحالية يسهل عمل وزارة الزراعة في مقاومة آفات القطن ومراقبته

٤ — مقاومة انتشار الملاريا بمنع زراعة الارز عاماً كل سنتين في المنطقة التي يتوطن فيها

المرض اذ أن البعوض الانوفيلي الفرعوني الناقل للملاريا في هذه المناطق يضع بويضاته في مزارع الارز على وجه الخصوص

الخطوات التي اتخذت لتنفيذ هذا الاقتراح .

تفضل حضرة صاحب المعالي الدكتور علي ابراهيم باشا وزير الصحة العمومية بتقديمي لحضرة صاحب المعالي أحمد عبد الغفار باشا وزير الزراعة لعرض هذا الاقتراح عليه فتفضل معاليه بتحويله على أقسام وزارة الزراعة المختصة لدرسه في ١٤ يناير سنة ١٩٤١ ولم أبلغ بعد بطريق رسمي عن رأي الوزارة بشأنه ولكني قابلت الاخصائيين وناقشت معهم في وجوه الاقتراح المختلفة كما قابلت حضرة صاحب العزة حسين بك عنان وكيل الوزارة وبعض كبار المشتغلين بالزراعة كما قابلت رجال الجمعية الزراعية الملكية

ويتلخص الموقف في ان الاخصائيين في دودة ورق القطن وفي علم الحشرات موافقون على منزلة الرطوبة الجوية كعامل هام في حياة هذه الحشرة وعلى ذلك أرى أن ينفذ هذا الاقتراح على سبيل التجربة في نطاق محدود . اما تنفيذه كاملاً في جميع مناطق شمال الدلتا فانه أمر يعني رجال الزراعة كما يعني رجال الري . ولما لم يكن هناك متسع من الوقت لعمل التجربة هذا العام بتخصيص الارض الواقعة على ترعة ما لزراعة القطن وتخصيص اخرى لزراعة الارز ومقارنة الحال بما يحدث في المناطق المجاورة فقد تقررت الموافقة على جمع مشاهدات لتقدير الرطوبة في محيط شجرة القطن وعلاقتها بالاصابة وقد تفضل حضرة صاحب العزة وكيل وزارة الزراعة بالموافقة على اشراكي في هذه الابحاث . وقد علمت ان لبعض رجال الزراعة الفنيين الاعتراضات الآتية

١ — دل الاحصاء ان مساحة المزرع قطناً ليست مساوية للمزروع أرزاً في كل مراكز شمال الدلتا فمركز فوه ورشيد تقل فيهما زراعة القطن كثيراً بينما يزرع الارز في مساحات واسعة وفي المراكز الجنوبية كـكفر الزيات وطنطا والمحلة الكبرى تقل مساحة الارز جداً بالقياس الى مساحة القطن . اما في مراكز دسوق وكفر الشيخ وبيلا فتكاد تكون المساحات متساوية وعلى ذلك فهناك صعوبة في منع احدى الزراعتين في عام ما في الاماكن التي جل زراعتها واعتمادها على الارز فقط او القطن فقط بزراعة الصنف الآخر

والجواب على هذا الاعتراض هو ان المناطق الواقعة حول مصب فرعي النيل والتي تزرع أرزاً باستمرار في الوقت الحاضر ولا تزكو فيها زراعة القطن تستمر في زراعة الارز ويمنع زراعة القطن فيها وهي مساحة ضئيلة تصاب دائماً بآفات شديدة تجعل زراعته غير رابحة ، أما المراكز الجنوبية فهي تزرع الارز خارج النطاق التي تصرح وزارة الاشغال بزراعة الارز فيه وتتخذ الآن اجراءات لتحريم زراعة الارز في غير المناطق المصرح فيها بزراعته باعتبارها اجراءات ضرورية من جهة الري ومن جهة الصحة ففي هذه المراكز لا يمكن تطبيق نظام

مناوبات ري الارز حيث ان زراعة الارز بها تكون مصحوبة بتفشي مرض الملاريا

وعلى ذلك فسيطبق الاقتراح على الأماكن التي يزرع الأرز بها الآن بناء على تصريحات تعطيها وزارة الأشغال وهي المقصودة بالذات

٢ — قيل أن بعض الفلاحين قد يصيبهُ غبنٌ اذا صادفهُ سوء الحظ وكان ثمن القطن رخيصاً في السنة التي يصرح له فيها بزراعته بينما يكون غالياً في السنة التالية التي يحرم فيها من هذه الزراعة والجواب على ذلك ان هذا قد يحدث في عام ولكن اذا أحصينا الأثمان في عدة اعوام فستكون الأسعار متقاربة اذ ليس من المعقول ان يكون القطن دائماً منخفض الثمن في السنين الفردية بينما يرتفع ثمنه في السنين الزوجية

٣ — قيل ان بعض الأراضي قد يصلح لنوع واحد من الزراعتين دون الآخر فيضطر المالك الى تركها بائرة عند منعه في سنة ما من زراعة الصنف الذي تصلح له ارضه

والجواب على ذلك انه في المناطق التي يطبق فيها الاقتراح تتبع عادة دورة ثلاثية بالتبادل يزرع ثلث الأرض قطناً وثلثها أرزاً وثلثها الأخير أذرة او يترك بعضهُ بائراً ومع كل ذلك ففي السنة الحالية صرح بزراعة ٢٠٠٠٠٠ فدان أرزاً فقط في هذه المنطقة وهي تتسع لزراعة ٥٠٠٠٠٠ فدان اذا كانت مياه الري كافية فما الذي سيحدث لهذه الـ ٣٠٠ الف فدان ؟

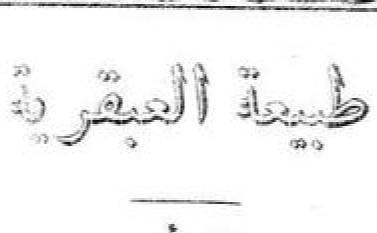
ان كل تشريع يحد من تصرف الفرد وهذا محتمل اذا كان التشريع مفيداً للمجموع

٤ — قيل ان ترع الري قد لا تتسع لمرور المياه اللازمة لزراعة ثلثي الزمام الواقع في حوضها أرزاً لان المفروض الآن ان الأرز يزرع في ثلث الزمام

والجواب على ذلك ان الاحصاءات دلت على انهُ كثيراً ما يتجاوز الزراع في زراعة الأرز ثلث الزمام وقد زرع فعلاً في الدقهلية ثلثا الزمام أرزاً بدون تغيير في الترع الحالية ومع كل ذلك فتعديل فتحات الترع اذا لزم الحال أمر في حيز الامكان كما يرى كبار مهندسي الري بل أنهم يرحبون بالمشروع في مجموعه من جهة الري

وقد يكون هناك اعتراضات أخرى ولكن أساس الاقتراح سليم وهو يؤدي الى النتائج المنتظرة وأعني بها تقليل انتشار دودة ورق القطن في شمال الدلتا حتى تكون الحال مشابهة للاصابة في القليوبية والمنوفية او اقل منهما ولو قدرنا على وجه التقريب قيمة الكسب من هذا الاقتراح لوجدنا انهُ قد يوفر نصف جنيه في المتوسط مما يصرف على فدان القطن في مقاومة الدودة ولو زادت غلة الفدان قنطاراً واحداً نتيجة لقلة اصابته بالدودة لكان مجموع ما يكسبه الزراع اكثر من ٢٠٠٠٠٠٠ جنيه حيث يزرع في هذه المنطقة بحسب احصاء (سنة ١٩٤٠) ٦١٠٠٠٠ فدان يضاف الى ذلك التحسين في محصول الأرز وتيسير مقاومة الملاريا

وغاية ما ارجوه ان يلاقي هذا الاقتراح ما يستحقه من العناية وان يوضع موضع التجربة وأن لا تقف الاعتبارات الثانوية كائنة ما كانت عقبة في سبيله . وفقنا الله لما فيه خير هذه البلاد



طبيعة العبقرية

لعلي أدهم

كان تصور القدماء للدنيا يجعلهم يعتقدون ان الاشخاص الذين سمت ملكاتهم وعظمت كفاياتهم لا بدَّ ان يكون لهم مدد من الآلهة او ان يكون بهم مسٌّ من الجن ، وكانوا يلمحون في الرجال الذين يوجهون مصائر الأمم او يأتون بأعمال خوارق شعلة مقدسة ونفحة الهية ، فسقراط انما استفتح أبواب المعرفة بمعونة الآلهة ، والآلهة هي التي أوحت الى هومر بدائع الشعر وأطلقت به على الدنيا حافلة بروائع الحسن وآيات الجلال ، وهي التي قادت ملتيادس القائد المظفر خلال وهج الحرب الى النصر المؤزر ، ومهدت لافلاطون سبيل الحكمة ومكنتهُ من الوصول الى قمم الفكر العالية

وفي العصور الوسطى كان يسود الاعتقاد بأن كلمة الله تجري على أفواه القساوسة وتدور على ألسنة الأولياء الصالحين وانهُ يقذف في روع المصلحين والقديسين ، وان الحكام الأقوياء انما يحكمون الدنيا بتفويض الهي وحق مقدس ، وان المخترعين انما يوفقون بفضل ما ينعكس في نفوسهم من أنوار الهية وما يشرق عليهم من ضوء مقدس ، وكان الرأي الغالب ان العبقرية قوة خالدة غير محدودة مستعصية على الفهم متعالية تعز على من رامها وتطاول

***

وقد ظلت هذه النظرة الخيالية المثالية للعبقرية تنتقل من جيل الى جيل حتى أوائل القرن التاسع عشر ، حيث كان العلم قد اشتد ساعده ولم يستصوب ان يقف خاشعاً ناكس الرأس غضيض الطرف تلقاء هذه الآراء وأمثالها ، وقد حاول العلم رد الأمر الى أصوله وتحليله الى عناصره وعمل على تجريد العبقرية من مختلف الحجب والأردية التي خلعتها عليها الاوهام ونسجتها حولها الخرافات ، وكان خلال عملية الهدم وازال تلك المثل العليا من فوق قوائمها الرفيعة يعمل بروح المجاهد الذي يبغي وجه الحق ويضعه فوق كل اعتبار

وحاول علم النفس أن يتبين القوانين المسيطرة على العبقرية ، وان يعرفها تعريفاً يراعى فيه النظر الى الحقائق التي ثبتت ثبوتاً علميًّا ، وقد اعتور هذه البحوث لون من الخطأ أثار الخلاف بين المفكرين ، وذلك ان بعض المؤلفين ذهبوا الى ان العبقرية ضربٌ من الجنون واعتقدوا بذلك أنهم قد اهتدوا الى اكسير العبقرية وأماطوا اللثام عن سرها ، ولكن لم تتفق آراؤهم مع ذلك على تحديد العبقرية ولا على تحديد الجنون

ورأى فريق آخر من المفكرين ان كل من أوتي مواهب عقلية ممتازة ينظم في سلك العبقريين ، وكذلك كل من يظهر استعداداً فطريًّا في أي فرع من فروع المعرفة ، والعبقرية عند امثال هؤلاء مرادفة لقوة العقل فكل رجل كبير العقل راجحه فهو عبقري ، ورأى بعض الباحثين ان العبقرية هي القدرة على انجاز اي عمل من الاعمال ببراعة يعجز عنها الغير مهما كدَّ ونصب

وذهب فريق آخر الى أن العبقرية هي توازن الملكات والأخذ بنصيب وافر من كل منها فالعبقري قوي الذاكرة وثاب الخيال مستنير العقل دقيق الحس ، وفي بعض الاوقات كان يسمى التفوق في ناحية معينة « عبقرية خاصة » والتفوق في أشياء مختلفة « عبقرية عامة »

***

ولكن هذه التعريفات أو الدلالات لا تفرق تفريقاً واضحاً بين النبوغ والعبقرية ومن ثمَّ نشأت الحاجة الى تحديد أدق وبيان أوفى

وقد رأى بعض المفكرين ان الابتكار هو سمة العبقرية، ويضمن ذلك ان كل سخافة جديدة يعد صاحبها عبقريًّا ، ومسألة الطرافة ليست وثيقة العلاقة بالعبقرية ، فالطفل في ابان استيقاظ عقله وتفتح مداركه جم الطرافة كثير الاغراب مما يجعل أحاديث الأطفال في بعض الأحيان لماعة مونقة كثيرة المفارقات مثيرة للابتسامات ، وكثيراً ما تصحب الطرافة غرابة الشخصية وشذوذ الأطوار وقد يكون الشخص ضعيف العقل بليد الاحساس فيعجز عن فهم المواقف وتقدير الأشياء ويظل عمره عجيب الفهم لشؤون الحياة وأحوال الدنيا، ومن هذا الطراز السخفاء والحمقى والممرورين الذين ينحرف سلوكهم عن الطريق المألوف ، وواضح من ذلك أن الطرافة في ذاتها لا تكفي لتدل على العبقرية وتؤكد وجودها

وحاول بعض المفكرين التفريق بين العبقرية العلمية والعبقرية الفنية و قد بدا لشوبنهاور[١] ان يقصر العبقرية على رجال الفنون وينكرها على العلماء كافة وكبار السياسيين والفاتحين، ولكن هذا الرأي لم يلق موافقة وتأييداً من المفكرين والطريقة المثلى الفصل في هذا الموضوع هو ان

(١) سأعود الى تفصيل رأي شوبنهاور في احد أعداد المقتطف القادمة

نحاول تحليل بعض الشعراء والموسيقيين والمصورين والعلماء والسياسيين الذين اشتهروا بالعبقرية ومتى تمّ هذا التحليل فان الموازنة بينهم قمينة بان توضح لنا الخصائص المشتركة التي تسوّغ لنا بعد ذلك أن تنظم الجميع في عقد واحد ونسبغ عليهم صفة مشتركة

***

ويمكننا أن نستخلص من أحاديث الكثير من كبار الشعراء والكتّاب الذين راقبوا أنفسهم في سويعات الخلق والانشاء ان الافكار كانت تنثال عليهم انثيالاً وتأتيهم عفواً بلا تعب وعن غير قصد ولا تكلف فجيتي مثلاً يقول : —

« في الرأي القائل أن الشعراء والفنانين المطبوعين يولدون ولا يصنعون صنعاً جانب من الحق ، فلابد من وجود القدرة الداخلية على الانتاج تلك القدرة التي تستطيع أن تستحضر الصور من الذاكرة والخيال بدون قصد ولا ارادة »

وفولتير عند حضوره تمثيل احدى مآسيه قال « هل حقيقة انني أنا الذي كتبت هذه » ؟

وقال لامارتين « لست أنا الذي أفكر وانما أفكاري هي التي تسترسل في التفكير من أجلي »

فعلى ماذا يتوقف هذا الخلق التلقائي والتدفق الفكري والفيض الحيوي الذي نكاد نلمسه في كبار الشعراء وموهوبي الفنانين ؟

***

لحظ علماء النفس أن هناك ظاهرتين فكريتين مختلفتين ، احداهما اختيارية ارادية تسيطر فيها الارادة على تسلسل الافكار وتداعي المعاني ، والأخرى غير ارادية تتداعى فيها الافكار من تلقاء نفسها ، وقد أطلقوا على هذه الظاهرة لفظة «التوهم» fancy والواقع أنهُ ليس هناك فاصل حاد بين العمليتين ، ويمكن أن نتصور ظاهرة التفكير ضرباً من التوهم يتفاوت فيه أثر الارادة ويتردد بين القوة والضعف والظهور والخفاء ، ويبدو التوهم في صورة منفعلة عندما نسمح لأفكارنا بأن تنطلق وتشرد بلا كابح ولا رقيب ، وفي صورة فاعلة عندما تعرض ارادتنا للافكار وتخضعها لأحكامها وتفرض عليها رقابتها

وهذا اللون من التفكير الذي لايخضع للارادة يسميه الشعراء التفكير غير الواعي ، وعمل التوهم يتناول الأحاسيس المتبقية في النفس لأنهُ لا يستطيع خلق أشياء جديدة ، وعمله مقصور على تكوين صور مختلفة من بقايا الأحاسيس السالفة وكما يتكون في الكالديسكوب صور مختلفة من قطع الزجاج المكسورة فكذلك يستطيع التوهم أن يكون من بقايا الاحاسيس السابقة مزيجاً من الافكار الطريفة والتصورات البارعة ، واذا اجتمع في الانسان الى جانب هذه

الموهبة خصب في الخيال ويسر في تداعي الافكار نتج عن ذلك التوهم الحي الخالق الذي نشهده في كبار الشعراء .

واحلام اليقظة اليومية التي ينغمس فيها الرجل العادي في الأغلب الأعم لا تروق ولا تعجب ، ولكن الرجل المصقول الاحساس المرن الخيال تحفل أحلام يقظته اليومية بسمري الخواطر وعبقري الافكار ، وهي تتوافد عليه طائعة ذلولة كأنها تنبعث في نفسه انبعاثاً أو تنبثق فيها من ينبوع ، وهذه الحالة تومض في كل نفس وتعرض للناس جميعاً ولكنها تتفاوت فيهم تفاوتاً في الكم لا في الكيف ، وهي مصدر هذا التفوق الذي اعتدنا أن نفسره تفسيراً صوفيًّا غامضاً أو نعزوه الى خوارق الطبيعة ، وقوة التوهم هذه هي التي تفيض على المؤلفات الفنية من سحرها وتطبعها بطابعها ، وهذا هو مرجع الفرق بين العبقرية والنبوغ ، وفي ذلك يقول البحاثة برنامير « النبوغ من شأنه أن يعرف علة نتائجه ومدى مذاهبه ومعالم مبادئه ولكن العبقرية ترى ذلك كله مطويًّا في الظلام ولاشيء أكثر امعاناً في اللاوعي والنبو عن الارادة من خواطر العبقري »

ولكن التوهم الخالق مع ذلك لايكفي وحده لايجاد عبقرية فنية من الطراز الأول وليست نسبة قوته وتساميه متجاوبة مع عظمة الشاعر وتمكنه ورسوخ قدمه وان كان من الحق أن نسلم بأن عامل التوهم من العوامل النفسية التي لايمكن أن يستغني عنها الشاعر ، والشعراء الذين يأنسون في أنفسهم ضعف التوهم يعدون ذلك نقصاً في شاعريتهم يحاولون اصلاحه واستدراكه وشلر الشاعر الالماني الكبير كان كثيراً مايشكو من أن كثرة ادمانه النظر والبحث والنقد كانت تهبط بشعره وتفسد عليه أمره

***

ومن هنا يتضح لنا الفرق الماثل بين شاعرين من الطراز الأول وهما جيتي وشلر ، فقد كان يغلب على جيتي حرية التوهم ، وكان يغلب على شلر تحري القصد وتعمد التفكير وكان ذلك كثيراً ما يقيد خياله ويهيض اجنحته

وقد نستطيع إن نستخلص من ذلك ان التوهم على ما له من مكانة في تأثيل الشاعرية وامدادها ليس مرادفاً للعظمة الشعرية ، لانهُ مما لا خلاف فيه ان شلر كان اصدق شاعرية وأسمى مكانة من شعراء كثيرين غيره كان توهمهم لا يخضع للعقل خضوع توهمه

والتحليل النفسي للشعراء العظماء يرينا ان وظيفة العقل في بناء الشاعرية ليست أدنى مرتبة من وظيفة التوهم ، والتوهم الخالق - كما اوضحت — يتناول المادة التي خلفتها الأحاسيس السالفة ، وكلما كانت معرفة الشاعر أوسع نطاقاً كانت قدرته على استيعاب المؤثرات التي توافيه بها الدنيا

أقوى وكان وزنه للاشخاص وتقديره للمواقف أصدق وأدق، وكلما كان تفكيره أكثر انتظاماً وأحسن تسلسلاً وكانت ذاكرته أقوى وأحد كان توهجه أوفر ثروة وأكثر تنوعاً

وقد توهم بعض الناس ان الشاعر ليس في حاجة الى الاطلاع وتحصيل المعرفة لانه يستجلب من مشاعره ما يلزمه، ولكن الأمر على نقيض ذلك فقد اشتهر كبار الشعراء بغزارة علمهم ودقة استيعابهم، وقد اعتقد بعض الشعراء ان المعرفة تعرقل خيالهم وتفسد خلقهم. وقد كان هذا الاعتقاد من اسباب تخلفهم وتقصيرهم وعجزهم عن مساماة كبار الشعراء، وجيتي نفسه يقول « ان اعظم عبقرية تكون بلا قيمة بدون امدادات خارجية، لان العبقرية ان هي الا القدرة على انتهاز كل فرصة والاستفادة من كل شيء في طريقنا وان نركب الصورة وننفخ الحياة في المادة التي تصل الى ايدينا، وان نأخذ من هنا الرخام ومن هناك الآجر والقرميد الذي نشيد به الاثر الباقي، واين أكون وماذا يبقى مني اذا كان هذا الضرب من الاقتباس والاستيعاب والتملك يلقي ظل الشبهة على العبقرية؟ وما الذي صنعته أنا؟ لقد جمعت ما رأيته وما سمعته وما لاحظته وأفدت من ذلك كله، وكل ما كتبته والفته قد أعانني على انجازه آلاف الاشياء المختلفة وآلاف الاشخاص، وشارك فيه بنصيب الكبار والصغار والشيب والشبان والسذج والمهذبون والحصفاء والحمقى، وقد حباني الجميع بأفكارهم ومواهبهم وتجاربهم وبذروا في نفسي الحبوب التي حصدتها بعد ذلك

***

وهناك ظاهرة نفسية تسترعي نظرنا في الشعراء المعروفين، وهي رقة المشاعر وأثراؤها ووفرتها مما يدل على ان تركيبهم النفسي في غاية الدقة والتهذيب، ويستتبع ذلك كثرة توالي الحالات النفسية المختلفة الشيات المتنوعة الظلال والتي يعجزهم في بعض المواقف التعبير عنها ووصفها وقد كانت الانغام الموسيقية تفجر الدموع من عيني هيني، وكانت المشاهد الجميلة تذهل شوبنهاور عن نفسه وتنسيه ما حوله، وقد مكنه هذا الشعور القوي من ان يحلل فلسفة الجمال تحليلاً قل ان ترى له نظيراً في مؤلفات غيره من الفلاسفة النابهين

ويمتاز كبار الشعراء بذلك الدافع الغريزي الذي يرغمهم على التعبير عما يختلج في نفوسهم، فأعمالهم ليست ثمرة الارادة المصممة وانما نتيجة ذلك الحافز الذي لا يستطيعون له غلاباً، ومن خطل الرأي ان نعزو انتاجهم الى التلهف على الشهرة او تحري المصلحة الشخصية أو القومية

والميل الى الاعتراف والافضاء الى الغير بما يضطرب في النفس ويكظ شعابها ميل طبيعي غالب على النفوس يستشعر الانسان فيه التنفيس عن كربه والتفريج من همه، وهو في حالة الشعراء العبقريين ذوي الحالات النفسية الحافلة المتعددة الألوان والشكول أبين وأظهر، والشاعر

العبقري يشتق لنفسه طريق التعبير عما يؤده حمله ويثقل عليه كتمانه من الآراء والمشاعر ، ولا يلقي باله الى مسألة تقدير ادبه والاعتراف بفضله ، والاهمال والاغضاء وعدم التقدير لا شك يؤلمه وينال منه ولكنه مع ذلك لا يعنهُ على تغيير خطته ولا يؤثر في عمله

وقد كان جيتي يتخذ الفن وسيلة للتعبير عما في نفسه ، ومن اقواله في ذلك « كل ما نظمت من شعر كانت تثيره في نفسي مناسبات واقعية ، ولم أقدر قط الاشعار المتصيدة من الهواء ، والذي لم اجربهُ ولم يمت الى نفسي بسبب لم أحاول قط ان اعبر عنه أو أتغنى به ، ولم أقل شعراً في الغزل الا وقلبي مفعم بالحب » وكانت تعرض لجيتي الحالات النفسية المتناقضة فيحاول التعبير عنها ووصفها وكان توهمه الخالق بوافيه بالمادة اللازمة ، وكانت مسراته وأحزانه ونوازع نفسه واتجاهات تفكيره تبدو جلية واضحة في طبائع ابطاله وأحاديث اشخاصه ، ودمه يجري في عروقهم وهم يعيشون بحياته ويتنفسون برئتيه ويعبرون عن افكاره

***

ولكن هذا النحو من الخلق الفني لا يتبعه الشعراء جميعهم ، ولم يكن الفن على الدوام تعبيراً عن مشاعر الفنان وعواطفه الخاصة ، وقد نهج شعراء آخرون منهجاً غير منهج جيتي وحاولوا ان يقفوا من ابطالهم موقف الحيدة والتجرد ، فشلر مثلاً كان يستمد موضوعاته من الخارج على خلاف جيتي الذي كان يستمدها من نفسه ، وكان جيتي يتصور الشعر تعبيراً عن مشاعره ولذا كان يقول عن اعماله «انها أجزاء متتابعة من اعتراف طويل» وشلر كان يقول «الهدف الذي يرمي اليه الشعر ويتطلع نحوه هو ان يكون أكمل تعبير عن الانسانية» ، وأبطال جيتي من لحمه ودمه ، أما اشخاص شلر فهي من خلق خياله الذي كان يجسم الأنماط المختلفة من الأخلاق التي كان يصادفها شلر في الحياة الواقعة او في التاريخ والأقاصيص ، وكان يخلع عليها بعد ذلك الثوب الشعري الملائم وينتقي الاستعارة المناسبة والقافية والوزن والعقدة الروائية ، ولم يكن جيتي يحفل بشيء من ذلك ولا يعني به نفسه ، ومن أقوال هرمان جرم في ذلك « كان جيتي في أعماق قلبه نقيض شلر في تفكيره ، وكان يعترف بأهمية شلر ويحترم حياته الدائبة ويقدر عظمته وصدق رجولته ، ولكن ما كان يسميه شلر شعراً لم يكن كذلك في رأي جيتي ، وكانت طريقة شلر في خلق الشعر غريبة غير مألوفة عند جيتي ، فشلر كان يبدأ بالبحث عن المادة واختيار الموضوع ثم يتناولها بالصقل والتهذيب ثم يرسم خططه ويحدد أغراضه ويجعلها نصب عينيه وينطلق بعد ذلك في انجاز عمله ويتوفر على اتمامه كما يشيد البناء القصر الرفيع بحيث يكون مطابقاً للتصميم السابق وبعد ذلك يطلي جدرانه ويجهزه بالأثاث

المناسب والتحف اللائقة ويفتح في النهاية أبوابه للجمهور، وقد كانت هذه الصنعة الدقيقة مصدر قوة شلر، فقد كان شاعراً محترفاً وكان يبز جميع الشعراء في صناعة الشعر، وكان جيتي يقدر ذلك ولكنه لا يستطيع أن يمارسه، وقد بحث صناعة الشعر ووجوه نقده ولكنه كان يبحثها من الخارج» وكانت الحالات النفسية تتوالى على جيتي وتنشأ من تلقاء نفسها، وكان توهمه الخالق يتكوّن من تلك الحالات ومن مختلف الأحاسيس، أما شلر فكانت حالاته النفسية متوقفة على اتجاه أفكاره فهي حالات تستجلبها الافكار وتلفقها الارادة ولذا كانت آثاره الفنية ثمرة التفكير والتروية

وقد كانا يعرفان ذلك من نفسيهما، فبعد لقائهما الاول كتب شلر الى صديقه كورنر عن جيتي « طبيعته كلها قائمة على أسس غير أسس طبيعتي، وهو يعيش في عالم آخر، وأساليبنا في التفكير جد متباعدة كما يبدو لي »

***

ولنترك الآن الشعراء ونتنقل الى الموسيقيين، وأول ما يسترعي نظرنا في ملاحظات الذين كتبوا عن أكثر مشاهير الموسيقيين وشاهدوهم عن قرب ان عنصر اللاوعي ظاهر في أسلوب انتاجهم الفني وموزار نفسه كان يقول ان الافكار تطوف بنفسه كما تلم الاحلام بمخيلة النائم، والتوهم المستقل الذي لا يخضع للارادة هو كذلك عتاد الموسيقار والمصور كما هو عتاد الشاعر، وقد يخطر لنا هنا ان نتساءل اذا كان التوهم الخالق هو أساس الانتاج الفني فكيف يتخذ الشعر مرة للتعبير عن نفسه وأخرى الموسيقى ومرة ثالثة التصوير ؟ والجواب على ذلك ان الاختلاف في طرائق التعبير راجع الى طبيعة الاستعداد الشخصي، وهذا الاستعداد أساسه تركيب الذهن وتفاوت النمو في المراكز العصبية، فجامبتا الخطيب الفرنسي المشهور عندما شرحت جثته بعد وفاته لوحظ نمو مفرط في ناحية المخ التي يقع فيها مركز الاعصاب الخاصة باللغة والحديث والخطابة، والاستعداد للموسيقى يتوقف على نمو خاص في مركز أعصاب السمع، والاستعداد هو بمثابة الآلة للخلق الفني، وقوة العبقرية الخالقة هي وحدها التي تستطيع أن تستخرج النغمات من هذه الآلة

***

وقد كان موزار يمتاز عن غيره من الموسيقيين بخصب توهمه الذي كان يعمل بلا انقطاع ولا يني يمده بالخواطر والافكار، وكان يختلف عن جيتي ويشبه شلر من ناحية قلة تأثره بالحالات النفسية الطارئة، ولم يكن لها كبير أثر في انتاجه، ولم يكن الفن عنده وسيلة للتعبير عن عواطفه وأحاسيسه كما كان عند جيتي، وانما كان يستطيع ان يخضع توهمه الخالق لتناول أية مشكلة من

المشكلات التي يحاول ان يروضها ويستظهر عليها ، وكان بيتهوفن على نقيض ذلك فالفن عنده وسيلة للتعبير عن شعوره واحاسيسه ، وانتاجه الفني يمكننا من التعمق في ادراك حياته الروحية ودخائل نفسه ، وهو يصور لنا عراكه الداخلي وثوراته الخفية وألمه الدامي وسروره الطاغي ، وفي موسيقاه تعبير عن الصراع بين الحزن والسرور والأمل واليأس وكان انتاجه الفني كانتاج جيتي « اجزاء متتابعة من اعتراف طويل »

وهكذا كان ما بين بيتهوفن وموزار من خلاف يشبه ما بين شلر وجيتي ، والتوهم الخالق هو العامل المشترك الذي لا تستطيع الاستغناء عنهُ العبقرية الموسيقية او الشعرية او التصويرية

والعبقرية العلمية شأن آخر يختلف عن العبقرية الفنية ، وهي تمتاز بعاملين عامل الاستكشاف وعامل الاختراع ، وقد اشتهر كوبرنيكس وجاليليو ونيوتن بما وفقوا اليهِ في عالم الاستكشاف ، ونجاح المستكشف يتوقف جانب منه على الظروف الخارجية . ولما سئل نيوتن عن سبب كثرة استكشافاته قال ان الفرق بينهُ وبين غيره من الناس هو انهُ اكثر صبراً وأشد اقبالاً من غيره على ما يعالج من البحوث . وكان جاليليو يعمل طوال حياته ولما اصيب في بصره ظل عقله يدأب ويصارع المشكلات ، وأغلب الاستكشافات العلمية كانت ثمرة اليقظة التامة والجهد المتصل ، والاستكشافات العظيمة تستلزم الملاحظة الدقيقة والالتفات الدائم والمعية الفهم ، وحالات العلماء النفسية تختلف عن حالات رجال الفنون والتوهم الخالق وفرة الحالات النفسية وكثرة المشاعر والأحاسيس لا تجدي على العالم بل هي تعرقل عملهُ وتقيم العقبات في طريقه

وعبقرية القائد البارع او السياسي المحنك قائمة على حدة العقل وسرعة الادراك والاعتراف بالحقائق وتقدير روابطها وعلاقاتها ، والسياسي لا يجب ان يتأثر بالحالات النفسية الطارئة ولا بالمشاعر الملتبسة الغامضة بل يلزم أن يتجه الى غرضه بدافع الارادة الحديدية والعزم المصمم ، والقائد العبقري يمتاز بالحزم والثبات والتفكير الهادىء الرزين وهو يعرف كيف يحتفظ بثبات جأشه وحضور بديهته في المواقف الحرجة ، فبناؤه النفسي يختلف عن بناء الشاعر والفنان

وليست الملكات العقلية والخصائص النفسية والمزايا الاخلاقية منفصلاً بعضها عن بعض بفواصل قائمة حادة بل هي تتداخل وتتشابك . ومن ثمَّ يلتقي في العالم المخترع التوهم الخالق والعقل الاستقرائي

***

وموجز القول أن العبقرية في فروع المعرفة المختلفة مردها الى الحالات النفسية المتباينة ، والنظر اليها من ناحية التمييز والتخصيص أقرب الى فهم طبيعتها من النظر اليها من ناحية التحرير والاطلاق

فلسفة النشوء الخالق

موازنة بينها وبين فلسفة النشوء التي ألفها سبنسر

لحنا خباز

٦ — نظرة في كتاب النشوء الخالق

اخص هذا الكتاب بالنظر لانه محور فلسفة برجسن . ألفه سنة ١٩٠٧ وهو استاذ في كوليج دي فرنس . هذا الكتاب آية فنه . واس مكانته . ومظهر جدارته . ورسم فلسفته . وقد جعل مؤلفه بين عشية وضحاها من أعلام الفلسفة في عصرنا بل من أعلام الفلسفة في كل العصور . واليك بعض ما فيه : —

جاء في ص ٤ من مقدمته ان فلسفة سبنسر زائفة . لانه لم يبين فيها نشوء العقل، ولا نشوء المادة بل اخذ اليقينية ، وقطعها قطعاً . ثم حاول ضم تلك القطع بعضها الى بعض ، كما يفعل الاطفال بضمهم قطع الكرتون الحاملة اجزاء صورة ، بعضها الى بعض . اما النشوء الحقيقي (الذي يستحق اسم نشوء) فليس الذي يركب قطع اليقينية بعضها الى بعض ، بل هو الذي يبين كيف نشأ العقل ، وكيف نشأت المادة . وعبارة برجسن هذه ترسم لنا معنى النشوء الخالق محور فلسفته

قال في ص ١٩٦ : نبين هنا كيف نشأ العقل . وفي الوقت نفسه نبين كيف نشأت المادة . وان خطوط تقدمنا العقلي تبين صورة فعلنا في المادة . فقد اشتق كلا الاثنين من وجود أوسع وأسمى ، (ص ١٩٧) فهنالك يجب ان نرقب تولدها . وقد يبدو ذلك منا أعظم جرأة في التفكير الميتافيزيقي . لانه ايغال في ما وراء علم النفس ، وعلم الكون ، وعلم ما وراء الطبيعة . لان هذه العلوم الثلاثة تتخذ وجود العقل أمراً مسلماً به . فلا تعنى بأمر تكوينه . بل ان كنت الفيلسوف الالماني الكبير، وهو أعمق تفكيراً من سبنسر ، لم يبحث في امر تكوين العقل (ص ٢٠٠) . وعلى هذا جمهرة الفلاسفة . فانهم لم ينظروا في انشعاب العضويات ، بل حسبوا الطبيعة كتلة واحدة . وان الفرق بين العضويات وبين غير العضويات انما هو بالكم لا بالكيف . ولكن وظيفة الفيلسوف الفلسفة . والفلسفة تتناول الحقائق لا الظلال . وقد نشعر ان عقلنا الذي يقود كيانا صيغ بنوع من التركز او الانكماش (ص ٢٠٢) والفلسفة جهد لتحليل المجموعة الحاصلة من العقل والأصل

الذي منهُ صيغ العقل بطريقة التركُّز او الانكماش ، واذا رجعنا الى ذلك الأصل فقد نقف على تدرُّج تكوين العقل منهُ بطريق الانكماش . فظل الأصل هالة تحيط بؤرة هي العقل (ص٢٠٤)وتريناأصله ، فالعقل وهو بؤرة في ذلك الأصل لا يختلف عنهُ عنصراً . بل هما واحد

[حاشية] : ان ما أوردته من كلام برجسن يشير الى أصل منه تكوّن العقل . وذلك الاصل هو البديهة فالعقل بحسب رأيه تكون بانكماش جزء من البديهة كبؤرة . وظل باقي البديهة الذي لم ينكمش كهالة تحيط به يرينا أصل العقل . هذا هو رأي برجسن في نشوء العقل . فليس هو ظاهرة مادية ، ونشوؤه نظرة واسعة في فلسفة برجسن لم أقف لها على نظير في غيره من فلاسفة الادهار . قال في ص ٢٠٥ . يتناول العلم المادة غير العضوية ، واذا هو بحث في العضويات فانما ينظر فيها باعتبار ماديتها . أما الحياة فلا شأن للعلم فيها . ذلك شأن الفلسفة الخاص ، ولما كانت المادة والعقل قرينين لم يمكن النظر في تكوين أحدهما دون النظر في تكوين الآخر

وقال في صفحة ٢١٠ تحت عنوان « العقل والمادية » : — فلنحصر نظرنا في ما هو أعمق من الخارجية ، وأقل تدخلاً في العقلية . أعني نحصر نظرنا في أعامق اختبارنا ، حيث نشعر انا ضمن حياتنا . فنحن اذاً نغوص في بحر الاستمرار ، نائين عن عالم المادة اشتغالاً بالحياة (ص ٢١١) فاذا انسحبنا من بحر الحياة اذا نحن في برّ المادة . فوراء الروحية من الناحية الواحدة ، ووراء العقلية والمادية من الناحية الأخرى ، فعلان ضدّان . ننتقل من أحدهما الى الآخر ، وبقياس تقدمنا في الاستمرار الصرف نشعر ان أقسام وجودنا تتداخل بعضها في بعض ، فيتركز وجودنا في نقطة واحدة كحد الحسام يفري فاتحاً الطريق الى الأمام . هنا الحياة والعقل حرّان . فاذا انسحبنا من هذا البحر ، او هذه الأبحار، تحطمت ذاتيتنا ، وتبعثرت ذكرياتنا ، وانتثرت في الفضاء — كأجزاء متجاورة — وبذلك نكون قد هبطنا الى العالم المادي . على هذه الصورة تولدت هندسية فضائنا (٢١٣)

[حاشية] : أراد برجسن بذلك ان لا حساسة في عالم اليقينية ، حيث يكون وجودنا كنقطة هندسية ، غير ذات امتداد . فاذا خرجنا من ذلك الوسط تفرق ما كان مجتمعاً وتقسم ، او تمدد ، ما كان واحداً وتحدد . فهذا هو عالم المادة . هذه هي نظرية برجسن في كيف نشأ العالم المادي . قال : — وهكذا تولد العقل والمادة بفعلين ضدين في وسط واحد الحركة

(٢١٤) ليس الفضاء ضد طبيعتنا ، ولا الامتداد ضد عقولنا وحواسنا . فان العقل يقسم المادة في الفضاء أقساماً على ما يلزم لانشاء العلم، ولكل ذرة مادية تأثير في كل الكون المادي. كما أشار الى ذلك فارادي بقوله : كل جوهر فرد واحد يملأ الكون : والعلم الطبيعي مبني على تقسيم المادة ، وعلى تجاور أقسامها في الفضاء ، واستقلالها أحدها عن الآخر

(ص ٢١٧) المطابقة (بين العقل والمادة) حاصلة طبعاً في كون المادة حركة معكوسة (عن الحركة العقلية) في الوسط الذي كون العقل

[حاشية] : حل هنا برجسن عقدة لا تكاد تنحل في فلسفته . في اتصال العقل بالمادة عقدة العقد عند فلاسفة ديكارت الذي قال بجوهرين متباينين منفصلين أحدهما عن الآخر كل الانفصال هما العقل والمادة

فكيف يؤثر أحدهما في الآخر ؟ من هنا نشأ مذهب التوازي . ومذهب التدبير السابق (ليبنتز) وغيرهما من المذاهب الحديثة . ولكن برجسن استغنى عن كل ذلك بجعله العقل والمادة عنصراً واحداً كما من يك فهما متطابقان طبعاً

وقد ضرب لذلك مثلاً قال :— اذا قرأ أحدهم شعراً ثم سمعي شغلت بمعناه دون مبناه ! فأدخل في فكر الشاعر . وأرافق حركته كعمل واحد غير قابل الانقسام . فافهم روحه ذاهلاً عن ماديات الشعر من حبر وورق وكلمات وحروف ونحو ذلك . وما دامت نفسي مستهواة في المعنى الروحي لا أشعر بالمادي . ولا أحتاج في خلق العالم المادي إلاَّ الى شيء واحد . وهو النكوص في عكس الاتجاه الاول . او التوقف في المجرى الروحي . أي التخلي عن معنى الشعر الروحي . فحينذاك تقع العين على الحبر والورق والسطور والكلمات. ثم أنتبه الى الوزن والقافية أعني ان العالم المادي قد خلق لي بخروجي او ارتدادي عن العالم الروحي . فهما حركتان سلبية وإيجابية كونتا العالمين المادي والروحي . أو المادة والعقل . اما الأقدمون فحسبوا عالم المادَّة تدانياً من الكائن السامي الذي هو ايجاب او سكون . على هذا كان الفلاسفة في عهد افلاطون الى عهد بلوطينوس . بناء على ان الكائن السامي منزَّه عن الحركة اوالتغيُّر (ص ٣٢٢) فكون التغيُّر ، او وجود المادَّة نقصاً في كيانه . وعلى ذلك قسموا الوجود الى كائن وغير كائن الاوَّل عالم اليقين . والثاني عالم المادَّة

[حاشية] : لقد وضح ان الحركة او الصيرورة حسبت عند الاقدمين نقصاً . اما عند برجسن فهي اليقينية بالذات . واذا زالت الحركة زال الوجود باجمعه

يطرق برجسن في صفحة ٣٢٢ وما بعدها ابحاثاً في الاستدلال والاستقراء ، مبيناً هندسية صفتهما . وأنَّ الاستقراء مبني على فكرة العلَّة والمعلول ، وان الناموس الطبيعي يعين التكرار . فيحدث بعدُ ما حدث قبلُ . كقولنا الشمس تشرق والنار تحرق. وهذا هو أسُّ الاستدلال . وهو يدهش عقلنا لانهُ يرينا النتائج في المقدمات،وذلك قانون هندسي. ولكن الهندسة لا توجد ذرَّة واحدة في السكون . اي ليس فيها خلق. فالوجود انما هو التغير ، او انعكاس الماجرية الروحية . فالانقلاب تراخٍ . والتراخي امتداد . والامتداد اسُّ الهندسة. اي امتداد المنكمش

يبلغ برجسن في صفحة ٢٣٧ نقطة الارتكاز في فلسفته وهي « الحياة » . وان نظامها غير نظام المادة مع ارتباطهما ، قال : نرى في اختبارنا اليومي بعض الاحياء ، او بعض مجالي الحياة يتكرر ذلك امامنا صوراً وواقعات . فنرى فيها مماثلة السابق اللاحق في بنيته وأوضاعه فيمكننا ذلك من التصنيف كما في علم الحيوان وفي غير علم الحيوان ، كعلم البسائط والمركَّبات. فتتراءى لنا وحدة الناموس في العضويات وفي غيرها . لأن كليهما يقود فكرنا الى التجريد (هذا هو مزلق سبنسر). ولكن في العضويات ما ليس في غير العضويات . في غير العضويات لا يصحب التكرار ما هو جديد. اما في العضويات ففي كل تكرار شيء جديد . مثلاً : البلورات واحدة منذ الازل . تتكرر على

وتيرة واحدة . دون تباين او تجديد (ص ٢٣٨) بين سابق ولاحق . كذلك التراكيب الكيميائية ، والاعمال الرياضية . ففي جميع هذه الاشياء للمقدمات نتائجها دون ادنى تغير او تجديد او خلق . أما في عالم الاحياء فثمة تباين بين كل سابق ولاحق ، يزداد ذلك التباين بزيادة التكرار حتى ينتهي بنا الامر الى نشوء انواع جديدة او انشعاب الذراري بعضها عن بعض حال كونها من أصل واحد. وبهذا التجدُّد أو الانشعاب يتجلى « النزوع الحيوي » المبدأ المصلح المرمّم المجدّد الباني المرقي . وبه يحدث الفرق بين النظامين الطبيعي والحيوي . فلا ما لبس في ذلك . في الطبيعي للمعلول علته وللمقدمات نتائجها من غير زيادة او نقصان . اما في الحيوي فهنالك تباين بين كل والد وما ولد . وعامل هذا التباين « النزوع الحيوي » فالافراد في العالم الحيوي كلية الاختلاف احدها عن الآخر. كما انها كلية الاختلاف عن نتائج التركيب غير العضوي مع تماثل العالمين . فتكرار النسخ في غير العضويات لا يوجد شيئاً جديداً . فاذا طبعنا مائة الف نسخة من كتاب ما فانا نجد الصفحات والسطور والكلمات في كل سطر واحدة في المائة الف نسخة ، حتى وفي المائة مليون نسخة لو كانت . فالأمر واضح ألاّ جديد في التكرار حيث لا حياة . وليست العضويات كذلك . هنا لا بدَّ من التباين بين كل نسخة وما قبلها . اذ لا نسخة في العالم العضوي طبق الأصل في كل شيء كما في غير العضويات . ولا تحول الوراثة الحاملة الاعراض النوعية دون التباين في الأفراد . فاذا تكرر التناسل في مائة الف جد فكم يكون الاختلاف . مثلاً ما مدى الاختلاف بين سيدنا ابراهيم الخليل وبين هنري برجسون ؟ وما مداهُ بين هذا وبين شخص آخر من الجد الأول ؟ يتقدم برجسن في صفحة ٢٤٩ لتبيان تكوين العقل والمادة فقال : — يراد بما ذكر خروج الكائن من الانكماش الى الامتداد . ومن الحرية الى الضرورة الميكانيكية بطريق الانعكاس

— : فما هو المبدأ الذي يتحول من الانكماش ليمتد ؟ : — لما كان لا يوجد في لغات البشر اسم لهذا المبدأ فاني ادعوه شعوراً . على انهُ ليس الشعور الشخصي الخاص الذي في كل واحد منا . بل هو شعور عام او كوني . أما الشعور الخاص الذي في شخص فيميل الى عكس اتجاه ذلك الشعور العام منذ نشأ . هذا هو ميل العقل المادي الصيغة والصبغة والغرض . فقد وجد العقل ليعرف المادة ويقودها ويعمل بها وفيها ويألفها ويدبرها . ولا شأن له في الحياة أو في الشعور العام الذي أوجد المادة والعقل . فهنا شعوران عام وخاص . ولكي يطابق شعورنا الخاص الشعور العام الذي منه كان ، وجب ان ينفصل عما هو كائن ، ويلوذ بما هو في ماجرية الكينونة أو الصيرورة . أي يجب ان ينثني على ذاته. وان يكون النظر ملائماً للارادة . ولكي نبلغ اصل كل مادة وكل عقل يجب ان نجمع ذاتيتنا في فعل حر لنسوقها الى الأمام . فحينذاك

يكون لنا شعور ايجابي بالصيرورة التي بها تنظمت القوى الايجابية في صورة عمل . على انه لا شأن لنا في امتلاك المجرى الحيوي . حتى انا في حال الاستسلام لتيار فانما نكون في مجرى شخصي لا غير . فاذا رمنا بلوغ المبدأ العام وجب ان نتعمق اكثر . فاذا امتلكنا البديهة وجردنا حكمها أدركنا موضوع الفلسفة (ص ٢٥٢) واذا استعدنا كياننا الى ارادتنا ، وارادتنا الى الاندفاع الذي نجدده ، أمكننا ان نفهم ، وان نشعر ان اليقينية هي نمو مستديم وخلق متواصل بلا انقطاع . فكل عمل انساني ابداعي ، وكل فعل ارادي حر ، وكل حركة عضوية اختيارية ، كل من هذه الأشياء وما هو من قبيلها يأتي بشيء جديد الى الكون هذا هو معنى النشوء الخالق الذي قال به برجسن

لسنا المجرى الحيوي صرفاً . بل نحن هو محملاً المادة المدعمة الحياة بذاتها . وبالفعل الشخصي والجنسي نمد لولب عملنا الى ابعد مداه . فنخلق ما لا يخلقهُ مجرد تجمع المادة . واذا كان توقف الماجرية توقفاً بسيطاً بخلق مادة ، فلا يكون اذاً خلقها امراً غير مفهوم ، أو غير مسلم به . ان مجرد جمع الحروف لا يؤلف شعراً . وانما القريحة تلد الشعر في الفكر . فالخلق هو عمل الفكر البسيط . وتوقف الفكر ينشيء الصفة المادية

(ص ٢٥٩) لنا في عالم المادة جسم هابط . ولا خيال يرينا جسماً صاعداً من أسفل الى فوق . ذلك عمل الحياة . فهي التي ترفع الساقط ، وتنهض القاعد . وجميع تحليلاتنا ترينا ان الحياة تميل الى التحرر من القيود المتحكمة في عالم المادة . ولو ان الحياة تركت وشأنها لفعلت ذلك

(ص ٢٦٠) أوجد نشوء الحياة الكلوروفيل النباتي الذي يدخر الطاقة التي تنالها من الشمس والنبات ينفق طاقة اقل مما يدخر . امّا الحيوان فعلى الضد من ذلك ينفق اقل كثيراً مما يولد . وهو يتناول باقي ما يحتاج اليه من النبات عن طريق المعدة وبذلك يستتب التوازن في مملكتي الحياة . فنشوء الحياة هو فرع الاندفاع الاول الذي ما فتيء ضد اتجاه المادة . هي الى أسفل وهو الى فوق . تميل المادة الى إرخاء الذراع الى أسفل اما الحياة فترفع الذراع الى ما فوق الرأس . فالمادة كائن غير صانع ذاته . اما الحياة فكائن صانع ذاته . ومن طبيعة العقل انه يرينا الاشياء والأحوال لا الحركات والتغيرات . والاشياء والأحوال مشاهد العقل في الصيرورة . فما اراه في الكون هو نشوء اتوماتيقي غير صانع ذاته (٢٦٢) وهو المادة القابلة السير في حركات غير منظورة مقدماً (كما في دخولها التركيب العضوي) فتمثل عملاً يصنع ذاته

يتقدم برجسن بعد ذلك الى اصل الطاقة ، وينظر في العالم الجزري او العوالم الجزرية ويتطرق الى امكان حصول الحياة في غير الارض ، وبغير الطريقة المألوفة عندنا . وذلك يتناول الطاقة (التي تحل الكربون من الشمس عن غير طريقة الكلوروفيل . وهذا خارج عن نطاق هذه المقالة . فاضرب عنها صفحاً اكتفاء بما ذكر

٧ — خلاصة مذهب النشوء الخالق

قرأت كتاب حبوم في برجسن وفلسفته . وكتاب الدن كار الذي أطلع عليه برجسن واجازه ، وأذن لمؤلفه ان يدعو فلسفته « فلسفة التغير » . وقرأت كذلك مقالة ول دورنت في برجسن وفلسفته في كتابه الشهير تاريخ الفلسفة . ثم قرأت كتاب برجسن « الزمان وحرية الارادة » . وكتابه « المادة والذاكرة » . قرأت جميع هذه غير مرة ولخصتها

وبعد ذلك قرأت كتاب النشوء الخالق مراراً . ولخصته تلخيصاً يقرب من الترجمة وما زلت خلال اثني عشر عاماً اتردد على مؤلفات برجسن حيناً بعد حين . وبعد كل ذلك لا اراني كفؤاً لتحديد فلسفته . اذ اني لم أُلمّ بها الالمام الذي يؤهلني لشرحها قانوناً كما شرح ابن رشد ارسطو . هذا هو عذري لدى قارىء هذه المقالة اذا شام فيها نقصاً او خطأ . فلست بالمغرور ، ولا بالمستخف بخطورة الموقف . والآن اتقدم للقول : —

يبدأ برجسن في نشوء العقل ونشوء المادة . كيف وجدا ؟ وما هما ؟ وهو موقف غير علمي ولا تاريخي . بل سابق العلم وسابق التاريخ : هنا يقف فيرى بعين تفكيره مبدءاً كونيًّا لا كلمة في لغات البشر تصلح اسماً له . فيدعوه « الشعور العام » . او الشعور الكوني . لم يقل برجسن ما هو ذلك المبدأ . الله هو ؟ ام اول مخلوقات الله ؟ ام الانبثاث الاول منه تعالى بحسب فرفوريون والاسكندريين ؟ ام العقل الاول بحسب ابن سينا ؟ ام هو اثر الله ؟ ام ظاهرة الله ؟ لم يقل برجسن ما هو . ولا انا اقول . لاني لا اقدر ان اسيطر على فكر برجسن فاعين مراده وكل ما قاله في هذا الشأن هو عبارتان في ص ٢٥٠ من كتاب النشوء الخالق . العبارة الأولى : ما هو ذلك المبدأ الذي يترك انكماشهُ ليمتد ؟ والعبارة الثانية : اذ ليس لنا لفظ أصلح يطلق عليه فاني أدعوه شعوراً عامًّا

فهذا الشعور العام عند برجسن هو أصل الاكوان . هو العنصر الأول الذي منهُ نشأ العقل ونشأت المادة . ولقد كان العنصر الاول او تعيينه هدف الفلسفة الاغريقية الاول ، من طاليس الى أفلاطون . ولهذا الشعور او المبدأ الاول عند برجسن حركة بسيطة ذات اتجاهين ضدين ، سلب وايجاب . كأن يكون الاتجاه الواحد الى اليمين والآخر الى اليسار . أو ان ذاك الى فوق وهذا الى أسفل . فكون الاتجاه الايجابي العقل او انهُ هو العقل . والاتجاه السلبي كون المادة ، أو انهُ هو هي . هذا هو مذهب برجسن في أصل العقل والمادة وماهيتها واستمرار الماجرية هو الحياة . والحياة هي البديهة وهي الذاكرة وهي الزمان الاضافي ، وهي اليقينية الازلية . فأصل الاكوان عنده الحياة — أقول ذلك بشيء من التحفظ لعدم ثقتي بذاتي تمام الثقة — هكذا يتراءى لي . وقد وصف برجسن دخول الحياة في المادة وتجليها بها

في الفصل الثاني من كتاب النشوء الخالق ، مبتدئاً من صفحة ١٠٣ فصاعداً . ويجري كلامه ما يأتي (طبعاً بشيء من التصرف)

تمثل الحياة اندفاعاً منفجراً مفرقعاً فهي. ككرة تنفجر في انطلاقها فتنفجر شذرات ، كل شذرة كرة كالأصل ولها صفة الاصل . أعني أنها انفجارية فتنفجر الشذرات في انطلاقها ويتولد عن انفجارها شذرات هي إيضاً كرات لها صفة السلف . أعني أنها كرات منفجرة ويتكرر هذا الفعل الى ما شاء الله. هذه هي ماجرية الحياة في المادّة ، أو في مشهد الوجود . أما النزوع الحيوي فهو المبدأ الحي في المادة . فهو الأصل المتشعب في هذه الانفجارات ، وينشأ عنهُ انشعابات في المادة المتلبسة بالحياة . ويدعو برجسن ذلك : المبدأ الحي « Elan Vital » وترجمته النزوع الحيوي . أو المحرّك الحيوي أو المحرك الأول اذا شئت بحسب أرسطو . فهو الشعور الكوني ظاهراً في المادة ، أو عاملاً بها وفيها . فالحياة انفجار متسلسل تنشأ عنهُ عوالم ثلاثة ، تتباين بحسب نسبة أو حال النزوع الحيوي في كل منها . فالاول عالم النبات والنزوع الحيوي فيه نائم ويتصف هذا العالم بعدم الحركة الانتقالية . والثاني عالم الحيوان ، والنزوع الحيوي فيه مقيد ويتصف هذا العالم بالغريزة . والعالم الثالث الانسان والنزوع الحيوي فيه حر . ويتصف هذا العالم بالعقل . والغريزة هي البديهة مضيّقة . والعقل هو البديهة تكثفت كبؤرة في وسط سحابة البداهة . فالعقل والغريزة صنوان ضدان متلازمان . هما في كفتي ميزان تشيل الواحدة برجحان أختها ، فحيث نمت الغريزة وسادت كان العقل ثانويًّا . هذا هو حال الحيوان . وحيث نما العقل وقاد العملية ضعفت الغريزة . هذا هو حال الانسان

فالنشوء الذي قال به برجسون انشعابي ، لاسلسلة صاعدة . فيخالف بذلك أرسطو الذي جعل ممالك الطبيعة سلسلة صاعدة في ثلاث درجات هي الجماد والنبات والحيوان . وذروتها الانسان . فالانسان عند أرسطو وعند سبنسر غاية النشوء . وليس كذلك عند برجسن بل إنهُ يرى أن لا غاية في النشوء . وانهُ لا يسير في خطٍّ واحد ، بل في خطوط عديدة . وقف بعضها وواصل التقدم البعض الآخر . وأشهرها خطان ، الاول خط الحشرات ، وعلى رأسها طوائف النمل والنحل . والثاني خط الفقاريات ، وعلى رأسها الانسان

يقول برجسن لو كان النشوء سلسلة صاعدة غرضها الانسان لكان النظام أمامنا يتجلى كلما تقدمنا ، ولكانت الوحدة تسود كلما تقدمنا في ما جرية النشوء ، والواقع ضد ذلك ، فان التشابك او التعقيد هو الذي يزداد كلما تقدمنا في ماجرية النشوء ، وليس النظام والوحدة ، ذلك وراءنا لا أمامنا . فاذا رمنا الوقوف على الوحدة البسيطة فالى الوراء ننظر لا الى الأمام ص ٢٥٣ . فكل من الأنواع الحية يحمل نزوعاً حيويًّا ذاتيًّا . فلا يهتم الا بذاته كأن لا حيّ سواه . من هنا تنازع البقاء في الافراد والأنواع والهيئات

وأرى ان نشوء برجسن الانشعابي اكثر انطباقاً على العلم من نشوء سبنسر وأرسطو .
فأولاً — لأن الاستمرار هو صفة الاكوان الراهنة . كما نرى ذلك في دوران الاجرام السموية دوراناً محورياً ونجومياً . والانشعاب مألوف في اشتقاق المجرات والعناقيد والنظم الشمسية من السديم الأزلي العام الذي لا نعرف له حدوداً الى أرقى رتب الحيوان . ونرى ذلك ايضاً في العالمات العضوية في شكل محسوس ملموس . فأصل الأحياء واحد له خواص كل من النبات والحيوان وأول انشعاب في هذا الأصل كوَّن عالمي النبات والحيوان ، وأقدم كوائن هذين العالمين متقاربة حتى لقد عدها بعضهم في عالم الحيوان وهي نبات او في عالم النبات وهي حيوان
تلا الانشعاب الاول انشعابات نشأ عنها انقسام كل من النبات والحيوان الى اقسام واقسام اقسام الخ . فطوائف الاحياء متعاصرة لا متعاقبة ، أصلها الواحد والبسيط ، نشأ عنهُ المتعدد والمركب . وهذا حكم يصح في العلم صحته في الفلسفة . فأول النبت فلقة واحدة ، يليه ذو الفلقتين ، وأول الاحياء واحد الخلية يليه متعدد الخلايا . وأصل الحيوان خنثى يتم وظيفة الجنسين . ثم انشعب الى ذكر وانثى ، وأصل المادة الاثير انشعب الى عناصر عرفنا منها الى الآن نحو اثنين وتسعين ، هذا هو الأصل والفرع في عالمي المادة والحياة
وتتضح لنا صفة الانشعاب في الحيوان اكثر منها في غيره فلنا القبيل ، وفي كل قبيل شعاب تدعى صفوفاً ، وشعاب الصف رتب ، وشعاب الرتبة عائلات ، فأجناس فأنواع
فنرى في هذا كما نرى في النبات وفي البسائط والمركبات صفة الانشعاب العامة . فهي أدنى الى العلم من القول بنشوء يتقدم في سلسلة صاعدة . هذا هو نشوء برجسن الخالق

٨ — موازنة المذهبين

بقي عليَّ ان أورد وجوه التشابه والتباين بين نشوء سبنسر ونشوء برجسن فأقول : —
اولاً : يتفقان في المادة غير العضوية ويختلفان في العضويات
فنشوء سبنسر مفعولي والناشئات قابلة فقط . والعامل في النشوء الانتخاب الطبيعي . فلا شأن للناشيء وانما هو وسط ينفذ فيه حكم الناموس . هذا هو نشوء سبنسر . اما نشوء برجسن ففيه للعضويات جهود وللجهود أثر او آثار ففي الاحياء ارادة وجهد وأثر ليست في المواد العديمة الحياة
الثاني : نشوء سبنسر قصصيٌّ تاريخيٌّ . هو عبارة عن وصف الحوادث الجارية في الكون في موضوعات او أوساط متنوّعة ، هي الجماد والحي والعقل والهيئة الخ
يرى سبنسر هذه الاشياء رؤية راكب الطيارة مدينةً تحتهُ ، وقد مرَّ بها فيصف ما رأى . اما نشوء برجسن فكتابة فيلسوف التاريخ . يصف ما رأى . وصف رجل قطن مدينة . فجاز في شوارعها . وسكن بيوتها . وعرف أوضاعها وعاشر أقوامها وخبر شؤونها فيتكلم حقاً عن

خبرة واطلاع . فلا يقتصر على قص الحوادث التاريخية بل يروي الحوادث بأصلها وفصلها وسابقاتها ولاحقاتها وعللها ومعلولاتها . هذا نشوء برجسن

الثالث : يرى سبنسر ان ناموس نشوء الحياة هو مطابقة العضوي أحوال محيطه الخارجية (ص ٥٢) فاذا لم يطابقها هلك ، وزال من عالم الوجود . فنشوء الحياة مطابقة العضوي المحيط والأحوال . فهو منفعل ، متأثر . وتراؤه تراء طفل ورث سلفه . وليس له حول ولا طول . أما برجسن فيرى ان نشوء الحياة هو مطابقة احوال المحيط الكائن العضوي . فالعضوي مؤثر كما انه متأثر ، وفاعل كما انه منفعل . فهو كرجل مجاهد يقتني ثروة بجده واجتهاده اضافة الى ما ورث عن سلفه . فثروة عضوي برجسن هي طارف وتليد

الرابع : نشوء سبنسر خط صاعد من ادنى المركبات الى ذروتها العليا وهي الانسان . كأنه غاية النشوء . أما نشوء برجسن فليس خطاً صاعداً بل انشعابات في انشعابات ، وليس ثمة غاية . وبعبارة أضبط « لسنا نتحسس في النشوء ، الا انشعاب من غاية . فسير هذا النشوء كسطح الأرض كثير التعاريج والعقبات من أغوار وأنجاد وسهول وأودية ، أو كمجرى النهر على سطح الأرض كثير التعاريج والالتفاف »

ويستفاد من سبنسر ان الحياة ظاهرة مادية ، والعقل ظاهرة حيوية ، والعمران ظاهرة اجتماعية ، فلما بلغت المادة درجة معلومة في سلم النشوء بدت فيها ظاهرة ندعوها « الحياة » وفي موقف معلوم تبدو في الحياة ظاهرة ندعوها « العقل » وكذلك في الاجتماع وغيره . وعند برجسن الحياة هي عنصر الوجود ، ويقينية الكون ، والعقل والمادة تكوّنا بحركة واحدة ذات اتجاهين ضدين ففي نشوء برجسن وحدة المادة والعقل ، ومطابقتهما

الخامس : ان نشوء سبنسر ميكانيكي حتمي . ونشوء برجسن ارادي حر خالق عاقل . ويقول فيه برجسن انه يفوق الميكانيكا والحتمية

وأخيراً : نشوء سبنسر « لا أدري » . والعلة الاولى عنده لا يمكن أن تعرف بل هي كما قال Unknowable . أما فلسفة برجسن فصوفية . والعلة الازلية عنده لا يمكن أن تجهل : « بها نحيا ونتحرك ونوجد » . ولو جاز لي القول لقلت أن فلسفة برجسن تطور فلسفة سبنسر وتكاملها . ونسبتها اليها نسبة البوذية الى البرهمية ، أو نسبة المسيحية الى اليهودية . فكما أن البوذية تطور في البرهمية وعروج عن الظل الى الحقيقة هكذا فلسفة النشوء الخالق الذي قال به برجسن هو تطور فلسفة سبنسر وتكاملها . لا يقينية في فلسفة سبنسر . فهي تنحصر في الصور والاعراض . وفلسفة برجسن تتناول اليقينية التي هي قوام الوجود ولا تتقيد بالصور والاعراض . وتلك اليقينية هي الاستمرار ، التغير ، الحركة ، الخلق ، الصيرورة . فهي فلسفة بكل معنى الكلمة . وهي ضربة قاضية على رأس المادية

مداعبة

بياعة التفاح

« بقية في الزاوية »

ياعة التفاح ماذا الذي عندك في السلّ تبيعينا
وهل تُراه مشبهاً للذي تحت خمار الحسن تُخفينا
صفيه لي بالحق ان شئت ان أبتاع منه نحو عشرينا
ما لونهُ ما طعمهُ يا ترى ما عبقــهُ بالله أفتينــا

***

قالت وأبدت لؤلؤاً ناصعاً في ثغرهـا الفنّان مكنونا
تفّاحنا في لونه ما ترى نعطي الذي والله أعطينا
وعبقهُ كالمسك فاشمم ولا تذق فهذا منكر فينا
تشمّ منه الورد جوريّهُ صبحاً وفي الآصال نسرينا

***

ياعة التفاح قومي بنا تنثر على الماضي الرياحينا
ولّى الشباب النضِ والمنحنى وعهد لقيـانا بعيدينا
لم يبقَ مني غير أحدوثة لمن يروحون ويغدونا

***

يا بنت رحماك فلا تجهلي او فاجهلي كما تشائينا
أضاعك المشاق طيشاً فلا تضيّعي زين المحبينا
راح الزرازير «ولا تسألي» عوّضك الله الشـواهينا

نجيب شاهين

قسطاكي الحمصي الحلبي

في ذمة التاريخ

١٨٥٨ – ١٩٤١

لعادل الغضبان

في مستهل شهر مارس المنصرم روعت حلب بل روع العالم العربي بأفول نجم من نجومه المنيرة هو المرحوم قسطاكي الحمصي بك نخبا معه آخر كوكب — على ما نعتقد — من تلك الثريا المتألقة التي ظلت مدة نصف قرن ترسل من عليائها أنوار البيان العربي الصحيح

لئن أكبر العالم العربي فجيعته بالحمصي وفقد به ناثراً ساحراً وشاعراً عظيماً لقد فقدت حلب به ابناً من أبنائها البررة كان في العصر الحديث درة تاجها وعنوان فخارها وليست حلب بالمجهولة المكان في سماء الادب فقد أنجبت كل عظيم وما فتئت معقل العرب ومستلهم قرائحهم بآثارها الخالدة ومكتباتها العامرة وبساتينها النضرة وتاريخها الجليل فان مدينة تكون عرينة سيف الدولة وملتقى النوابغ الأعلام من مثل ابي فراس والمتنبي وابن خالويه وكشاجم الرملي وأبي علي الفارسي والمعري والبحتري والخالدي الى المراش والدلال وحسون والكواكبي والغزي والحمصي انها لحرية أن تباهي البلدان تيهاً وخيلاء وهي التي كان لها في النهضة الحديثة القدح المعلى فأول مطبعة عربية ظهرت في الشرق العربي كانت المطبعة الحلبية ثم نقلت الى لبنان وانتقل معها كوكبة من الحلبيين الأفذاذ ممن أخذت اللغة العربية بشغاف لبهم فهبوا وقد توفر لهم الملجأ الأمين الى نشر مطاوي محاسنها واذاعة دقائق أسرارها وانتزاع الخرائد والفرائد من مغاوص درها بمؤلفات لا تزال الى اليوم ناطقة بفضلهم شاهدة بجدهم منوهة بمجدهم الخالد في حين كانت البلاد العربية الأخرى تغط في سبات عميق

لما شب الحمصي عن الطوق كانت حلب ولاية تركية غير ان الأثر التركي فيها وان شمل الجانب الرسمي منها وتجاوزه أحياناً الى بعض مرافق الحياة ما كان ليتوغل في صميم حياة أهليها ومعايشهم وعاداتهم وتقاليدهم ولاسيا في أدبهم وثقافتهم ولهوهم وطربهم وسياستهم واجتماعهم . وكانوا الى براعتهم في الشؤون المالية بسبب موقع حلب الجغرافي متأثرين بعوامل من الأدب العربي هي ثمرة ما غرسته في نفوسهم النهضة الحديثة من أصول الفنون والآداب وما هو أن يبلغ الحمصي أشده حتى يعمد الى الاستقلال بادارة مصرف مالي كبير آل اليه من ابيه ولكنه مع ذلك لم ين عن تحصيل العلم والاستبحار في الأدب متأثراً بذلك الجو الأدبي الذي ألمعنا اليه

تبعد مدينة انطاكية من حلب مسيرة ٩٠ دقيقة تنطلق فيها السيارة في ارض معبدة قامت على جنباتها الآثار القديمة حتى اذا وصلت السيارة الى المدينة وتابعت سيرها صعداً الى رابية من روابيها تسمى «الحربيات» رأى الزائر فيها قطعة من جنان الخلد لم تعبث بها يد التنسيق والتجميل فالصخور في أعلى الرابية تفجرت عن عيون من الماء الزلال قد سار في قوة اندفاع بين الأكم والتلعات الى رواق واسع منحرف الحافة ثم انحدر منهُ الى الوادي شلالات متفرقة يتطاير رشاشها وتلمع امواجها وينسكب ذوب اللجين فيها من علو شاهق على روضة أُنف باسقة الاشجار نخضلة الغصون وارفة الظلال ثم يتفرع كل شلال جداول وسواقي تنساب انسياب الرقشاء في ارض منبسطة حيناً وذات تعاريج ومنعطفات اخرى حاملة على زرد صفحاتها وتضاعيف أمواجها الري والحياة الى خمائل النوار ولفيف الشجر وظواميء السهول

وما أشبه الحمصي بهذه الجنة الغناء صورة وأثراً فنفسه كانت تفيض بعذب البيان على هواها لا سلطان عليها في ذلك الا التفاعل الذي يجري في جوانحه والتأثر الذي يحرك جوانب صدره فتنبثق منهُ عيون النثر والشعر بقدرة الملكة التي حباه بها الله كما انبثقت تلك العيون الزلال بقدرة الله الذي حباها المتنفس . وما أشبه شتى الموضوعات التي نظم بردتها او نثر لآلئها بتلك الشلالات المتفرقة المنحدرة الى الوادي تحمل اليه نسمات الحياة والخير العميم . اما الشلال الاول فهو للدين

عرف الحمصي بأنهُ متدين مؤمن ولكنهُ لم يكن يفهم من الدين أنهُ أداة تعصب ذميم بل كان يفهم فيه العلاقة التي تربط المخلوق بالخالق والوازع الذي يقي النفس من نزعات الهوى والسبيل الى الاعتراف بوجود الله وخلود النفس وان تعددت النصوص بتعدد الديانات وكان رأيه في هذه الأديان كرأي جميع العقلاء في أن تشعب الأديان الصحيحة انما هي جداول مختلفة تلتقي عند مصب واحد هو الله خالق الأكوان والى هذا يشير بقوله :

كل يمد السواد مذهبه	والعقل يقضي بأوضح الطرق
الدين لله والبلاد لمن	توطنوها من سائر الفرق

وللحمصي في هذا المضمار منظومة طويلة تربي على ١٥٠٠ بيت نظم فيها طرفاً من كتاب الاقتداء بالمسيح ونخباً من روائع مزامير النبي داود وحاك بردتها في أخريات أيامه تزلفاً الى الله وزلفى ورجاء أن يترك للشبيبة تراثاً روحيًّا تستوعب معانيه القدسية في هذا العصر الأنكر . واليك مستهل المزمور الخمسين منها وكلها على هذا النمط من السهولة والسلاسة قال :

رحماك ربي لا اله سواكا	أنا عائذ بك لائذ بذراكا
واغفر برحمتك العظيمة كل ما	اذنبته وتولني برضاكا
واقبل برأفتك الجزيلة توبتي	واغفر معاصي سائل نعماكا

ثم الى جوار شلال الدين شلال ثان ما أحراه أن يكون تابعاً لهُ منحدراً منهُ ألا وهو شلال الأخلاق . نظر الحمصي الى الأخلاق نظرة الرجل الحكيم المهذب النفس الصافي السريرة

فأحب أن يتحلى بنو وطنه بمكارم الأخلاق فما أضاع الأمم شيء مثل تدهور الاخلاق وتسفلها ثم نظر الى الاخلاق من ناحية أخرى بعين الفيلسوف الاديب وقدر أثرها في رقي المدارك وارهاف الاحساس وسمو العاطفة فراح يشيد بها ويدعو لها دعوة المؤمن بشأنها الرفيع ومقامها الاعلى وخير ما طالعناه له في النثر في هذا الباب كتابه « مرآة النفوس » وقد استهله بفصلين عقدهما في تأثير الاخلاق في الصناعات الجميلة وتأثير الصناعات الجميلة في الاخلاق وكلاهما بحث ممتع فياض المعين فيما للاخلاق من أثر في نفوس الافراد والأمم

اما تغنيه بالأخلاق شعراً فقد أجزل فيه القول في غير موضع فتارةً ينفخ في رباب الناصح الشفيق وطوراً يقرع العصا لذي الحلم وحيناً يصف مكنونات الصدور وما تحويه من زيف وزيغ وما انطوت الجوانح عليه من حسد ولؤم الى كثير من مثل هذه المواقف الشريفة التي دوّى فيها صوته بلسان الأخلاق. وللحمصي في الاخلاق قصائد ومقطوعات كثيرة منها مجموعة من المقطوعات سماها « مرآة الأخلاق » ومنها موشحات هي غاية الغايات في هذا الباب

لا بد لمن يدعو الى الدين ومكارم الأخلاق أن يكون من أكبر دعاة الوطنية وهذا هو الشلال الثالث الذي فاضت به جوانب نفسه عن آي الشعر وأخذ السحر

كان الحمصي عين أعيان حلب من المسيحيين وكان منزله منتدى العظماء والكبراء من الاتراك والفرنسيين فيما بعد غير أن صلته بهم ونفوذه لديهم وما كانوا يحيطونهُ به من رعاية واحترام لم يثنه يوماً عن الجهر بعقيدته الوطنية وعصبيته العربية . أما مبدؤه السياسي فوحدة سورية واستقلالها التام في ظلال الراية العربية مع ما يؤلفها من مختلف أديان وأجناس ومن العدل هنا أن نشير الى أن مسلمي حلب ونصاراها قد ضربوا أروع مثل للتآخي والوداد وفي ذلك يقول إبان ذبح الأرمن في أطنه وانطاكية وما جاورهما ووقوع الخوف والهلع عند نصارى حلب وما كان من ذمام مجاوريهم العرب سكان حلب سنة ١٩٠٩

كل حمد لما صنعتم قليل	وافر الشكر قاصر والطويل
قد حقنتم دماء قوم لهم في	ذمة المسلمين عهد جليل
شهد الله انهم أقرب النا	س اليكم مودة ورسول
هــذه سنة الاكارم طراً	هكذا يحرس الخليل الخليل

ولما كان عضواً في مجلس الشورى بدمشق عمد بعض الساسة الى المناداة باستقلال حلب عن دمشق فاستقال من المجلس وقال قصيدته « الحلبية » المشهورة

اما لقربك بعد الهجر ميعاد	فالدار في وحشة والصحب ارصاد
حاشا لقومي ان يرضوا بتفرقة	وبينهم رب تمييز وتنقاد
اني لأخشى بقومي كيفما فصلوا	من ان يفرقهم غل وأحقاد

وكم ثارت نفسه النبيلة عند ما كان يرى زمام الأمر في يد غير أهله وعند ما كان يرى الجهال والأدعياء متربعين في دست المناصب والنيابة فاسمعه يقول في مجلس المبعوثين التركي :

نوابنـا لمـا بنا في سبل العليـا رقوا
قد ماذا قـد اقي نا منهم وما اتقـوا
قد صبتروا عن حقنا دهراً كأن لم يخلقوا
ومذ دروا ان لهم بعض الكلام يطلق
قـد نطقوا لحسنا يا ليتهم لم ينطقـوا

ولا يسعنا ونحن في ميدان الكلام عن الوطنية الا ان نعرض ولو المامًا لآراء الحمصي في السياسة العالمية وما اتصل بها من شؤون هزت مشاعره وانطقت لسانه فتكاد لا تتفق ريح الحرب العظمى حتى ينظم قصيدته الكبرى « داهية الدواهي » وعند ما يدور القضاء دورته وتتمكن جيوش الحلفاء من فتح بيت المقدس يسجل لها ذلك الفتح بقصيدة عصماء يقول فيها :

رتلي الحمد يا معابد اورشـ لم للفاتحين حمداً مضوّعْ
صدق اليوم قول كل نبي نظم الشعر في هواك وسجع
منك يأتي مخلص الناس طراً من عداه عم الشعوب وروّع
ويرى الخلق فوق طورك نوراً طلعة الشرق تنمحي حين يسطع

سافر الحمصي غير مرة الى فرنسا واختلط برجالاتها كما اختلط بعدئذ برجال الانتداب وشاهد مجالي ثقافتها وحضارتها ومظاهر لهوها وطربها وأفانين علومها وآدابها واستمع لخطبائها ودعاتها فتراه قد خص فرنسا بكثير من القصائد ضمنها ذكرياته وأودعها ما وقعت عليه عينه من آياتها وروائعها غير ان حبهُ وطنه وأمنيته الكبرى في ان يرى سورية مستقلة حرة لم يمنعه في مستهل هذه الحرب الجديدة من ان يدعو لفرنسا بالنصر والتأييد في مقالة منثورة هي قطعة من الادب الرفيع ولما منيت فرنسا بكارثتها الكبرى نظم فيها قصيدته « أصدق الخبر في عبرة العبر » رثى فيها لفرنسا وحمل حملة شعواء على الاشتراكية والشيوعية قال في مطلعها :

أكذا تكون مصارع الآساد أكذا تخر ممالك الامجاد
ايه فرنسا ما اصابك بغتة حتى نعيت بسيد الحساد
لو ان يرم الدهر زلزل بجأة ما قت اعظم منك في الاعضاد

لا مشاحة في ان من يتعصب لوطنه يتعصب للغته وهذا هو الشلال الرابع الذي سال من نبع قريحة الحمصي وانسكب على رياض العالم العربي فأروى وأمرع

أما النثر فتأنق فيه دون ما تكلف ولا تصنع تأنقه في ملبسه ومأكله واختيار تحفه ورياشه بل تأنقه في خطه الفارسي الجميل وله فيه طريقتان لا تقل كلتاهما عن طريقة أكتب كتّاب العربية القدامى والمحدثين فان عمد الى الادب والوصف حتى في رسائله الى اخوانه طرز كتابته بالسجع وان عني بنسج بردة بحث لغوي أو تاريخي او علمي استخدم النثر المرسل وهو في هذا وذاك شغوف بالوضوح واشراق الديباجة وشرف اللفظ ومتانة الحبك وجمال الأسلوب قد أخذت منهُ حلة الاستقراء والاستقصاء ودقة البحث والتحقيق مأخذاً عز له فيه النظير

على ان نخبة نخبه في رأينا هو كتاب « منهل الورّاد في علم الانتقاد » فقد نحا في هذا المؤلف الفريد في بابه منحىً جديداً في أصول النقد وترتيب أبوابه وتقسيم فصوله ثم موازنته

بين الأمثولة الالهية لدانتي ورسالة الغفران لأبي العلاء وهي بحث طريف ذهب فيه الى أن الأمثولة الالهية انما هي صورة من رسالة الغفران فإما أن يكون دانتي قد قصد مدرسة قرطبة وتعلم اللغة العربية فيها واطلع على هذه الرسالة وإما أن يكون قد وقف على ترجمة لها ولا سيما ان امراء الاندلس كثيراً ما كانوا يبحثون عن المؤلفات الجديدة كما كان علماء اليهود من العرب في الأندلس يترجمون المؤلفات العربية الى اللاتينية أو إلى العبرانية ومنها الى اللاتينية

ومن أمثال غيرته على اللغة العربية قصيدته البدوية ذلك انه قام في صيف سنة ١٩٢٠ نفر من الشعوبيين في بيروت ولبنان يدعون الناس الى الطلب من حكومتهم أن تجعل اللغة الفرنسية رسمية في محاكمها ودوائرها فألهم هذا الحدث الحمصي موضوع تلك القصيدة التي يقول في مطلعها :

بالله يا نسمات الرند والبان ... من نجد جئت أم من روض غسان
فإن فيكن ريحاً من ملابسها ... فطيب ليلى بأنفاس وأردان
ما ضرها انها والحسن عابدها ... لها حواسد من أهل وجيران

ولئن بدا الحمصي محافظاً أشد المحافظة على اللغة والأسلوب انه لم يكن من المتعنتين الواقفين من جدة العصر ومستحدثاته موقف الجمود فانك ترى في نثره وشعره مع تلك المحافظة على اللغة والأسلوب أغراضاً عصرية شائقة بين معرّب وموضوع جلاها في مقالات وقصائد وموشحات مثالاً رائعاً للقصص الشعري والوصف العصري وفي موشحاته التي تناول فيها وصف الشؤون الطبيعية يقول أمام اللغة الشيخ ابراهيم اليازجي أنه لم تجر عليها قافية عربية من قبل وهذه شهادة لها قيمتها عند العارفين وان شئت أن تسمع تنديده بالجامدين والمقلدين فاقرأ موشحه « ميلاد الربيع » الذي يقول في مستهله:

انت من يأمن على تلك الدمن ... يذرف الدمع ويستبكي الطلول
كم تناديها ولو أصغت لمن ... جاءها مستنطقاً كانت تقول

عد عن جهلك ياهذا الغبي

كن سواراً او قريطاً او جرير ... أو زهيراً أو اياساً أو هلال
او أبا القشناش والجم الغفير ... من ملوك الشعر أرباب المقال

كلكم يفعل أفعال صبي

تندبون الربع أو بيت الشعر ... أو خيالاً زار ليلا ورحل
او حصاناً أو بعيراً قد نفر ... تضمون الدر في عنق الجمل

وخسيس الترب فوق الذهب

منذ الفي سنة بل ضعفها ... دأبكم ترديد هذا النغم
تلك حال حسبوا في وصفها ... حال قوم سلكوا في الظلم

وأضاعوا وقتهم في اللعب

ذاك أو يقرب منه ما رواه ... منشئ التاريخ في فن القريض
قد جرتم كل شوط في مداه ... ولكم في نظمه جاه عريض

من نسيب أو مديح كذب

وعن التنقيب أعرضتم سوى ... ما أتى من مثل أو قافيه
وعظيم الكون مع ماقد حوى ... من أعاجيب شؤون خافيه

لم يكن فيه لكم من سبب

نسكتو التشبيب والفخر الملى ودعاو عليها أهل الملوم
واسحروا أن يقتدي هذا النقل بني الافرنج أرباب العلوم
واسمعوا ما قاله في حلب

كما أن الشلال من تلك الشلالات كان يتفرع جداول وسواقي كذلك كان شلال القريض عند الحمصي متفرعاً الى كثير من الجداول والسواقي فمن مطارحات ومداعبات إلى إخوانيات وخصوصيات إلى نسيب ومدح ورثاء يرسم في ذلك كله صورة صادقة لحياته في جدها ولهوها ولخلجات نفسه في سرورها وحزنها ونجتزىء عن هذا الفيض ببعض الوشل توفية لهذا الإطار الذي أردنا أن نحف به صورة حياته

فمن مداعباته ما كتبهُ الى صديقه شيخ العروبة المرحوم أحمد زكي باشا عند زيارته القاهرة سنة ١٩٠٢ ورؤية الخلان والاصحاب قد انتثر عقدهم وتفرّق شملهم قال :

أصحابنا في مصر قد ضيعوا أصحابهم واستصحبوا الذكرى
سألت عنهم واحداً واحداً فلتها عنهم أحسن البشرى
كأنهم قد حسبوا السعي في جمع الثراء الغاية الكبرى
وضيعوا ان نلتقي بعدها للانس في الموعودة الاخرى

ومن هذا الباب ما قاله ايضاً وقد رأى النقاش في غرفة مكتبته يتأنق في نقش السقف وترويقه

هب ان هذا السقف من عسجد وان هذي الارض من فضة
أليس ذا عارية كله والمنزل الآخر في حفرة

وأروع ما قرأناه له في الرثاء رثاؤه الشيخ ابرهيم اليازجي والملك فيصل وسعيد باشا شقير واسعد خليل داغر . على ان أرق مرثياته قصيدته في حفيد له وقد كان له في قلبه منزلة لا تدانى لما كان عليه من حب للعلم وما كان متحلياً به من آي الذكاء قال :

كيف امسيت يا حبيبي بعدي أسريراً حللت أم عرش مجد
كنت للعين قرة وسروراً لفؤادي ونجم أنسي وسعدي
ليتني مت قبل يومك بل يا ليتني قد سكنت معك بلحد

ولعل هذه العاطفة الصادرة عن مثل هذا القلب الجريح هو أن الحمصي كان جم الشغف بأحفاده وحفيداته شغفه ببناته الخمس وكلهم وكلهنّ في المقام الأول من أدب النفس وأدب الدرس وفي بناته يقول :

ان يمن يوم مماتي التقيه بثباتي
ذقت من لذات دهري كل أنواع الهبات
كنت فوق الارض روحاً ساكناً هيكل ذاتي
فتضاعفت فروحي هي في خمس بناتي
فحياتي في بناتي ان يمن يوم مماتي

هذه لمة عن حياة هذا الناثر الشاعر وعن سحر فنونه بعد اذ جمع في تلك الفنون من حكمة المعري ووثبات المتنبي وسلاسة البحتري ووصف ابن الرومي وما أجدر كل فن من فنونه أن يكون موضوع دراسة برأسها

مذهب السلوكية

للاستاذ نويل آي . تريب
نقلها الى العربية : حسن السلمان
مدير منطقة معارف البصرة

السلوكية نظرية جديدة غرضها معرفة الحقائق العلمية المتصلة بسلوك الانسان عن طريق المشاهدة واسناد سلوك الكائن الحي الى اسباب فسيولوجية كيميائية وفي مقدمة من حاول ذلك بافلوف وماكدوجل . ولكن الذي تولى بحثها ، وسعى الى اعادة بناء علم النفس القديم على اسس علمية طبيعية هو الدكتور جون واطسون وفي هذا البحث يحاول الاستاذ تريب تحليل هذه النظرية الطريفة تحليلاً مبسطاً معتمداً في ذلك على ما جاء في مؤلفات واطسون الملقب بأبي السلوكية

توطئة

لم يكن علم النفس القديم الا ناحية من نواحي الفلسفة ، لم يتعد موضوعها دراسة خصائص الروح — تلك التي لم يفز أحد بعد باثبات وجودها . ولكن بعد ما انفصلت الابحاث المتعلقة بالروح عن الفلسفة ورجعت الى مصدرها الأصلي ، علم اللاهوت ، اختص علم النفس بدراسة العقل وما يتصل به ، وبالبحث عن الشعور ومظاهره . اما طريقة البحث فقد ظلت كما هي لا تتعدى دراسة التفكير الشخصي بالتأمل الباطني أو بما يدعى بالاستبطان . ومن الطبيعي ان هذا النوع من الدراسة لا يضع علم النفس والعلوم الطبيعية الأخرى على صعيد واحد ، حتى ان فلاسفة القرن الماضي رفضوا ان يطلقوا عليه اسم « علم » للسبب ذاته . فاوجست كونت الفيلسوف الذي جوّز لنفسه اعتبار علم الاجتماع علماً لم يرض ان يضم علم النفس الى حظيرة العلوم ما دام مؤسساً على التأمل الباطني . وقد قال في هذا الصدد : « بعد اشتغال دام نحواً من الفي عام لم يجمع الباحثون بعد على فرض واحد من فروض علم النفس فذهبوا مذاهب شتى حتى في الأصول الأولى لنظرياتهم . وسبب ذلك واضح جلي وهو ان التأمل الباطني يؤدي حتماً الى ابتكار نظريات لا يقل عددها عن عدد المتأملين . وانا عبثاً نحاول اكتشاف الحقائق النفسية ما دمنا نعتمد في بحثنا على التأمل الباطني »

ومن اشتهر في مهاجمة التأمل الباطني العلامة كورنو فقد كتب عام ١٨٥١ « إن احدى

الطرق لتفهم طبيعة الانسان العقلية والخلقية هي تلك التي لا تعتمد على دراسات الفلاسفة الذين تحدد النظريات عقولهم، بل على دراسات أولئك الذين حبتهم الطبيعة عقلية تتسع لادراك الناحية العملية من الاشياء ، أولئك الذين لا يأخذون نظرياتهم من الاستغراق في التفكير والتأمل الباطني بل من ملاحظة سلوك الناس عند ما يكونون في حالات نفسية مختلفة وتحت تأثير عوامل متباينة »

وبعد ما تقدمت العلوم الطبيعية تقدماً بيناً وجد الباحثون النفسيون أنفسهم في مأزق حرج فقد قطعوا صلتهم بالفلسفة ومع ذلك يرفض العلماء الطبيعيون ادخالهم في حظيرتهم شأنهم في ذلك شأن من وقع بين مطرقة وسندان . وكان من جراء حرج موقفهم هذا ان حاول كثيرون من الباحثين النفسيين ادخال الأساليب الموضوعية في علم النفس لكي يبلغوا المستوى الذي بلغه من قبل علماء الفيزياء والكيمياء. وأول من حاول ذلك بطريقة غير مباشرة العالم الفلكي الالماني بيسل . فقد كان هذا الفلكي دائم الخلاف مع أحد مساعديه المكلف الضغط على مفتاح عند ما يمرّ النجم المراقب من خط الهاجرة في مجال المرقب . وكان بيسل قد لاحظ قبل عام ١٨٢٢ ان تعدد المراقبين يؤدي دائماً الى تفاوت فيما يحصى ويسجل عن الظاهرة الفلكية الواحدة . ولا يمكن ان يعزى هذا التفاوت إلاّ الى الاختلافات الفردية عند المراقبين أنفسهم . وكان من نتائج ما لاحظه هذا العالم ان أجريت دراسات علمية دقيقة لتعين الزمن الذي يتطلبه رد الفعل لكل مراقب من المراقبين المشتغلين بالرصد ، وبحث العوامل المكيفة له

السيكولوجيا الفيزيائية

وليس من شك في ان الابحاث التي قام بها الفسيولوجيون الالمان وبصورة خاصة ابحاث أولئك الذين اختصوا بدراسة أعضاء الحس كان لها تأثير كبير في تكوين علم النفس التجريبي ، وكان لدراسات هلمهولتز في حاستي السمع والبصر الشأن الاكبر في تطور السيكولوجيا الحديثة وقد أثارت هذه الابحاث الفسيولوجية في نفس ارنيست هنريك فيبر حب البحث عن الحساسية النسبية لمختلف اقسام الجلد. فاكتشف ان الانسان اذا ما حمّل في احدى كفيه ثقلاً يعادل ٣٢ درهماً مثلاً ثم أضيف الى الثقل عشرة دراهم أخرى فان الشعور بالثقل المضاف يكاد يكون بيناً ، ولكن عند ما يكون الثقل الذي يحمله الشخص ٣٢ أوقية (اونساً) مثلاً ثم أضيف الى هذا الثقل عشرة دراهم أخرى فان الشعور بما أضيف من ثقل يكاد يكون معدوماً ولا يمكن ان يشعر به الانسان مالم يبلغ نحواً من عشر أوقيات . ومن هذه التجارب استخلص فيبر القانون المعروف باسمه وهو الذي يمكن التعبير عنه بما يأتي : « ان قابلية التمييز بين الاحساسات المختلفة لا تتوقف على الفروق المطلقة للمؤثرات وانما على فروقها النسبية » ولا يقتصر تطبيق هذا القانون على

الاحساس بالضغط فقط بل على الاحساس البصري والاحساس السمعي وعلى غيرها من الاحساسات

ولقد سعى جوستاف فيخنر الفيلسوف الرياضي الى تحقيق ابحاث فيبر والى افراغها في صيغة رياضية واشتقاق قوانين رياضية لنتائجها. ومما توصل اليه « ان كثافة الاحساسات تختلف اختلافاً مطرداً مع لوغارتمية الفعالية العقلية المتطابقة معها » . وقد عرف هذا القانون بالقانون النفسي الفيزياني ، وسميت الابحاث النفسية التجريبية المشتقة من ابحاث فيبر بالسيكولوجيا الفيزيائية. ونمت هذه الحركة العلمية الجديدة جامعات أوربية كثيرة ، الا أنها لم تجد تربة أخصب من تربة جامعة ليبزج حيث أسس وطلم فنط عام ١٨٧٦ أول المختبرات السيكولوجية فكان بعمله هذا الواضع لأسس السيكولوجيا التجريبية العلمية ومنذ ذلك الحين وهذا العلم الجديد آخذ في التطور السريع والتقدم المستمر فأسست المختبرات الخاصة به في اكثر جامعات المانيا والولايات المتحدة وفرنسا وحتى في جامعات بريطانيا

واحتل الباحثون السيكولوجيون الأول مقاماً وسطاً بين العلم والفلسفة فكانوا يحاولون في جميع ابحاثهم التوفيق بين الطريقة التجريبية وطريقة التأمل الباطني . وهم وان استعملوا المختبرات لتحقيق ما ابتدعوا من نظريات الا أنهم كانوا يضطرون للتعبير عن النتائج التي يتوصلون اليها بالتعبيرات النفسية القديمة . وكان أغلب هؤلاء الباحثين ثنائيين ، يؤمنون بوجود عالمين عالم العقل وعالم المادة ، ويعتقدون أن تكيف الكائن الحي بحسب محيطه لا يمكن ان يفسر تفسيراً ميكانيكيًّا ، فلعامل العقل دخل كبير في اختيار الحالة الملائمة له او العمل الذي يأتيه . وكثيراً ماصرح هؤلاء بأن السيكولوجيا العلمية هي سيكولوجيا « لا روحية » ، مع أنهم لو رجعوا الى أعماق نفوسهم لأدركوا أن الكائن الميكانيكي لا يستطيع التغلب على كثير من أمور المحيط بغير الاستعانة بالعقل وبالشعور

العلاقة بين الاعمال العقلية والاعمال الجسمية

ولكي يدرأ النفسيون عن أنفسهم هجمات الفسيولوجيين الماديين وحملات أضدادهم من الفلاسفة ابتدعوا نظريتين لشرح العلاقة بين الاعمال العقلية والاعمال الجسمية احداها نظرية التداخل (١) وتتلخص في ان العقل والمادة يؤثر أحدهما في الآخر تأثيراً متساوياً ومتبادلاً والنقد الموجه الى هذه النظرية أنها لا تتلاءم ونظرية بقاء الطاقة. كذلك لم يبرهن أحد بعد على صحة القول بأن العقل يؤثر في المادة . والنظرية الأخرى نظرية التوازي (٢) ومؤداها ان الامور الحادثة في العالم العقلي لا بد أن تكون مصحوبة بحدوث امور نظيرة لها في العالم المادي والنقد الذي يوجهه الفسيولوجيون الى هذه النظرية هو أن العلاقة بين الحوادث العقلية

---

(١) Interaction (٢) Parallelism

والحوادث المادية المتناظرة لم يبحثها أحد ولم يعين نوعها وان هناك كثيراً من الفعاليات البدنية التي لا ترافقها فعاليات عقلية . وليس هناك عمل فسيولوجي يوازيه عمل عقلي الاهمّ الا ذاك الذي يؤثر تأثيراً مباشراً في القشرة الدماغية

ونظرية التوازي تفسح المجال امام السيكولوجيين للاعتقاد بأن الشعور ليس الاَّ نوعاً من الطاقة الدافعة الى توجيه الجسم فتجعله يتكيف بحسب محيطه

وكان الباحثون الاول يعنون بدراسة مختلف حالات الشعور بطريقة الاستبطان عند ما يمرض الأفراد لبعض التجارب الخاصة . الاَّ انهم كانوا يعبرون عما كانوا يتوصلون اليه من النتائج بلغة تجمع بين الأفكار المادية والآراء المعنوية . وقد عُرف هؤلاء بالبنائيين (١) لأنهم سعوا الى تحليل احساسات الانسان تحليلاً دقيقاً . وآخر من ظلّ مؤمناً بهذه المدرسة الفكرية العلامة تشنر الاستاذ بجامعة كورنيل بالولايات المتحدة الاميركية .

أما أتباع جيمس والجيل فقد تحاشوا التطرق الى ذكر العوامل العقلية الثابتة التي كان ينادي بها البنائيون مفضلين التحدث عن الظاهرات الشعورية والمجاري التي يسلكها العقل في شعوره . وتدعو نفسها هذه الفئة من العلماء بالوظيفيين (٢) لأنهم كانوا يحتمون كل الاهتمام بمعرفة العوامل البيولوجية لفعالية الانسان وفي نظرهم ان الاعمال التي يقوم بها العقل أجدى بالبحث وبالدراسة من محتويات الشعور . ويلاحظ ان هذه الفئة من الباحثين مع عنايتها بالتأمل الباطني في ابحاثها امتازت عن اتباع المدرسة السيكولوجية القديمة بكثرة اهتمامها بالقضايا الفسيولوجية المتعلقة بالامور العقلية

ولم يغير ظهور فرويد واتباعه شيئاً من الموقف الاهمّ الا جعل الباحثين السيكولوجيين يؤمنون بتأثيرات العوامل التاملية في الفعاليات العقلية . ولم يمهد السبيل لظهور السلوكية الاَّ أولئك الذين سعوا الى تفسير افعال الحيوانات تفسيراً فسيولوجيًّا كيميائيًّا امثال بيث وفون بير وبوككول وفيرورن وجيننجز وجاك لوب وغيرهم . ولا ينكر ان ما قام به بفلوف واتباعه من تجارب وأبحاث في استكشاف طريقة الافعال المنعكسة الشرطية كان دليلاً قاطعاً على ان الشعور ليس بظاهرة سيكولوجية صرفة . وقد اهتمّ الاستاذ ولم جيمس زعيم الوظيفيين في الولايات المتحدة الاميركية باثبات تأثير العوامل الفسيولوجية في انفعالات الانسان والحيوان . وان ما سطره في رسالته « هل للشعور وجود » (٣) يكفي لاعتبار وليم جيمس من المساهمين في وضع حجر الزاوية في بناء المدرسة السلوكية . كذلك لا ينكر ما كان للنظريات الخاصة بالحركات الآلية للجسم من شأن ، تلك النظريات التي وضعها ريبو ومونستربرغ وديوي وغيرهم من أساطين علم النفس في بناء صرح هذا الاتجاه السيكولوجي الجديد . ومع ان جيننجز استعمل

(١) Structuralists (٢) Functionalists (٣) Does Consciousness Exist

كلمة « السلوك » في مواضع مختلفة في ابحاثه ورغم أن ماكدوجل حاول تعريف علم النفس تعريفاً سلوكياً ، الا ان الفضل في اطلاق تسمية «السلوكية» على هذه الابحاث الخاصة من علم النفس يرجع الى الدكتور جون . بي . واطسون استاذ علم النفس المقارن بجامعة جونز هوبكنز سابقاً وهو الذي لقب بزعيم السلوكيين

كفاح الدكتور واطسون

نشأ الدكتور واطسون نشأة علمية صرفة، وهذه النشأة هي التي جعلته لا يستسيغ نظريات علم النفس القديم ساعياً الى دراسة الظاهرات السيكولوجية بطريقة علمية موضوعية . ولقد جاهر بوجهة نظره هذه عام ١٩٠٨ في محاضرة ألقاها بجامعة ييل ضمنها بعض آرائه عن الوجهة الصحيحة التي يجب ان يتجهها علم النفس الجديد . فكان لهذه المحاضرة شأن في الدوائر العلمية لانها تركت أثر استنكار في نفوس سامعيها من اتباع المدرسة القديمة ، ومع كل ذلك فقد كانت الباعث على تعيينه أستاذ علم النفس المقارن بجامعة جونز هوبكنز . وما أن قضى في هذا المعهد بضعة أعوام حتى قذف الى العالم العلمي بقذيفته الأولى فرددت اصداءها الدوائر السيكولوجية جمعاء ولم تكن تلك القذيفة الا رسالة بل احتجاجاً صارخاً على ممثلي السيكولوجيا القديمة . وقد صرح في هذه الرسالة لأول مرة أن السيكولوجيا المؤسسة على التأمل الباطني ان هي الا مجموعة من الابحاث المضطربة التي يسيطر عليها الدين وتوجهها الفلسفة ، وهما العاملان اللذان يحولان دون احتلالها المقام الذي تحتله العلوم الطبيعية . وما الشعور الا اسم جديد لما كان يسميه الدين « روحاً » تلك التي لا محل لها في العلوم الطبيعية . ومما قاله أيضاً « أما السلوكيون فلا يريدون لعلم النفس الا أن يكون ناحية موضوعية من نواحي العلوم الطبيعية تستهدف البحث عن سلوك الكائن الحي ، دون أن يكون للتأمل الباطني دخل في ذلك ، دون أن تفسر النتائج التي يتوصل اليها باحثوه تفسيراً معتمداً على التعبيرات القديمة المستمدة من الشعور . ومهمة السلوكي رسم صورة موحدة للاجابة الحيوانية على أن لا يضع حداً فاصلاً بين الحيوان والانسان »

وما ان نشر هذا البحث واطلع عليه السيكولوجيون حتى ثارت ثائرتهم فتوالت على واطسون الهجمات من كل حدب وصوب . وقامت طائفة من السيكولوجيين محاولة التخفيف من شدة الموقف وساعية الى التوفيق بين الوجهتين المتباينتين ، فأبدى الاستاذ انجل من جامعة شيكاغو عطفه على الثورة الجديدة القائمة ضد علم النفس المؤسس على التأمل الباطني وصرح « بأنه ليس من المتعذر التعبير عن حياتنا العقلية بأساليب موضوعية سلوكية . ومع ذلك ليس من الصواب في شيء نبذ التأمل الباطني في البحث . فثمة أحوال لا يمكن الكشف عن أسرارها بغير

هذه الطريقة . فالاجدر أن تهذب فتحدد ، وأن يدخل عليها بعض التغيير اللازم ولكن ليس من المنطق تركه أداة للبحث صالحة ما لم نحصل على ما يقوم مقامها . ويجب أن لا يعزب عن ذهننا أن الاسلوب الموضوعي في البحث لا بدّ أن يركن الى الاستبطان سواء كان ذلك بطرق مباشرة أم غير مباشرة »

ومن الانتقادات الموجهة الى البحث الجديد أن السلوكية تستطيع البحث عن الاجابة الحسية بحثاً شاملاً ، ولكنها عاجزة عن البحث عن الفعاليات الخاصة الكامنة في النفس كالتفكير والانفعال ، فهذه أمور بعيدة عن متناول ايدي السلوكية ، ويتعذر بحثها الا بالتأمل الباطني . وكان جواب واطسون على هذه الانتقادات رسالة التي نشرها في أواخر عام ١٩١٣ والتي كان موضوعها « الصور والوجدان في السلوك »[1] وفي هذه الرسالة حاول الاستدلال على أن الصور العقلية والميول الخاصة التي هي أهم عوامل الفكر والانفعال ، أشكال خاصة للسلوك فما الفكر الا النطق الداخلي ، وما الانفعالات الا تغيرات طبيعية في الجهاز التناسلي . وليس من الغرابة ان يثير هذا التوجيه بين اتباع المذهب القديم ضجة صاخبة وانفعالاً شديداً ، وهو ما حمل واطسون على الانصراف الى الرد على من سعى للقضاء على سلوكيته . فنشر في عام ١٩١٤ أول كتبه وسماه « السلوك : مقدمة في علم النفس المقارن »[2] . وقد ضمن الفصل الأول من كتابه هذا خلاصة للرسالتين السالفتي الذكر واشتملت الفصول الاخرى على شرح واف للحالة الراهنة لعلم النفس المقارن . واودعها ايضاً عدداً من المقترحات لتوجيه السلوكية عندما يتقدم البحث التجريبي ، وكذلك طائفة من التنبؤات عن التطور الذي سيطرأ على هذا العلم الجديد

وقد ظهر في الأعوام الثلاثة التالية عدد ليس بالقليل من الكتب والرسائل والمباحث التجريبية الخاصة بالسلوكية . وفي طليعة هذه الكتب كتاب واطسون « علم النفس في نظر سلوكي »[3] ولهذا الكتاب منزلة عظيمة في تطور المذهب السلوكي ذلك لأن واطسون حاول فيه التعبير عن الحقائق السيكولوجية الخاصة بالانسان بلغة موضوعية وبأسلوب علمي صرف . وفي الطبعة الثانية لهذا الكتاب التي ظهرت عام ١٩٢٤ وفق واطسون الى إظهار السلوكية بشكل لا يقبل الجدل ولا يسهل انتقاده ولم يستطب واطسون بعد هذا الاستمرار في التدريس بجامعة جون هوبكنز ففضل الانصراف إلى البحث العلمي وتوطيد دعائم النظرية التي اخرجها للعالم

(١) Image and Affection in Behaviour

(٢) Behaviour : An Introduction to Comparative Psychology

(٣) Psychology from the Standponint of a Behaviorist

نشوء المعتقدات

وقد صرح واطسون في كتابه هذا « ان الروح فكرة انحدرت الى الانسان الحديث من أسلافه الأول الذين كانوا يستسلمون الى البطالة والكسل ويتصرفون الى التخيل والتصور. فقد وجد من بين الجماعات البدائية نفر ممن لم يرغب في الكد والتعب فأعرض عن الصيد وعمل الاسلحة الصوانية واستخراج الجذور من الارض مستسلماً الى التأمل والملاحظة. ومما استوقف نظر هذا النفر من الناس ان الاصوات العالية الناجمة عن انكسار جذع شجرة او عن رعد قاصف او عن اي شيء يحدث ضجة وصريراً تبعث في نفوس الافراد الهلع والرعب فيتركون العمل الذي بين ايديهم مولين الادبار الى حيث لا تجد تلك الاصوات سبيلاً الى آذانهم. وسرعان ما ابتكر هذا النفر من الناس — وقد حبته الطبيعة قوة في الملاحظة وحدة في الذكاء — وسائل لاثارة مثل تلك الاضطرابات في نفوس الأفراد كلما وجدوا الى ذلك سبيلاً. فاستطاعوا بذلك التسلط على سلوك الناس وتوجيه تصرفهم توجيهاً يدر النفع المادي عليهم. وما زلنا، وقد قطعنا هذا الشوط البعيد في التقدم، نرى مثل هذه الأمور تقع بين ظهرانينا. فالخدم يكيفون خلق الاطفال الناشئين ويميتون في نفوسهم الشجاعة عند ما يخيفونهم بالشياطين السارية في الظلمة الحالكة وبالقوى الخفية في الرعد»

***

وتوسل هذا النفر الى التمويه على عقول الناس وللسيطرة على تفكيرهم بمختلف الوسائل، فقد توسلوا بالرموز والطقوس، بالشعوذات والوصفات، بتفسير الاحلام وبالتنبؤات. واستفحل امرهم حتى صار الناس يخشون بأسهم ويظهرون لهم من ضروب الطاعة والاحترام ما لا يمكن وصفه. وكان من نتائج ذلك ان تجمع حول كل واحد من اولئك عدد من الناس يمتثلون لأوامره ويعملون لتحقيق مطالبه. فتكونت بهذه الكيفية المعتقدات المختلفة وأسست المعابد والكنائس وغيرها من المؤسسات التي يراد بها التسلط على نفسيات الناس. وقد هيمن على تلك المؤسسات اناس عرفوا بالمرشدين والواعظين والمعلمين، وكانوا يعلمون الناس تعاليم فلسفية ادت الى الاعتقاد بأن الانسان مؤلف من قسمين الروح والجسد. وظلّ هذا الاعتقاد سائداً بين علماء النفس لا يجرؤ أحد على مناقشته او الشك فيه الى ان قام الدكتور واطسون صارخاً « ومَنْ من الناس يستطيع الادعاء بلمسه الروح او بتحضيرها في انبوبة اختبار او كانت له علاقة بها كعلاقته بالاشياء المادية الأخرى؟ ومع كل ذلك لا يجسر احد على الشك بوجودها خوفاً من ان يتهم بالكفر والالحاد الأمر الذي أدى بالكثيرين من المفكرين الأحرار الى الموت

الخلاصة

والسلوكي لا يؤمن بوجود روح او عقل او شعور ، وهو لا يستعمل للاستدلال على معرفته للافراد مصطلحات ذاتية مثل الاحساس والادراك والانفعال والدوافع والفكر وغيرها من المصطلحات التي نجدها في كتب علم النفس القديم . وكل ما يقتصر عليه دراسته سلوك الكائن الحي دراسة موضوعية بمعرفة العوامل المؤثرة فيه وادراك الاستجابة الناجمة عن ذلك التأثير . ويقصد بالمؤثرات الاشياء المادية الموجودة في المحيط والتغيرات الناجمة عن ظروف فسيولوجية طارئة على الانسجة كالتغير الذي يطرأ على الحيوان من جراء الحيلولة دون تنفيذ فعاليته التناسلية ، او تناوله ما يقتات به ، وبناء الملجأ الذي يلتجيء اليه في ساعات فراغه . ويعني بالاستجابة مجموعة الفعاليات المنظمة التي تظهر على الحيوان عند ما يتأثر بمؤثر ما كالتفاته نحو النور وفزعه من الصوت العالي . ويعني بالاستجابة ايضاً ما يقوم به الفرد من الاعمال المنظمة العليا كبنائه لناطحات السحب وقيامه بالمشروعات الهندسية الكبرى ، وتأليفه الكتب وغيرها من الاعمال التي تعود عليه وعلى ابناء نوعه بالفائدة المادية

ولا يمكن ان يكون علم النفس ذا فائدة للبشرية مالم يكن الوسيلة لمعرفة الحقائق الخاصة بحياة الانسان . وتتعذر معرفة هذه الحقائق الا بدراسة الافراد في مختلف ادوار حياتهم دراسة تجريبية موضوعية كما تدرس حياة الحيوانات بالمختبرات . وعند ما يتم لنا ذلك نكون قد انتشلنا البشرية من الادران المحيطة بها . ويقول واطسون في هذا الصدد « من العبث ان يؤتى بالاطفال الى هذا العالم ان لم نعلم الآباء كيفية التسلط على سلوك الطفل في اعوامه الاولى لتوجيهه في حياته الاجتماعية توجيهاً صالحاً . اما الزعم بان البشرية توصلت الى معرفة اصول تربية اطفالها تربية اجتماعية صحيحة فمردود من جميع الوجوه والدليل على ذلك كثرة الذين يشذون بسلوكهم وباتجاهاتهم عن الحياة التي تحياها الجماعات »

وقبل ان نختتم هذا البحث نود للقارىء ان ينتهي معنا الى ان السلوكية او هذا العلم النفسي الجديد لا يختلف عن الفسيولوجيا الا في طريقة تصنيف الحقائق التي تؤلف مادة بحثه . اما مادة العلمين فواحدة فالفسيولوجيا تهتم بالبحث عن وظائف كل قسم من اقسام جسم الحيوان كالبحث عن وظيفة الجهاز الهضمي وعن عمل جهاز الدوران وفعالية الجهاز الحركي وميكانيكية الجهاز العصبي . والسلوكية وان اهتمت بالبحث عن هذه الوظائف بحثاً مستفيضاً الا انها تهتم بالدرجة الاولى في البحث عن سلوك الكائن الحي كمجموعة واحدة منذ ان يستنشق نسيم هذه الحياة حتى يستسلم الى الرقدة الأبدية

كشاف الطائرات

الحربية والاشعة التي تحت الحمراء ومعجزاتها
في الحرب والطب والعلم والصناعة وتحقيق الجرائم

لعوض جندي

نعني بهذا الكشاف جهازاً يدل على مكان الطائرات الحربية السحيقة في الجو. وقوامه الاشعة التي تحت الحمراء وهي أشعة الحرارة التي لا ترى بالعين. وقد أشيع حديثاً أنه يُظن أن بريطانيا العظمى تستعين بأجهزة حساسة من هذا الطراز لاستكشاف طائرات الاعداء[1] التي تطير في أجوائها لشن الاغارات على أهدافها. وتبعث هاتيك الاشعة الخفية محركات الطائرات أو أي جسم ساخن، فتنم الأشعة على ذلك الجسم الخفي، بوسيلة تشبهها في المجهر الكهربي[2] الذي اخترع حديثاً

ويقال ان جهازاً أميركيًّا من هذا النوع قد تمت تجربته في التمرينات الحربية التي قام بها حديثاً الجيش الاميركي الاول ولكن لم تنشر بشأنه معلومات ما

في دسمبر سنة ١٩٣٥ عرض الدكتور فلاديمير. ك. زووريكن Dr. Vladimir K. Zworykin الروسي المولد، خبير الراديو المصوَّر بشركة الراديو الاميركية، في احدى جلسات جمعية تقدم العلوم الاميركية، مرقباً تستطاع به رؤية الاشياء، التي تنعكس عنها الاشعة التي تحت الحمراء، فأثار اعجاب العلماء. ثم وصفه في حينه المستر واطسون ديفيز Watson Davis مدير دائرة نشر العلوم الاميركية ومحرر رسالة العلم الاسبوعية فقال: —

يشبه هذا الجهاز الجديد، المرقب في مظهره الخارجي، ولكنه يستجلي الاشباح بالأشعة التي تحت الحمراء، وهي الاشعة الخفية التي لا تتمكن العيون البشرية المجردة من رؤيتها

قلب هذا النظار الجديد مؤلف من غشاء رقيق من الفضة الممزوجة بمعدن السزيوم المؤكسد مرسباً على لوحة معدنية. وهذه المادة شديدة الاحساس بالضياء الذي تحت الاحمر، الذي يتفاوت طول موجته بين ٨٠٠٠ و ١٠٠٠٠ وحدة من وحدات قياس موجة الضوء المعروفة باسم مخترعها انجستروم Angstrom (وهي جزء من مائة مليون جزء من السنتمتر)

---

(١) راجع بدقة عين الضباب — في مقتطف مارس سنة ١٩٣٤ في باب الاخبار العلمية

(٢) راجع مقتطف ابريل ١٩٤١ صفحة ٣٥٧

ومتى جمعت في نقطة واحدة على هذه اللوحة صورة شبح ما ، مصوَّر بالاشعة التي تحت الحمراء ، سواء كان ذلك الشبح شبح جسم تصدر عنهُ تلك الاشعة عينها أو تنعكس عنهُ ، من المصباح الكهربائي الذي يولدها ، تولد في اللوحة مجرى من الكهربات ، وذلك في الاجزاء التي تم انارتها من الصورة . ثم يمرُّ ذلك المجرى مروراً عاجلاً في أنبوب حيث يصادف في طريقه سلسلة من الحلقات ، المشحونة بالكهربائية ، فتحنيه ، أسوة باحناء العدسة للضوء . ويسمى هذا الجزء من الجهاز بالعدسة الكهربية . فيتمُّ حينئذٍ تنسيق الصورة من مجرى الكهربات المركزة ، وإن تكن هذه الصورة خفية ، فتصيب هدفاً آخر ونعني بهِ حاجزاً مغشًّى بمادة متألقة يعمل عمل الفلوروسكوب المعتاد المستعمل في حجر الأشعة السينية في المستشفيات فيحول ذلك الحاجزَ ، الصورةَ الخفية المؤلفة من الكهربات الى صورة ضوئية جلية . ويمكن تلخيص هذه العملية في ثلاث درجات، أولاها — الاشعة التي تحت الحمراء التي تصدر عن الشيء نفسه او تنعكس عنهُ ، وثانيتها — تحويلها الى مجاري كهربات وثالثتها — تحويل تلك الكهربات مرة اخرى الى صورة ترى مضيئة ضوءًا تراه العين

وقد توقع الخبراء في ذلك الحين ، الانتفاع بهذا المنظار ، في اثناء الحرب . فالاشعة التي تحت الحمراء تتولد ليلاً ونهاراً وتخترق البخار الخفيف والضوء والضباب والدخان بسهولة . ولا يعوق سيرها ضباب ما الاَّ اذا كان كثيفاً . ومع ذلك فالضباب الخفيف ، يعرقل حركات الطائرات في أية حال

وتتولد الاشعة التي تحت الحمراء من مداخن البوارج ، ومحركات الطائرات ، والغازات الساخنة التي تنتشر من أنابيب عادم المحركات ، على شكل سحب . ويستعمل هذا الجهاز لأجل اعطاء الاشارات الخفية ، على أن يكون مبعثَ أشعتهِ التي تحت الحمراء ، مصباحٌ من المصابيح الكشافة ، ومستقبلَها ، مرقبٌ من مراقب الأشعة التي تحت الحمراء . وعلى ذلك لا يستطيع الرقيب الذي لا يزود بذلك المرقب ، الشعور بتلك الأشعة وان مرَّت بجانبهِ

***

أما المرقب الكهربي الذي عرضهُ الدكتور زووريكن في شهر ابريل من السنة الماضية ، على أعضاء الجمعية الاميركية الفلسفية ، فقوامه العدسة الكهربية . واذا كان المجهر المألوف ، يكبر الاشباح تكبيراً محدوداً لأنهُ لا يوضح شيئاً تكون دقائقه أصغر من أمواج الضوء ، التي تبينه ، فان الكهربات وهي أدق من موجات الضوء تستطيع اذا ركزت في موضع معين ان تكبر المرئيات الى ٣٠٠٠٠ ضعف أو أكثر . اه — هذا ما روته مجلة خلاصة العلم الاميركية

فوائد جديدة للأشعة التي تحت الاحمر

وقالت مجلة الميكانيكا العامة في جزئها الصادر في دسمبر سنة ١٩٤٠ ما تأتي ترجمته، تحت عنوان المنافع الجمة للاشعة التي تحت الحمراء : —

اذا انتشر الضياء الابيض انتشاراً تاماً ، بمنشور زجاجي ، تمكن المرء من رؤية طيف النور وهو خطه المؤلف من الوانه السبعة وهي البنفسجي — النيلي الازرق — الاخضر — الاصفر — البرتقالي — الاحمر ويضاف اليها الاحمر القاتم . وهذه الالوان مجتمعة ، تمثل النور وان اختلفت اطوال أمواجها وهي تشاهد على تفاوت في قوس قزح . ولكن العين البشرية تعجز عن رؤية الاشعة الخفية التي في طرفي ذلك الطيف ، كما تعجز عن مشاهدتها في طرفي قوس قزح . وقد تبين ارباب العلم والصناعة أن هاتيك الأشعة غير المرئية تنفعهم كل النفع فالخط المعروف باسم الاشعة التي فوق البنفسجية يمتد وراء الأشعة البنفسجية التي في طيف النور . ويمتد الخط الآخر المشهور باسم الأشعة التي تحت الحمراء ، وراء الاشعة الحمراء . والاشعة التي فوق البنفسجية ، قصيرة الامواج . أما الاشعة التي تحت الحمراء ، فأمواجها أطول منها في الحمراء نفسها . وعند ما تزداد أطوال الامواج في مجموعة الاشعة التي تحت الحمراء تندمج في أمواج الحرارة ثم في الامواج المغنطيسية الكهربائية (الكهرطيسية)

وللاشعة التي تحت الحمراء منافع خطيرة في ميدان الصناعة . فقد اخترعت مصابيح للتجفيف تولد قوة فعالة من الاشعة التي تحت الحمراء أي أشعة الحرارة بدلاً من الضوء المرئي . والشعاع الذي يصدر منها يجفف الاشياء المصقولة ويحمصها على اختلاف انواعها ، فيجفف الصور الفوتوغرافية المطبوعة ، والمواد الغذائية ومصنوعات الورق وما شاكلها ، وهذا التجفيف أسرع وأرخص منه بأجهزة التجفيف المعروفة . وتستخدم في صناعة السيارات طائفة كبيرة من هذه المصابيح ، ففي مصانع فورد وحدها اكثر من عشرة آلاف مصباح من هذا النوع ، مستعملة في عمليات شتى ، منها تجفيف طبقات التبطين من الدهانات الزيتية ، والطبقات الاولى التي تصنع من المينا ، والطبقات الختامية من المينا ثم مينا الترقيع . وفي مصنع فورد بريفر روج River Rouge بأميركا ، نفق طوله تسعون قدماً ، يحتوي على ٤٨٠٠ مصباح للتجفيف كل منها قوته ٢٦٠ وط ، يستطاع بها تجفيف ، طبقة الدهان ، الزيتي التي تدهن بها اجسام السيارات في زمن يتفاوت بين عشر دقائق وربع ساعة ، بينما كانت عملية التجفيف بالطرق القديمة تستغرق ساعة كاملة

وتجرب الآن تجارب عظيمة لاختراع جهاز قوامه الاشعة التي تحت الحمراء لتعجيل تجفيف مداد الطبع . وهذا من شأنه ، زيادة انتاج الجرائد والمجلات . وقد تم في خلال السعي لتذليل احدى العقبات الكأداء التي تعترض تعجيل الطبع ، اختراع أنواع الحبر او المداد الطيار التي يثبت

معظمها بالتبخر فكان ذلك مانعاً لنفوذ المداد من الصفحة الاولى الى التالية واجتناب تلويث الورق ولاسيما في اثناء الطبع بالامداد الملونة بالالوان المختلفة . ومن المنافع الصناعية الاخرى ، تسخين ألواح الخشب الصناعي المشبعة بالاسمنت ، تسهيلاً لحنيها طبقاً للشكل المطلوب ، اينما كان ويتسنى حَنْيُ هذه المادة بتسخينها بحرارة يتفاوت ارتفاعها بين ١٥٠ درجة و ١٨٠ درجة بمقياس فرنهيت . وتتيسر تأدية هذا العمل طبق المرام بالأشعة التي تحت الحمراء

وتستعمل هذه الأشعة في ميدان الطب ، استعمالاً ناجحاً كذلك ، فتدخل في علاج الجلد عند ترقيعه عقب اصابته بالجروح . وفي علاج الامراض والرضوض والحروق ، وفي اندمال الجروح عقب العمليات ، وفي توليد الحرارة التي يحتاج اليها لتليين السيقان والسواعد المصابة . وفي العلاج عقب التعرُّض لكسر مركب مصحوب باصابة العصب الزندي ، هذا الى استعمالها في العلاجات الموضعية اي وضعها وضعاً مباشراً على العضو المصاب إذ ان الحرارة تعدُّ من أنجع وسائل العلاج عندما يشير بها الطبيب

واذا استعملت هذه الأشعة في التصوير الضوئي (الفوتوغرافيا) مدَّت نظر الآلة المصورة ، مدًّا يفوق حدود البصر البشري ، فترى وتصوِّر بها اشياء لم تكن رؤيتها او تصويرها متاحاً من قبل ، وأوجدت سجلاًّ نفيساً وصوراً فوتوغرافية فنية يستحيل احرازها بأية وسيلة من الوسائل الاخرى ، وفي وسع كل من لديه آلة للتصوير الشمسي التقاط صور مفيدة فاخرة بالأشعة التي تحت الحمراء إذ يوجد فيلم لكل طراز من هاتيك الآلات التي يقتنيها هواة التصوير . وكل ما يحتاج اليه في هذه الحالة شراء مرشح من طراز A خال من الجيلاتين لا يزيد ثمنهُ (في اميركا) على بضع مليمات

ويتوقف نفع التصوير بالاشعة التي تحت الحمراء على ان شعاعها والضوء كثيراً ما ينعكسان وينقلان عكساً ونقلاً مختلفين الواحد عن الآخر كل الاختلاف ، عن الاجسام المألوفة . فاليخضور الذي في الاوراق الخضر يمتص مقداراً كبيراً في المائة من الشعاع الظاهر الذي يسقط عليه ولكنهُ لا يمتص الاشعة الخفية التي تحت الحمراء فتنعكس انعكاساً يكاد يكون كليًّا عن نسيج الورقة ولذلك يسجل ذلك الانعكاس بالالواح والشرُط التي تحس بتلك الاشعة . وكثير من الاصباغ الزاهية الالوان ، اذا نظرنا اليها بالعيون المجرَّدة ، لا تمتص الاشعة التي تحت الحمراء ولذلك تسجل بيضاً . والجلد البشري شفاف قليلاً تجاه هذه الاشعة الخفية فتفيد احياناً صوره التي تلتقط بها ، في الطب ، ذلك لتمييز الحالات الشاذة التي تستقر تحت سطح الجلد مباشرة

وقد نجحت الصور التي لقطت بهذه الاشعة في أساليب البحث عن الاجرام والمجرمين ، وفي تصوير الأجسام الدقيقة بالمجهر ، وفي علمي النبات والكائنات الحية المتحجرة المنقرضة

الآن . وهو العلم الذي يطلق عليه ايضاً اسم بالينتولوجيا أي الآثار المتحجرة ، وفي غيرها من الميادين العلمية

ويغلب عادةً على صور مناظر الارض التي تصور بالاشعة التي تحت الحمراء اسوداد الجو فيها ، وتظهر فيها السحب والثلج بيضاً ، والظلال وارفة كل الورف ، والحشائش وأوراق الأشجار خفيفة جداً كما لو كانت مغطاة بالثلج . بيد أن اوراق النباتات الدائمة الاخضرار تبدو للناظر في الصورة سوداء لان الاوراق الدائمة الاخضرار لا تعكس قدراً يستحق الذكر من الاشعة التي تحت الحمراء . والصور الفوتوغرافية التي تلتقط في الخلاء في وضح النهار ، بالاشعة التي تحت الحمراء ثم تُطبع بلونٍ أقتم قليلاً من لونها الطبيعي تظهر للرائي كأنها أخذت في ضوء القمر . وأبرز الأشياء في ذلك النوع من التصوير الفوتوغرافي ، اختراق الضباب الجوي ، بآلة التصوير اذ الأشياء الخفية عن العيون البشرية يمكن تصويرها بالاشعة التي تحت الحمراء ، تصويراً جيداً واضحاً برقوقٍ او ألواح حساسة . وقد تم على ذلك الاسلوب ، التقاط بعض صور رائعة للمدن والجبال على بعد خمسين ميلاً او اكثر

ومن حيث ان الاشعة التي تحت الحمراء خفية ، فيتسنى بها التصوير الفوتوغرافي في الظلام الحالك فيمكن عمل صور فوتوغرافية للاجسام الساخنة مثل المكاوي الحامية ، وذلك باستعمال الاشعة الخفية التي تحت الحمراء التي تنبعث من تلك الاجسام . ولهذا الضرب من التصوير الفوتوغرافي ، منفعة عظيمة في دراسة توزيع درجة حرارة الاجسام الساخنة ، مثل سبائك المعادن والقوالب الآخذة في البرودة والمواقد وأجزاء الآلات المحركة والمراجل الشديدة الضغط ، وما اليها

***

واذا اقترنت الأشعة التي تحت الحمراء بالآلة المصورة ، أتيح استعمالها في اغراض شتى في مكافحة الجرائم [1] مثل كشف التزوير وتفسير الكتابة المطموسة ، وفحص البقع وعيوب المنسوجات ، وكشف بعض أنواع الكتابات السرية واستجلاء غوامض المستندات المتفحمة ودراسة بصمات الأصابع ومحتويات الظروف المختومة وما شاكلها . واذا أضيفت الأشعة التي تحت الحمراء الى التصوير بالأشعة التي فوق البنفسجية أفادت في ميدان فحص المستندات اذ يستعان بها على استجلاء خفايا التشبيج [2] والترميج والطمس ، التي تحدث بمداد غير المداد الاصلي ، وكذلك يمكن بهذه الوسيلة قراءة الكتابة التي تكتب بمداد خفي ، واظهار عمليات

---

(١) راجع مقالنا (الكشف عن الجرائم بالاشعة) المنشور في مقتطف يناير سنة ١٩٣٢ حيث قلنا في صفحة ٦٧ من ذلك الجزء ما نصه : — وقد أصبح استخدام الاشعة على اختلافها ، احدث نبراس يهتدى به الى اقتفاء آثار المجرمين»

(٢) over writing التشبيج — تعمية الخط وترك بيانه — والتشبج ايضاً . والترميج افساد سطور بعد كتابتها

التبييض الكيميائية العمومية والكتابة المكشوطة كشطاً ميكانيكياً . والامداد والاصباغ وغيرها من المواد المختلفة التي تلوح للعيون البشرية مشابهاً بعضها لبعض ، كثيراً ما تظهر في الصور المأخوذة بالاشعة التي تحت الحمراء مختلفاً بعضها عن بعض كل الاختلاف

ويجد الاطباء في الصور المصورة بالأشعة التي تحت الحمراء خير معوان على (تشخيص) الداء اذ يتيسر بها صنع صور تبين العروق السطحية التي لا تستطيع الصور الضوئية المعتادة اظهار بعضها . كما ان الصور المصورة بتلك الأشعة لقزحية العين ، تبين دقائقها التي تختفي في الصور المألوفة

ولهذه الأشعة فائدة عظمى في علم امراض النباتات وطبيعتها (الباثولوجيا النباتية) اذ تساعد على فحص امراض النبات ووصفها وتعنى بها الأمراض التي تغير المادة الملونة للنبات أو مادته الخلوية . واذا سلطت الأشعة التي تحت الحمراء ، على انواع مختلفة من الخشب ، لاح للناظر اليها مبلغ شفوف كل منها ، بفضل نفوذ تلك الأشعة فيه

وقد أسفر استعمال الصور المصورة بهذه الأشعة في صناعة النسيج ، عن النجاح التام ، وذلك باظهار العيوب التي تقع في صباغة المنسوجات ونسجها ، والتلف الذي يصيب الخيوط الدقيقة . وللالواح الحساسة بالأشعة التي تحت الحمراء ، نفع في تمييز الألوان الزرق القاتمة من الخفيفة ، وفي ميدان البحث في الفنون والعلوم ولاسيما المختص منها بالصناعات منافع أخرى للاشعة التي تحت الحمراء وهي فحص بواطن الافران في أثناء اضطرام النار فيها ، وكشف الكربون في زيوت التزييت وفي فحص مسامية الصفائح القصديرية . وبمساعدة الصور التي تلتقطها هذه الاشعة ، أتيح تسجيل مئات من الخطوط الطيفية الجديدة في تحليل العناصر ، وعرفت معلومات كثيرة في تكوين الكواكب ، وطبيعة اجواء السيارات . وقد اكتشفت طائفة كبيرة من الكواكب الجديدة ، وذلك بالشعاع الذي تحت الاحمر المنبعث منها . ولهذه الأشعة منافع كثيرة في التصوير الضوئي المجهري اذ هي تميط اللثام عن دقائق التركيب الداخلي للانسجة القاتمة اللون والاجزاء المجهرية التي تفوق غيرها في الغلظ ، والنماذج التي تكون خفية في التصوير الضوئي المجهري المعتاد

وهي أصلح دليل لاثبات حقيقة الصور المرسومة بالزيت او زيفها ولاسيما الصور التي رسمها أعلام الفن القدماء ، وذلك بتصويرها بالأشعة التي تحت الحمراء مقرونة بالفحص الكيميائي وأشعة رنتجن وبالصور التي تصور بالاشعة التي فوق البنفسجية ، اذ الصبغات تختلف بعضها عن بعض في طريقة نقلها وعكسها للاشعة التي تحت الحمراء ، وإن خُيِّل للناظر انها متشابهة اللون . وبهذه الوسيلة يمكن كشف وجود المادة الملونة التي أضيفت الى الصبغة الأصلية للصور المرسومة بالزيت ، وتبيان ما يحتمل احداثه فيها من ضروب التزييف واثبات هل الصورة هي القديمة الأصلية نفسها أو نسخة جديدة لها

على هامش الحرب الدولية الحاضرة :

مصر وطريق الهند

— ٢ —

في القرن الثامن عشر

لجمال الدين الشيال

بينا في مقالنا السابق «مصر وطريق الهند في القرنين ١٦و١٧» قيمة طريق مصر والبحر الاحمر من الناحية التجارية في عهد المماليك ، وكيف كان لمرور التجارة عبر هذا الطريق بين الشرق والغرب أكبر اثر في نمو الثروة المصرية مما ساعد حكومة المماليك على ان تحيا حياتها المشهورة بالبذخ والترف ، ومما ساعدها أيضاً على ان تقف مجهوداتها الحربية دائماً على صد كل عدوان خارجي مدمر عن مصر وعن العالم الاسلامي أجمع

ثم عرضنا بعد هذا لاكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول التجارة عن الطريق المصري اليه ، ولأثر هذا التحول في الحياة الاقتصادية بمصر طيلة العهد العثماني . ثم تناولنا بالبحث المختصر أيضاً بدء العلاقات التجارية بين مصر والشرق في القرنين ١٦و١٧

وحديث اليوم تفصيل لبدء اهتمام انكلترا بطريق مصر والبحر الاحمر في القرن الثامن عشر ومنهُ ندرك كيف كان الانكليز عملين عندما أعرضوا عن الدولة العثمانية وحاولوا الاتفاق مع أمراء المماليك مباشرةً لتيسير نقل التجارة والرسائل عبر مصر والبحر الاحمر الى الهند والشرق الاقصى وبالعكس

﴿ اهتمام انكلترا بطريق مصر والبحر الاحمر في القرن ١٨ ﴾ لم يكد ينتصف القرن الثامن عشر حتى تتابعت الحوادث تتابعاً غير منتظر ، وغيرت بذلك من مركز مصر ، ومن الاتجاهات التي كانت تسيطر على توجيه الطرق التجارية نحو الشرق

ففي سنة ١٧٦٦ استطاع علي بك الكبير القبض على نواصي الأمور فقتل بعض منافسيه ونفى البعض الآخر وشيّع الباشا الى القسطنطينية ، ومنع الجزية عن السلطان ، وضرب السكة باسمه واتخذ لنفسه لقب سلطان مصر ، وبذلك استطاع علي بك بضربة واحدة قوية ان يخلق من مصر دولة مستقلة

ولكنه لم يتمتع بهذا الاستقلال طويلاً فقد قتلته يد أثيمة ، بعد أن ضرب المثل الأعلى لأنداده من المماليك ، ولهذا فان مصر قضت الربع الأخير من هذا القرن كالرجل المضطرب قلقة لا تستقر ، ثائرة لا تهدأ ، وبدت في فترات مختلفة وكأن زمامها قد أفلت من يد السلطان العثماني (١)

وفي نفس الوقت كانت تركيا تعاني أزمة دولية خطيرة ، فقد كانت في حرب مع الروسيا والنمسا مجتمعتين، فمن اليسير اذن أن نستنتج أن هذا الاضطراب الداخلي في مصر وهذه الحرب المشتعلة في أوربا بين تركيا وجارتيها لا بد وأن يسترعيا أنظار الدولتين اللتين تهمان بشؤون الدولة العثمانية ، وبشؤون الشرق عامة : وهما فرنسا وانكلترا

أما فرنسا فقد كانت تعتقد تمام الاعتقاد منذ ذلك الوقت أن حين الدولة العثمانية قد حان وأنه من الواجب عليها أن تسرع فتقتطع لنفسها نصيباً من التركة ، ولكن نصيبها مصر أغلى درة في التاج العثماني ، والطريق الى الهند والى الشرق الأقصى

أما انكلترا فقد اتخذ اهتمامها بمصر شكلاً جد مختلف ، فقد حاولت قبل هذا محاولات للوصول الى الهند عن طريق البحر الأحمر ، لم تسفر عن نجاح وها هي ذي ترى الآن بكوات مصر يكادون يستقلون بالأمر فيها

إذن قد زال الخطر التركي الذي كان يمنعها من استعمال هذا الطريق ، واذن فلا مانع من أن تتصل انكلترا ببكوات مصر لتتفق معهم اتفاقاً يمكنها من الحصول على بغيتها

من هذا نتبين أنه كانت هناك وسيلتان لانشاء نوع من الصلة بين أوربا والهند عن طريق مصر : إحداهما بالتقرب الى الباب العالي صاحب السلطة الشرعية والنفوذ الأسمي على مصر ، والأخرى بالتقرب الى السلطة المحلية ، سلطة البكوات ، الذين يديرون شؤون هذا القطر . أما فرنسا فكانت سياستها التقليدية تقضي عليها منذ أيام فرنسوى وسليمان بالاتصال بالباب العالي مباشرة

أما انكلترا فقد فضلت الوسيلة الثانية ، وبدأت تسعى لدى المماليك ، وأصبح لمصر بالتالي اعتبار هام في توجيه السياسة الانكليزية الخارجية منذ ذلك الحين

﴿ جيمس بروس يعقد اتفاقية تجارية مع مماليك مصر سنة ١٧٧٥ م ﴾ ولكن سرعان ما تغيرت الاحوال السياسية في مصر والحجاز ، فقد ثار العرب بالحاميات المصرية في مكة وجدة وطردوها من هاتين المدينتين ، كما ثار بعلي بك في مصر احد قواده حتى ألجأه الى الفرار إلى

---

(١) Charles Roux, L'Angleterre, l'Isthme de Suez, et l'Egypte. pp. 20-21

سوريا ، وبذلك أصبح اعتلاء ابي الذهب العرش يهدد التجارة التي كادت تصل الى مصر عن طريق البحر الأحمر

وفي هذا الحين — يناير سنة ١٧٧٣ — وصل الى القاهرة جيمس بروس James Bruce بعد ان درس الصعاب والأخطار التي صادفته في طريق عودته من جدة ، واستطاع بلباقة ان ينال عطف الحاكم الجديد ، وان يسوي معه نظاماً دقيقاً يمكن التجارة الانكليزية من الاستمرار في طريقها ، كما استطاع بلباقة أيضاً ان يتفق مع الأمير المملوكي على تخفيض النسبة المئوية التي كانت تدفع كرسوم جمركية على التجارة الانكليزية من ١٤٪ الى ٨٪

ولم يكد بروس ينتهي الى هذا الاتفاق حتى أرسل نبأه الى القائدين «ثورنهل» و «بريس» Thornhill and Price وأرفق بخطابه صورة من الفرمان الذي أصدره أبو الذهب لتأمين التجار الانكليز، وأرسل كذلك صوراً أخرى من هذا الفرمان الى حكام بنغال وبمباي. وحسب بروس أنه بهذا قد نجح في مهمته فترك مقاليد الأمور في يد القنصل البندقي ، واتخذ طريقه الى وطنه كي يعلن لحكومته نبأ هذا النجاح الباهر

ولكن بروس لم يلقَ في وطنه النجاح الذي لقيهُ في مصر . بل لقد أظهرت الحكومة الانكليزية القائمة حينذاك عداءها لهذا المشروع، وذلك لأنها رأت في تحويل التجارة الانكليزية الى طريق السويس ضربةً قاضية على الاحتكار الذي تتمتع به شركة الهند الشرقية ، كما رأت أيضاً أن التجارة بمرورها عن هذا الطريق ستكون مهددة بالأخطار لعداء الحكومة العثمانية للفكرة في حدّ ذاتها

أما التجار الانكليز في الهند فسرعان ما رحبوا بهذه المعاهدة الجديدة ، وسرعان ما وصلت سفنهم الى مدينة السويس لتفريغ ما تحمل من بضائع الشرق. وأرسلت هذه البضائع الى القاهرة ومنها إلى الاسكندرية ، ومن الاسكندرية حملتها إلى اوربا بعض السفن التي كانت تفد إلى هذا الثغر بين الحين والحين، ووصلت إلى انكلترا متبعة الطريق الذي كان يصل بين تريستا Trieste وثغور انكلترا (١)

وأخذت السفن الانكليزية خلال الثلاث او الأربع سنوات التالية لمعاهدة سنة ١٧٧٥ تفد إلى السويس من الهند والى الاسكندرية من انكلترا في نفس الوقت ، وأدرك التجار الفوائد الجمة التي تعود عليهم من اتباع هذا الطريق ، ولكنهم ادركوا كذلك ان هناك بعض الصعوبات التي يجب عليهم العمل على تذليلها . هذه الصعوبات كانت تتلخص فيما يلي :

(١) Charles Boux Op. Cit : p. 52

١ — الرياح الموسمية الهابة على المحيط الهندي ، ٢ — ثغور البحر الأحمر الصخرية ، ٣ — الطريق الصحراوي بين السويس والقاهرة

ولكن هذه الصعوبات مجتمعة لم تثن عزم التجار الوافدين من الهند ، كذلك لم يثن عزمهم احتجاج الباب العالي على اتفاق ١٧٧٥ ، واستمرت العلاقات على أحسن ما تكون بينهم وبين بكوات القاهرة

﴿ التاجر بلدوين يحاول أتمام مجهود بروس ﴾ ظهر في ذلك الحين في أفق هذه العلاقات تاجر انكليزي آخر أخذ على عاتقه إتمام المهمة التي بدأها Bruce . كان هذا الرجل واسمه (G. Baldwin) تاجراً من النوع المخاطر الكثير التجارب، وقد اشتغل بالتجارة مع الشرق سنة ١٧٦٠ ، واستطاع بثاقب فكره أن يدرك المزايا الجليلة التي يمكن استغلالها إذا نظمت طرق التجارة المارة بمصر

رأى بلدوين أن مصر خالية من أي فرد يمثل التجار الانكليز تمثيلاً رسمياً أو غير رسمي، فسعى لدى الحكومة الانكليزية لسد هذا النقص واستطاع أن يحصل أولاً على موافقة شركة الهند الشرقية والاعتراف به كممثل لها في مصر ، وذلك لأن شركة الهند كانت لا تزال تتمتع باحتكار التجارة في الشرق الأدنى تحت رعاية الحكومة الانكليزية

اعترفت شركة الهند بلدوين كوكيل لها في مصر على أن تدفع له أجراً معلوماً ، ومبلغاً خاصاً عن كل ملف من ملفات المراسلات يمر خلال مصر سالماً ، وبذل بلدوين كل ما في جعبته من جهد في السنتين التاليتين لاختصار المدة اللازمة لتبادل المراسلات بين لندن والهند ، وقد نجح في هذه المحاولة نجاحاً باهراً بحيث أصبحت السفن الواردة إلى السويس سنة ١٧٧٧ لا تكاد تفرغ حمولتها ، وتأخذ أهبتها للعودة الى الهند حتى تكون الرسائل الخاصة بلندن قد وصلتها وأرسلت الرد عليها فتحمله هذه السفن معها وهي عائدة ، وبحيث أصبحت السلطات العليا في انكلترا والهند تعتمد على هذا الطريق اعتماداً كلياً في كل مراسلاتها الهامة ، وبحيث أصبحت الرسائل التي تعنون بأنها « وصلت بالطريق البري » تثير اهتمام ذوي الشأن وعنايتهم

﴿ العقبات تعترض بلدوين ﴾ ورغم هذا النجاح كانت لا تزال هناك في سبيل استعمال هذا الطريق عقبات كأدوات بينها بلدوين في قوله :

« بدأ الترك — الذين لزموا الصمت حتى هذا الوقت — الشكوى ورغب رئيس الجمارك في اقتسام الأتاوة التي تدفع ، كما اشتكى شريف مكة من أن ثغر جدة قد يهجر ، واشتكى مدرو

شركة الهند الشرقية لأن تجارتهم ستتحمل خسائر فادحة ، كما أن الشركة التركية واستغاثت لأنها ستتحطم» [١]

فرح مديرو شركة الهند الشرقية أول أمرهم لأنهم حسبوا ان هذا الطريق سيكون وسيلة جديدة للاتصال بين الهند وانكلترا ، ولكنهم سرعان ما اكتشفوا أن هذا الطريق باهظ النفقات ان لم تتداركه يد الاصلاح ، كذلك أدركوا أن شركة الليفانت قد تتقدم لحمل البضائع الشرقية التي تفد على مصر من كل حدب وصوب فتحملها الى انحاء العالم الأوربي ، وتكون بذلك منافساً خطيراً ، وفي نفس الوقت أرسل القنصل الانكليزي في القسطنطينية (واسمه هايس Hayes) الى حكومته ينبئها بأن الحكومة العثمانية قد اعتزمت عزماً أكيداً أن تقضي على التجارة المارة عن طريق البحر الأحمر . ووافق هذا النبأ الرغبة الانكليزية فأرسلت الحكومة في الحال الى تجارها في الهند تأمرهم بالاقلاع عن استعمال هذا الطريق ، كذلك أرسل الباب العالي للباشا في القاهرة يأمره بمطاردة هذه السفن وألاّ يسمح لاحداها بتفريغ بضاعتها في مصر

كان بلدوين قد بذل كل ما في وسعه لانجاح هذا المشروع ، ولكن المعارضة واتته من كل حدب وصوب : من حكومته في لندن ، ومن الدولة العثمانية ، ومن شركة الهند الشرقية . وقد حاول بلدوين التغلب على هذه الصعاب ولكن اضطراب الحالة الداخلية في مصر بموت أبي الذهب سنة ١٧٧٦ زاد في حرج مركزه

وصل الى البلاط العثماني في ذلك الوقت القنصل الجديد انسلي Ainslie . وكان البكوات المماليك قد رفعوا الرسوم التي تحصل على البضائع التي تفرغ على أرض مصر الى ٢٠٪ فذعر التجار . وذعر بلدوين ، وطلب التجار الى حكومة السلطان ان تنصفهم من هذا الاجحاف كما طلبوا الرجوع الى معاهدة سنة ١٧٧٥

ولكن انسلي — للعداء الشخصي بينه وبين بلدوين — لم يؤيد هذا الطلب لدى حكومة الباب العالي بل أرسل تقريره الى الحكومة الانكليزية يبلغها رغبة الحكومة العثمانية الشديدة ان تمنع السفن من المرور في مياه البحر الاحمر والاتصال بموانيه — ماعدا ثغري جدة وموخا — لأنها تعتبر أن البحر الاحمر كطريق الى مكة والمدينة يجب أن يستمر حرماً آمناً لا حق لأية سفينة مسيحية بالمرور فيه

ونتيجة لهذا الخطاب أرسلت الحكومة الانكليزية أوامرها المشددة الى حاكم البنغال والى بلدوين تلزمهما تنفيذ هذه الرغبة [للبحث بقية]

(١) Hoskins, The British Routes to India, p.p. 11,12.

جزيرة كريت

وأصول العمران الاوربي

للسر أرثر أفانس

إن عمراننا الحديث مبنيٌّ على عمران العصر الظراني الحديث الذي استقى من معين وادي النيل ووادي الفرات . ولقد كان العلماء يحسبون ان العمران اليوناني نشأ دفعة واحدة كما كان القدماء يزعمون ان أثينا ولدت من رأس المشتري وكانوا يقولون ان ما اقتبسهُ العمران اليوناني من المشرق حديث او مقصور على شيء استعارهُ كالحروف الهجائية وبعض العبارات والمقاييس وكانوا يستثنون مصر الى عصر الاسكندر الاَّ ان المكتشفات الحديثة أوضحت ان نشوء العمران اليوناني لم يكن شيئاً قائماً برأسهِ إذ قد ثبت ان بلاد اليونان اتصلت بمراكز العمران القديمة شرقاً وجنوباً باقتباسها لعمران كريت السابق لعصر التاريخ وبالدرجة السامية التي بلغتها في كل الصناعات والفنون . فان جزيرة كريت وهي حلقة متوسطة بين ثلاث قارَّات كانت بحكم الوضع الجغرافي مهد العمران الأوربي الحديث .والعمران الذي دخلها من هذه القارات وجد فيها عمراناً قديماً جدًّا كما يستدلُّ من بعض الدلائل الجيولوجية فان تل غنوسُس الذي وجدت فيهِ آثار العمران المينوي [1] يشبه تلال العراق ومصر في كونهِ مؤلفاً من طبقات من أنقاض المباني . وآثار العمران المينوي فيهِ لا تشغل أكثر مما ارتفاعهُ ١٩ قدماً ويعتد تاريخها الى سنة ٣٤٠٠ قبل المسيح على الأقرب . وسمك الانقاض في التل كلهِ أكثر من ٤٥ قدماً . ولم تكن تتراكم بكثرة في العصر الظراني الحديث كما كانت تتراكم بعدهُ ولكن لو فرضنا سرعة تراكمها بقي ابتداء عهدها بعيداً عنا نحو ٩٠٠٠ سنة . فليس في أوربا آثار من العصر الظراني الحديث أقدم من آثار هذا التل وهي تقسم الى ثلاثة أقسام قديمة ومتوسطة وحديثة والطبقات السفلى تدل على عمران قديم راقٍ بما وجد فيها من فؤوس الصوان المنحوتة والخزف المصقول . فعصر كريت الظراني الحديث متوغل في القدم وآثاره أقدم من آثار العصر الظراني التي وجدت في بلاد اليونان وبر الأناضول ولكن بين هذه وتلك مشابهات كثيرة تدل على أن عمران كريت كان جزءا من عمران قديم واسع النطاق شامل للقسم الجنوبي من بلاد اليونان وجزائر بحر سفيد وجانب كبير من آسيا الصغرى

(١) نسبة الى الملك مينوس الذي يقال انه ملك كريت وسن شرائعها

ومما يستحق الالتفات في العاديات القنوسسية [1] تماثيل نساء مصنوعة من الخزف كبيرات الأرداف وأيديهن على صدورهن ولهن مثيلات في بلاد الساميين وفي الآثار المصرية السابقة لعصر التاريخ وبلاد اليونان. وحيث توجد هذه التماثيل في كريت والاناضول كان الناس يعبدون الآلهة التي يحسبونها أمًّا للبشر ويقرنونها بتمثال طفل . وقد بقيت آثار هذه العادة في الأديان الحديثة . وهناك دليل آخر يدلُّ على الاتصال القديم بين كريت وآسيا الصغرى وهو الفأس المزدوجة التي صارت شعاراً لمعبد قصر غنوسس

ومن المحقق ان سكان كريت الاصليين اقتبسوا كثيراً من عمران غيرهم ولكن عمرانهم بقي راسخاً في نفوسهم وكانوا يكتفون بما يحتاجون اليه مما يجدونهُ عند غيرهم كما يفعل سكان الجزائر عادة . ولذلك كانوا يستفيدون مما يرونهُ عند الغير ولا يتقيدون به كما فعل الفينيقيون فاقتبسوا كثيراً ولكنهم لم يفقدوا استقلالهم

وأول مؤثر أثر فيهم كان من مصر أما المؤثرات الشرقية فجاءت متأخرة. وقد دلني البحث والتنقيب على ان المؤثرات العمرانية وصلت كريت من شمال أفريقية قبل ان قامت في مصر دول الفراعنة كما يستدلُّ من شكل الآنية الحجرية واختيار المواد لها حسب اختلاف ألوانها وأنواع الرموز المنقوشة عليها وشكل الختوم المشابهة لما كان يصنعهُ سكان وادي النيل الأقدمون . والمشابهات كثيرة جداً تحمل على القول بأن بعض المصريين الاقدمين هاجروا الى كريت حينما تغلب على مصر الشعب الذي منهُ الفراعنة

ثم بقي الاتصال بين مصر وكريت في عهد الفراعنة كما يستدل من وجود المصنوعات المصرية في كريت ومن اهتمام الكريتيين بتقليدها . وقد وُجد نصب مصري في دار قصر غنوسس من عهد الدول المصرية الوسطى . وأغرب من ذلك ما كان لعمران كريت من الأثر البين في عمران مصر كما تدلُّ الدلائل الكثيرة كالكؤوس المينوية الكثيرة الألوان البديعة المنظر. وأهم منها تأثير الصناعة الكريتية في الصناعة المصرية حتى في القسم الدبني منها وتأثير الديانة المصرية في الديانة الكريتية فان إلاهة الكريتيين تشبه إلاهة العالم السفلي المصرية

وقد أثبتت لي مكتشفاتي وأبحاثي الحديثة ان الاتصال كان تامًّا بين كريت ومصر في العصر المينوي واذا عرفنا ما اقتبسهُ العمران اليوناني من العمران المينوي السابق له اتضحت أهمية هذا الاتصال بمصر ولذلك لم تكن الديار المصرية منفصلة عن غيرها بل كان لها أكبر أثر في العمران الاوروبي

والعمران الراقي الذي نشأ في كريت قبل التاريخ المسيحي بأربعة آلاف سنة وضارع عمران بابل استمر الفي سنة وهو زاهر زاهر وتسلط على كل جزائر بحر سفيد وعلى جانب كبير من البلاد

(١) نسبة الى مدينة غنوسس التي كانت قصبة كريت

بحر الروم. وقد تجاسرت على تسميته بالعمران المينوي نسبةً الى الملك مينوس ملك كريت ومشترعها على ما في الاخبار المأثورة ووافقني العلماء على هذه التسمية . ويمكننا أن نقسم زمن هذا العمران الى ثلاثة عصور قديم ومتوسط وحديث وهذا التقسيم يقابل تقسيم الدول المصرية الى ثلاثة أقسام قديمة ومتوسطة وحديثة

ويضيق بي المقام عن وصف هذا العمران الاوربي الأقدم لكثرة مناحيهِ فقصور الملوك المينويين في أيام عزهم تفوق ما عاثلها من المباني المصرية والبابلية في هندستها وشمولها لما هو نافع مع ما هو جميل عظيم وفيها تحويهِ من التدابير الصحية . ومايرى في هذه القصور الرحبة الكثيرة الطبقات من المزايا يرى في سائر المساكن القديمة في الجزيرة كلها فقد كان فيها مدن كثيرة غير مدن غنوسس وكان في هذه المدن صناعات بلغت غاية الاتقان أخصها صناعة ترصيع المعادن التي اتقنها الكريتيون فلم يفقهم فيها أحد في عصر من العصور ولا في بلد من البلدان وظهرت بدائع صناعاتهم في القصور بنوع خاص فان سراديبها ومماشيها واروقتها مزدانة جدرانها بالصور والنقوش البارزة التي تمثل الحيوانات أصدق تمثيل وفي أوضاعها ونصباتها من حسن التنسيق ما لم يشهد العالم مثلهُ من قبل كما يرى في صور موقف الثيران الكبير عند باب غنوسس البحري وفي المناظر المؤلمة في قاعة القصر العظيم

والذي يرى هذه المناظر يندهش من مشابهتها لما هو جارٍ الآن فترتيب اماكن الخدم وقيام السلالم بعضها فوق بعض واختيار الاماكن الامامية في المشاهد العمومية للنساء وصور ثيابهنَّ المكشكشة وكفوفهنَّ وقد لبسنها بأيديهنَّ او علقنها على كراسيهنَّ وأساليبهنَّ وقت الكلام وما يظهر عليهنَّ من الغنج والدلال كل ذلك مما لو وجد في صورة من صورنا القديمة لأعجبنا بهِ اشد الاعجاب . وما من مكان وجدت فيهِ صور تمثل احوال الناس في العصور الغابرة تمثيلاً اكثر انطباقاً على الحقيقة من تمثيل قصر مينوس ولا تستثنى خرائب بمباي . ولا يقتصر الاتقان على الاشياء الكبيرة المهمة بل يتناول ايضاً الاشياء الصغيرة الطفيفة كالحمام الصغير الملاصق لغرفة الملكة ومغطسه المدهون ورقعة الداما المطروحة في الدار وقوارير الزيت الذي يدهن بهِ والخوابي التي كانت تملأ منهُ على مقربة من عرش الملك الكاهن والمقاعد التي يجلس عليها مشيرهُ والعفاريت المقدسة على جانبيهِ وكان للشعائر الدينية دخل في كل شيء وكانت القصور هياكل للعبادة والقبور مقامات للزيارة . ولعلَّ التديُّن منع المصورين والنقاشين من رسم شيء مخلّ بالآداب

وهنا امرٌ آخر في العمران المينوي لا يصحُّ اغفالهُ فانهُ لما اجتمع هذا المجمع في لفربول سنة ١٨٩٦ قلما عرفت نتائج النقب في كريت اشار فيهِ عالم مشهور بعلم العاديات في خطبة لهُ موضوعها « الانسان قبل الكتابة » الى الدرجة العليا من الحضارة التي بلغتها بلاد مسينا قبل استنباط الكتابة أما انا فأرى ان عمران مسينا مقتبس من عمران كريت وان الناس كانوا قبل

ذلك يعبرون عن افكارهم باشارات يرسمونها . ثم اننا قد رأينا في آثار كريت القديمة نوعاً من الكتابة وعرفنا درجات نشوئه وارتقائه ووجدنا كثيراً من الختوم المنقوشة والقطع من الخزف المكتوب اكثرهـا عقود لم تقرأ كتابتها حتى الآن ولكن فيها صور تدل على معنى الكتابة وفيها ما يظهر انهُ ارقام تدل على الاعداد حتى عشرة آلاف وبعض هذه العقود مختوم وترى تحت التوقيع توقيعات اخرى كأنها تزكية لهُ وهي تدل على انهُ كان في البلاد حكّام ونظام مدقق وتؤيد ما رواه الرواة عن الملك مينوس الذي يقال انهُ تناول الشريعة من الله على الجبل المقدس مثل حمورابي وموسى . واما القطع الخزفية التي وجدت في كريت في العصر المينوي الحديث فمقتبسة أصلاً من الشرق ولعلها مما اقتبسهُ الكريتيون من قبرص لما احتلوها ومن ثمَّ كثر اتصال الشرق بكريت وجاب الكريتيون منهُ المركبات واقتدوا بهِ في استعمال الختوم الاسطوانية

ولما اتسع نطاق العمران المينوي حتى بلغ سواحل فينيقية وفلسطين كما بلغ قبرص كان قد تمكن من بلاد اليونان وبلغ صقلية واسبانيا والجزائر المجاورة لها والظاهر انهُ تناول شيئاً مما استمده من بر الاناضول . وبعض اليونان الآريين اتصلوا بالعمران المينوي وهو في اوج مجده كما يستدلُّ من اشعار هوميروس فان الاسلحة التي وصفها مينوية وترس اكلس بما عليه من الصور البديعة كان مثالاً للصناعة المينوية المتقنة والقيثار الذي كان الشاعر يغني عليهِ من اختراع اهل كريت واذا التفتنا الى الشعائر الدينية وجدنا الهيا كل اليونانية مشتقة من المباني المينوية ورسوم واجهاتها القديمة مقتبسة من واجهات المباني المينوية . واقدم الالهات اليونانية مثل اورثا الاسبرطية توصف باوصاف مثل اوصاف الام المينوية

وبعض اصول هذه الحضارة القديمة بقي في بلاد اليونان وبعضها دُفن في مهده ثم أينع في السواحل والجزائر الشرقية حيث كان العمران المينوي ثم اعادهُ الفينيقيون واليونانيون الى مواطنهِ وبقي جانب كبير منهُ رغماً عما حاق بالمملكة المينوية من الخراب قبل التاريخ المسيحي باثني عشر قرناً ورغماً عما فعله الغزاة الذين هاجموها من الشمال فبنى عليهِ العمران اليوناني وأضاء مصباحهُ مرةً اخرى بالنور الذي انبعث منه في زمن سكان الكهوف الذين كانوا في العصر الظراني الاقدم

وجاء الرومان بعد ذلك فاستلموا الميراث الذي ورثهُ اليونان من كريت وبنوا عمرانهم على أسس واسعة بجعله عامًّا شاملاً

فان كانت الحضارة الاولى التي وجدت في عصر الرنة قد شملت أكثر من شعب واحد واستجمعت أصولاً مختلفة من جهات شتى فاحرِ بعمراننا الذي نشأ من العمران اليوناني الروماني ان يبلغ درجة سامية من الاتساع والارتقاء ولا ينحصر في بقاع ضيقة او يكون ملكاً خاصًّا بشعب دون آخر . ومهما تعددت الشعوب والالسنة فلسان اهل العمران واحد ومصالحهم مشتركة

فن تيمور

في آثاره القصصية

لحسن كامل الصيرفي

يعتبر الأثر القائم للقصة في الأدب العربي الحديث في مصر نتيجة للجهود التي بذلت في سني الحرب الماضية وما بعدها لخلق القصة المصرية، وهذا الأثر هو الطور الأخير لهذا الفن الجديد في الأدب العربي، وأقول الجديد لأن القصة — كفن — لم يكن لها نصيب وافر من العناية عند العرب. فلم تكن القصص تؤلف للفن ولكنها توضع للسمر على أنها نوع من التسلية، وكان القصص الديني منها يوضع كتفسير لما ورد منه في القرآن الكريم فلا خيال واسع ينطلق فيرسم عوالم شتى او يتعمق فيحيط بأسرار النفس، ولا دافع يدفع الى خلق القصة

لقد كان العرب حريصين كل الحرص على عدم الامتزاج بالشعوب الأخرى، وكانوا يعتبرون أنفسهم فوق هذه الشعوب في كل شيء فظلوا محافظين على تقاليدهم وآدابهم، ومن هنا نشأ حرصهم على حفظ الانساب حتى تعدى ذلك الى الحرص على تسلسل الأصول لخيولهم. وكان للبادية واتساع آفاقها وتنقل العربي من مكان الى مكان وراء الكلأ والمرعى أثر في انشغالهم عن القصة، كما كان اشتراكهم بالحيلولة بين المحبين اذا شاع أمر هذا الحب أثر في كبت العواطف فلم يجد هؤلاء متنفساً لهم في غير الشعر، لهذا لا نرى في قصص المجنون وغيره أثراً من آثار الفن ولا عملاً من عمل الخيال المنطلق، ولكننا نرى سرداً تافهاً وعرضاً أقرب الى الرواية التاريخية منه الى القصة. وما يسري على القصة يسري على بقية الفنون، كفن الغناء وفن البناء وفن النحت والتصوير

فلما امتد سلطان العرب على الشعوب المجاورة، ونشأ من وراء ذلك الامتزاج الجديد، ودخلت العناصر الفارسية خاصة على الأمة العربية، وبدأت حركة النقل والترجمة تأثر الأدب العربي بهذه الموجة الجديدة من الحضارة فنشأ فن الغناء والبناء ووقف الامر عند فن النحت والتصوير كما وقف بعض الوقوف عند فن القصة، اللهم إلا ما وضع بعد ذلك متأثراً بكتاب «كليلة ودمنة» ككتاب «الصادح والباغم» لابن الهبارية وكتاب «فاكهة الخلفاء» لابن عربشاه

وغيرها من هذا النوع . ولا نكاد نرى شخصية أدبية ممتازة انقطعت للقصة انقطاعها لباقي فنون الادب الأخرى . اللهمَّ الاَّ المعرّي في « رسالة الغفران » كما ان الآثار القصصية التي وضعت لسمر العامة وتسليتهم لم تكن ذات أسلوب ينبيء عن ثقافة او اطلاع فهي علاوة على أسلوبها الركيك المضطرب الدال على ما أصابها من تحوير وتسخيف على أيدي النساخين وأفواه الرواة ، محشوةٌ بالخرافات والاخبار التاريخية المشوّهة

أما المقامات التي نشأت في الادب العربي في القرن الرابع على يد بديع الزمان الهمذاني واقتفى أثره فيها الحريري ونسج على منوالها في اغراض شتى الزمخشري وابن الوردي وغيرهما والتي يعتبرها بعض الأدباء أساس القصة في الأدب العربي فهي أثر لغوي اكثر منهُ أثراً قصصيًّا إذ كان منشئوها يميلون الى الظهور فيها بالاناقة اللغوية والتلاعب بالمحسنات البديعية

ويكاد يكون كتاب « الف ليلة وليلة » هو المرجع الوحيد للقصة في العربية الذي يحمل من عناصر القصة الكثير. وهذا الكتاب قد اعتوره الفساد على أيدي النساخ ، ولكنهُ بالرغم من ذلك نال من عناية الباحثين في تاريخ القصة العربية

ولقد حاول الكثير من أدباء العربية في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي انشاء فنّ قصصي واتبعوا في ذلك طريقة المقامات فكان السجع والتزامه سبباً في عدم الالتفات الى العناصر المقوّمة للقصة . ونجح الى حدّ ما في هذا الغرض محمد المويلحي في « حديث عيسى ابن هشام » إذ استطاع ان يرسم صوراً للمجتمع المصري يكشف فيها عن عيوبه ومحاسنه

فاذا كانت حركة النقل في العصر الحديث وحركة البعوث العلمية الجديدة واتجاه الأدباء العرب الى الثقافة الغربية وغزو هذه الثقافة ميادينَ التفكير في الشرق وقيام النهضات السياسية كانت القصة لوناً من ألوان الادب الذي استطاع ان يجتذب اليه نفوس الأدباء . وكان ان اتجه البعض منهم الى درس هذا اللون من الادب والعناية به وسلوك طريقه حتى كانت الثورة المصرية والمناداة بالقومية المصرية فتنبه الادباء الى فكرة خلق القصة التي تصور الحياة المصرية الصميمة والتي تكشف عن نواحي الضعف في بيئاتنا . ومن هنا يبدأ تاريخ القصة المصرية في الأدب العربي الحديث بالوضع الذي انتهت اليه

وتاريخ القصة المصرية الحديثة هو تاريخ التيموريين : محمد ومحمود ، فلقد بدأ المرحوم محمد تيمور اتجاهه الجديد بعد عودته من أوروبا حاملاً معهُ آثار الثقافة الغربية في روحه فاقتحم المسرح وألف فيه بالعامية ، وعالج موضوعات مستخلصة من حياتنا المصرية في فن جديد امتاز بوصف مبدع وتحليل دقيق وأسلوب جذاب ، ومارس كتابة القصة فاستحدث طريقة تكاد تكون غير مألوفة في أدبنا في ذلك الوقت وكان أدبهُ مبتكراً مادتهُ الحياة المصرية والنفس

المصرية وقد نحا في أقاصيصه نحو المذهب الواقعي. أما محمود تيمور فهو الآن في طليعة كتّاب القصة المصرية شقّ لها الطريق مع أخيه وبقية أدباء القصة الذين عملوا على خلقها يومذاك واستمرّ يغذيها بمواهبه حتى استقام عودها وآتت أكلها بعد حين

لقد بدأ هذا القصصي حياته الأدبية متأثراً بالوجهة التي وجهه أخوه نحوها بعد ان كان قد تفرغ الى الاطلاع وكان نصيب الشعر وافراً في مطالعاته في الأدبين العربي والافرنجي وكانت الحركة التجديدية التي آثارها في المهجر الأميركي جبران ورفاقه من الاشياء التي لفتت نظره وكان يفضل من الشعر ما كان خياليًّا مغرقاً في الخيال فلما قرأ لجبران كتابه «الأجنحة المتكسرة» تأثر بنزعته الرومانسية في أولى كتاباته، وانضم هذا الأثر الى الأثر الذي تركتهُ في نفسه قراءته لآثار المنفلوطي حتى عاد أخوه من أوربا بما يحمل في نفسه من آراء جريئة كان يتحدث بها اليه ولكنهُ كان يستقبلها بعاطفتين لا تخلوان من تفاوت: عاطفة الحذر وعاطفة الاعجاب. فلما كان مرضهُ بالتيفوئيد وهو في العشرين من عمره واشتدت عليه وطأة المرض وألزمتهُ فراشهُ زمناً طويلاً استطاع أن يهضم الكثير من الآراء التي تلقاها من أخيه أو استمدها من قراءاته ونصح له أخوه فيما نصح بأن يطالع حديث «عيسى بن هشام» للمويلحي ورواية «زينب» التي نشرها الدكتور حسين هيكل قبل الحرب الماضية فوجد فيهما لوناً يختلف عن اللون الرمزي والرومانسي الذي كان غارقاً فيه، لوناً واقعيًّا يرى فيه الناس على فطرتهم التي خلقوا عليها. وامتدح له أخوه قصص «موباسان» فتابع قراءته في شغف عظيم فأثر ذلك في نفسه

وكان القصص الروسي قد غزا الدوائر الادبية العالمية ووجدت فيه البساطة في التصوير والصدق في التعبير وكانت القصة منهُ قطعة منتزعة من صميم الحياة فوجد تيمور في هذا القصص ما دفعهُ الى الاعجاب، ولا سيما وقد أحسّ في آثار «تشيخوف» و «تورجنيف» ومن ماثلهما تأثير «موباسان» الذي أعجب به، واضحاً في بعض انتاجهم

فلما بدأ أخوه في وضع قصصه بالطريقة التي اختطها لنفسه والمذهب الواقعي الذي نهجه دعاه اعجابه بها الى أن يؤلف على غرارها فوضع باكورة اعماله القصصية «الشيخ جمعة» التي أخرجها للناس سنة ١٩٢٥ ثم أردفها بأقصوصة عنوانها «يحفظ بالبوسطة» وكان وقتذاك لا يحفل بالاسلوب احتفاله بتصوير الواقع

يقول تيمور بك في المحاضرة التي ألقاها بالجامعة الاميركية في القاهرة سنة ١٩٣٨ وعنوانها «المصادر التي ألهمتني الكتابة» وهي التي صدَّر بها فيما بعد مجموعته القصصية «فرعون الصغير وقصص أخرى»: «اني عندما التفت خلفي متكشفاً ماضي حياتي أرى أربعة عوامل أساسية قد عملت في تكويني كاتباً. الأول: والدي أحمد تيمور، والثاني شقيقي محمد. والثالث: حوادث خاصة

كان لها تأثير في تحويل مجرى حياتي . والرابع الأخير : مطالعاتي ، فوالدي جدير أن يكون قد أورثني مؤهلات الكتابة ، وقد تعهدني منذ النشأة ة وحبب الي المطالعة والتأليف . وأخي هذّب ذلك الحبّ وأذكاه . وحوادث حياتي ثم مطالعاتي هي التي عينت لي تلك الوجهة التي أرسمها الآن في حياتي الأدبية »

ولقد كانت للحياة التي عاشها تيمور في طفولته في المنزل الذي ولد فيه في « درب سعادة » والذي يشبه القلعة المهدمة، والحياة التي كانت تحيط به فيه من مظاهر العصر الماضي أثرٌ في الرغبة المتقدة الى التحرُّر في الأسلوب ظهرت نتائجه بعد ذلك في فنه وفي الصور التي رسمها في مجموعاته الأولى التي عاد فهذبها بعد ذلك وأخرجها تحت عنوان «الوثبة الأولى»

لقد كانت البيئة الأدبية التي نشأ فيها مدعاة الى تقوية الحافز الشخصي في نفسه فانبعث هذا الحافز على يد أبيه العالم وشعر عمته السيدة عائشة التيمورية وتوجيه أخيه الأديب القاص . وكانت الصور التي انطبعت في ذهنه من صور عهد يحس أن ظله يتقلص وأن تياراً من المدنية يكاد يجرفه سبباً في تقوية ملكة الملاحظة الدقيقة في نفسه فاختزن صوراً عديدة ظهرت بعد ذلك في قصصه وكانت قوة الملاحظة سبباً في تثبيت المذهب الواقعي في نفسه

يقول الاستاذ محمود المنجوري: «في الحق أن محمود تيمور هو صورة من هذا المزاج الأدبي فهو يصوّر عمته الشاعرة في نظرته الزاخرة بالخيال عند ما تحتاج القصة الى لون من ألوان الخيال وهو يصوّر والده الشيخ الأديب المحافظ في دأبه وأمانته لفنه عند ما يعالج صور هذا العصر القديم ، وهو يصوّر أخاه محمداً في ثورته وفنه وتجديده عند ما يسخر بالقيود التي تعترض تفكيره فينتزع من المجتمع صوراً لأشخاص قصصه في أسلوب مرسل يبرز به ما في جوف مجتمعنا من عيوب وأضرار » [1]

والمذهب الواقعي الذي اتبعه تيمور متأثراً بأخيه ومتماً لمهمته التي جاهد في سبيلها من ناحية، ومتأثراً بالبيئة التي عاش فيها والملاحظات التي اختزنها من مرئياته في « درب سعادة » و«عين شمس » وفي مزارعهم بين الفلاحين السذّج من ناحية أخرى هو الطور الأول لفنه القصصي. يقول المستشرق السويسري الاستاذ ج. ويدمار في مقدمة كتابه الذي ألفه بالالمانية عن تيمور وترجم له فيه نخبة من أقاصيصه « قد تبدو قصص المؤلف لاول وهلة بسيطة . ولكن هذه البساطة هي السر في قوتها وتأثيرها . وترى الشخصيات المختلفة الواردة فيها ظاهرة بوضوح وجلاء ومملوءة بالحياة ، فالمؤلف يتغلغل في أعماق نفس الشخص الموصوف لكي يبرز عقليته الحقيقية». ويرى الاستاذ شاده المستشرق الالماني ومدير دار الكتب المصرية سابقاً في المحاضرة

(١) مجلة « الثقافة » العدد ١٢٠ ص ٣٠

التي ألقاها في مؤتمر المستشرقين بأكسفورد صيف عام ١٩٢٨ أن تيمور « يشعر طبعاً بالفكرة السامية التي يعتقدها منذ صباه في مهمته ككاتب أديب بأنه مكلف أن يحمل أمام أعين مواطنيه صفحة من أخلاقهم ونقائصهم. ولكن هذه النزعة يقل ظهورها عنده بقدرما تزداد عند أخيه الذي كثيراً ما دفعته غيرته الاصلاحية لأن يكون أقرب الى المعلم منه الى الأديب » . كما يرى المرحوم اسماعيل احمد أدهم انه ربما كان ما في طبيعة تيمور « من الهدوء هو الأصل في غلبة النزعة الواقعية الساذجة التي تتراءى للنظر من آثاره. فالهدوء يفسح لعقله المجال للتداخل لتصفية ألوان الشعور وضبطها في نسب دقيقة مع الفكر بحيث يسوق الى خلق توازن بين العقل والشاعر وهذا التوازن يحمل الواقعية حين يتصل بموضوع أقصوصة . وهو عادة يدور من ناحية شكلية فتجد نظرة محمود تيمور ترتبط بمظاهر الاشياء وسطوح الحياة ، ومن هنا يمكن أن نقول بأن الأصل الواقعي في فن تيمور بك ساذج إذ هو نتيجة للوصف الحسي »(١)

وبهذا المذهب أثر تيمور فيمن تبعه بعد ذلك من كتاب القصة الذين جعلوا مادة فنهم الحياة المصرية والنفسية المصرية وبخاصة الحياة الريفية أو حياة الطبقات البسيطة التي تزخر بألوان من الفن القصصي . وعلى هذا المذهب أخرج تيمور مجموعاته الأولى : الشيخ جمعه ، وعم متولي والشيخ سيد العبيط، وهي التي ضمها بعد ذلك وأخرجها تحت اسم « الوثبة الأولى » ثم « الحاج شلبي » و« أبو علي عامل ارتست » و « الاطلال » و« الشيخ عفا الله » . وفي كل هذه يبدو للقارىء الى أي مدى بلغت فكرة المصرية التي كانت تشغل ذهن الكتاب المصريين عامة وكتاب القصة بنوع خاص ، كما يتجلى تأثير القصص الروسي في فن تيمور

على أن تيمور قد أفاد من وراء هذا المذهب فائدة كبيرة تجلت آثارها في جميع قصصه ، تلك الفائدة هي إنماء المقدرة على وصف المشاهد والمرئيات التي تقع تحت بصره أو التي يحاول جعلها مسرحاً لأغراضه ، ولقد ساعد على نمو هذه المقدرة قوة الملاحظة التي أشرنا اليها والتي وُلدت معه والتي كانت تنظر الى كل شيء فتأخذ منه كل شيء

وفي الحق أن الوصف عند تيمور من أدق مظاهر فنه ، ومن أوضحها ظهوراً ، ومن أغزرها فيضاً بالحياة . ولذلك عندما حاول الابتعاد عن الواقع في بعض القصص — فيما بعد — كانت لديه المادة الوفيرة لتكوين المسارح الجديدة للقصة المتخيلة

هذا هو الطور الاول لفن تيمور ، وأما الطور الثاني فقد بدأ عندما وجد تيمور أنه قد أدى رسالته التي وضعها نصب عينيه يوم اراد ان يجعل القصة وسيلة من وسائل الكشف عن عيوب المجتمع المصري ليعالجها المصلحون . وعندما وجد أن الطريقة التي اتبعها قد وجدت لها

---

(١) مجلة « الرسالة » العدد ٣١٩ السنة السابعة ص ١٦٢١

من يتلقاها عنه ويسير في طريقها . وكانت النزعة التي دفعت بالكاتب الى هذه الغايات قد بدأت في السكون حيث بدأت يد الاصلاح في الحركة . وهنا يقول تيمور :

« ولما هدأت نزعة المصرية الحادة بألوانها المحلية الصارخة ، واستقرت الأمور في نصابها الطبيعي ، تطورت نظرتي الى الأدب ، فكانت في طورها الجديد أوسع وأعمق

« وسافرت في تلك الفترة الى اوربا ، ومكثت بها حيناً يزيد على العامين قضيت معظمه في سويسرا فتفرغت للقراءة ، واتصلت بالادب الاوربي الحديث اقرب اتصال . وطالعتني اثناء اقامتي هناك مرئيات ومناظر هزت نفسي ، وتغلغلت في صميم قلبي كما ان خبرتي بالحياة ومعرفتي بها قد اتسعت وتنوعت ،فكان لهذه الحياة الجديدة التي عشتها هناك أثر لا ينكر في تطور تفكيري ، ورأيت على ضوء مطالعاتي الجديدة وفهمي لنظريات الأدب العالمي أن اللون المحلي ليس كل شيء بل هو بعض الشيء ، وما الأدب الكبير إلا ان يولي الانسان وجهه شطر النفس البشرية . فحولت اتجاهي نحو هذه الوجهة ، محاولاً التقدم فيها ما استطعت الى ذلك سبيلا » (١)

ويظهر اثر هذا التحول في غير قوة في رواية « الاطلال » حتى اذا كانت سنة ١٩٣٧ أخرج للناس مجموعته المسماة « قلب غانية وقصص اخرى » وفيها يظهر أثر هذا التحول قوياً بعض القوة . فالنزعة المحلية قد اختفت وراء عوالم جديدة مستمدة من النفس البشرية ومظاهر ضعفها أو قوتها

وفي هذا الطور الجديد يبدأ تأثير مطالعات تيمور في مطلع شبابه وميله الى النزعة التخيلية « الرومانسية » التي دفعته الى الاعجاب بآثار المنفلوطي اولاً ، وبآثار جبران ورفاقه ثانياً ، والتي طوتها في نفسه آراء اخيه عند عودته من اوربا واتجاهه نحو خلق القصة المصرية في كل شيء حتى في أسلوب الكتابة تظهر من جديد. وتبعاً لظهور النزعة الرومانسية من جديد في نفسه بدأ أسلوبه يتغير ويميل نحو الروح الشعري فكان لذلك أثر قوي في فنه

وبظهور القوة التخيلية ظهرت النزعة الرمزية التي كانت قد تسربت بعض ظلالها الى روحه من الآثار الاولى التي طالعها فبدأ أثرها ممتزجاً بالنزعة التخيلية في قصة «فرعون الصغير» خاصة ثم في روايته « نداء المجهول » ثم بعد ذلك في قصة « كان في غابر الزمان » التي ظهرت ضمن مجموعته الأخيرة « مكتوب على الجبين وقصص أخرى » وفي قصة « خميلة الحب » من قصص المجموعة الاخيرة أيضاً. وقصة «خميلة الحب» مع قصتي «فرعون الصغير» و«كان في غابر الزمان» ترتفع الى مصاف أرفع القصص العالمي من حيث قوة الفكرة وقوة الاداء . وهنا يظهر أثر التحول الجديد قوياً كل القوة

---

(١) « الصادر الى أهمتي الكتابة » ص ٢٢ و ٢٣ من مجموعة « فرعون الصغير وقصص أخرى »

ومن يدقق النظر في المجموعات الأخيرة لتيمور « قلب غانية » و « فرعون الصغير » و « نداء المجهول » و «مكتوب على الجبين» يرَ ان الطور الأخير لفن تيمور يكاد ينقسم الى شعبتين : شعبة تنشر جناحيها على الحياة المصرية ولكن بطريقة غير الطريقة التي تناولتها في الطور الأول وان كانت متأثرة به بعض التأثير ، وحول شخصيات تختلف عن شخصياتها الأولى وفي محيط أعلى من المحيط الأول فهي تصور لنا الحياة المصرية بعد ان تغلغلت المدنية في كيانها كما في قصص « قلب غانية » و « سراب » و « غريم » و « أفديك بالروح » و « قلب كبير » و « ابتسامة » و « الباب المقفل » وغيرها . وشعبة تنطلق فتحتضن العالم وتجعل من اقطاره المختلفة ميادين فنها كما في « نداء المجهول » و « بسمة اللبنانية » و « صحبة الورد » وفي هذه القصص يبدو تعمقه في درس النفس البشرية على ضوء البحوث الحديثة في علم النفس

وقد يظهر حنين تيمور الى نزعته الاولى عند ما كان يأخذ لفنه صوراً من المجتمع الساذج فتراه يعود الى هذه الناحية ولكن عن طريق قصصه الاولى، فقد يحسُّ القارىء لقصة «مكتوب على الجبين» انها صورة استحدثها فنانها من قصة « المزواج »وان كانت مختلفة عنها،ويبدو نفس هذا العمل ايضاً في قصة « تاج من ورق » المنشورة في مجموعته الاخيرة حيث يلوح من ورائها أثر قصة « أبو علي عامل ارتست»

ولقد اتجه في قصته« نداءالمجهول » اتجاهاً جديداً نحو أدب المغامرات ولكنهُ جعلها رحلة في الكشف عن اغوار النفس البشرية وما ينطوي وراء آفاقها من أسرار . يقول الدكتور بشر فارس إن« فن تيمور في « نداء المجهول » لايرجع الى الأدب العربي، ثم إنهُ ليس من فن كبلنج Kipling لأن هذا بَلاَ ما كتب، وليس من فن إستراتي P. Istrati لأن هذا صاحب عنف ، وليس من فن فورنييه A. Fournier لان الرجل شاعر في نثره وصاحب وسوسات، وليس من فن مارك اورلا P. M. Orlan لأن هذا خاض الحياة الشاقة . إن الفن التخيلي عند تيمور في « نداء المجهول » يقارب بعض المقاربة ما نعرفه من فن القصصي الفرنسي P. Benoit مع اعتبار ما يميز الكاتب من الكاتب من حيث الاسلوب والتفكير»(١)

ومن هنا يتضح ان فن تيمور دائم الحياة مستمر النبض ، ينقل عن الحياة فيحسن النقل ، ويأخذ من الخيال فيحسن الاخذ والتصور ، ويعمل على التغيير والتبديل شأن الفنان المخلص وهو حريص كل الحرص على ان يرقى بالقصة الى الغاية التي ينشدها ، وقد استطاع ذلك ، ووفق فيما قصد كل التوفيق

---

(١) الرسالة : العدد ٣٣١ ص ٢١٠١ السنة السابعة



التقدم الصناعي في مصر

للدكتور حافظ عفيفي باشا

عقدت في الساعة السابعة بعد ظهر يوم ٣ مايو الماضي الجلسة الثانية من جلسات مؤتمر المجمع المصري للثقافة العلمية في قاعة المحاضرات بجمعية فؤاد الاول لعلم الحشرات بشارع الملكة نازلي فألقى سعادة الدكتور حافظ عفيفي باشا بحثاً نفيساً موضوعه « التقدم الصناعي في مصر وتأثيره في الاقتصاد القومي » تكلم فيه عن تحول النهضة الصناعية في مصر واستثمار رؤوس الاموال المصرية والاجنبية في الصناعات المختلفة وعارض فكرة الاقتصار على استثمار الاموال المصرية وحدها في الصناعات لان ذلك يؤخر تقدمنا الصناعي كثيراً. وضرب مثلين بشركتين كبيرتين للدلالة على مدى ماتنتفع به الحكومة والبلاد من وراء تقدم الانتاج الصناعي فذكر ان شركة السكر مثلاً تحصل الحكومة منها سنوياً على نحو مليوني جنيه كضريبة انتاج وحصة ارباح عدا ملايين اخرى هي قيمة ما يدفع لزراع قصب السكر ثمناً لقصبهم وما يدفع للموظفين والعمال من أجور ومرتبات وما يدفع للمساهمين والاعضاء

وذكر ان شركة مصر للغزل والنسج تنتج من الغزل والنسج ماتبلغ قيمته نحو ثلاثة ملايين من الجنيهات وتستخدم الوفاً من العمال والموظفين وتستهلك كميات كبيرة من القطن المصري

ثم تحدث عن الضرائب الصناعية ووجوب اعفاء الصناعات الناشئة منها وعن وجوب الاهتمام بتحسين حال العمال وحل مشكلة اقبال الفلاحين على الالتحاق بالأعمال في الشركات وترك العمل في الزراعة لأنهم في الشركات يقبضون اجوراً مضاعفة

ونوه بتأثير تحسين طرق المواصلات في تنشيط الصناعة وطالب بمضاعفة الاهتمام به لا في ما يتعلق بالمواصلات الحديدية وحدها ولكن من ناحية الطرق النهرية والطرق الزراعية والطرق العامة كذلك . وقال أن العراق وسوريا وفلسطين وتونس والجزائر والمغرب الاقصى — وهي بلاد اقل منا ثروة — اهتمت اكثر منا بتحسين طرق النقل فيها وربطت مدنها والمراكز الصناعية والتجارية والهامة فيها بشبكة من الطرق الجيدة

وتناول مسائل اخرى كثيرة هامة وذكر سعادته ان الصناعة محتاجة الى برنامج مرسوم وسياسة واضحة تسير عليها الحكومة في المستقبل لاكمال نموها وانه يتعين على وزارة الصناعة ان ترسم هذا البرنامج وقد لخصه سعادته فيما يلي:

أولاً — الاسراع بتنفيذ مشروع كهربة خزان أسوان

ثانياً — انشاء بنك للتسليف الصناعي

ثالثاً — التعريفة الجمركية ويرى سعادته أن من المستطاع أن تلغي الحكومة الضريبة الجمركية الغاء كاملاً عن الموارد الأولية المستعملة في الصناعة وتلغيها عن الآلات الصناعية الجديدة وتضاعفها على الآلات الصناعية المستعملة

رابعاً — توحيد المصالح المشتغلة بمسائل الصناعة

خامساً — تشريع العمال

سادساً — تسهيل المواصلات

سابعاً — الضرائب التي فرضت على الصناعة ويرى سعادته أنها معتدلة فيما عدا الضريبة الخاصة بالارباح الاستثنائية المقترحة فقد عارض في تطبيقها لأسباب بينها قبلاً ونشرت بالصحف

اصلاح القرية وقرية الانتقال

الدكتور سيد كريم من مهندسينا الشبان المثقفين حماسة وغيرة يعززها علم واطلاع واسعان . وقد القى في مؤتمر المجمع المصري للثقافة العلمية محاضرة نفيسة عن اصلاح القرية المصرية لا يتسع المقام هنا الا لنشر خلاصة لها . أما الذين يهمهم الموضوع فيمكنهم ان يطلعوا على المحاضرة بجذافيرها في العدد القادم من مجلة « كتاب المجمع السنوي »

قال حضرته ما ملخصه : ان كل الذي فكر فيه المفكرون الى الآن لاصلاح القرية لا يحقق الغاية المرجوة . وإن فكرة القرية النموذجية بعيدة عن الصواب فيجب أن نعد أولاً فلاحاً نموذجيًّا . وقال ان علة برنامج الاصلاح هي عدم توازن نواحيه وعلة القرية هي تغلغل الداء فيها

وعنده ان الخطوة الأولى التي يجب ان تسبق اصلاح القرية هي تعبيد الطرق الموصلة اليها . وإن المطلوب هو انشاء «قرية انتقال» لا « قرية نموذجية »

وتبنى قرية الانتقال على قواعد تلخص في الاصلاح الصحي بمقاومة وسائل انتشار المرض خارج القرية وداخلها كتطهير مجاري الماء من بويضات الطفيليات وفرز السكان فرزاً مستمرًّا وعلاج امراضهم في اطوارها الأولى وفرز الحيوانات وعلاجها

ومن هذه القواعد مراعاة العامل السيكولوجي بدرس عقلية الفلاح وقيادته قيادة لا يشعر فيها باكراه على ترك عاداته

وانتقل حضرته الى بناء قرية الانتقال فتكلم عن أهمية « التوجيه » إذ يجب ان لا ننسى عند وضع مسقط كامل للقرية أن في مصر نسمة بحرية مستمرة هي عامل تنقية الهواء وتلويثه ونظافة القرية وردمها بالغبار . وتشير الحرائق وحصرها . وتكاثر الذباب وتقليله

ويتكلم عن التقسيم الصحي للقرية بتخطيط طرقها وتقسيم منزل الفلاح مع مراعاة العامل المتقدم ذكره وهو الريح البحرية . وأثبت ذلك برسم مسقط القرية ومساكنها . وانتقل الى الكلام عن توزيع الماء على القرية ورعاية الطفل ونظافة المسكن القروي من الداخل وطريقة التخمر في عمل الوقود من «الروث» وانتقل الى الكلام عن الناحية المالية للاصلاح واقترح حلاً سهلاً لها وقال ان بناء مساكن القرى لا يكون بالطوب الأحمر والخرسانة والحديد بل بمواد البناء المحلية

وذكر الحالة الاقتصادية وتدهورها في القرى وقال أن علاجها هو في نشر الصناعات الزراعية . وعدم الاعتماد على محصول القطن وتحسين العلاقة بين الفلاح والحكومة فلا يكون نظره اليها نظر الفريسة الى الصائد بل نظر الجندي الى القائد . وختمها بعبارات بليغة تفيض عطفاً على الفلاح

الصينيون هم مخترعو الورق والطباعة

ظهرت أدلة جديدة على ان الصينيين هم أول من عرف ورق الكتابة وعرف الطباعة كما قيل غير مرة . فقد عثروا على ورقة عليها تاريخ يقابل سنة ٢٦٤ ميلادية وكان العثور عليها في تركستان الصينية وهذا أقدم تاريخ للورق عرف الى الآن . فان أقدم كتاب عندنا عليه تاريخ سنة ٨٦٨ وقد وجد في هيكل بوذي منحوت في الصخر في ولاية صينية

وعرف الورق في الصين قبل سنة ١٠٥ للميلاد فان علماء الآثار عثروا في قلب الصحراء الاسيوية على ورقة يزيد عمرها الف سنة على أقدم ورق في أوربا ولا يزال عليها بعض تواريخ وكتابة مقروءة . وقد عثروا عليها في خرائب ابراج وقلاع عمرت حوالي السنة المذكورة

وتدل أدلة أخرى ان فن صنع الورق عرف في سمرقند (من تركستان الروسية) نحو سنة ٧٥١ للميلاد . وعرف في بغداد سنة ٧٩٣ (نحو عهد الرشيد) وفي مصر نحو سنة ٩٠٠ واسبانيا سنة ١١٥٠ وفرنسا ١١٨٩ وايطاليا سنة ١٢٧٦ ونورمبرج الالمانية سنة ١٣٩١ وانكلترا سنة ١٤٩٤ بعد اكتشاف كولمبس لأميركا بسنتين

جوع الحيوانات وسط الخير والثراء

عرف عن حيوانات وطيور انها ماتت جوعاً وسط الخير والشبع لأنها جهلت أكل طعام لم تتعوده . فقد قضى طائر السماني بضع سنوات في ولايتي فلوريدا وجورجيا الاميركيتين حتى عرف أن الفلاحين أنما يزرعون لطعامه بعض الحبوب التي يجهلها تخفيفاً لفتكه بالحبوب التي يأكلها الانسان . فنفقت أسراب منه قبل اهتدائه الى الحقيقة

الحرب وهبوط البحث الكيميائي

ظهر لباحث أميركي ان البحث الكيميائي هبط ١٣ في المائة في هذه الحرب منذ ابتدائها وكان هبوطه ٢٤ في المائة في الحرب العالمية الماضية وسبب هذا الفرق تحول البحث الكيميائي من مناطق جغرافية الى أخرى فادى ذلك الى تقدم المباحث الكيميائية في روسيا وأميركا وتأخرها في المانيا ففقدت المانيا القيادة الكيميائية التي كانت لها منذ عام ١٩١٨. وكان نصيب اميركا من الاكتشافات الكيميائية ٢٧٫٥ في المائة وروسيا ١٠٫١ والمانيا ١٨٫٤ وبريطانيا ١٤

التبخر من البحر

ليس بصحيح أن تبخر ماء البحار يكون على أعظمه صيفاً كما هو المفروض بداهةً لان التبخر لا يكون الا اذا كان الهواء أبرد من البحر. وفي الصيف يكون الهواء أحرّ من البحر. ويبدأ ارتفاع الحرارة عادة كل سنة في شهر مارس (في اميركا) والبرودة في آخر اغسطس. وتكون سرعة التبخر عظيمة جداً في خليج بسكي وأعظمها التبخر من تيار كوروسيو الذي يجري من مكان قرب اليابان ويحمل ماءه الساخن شمالاً حيث يكون التبخر عظيما جداً بسبب الرياح الباردة التي تهب من سيبيريا

تحول الطيور من الانوثة الى الذكورة وقتياً

يقول الدكتور بالو والبروفسور كاريك من جامعة ليدز البريطانية ان انثى الزرزور الانكليزي تتحول ذكراً في الخريف كما يستدل على ذلك من غنائها واصفرار منقارها وهذان من خواص الذكور ويتوقفان على افراز الهرمونات فيها من غددها

فاذا جاء شهر اكتوبر ينصرم جملت الانثى تغني وجملت منقارها يصفر وتبقى كذلك مدة شهر نوفمبر فتتوقف عن الغناء ويعود منقارها الى لونه الاسود العادي. والظاهر ان هذا عائد الى كون مبيضها يفرز هرمونات الذكور في هذا الاوان

والغريب ان الزرزور الأوربي الذي يكثر وجوده في بريطانيا لا يظهر عليه مثل هذا التحول

لماذا لا تصاد العناكب بنسجها

ظهر من مراقبة وقوف العناكب على نسجها ان سبب عدم وقوعها في الشرك الذي تنصبهُ لأعدائها هو وقوفها على خيوط أغلظ من غيرها وهي خيوط خالية من المادة اللزجة التي تضعها على الخيوط الدقيقة فتصيد بها فرائسها من ذباب وغيره من الحشرات

السم في الكبد والبصل

قرأنا النبذة التالية بالعنوان المتقدم :
اذا اصطدت دبًّا قطبيًّا فلا تأكل كبده فقد حدث نعالم من علماء الحيوان انهُ خرج هو وجماعة من العلماء الى الاصقاع القطبية وهناك صادوا دبين أبيضين وصنعوا وليمة من كبديهما وأكلوها مع بصل هنيئاً مريئاً الى الساعة الواحدة بعد نصف الليل وعندئذٍ استيقظ أحدهما وهو يشعر بصداع وثقل في رأسه . ثم تذكر فجأة انهُ قرأ ان كبد الدب الابيض سامة ولم يأت الصباح حتى كان العلماء جميعاً مرضى وظهرت اعراض الصداع والقيء والدوار وشيء من النعاس عليهم . فداووا أنفسهم بالمسهلات وبقوا يومين او ثلاثة حتى عادوا الى حالتهم الطبيعية

مشاهدة تحول الانواع

ان تحول الانواع على ما في مذهب داروين يتم في قرون كثيرة فلذلك تعسر مشاهدته على الناس وأعمارهم تقاس بعشرات السنين على اطولها . ولكن بعض العلماء وفقوا الى مشاهدة شيء من ذلك في بعض أنواع السمك الذي يعيش في الماء الملح فقد فحصوا خياشيم سمكات كثيرة منهُ وهي من نوع «التاربون» صيدت في منطقة قناة بناما فوجد في الخياشيم نسيجاً من نسيج الرئة فاستدلوا من ذلك على أنها لا تعتمد في اكسجين تنفسها على خياشيمها وحدها . ولعلَّ هذا يعلل قدرتها على الانتقال من الماء الملح الى الماء العذب حتى تمكنت بما يشبه الرئة في خياشيمها من عبور برزخ بناما بطريق قناته وطولها ٤٠ ميلاً وهي من الماء العذب والانتقال من المحيط الأطلنطي الى المحيط الباسفيكي . وهي السمكة الوحيدة التي أمكنها الانتقال الى الآن من محيط الى آخر بهذا الطريق

تشابه خصائص التوائم

من غرائب ما هو في التوائم تشابهها في الطوارىء العارضة فضلاً عن تشابهها في منظرها الدائم فقد لقح توأمان بالمصل المضاد للجدري في وقت واحد . وبعد التطعيم بيومين ظهرت بثرتان على ذراع كل منهما واربع بثور على ركبته في المواضع عينها ثم بعد ثلاثة ايام ظهرت بثرتان في القسم الوحشي من الساق عند الركبة ، وواحدة امام الاذن اليسرى من كلٍّ واختفت هذه البثور في وقت واحد ولم تخلف ندوباً وراءها وكانت علامات التطعيم واحدة في كل

تحول العناصر

وردت على الدكتور لاين البروفسور الفخري للجيولوجيا في كلية تافت رسالة من فنلندا باكتشاف سلسلة جديدة رابعة من العناصر التي يتحول بعضها الى بعض وأشهر سلسلة منها العناصر التي تبدأ بالاورنيوم وتنتهي بالرصاص وهو الحلقة السادسة منها . ثم السلسلة التي تبدأ بالثوريوم وحلقتها الثالثة الى الآن عنصر الاكتينيوم

وكان العلماء يقولون بوجود هذه السلسلة الرابعة ولكنهم لم يهتدوا اليها قبل الآن ومكتشفها هو الدكتور واهل من جامعة هلسنفورس عاصمة فنلندا . وقد حلل بعض المعادن القديمة جداً في عرف الجيولوجيا فوجد دليلاً على وجود عنصر مجهول من ثقل ٢٣٧ ولما كانت جميع العناصر التي بهذا الوزن من عناصر الراديوم استنتج أن هذا العنصر لا بد أن يكون منها . ولم يتمكن من اثبات ذلك الى الآن وانما اثبت أنهُ لا يمكن أن يكون من عناصر السلاسل الثلاث المعروفة

ومعلوم أن الجيولوجيين عرفوا أعمار بعض المعادن في الصخور القديمة من تعيين مقدار الرصاص الناشىء عن اشعاع الراديوم فيها . وعليه يقال إنهُ اذا ثبت وجود هذه السلسلة الرابعة حقًّا وثبت أن الرصاص أحد منتجاتها أدَّى ذلك الى تصحيح بعض الخلل في حسابات الجيولوجيا

ازدياد المواليد في القرى

أعظم منهُ في المدن

قال وزير اميركي أمام لجنة بمجلس الشيوخ : —

ربما لا يعرف اجمالاً ان سكان اميركا يزداد في الأرياف ازدياداً أعظم منهُ في المدن وان الزحام الآن في مزارعنا أعظم مما يسمح بمعيشة راضية فيها فان الفلاحين فيها ينمون بمتوسط ٤٤٥ الفاً في السنة والزيادة على أعظمها في المناطق التي هي أفقر من غيرها وأشد زحاماً

زيادة حوادث الانتحار

في اميركا

ظهر من احصاء رسمي ان حوادث الانتحار في اميركا الآن ضعفا ما كانت سنة ١٩٢٠ ولم يبين الاحصاء السبب فانتحر ١٩٨٠٢ شخصاً سنة ١٩٣٨ اي بنسبة ١٥،٢ في كل ١٠٠ الف من السكان وكان عدد المنتحرين ٨٩٥٩ سنة ١٩٢٠

الظرف في مصر القديمة

قالت مجلة اميركية :—

« أبدى الفنانون المصريون القدماء ظرفاً ظاهراً في تماثيلهم النسائية فاصطلحوا على ان لا يمثلوا المرأة بدينة ولا مثقلة بحمل السنين . وأبدوا بعض هذا الفرق وهو التسامح مع الرجال ايضاً فمثلوا في تماثيلهم نحافة الشباب وكانت من المثل العليا عندهم وقرنوها بمظاهر النشاط والقوة ولكنهم كانوا يسمحون أحياناً باظهارهم على درجة من السمن وأوصاب الشيخوخة

فقد عرض تماثيل مثل هذه في « قاعة مصر » من متحف شيكاغو وكانت هذه التماثيل تستعمل عند المصريين القدماء رموزاً سحرية للاجسام الأرضية وتدفن مع الأموات وكان المصريون القدماء يعتقدون ان النفس تستطيع الحلول في هذه التماثيل الرمزية متى شاءت لتشترك فيما يقدم من الأطايب الى الموتى في أعياد الآلهة . فكانت الفكرة السائدة لهم ان النفس تعرف الجسم الذي كان يأويها في هذه الحياة الدنيا

ظاهرة غريبة

يقول العلماء الخبيرون ان الحديد والخشب وغيرهما تزداد ثقلاً اذا دهنت باللون الاحمر او البرتقالي وتزداد خفة اذا دهنت بالازرق او الاصفر

حيل الحيوانات في الفرار من الخطر

تبذل الذئبة الاميركية كل حيلة لحماية صغارها . منها أنها تنقل وجارها كل يوم من مكان الى آخر ليكون الصغار في مأمن من عيون أعدائها

واذا عثرت على كهف ذي اوجرة كثيرة وضعت كل جرو من جرائها في وجار منها بعيداً عن أخيه حتى اذا اهتدى العدو الى وجار وعبث بالجرو الذي فيه سلمت الجراء الأخرى

ويعرف عن فصيلة القوارض (كالجرذ) انها سريعة في تعلم حماية نفسها من السموم التي توضع لصيدها . فقد وضعوا لها طعاماً فيه سم الستركنين فاذا أكل الجرذ شيئاً منه ولم يمت بقي يتناول منه في المرات التالية بمقدار صغير لا يضره

فقر الصينيين

يشتري الصينيون الابر والدبابيس والسجاير والسردين بالواحدة لا أكثر لأن الذين يستطيعون شراء هذه السلع اكثر من واحدة ، هم قليلو العدد



مكتبة المقتطف

مسند يعقوب بن شيبة

ولد سنة ١٨٢ ومات سنة ٢٦٢
نشره الدكتور سامي حداد سنة ١٣٥٩

جزء مخطوط قديم ، من نفائس الآثار العلمية الحديثية ، وهو من أقدم المخطوطات العربية التي حفظها لنا على الدهر ، فقد كتبهُ كاتبه في آخر القرن الرابع ، وسمعه العلماء في أوائل القرن الخامس ، وتوارثت سلسلة السماعات فيه الى أواخر القرن الخامس أيضاً ، أعني من سنة ٤٠٣ الى ما بعد سنة ٤٨٦ وعنوان هذا المخطوط هكذا :—

[الجزء العاشر من مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب]
[رضوان الله عليه عن النبي صلى الله عليه وسلم]
[تأليف أبي يوسف يعقوب بن شيبة بن الصلت]
[مما رواه عنهُ أبو بكر محمد بن أحمد بن يعقوب]
[رواية أبي عمر عبد الواحد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن مهدي]
[سماع لمحمد بن أحمد بن علي بن الأشناني الدقاق]
[نفعه الله به آمين]

وقد سبق للمقتطف أن نشر تمهيد الناشر في الجزء الثالث من المجلد ٩٧ عدد أكتوبر سنة ١٩٤٠ وفيه وصف المخطوط وصفاً جيداً لا بأس به ، ونريد أن نزيد القارىء تعريفاً بالمخطوط وقيمته العلمية والأثرية ، وتنويهاً بفضل الناشر وما بذل من جهد مشكور في اخراجه للناس أنيقاً فاخراً . ثم نستدرك بعض ما لاحظنا من سهو أو خطأ ، مما لا يعصم منه إنسان أو كتاب

وللمتقدمين من علماء الاسلام رضي الله عنهم اصطلاحات علمية ينبغي أن يكون القارىء على بينة منها حتى يعرف المراد مما يقرأ من آثارهم . فكلمة « الجزء » مثلاً — يريدون بها الكتاب الصغير في أوراق معدودة ، مما يسمى في عرف المتأخرين « رسالة » وهذا العرف

الأخير غير جيد ، لأن « الرسالة » من « الارسال » وليس كل جزء صغير مرسلاً من شخص الى آخر . وقد بينا ذلك في مقدمتنا لكتاب الرسالة للشافعي (ص ١٢) . وكلمة « المسند » يريدون بها الكتاب الذي يجمع الأحاديث المروية بأسانيدها عن النبي صلى الله عليه وسلم مرتبة على أسماء الصحابة ، أعني أن يذكر المؤلف أحاديث كل صحابي وحدها ، من غير ترتيب لها على الأبواب أو المعاني . وبعض العلماء يكتفي برواية الأحاديث بأسانيدها ولا يتكلم عليها من جهة فن الحديث الا نادراً ، كمسند الامام أحمد بن حنبل ، وهو مطبوع معروف ، وبعضهم يجمعها ويتكلم عنها ، فيذكر حال بعض رواتها ، ويبين ما اختلفت روايتهم فيه منها ، من زيادة في إسناد ، أو خطأ في لفظ ، أو غلط في تسمية بعض الرواة ، وهكذا ، مما يسميه علماء الحديث « تعليلاً »

فمؤلف هذا الكتاب ، الحافظ أبو يوسف يعقوب بن شيبة بن الصلت ، جمع كتاباً « مسنداً معللاً » فرتب فيه الأحاديث على أسماء راويها من الصحابة ، وتكلم على كثير منها أو على أكثرها ، ولم يكمل هذا الكتاب ، كما قال الخطيب في تاريخ بغداد (١٤ : ٢٨١) : « وصنف مسنداً معللاً ، إلا أنه لم يتممه » . ونقل عن الأزهري قال : « قيل لي إن نسخة لمسند أبي هريرة شوهدت بمصر ، فكانت مائتي جزء . قال الأزهري : ولم يصنف يعقوب المسند كله . وسمعت الشيوخ يقولون : لم يتم مسند معلل قط » قال الخطيب : « والذي ظهر ليعقوب مسند العشرة ، وابن مسعود ، وعمار ، وعتبة بن غزوان ، والعباس ، وبعض الموالي ، هذا الذي رأينا من مسنده حسب » ، وقال الحافظ الذهبي في تذكرة الحفاظ (٢ : ١٤١) : « بلغني أن مسند عليّ له خمسة مجلدات »

ومسند يعقوب بن شيبة هذا فقد من المكاتب الاسلامية فلم نجد أحداً من علماء الحديث في القرون الأخيرة ذكر أنه رآه أو نقل شيئاً منه . وآخر من ذكر ذلك — فيما نعلم — الحافظ الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ فانه قال في تذكرة الحفاظ : « وقع لي من مسنده جزء » يريد من الكتاب مطلقاً لا من مسند عليّ خاصة كما يوهم كلام الاستاذ الناشر في ترجمة المؤلف (ص١٤) ولعل الجزء الذي وقع للذهبي هو هذا الجزء الذي نشره الدكتور سامي حداد ، وإن كنت أرجح غير ذلك ، لأن الذهبي لو كان وقع له هذا الجزء لكتب عليه ما يفيد القراءة أو السماع أو النقل ، كعادة العلماء المتقدمين المتقنين

وما ندري كم كانت أجزاء مسند عمر بن الخطاب في كتاب يعقوب بن شيبة ، وهذا الجزء العاشر منه ، وهو في أربع وعشرين ورقة في الأصل الأثري الذي وقع للدكتور حداد ، وطبعه في ٧٨ صفحة منها عشر صفحات للسماعات التي كتبت في المخطوط في الصفحتين الأولى والأخيرة

وقد عني الدكتور حداد بطبعه أتم عناية ؛ فأتقنه وأتقنه ، وحفظ الأمانة كاملة أو تكاد وأثبت أصل الكتاب كما قرأه ، وأثبت نص السماعات كما وجدها ، وإن ندَّ عنه شيء فما يلاقي قارئ المخطوط الأثرية من عناء وصعوبة ، لا من تقصير أو إهمال . ثم ترجم لجميع الرجال والنساء الذين وردت أسماؤهم في الجزء تراجم مختصرة في ٩٠ صفحة ، ثم ترجم كذلك لمن وردت أسماؤهم في السماعات في ٣٠ صفحة ، وذكر مفردات الألفاظ الغريبة وأسماء الأماكن في ست صفحات . وهذا جهد مذكور مشكور

وقد لاحظت في هذه المجموعة النفيسة أشياء أحببت أن أنبه اليها ، لا نقداً واستدراكاً ، ولكن إتماماً لما فات الناشر حفظه الله ، أو تصويباً لما كان خطأ في نظري ، وقد أكون أنا المخطيء وفوق كل ذي علم عليم . ولم أستوعب كل مواضع البحث والنظرية ، لضيق الوقت أولاً ، ولأن صورة المخطوط الفوتوستاتية ليست في متناول يدي ثانياً

١ — ص ٩ س ١٤ وما بعده ، وص ٢١٥ س ١٢ وما بعده : مالك النسخة وكاتبها «محمد بن أحمد بن علي الأشباني الدقاق أبو طاهر» ترجم له الخطيب في تاريخ بغداد ، كما ذكر الناشر . وكلمة « الاشباني » رسمت في الأصل المخطوط واضحة النقط في الشين . والحرف الذي بعدها غير واضح النقط ، فتبع الناشر ما كتب في تاريخ بغداد وجعله باء . والراجح عندي أن هذا خطأ . لأنه ليس في أنساب المحدثين من يقال له « الاشباني » ، فانهم يذكرون ما يتشابه في الخط ويختلف في النقط والنطق من أمثال هذا ، فنجد الحافظ الذهبي ذكر في كتاب المشتبه (ص ١٤ طبعة ليدن سنة ١٨٦٣) « الأشناني » و « الأستاني » وهذان بضم الهمزة و « الأسناني » بفتحها ، و « الأسناني » بفتحها أيضاً . وذكر أن الأول يطلق على عدة من الرواة ، وعين أشخاص الباقين . فتعين لنا على قواعدهم أن هذا الراوي « أشناني » بضم الهمزة وبالنون بعد الشين ، نسبة الى بيع « الأشنان » ، وهو بضم الهمزة وبكسرها ، والضم أعلى ، ونسبة المحدثين اليه بالضم فقط ، ويؤيد صحة ما قلنا أن هذا الراوي وصف أيضاً بأنه « الدقاق » وهو العطار الذي يبيع هذه العقاقير المعروفة ويدقها ويخلطها . ثم إن المتأمل المدقق في صورة الصفحة الأولى في خط الأشناني هذا يجد أن نقطة النون ثابتة منحرفة الى اليمين قليلاً بجوار نقط الشين ، ولكنها ضئيلة جداً ، لا تكاد تظهر

٢ — ص ٣٥ س ٩ و ١١ وص ١٣٧ س ٢ و ٤ « شريح بن النعمان » هكذا بالشين المعجمة والحاء المهملة ، وذكر في ترجمته عن التهذيب أنه «الصائدي الكوفي» الذي يروي عن علي بن أبي طالب . وهذا خطأ وتصحيف . فان الذي يروي عن علي في القرن الأول لا يروي عن سفيان بن عيينة في أواخر القرن الثاني ، ولا يروي عنه يعقوب بن شيبة في أوائل القرن

الثالث . بل هو « سريج بن النعمان » بضم السين المهملة وآخره جيم ، وهو أبو الحسين اللؤلؤي الجوهري البغدادي شيخ الامام أحمد بن حنبل والبخاري وغيرهما ، مات سنة ٢١٧ ترجمته في التهذيب (ج ٣ ص ٤٥٧)

٣ — ص ٣٦ س ٨ و ١٣ « فاجتملوها » أخشى جداً أن تكون خطأ ، وأن يكون صواب قراءتها « فاجْتَمَلُوها » . والشحم المذاب يقال له « جَمِيل » ويقال « جَمَلَهُ » و « أجمله » أي أذابهُ واستخرج دُهنه ، ونصوا على أن الأولى أفصح من الثانية . وأما « اجتمل » فان معناها أكل الجميل أي الشحم المذاب . وليس هذا مراداً في الحديث ، بل المراد أنهم « جملوا » الشحوم أذابوها ، وباعوها فأكلوا ثمنها ، تحيلاً منهم الى استحلال ما حرَّم الله عليهم من أكل الشحم ، فأكلوا ثمنهُ

٤ — ص ٦٣ س ٧ و ٨ و ١٣ وص ٦٤ س ٩ وص ٦٥ س ٦ وص ٦٧ س ٢ و ٨ و ١٣ « أبو عبد الملك بن الفارسي وهو عبد الرحمن بن عبد العزيز » ذكر هذا الراوي مرتين ، روى عنهُ المؤلف يعقوب بن شيبة سماعاً منهُ

وقد ذكر الناشر ترجمة عبد الرحمن هذا في ص ١٤٧ — ١٤٨ عن التهذيب وغيره ، وأشار في باب الكنى ص ١٨٧ الى إنهُ أبو عبد الملك بن الفارسي ، ولكنهُ أخطأ خطأ غريباً إذ ذكر ترجمة رجل آخر ، هو « عبد الرحمن بن عبد العزيز بن عبد الله أبو محمد الأنصاري الأوسي » وهذا توفي سنة ١٦٢ فكيف يسمع من المؤلف المولود سنة ١٨٢ بعد وفاته بعشرين سنة !؟ فالقطع اليقين أن أبا عبد الملك بن الفارسي غير أبي محمد الأنصاري . ولكني لم أعرف مَن ابن الفارسي هذا ؟ ولم أجد له ترجمة

٥ — ص ٦٣ س ٩ و ١٣ « سمعت أبا عفان » ، « أخبرني أبو عفان » والذي يظهر لي أن هذا هو أبو عبد الملك بن الفارسي . وذكر الناشر في التراجم أن أبا عفان هو المترجم في ميزان الاعتدال . وقد ترجم له ابن حجر أيضاً في لسان الميزان (ج ٣ ص ٢٤٩ — ٢٥٠) وذكر أن اسمه « عبد الله بن أحمد بن حرب الجرنوبي الشاعر البصري » وأنهُ روى عن الأصمعي وغيره ، ومات سنة ٢٥٧ ومما أوثق به أن هذا غير الذي يروي عن الأوزاعي ، فبينهما مائة سنة ، فالأوزاعي مات سنة ١٥٧ أو سنة ١٥٨ وأما الأصمعي فانهُ مات سنة ٢١٣ أو بعدها

٦ — ص ٦٤ س ٩ « أخبرني ابن جابر » والذي يقول هو ابن الفارسي أيضاً ، وأشار الناشر في ص ١٩٥ الى أن ابن جابر هو عبد الرحمن ، يعني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، وهذا خطأ عندي أيضاً ، لأن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قديم مات سنة ١٥٤ أو بعدها ، وهو من طبقة الأوزاعي ، فلا يدركه ابن الفارسي شيخ المؤلف

٧ — ص ٧٦ س ١٤ وص ٧٣ س ٨ وص ٧٣ س ١ « وقال حمزة في حجته » صوابه « وقال حمزة في حجته » والحديث في البخاري (ج ٢ ص ١٣٥ — ١٣٦ من الطبعة السلطانية) وفتح الباري (ج ٣ ص ٣١٠ طبعة بولاق) بلفظ « قل » فعل أمر ، وليس فيه رواية أخرى بلفظ الماضي . فلعل قراءة الحرف اشتبهت على الناشر الفاضل

٨ — ص ٨٨ س ١١ و١٣ « برقا » هكذا بالباء الموحدة والقاف ، وهو خطأ . صوابهُ « يرفأ » بالياء التحتية المثناة والفاء وبعدها همزة . وهو مولى عمر بن الخطاب ، ذكر في القاموس في مادة « رفأ » وضبطهُ بوزن « يمنع » وله ذكر في قصة الربيع بن زياد الحارثي في الكامل للمبرد (ص ٨٨ طبعة أوروبة) (ج ١ ص ٨٩ طبعة الخيرية سنة ١٣٠٨) وكتب في بعض النسخ المخطوطة من الكامل « يرفى » . وفي قبائل العرب « يَرْفَى » من ولد الهِنْو بن الأزد . قال ابن دريد في الاشتقاق (ص ٢٨٦) : « ويرفى من قولهم رفيت القوم ورفوتهم : اذا سكّنتهم »

٩ — ص ٩٦ س ٨ وص ١٧٢ س ١٦ « منصور بن زاذان » بالدال المهملة ، وهو خطأ ، صوابه « زاذان » بزاي وذال معجمتين

١٠ — وضع الناشر لنفسه اصطلاحاً في الرمز الى كتب التراجم التي رجع اليها بأرقام ، وقد وقع بعض الخطأ فيما أشار اليه بالأرقام . ففي ص ١١٣ س ١٠ رقم (١٢) وهو رمز لكتاب لسان الميزان ، ولكن الذي نقله إنما نقله من الميزان للذهبي ، فصواب الرقم إذن (٧) . ومما وقع من الخطأ في الأرقام أيضاً أنه أشار في ترجمة « الفلتان بن عاصم » الى رقمه في الاصابة بجعله « ٧٠٠٦ » في ص ١٦٢ س ١٤ وفي حاشية ص ١٦٣ وصوابه « ٧٠٠٠ » وأن يذكر أنه في الجزء الخامس من الاصابة

١١ — وذكر الناشر في تراجم رجال السماعات ص ٢١٢ س ١٠ و١١ « علي بن هبة الله بن جعفر » ولم يعرفه فلم يترجم له . وهو الأمير الكبير الحافظ ابن ماكولا ، وهو « علي بن هبة الله بن علي بن جعفر بن علي بن محمد بن دلف » ولد سنة ٤٢٢ ومات سنة ٤٧٨ وفي تاريخ وفاته خلاف . وله ترجمة حافلة في تذكرة الحفاظ للذهبي (ج ٤ ص ٢ — ٦) وشذرات الذهب (ج ٣ ص ٣٨١) وهو صديق الحافظ أبي عبد الله الحميدي صاحب الجمع بين الصحيحين ، وكانا متلازمين في السماع على الشيوخ . وقد سمعا معاً كتاب الرسالة للشافعي وثبت سماعهما في سماعات نسخة الربيع بن سليمان ، التي حققنا الكتاب عنها وطبعناه في مكتبة الحلبي بمصر ، وسماعهما ثابت على أبي بكر الحداد السلمي في سنة ٤٥٧ بقراءة الحميدي . انظر السماعات رقم ٨ و٩ و١٠ و١١ في مقدمتنا لكتاب الرسالة (ص ٣٦ — ٣٩)

١٢ — في تراجم رجال الكتاب عنوان « من كنى باسم أبيه » وهذا خطأ في التعبير ، فان

الكنية ما صدر بأب أو أم ، فالاسم المضاف الى « أب » يكون اسماً حقيقة أو اعتباراً ، فصواب العنوان « من كنى باسم ابنه » وأحسن منه أن يكون « من ذكر بكنيته » كأن كلمة « الكنية » كافية في الدلالة على المراد

ثم إن ما سماه الناشر أغلاطاً إملائية في الأثر المخطوط ليس على ما ظنه ، فإن قواعد الاملاء تغيرت جداً ، وللمتقدمين فيها اصطلاح لعله أدق اتقاناً من اصطلاح المتأخرين ، ولو ذهبنا نفصل القول في هذا لطال الكلام جداً ، وفي الاشارة غنية

وبعد : فهذه عجالة من رأس القلم ، ولعلي أن أوفق الى إعادة الحديث عن هذا الأثر النفيس ، بعد أن تصل يدي الى صورة المخطوط الأصلي ، فأقابله بها ، وأكتب ما فاتني في كلمتي هذه ، إن أذن لي أخي فؤاد صروف محرر المقتطف ، حفظه الله

ولو كان لي رأي في نشر الكتاب ، لأشرت بوضع السماعات مرتبة ترتيباً تاريخياً ، الأقدم فالأقدم ، كما صنعت في إثبات السماعات المكتوبة على نسخة الربيع بن سليمان من كتاب الرسالة للشافعي ، وهي أقدم مخطوط عربي كامل ، مما حفظ لنا من كتب الأقدمين ، إذ هي الأصل الذي كتبه الربيع بن سليمان بخطه في حياة الامام الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ كما حققت ذلك وبينته بدلائله في مقدمتي هناك

أحمد محمد شاكر

القاضي الشرعي

العمارة الاسلامية

للاستاذ الكبتن كريسويل عميد معهد الآثار الاسلامية

أمامنا الجزء الثاني من هذا المؤلف النفيس وهو عمل يهز بحق كل العلماء والباحثين والهواة في ميدان الآثار الاسلامية ، والكتاب صورة واضحة من شخصية الاستاذ كريسويل الذي كرس حياته لبحث كل الآثار الاسلامية في العالم منذ نشأة الدين الاسلامي الحنيف الى اليوم . ولن نتحدث في هذه الكلمة عن الاستاذ نفسه فهو عالم معروف له اسمه الداوي في مصر وفي الجامعات العالمية الكبرى

وهذا الكتاب يشتمل على آثار العباسيين والدولة الاموية في الغرب الاسلامي (الاندلس وشمال افريقية) والدولة الطولونية في مصر والدولة السامانية (٧٥١ — ٩٠٥) في شمالي افريقية وقد أضاف اليه اربعة بحوث هامة كتبها الأساتذة فيلكس هرناثيه وجورج مارسيه وعبد الفتاح حلمي وحسن عبد الوهاب من المشتغلين بالآثار الاسلامية

ولكي نعطي فكرة عن هذا الكتاب نقول أن المؤلف الفاضل يتبع التدقيق الزائد في كتابته بغض النظر عن العوامل الجغرافية . فقد تناول بالشرح المستفيض تأسيس بغداد في ايام الخليفة

المنصورة وكانت مدينة مستديرة التخطيط توسطها القصور ودور الحكومة ومكز الجند والمسجد الكبير . ثم الرقة والاخيضر والاضافات البنائية والزخرفية في المسجد الاقصى والمسجد الكبير في مدينة قرطبة ورباط سوسة وجامع عمرو بن العاص وقلعة المريدة والمسجد العظيم في القيروان وقد تناول تأسيس مدينة سمرا وتطور مبانيها والعوامل الفنية الجديدة التي نشأت فيها

وقد انتقلت فيما بعد الى الفسطاط والقطائع من وادي النيل عند ما جاء اليه احمد بن طولون وشيد عاصمة ملكه الجديد وبنى قصوره ومسجده الرائع في عمارته وجمال هندسته وزخارفه الجصية والخشبية التي يقدرها رجال الفن الاسلامي

وقد ختم الاستاذ كريسويل كتابه بمراجع الكتب العربية والافرنكية التي يرجع اليها بجانب مئات المقالات والبحوث والمحاضرات ويخيل الينا انه لم يترك صغيرة ولا كبيرة الا قتلها بحثاً

وكذلك ثبت تاريخي هام لجميع الآثار الاسلامية في العالم . وقد سهل المؤلف بعمله هذا على الباحثين مهمة التنقيب عن اي اثر في الآثار . ولنضرب مثلاً لذلك فان عدد المراجع الخاصة بقبة الصخرة ١٧٣ ومسجد دمشق اكثر من ١٩٠ مرجعاً ومسجد قرطبة ١٣٠ ولجامع عمرو ١١٠ ومقياس الروضة ٧٣ ولجامع ابن طولون ١٠٧

ويلوح لمن يطلع على هذا السفر العظيم ان الاستاذ كريسويل قد حاول محاولة جبارة لكي يجعل من كتابه هذا أكمل واوفى ما حوت الكتب عن العمارة الاسلامية خلال القرون الثلاثة الهجرية الأولى . وقد أثبت لنا ان العرب الأول الذين لم تكن لديهم « عمارة » بالمعنى المعروف اليوم — اذا استثنينا بلاد اليمن — عند ما فتحوا البلدان المجاورة اندفعت قواتهم في شكل مروحة نحو بلاد الجزيرة وشرقها وبلاد الشام وامتزجوا بحضارتين عظيمتين — حضارة الرومان وحضارة الفرس — الأولى في سوريا والثانية الى شرق بلاد النهرين ومن هؤلاء اكتسبت العمارة الاسلامية عناصرها وانتشرت فيما بعد الى بلادها المعروفة في مصر وشمال افريقية والاندلس وجزر البحر الابيض المتوسط

وقد اتبع الاستاذ كريسويل في تأليف كتابه طريقة الترتيب التاريخي . فيتناول الاثر من الناحية التاريخية ويتكلم عن أسباب بنائه ثم يصفه من الناحية العمارية ويحلل الاجزاء الباقية من البناء ثم يبحث أصوله العمارية وموارده ونشأتها الأولى في البلدان التي عرفت طرق البناء . وقد دعم نظرياته وآراءه بصور وتخطيطات ورسوم قديمة باليد نقلها عن المؤلفات القديمة أو صورها بنفسه . ولكي نرى كيف عني الاستاذ كريسويل بدحض آراء من سبقه أنه خص فسيفساء مسجد الصخرة ببحث كتبته الاخصائية الآنسة مرجريت فان برشم يشغل عشرات الصفحات وقد ضمّ تسعين صورة فوتوغرافية و٦٨ صورة للفسيفساء وحدها

ان هذا الكتاب وحده لكفيل بتخليد اسم العالم كريسويل فهو أقدم من عشر تقاني نبيل منذ ترك خدمة سلاح الطيران عام ١٩١٨ وكرس حياته لخدمة العمارة الاسلامية . . . وهذا العمل قد اكسبه بحق احترام كل مثقف ومؤرخ ومهندس . وقد أنار لنا استاذنا كريسويل السبيل الى ما يعمله العلم في صمت وهدوء بعيداً عن ضوضاء الدعاية الخلابة . وليس من شك ان كتابه سيظل تحفة نادرة وأثراً خالداً على مر الزمن ... كتلك الآثار العظيمة التي كتب عنها ووصفها في بغداد ودمشق وبيت المقدس والقاهرة ... الصاغ عبد الرحمن زكي

ضحكات ابليس

قد تكون القصة اكثر ألوان الأدب ظهوراً وأسرعها خطواً ، فهي تجتذب الى حظيرتها أكثر الأدباء . ذلك لأنها لونٌ جديدٌ من الادب من ناحية ، ولأن الكاتب من ناحية أخرى يستطيع فيها ان يعالج كثيراً من مشكلاتنا الاجتماعية في رفق رفي فن يبعد به عن جفاف المقالات المطولة ولأنها أسعد ألوان الادب بقرّائها والمتهافتين عليها . وفي مصر اليوم جيلٌ جديد استطاع على هدى طلائع هذا الفن من الكتّاب الذين شقّوا له في الأدب طريقاً ثم عبّدوها ، وأقاموا له مكانة رفيعة سموا بها الى ان تكون جديرة بالدرس والعناية ، ان يعمل في نشاط ، وأن يتجه في المناحي التي يراها متفقة مع مزاجه الأدبي حيث كثرت هذه المناحي وتعددت السبل

مَن هذا الجيل صاحب مجموعة « ضحكات ابليس » الذي وفق في فترة وجيزة من حياته الأدبية الى ان يلفت النظر الى أدبه ، على ما في هذا اللون من الادب من دخلاء كثيرين ومن آثار سخيفة أكثر . ولقد بدأ بقصة « الدرجة الثامنة » التي تلاها بمجموعة أخرى من القصص تحت عنوان « رئيس التحرير » يخطو ثم يخطو حتى اذا أخرج مجموعته الجديدة « ضحكات ابليس » كان قد استطاع ان يحدد للقارئ وجهته ويميز له ألوان اتجاهه ويضع أمام عينيه شخصيته التي يتميز بها والتي تنبيء عن تفتح وانطلاق . وهو يرى ان القصة يجب ان لا تخضع للعلم او تسير في ركابه لان نظرياته قابلة للتغير ، وليست مهمة الكاتب اثبات نظريات العلم وانما هي تشريح الحياة والكشف عن جوانبها الخفية في عالم النفس . ولهذا نجد في قصص هذا الكاتب بساطة واستسلاماً لموهبته ولا نجد اندفاعاً وراء افتعال الحوادث

وتحتوي هذه المجموعة على أربع عشرة قصة منها ما هو معالجة لمشكلات اجتماعية في الصميم كما في قصة « قريتنا النموذجية » و« ناس وكلاب » ففي الاولى منهما ينتهي بعد عرض جميل لما يساور الكثير من نفوس المتعلمين من مشروعات اصلاحية للريف والريفيين الى أن مايشتى

الفلاح لبس عيه وأغناهو جهل من يتصدون لإسعاده. كما يعالج في الثانية ناحية من أدق النواحي تلك هي العناية من جانب أصحاب الثروات بحيواناتهم بل بكلابهم دون العناية بأسر فلاحيهم واجرائهم . . .

ومن هذه القصص ما هو صور فكهة لبعض ما في الحياة من شخصيات كما في قصة « ماتنكان » وهي صورة بعض المتعلقين بالحياة السياسية والمتصايحين بمختلف الآراء . وكما في قصة « العفريت » وهي تصوير للغيرة في النفوس الساذجة التي لا تستطيع أمام ضعفها إلاَّ أن تحمل ألمها في صميمها ، وكما في قصة « زاوية السقوط » وهي تصوير فكه لوكيل محام تلمب أصابع الحب في نفسه الساذجة فتلعب بحياته ورزقه . كل ذلك في اسلوب من الفكاهة والسخرية ، وهي بحق سخرية من إبليس هذه القصص لا من ضحكاته !

وقد عني الاستاذ ذهني بأن يجعل ما استطاع لغة الحوار فصيحة رقيقة الاسلوب ، على أنهُ في بعض الاحوال يجعل بعض الحديث عاميًّا وهذا قد لا يكون محل نقد الا حين يتعلق عن لسان مثقف من شخصياته كما في قصة « زاوية السقوط » و « العفريت » حيث أنطق المحامي بالعامية في حين جعل حديث الريفيين البسطاء فصيحاً . ولكن مما يحمد عليه المؤلف أن ذلك قليل جدًّا يستطيع أن يتلافاه في مجموعاته الجديدة إن شاء الله

أمين الريحاني

كانت وفاة الأديب المفكر المرحوم أمين الريحاني خسارة كبيرة على العالم الأدبي فقد كان علماً من أعلامه الذين رفعوا رايته ونبهوا الغرب الى قيمته يوم وضع رباعيات أبي العلاء المعري بالانكليزية ، ثم لفت أنظار أدباء العرب الى لون جديد من الادب يوم أخرج الريحانيات

والمرحوم الريحاني آثار عديدة في اللغتين العربية والانكليزية تقرب من الاربعين كتاباً وقد قام أخوه الأديب البرت الريحاني بحق الوفاء لذكرى أخيه فأخرج كتيّباً صغيراً في مائة وثلاثين صفحة من القطع الصغير ، منتخباً فيه فصلاً واحداً او مختارة واحدة من كل كتاب من كتبه المطبوعة أو التي لم تنشر بعد ، وقد توخى في هذه المختارات أن تكشف كل قطعة منها عن ناحية من نواحي أدب الأمين

ولعلَّ الناشر الفاضل يقوم — عند ما تتحسن الظروف — باعادة طبع ما نفد من مؤلفات أخيه المطبوعة ونشر ما لم ينشر منها ليستطيع من يريد دراسة هذا الاديب الكبير أن يجد أمامه المدد لدراسته فان أدب أمين الريحاني الخالد لجديرٌ بالدرس والبحث

يوم
مع قدماء المصريين في منف

يعنى الأديب الفاضل محمد صابر بالتاريخ المصري القديم عناية جميلة فقد أخرج قبل هذا الكتاب اربعة كتب تصور الحياة في مصر القديمة ، وهذا وفاء جميل منه للتاريخ وطنه المجيد

وهو في كتابه الأخير يصوّر هذه الحياة على شكل جولة بين القدماء انفسهم في منف بأسلوب علمي بسيط مقنع بايجاز ، وقد أضاف اليه موضوع التمائم والأحجبة ليلم القارىء عادات قدماء المصريين وليوازن بينها وبين ما بقي لنا منها دون تغيير رغم مرور هذه الأجيال البعيدة من الزمان . وقد استقى لهذه الرسالة المعلومات مما دوّنه القوم من نقوش ومناظر وكتابات على مقابر عظماء الدولة القديمة بسقارة جبانة منف مع بعض التصرّف . والكتاب يقع في ١٤٠ صفحة من القطع الصغير مطبوعاً على ورق مصقول ومزيناً بالصور والرسوم

أغاريد زفاف

تأليف عبد الحميد مصطفى خليل — صفحاته ٥١ من القطع الصغير طبع مطبعة مصر

في المقدمة الطريفة التي وضعها المؤلف بحث عن شعر الزواج أشار فيه الى أن نصيب هذا الشعر في الأدب العربي ضئيل اذا قيس بالآداب الغربية . وأن المؤلف يطالب كثيراً من الأدب العربي حين يتوقع أن يكون للزوجة فيه نصيب عظيم

فلقد كانت المرأة محجبة طيلة هذه العصور ، وكانت الزوجة يعبر عنها في اللغة (بحرمة) الرجل ، فكيف ينتظر من زوجها أن يتغنى بمحاسنها ، أو يذيع على الناس أوصافها أو محاسن خلقها في سطور أو أبيات من الشعر تروى ويتناقلها لسان عن لسان ؟

أما تعرُّض شعراء الغزل في الجاهلية والاسلام للمرأة على العموم — غير أن تكون زوجة — فهو معقول لا يتعارض مع الحقيقة السالفة الذكر . فامرؤ القيس الكندي والأعشى وغيرهما في الجاهلية ذكروا المرأة في شعرهم وذكروا زوجاتهم أيضاً .

أما في الاسلام فقد تغزّل عمر بن أبي ربيعة وكثير وجرير وجميل بنساء لم يكنّ زوجات لهم صيانةً لمقام الزوجة وبعداً بها عن أن تكون مضغة في الأفواه ثم يكفي ان يكون في الأدب العربي الحديث ذكر للزوجات ولو من بعيد كما فعل الدكتور طه حسين بك في كتابه (الأيام) . ويكفي ان يكون للبارودي مثل رثائه لزوجته التي ماتت وهو منفي في سرنديب

ومثل هذه السنحات في الأدب العربي تذكرنا بالاهداء الجميل الذي قدّمه (ول ديورانت) الأميركي المعاصر الى زوجته في مقدمة كتابه في تاريخ الفلسفة . وفي الكتاب موضوعات مختلفة ما بين أغاريد وأغانين وألوان قاتمة وأشجان وكلها جديرة بالمطالعة لما فيها من طرافة وافتنان ***





التصوير بالاشعة التي تحت الاحمر

تمثل الصورة العليا تمثالاً نصفياً وعن جانبه مكواتان وقد صور تصويراً عادياً بضوء الشمس او بضوء المنيزيوم. أما الصورة الثانية فللتمثال نفسه في حجرة مظلمة وانما أحميت المكواتان فانبعثت منهما الاشعة التي تحت الاحمر فأثرت في جهاز مصوّر استنبط حديثاً

[مقال كشاف الطائرات صفحة ٤٢ في هذا الجزء]

فهرس الجزء الاول

من المجلد التاسع والتسعين



المقتطف



العلم والصوفية
للدكتور مشرفة وكيل كلية العلوم

الكولونل لورنس
والثورة العربية
للدكتور عبد الرحمن شهبندر

ذكاء الحيوان
للدكتور محمد ولي من اساتذة كلية العلوم

اجنحة المستقبل
لمستنبط الاتوجيرو ده لاثيرفا



الجزء الثاني من المجلد التاسع والتسعين

١ يوليو سنة ١٩٤١ — ٦ جماد الثاني سنة ١٣٦٠

هذه الحرب العظيمة

بين الحرب الحاضرة والحرب العظمى الماضية وجوه شبه ووجوه خلاف

أما وجوه الشبه فأهمها انقسام القارة الأوربية الى معسكرين احدهما ترئسهُ المانيا والآخر ترئسهُ بريطانيا وانضمام الولايات المتحدة الأميركية الى احد المعسكرين ونصرتها لهُ على المعسكر الآخر وامتداد نار القتال الى القارة الأفريقية والقارة الأسيوية ومقام حرب الغواصات في الحربين وما حدث في هذه الحرب من خذل فرنسا لحلفائها على نحو ما صنعت روسيا في الحرب الماضية واتفاق المانيا مع الدولة الخاذلة في الحالين

تعددت وجوه الشبه فهل تشمل نتيجة هذه الحرب فتكون كنتيجة الحرب الأخرى

أما وجوه الخلاف فكثيرة العدد وفي مقدمتها زيادة اشتراك الشعوب في الصراع اشتراكاً تجلى في الحرب الماضية ولكنه لم يبلغ المبلغ الذي بلغه في هذه الحرب . فالشعوب فيها تكاد تكون كأنها في ميدان النزاع والقتال. وحسب المرء ان يشير الى عدد القتلى والجرحى المدنيين في البلاد البريطانية فقد جاوز عدد القتلى من سكان المدن والقرى ستين الفاً في أقل من عام ولم يسمع بمثل هذا في الحرب الماضية في بلاد بعيدة عن حومة الوغى كالجزر البريطانية

ومن أهم وجوه الخلاف مقام الطيران في الحربين فقد كان للطيران شيء من الشأن في

الجانب الاخير من الحرب الماضية . أما في الحرب الحاضرة فقد صار له مقام خاص جعله أمضى الأسلحة الثلاثة

ويضاف الى الطيران الاكثار من استعمال الآلات الأرضية لتحل محل الفرسان والجند وتدفع بقوة الزيت مما أفضى الى تبدل عظيم في الحرب فقلَّ التحام الجند وصار التنافس والتناحر لآلات الحديد والفولاذ

فقضي بذلك على حرب الخنادق وحل محلها الحرب الخاطفة المرموز لها بالطائرات والدبابات والسيارات المدرعة

فالأمة التي تكثر آلات الحرب والجلاد فيها تكفل الفوز ولا سيما اذا أعدَّت من الرجال من يحسن استعمال هذه الآلات .

ومن الفروق التي لها شأن خطير ما تريده الدولة الألمانية من تحويل اوربا أولاً وسائر اقطار العالم بعدها في اتجاه خاص سموه النظام الجديد وقال عنه خصومه في وصفه أنه قسمة الخلق الى قسمين فقسمٌ سيد وقسمٌ مسود . وقد أنشأ الالمان بهذا النظام في نفوس انصاره والمؤمنين به حمية تشبه حمية أنصار كل دين جديد فتراهم يلقون أنفسهم في حضن الموت غير مبالين بما يصيبهم ما داموا يجاهدون في سبيل ادراك الغاية العظمى التي وضعها قادتهم وجعلوها هدفاً لجهودهم وهو ما يضاف الى شهوة الفتح وحب التملك وهما اللذان كانا رائد المعتدي في الحرب الماضية ولا يزالان كذلك في هذه الحرب

يقابل هذا النشاط ما هو مشهود في موقف الفريق الآخر من العزم الصادق على صون قواعد العقائد الاجتماعية والسياسية التي يدين بها وتصميمه على الدفاع عنها الى النهاية

ويطول بنا المقام اذا حاولنا استيفاء جميع وجوه الشبه وجميع وجوه الخلاف في هذا الصراع بين ما حدث في الماضي غير البعيد وما هو حادث الآن

***

ويحار المرء في العوامل التي أوصلت العالم ولا سيما اوربا الى الموقف الحالي بعد الحرب الماضية وبعد عقد معاهدات الصلح وانشاء جامعة الأمم

فقد عمدت المانيا من نحو عشرة أعوام الى التسلح الكثير بمرأى ومسمع من الدول التي

قهرتها في الحرب الماضية وهي عين الدولة التي شهدت مثل هذا الامر في عصر نبوليون فانه بعد ما قهر بروسيا وجرّدها من سلاحها حظر عليها تأليف جيش مسلح فلم تفتأ الأمة البروسية تنشىء جمعيات الألعاب الرياضية للشبان وتستتر وراءها لاعداد جيش حتى كان لها ما شاءت وقاتل جيش بلوخر البروسي الى جنب جيش ولنتن البريطاني في معركة وترلو التاريخية التي أفل فيها كوكب سعد نبوليون

ومثل هذا جرى في الحقبة الاخيرة بعد صلح باريس فقد عمدت المانيا الى التسلح وكانت تصنع السلاح الجديد الكثير في الحين الذي كان فيه المستر هندرسن الوزير الاشتراكي البريطاني رأس ما سموه مؤتمر نزع السلاح

ولا يسع الدول التي تحارب المانيا اليوم أن تزعم أن ما كانت ألمانيا تصنعه من هذا القبيل كان علمه محجوباً عنها فأمامنا ونحن نكتب هذه السطور مقال للمستر ونستن تشرتشل نشرت ترجمته في المقطم في سنة ١٩٣٥ وفيه ينبه هذا القطب السياسي العظيم قومه وحلفاءهم الى الخطر الذي يعد لهم وراء نهر الرين ليدهمهم في المستقبل غير البعيد

وما برح المستر تشرتشل يقرع أسماع قومه بمثل هذه الاقوال وخصومه السياسيون يحاولون اسكاته بدعوى أنه يهيج الخواطر بغير مسوغ الى ان وقعت الواقعة وجاءت الحوادث مؤيدة لما أنذر به

***

لكن أيحتمل أن يحقق حلم الهر هتلر أو يكون نصيبه كنصيب نبوليون

ان رحى الحرب الدائرة في روسيا الآن تدل على أن أداة الحرب الالمانية لاتزال قوية جداً وأن الألمانيين لا يزالون يواجهون الموت بقيادة زعيمهم بغير وجل وهم كثيرو العدد وقد رأيناهم في بلاد اليونان وكريت يهاجمون أعداءهم صفاً وراء صف فاذا باد الصف الاول حل الصف الثاني محله وهكذا الى أن يحل الاعياء بأعدائهم الذين يواجهونهم أو تفرغ ذخيرتهم فيضطروا الى الفرار

ولكن يلوح للمرء أن هناك سراً خفياً وقوة كامنة تحمي الحضارة والاَّ فما الذي منع الهر هتلر بعد انهيار فرنسا كدولة محاربة من أن يواصل قتال بريطانيا بعد معركة فلندر وضياع الف مدفع انجليزي وأسر عشرات ألوف من رجال الجيش البريطاني الباسل وما الذي منعه من

الاغارة على الجزر البريطانية قبل أن تستوفي الدولة البريطانية استعدادها وقبل أن تهب الولايات المتحدة الاميركية لنصرتها بالهمة التي تجلت بها فيما بعد

ان هذه الفترة التي تلت قهر فرنسا غيرت سير الحرب ومصيرها حتماً فقد شهد الناس طرًّا كيف ان قوة بريطانيا الجوية أخذت تزيد زيادة مطردة بمعونة اميركا حتى صار في طاقة البريطانيين أن يغيروا اغارات ليلية كبيرة مستمرة على المناطق الصناعية في المانيا ويمطروها وابلاً من قنابلهم توشك أن تشل تلك الصناعات

***

وهنا يبدو للعيان فضل الأسطول البريطاني وقيمة سلطانه على البحار فالمقام ليضيق بنا اذا حاولنا احصاء فعال هذا الأسطول الظاهرة والخفية فانه علاوة على حصر المانيا ومنع وصول المواد الاولية ومواد الطعام اليها حال دون حركتها العسكرية في غير البر وأيد ما قاله الاميرال ماهان الناقد البحري الاميركي المشهور وهو ان الفوز في الحروب لصاحب السيادة على البحر

***

وربما كان تحول المانيا عن القتال في الميدان الغربي الى القتال في الميدان الشرقي من أسطع الأدلة على شعورها بالخيبة التي عرتها بعجزها عن غزو بريطانيا وتحقيق ما وعدها به الهر هتلر

ان الذين يذكرون في بدء الحرب ما قاله الهر هتلر عن اعتماده على نفسه ودولته دون سواها في الحرب يعلمون الآن أنه دعا ايطاليا فيما بعد الى معونته فكانت هذه الدعوة سبباً في ما أصاب الايطاليين في قارة افريقيا وضياع امبراطوريتهم فيها

ثم عمد الهر هتلر الى استمالة فرنسا اليه حتى لقد قال الاميرال درلان ان المانيا لا تستطيع تحقيق النظام الجديد من غير عون فرنسا

وفي الواقع ان الهر هتلر لم يقصد من فرنسا أن تعينه على تطبيق قواعد النظام الجديد بل قصد أن تخرج عن قواعد المدنية وتسعفه بأسطولها وبواخرها وموانئها وقواعدها العسكرية في شمال افريقيا وغربها لتقابل القوة التي برزت للقائه من القارة الاميركية

ثم أن اميركا لم تنزل الى الميدان بعد ولكنها تصنع في ما سوى ذلك كل ما يصنعه المحارب

بقي هناك عنصر آخر يجب التنويه به وهو ان سير الحضارة من أقدم العصور انما هو في اتجاه يناقض الاتجاه الالماني او النازي فقد اتجه البشر تدريجياً الى الخلاص من ربقة الاستعباد والتمتع بالحرية الفردية وحرية المجموع على قاعدة التعاون وليس من المستطاع ارجاع الحضارة القهقرى في سيرها هذا وجل ما يستطاع وقف السير فترة من الزمان تطول أو تقصر بمدى فعل القوى التي تصدمها

***

والذين طالعوا تاريخ نبوليون رأوا أنه كثيراً ما تاق الى السلام ليتمتع بثمار انتصاره فكان يضطر الى الحرب رغبة منه في صون ما أحرز وظل هذا ديدنه حتى سقط بالسيف الذي طالما انتصر به

ويلاحظ ان المانيا لا تفتأ تنتقل من حرب الى حرب فالى نحو شهرين ما كان يخطر لأحد — اذا استثنينا أمثال ونستن تشرتشل من المطلعين — أن الحرب يمكن أن تقع بين المانيا وروسيا وقد عهدهما الناس صديقتين حميمتين بينهما اتفاق وميثاق وصلات اقتصادية كادت تستر ما بينهما من خلاف في العقيدة الاجتماعية حتى قيل للناس أن الهر هتلر « لحس » ما دوّنه في كتابه عن هذه الشيوعية التي عدّها خطراً عظيماً على أوربا وسائر العالم

ثم كانت المفاجأة التي أدهشت الناس والتي عقبها قصف المدافع وأزيز الطائرات في جو روسيا الحمراء

وقد يطول زمان الحرب وتعود فتنتقل من الميدان الشرقي الى الميدان الغربي وتعظم الخسارة في الارواح والاموال والسفن التجارية وترهق الشعوب المغلوبة على أمرها ولكن هذا كله سيصبح في خبر كان بعد زمان غير بعيد ويكتب الفوز للحضارة الصحيحة وتكون هذه الحرب ببلاياها ورزاياها منبهاً للبشر على ما في حضارتهم من خطأ وظلم وما في نظمهم الاجتماعية من فساد يجعل طبقات كثيرة في أعظم الأقطار خصباً وانتاجاً تعاني الفاقة والمرض والضنك في عالم كثير الخير وافر النعم في ظل ما يتبجحون به من حرية وتعاون او حرية ومساواة واخاء شعاراً ينادون به ولا يعملون بموجبه

ولا تنتهي مشكلة الحرب بوضع أوزارها فقد ظل العالم يعاني عواقب الحرب الماضية حتى نشبت الحرب الحاضرة بل عجز عن تفريج طائفة من أزماتها وحل جانب من عقدها وتبين

للعلاً ان جانباً كبيراً من الوسائل التي توسلت بها الدول الظافرة لاصلاح ما أفسدتهُ الحرب لم يف بالمرام بل خيب الآمال التي عقدت بهِ حتى لقد قيل ان الحرب الحاضرة انما هي وليدة الخطأ الذي عقب الحرب الماضية

فلا غرو اذا رأينا أقطاب الشعوب ينظرون من اليوم ويبحثون من الآن في ما تكون عليهِ الحال بعد الحرب الحاضرة وما يتعين الاصطلاح بهِ لتسيير العالم في طرق النظام والعمل واجتناب الكوارث التي تعقب الخسارة العظيمة التي يمنى بها بفعل القتال والدمار الشامل الذي يزيد زيادة مطردة

أما الألمانيون فدعوا الى هذا النظام الجديد الذي وضعهُ الهر هتلر في كتابهِ والذي تأباهُ الشعوب الحرة لأنهُ يضعها في مراتب تأبى ان تكون فيها فقد تمتعت بالحرية والكرامة قروناً فلا يسعها ان تنسى هذا كلهُ وبينها من قال اننا نؤثر الموت وقوفاً على أقدامنا على الحياة راكعين على ركبنا

يقابل هذا النظام النازي النظام الآخر الذي تدعو اليهِ الشعوب الحرة وفي مقدمتها بريطانيا والولايات المتحدة ومعهما جمهوريات أميركا الجنوبية وبلدان الدومنيون والهند وهو النظام الذي وافق عليه ممثلو الحلفاء جميعاً ومعهم مندوبو فرنسا الحرة في المؤتمر التاريخي الذي عقد في يوم ١٢ يونيو الماضي في قصر سانت جايمس في لندن

وفي الواقع ان مشكلات السلم قد تكون أعقد من مشكلات الحرب ففي الحرب توجه القوى في اتجاه واحد لأجل ادراك غرض واحد . اما في السلم بعد الحرب فيواجه المسؤولون مئات وألوفاً من المشكلات لاعادة أداة العالم الى موقفها السابق وتحويلها لتستطيع العمل الذي كفت عنه كذا شهوراً وسنوات

أما كيف يخرج العالم من هذه النار التي تصهره صهراً فشيء لا يستطاع التكهن به الآن ففي بدء الحرب الماضية قال السر ادورد جراي وزير الخارجية البريطانية في ذلك العهد ان الحرب الاوربية سيتلوها نهضة اشتراكية عظيمة فكان ما قال بدليل ما حدث في روسيا وايطاليا —قبل الفاشستية — وفرنسا وبريطانيا — فهل من ينبئنا بما تكون الحال بعد هذه الحرب من الوجهات الاجتماعية

محطة الاحياء البحرية

بالغردقة

لحامد عبد الفتاح جوهر
مدير محطة الاحياء المائية بالغردقة (١)

كانت الغردقة الى عهد قريب نقطة خاملة لا يعرفها أحد ، اللهم الا نفر من بحارة العرب أغلبهم من قبيلة جهينة . عرفوها لمرفئها الطبيعي الجميل ، وقد حمته سلسلة من الجزائر والشعاب المرجانية فجعلته صالحاً لرسو السفن حتى ما يبلغ منها عشرة آلاف طن أو يزيد

وقد أطلق عليها هذا الاسم نسبة الى نبات ملحي يكثر على شواطيء البحر الأحمر ويعرف بنبات الغرقد واسمه العلمي Nitraria tridentata . كانت تشرف منه على مرفأ الغردقة أيكة كبيرة (shrub) . فكان اذا حدث صياد صاحبه قال له مثلاً « لنتقابل عند الغرقدة » أو « كنت أصيد في جونة الغرقدة » وهكذا حتى أصبحت علماً لذلك المرفأ . وحرفت في العربية الدارجة فأصبحت الغردقة ، كما حرفت بالافرنجية فأصبحت حرجدة Hurghada ثم نطقت هورجادا

وظلت الغردقة مهملة حتى كشفت الحكومة عن وجود طبقات بها تحتوي على زيت البترول فعهدت الى شركة الزيوت المصرية الانجليزية باستنباطه في سنة ١٩١٢ . وبذلك بدأت أهمية الغردقة . ونشأت فيها قرية صغيرة يصلها بالسويس خط بحري منتظم يبلغ طوله نحو مائة وثمانين ميلاً بحرياً . ثم لم تمض بضع سنين حتى مهد طريق صحراوي يصلها بقنا طوله مائتا كيلومتر . ومنذ نحو عشر سنوات مد طريق بري بينها وبين السويس على طول الساحل الغربي من خليج السويس ، يبلغ طوله ثلاثمائة واثنين وثمانين كيلو متراً

﴿ تاريخ انشاء المحطة ﴾ أما تاريخ المحطة نفسها فيرجع الى عام ١٩٢٨ ، حين فكرت كلية العلوم في إقامة محطة لدراسة الأحياء التي تعيش في البحار المصرية . وكان عليها أن تفاضل بين البحرين الأبيض والأحمر . ولأسباب سوف أبينها بعد ، وقع الاختيار على البحر الأحمر . درست كلية العلوم المشروع وأعدت رحلة لانتقاء أنسب بقعة لاقامة المحطة . وكاد يحقق المشروع

(١) محاضرة ألقيت في المؤتمر السنوي الذي عقده المجمع المصري للثقافة العلمية

لتعذر وسائل التنقل في البحر لدى الجامعة ، لولا ان تفضل جلالة المغفور له ساكن الجنان الملك فؤاد فوضع تحت تصرف الجامعة اليختين البخاريين « قوله » و « سقاريا »

وفي يناير سنة ١٩٢٦ أبحر على اليخت «قوله» هيئة من أساتذة الكلية زارت بعض الموانئ والجزر بالبحر الأحمر

(انتقاء الموقع) كان لا بد أن تتوفر في المكان الذي ينتخب لاقامة المحطة بضع شرائط :—

اولاً — وفرة المادة العلمية من الأحياء البحرية وسهولة الحصول عليها

ثانياً — تنوعها

ثالثاً — بُعدها عن عبث الانسان او أي عامل آخر يمكن ان يؤثر في معيشتها الطبيعية

رابعاً — توفر اسباب الحياة للباحثين وخصوصاً في ساحل قفر مثل ساحل البحر الأحمر

خامساً — سهولة المواصلات بين القاهرة والمحطة

سادساً — وجود مرفأ طبيعي للقوارب الصغيرة التي تستعملها المحطة في بحوثها

وقد اكتملت هذه الشرائط أو كادت في جهة الغردقة . فانتخبت مكاناً للمحطة نقطة تبعد نحو عشرة كيلومترات من مرفأ الغردقة نفسها . وبدىء في إقامة المحطة سنة ١٩٣٠

***

قد يسأل سائل : لماذا عنيت كلية العلوم كل هذه العناية بالاحياء البحرية وما الذي حدا بها الى ان تجهد كل هذا الجهد في إقامة محطة كهذه في أقاصي الحدود ؟

والواقع ان كلية العلوم إنما سايرت في ذلك التقدم العلمي الحديث ، ونهجت نهج أمهات الجامعات التي رأت من واجبها أن تعنى بدرس البحار التي تغطي أكثر من ثلثي سطح المعمورة عنايتها بدراسة اليابسة . وقد عنيت بذلك الامم المتحضرة منذ زمن بعيد ، فبعثت بعلمائها في بعوث علمية يجوبون البحار ، ويسبرون أغوارها ، ويحللون ماءها ، ويلاحظون تياراتها ورياحها ، ويجمعون احياءها . حتى اذا عادوا بعد ذلك الى بلادهم ، عكفوا هم وغيرهم من أترابهم على دراسة ما جمعوا من معلومات ونماذج . ومن أهم هذه البعوث ما قامت بها البواخر Meteor, Discovery, Sibagn, Challenger, Magnaghi, Pola وأحدثها الرحلة الانكليزية الى الحاجز المرجاني الاعظم ، ثم رحلتا الباخرة المصرية «مباحث» في المحيط الهندي سنة ١٩٣٣—١٩٣٤ وفي البحر الاحمر سنة ١٩٣٤ — ١٩٣٥

وضعت هذه البعوث الأسس الأولية لعلم الاقيانوغرافيا او علم دراسة البحار ، كما أماطت اللثام عن حقائق كثيرة في تخطيط البحار ، وتركيب مياهها ، وتوزيع الحرارة والاحياء فيها .

ولا تزال حاجتنا ماسة الى الإكثار من هذه البحوث لكشف مجاهل البحار. لكنه من البديهي، لا تتمكن هذه البحوث التي تعمل عادة على ظهر سفن صغيرة ضيقة ، أن تقوم بدراسات تفصيلية عن تركيب الأحياء ، او طرق حياتها ، ووظائف أعضائها وتكاثرها ، وانتشارها في فصول السنة وما الى ذلك . ولهذا الغرض أقيمت المحطات العلمية على شواطىء البحار حيث يمكن تربية الأحياء المختلفة في الأكواريوم (المسمآى)، ومراقبتها مراقبة دقيقة، ومتابعة جميع ما يتعلق بها سواء من جهة التشريح أو وظائف الأعضاء ، أو أثر البيئة فيها وغير ذلك . كما يمكن أيضاً دراسة جميع الظواهر البحرية ، كالتيارات المائية والرياح ، وتغير درجات الحرارة والمد والجزر ، والأحياء المعلقة بالماء والسابحة فيه ، وما الى ذلك . وقد تبع إنشاء المحطات البحرية تطور كبير في علم الحياة بنوع خاص، فان الأحياء البحرية إذا قورنت بنظائرها في البر كانت في المكان الأول من الأهمية

وترجع أهمية الأحياء البحرية الى الخواص الممتازة التي يتمتع بها ماء البحر . فليس للمواد المنتشرة على سطح المعمورة ما هو أكثر منه ملاءمة للحياة في أشكالها المختلفة — لذلك نجد جميع أقسام الأحياء ممثلة في البحار، بينما يقتصر قسم أو قسمان منها على البحر دون البر أو الماء العذب وهذه هي الحيوانات شائكة الجلد (الشوكيات) Echinodermata والمكدبيات Ctenophora وزيادة على ذلك فاننا نجد في البحر أبسط الأنواع من كل القبائل تقريباً ، مما حدا بعلماء التطور الى الرجوع الى الأحياء المائية لتدعيم نظرياتهم. كل ذلك يرجع الى الخواص الزيائية والكيمائية الهامة التي تميز ماء البحر والتي لا مجال لبحثها هنا

﴿ البحر الأحمر ﴾ والبحر الأحمر نفسه ذو أهمية علمية كبيرة في كثير من النواحي فهو ضيق عميق جداً ، دافىء كثير التبخر لا تصب فيه أنهار ولا تجود سماؤه بالمطر الا النذر اليسير فهو شديد الملوحة ، ويتصل بالمحيط الهندي عند بوغاز باب المندب . الا أن مرتفعاً من القاع لا يزيد غوره على خمسين متراً شمالي باب المندب بنحو ستين ميلاً يفصل مياه الأغوار في البحرين بينما يسمح باختلاط المياه السطحية الدافئة

ومما يزيد في دفء مياه البحر الأحمر هبوب الرياح الموسمية في المحيط الهندي في الشتاء غرباً ، دافعة اليه مياه المحيط الهندي السطحية الدافئة ، في الوقت الذي تبدأ فيه درجة حرارة مياه البحر الأحمر في الهبوط ، فتحول دون هبوطها ، وبذلك أصبح هذا البحر أدفأ كثيراً من أي نقطة في البحار الأخرى على نفس خط العرض

كانت أهم نتائج خواص البحر الأحمر تلك : —

أولاً — أن تسربت أحياء المنطقة الهندوباسيفية الى البحر الأحمر عن طريق بوغاز باب المندب

ثانياً — صادفت هذه الأحياء مياهاً دافئة فانتشت وانتشرت شمالاً الى حدٍّ لم تبلغهُ في البحار الأخرى ، ومن أهم هذه الأحياء تلك التي تكوّن الشعاب المرجانية

ثالثاً — مياه القاع في البحر الأحمر أدفأ منها في أي بحر آخر إذ يبلغ متوسط درجة حرارتها نحو العشرين المئوية بينما درجة حرارة مياه القاع في المحيط نحو الصفر المئوي وسبب ذلك هو وجود الحاجز المرتفع من القاع شمالي باب المندب ، حائلاً دون تسرب مياه القاع الباردة من المحيط الهندي الى البحر الأحمر

رابعاً — لما كانت درجة حرارة مياه القاع في البحر الأحمر أعلا منها في أي بحر آخر كانت أحياء القاع مختلفة عنها في المحيط الهندي وغيره من البحار ، أو بعبارة أخرى كوّنت أحياء القاع في البحر الأحمر مجموعة خاصة به ، سوف يكون لدراستها شأن عظيم من الناحية العلمية

***

﴿البحر الأبيض﴾ تلك هي خواص البحر الأحمر العامة فلنقارنهُ إذاً ببحرنا الآخر — البحر الأبيض

يتصل البحر الأبيض بالمحيط الأطلنطي ببوغاز جبل طارق ومنهُ تدرجت أحياء المحيط الاطلنطي الى هذا البحر . وهذا البوغاز أكثر غوراً من الحاجز بين البحر الأحمر والمحيط الهندي . لذلك كانت درجة حرارة مياه القاع في البحر الأبيض أبرد منها في البحر الأحمر إذ تبلغ نحو ١٣° مئوية

أحياء البحر الأبيض إذاً من احياء المحيط الاطلنطي ، وقد أوسعها العلماء بحثاً منذ أجيال كثيرة ، وتقوم في تلك المنطقة محطات عديدة في البحر الابيض وفي المحيط الاطلنطي على الشواطىء الاوربية والافريقية والاميركية ، وعندنا منها معهد فؤاد الأول للأحياء المائية التابع لمصلحة مصائد الاسماك

لست أقول أننا نعرف الكفاية عن البحر الابيض ، فما زال هذا البحر مجهولاً في كثير من نواحيه . ولكن هناك نشاطاً لا بأس به لدراسته . أما بحرنا الآخر البحر الأحمر والمحيط الهندي ، فلم تكن فيهما محطة واحدة تعنى بدراستهما ، مع ان أحياء هذين البحرين أكثر تنوعاً من أحياء المنطقة الاطلنطية ، ولا نزال نجهل الحياة فيهما ، اللهمَّ إلاَّ القليل مما كشفتهُ البعوث العلمية القليلة

لذلك صحت عزيمة كلية العلوم على اختيار البحر الأحمر ، فأقامت بالغردقة محطة واسعة الأرجاء بها عدد من المعامل ، زوّدت بأحدث الأجهزة العلمية ومرابي على أحسن الاساليب لتربية الأحياء البحرية ، فأصبح بذلك في متناولنا ، في منطقة معتدلة الجو تقريبة من جميع

الأوساط العلمية العالمية، أن ندرس أحياء المناطق الحارة التي لم يكن في وسع إنسان أن يدرسها إلا بشق الأنفس

***

﴿ الاعداد العلمي للمحطة ﴾ وقد أُعدّت المحطة للبحوث العلمية على أحدث النظم وزوّدت بكل ما تحتاج اليه دراسة الاحياء البحرية حية في موطنها الطبيعي ، أو في المرابي بحيث نهيأ لها فيها كل الظروف الطبيعية بقدر الامكان . وفي الحقيقة لم تكن المرابي وافية تماماً من هذه الناحية الا انا تمكنا من تحسينها تدريجيّاً . وبدراسة الاحياء المختلفة عن كثب أمكننا أن ننجح في تهيئة أسباب الحياة لعدد كبير من الأحياء البحرية في المرابي مدداً طويلة

وكل معمل من معامل المحطة مزوّد بالمرابي الثابتة المبنية من الاسمنت وأخرى قابلة للنقل صنعت من هيكل من الحديد المطلي وقاعدة من الاردواز وجوانب من البلور يجري في كل هذه ماء البحر في تيار مستمر يكفل تغيير الماء وتهويته مع إمداد الأحياء بما تحتاج اليه من الغذاء من الكائنات الدقيقة العالقة في ماء البحر

وأغلب المحطات البحرية المقامة بالقرب من الجهات الآهلة بالسكان لا يمكنها استعمال ماء البحر القريب من الشاطىء لتربية الاحياء في مرابيها . بل تضطر عادةً الى جلب الماء اللازم لذلك من وسط البحر على بعد عدة أميال ، حيث يضمنون نقاءه . ولما كانت كمية المياه التي يمكنهم إحضارها بهذه الطريقة محدودة لامحالة ، اضطروا الى جمعها وتنقيتها بعد الاستعمال وإعادة استعمالها مرات عديدة . ومهما تكن العناية بتنقيتها عظيمة فلا يمكن أن تصل الى درجة نقاء ماء البحر الطازج . أما محطتنا بالغردقة فتمتاز بأن مياه البحر تحت المعامل مباشرة نقية دائمة النقاء لا يشوبها شيء . فليس بنا من حاجة الى جلبها من وسط البحر ، أو خزنها لنعيد استعمال شيء منها ، بل لانحتاج الى ترشيحها ونستعمل ماء البحر طازجاً فيوضع في صهريج عال يملأ مرتين في اليوم ، في الصباح وفي المساء ويرفع اليه الماء من البحر بمضخة مبطنة بالخزف وينساب منه الى أحواض التربية في أنابيب من الباغة (Celluloid) جيئت بصنابير من الباغة أيضاً . وبذلك لا يتصل الماء في طريقه من البحر الى المربى بأي معدن كان وغير خاف أثر المعادن في ماء البحر إذ تذوب فيه فتقتل الأحياء التي تعيش به . وقد دلت التجارب العديدة التي أجريت على تربية أنواع مختلفة من يرقات حيوانات عديدة على تمام صلاحية الماء ونقائه . وتعذر حفظ بعض الأحياء داخل المعامل فتبين أن حاجتها الماسة الى ضوء الشمس المباشر هي السبب الأساسي في ذلك فأقيمت بعض المرابي في الخارج معرضة للشمس والهواء الطلق فازدهرت فيها تلك الأحياء

والمحطة مزوّدة بجميع المعدات لجمع النماذج . بها لنش متوسط الحجم ، ومراكب شراعية

وقوارب تسير بالمجداف وتركب بها ماكينة صغيرة عند الحاجة ، وهواري (قوارب محفورة من جذوع الشجر) ومعدات الصيد كالشباك من مختلف الأنواع والجرافات وأجهزة سبر الأغوار وجمع نماذج من رواسب القاع ومياه البحر من مختلف الاعماق ، وأجهزة الغوص ، وغير ذلك من الأجهزة العلمية لدراسة كل ما اتصل بالأحياء البحرية

***

﴿ أعمال المحطة العلمية ﴾ انه وان كان قد مضى على البدء في انشاء المحطة ما ينيف على عشر سنوات الا أنها لم تتم للآن . ولكنها على الرغم من ذلك قد حققت كثيراً من الأغراض الهامة المنوطة بها مما يشجع على زيادة الجهد في إتمامها وإغنائها

وقد عنيت المحطة بالبحوث العلمية بنوع خاص فعكف عليها أعضاء المحطة العلميون ، كلٌ فيما اختص به ، وساعدوا كثيراً من أعضاء جامعتنا الذين وفدوا الى المحطة للقيام بأبحاث اجتذبهم اليها ما تمتاز به أحياء البحر الأحمر من الأهمية العلمية . وقد كانت جهودهم جميعاً موفقة أحسن التوفيق فأسفرت أبحاثهم عن نتائج هامة أكبرتها الأوساط العلمية العالمية التي لم تتأخر في السعي الى المساهمة في هذا العمل العلمي فحجَّ الى المحطة عدد من العلماء من انجلترا وفرنسا وأميركا والدنمرك وبولندا وغيرها ولم تألُ المحطة جهداً في تشجيع ذلك حتى أصبحت عاملاً هاماً في توثيق أواصر الصلات الثقافية والعلمية بين مصر والبلاد الأجنبية . وكذلك أصبحت المحطة أهمَّ معهد للاحياء البحرية في المنطقة الهندوباسيفية

ولم تدع كلية العلوم فرصة وجود العلماء الأجانب بالمحطة تمرُّ دون أن تنتفع بخبرتهم الواسعة فقررت تيسير زياراتهم وان يتدرَّب معهم أثناء إقامتهم بالمحطة بعض أعضاء الكلية الناشئين ولا شك في أن في ذلك فائدة لا يستهان بها

وفي أول الأمر كانت تنشر النتائج العلمية بواسطة الهيئات العلمية الأجنبية . ولكننا الآن ننشرها في نشرات خاصة بالمحطة صدر منها الأجزاء الثلاثة الأولى . وتتبادل المحطة هذه النشرات مع ما يقرب من ثلثمائة معهد علمي وتتلقى مقابلها عدداً كبيراً من نشرات هذه المعاهد

وقد أخذت المحطة قسطاً من تدريب طلبة السنة النهائية في كلية العلوم إذ كانوا يفدون عليها في عطلة الشتاء . ولا شك أنهم كانوا يكسبون خبرة اساسية لهم للتعرف الى احياء المياه المصرية . الا ان حالة الحرب الحاضرة حالت دون حضورهم العامين الاخيرين

ولا يخال الا انه سيأتي يوم قريب تدرس فيه الأحياء البحرية المصرية من الوجهتين النظرية والعملية كفرع أساسي من علوم الحياة أسوةً بالجامعات الأجنبية

وتقوم المحطة بنصيبها في نشر الثقافة الخاصة والعامة . فقد فطن كثير من المعاهد المصرية الى

أهمية هذه الدراسة فأوفدوا بعض أعضائها فنظمت المحطة لهم دراسات علمية وعملية مناسبة . وقد كان لمدرسي التاريخ الطبيعي بوزارة المعارف وكلية الزراعة نصيب وافر منها . وانه لما يغتبط به حقا أن نرى مدارسنا الثانوية قد بدأت تعني بتربية أبنائها تربية علمية استقلالية صحيحة تساعدهم على التعرف الى أنحاء وطنهم وموارده الطبيعية . وقد كان للبحر الأحمر والغردقة نصيب كبير . ويسرّ المحطة ان تبذل ما في وسعها لمساعدة هذه الرحلات وأبحاثها

***

ولم يكد نبأ إنشاء هذه المحطة ينتشر في الأوساط العلمية العالمية حتى وفد عليها عدد من العلماء من الأقطار المختلفة في اوربا وأميركا ليحققوا أمنية طالما حلموا بها . تلك الأمنية هي دراسة الشعاب المرجانية . والحق ان من يمضي بالغردقة بضعة ايام ليكتسبُ خبرة واسعة عن حياة النبات والحيوان يستحيل عليه فقدها . ويظهر ان الانسان في بادىء الأمر يشدهه ما يرى من جمال الأشكال وروعتها ، ولكنهُ لا يلبث ان تستغرق تفكيره العلائق المعقدة بين الأحياء المتعددة في اشكالها المتباينة . وفي الحقيقة ان في تنسيق الشعب المرجانية وزخرفها ما يبعث على لذة تستهوي كل من يراها ، فهي حقًّا حدائق الماء فيها أشجار من المرجان وأزهار من مختلف الحيوان وأطيار من الأسماك وأنهار من الرمال . جميلة حقا هذه الشعب المرجانية . ولكنها في حياتها معقدة أيما تعقيد . إنها تتولد وتكبر وتترعرع ثم تهرم فتموت ، وهي في كل طور من هذه الأطوار تلعب بلب العالم الذي يحاول التعرف الى مايكتنفها من أسرار ، وما تحويه من مختلف الحيوان والنبات ، التي يتطلب الكثير منها دراسات طويلة وبحوثا متواصلة

وكيف تعيش هذه الأحياء وقد التصقت واحدتها بالأخرى ، آلاف مؤلفة منها في بقعة صغيرة من البحر كأنما حشرت فيها حشراً ؟ هذه مسألة من المسائل التي تواجه الأحياء التي تعيش في الشعب المرجانية ، وقد حلتها الأحياء المختلفة بطرائق مختلفة . ولعلّ أهم هذه الطرائق طريقتا التعاون والمعايشة (حياة التكافل) ، حيث يعيش نوعان او أكثر من الأحياء معاً ويتبادلان المعونة ، وأحسن مثل لذلك هو مرجان الشعب نفسه . فالمرجان حيوان من قسم الجوفمعويات . يتكون من كيس رقيق يفرز خارجه كأساً جيرية ، ويتكاثر بالتبرعم ، وتظل سلالته متلاصقة مكونة مستعمرات ، يختلف شكلها حسب نوع المرجان . ويعيش داخل أنسجة حيوان المرجان نباتات دقيقة تتعاون مع الحيوان على حل مشاكل الحياة ، فتأخذ ثاني أكسيد الكربون الذي يفرزه الحيوان وتستعمله في تمثيلها الخضري وتعطيه بدلاً منه الأكسيجين . ومن بين افرازات الحيوان ما هو نافع للنبات مثل الفوسفات والأزوتات وغير ذلك فتأخذها هذه النباتات لغذائها ، وتخلص الحيوان منها ، وبذلك أمكن ان يعيش المرجان مزدحماً في مناطق ضيقة . وهناك من

الحيوانات ما اعتمد كليةً على النباتات التي تعيش في أنسجتها ، فاستغنى عن اقتناص قوته وفقد بعض أعضائه الهاضمة

وتوجد هذه النباتات في كثير من الحيوانات الأخرى التي تعيش في الشعاب المرجانية مثل بعض الاسفنجيات وكثير من الأنيمونات (الشقائقيات) sea anemones والمرجانيات اللينة المازوريات Alcyonaria (soft corals) والهدريات hydroids وبعض الديدان المفلطحة الطليقة Turbellaria وقليل من الرخويات Mollusca وبعض قرب البحر الصفيات ascidians

وتختلف النباتات نفسها في أنواعها وفي الدور الذي تلعبه مما لا مجال لذكره الآن

***

أما المعايشة (حياة التكافل) فهي صلة أقل توثقاً من التعاون ، ونراها كذلك في كثير من حيوانات الشعاب المرجانية

ولعلَّ أظهر مثل لها معايشة الأنيمون (شقائق البحر) sea anemones لبعض أنواع الأسماك . ففي البحر الأحمر ثلاثة او أربعة أنواع من مردة الأنيمون giant anemones ، قد يزيد قطر القرص الفموي oral disc في بعضها على ثلاثين سنتيمتراً . وتعيش هذه ملتصقة على الصخور في الشعب المرجانية ، لا تتحرك من مكان لآخر إلاَّ نادراً ، وفي كثير من البطء . بينما قد لا تكاد تغير موضعها سنين عدداً . وتتكوَّن هذه الأنيمونات من جسم اسطواني أجوف رقيق الجدار جدًّا ، يلتصق الى الصخور بسطحه الأسفل او ما يعرف بالقدم ، بينما يمتد طرفه المقابل في عدد كبير من الزوائد الجوفاء ، قد تكون صغيرة كالحبيبات او طويلة كبيرة في حجم أصابع الانسان وحينئذٍ تكون سهلة الحركة ، بين تثنٍّ وتمدد وانكماش . وتعرف هذه الزوائد باللوامس لحساسيتها وسرعة إستجابتها . وتكثر فيها الخلايا اللاسعة فضلاً عما تفرزه من مادة لزجة تلصق كل ما يسوقهُ نكد الحظ ان يلمسها من الحيوانات الصغيرة ، فتوسعها لسعاً حتى الموت ، ثم تزج بها الى فمها الذي يوجد في وسط القرص الفموي بين اللوامس

وتعرف الأسماك الصغيرة هذه الأنيمونات بغريزتها ، فتبتعد عنها اتقاء شرها ، إلاَّ بضعة أنواع قليلة يوجد منها ثلاثة في البحر الأحمر ، على ما نعرف ، اعتادت صحبة هذه الأنيمونات فاصطفتها الأخيرة لنفسها ، لاتلسعها ولا تلسعها ولا تحاول إيذاءها بأية طريقة من الطرق . ليس هذا فحسب ، بل يعيش أحدهما مع الآخر عيشة التآزر والتساند حيال ما يصادفهما من الصعاب . وقد بلغ من ملازمتها أننا ما نجد الأنيمون إلاَّ ومعهُ سمكتان او أكثر من أحد هذه الأنواع او اثنين منها او ثلاثتها جميعاً ، وما نجد إحدى هذه الأسماك الا وتعيش مع

الأنيمون . وإن كان في وسع السمكة أن تعيش بمعزل عن الأنيمون ، والأنيمون بمعزل عن السمكة لو حيل بينهما . وتسبح هذه الاسماك نهاراً على مقربة من الانيمون ولا تبتعد عنه كثيراً فإن أوجست خيفة هرعت اليه ، واحتمت بين لوامسه اللاسعة بمأمن من أعدائها . كذلك تأوي بين هذه اللوامس كلما جن الدجى حيث ترقد آمنة هانئة . وتجزي السمكة الأنيمون عن هذه الحماية بمساعدته في اقتناص قوته ، فاذا ما ساق سوء الحظ حيواناً بحريًا صغيراً إلى مس لوامس الانيمون ، لسعهُ هذا وشل حركته ، ولكنهُ قد يسقط بعيداً عن الأنيمون . وحينئذ تسرع السمكة اليه وتعيده إلى مضيفها المقعد

وهذا مثل آخر للمعايشة (التكافل) لايقل طرافة عن سابقه . يشترك فيه نوع آخر من الأنيمونات مع نوع خاص من السرطان الناسك Hermit crab

ويأوي هذا السرطان ، ككثير من الانواع المشابهة ، الى محارة خالية من محار الحيوانات الرخوة فيحتمي بها من بعض أعدائه ، لا يفارقها الا اذا كبر إلى حد لم تعد بعده تناسبه ، فيبحث عن أخرى أكبر منها فينتقل اليها

إلا أن هذا النوع لم يكتف بالوقاية التي يكتسبها من المحار ، إذ بين أعدائه ما يمكنهُ جرش المحارة وازدرادها بما فيها ، فاستعان على ذلك ببعض الأنيمونات الصغيرة يلصقها على ظهر المحارة حتى يغطيها بها وبذلك لا يجرؤ اعداؤه على الفتك به . وتستفيد الأنيمونات من هذه الوقاية ، بأن ينقلها السرطان من مكان الى آخر فيسهل عليها البحث عن قوتها ، ولا تتعرض للردم برواسب البحر . وعندما يكبر السرطان ويغير محارته ، ينقل الأنيمونات من المحارة القديمة ، ويلصقها بالمحارة الجديدة

ولا يوجد السرطان أو الانيمون من النوع الخاص في الطبيعة منفردين ولكنهما متلازمان دائماً

إن موضوع المعايشة بين أحياء الشعب المرجانية لموضوع طويل جداً يشمل جميع الأحياء التي تعيش في الشعب تقريباً ويستدعي بحثاً طويلاً لذلك أكتفي الآن بهذا القدر

***

هناك شيء آخر أحب أن أشير اليه . إن في البحر الأحمر لثروة علمية كبيرة من هذه الأحياء، وتعنى المحطة أكثر العناية بدراسة حياتها في الاكواريوم المسمّى ، وتأمل أن يأتي يوم يقام في كل من القاهرة والاسكندرية وغيرهما من المدن الكبيرة أكواريوم تعرض فيه هذه الأحياء

أسوة بما هو متبع في البلاد الاخرى من الأمم المتحضرة ولا شك أن لمثل هذا المشروع فائدة ثقافية كبيرة. إذ يبيح للشخص العادي ، دون ان تبلله قطرة ماء ، أن ينعم بمناظر لا يراها الا الغواصون ، فيرى شتى الأحياء المائية . وقد عرضت أمامهُ في بيئة تشبه بيئتها الطبيعية ، فاما سابحة في الماء أو ثابتة في قاع البحر بين الصخور أو بين الحيوانات المرجانية أو غائصة في رمال القاع ، فلا يظهر منها الا الرؤوس او أجهزة التنفس ، او ما الى ذلك

ولما كانت الأحياء التي تعيش في البحر الأحمر تنفرد بجمالها الممتاز او غرابتها مع تباين أشكالها وألوانها كان هذا كفيلاً أن يستهوي الخاصة والعامة الى المشاهدة والتفكير في حقيقة هذه الأحياء وطرائق حياتها . وفي هذا ما فيه من التثقيف والارتفاع بمدارك الشعب وتقوية ملاحظته وقوة تفكيره وتذوُّق شتى نواحي الجمال في كل ما يحيط به

وليس بُعد القاهرة او بعض كبريات المدن المصرية عن البحر بمائق عن إقامة الأكواريوم للأحياء البحرية ، فان في مياه البحر الصناعية ما يغني عن الطبيعية وقد دلت تجارب ثمان وعشرين سنة في أكواريوم برلين على ان مياه البحر الصناعية لو أضيف اليها قليل من مياه البحر الطبيعية لصلحت لتربية الأحياء البحرية تماماً

***

ولا نعرف بالضبط ما هي المادة التي توجد في مياه البحر الطبيعية والتي لا غنى للاحياء البحرية عنها ، وكل ما نعرف عنها انهُ بدونها تمرض الأحياء البحرية سريعاً في ماء البحر الصناعي . ويمكن مقارنة عملها بفعل الفيتامينات في الطعام

وفي أكواريوم برلين بدئ بمياه البحر الطبيعية . ومن وقت لآخر — كل ثلاثة أشهر تقريباً — يلقى بنصف الماء ويضاف الى النصف الباقي كمية مساوية من مياه البحر الصناعية وهكذا . أي أنهم لم يستعملوا ماء البحر الا في أول الأمر فحسب

وكما تفتقر مدن القطر المصري الى الأكواريوم تفتقر كذلك الى متاحف التاريخ الطبيعي . هذا رغم ان لمصر من أحيائها البرية والبحرية ومعادنها ومنتجاتها ثروة عظيمة تكفل لنا متاحف تنافس المتاحف العالمية

وقد حاولت كلية العلوم في السنوات الأخيرة إقامة متحف للتاريخ الطبيعي الا أن العقبات المالية لا تزال تقف في طريقها وعندما يخرج هذا المشروع الى حيز التنفيذ سيكون للمحطة القسط الأوفر من تموين المتحف بالنماذج المختلفة العديدة

الدار الاسلامية

في مصر

للصاغ عبد الرحمن زكي

لسنا بحاجة الى القول بأن أصول الريازة لم تكن معروفة في بلاد العرب قبل الاسلام اللهم اذا استثنينا اقاليم اليمن وغسان والحيرة حيث قامت مدنيات قديمة قبل الاسلام. فقد كان العربي على معرفة يسيرة بفن البناء. ولم تكن اماكن العبادة في بلاد العرب سوى أفنية مربعة صغيرة يحوطها اربعة جدران لا يزيد ارتفاعها على ثلاث أذرع. وهذه بالطبع لا تعد من أعمال الريازة بالمعنى المفهوم منها. والمعلوم ان العرب لم ينقلوا الى البلدان التي أخضعوها لسلطانهم أي أثر لريازة عربية. ففي ذلك الوقت كان العرب الرحَّل يؤلفون تسعة اعشار سكان البلاد العربية. وربما كانت الخيمة المصنوعة من الشعر مسكنهم الوحيد. والبدوي لا يطيق العيش داخل غرفة مغطاة بسقف لانهُ شاعر بطبيعته يرتاح الى تسريح طرفه في السماء وهو مستلقٍ على ظهره في العراء أو داخل خيمته ذات الغطاء غير المحكم . . . ولذا فهو يحس بالضيق بل يكاد يعتبر نفسه سجيناً أو في فخ أو شَرَك اذا ما سكن في غرفة

ولو أن الدين الاسلامي الجديد الذي بزغ نجمه في شبه الجزيرة العربية بقي في ربوعها ولم ينتشر في الأقاليم المجاورة لما أصبح للريازة [1] الأسلامية ذلك الأثر العظيم من الجمال والكمال. ولما كنا نرى الفن الأسلامي الرائع في اسطع صورة يحتل مكانة سامية في ميادين النشاط الفني الذي ابتدعتهُ البشرية

والواقع ان الصناع المسلمين او الذين عملوا بارشاد الرائز المسلم أبدعوا في بناء منشآتهم وزخرفتها بما يتفق تماماً مع طبيعة عقيدتهم الدينية ووقار دينهم الحنيف وما يساير طقوس عبادتهم

ولقد وصف كتَّاب السيرة دار سيدنا محمد في المدينة وصفاً دقيقاً نستنتج منهُ أن هذه الدار كانت في أول الأمر تشتمل على فناء مربع الشكل تحيط بهِ جدران أربعة مشيدة من اللبن ويبلغ إرتفاعها ثلاثة امتار ونصف متر. واشتمل احد الجوانب على صُفة كان النبي يؤم فيها

(١) المقتطف : — وضعنا هنا كلمة الرائز بدلا من كلمة المعمار والرائز والراز رئيس البنائين وجمعه رازة . والريازة هي فن هندسة البناء

المصلين وكان لها سقف من جريد النخل المغطى بطبقة من الطين والقائم على عدد من جذوع النخل . وكان للدار ثلاثة ابواب . وفي الجانب الخارجي من الجدار الشرقي شيدت حجرات لزوجات النبي اربع منها من اللبن وخمس من الجريد المطلي بالطين والى الجانب المقابل للظلة مأوى صغير كان ملجأ فقراء المسلمين الذين تبعوا النبي من مكة

فاذا أنعمنا النظر في شكل الدار الاولى للنبي عرفنا ما كان عليه رسول الله من القناعة والزهد ووقفنا على بساطة فن البناء في صدر الاسلام وعلمنا ايضاً ما كانت عليه الدار الاسلامية الأولى ، مما تقدم نرى أن ابن خلدون كان محقاً في ما كتبهُ حين قال « كان الدين في أول الأمر مانعاً من المغالاة في البنيان والاسراف فيه في غير قصد كما عهد لهم عمر حين استأذنوه في بناء الكوفة بالحجارة وقد وقع الحريق في القصب الذي كانوا بنوا به من قبل فقال افعلوا ولا يزيدنَّ أحد على ثلاثة أبيات (غرف) ولا تغالوا في البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة »(١)

فتح العرب لمصر

وأراد عمرو بن العاص بعد فتح مصر ان تبقى الأسكندرية كما كانت عاصمة البلاد فلما أبى عمر بن الخطاب عليه ذلك ترك عمرو مسألة الأسكندرية وشرع في تخطيط مدينة جديدة أمر بانشائها بالقرب من قصر الشمع حصن الحامية الرومانية — في المكان الذي حطَّ فيه الجنود المسلمون رحالهم . وضرب عمرو بالقرب منهُ فسطاطهُ قبل رحيله لفتح الأسكندرية

قام بتخطيط الفسطاط أربعة من زعماء الجند يمثلون قبائلهم فقسموها الى اخطاط اتخذت كل قبيلة لنفسها خطة منها . وفي خلال عام واحد تمت تلك المدينة بسرعة عجيبة وكنا لا نعرف شيئاً عن تفاصيل البناء الذي اقامه المسلمون في الفسطاط الى أن تمَّ كشف أنقاضها في حفائر دار الآثار العربية فظهرت بيانات كثيرة عن عمارة الفسطاط ولاسيما شكل تخطيطها وعدد دورها

لقد كشفت حفائر الفسطاط دوراً كثيرة لها أبنية متوسطة الحجم وظهر منها أن الغرف في كل دار كانت تحيط بالحوش في نظام مماثل لما في الدور الأخرى . اللهمَّ الاَّ في احوال نادرة . وكانت جميع هذه الدور على نظام هندسي قائم على محورين يلتقيان في وسط حوش وتختلف الغرف المحيطة به في المقياس والنسب . وفي كل جنب من جوانب الحوش رواق ذو ثلاث فتحات تختلف في الضيق والسعة . منها الفتحة الوسطى وهي أوسع من الفتحتين الجانبيتين ويفصلها عنهما كتفان مبنيان بالآجر . وفي سمت الرواق القاعة ، وتكتنفها من جانبيها حجرتان صغيرتان منعزلتان عنها . وفي الجوانب الثلاثة الاخرى من الحوش في محور كل جانب أيوانات تختلف في الامتداد

(١) الفصل الثامن من الباب الرابع في مقدمة ابن خلدون « في ان المباني والمصانع قليلة في الملة الاسلامية بالنسبة الى قدرتها والى ما كان قبلها من الدول »

الى الداخل فتتكوّن منها تارة قاعات وطوراً وهو الاغلب ايوانات صغيرة أو صفف . ويلاحظ في الرواق ذي الفتحات الثلاث الذي يمر منهُ الداخل الى الغرف المهمة من السكن أنها شرقية وفي بعض الأحيان تكون غربية . وكانوا يتجنبون الجنوب كما يتجنبون الشمال وكانت أهم مشتملات دار الفسطاط الأجزاء الآتية :

ا — الحوش ويتوسط الدار وهو غير مسقوف ومقاسه في الغالب بين أربعة وخمسة أمتار مكشوف ليتوفر للقاعة الكبيرة النسيم والنور

ب — الرواق والقاعة . هما المحلان المهمان في الدار — ويلاحظ ان هذا النظام في الدور لايزال باقياً حتى الآن في مدن اسبانيا الجنوبية وفي شماليّ افريقيا وفي عدة جهات من العالم الاسلامي . وقد وجد منذ بدء الفن الاسلامي في الاخيضر وفي سامرا كما نراه في قصر ست الملك [1] قبل أن يضم الى مارستان قلاوون [2]

ج — الايوانات وهي من المميزات الرئيسيّة التي ترافق الحوش حيث يسهل التنقل فيها من محل الى آخر على حسب الفصول وساعات النهار

ومن المحتمل ان باب الدار لم يكن في اتجاه محور من المحاور ويظهر ان الدركاة او الدهليز الذي يؤدي الى الباب كانت على شكل مخدع وان كان ذلك لم يستنتج من الحفائر وانما هو من القواعد العامة التي كانت متبعة في المباني الاسلامية في كل العصور والغرض منهُ حجز ما يجري في الحوش أو القاعة عن نظر من بالخارج

***

لم تكن منازل العرب في أول الأمر بمدينة الفسطاط تحتوي الاّ على طبقة واحدة أرضية وقد قيل ان أول من بنى غرفة ذات طنف بالفسطاط هو « خارجة بن حذافة » فبلغ عمر ابن الخطاب أمرها فكتب الى عمرو « ادخل غرفة خارجة وانصب فيها سريراً وأقم عليه رجلاً ليس بالطويل ولا بالقصير فان اطلع من كوّتها على عورات جيرانه فاهدمها » ففعل ذلك عمرو [3] . ولما وجدها غير ضارة أقرها فاخذت البيوت تتسع كما أخذت عمارة المدينة تزدهر وتزداد حتى فاقت مدينتي البصرة والكوفة [4]

وعلينا أن نقرأ بتحفظ رواية الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذي زار مصر . فقد ذكر ان بعض دور الفسطاط كانت مكونة من أربعة عشر طابقاً . فلو فرضنا ان هذه الطبقات كانت

---

(١) دار ست الملك بنت العزيز لدين الله نزار واخت الحاكم بأمرالله . وسكن هذه الدار في الدولة الايوبية مؤنسة بنت الملك العادل ابن بكر بن ايوب ثم الامير فخر الدين جهاركس صاحب القيسارية بالقاهرة ثم سكنها الملك الافضل قطب الدين حتى أخرجهم الملك المنصور قلاوون منها ولسكن قطب الدين الايوبي بها سميت الدار القطبية (٢) المصدر السابق (حفريات الفسطاط) ص ٩١ (٣) ابن دقماق ج ٤ ص ٦ (٤) القاهرة الجزء الاول ص ٤٠ — للملازم الاول عبد الرحمن زكي — عام ١٩٣٢

ذات ارتفاع قليل اسكان ارتفاع البيت يقرب من خمسة وثلاثين متراً على اقل تقدير ولكن رواية ناصر خسرو قد تكون دليلاً على ان بيوت المدينة كانت طبقات [١]

كما أنهُ قد وصل الينا أن لبعض المنازل أسطحاً واطئة جداً [٢] ومن البديهي ان المدينة لا تكون أبنيتها كلها على طراز واحد فتكون فيها الفنادق والرباع وكانوا يشيدونها في الجهات المزدحمة بالمتاجر على ضفاف النيل وبجانبها الدور ومن بينها ما يكون مخصصاً لأسرة واحدة

ولقد أثبتت حفريات الفسطاط ان بعض الدور كان لها حوشان منفصلان بحيث أمكن اعتبار كل حوش وسط دار قائمة بذاتها . ومن المحتمل أيضاً ان يكون أحدهما مخصصاً للرجال والآخر للحريم ، وان كنا لم نوفق حتى الآن الى معرفة الحالة الاجتماعية التي كان يعيش فيها النساء في أوائل الفتح الاسلامي وفي العهدين العباسي والطولوني . وعلى كل حال فالمعروف ان الغرف لم تكن معدة لغرض مخصوص كما تطورت الحال فيما بعد وفي بيوتنا الآن [٣] فان القاعة الكبيرة والرواق والاواوين والصحن كل ذلك كان يستعمل لاستقبال الزائرين تبعاً لأوقات النهار والفصول

ونحن اذا استثنينا بعض الدور الاسلامية التي كشفها المرحوم الاستاذ علي بك بهجت في الفسطاط بين سنتي ١٩١٢ و١٩١٩ لا نعرف آثاراً أخرى نقف منها على نظام الدور التي سكنها الولاة والحكام الامويون والعباسيون وهذه المنازل التي كشفت في الفسطاط من المحتمل جداً أن نرجعها الى عهد العباسيين والطولونيين . وقد بلغت الفسطاط في ذلك الحين غاية في القدر والثراء . والواقع ان الموازنة بين أبنية الفسطاط وأبنية سامرا وجامع ابن طولون ثم أوجه الشبه بين الزخارف التي كانت تحلى بها بعض واجهات الدور في الفسطاط والزخارف المنقوشة على بعض شواهد القبور في القرنين الثالث والرابع الهجريين كل ذلك يرجح ان معظم أبنية الفسطاط كانت من عصر الدولتين العباسية والطولونية [٤]

ومن الخطط المقريزية عرفنا وصف القصر الذي شيده احمد بن طولون وابنه خماروية في القطائع بعد ان خربت ومحيت آثارها من الوجود (٢٩٢ هـ — ٩٠٥ م) على يد محمد بن سليمان الكاتب (الخطط ج ٢ — ص ١٠٦) . ولا حاجة بنا الى هذا الوصف العام الذي أورده المؤرخ المقريزي عن هذا القصر . فهذا الوصف لا يعيننا البتة على معرفة نظام هندسته وتوزيع غرفه الداخلية او أجزائه الرئيسية وارتفاعها وسعتها ..الخ. مما يساعدنا على اثبات نقط واضحة في هذا الموضوع . والخيال ايضاً لا يصل بنا الى شيء حاسم

---

(١) حفريات الفسطاط ص ٩٤ للمرحوم علي بك بهجت (٢) المصدر السابق . ص ٩٤ (٣) المصدر السابق ص ٩٦ (٤) ذكر ابن دقماق في وصفه دور مصر اسماء عدة من الغرف والحال التي يشتمل عليها المسكن فأورد المجلس والباذهنج والمستشرق والهودج والطارمة (ابن دقماق ج ٤ — ص ١١٨) راجع ايضاً المقال النفيس « أقدم دار اسلامية في مصر » بقلم المرحوم الاستاذ حسن محمد الهواري المنشور في مجلة الهندسة بالعدد ٨و٩و١٠ عام ١٩٣٥

اقدم دار اسلامية في مصر

وفي عام ١٩٣٢ وفق المرحوم الأستاذ حسن الهواري اثناء اشرافه على حفريات الفسطاط الى العثور على جزء من دار أمكنه تحديد عصرها لكثرة الزخارف التي على جدرانها . وهذا الجزء عبارة عن القسم القبلي على دار تشبه في نظامها الهندسي أغلب الدور المكتشفة في مدينة الفسطاط . ويشمل قاعة كبرى يزيد طولها على عرضها وتكتنفها من جانبيها حجرتان صغيرتان وأمام القاعة والحجرتين رواق كان له كتفان باقية احداهما وهي الشرقية يفصلانه عن فناء الدار . وفي بحري الفناء بركة ماء (فسقية) مربعة الشكل . وقد عثر في الركن القبلي الشرقي لهذه الفسقية على بقايا أنابيب من الفخار كانت تجري فيها المياه التي تغذي الفسقية

وقد أمكن بموازنة الزخارف الجصية التي تغطي محراب هذه الدار وبعض الجدران بمثيلاتها في جامع ابن طولون ان نقول انها من نفس الصناعة والروح . وهذه الدار التي مر على بنائها اكثر من الف عام حرية بان تكون لأحد أثرياء القوم في ذلك العهد . ولسنا نعلم الشيء الكثير عن الدار في العهد الاخشيدي القصير الأجل . وقد ذكر المقريزي ذلك البستان الذي امر بغرسه محمد بن طغج الاخشيد وسماه المختار . وبنى فيه قصراً واماكن له ولغلمانه وكان يفاخر به اهل العراق

القصور الفاطمية

واذا تتبعنا الدار الأسلامية في مصر بعد العهد الطولوني لم نجد ما نهتدي به لمعرفة تفصيلات اخرى . سواءاً كان ذلك من الآثار أم من كتب الخطط الأسلامية . فاذا ما وصلنا الى العصر الفاطمي وقلبنا صفحات الخطط المقريزية وجدنا ما نفيض في وصف القصرين الشرقي والغربي او القصرين الكبير والصغير . ومع ذلك لا نوفق الى وصف دقيق من الناحية المعمارية الهندسية كما قلنا وان كانت هناك تفصيلات كثيرة عن القصر الكبير الشرقي الذي وضع أساسه القائد جوهر والقصر الصغير الغربي والقصر اليافعي وقصر الذهب وقصر الافيال وقصر الظفر وقصر الشجرة وقصر الشوك وقصر الزمرد وقصر النسيم وقصر الحريم وقصر البحر . وتلك كلها قاعات ومناظر شيدت في داخل سور القصر الكبير . وسميت القصور الزاهرة . وكان بجوار القصر الغربي الميدان والبستان الكافوري . وألحقت بالقصرين دور كثيرة ومبان عدة عرفت بأسماء مستقلة

وكان للفاطميين عدة مناظر ودور سلطانية غير تلك القصور منها دار الضيافة ودار الوزارة ودار الضرب ومنظرة الجامع الأزهر ومنظرة الجامع الاقمر ومنظرة اللؤلؤة ومنظرة المقس ومنظرة الدكة والتاج ودار الملك بمدينة مصر . . . . الخ .

ويمكننا أن نقف على وصف عام للقصر الشرقي مما أورده المقريزي . فكانت اجزاؤه تشتمل على عدة خطط واحياء تخترقها الطرقات والمسالك التي توصل الى اجزائه المختلفة وتضيئه الافنية

الكبيرة غير المسقوفة او الافنية الداخلية الصغيرة . وكان يحتوي على سكن للحريم وأهم أجزائه قاعة الذهب (قصر الذهب) وهي احدى قاعات القصر . ومشيدها العزيز بالله نزار بن المعز . وكان مدخله في باب الذهب وقد جدد هذا القصر الخليفة المستنصر (٤٢٨ هـ) وكان الخلفاء يجلسون في هذه القاعة في اعيادهم . وبها كان يعمل سماط شهر رمضان للامراء وسماط العيدين وكان فيها سرير الملك

وذكر المقريزي انهُ في النصف من رمضان جلس المعز في قصره على السرير الذهب الذي عمله القائد جوهر في الايوان الجديد ولم يصف لنا هذا الايوان بكلمة . فهل نتخيلهُ ايواناً ذا عقود واسعة يشرف على فناء القصر او نتخيله ايواناً مسقفاً بالقباب العظيمة العالية كما كانت عليه ايوانات قصور الساسانيين في سارفستان او المدائن (اكتيسيفون) او كان ذلك الايوان قريب الشبه بالردهات . وقد وصلتنا لحسن الحظ وثيقة خطيرة الشأن ، تثبت عظمة القصر الفاطمي وأبهته ، حين زاره رسولا الملك عموري (أمريك) سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) ليعقدا مع الملك العادل باسم سيدهما تحالفاً قوامه أن يدفع الخليفة للصليبيين مائتي الف دينار معجلة ومثلها مؤجلة ، نظير دفاعهم عن مصر وصدهم الاعداء عنها

وقد وصف غليوم رئيس أساقفة صور (Guillaume de Tyr) زيارة الرسولين الصليبيين وعبّر عن حماسهما وإعجابهما بعظمة ما رأياه وروعة كثير مما شاهداه ، وقد نقل جستاف شلمبرجيه (Gustave Schlumberger) الى الفرنسية بعض ما كتبهُ غليوم في هذا الصدد ، كما لخص لين بول (Lane Poole) بعضهُ في كتابيهِ عن تاريخ مصر وكتابهِ عن صلاح الدين

وسار السفراء الفرنج يقودهم الوزير شاور بنفسهِ الى قصر له رونق وبهجة عظيمان . وفيهِ زخارف أنيقة نضيرة . وكان هؤلاء المبعوثون متأثرين بما حولهم جد التأثر دون أن يتطرق الى نفوسهم أي خوف أو رهبة . ووجدوا في هذا القصر حراساً عديدين وسار الحراس في طليعة الموكب ، وسيوفهم مسلولة ، وقادوا الفرنج في ممرات طويلة ضيقة وأقبية حالكة الظلمة ، لا يستطيع الانسان أن يتبين فيها شيئاً . وربما كان المقصود بذلك بث الرهبة الى قلوبهم وزيادة التأثير فيهم . ولما خرجوا الى النور اعترضتهم أبواب كثيرة متعاقبة كان يسهر على كل منها عدد من الحراس المسلحين الذين كانوا ينهضون عند اقتراب شاور ويحيونهُ باحترام . ثم وصل الموكب الى فناء مكشوف ، تحيط بهِ أروقة ذات أعمدة وأرضيته مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الألوان ، وفيها تذهيب خارق للعادة بنضارته وبهائهِ ، كما كانت ألواح السقف تزينها الزخارف الذهبية الجميلة

وكان كل ذلك منظراً رائعاً بحيث لا يملك أشغل الناس بالاً وأكثرهم همَّاً الاَّ أن يقف للاعجاب بهِ . وكان في وسط الفناء نافورة ، يجري الماء الصافي منها في أنابيب من الذهب

والفضة الى أحواض وقنوات مرصوفة بالرخام . وكانت ترفرف في الفناء أنواع لا عدد لها من الطيور الجميلة . ولم يكن أحد يرى هذه الطيور دون أن تصيبه الحيرة والدهشة اعجاباً بها ودون أن يقول أن الطبيعة أبدعت حين كونت هذه المخلوقات الجميلة . ومن هذه الطيور ما كان يلزم النافورة ، ومنها ما كان يظل بعيداً عنها كل بحسب طبيعته ، وكان لكل منها من الغذاء ما يوافقه

وهنا استأذن في الرجوع الحراس الذين كانوا يسيرون في معية الفرسان الفرنج حتى ذلك الوقت ، وحل محلهم بعض العظماء من الأمراء المقربين الى الخليفة نفسه . وسار هؤلاء الأمراء بالسفيرين الفرنجيين في أفنية جديدة ، أشد جمالا وابداعاً ، ثم الى حديقة لطيفة غناء لم تكن الحديقة الأولى شيئاً بجانبها . ورأوا في هذه الحديقة أنواعاً من الحيوانات ذوات الأربع غريبة بحيث يتهم المرء بالكذب اذا وصفها ، أو تحدث عنها وبحيث لا يستطيع أي مصور أن يتخيل أو ان يحلم بمثل هذه الكائنات العجيبة . فأن الغرب لم ير قط مثل هذه الحيوانات ، ولم يكن يعرفها الا بما كان يسمع من الاقوال

وبعد أن عبروا أبواباً عديدة أخرى ، وساروا في تعاريج كثيرة ، كانوا يرون فيها أشياء جديدة تزيدهم دهشة واعجاباً ، وصل الفرنج الى القصر الكبير ، حيث يقطن الخليفة . وفاق هذا القصر كل ما رأوه قبل ذلك . وكانت أفنيته تفيض بالمحاربين المسلمين متقلدين أسلحتهم وعليهم الزرد والدروع ، تلمع بالذهب والفضة ، وعليهم سيماء الافتخار بما كانوا يحرسون من الكنوز . وأدخل المبعوثون في قاعة واسعة تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحرير المختلف الألوان . وعليها رسوم الحيوان والطيور وبعض صور آدمية وكانت تلمع بما عليها من الياقوت والزمرد والاحجار النفيسة . ولم يكن في هذه القاعة احد، لكن شاور خر راكعاً ساعة دخوله ، ثم نهض واقفاً ثم قبل الارض ثانية . وخلع السيف الذي كان يلبسه في عنقه ، ثم خر ساجداً مرة ثالثة في ذلة وخشوع كأنه يسجد لله . وارتفعت الحبال فجأة ، ولما كشفت الستارة الحريرية الذهبية بسرعة البرق ، كأنها ملاءة خفيفة ظهر الخليفة الطفل (السلطان العاضد) لأعين الفرنج المبعوثين . وكان على وجه هذا الأمير نقاب يخفيه تماماً . وهو جالس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والاحجار الثمينة

ولعتقد اننا نستطيع ان نخرج من هذا الوصف الرائع بصورة عن هندسة القصر الفاطمي الكبير

الايوبيون والمماليك البحرية

وفي ايام سلاطين الايوبيين والطبقة الأولى من المماليك تجملت القاهرة بما شيد في انحائها من القصور الفخمة والدور الواسعة التي كانت تمتاز بطابع يجمع بين وسائل الدفاع والرفاهية

في مظهرها . كانت كالقلاع الحصينة وكانت مبانيهم في مجموعها الانشائي عظيمة . ذات ابواب مهيبة وقاعات فسيحة وسقوف مقباة ترتفع على عمد عالية . ويلاحظ الانسان تطوراً ظاهراً في اساليب العمارة الايوبية التي نقلها الايوبيون عن آثار الصليبيين في الشام . كما يلاحظ تقدماً في مواد البناء وجمالاً في الزخرفة . ولقد استمدت بعض منشآت ذلك العصر موادها الاساسية وهي الحجارة من الآثار المصرية والرومانية . كالاهرامات والمعابد واصطبغ مظهرها الخارجي بمسحة عسكرية ظاهرة. وقد دوَّن المؤرخون وكتّاب الخطط ما احتوت عليه قلعة الجبل (قلعة صلاح الدين) وقلعة الروضة من مبانٍ عظيمة . فقد أحب صلاح الدين بعد ما خلا له الجو في مصر ان يجعل لنفسه معقلاً بمصر فوزع القصور الفاطمية بين امرائه . وأنزلهم فيها وامر الأمير بهاء الدين قراقوش الاسدي بانشاء قلعة الجبل (٥٧٢هـ) وأزال المساجد والقبور والاضرحة التي أقيمت مكانها القلعة العظيمة وبنيت في داخلها الدور السلطانية (٦٠٤هـ) . واستمرت دار ملك الى ايام محمد علي باشا ولا نعلم ما اصاب القلعة في ايام خلفاء الكامل بعد عام ٦٣٥هـ .فقد هجرها الملك الصالح نجم الدين ايوب وفضّل الاقامة في جزيرة الروضة وبنى بها القلعة وأنشأ بها الدور والقصور وغرس الاشجار وبنى بها جامعاً وعمل لها ستين برجاً وأنفق اموالاً جمة .وهدم بسببها اماكن كثيرة من دور وقصور ومساجد ليدخلها فيها وخرب الهودج الذي كان قد شيده الآمر باحكام الله على شاطىء النيل . ولما كملت القلعة جعلها مقر الايوان الملكي الذي قال فيه ابن سعيد الاندلسي الرحالة المعروف

« وكنت أشق في بعض الليالي بالفسطاط على ساحلها فيزدهيني ضحك البدر في وجه النيل امام سور هذه الجزيرة الدري اللون . ولم انفصل عن مصر حتى كمل سور هذه القلعة وفي داخله من الدور السلطانية ما ارتفعت اليه همة بانيها . وهو من أعظم السلاطين همة في البناء . وأبصرت في هذه الجزيرة ايواناً لجلوسه لم ترَ عيني مثاله ولا أقدر ما انفق عليه . وفيه من صفائح الذهب والرخام الابنوسي والكافوري والمجزع ما يذهل الافكار ويستوقف الابصار »

وظلت قلعة الروضة عامرة حتى انتهت دولة الايوبيين . فلما تولى الملك السلطان الملك المعز عز الدين ايبك التركماني اول سلاطين المماليك بمصر امر بهدمها ليعمر منها مدرسته المعزية بمدينة مصر واقتدى به ذوو الجاه .فأخذوا عدة سقوف وشبابيك وبيع من اخشابها ورخامها أشياء جليلة

وقد ذكر في كتاب وصف مصر انه كان موجوداً في زمن الاحتلال الفرنسي بقايا قصر بالمقياس ملاصق له من الشرق ومطل على الفرع الشرقي للنيل يعرف بقصر السلطان الملك الصالح نجم الدين . ولم يكن باقياً منه وقتئذٍ غير قاعة كبيرة تتصل بها عدة أماكن اكثرها خرب . وهو بلا ريب من قصور القلعة الصلاحية ومما جدده فيه السلطان الغوري من القاعات أو الاماكن

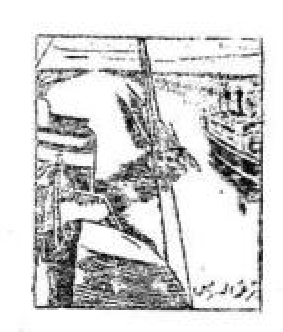
« للحديث صلة »

من صفحات القرون الوسطى

السلع التجارية الشرقية

ورواجها في ديار الغرب

بقلم د . التميمي



لقد كان من الاسباب الرئيسية التي حملت بعض المغامرين من رجال البحر في اسبانيا والبرتغال وايطاليا على القيام بالاكتشافات البحرية في فجر العصور الجديدة طمع اولئك المغامرين في اقتناء الثروات الجسيمة . ففي خلال القرون الوسطى كان بعض التجار في البلاد المذكورة يتجرون مع المرافىء الشرقية ويجنون من تلك التجارة ارباحاً جسيمة لان السلع الشرقية التي كانوا يتجرون بها نادرة ومرغوب فيها فكانوا يأتون بها من آسيا عن طريق مرافىء الشرق الادنى وكانت آسيا في نظرهم تقتصر على بلاد الهند التي يتصورونها مكتظة بالنفائس وقد بقيت بلاد الهند مجللة بهالة من الغموض لا يعرفون عن موقعها وعن أحوالها الطبيعية والمدنية وصناعاتها شيئاً صحيحاً نظراً لبعدها عنهم وعدم تمكنهم من الوصول اليها فكانوا يشترون نفائس الشرق وسلعه المرغوب فيها من تجار العرب في سوريا ومصر ويقولون بوجود طريقين تجاريين رئيسيين الاولى برية ويسمونها طريق الحرير كانت تبدأ من أواسط آسيا وتنتهي بمرافىء الشرق الأدنى والثانية بحرية وقد سموها طريق البهارات وتمر من المحيط الهندي والبحر الأحمر وتنتهي بالقطر المصري

لقد كانوا يتصورون الارض على اشكال شتى وقالوا بانها مسطحة والقدس مبنية في مركز ذلك السطح الفسيح ويحيط به محيطات تمتد حتى جدران هائلة في الجهات الأربع وهذه الجدران تحمل قبة السماء وقد قالوا ايضاً بتعذر السفر الى نواحي الدنيا الشمالية نظراً لوجود جبال الثلج العظيمة وبعدم امكان التوغل في القسم الجنوبي من الدنيا ابتداء من خط الاستواء نظراً لارتفاع درجة الحرارة ولغليان المياه في المحيطات كل هذا جعلهم يمتنعون عن الذهاب الى ديار الهند الغنية

لقد ظلَّ الغربيون على رأيهم المتقدم ذكره حتى القرن الثالث عشر حين ارسل البابا انسنت الرابع سنة ١٢٤٦ وملك فرنسا لويس التاسع سنة ١٢٥٣ وفوداً لملوك المغول للتبشير بالديانة النصرانية بينهم والاتفاق معهم على مسلمي البلاد المقدسة وقد ذهبت هذه الوفود الى مدينة

(قره قوروم) التترية الواقعة في جنوب بحيرة بايقال وكانت عاصمة المغول واطلعت على اشياء كثيرة أثناء الرحلة لم يكونوا يعرفونها من قبل

وفي أواخر القرن الثالث عشر قام ماركوبولو بسياحة طويلة في بلاد آسيا دامت عشرين سنة (١٢٧١ — ١٢٩١) وصل خلالها الى مدينة بكين وكانت تدعى حينئذٍ (كمبالو) وأقام ببلاد الصين سبع عشرة سنة ثم عاد الى أوربا عن طريق الهند الصينية وبلاد الهند وإيران وبعد عودته بثلاث سنين نشر كتاباً بالافرنسية عن رحلته دعاه (كتاب النفائس) وصف فيه البلاد التي زارها في سياحته الطويلة فكان لهذا الكتاب تأثير كبير في نفوس بعض المغامرين من تجارة الفرنج . ومما قاله في كتابه انهُ يوجد في آسيا مدن غنية جداً تجبي الواحدة منها اكثر من ١٥ مليون كيس ذهب كضريبة جمارك وانهُ يدخل الى تلك المدينة يومياً أكثر من الف مركبة حاملة للأقمشة الحريرية النفيسة وادعى أيضاً بانهُ شاهد بعينه في مرفأ إحدى المدن الاسيوية خمسة آلاف سفينة وانهُ يوجد في حوض نهر الأزرق بالصين من المدن العامرة والمكتظة بالسكان ما لا يدانيها عدداً في جميع أحواض الأنهار في الديار المسيحية او في بلاد حوض البحر المتوسط. أما بلاد اليابان فهي تزخر بالذهب الخالص حتى ان قصر الملك فيها قد بنيت جدرانه وأرضه بالذهب الخالص

***

لا نعرف على وجه التحقيق ما هي العوامل التي دفعت ماركو بولو الى ملء كتابه بهذه الأكاذيب والمبالغات غير المعقولة الاَّ أننا متأكدون بأن أنباءه قد أثرت كثيراً في عقول بعض المغامرين وجعلتهم يتحفزون للقيام برحلات محفوفة بالاخطار ليتمكنوا من الوصول الى الهند والاغتراف من كنوزها الثمينة. وبينما كانت أنباء ماركوبولو تنتشر بين الناس في ديار الغرب كان الافرنج قد نقلوا أثناء الحروب الصليبية كثيراً من الآراء والمعلومات الجغرافية التي كانت مجهولة بفضل اتصالهم بتجار العرب الذين كانوا أرقى منهم علماً وأكثر ولعاً بالأمور التجارية فالعرب هم الذين نقلوا للافرنج علوم اليونان الذين كانوا يقولون بكروية الارض وحين ذيوع هذا الرأي الجديد في شكل الارض أصبح في حيز الامكان ذهاب السفن الفرنجية الى الشرق عن طريق أفريقيا الجنوبية وهكذا اتسعت الآمال وشحذت الهمم بين المغامرين المتلهفين للاغتراف من كنوز الشرق الخلاّب

والسلع الشرقية التي كانت تطلب بكثرة في متاجر الغرب كثيرة منها العنبر الرمادي الذي كان يباع كمادة صلبة فاذا ما عرضت على نار حامية فاحت منها رائحة ذكية أخاذة وقد اختلفوا في تعيين مصادر هذا العنبر فقيل انهُ يوجد منهُ في الصخور الواقعة في وسط البحار او على

شواطئها وفي جوف الأسماك وقال آخرون بانهُ هو نبتة في قعر البحر مثل الاسفنج او انهُ يستخرج من جوف سمك معروف باسمه ومن الخرافات الشائعة في شبه جزيرة مالايو ان العنبر الرمادي هو عبارة عن براز متصلب لطير ضخم الجسم يجمعونه من بين الصخور في بلاد ذلك الطير والمعروف منذ القدم ان العنبر يكثر على شواطىء المحيط الهادي وأحسن اجناسه توجد في جزر افريقيا الشرقية وفي مدينة زهار الواقعة على بحر عمان حيث يلتقطه الأهلون ليلاً وهم يمتطون ظهور إبلهم تحت أشعة القمر فاذا ما اقترب الراكب من العنبر بين الصخور نبهه جمله الى وجوده بسبب قوة الشم فيه . وقد كان يوجد في مدينة عدن تجار يعنون كثيراً بتجارة العنبر فينقلونه الى الاسكندرية ليبيعوه الى تجار الفرنج والى بغداد ليوزع منها على سائر الأسواق الشرقية . وقد وجد العنبر في بلاد الاسبان والبرتغال الا أنه أقل جودة من عنبر البلاد الهندية وسائر شطوط المحيط الهندي

والبلسم مادة زيتية ثمينة تخرج من قشرة شجرة تدعى بهذا الاسم وقد كان الناس في القرون الوسطى يزورون المطرية الواقعة قرب القاهرة حيث توجد مياه معدنية وكانوا يعتقدون بأن السيدة مريم العذراء كانت استراحت هناك حين هاجرت لمصر مع ابنها وهناك في المطرية تنمو شجرة البلسم التي يستخرجون من قشرتها مادة البلسم الزيتية وكانت مزرعته ملكاً للحكومة المصرية وعملية استخراج المادة المذكورة الثمينة تجري تحت اشراف موظفين اخصائيين وكانت تهدى لرجال السلك السياسي ولسائر امراء الدولة ورجالها العظام وكان يرسل منه الى المستشفيات ويباع القسم الباقي بأثمان حسنة وكانت الحكومة تسمح لموظفيها بأن يأخذوا بعض غصون الشجرة وأوراقها التي يمكن الاستغناء عنها فيغلوها ويأخذوا منها بلسماً رديئاً الا انه كان يباع أيضاً بأثمان مناسبة . وفي خلال القرون الوسطى لم يكن احد يشتغل باستخراج البلسم سوى رجال الحكومة المصرية على ان شجرته لم تكن خاصة بالقطر المصري فقد نقلت الى بلاد العرب ثم اخذت البلاد المجاورة تستوردها من الحجاز . وقد استنبتت في مدينة اريحا الفلسطينية حيث كان الاهلون يشقون قشرتها وفقاً للطريقة التي فصلها العلامة عبد اللطيف في بحثه عن بلسم المطرية . وقد شحت مستنبتات المطرية في أبان الحروب الصليبية وكادت تنقرض وحين أرادت الحكومة المصرية احياءها استحضرت فصائلها من البلاد الحجازية

وصمغ العلك (جاوا) كان تجار العرب يستوردونه من جزيرة سومطرة ويسمونه (لبان جاوا) ومنه اشتق اسمه البرتغالي (بنزاوى) والافرنسي (بنجوان) وقد كانت سوقه الرئيسية في الاسكندرية حيث يباع بأثمان باهظة . وكان ملوك مصر يقدمونه كهدايا ثمينة لرجال الجمهورية البندقية

وخشب الصبر كان مرغوباً فيه جداً بسبب الرائحة الذكية التي تخرج منهُ حين حرقه وهذا البخور لا يزال مستعملاً في بلاد الشرق . وكان الخلفاء والملوك يدخرون منهُ كميات كبيرة يستوردونها من بلاد آسام الهندية التي كانت تدعى قديماً (كماروبا) واليها نسب اسم أحسن جنس منهُ فيقال عنهُ (خشب كمروبي) . ويوجد منهُ جنس أقل جودة كانوا يستوردونهُ من الهند الصينية . وشجرة الصندال الليمونية لها مادة عطرية حادة ومرغوب فيها جداً تباع بأثمان عالية والنوع الأبيض منها أقل رواجاً من النوع الأحمر الذي لم يكن يقتنى فقط لرائحته الذكية بل لتلوين الاقمشة أيضاً وكان يرد من الهند وجزيرتي سيلان وتيمور

والكافور جاء ذكره في القرآن الكريم وكان القدماء يعرفون خواصه الطبية . وقد ذكر علماء الجغرافية العرب قصصاً عن بحارة زاروا أماكن اصدار الكافور وجلسوا تحت شجره وقالوا انهُ يستخرج كمادة مائعة بعد شق جذع الشجرة وأحسن أجناس الكافور ما كان يستورد من جزيرة سومطرة . ولا تزال هذه الجزيرة مشهورة باصدار هذه المادة الطبية الثمينة على انهم استخرجوا الكافور في الصين من شجرة أخرى تختلف عن شجرة جزيرة سومطرة قليلاً

والدارشين أو الدارصيني ومعناها بالفارسية خشب الصين هي من السلع المرغوب فيها وقد ضاع اسم البلاد المصدرة لها في ظلمات العصور الغابرة . وكانت مرافىء الشرق الادنى تشحن منهُ بكميات وافرة منذ القرن الثامن الميلادي. ولوحظ أن رجال الكنيسة في ذلك العهد وما بعده كانوا يتهادون البهارات والروائح الذكية المختلفة وبينها الشيء الكثير من الدارصيني

ولقد ظلت السوائل العطرية تحضر في اوربا منذ العهد الميروفنجي باستخدام زهور القرنفل المجففة وكان يؤتى بها من الشرق وتباع بأثمان أعلى من الفلفل. وقد تكلم ابن بطوطة عن هذه الزهور حين بحثه عن جزيرة سومطرة في رحلته الشهيرة وهي أزرار الزهر المجفف المغلق لضرب من شجر الريحان وعلى انواع مختلفة ذي رائحة ذكية وأكثر الاقطار زراعة لهُ هي زنجبار ويستخرج منهُ زيت القرنفل المستعمل في مداواة الأسنان وفي الروائح العطرية

وللمرجان أنواع شتى كانت تشحن من غربي البحر المتوسط الى الهند والصين وكانت اماكن اصداره في مدينتي بون الجزائرية وسبته المراكشية على أن أحسن اجناسه كان يصدر من مرفأ صغير بالقرب من مدينة سوته يدعى بالخرز نسبةً الى هذه البضاعة

وزراعة القطن في القرون الوسطى كانت منتشرة في بلاد الشرق على أن أجود انواعه كانت تستنبت في أراضي حماه وحلب . ومما يؤسف لهُ أن هذه البلاد لم تعد تعنى بهذا المحصول الذي له المقام الممتاز في الصناعات النسجية الحاضرة . وقد زرعت أنواع أخرى من القطن أقل جودة من الحموي والحلبي في سهول كيليكيا وفي أراضي عكا واللاذقية وقبرص فكانت السفن

الشراعيـة تروح وتغدو حاملة الاقطان الى البلاد الاروبية من المرافىء السورية ومن الاسكندرية. ولابدَّ من الاشارة هنا الى أن زراعة القطن لم تكن معروفة في القطر المصري بل كان التجار ينقلونهُ اليه من العراق والهند وايران فيأخذ السكان مايحتاجونهُ لمعاملهم ويصدرون الباقي الى البلاد الافرنجية

وكانت بلاد حضرموت العربية تصدر البخور ويقول ماركوبولو في رحلته أن البخور كان يشحن من مدينتي شحر وظفار في حضرموت. وذكرذلك أيضاً جغرافيو العرب وأيد هذه الرواية الرحالة كارتر حين قام بسياحة في جزيرة العرب (١٨٤٤ — ١٨٤٦) فقال انهُ رأى أشجاراً في أراضي المدينتين المتقدم ذكرهما تؤخذ من قشرتها بعد شقها مادة لزجة بيضاء هي البخور بعينهِ ويوجد من هذه الاشجار في بلاد الصومال وقد أصبحت الآن المصدر الوحيد للبخور. وكان التجار العرب يستوردونهُ من مرافىء حضرموت الى بغداد والى تبريز ومنهما كان يوزع على سائر الأسواق العالمية . أما ما كان يباع منهُ في الاسكندرية فانهُ أقل جودة وأرخص ثمناً. وقد كانت العادة أن يحضر سلطان حضرموت بيع البخور بنفسهِ فيشتري القنطار الواحد منهُ بنحو عشرة دنانير ذهبية ثم يبيعهُ للتجار بستين ديناراً أو أكثر من ذلك

***

لقد كان أطباء العرب يؤمنون كثيراً بفوائد جذر نبات يدعى (خوليجان) وهي كلمة مأخوذة من كلمة أخرى صينية هي (خالنجان) وهذه الجذور كانت تستخدم كعلاج أو تضاف الى بعض الأطعمة نظراً لخواصها المهيجة وقد بيعت في جميع مرافىء الشرق الأدنى ولها نوعان الأول ذو طعم مر ولون أحمر داكن ورائحة جميلة وكانوا يستوردونهُ من الصين ويصدرونهُ الى أوربا أما النوع الثاني فهو أقل رواجاً وجودة وأخف وزناً من الأول وكان يؤتى بهِ من بلاد الهند

والصمغ ، أصلهُ عصارة تستخرج من ساق شجرة بعد شق قشرتها وتكثر هذه الأشجار في بلاد اليونان وفي آسيا الصغرى ويوجد في الهند والهند الصينية أشجار تنمو عليها حشرات صغيرة تشق لحاء ساق الشجرة فتخرج منها مادة لزجة تتصلب فيما بعد ويكون لونها حينئذٍ أحمر فيستخدمونها في تحضير بعض الألوان وفي الأمور الطبية

وكان يباع العاج في الاسكندرية وعكا وفاغوسطة وعدن ويرد اليها من بلاد الحبشة التي كانت تصدر أجود الأنواع . والفيل الافريقي أقوى وأمتن من الفيل الهندي وله أنياب أطول وأصلب . لذلك كان الهنود يستوردون العاج من بلاد الحبشة علاوة على ما لديهم منه . وأهم اماكن اصداره كانت تقع على شواطىء البحر الأحمر وزنجبار وجزيرة مدغشقر

وأحسن انواع الكتان ماكان يستنبت في القطر المصري حيث أقيمت مصانع كثيرة لغزله ولنسج أقمشة مرغوب فيها جداً منه وكانت تصدر المادة الغفل منه من دمياط والاسكندرية الى سائر مرافىء البحر المتوسط . وقد استنبت الكتان في اراضي نابلس الفلسطينية الاَّ ان المحصول المصري كان مرغوباً فيه اكثر منه حتى ان الحكومة المصرية كانت تعاقب من يخلط هذين الصنفين في معامل النسج وتحرص على ان تكون الأقمشة الكتانية المصرية منسوجة من المحصول المحلي وحده . ويفهم مما تقدم ماكان للكتان من الاهمية في الديار المصرية

والمسك مادة يفرزها حيوان المسك وتخرج من غُدة قرب سرته . ويقول مؤلفو العرب ان حيوان المسك يعيش في البلاد الواقعة بين التبت والصين وفي آسيا الوسطى والهند الصينية ويقال ان رائحة المسك لا تكون مستحبة عند خروجه من الغدة فاذا ما تعرضت تلك المادة الى الهواء انعكست الآية وانقلبت الرائحة المستكرهة الى ذكية حادة . وقد قيل ايضاً ان حيوان المسك حينما يشعر بامتلاء غدته يتحكك بالصخور ليفرز مادته الثمينة عليها. ولهذا السبب يطوف طالبو هذه المادة الجبال والاودية في البلاد المعروفة بالمسك ليجمعوها

والزعفران مادة كانت مرغوباً فيها جداً وكانت تضاف الى بعض الأطعمة الشرقية وأحسن اجناسها ما كان يؤتى به من كيليكيا وقد عرفها الفريون منذ الاحقاب الأولى واستخدم الزعفران في كتابة الاحرف الجميلة نظراً للونه الاصفر الذهبي اللماع . ويعرف الفرس انواعاً مختلفة للزعفران أروجها ما كان يستنبت في جوار اصفهان وهمذان وحلوان واستخدمه الاطباء في تحضير بعض الأدوية

ونقل العرب حين حكموا القسم الغربي من حوض البحر المتوسط دودة القز فأدخلوها الى اسبانيا والى جزيرة صقلية واستخرجوا الحرير منها في غرناطة ثم حملوه الى مصانع النسج في مدينة المرية حيث نسجوا أحسن انواع الحرير على ان تجار جنوا كانوا يستوردون الحرير الغفل من شيروان الفارسية ثم نافسهم في هذه التجارة الرابحة البنادقة . واشتهرت ايضاً بلاد طبرستان ودمشق وحماه وحمص بصنع الحرير ونسجه

وكان قصب السكر يزرع في سهول الهند والهند الصينية وفي القسم الجنوبي من بلاد الصين الاَّ ان سكان هذه الديار كانوا يجهلون صنع السكر ويكتفون باستخراج العصارة السكرية واستخدامها في شؤونهم البيتية . اما السكر باشكاله المختلفة فلقد صنع لاول مرة في مدينة جندي شابور ايام الخلافة العباسية. وبعد صنعه انتشرت زراعة قصب السكر في مقاطعة خوزستان انتشاراً كبيراً نظراً لجودة الجو فيها وملاءمة التربة واتقان اساليب الري . وكان الخلفاء العباسيون يتسلمون من اهل خوزستان سنوياً كضرائب كمية من السكر تقدر قيمتها بثلاثة ملايين دينار.

وقد عرفت بغداد بصنع السكر وتحضير المربيات والاشربة السكرية الممتازة وحذت المواصم الأسلامية الاخرى حذو بغداد فأنشئت مصانع للسكر وملحقاته في دمشق والقاهرة وغرناطة وهاجرت طائفة من صنّاع السكر بالقاهرة الى بلاد الصين في ايام قبلاي خان — وهو أول امبراطور مغولي في الصين — وعلموا اهل تلك البلاد طريقة صنع السكر وذلك باضافة كمية من البوتاس الى العصارة السكرية المستخرجة من قصب السكر

وقد زرع قصب السكر بنجاح في نواحي طرابلس الشام وفي شمال افريقيا وفي بلاد الاندلس وراجت صناعة السكر في جزيرة صقلية ايضاً وكلمة (مصارة) المستعملة الآن في لغة اهل هذه الجزيرة مأخوذة من كلمة معصرة العربية وهي التي كانوا ينشئونها لعصر قصب السكر في الجزيرة واستخراج العصارة السكرية منها

***

ولم يعرف الافرنج شيئاً عن طريقة صنع السكر الاّ بعد ان جاءوا اسورية في الحملة الصليبية الاولى ورأوا المصانع في طرابلس الشام فنقلوها الى ديارهم وانشئت هذه المصانع في بعض مدن جزيرة قبرص

وزرع قصب السكر في القطر المصري ولاسيما في جوار دمياط ورشيد حيث انشئت عدة معاصر كانت تدار بالجاموس لعمل السكر باحجام واشكال مختلفة

وللشرقيين ولع كبير باقتناء الأحجار الكريمة وتوجد مناجم الزمرد على حدود بلاد النوبة وقد استغلها الفراعنة ومن بعدهم البطالسة والرومان والعرب وظل الاستغلال قائماً حتى أواسط القرن الرابع عشر الميلادي ثم أهملت تلك المناجم بسبب نفاد الزمرد منها. وللزمرد نوعان الاول كان مرغوباً فيه في الهند والصين والثاني كان يشحن للبلاد الأوربية

واستخرج الياقوت الاحمر من الأراضي المصرية الاّ ان أحسنهُ كان يؤتى بهِ من جزيرة سيلان التي اشتهرت بهذا الحجر الثمين وسماها العلامة البلاذري بجزيرة الياقوت . وقد مهر سكانها في تجميل الياقوت وصقله فكانوا يعرضونهُ على نار حامية خلال عدة ساعات ليزيدوا في رونقه وجمال لونه واستخرج ياقوت أحمر قاني من الهند الصينية الاّ انهُ أقل قيمة وصلابة من حجر سيلان . واعتاد الملوك والأمراء بالشرق احتكار الياقوت وبيعه بأثمان مرتفعة وكان يستخرج حجر الفيروز الثمين من بلاد كرمان وخراسان . وكانت بلاد الهند تشحن معظم عقيقها وياقوتها الى اوربا عن طريق مصر . واشتهرت الهند باصدار الماس الاّ ان الياقوت كان يباع في كل من بغداد والقاهرة خلال القرن الثالث عشر بأثمان أعلى من الماس نظراً لتهافت الملوك والأمراء على اقتنائه وتفضيلهم إياه على سائر الأحجار الكريمة

وكان للؤلؤ مصايد كبرى في كل من الخليج الفارسي ومضيق بلك الواقع بين شبه جزيرة الهند وجزيرة سيلان . وتقع مصايد اللؤلؤ في الخليج الفارسي في المنطقة البحرية التي تحيط بجزيرة البحرين وفيما جاورها من بحر عمان قرب مدينتي عمان والقطيف

أما منطقة اللؤلؤ الثانية في جزيرة سيلان فلقد عرفها جغرافيو العرب وذكروها في مؤلفاتهم وكانت تستخرج منها لآلىء نفيسة في أيام العلامة الادريسي . وأهم أسواق اللؤلؤ كانت في بغداد وتبريز والسلطانية وسمرقند

***

وقال ابن بطوطة عن صيد لؤلؤ البحرين في الجزء الاول من رحلته ما يأتي : —

« ومغاص الجوهر فيما بين سيراف والبحرين في خور راكد مثل الوادي العظيم فاذا كان شهر ابريل وشهر مايه تأتي اليه القوارب الكثيرة فيها الغواصون وتجار فارس والبحرين والقطيف ويجعل الغواص على وجهه مهما أراد ان يغوص شيئاً يكسوه من عظم الغيلم وهي السلحفاة ويصنع من هذا العظم أيضاً شكلاً يشبه المقراض يشده على أنفه ثم يربط حبلاً في وسطه ويغوص ويتفاوتون في الصبر في الماء فنهم من يصبر الساعة او الساعتين فما دون ذلك فاذا وصل الى قعر البحر وجد الصدف هنالك فيما بين الاحجار الصغار مثبتاً في الرمل فيقلعهُ بيده او يقطعهُ بحديدة عنده معدة لذلك ويجعلها في مخلاة جلد منوطة بعنقه فاذا ضاق نفسه حرك الحبل فيحس به الرجل الممسك للحبل على الساحل فيرفعهُ الى القارب فتؤخذ منهُ المخلاة ويفتح الصدف فيوجد في اجوافها قطع لحم تقطع بحديدة فاذا باشرت الهواء جمدت فصارت جواهر فيجمع جميعها من صغير وكبير فيأخذ السلطان خمسه والباقي يشتريه التجار الحاضرون بتلك القوارب .... »

ويقولون انه حينما تدخل حبة من الرمل او من اي جسم آخر في الاصداف يكسوها حيوان اللؤلؤ صدف الدر ويتكوَّن من ذلك اللؤلؤ

ولقد كان للتوابل اهمية عظيمة في تهيئة الاطعمة وأهم هذه التوابل الفلفل وجوز الطيب والبسباسة والوانلا والقرفة وخيار الشنبر والقرنفل والزنجبيل وما شاكل ذلك ولها رائحة ذكية وطعم حريف وتستعمل في اعداد الاطعمة وتجفيفها للحفظ وتستخرج من عدة اجزاء من الاشجار التي تجود بها غير ان اغلبها من ثمارها وحبوبها وبعضها من القشر الداخلي او الخارجي والبعض الآخر من الجذور ويرجع الفضل في طيب شذاها الى الزيوت العطرية بها . والتوابل كلها من محصولات الهند والهند الصينية وجزر الهند الشرقية

مفارقات

ذر الورى يفعلوا في الدهر ما شادوا
فهم لهذا الى دنياهم جادوا
واعذر بصيراً اذا طاشت نواظره
فقد يرى غير أن النفس عمياء
وارحم ضعيفاً عن الحالات يحملها
فالساعُ تثقل والأيام أعباء
الماء لو كان يدري من سيشربه
لعله كان لا يجري له الماء
والشمس لو عرفت من يستضيء بها
لعله كان غضَّ النورَ إغضاء
سل ناضر النبت مزهواً برونقه
هل تستبين له في الافق أنواء
إن يحرق الثلجُ هذا النبت منهمراً
فما له من حريق الثلج إطفاء
ماذا يفيد جلاء اللون مرتحلاً
لا يستقيم له نصحٌ وإيصاء
ولا يصحُّ اجتهاد العقل فيه له
فالعجز والزور تأويلٌ وإفتاء
يا عابر الدهر أقصرْ عن تفهمه
لا النور نورٌ ولا الظلماء ظلماء
هما طريدا شعور أنت شاعره
لم يتسع لهما جَنْبٌ وأحناء
والحسن والقبح أخلاق وأمزجة
والحب والبغض أطوارٌ وأهواء
والسعد والنحس احوالٌ وأقضية
والخير والشرُّ عاداتٌ وآراء

خليل شيبوب

القمريون

للاب انستاس ماري الكرملي

١ — تصدير

في لغتنا الضادية ، الفاظ مترادفة ، يُرى بينها ما يشبه الكلم السامية ، ومنها ما يشبه الحروف اليافثية ، ومنها ما يضاهي الكلم الحامية . وهذا دليل بيّن على ان ابناء يعرب اختلطوا بأمم مختلفة اللغى والعناصر ، والعروق ، فاقتبسوا منهم مفردات ، كما ان معاشريهم اخذوا منهم أوضاعاً ، أدخلوها في ألسنتهم ، حتى اختلط الحابل بالنابل ، وتعذر عرفان تلك الأصول ، فلا يُدرَى اليوم أأخذها العرب من الأعاجم ، أم استعارها هؤلاء من اولئك . وعلى كل حال ، اصبحت دراستها من ألذ المباحث ، لما فيها من العودة الى القرون الأول ، والوقوف على أسرار لغى تلك الأمم ، ودقائق نطقهم بها ، على مختلف الوطن والزمن

والأدلة التي تثبت هذه الحقيقة اكثر من ان تحصى ، وربما تقع في مجلد ضخم ، كله بدائع وروائع ، ولما كان هذا الموضوع يخرجنا الآن عن بحثنا الذي أرصدنا له المقال ، نذكر شاهداً واحداً ، ليقف القارىء على ما نشير اليه . وهو كلمة (شهر) . فهذه الكلمة سامية الوضع ، فهي في الارمية (سَهْرَا) ومعناها (القمر) ، لأن حساب ايام الشهر ، يعرف من القمر ، فهو مقياس ايامه منذ اقدم الأزمنة ، وعند جميع امم الشرق والغرب . ومن اسماء (القمر) في لغتنا (الساهر) و (الساهور)

وفي لساننا كلمة أخرى تدل على الشهر هي (النماص) ، بنون مضمومة ، فميم مفتوحة ، فألف ، فصاد. فهي مقلوب احرف اليونانية Mènos (مانُص) المشتقة من Mèné ومعناها (القمر) . وهذه الكلمة اليونانية يجانسها الفاظ، في كثير من ألسنة ديار الغرب كالهندية الفصحى (السنسكريتية) ، والفرندية ، والفارسية ، والأرمنية ، والالبانية ، واللاتينية ، والانبرية ،

والارلندية القديمة ، والغاليَّة ، والبريطونية ، والقوطية ، والالمانية العالية القديمة ، والانكليزية السكسونية ، والنرمندية القديمة ، والصقلبية القديمة ، والتوانية ، واللتيّة ، والبروسية القديمة والفرنسية ، والانكليزية ، والاسبانية ، والايطالية ، الى غيرها من اللغات . ونحن ننقل كل ذلك عن معجم بوازاق اليوناني الفرنسي [1] . ولو نعلم ان في مطبعة المقتطف حروف هذه الألسن ، لصورناها هنا للباحث ، المتطلع الى درس الحقائق وما فيها من الدقائق . ومن اراد تتبع هذا الموضوع ، فعليه بمراجعة هذا المعجم النفيس في ترجمة Mên ، فانه يفيده الفائدة العظمى المتممة

ويؤخذ من هذا كله ، ان مادة (ن م ص) او (م ن ص) بمعنى الشهر ، غير موجودة في اللغات السامية ، فيستنتج أنها دخيلة في المضرية ، وانها جاءتنا ، يوم كان ابناء اسماعيل مختلطين بسائر الأمم والشعوب حينما كانوا في ستي بحر الروم (او البحر المتوسط) . فاستطعنا بهذه الطريقة أن نهتدي الى اصل (نامص) الحقيقي ، لكن الأمر ليس بالهين في مئات ، بل في الوف من الألفاظ ومن جملتها (القمبري) وجمعها (القمبريون) أو (القمابرة)

٢ — الكبيريون

عند اليونانيين كلمة ، هي : Kabeiroi ، وهي باللاتينية Cabiri ، وبالفرنسية Cabires ، وبالانكليزية Cabiri وقد حار علماء اللغة والتاريخ والدين في معرفة اللغة التي وضعت فيها لاول مرة . فنهم من قال بأنها مشتقة من السامية (كبيريم) ، اي كبار او كبراء ، ومعناها (الآلهة العظيمة) او (الكبار) . وذهب فريق الى انها مشتقة من فعل يوناني هو Kaiô (كايو) اي كوى ، وأحرق لان (الكبيريم) او الكبيريين او (الكبار) آلهة اشرار ، هم آلهة النار ، يكوون أعداءهم بالنار ، تحقيقاً لهذه الآية : « لنسفعاً بالناصية »

٣ — عبادة الكبيريين السرية

وكان لهؤلاء الآلهة عبادة سرية ، يؤديها لهم بعض الاقوام من اليونانيين ، ولاسيما اهل ساموثراقة ، ولمنوس ، وانبروس . وقد نقلها الى تلك الربوع ، الفنيقيون ، ثم اعتورها التبديل والتغيير ، بحسب ظروف المكان ، والزمان ، وروح تلك الديار ، حتى امتزجت كل الامتزاج بعبادات البيلاسجيين — وقيل : إن لهذه العبادات صلة « خاصة » بالهفستيين Hephaestains

(١) Emile Boisacq. — Dictionnaire Etymologique de la Langue Grecque. — Paris. Librairie C. Klincksieck. 1923

باعتبارهم معلمي المشتغلين بالمعادن ، وصلة بدماطر Demeter ، وفرسافونة Persephone ورائمة Rhea ، وهكاتة Hecate باعتبارها آلهات الطبيعة

وكان الكبيريون في بدء الامر ، اربعة ، ودونك اسماءهم : اكسياروس Axieros وأكسيوكرسس Axiocersus واكسيوكرسة Axiocersa وكدملس Cadmillus اوكسملس Casmillus ، ثم ترجمت هذه الاعلام بعد مدة طويلة بصور شتى فرة كانت حلقان[1] Vulcanus ، والمريخ Mars ، والزهرة Venus وعاص، Amor او عرمونية Harmonia

ومرة أخرى بصورة دماطر Demeter او كرش Ceres ، وفلوطن Pluton وفرومرفينة وهرمس Hermes أو عطارد Mercurrius

وقد التبس على كثيرين لفظ (الكبيرين[2]) بلفظ (الكوريتين Curetes) ، او بلفظ (الكوروبنطين) Corybantes او (بالدكتوليين) Dactyles

والخلاصة : لا يمكننا ان نؤكد تأكيداً صادقاً كل ما يتعلق بتلك الآلهة ، اذ ما كان يجوز لاحد ان ينطق بأسمائهم ، ولا بأنواع العبادات السرية والغامضة التي كانت تؤدى لهم ، وكانت تخفى على كثيرين ممن قبلوا في احضانها

وكان اسم الكاهن الأكبر ، او الحبر الأعظم ، لتلك العبادة الكبيرية (قويس (Koès) وهو الذي كان يتقبل شهادة الداخلين فيها ، وآخر حفلة تقام لوقف (الوليج) على اسرار الدين، تسمى (تنصيباً) Thronismos

يُجلس (الوليج) على تكرمة متلألئة انواراً ، بعد ان يمتحن محناً تشيب لهولها رؤوس الاطفال ، ثم يبرقع وجهه ، ويعقد على جبينه إكليل يتخذ من غصن زيتونة ، ويوشح بوشاح بديع ، بينما يكون الموابذة والهرابذة قد أمسك بعضهم بأيدي بعض ، وهم يرقصون رقصاً رمزيًّا هو (الدستبند)

---

(١) يقول المعربون العصريون في تعريبه (فلكان) وهذا غير صحيح لان الحرف الغربي او اللاتيني V لم ينقله قدماء العرب الى فاء ، او واو ، او باء ، بل الى حرف حلقي ، فهو اما (ح) او (خ) او (ع) او (غ) ولنا كلام طويل في هذا الموضوع . و(حلقان) مأخوذ من مادة (حلق) المشابهة لمادة (حرق) و(حلقان) اله الاحراق والحلق والحالق هو الاصابة بالشر والاهلاك (٢) الياء في (الكبيري) بمعنى (الكبير) المبالغة كالاحري للاحر في قولك (احري) ممنى (الاحر) بكثرة او شدة

ويروى ان عائنا Aineas (1) عرف أهل ايطالية بالكيبريين ، فأقيمت فيها أعياد اكراماً لهم منذ ذاك الحين

٤ — الكيبريون هم القمبريون او القمابرة

بسطنا للقارىء ملخص آراء علماء الغرب في ما يتعلق بأمر (كيبريين) ليتضح له المعنى المطلوب من (الكبيري) وقد اعتمدنا على رسنيول في كتابه Les Métaux dans L'Antiquité par Rossgnol — وم. پ. دشارم La Mythologie de la Grèce Antique par M.P. Decharme — وويستر في معجمه الدولي الجديد للغة الانكليزية المطبوع سنة ١٩٢٤ Webster's New international Dictionary of the English Language Editor in chef : W. T. Harris, Ph. D., LL. D. -- General Editor F. Sturges Allen

وليقف على الحقيقة وهي أن علماءهم البصراء غير متفقين على أصل تلك اللفظة . فمنهم من قال أنها من أصل سامي ، ومنهم من ذهب الى أنهُ من مادة حاميّة ، ولم ير أحد منهم أنها من تركيب يافثي أو هندي

ومهما يكن من هذا الاختلاف ، فاننا نرى في لغتنا ، الكلمة الحقيقية التي نشأت منها (الكيبريون) بالتصحيف والتحريف . وأن هذه اللفظة هي (القَمْبَريّ) وضبطها بالقاف المفتوحة فالعين المهملة الساكنة ، يليها باء موحدة تحتية ، فراء مكسورة فياء مشددة . وهذه الكلمة قديمة في لغة مُضَرَ . وانما قيل فيها (كبيريّ) ، لان القاف غير موجود في لغات الغربيين فيعوضها عنها بالكاف والعين لاوجود لها في تلك الالسنة ، لانها من أحرف الحلق ، التي هي : أ ، ه ، ح ، خ ، ع ، ك ، ق ، فعندهم منها : أ ، ه ، ك وأما ما بقي منها فيسقط في كلامهم أو يبدل بأحرف أخر ، وقد سقطت هنا العَيْنُ ، وبقي من احرف تلك اللفظة : الباء والراء والياء . وفي التوراة ، مئات من شواهد الأعلام تؤيد رأينا هذا بلا شاذّ واحد ، ولا نادّ

---

(١) اينياس اي Aineas على ما نقلها العلامة سليمان البستاني في (الياذة هوميروس) او بصورة (آنياس) كما في قوله (ص ٣٠٦) :

وآنياس الدردنيين أمر وهو ابن انخيس اخو الذكر الاغر

ومرة بصورة اينياس ، كما في هذا البيت (ص ٤٠٨) :

لهم في السها هذا الحديث وفي الثرى ذيوميذ لا ينفك اينياس يطلب

وأخرى بصورة أنياس ، كما في هذا البيت (ص ٤٠٩) :

وسار أفلون بأنياس مسرعا لمعبده في طود فرغام يذهب

ولا يجوز ان يعبث بالعلم الواحد هذا العبث . وقال في معنى أنياس في ص ١٢١٦ (هائل) ، وهذا لا يوافق عليه علماء اللغة وفقهاؤها من اليونانيين . ونحن عربناه بصورة (عائن) ، وهو المعنى الذي اتفق عليه أو يكاد المولعون بأصول الكلم ودراستها . وكتابة هذا العلم بالاحرف اليونانية يحملنا على اقرار عربيته بهذه الصورة دون غيرها ، ولاسيما لان المعنى يثبت ذلك المبنى اثباتاً صحيحاً لاريب فيه

ومما يؤيد فكرنا هذا ، ما ورد في الحديث النبوي . قال ابن الاثير في النهاية ما هذا نقله :

« (اي في كتاب الهروي) : « ان رجلاً قال : يا رسول الله ، مَنْ اهل النار ؟ — قال : كل شديد قَمْبَرِيّ . — قيل : وما القمبري ! — قال الشديد على الاهل ، الشديد على العشيرة ، الشديد على الصاحب . قال الهروي : سألت عنهُ الازهريّ ، فقال : لا اعرفهُ . وقال الزمخشريّ : أرى انهُ قلب[1] عبقريّ . يقال : رجل عبقريّ ، وظلم عبقريّ شديد فاحش . والقلب في كلامهم كثير » اه . ما جاء في النهاية

وما ورد في اللسان وتاج العروس لا يخرج عما جاء في النهاية ، فلا حاجة لنا الى ايراده

دُ . القمبري واشتقاقه الحقيقي ومعناهُ العلمي

هل القمبري مقلوب العبقري ؟ — قد يكون ذلك ، لكننا مع كل احترامنا لرأي أحد اللغويين الأقدمين الكبار ، لا نرى رأيه ، والأخذ برواية الآخرين من غير عرضها على محك النقد مما يسدّ باب الاجتهاد ، ويحول دون تقدم فكر البشر . والذي عندنا : ان كل لفظ يتعدى أحرفهُ الثلاثة ، يحلّ الى دونه تركياً ان كان عربي الأصل او الوضع ، فالسباعي الى السداسي وهذا الى الخماسي ، وهذا الى الرباعي ، والرباعي الى الثلاثي ، وهذا الى الثنائي ، فننظر حينئذٍ في هذا التركيب

فرأينا إذن ان القمبري يغدو في حله (قمبر) لأن الياء للمبالغة في المعنى ، و (قمبر) يصير في ثلاثيهِ (قمر) ومعنى (قَمَرَ) الشيء انتهى الى قعره . فاذا سمعت ان فلاناً (قَمَرَ البئر) ، فمعناه : نزل اليها حتى انتهى الى قعرها ، و (قمر) الاناء : شرب ما فيهِ حتى انتهى الى قعرهِ ، و (قمر) الثريدة : أكلها من قعرها ، و (قمر) فلاناً : صرعهُ كأَنهُ صار الى قعرهِ أي نهاية أسفلهِ . و (قمر) النخلة : قطعها من قعرها أي أصلها . الى آخر ما هناك من الأمثلة

ثم ان مادة (ق ع ر) قد تردّ الى الثنائي فتصير (قرّ) ومنهُ (القرار) لما قُرَّ فيهِ ، أي ثبت وسكن فيه ، و (القرار) أيضاً : المطمئن من الارض ، والمستقرّ الثابت منها . فقولنا (القمبري) معناهُ : الذي يوصلك بشدتهِ وظلمهِ وعسفهِ الى آخر ما يمكن أن تصير اليهِ . وهذا هو من مزايا وأعمال أولئك الآلهة أهل النار ، فانهم أهل جور ، وجبر ، وبغي ، وطغي ، الى ما ضارع هذه الصفات الذميمة . فأنت ترى من هذا التحليل اللغوي الوجيز : ان العربية حلاَّلةُ المشاكل ، مذللة المعاضل ، مجيبة عن كثير من المسائل الجلائل !

---

(١) نحن لا نرى رأي الزمخشري بل نرى ان الكلمة تنظر الى اليونانية Hyperkheiria ومعناها : يفوت أو يتجاوز اليد ، أو بعبارة أخرى : لا تصل اليه يد المقتدرين من البشر ، وهي أيضاً من ألقاب (حيراء) أي Hèra التي يسميها الرومان يونون Iunon وهي من آلهة الخرافات الرومانية واليونانية أو من مزاعمهم الدينية

سقوط الشعر

للدكتور عبده رزوق

طبيب مستشفى الميناء في الفاو بالعراق

الشعر اعضاء خيطية الشكل بارزة من طبقة الجلد الخارجية ومثبتة في اكياس او حفر صغيرة كائنة في أعمق جزء من الجلد ، وبعبارة أخرى في ادمة الجلد . وتقسم الشعرة من الناحية التشريحية الى ثلاثة اقسام وهي من أعلى الى أسفل : الساق والجذر والبصيلة. وتمتاز أدمة الجلد باحتوائها على حليمات الشعر وغدد العرق وأعصاب وأوعية دموية وعضلات وغدد دهنية . وعلى نشاط هذه الغدد في افرازها يتوقف لمعان ونضارة الشعر . بينما البشرة ، وهي الطبقة الظاهرة من الجلد ، لا تحتوي على شيء من هذا كله ، بل تقوم فقط مقام الغطاء للأدمة

ويوجد على جسم الانسان ثلاثة انواع من الشعر : شعر طويل ليّن : وهو شعر الرأس والعارضين (شعر اللحية) وكذا شعر الصدر احياناً ، وشعر قصير صلب : وهو شعر الحواجب والأهداب والأنف والأذن الخارجية ، وشعر لين زغبي : ويوجد على جميع سطح الجسم ماعدا الشفتين وراحة اليدين وأخمص القدمين والوجه الظاهر لمفاصل اصابع اليدين والقدمين وبعض اعضاء أخرى

والفروق الجوهرية بين هذه الانواع هي ان شعر الرأس ينبت من جلده بزاوية مائلة. أما شعر الاهداب (الرموش) فينبت عمودياً تقريباً . ثم اننا نجد في شعر الرأس عضلات دقيقة جداً ليس للانسان اي سيطرة عليها اي انهُ لا يمكنهُ تحريكها بمحض ارادته، لكنها اذا انقبضت بسبب الخوف او الذعر الذي ينتابهُ احياناً ، أحدثت عنده انتصاباً في شعر الرأس، فيقال في هذه الحالة ان فلاناً (وقف شعر رأسه) !

واذا ما اردنا ان نفحص مجهريّاً المقطع العرضي لشعرة ما نلاحظ أنها مؤلفة من خلايا بشكل ثلاث طبقات دائرية ، والطبقة الوسطى من هذه الخلايا تحتوي على مقادير من حبيبات البكمنت Pigments التي تعطي للشعر لونهُ . والبكمنت هذا يختلف تبعاً لاختلاف الجنس

(سلبلة) . فاذا خلا الجلد منهُ بالكلية غدا لون هذا الجلد ناصع البياض، وكلما كثر ازداد لون الشعر سواداً ومال الى الأسود القاحم . وهو يزول شيئاً فشيئاً تحت تأثير الشيخوخة او في الاصابة ببعض الامراض : ذلك هو السبب في حدوث الشيب عند الانسان . وقد لوحظ أن جلود الزنوج تحتوي على كميات من البكمنت اكثر مما تحتويه جلود الاجناس البيضاء

والقاعدة المعروفة هي أن الشعر يتبدل لونهُ بتقدم السن، غير ان لهذه القاعدة بعض الشذوذ. فكثير من الناس كما لا يخفى نراهم يبلغون العقد السابع او الثامن من العمر والقسم الاكبر من شعرهم لا يزال محتفظاً بلونه الأصلي دون ان يطرأ عليه تغير يُذكر . وبالعكس نجد اشخاصاً آخرين يتغير لون شعر رؤوسهم ، كله أو جزء منهُ ، وهم لا يزالون في سن الثلاثين ، بل في سن العشرين أحياناً وهذه الظاهرة ليست خاصة بالانسان وحده بل انها تشاهد ايضاً في بعض الحيوانات كالكلاب والقطط والاحصنة وغيرها اذا ذعرت. ومما يروى في هذا الصدد ان خنزيراً هاجم ديكاً فكاد ان يفترسهُ لولم ينج هذا بأعجوبة ، فتبدل اذ ذاك لون ريش الديك في رأسه وعنقه من احمر وأسود الى ابيض ناصع بسبب الذعر الشديد الذي اصابه . وان شحروراً فوجيء يوماً في قفصه بهرّ وثب عليه فتوصلوا في الوقت اللازم لانقاذه من مخالب هذا الحيوان. لكن ريش الطير سقط في الأيام التالية على أثر هذه الحادثة . ولما نبت الشعر الجديد كان كلهُ أبيض ناصعاً. وقد لوحظ ان تبدل لون الشعر عند الانسان يحصل أحياناً خلال بضعة أيام او خلال بضع ساعات تحت تأثير الصدمات العصبية والانفعالات النفسية الشديدة التي تتولد عن الخوف والفزع أيضاً ، وما حادثة الملكة ماري انطوانيت التي تغير لون شعر رأسها جزعاً بين عشية وضحاها عندما عرفت ما سيحلُ بها من القصاص الرهيب وهي أمام المقصلة ببعيدة عن أذهان القرّاء . وهكذا قل عن رئيس الديوان الملكي توماس موروس في عهد ملك انكلترا هنري الثامن ذاك الذي حكم عليه أيضاً بالاعدام بالمقصلة فتبدل لون شعر رأسه من اسود الى أبيض في الليلة السابقة لاعدامه

ومتوسط عدد شعر الانسان البالغ يبلغ ١٢٠٫٠٠٠ شعرة عند ذوي الشعر الاسود ، و ١٤٠٫٠٠٠ شعرة في رأس الشقر

أما مقدار شعر الجسم والوجه فيختلف باختلاف السلالة . ويجب ألاّ ننسى أن الوراثة ونشاط الغدد ذات الافراز الداخلي يلعبان في ذلك دوراً هامّاً

***

(كيف يسقط الشعر ؟) : لشعر الانسان دور معين وواضح جدّاً . فهو ينمو لحين من الزمن ويبقى على طول محدود ثم يسقط ليحل مكانه شعر جديد . وهكذا يصل بدوره الى حدٍ

معين ثم يسقط كالأول . وهكذا تتكرر هذه العملية في الحياة ، والطبيعة تجتهد ان تملأ الفراغ المتروك بالشعر الساقط . أما حياة الشعرة نفسها فتختلف من ٢ — ٤ سنوات ؛ ويلاحظ ان الشعر يتساقط باستمرار من فروة الرأس عندما يصل الى نهاية دوره لينمو موضعهُ شعر جديد، وفي الحالات العادية ، اذا كان التوازن موجوداً بين هاتين الظاهرتين : أي سقوط الشعر القديم من جهة ، وبروز الشعر الجديد من جهة أخرى — فشعر الانسان يبقى آخذاً مقياساً واحداً مدة طويلة دون ان يفقد منهُ شيء يذكر . لكن يحدث أحياناً ان يكون سقوط الشعر غزيراً من رأس البعض، او ان لا ينمو ثانية في رؤوس الآخرين لسبب مرضي ، ففي هذه الحالة يختل التوازن المشار اليهِ ويبتدىء الشعر الجديد يقل عن الشعر القديم تدريجاً ويحل الصلع قبل الأوان أي في سن الأربعين او الخمسين تقريباً بدلاً من سن الستين كما هي الحال عادةً. فجهل الكثيرين للعوامل المؤدية الى هذه الحالة، واعتقادهم بالمعجزات ، يغريانهم باستعمال كل مستحضر يقرأون او يسمعون عنه مما يباع عادة في الأسواق — تلك التي يقال عنها إنها تعيد نمو الشعر — تداركاً للامر قبل استفحاله

غير ان الصلع كثيراً ما يبتدىء عند بعضهم كما قلنا في سن الثلاثين او أقل من ذلك وهذه الحالة من شأنها ان تسبب للشبان الحزن والغم والانقباض ، كأن هذا الصلع الباكر شيء مخيف يطاردهم أنى حلّوا وحيثما ذهبوا . والأماكن التي يخف منها شعر الرأس اولاً هي كما هو معلوم القسم الأعلى من الجبهة ثم قمة الرأس فجانباه ، وكلما فقد الانسان من شعر هامته في هذه المواضع كلما ازدادت سرعة نموّ الشعر في مؤخر الرأس وجانبيهِ كأن الطبيعة يناقض بعضها بعضاً من هذه الناحية

أما عند النساء فحلول الصلع أيضاً لا يختلف عما هو عند الرجال مع اختلاف جزئي فقط ، فهو يبتدئ بنفس السن كما هو عند الرجال لكن سقوط الشعر عندهنَّ يحدث في النصف الأمامي من فروة الرأس دون القمة ، والشعر يخف شيئاً فشيئاً لكنهُ لا يترك بوجهٍ عام مكاناً عارياً تماماً كما هو المشاهد عادةً عند الرجال

***

﴿ أسباب سقوط الشعر المبكر ﴾ : للوراثة كما قلنا تأثير كبير في هذه الناحية . ففي بعض العائلات يبتدىء الصلع عند الرجال في سن الثلاثين . والواقع أن الطب لا يعرف الآن سبباً في سقوط الشعر المبكر في بعض الحالات . انما نعرف ان جميع الأشخاص المصابين بالصلع المبكر يكون شعرهم كثير الدهن قبل سن العشرين وتتساقط منهُ قشور رقيقة بكثرة ، ثم تنقطع هذه القشور عن السقوط لا لتصافها بالجلد بسبب ازدياد المادة الدهنية فيهِ والتي تغطي فروة الرأس بطبقة ثخينة

كثيرة . واذا حاولنا أن نزيل تلك المادة الدهنية عن الجلد بغسل الرأس أولاً بالماء الفاتر والصابون ثم بالبنزين أو الكحول بدرجة ٧٠٪ فالشعر يقل سقوطه ولكن الجلد لا يلبث ان يعود دهنيًا كما كان

وقد يكون سقوط الشعر المبكر نتيجة ضعف البنية الطبيعي أو من الاصابة ببعض الأمراض الحادة كالحمّى التيفية والحمّى القرمزية والنمونيا والحمرة ، أو مزمنة كالزهري أو السل الرئوي . وكذلك من بعض الأمراض الموضعية كالقرع والاكزيما والحزازة ودمامل فروة الرأس والذقن والقوبة التي تؤدي الى نفس النتيجة

***

﴿ ما الذي يجب عمله منعاً لسقوط الشعر المبكر ؟ ﴾ : قبل كل شيء يجب أن نقول انهُ لا يمكن شفاء الصلع واعادة نمو الشعر الى حالته الأصلية . فالنجاح الذي حصل باتباع بعض المعالجات يُعزى الى حالات من الصلع الخاص كسقوط الشعر الذي يعقب الحميات كالحمى التيفية مثلاً او الحمى القرمزية . فكل ما يمكن عملهُ من هذه الناحية هو توقيف السقوط وتأخير سير المرض الى بضع سنين غير ان طريقة الوصول الى هذه النتيجة تختلف فيما اذا كان المصاب رجلاً أو امرأة

﴿عند الرجل﴾ : لا بدّ في هذه الحالة من الاعتناء بنظافة الشعر يوميًا واستعمال الوسائط المزيلة للمادة الدهنية الزائدة الموجودة على فروة الرأس وأيسر شيء لذلك هو غسل الشعر بالماء الفاتر والصابون . وأفضل صابون لهذه الغاية هو صابون بناما . وبعد الانتهاء من هذه العملية يغسل الرأس جيداً لازالة ما قد يبقى فيهِ من الصابون ثم يجفّف ويُفرك بمنشفة خشنة الى أن يحمرّ الجلد . ولا خوف من سقوط بعض الشعر بعد هذا الغسل لان هذا الشعر يكون ميتاً ولاصقاً بالجلد . فباستعمال هذه الطريقة لا يلبث ان يخف سقوط الشعر في الايام التالية بصورة جلية وأكيدة

وبعد ذلك يُفرك الرأس جيداً بالكحول الاثيري او غيره من المستحضرات المفيدة والمعروفة بأنها تساعد على نمو الشعر

وفي حالة وجود قشور كثيرة جافة أو دهنية على الرأس ، يستعمل المصابُ عند المساء، مرتين او ثلاث مرات اسبوعيًا، مستحضراً من زيت الكاد والكبريت حسب التركيب التالي ، وعند الصباح يُفرك الرأس بالكحول الاثيري

زيت الكاد	٤	غرامات
كبريت مرسب	١	غرام

فازلين ولانولين (من كل واحد) ١٢ غراماً

ويمكن ايضاً ازالة القشور الجافة بغسل الشعر مرتين في الاسبوع بصابون القطران التي ثم غسله بعد ذلك بالماء الصافي

واذا كان سقوط الشعر نتيجة ضعف البنية تستعمل العلاجات المقوية التي يصفها الطبيب وغسل الرأس صباح كل يوم بالماء البارد وفركهُ بمنشفة خشنة حتى يحمر الجلد ويستعمل دهان الكابتال Capitale بالفرشاة ، أو دهان زيت البندق والكينا المجهز Huile de noisettes au quinquina

﴿ عند المرأة ﴾ : العلاج هو نفسهُ غير أن استعماله أصعب مما عند الرجل نظراً لطول الشعر عندهنَّ. وعلى كلٍّ يقص طرف الشعر عن الرأس كله ثم يفصل الشعر الطويل ويقص طرف القصير الضعيف منهُ مرة كل عشرة أيام ، ثم يفرك جلد فروة الرأس غالباً بالكحول الاثيري بقطعة قطن والافضل بفرشاة أسنان بعد فرق خصل الشعر بالمشط على بعد سنتمترين الواحدة عن الأخرى . أما من جهة غسل الرأس بالماء والصابون فلا يلجأ اليهِ عندهنَّ الاَّ مرة واحدة كل ١٠ أو ١٥ يوماً ؛ ويجفف الشعر بمنشفة خشنة بعد هذا الغسل ويفرش على اليدين ويعمل لهُ (دوش) هواء حار بواسطة المشعَّة Radiateur ، أو يكوى بالمكواة لتجفيفهِ بعد فرشه بين طيات المنشفة

***

بقيت كلمة أخرى حول تمسيد الشعر منعاً لسقوطهِ

قلنا إن جلد فروة الرأس الذي ينبت فيهِ الشعر لا يتحرك . نعم أنهُ توجد عضلات تحت الجلد لكنها لا تقوم في الواقع بعمل ما وليس للانسان أي سيطرة كانت عليها. فالدورة الدموية تكون اذ ذاك بطيئة جدًّا في هذه المنطقة وبسبب ذلك لا يتغذى الجلد تغذية كافية فيفقد حينئذٍ ما فيهِ من الشعر بكميات متفاوتة مع الزمن . والسبب الذي لاجله تكون النساء أقل تعرضاً بكثير للصلع من الرجال هو لأنهنَّ يعتنينَ ويحافظنَ داعاً على شعرهنَّ من تمشيط وتنظيف بالفرشاة واستعمال بعض المستحضرات المعروفة المقوية للشعر وهذه كلها بلا ريب ذات فائدة كبيرة لتنشيط الدورة الدموية في جلد الرأس وتغذية الشعر . وبما ان بصيلات هذا الشعر لم تكن قد ماتت وقت سقوطه فتمسيده وتدليكه في هذه الحالة مفيدان كثيراً . نعم ان مقداراً وافراً من الشعر يسقط في بدء استعمال هذه العملية لكن هذا يجب ان لا يقلق البال لاجله : فالتمشيط او التمسيد لا يعملان الاَّ على ازالة الشعر الميت الذي لا بدَّ من سقوطهِ في خلال الايام التالية ، مع تقوية الشعر السليم الصالح الباقي وتنشيطه في الوقت نفسه

رحلة ابن بطوطة

وما تطوي عليهِ من نبات وشجر

لمحمود مصطفى الدمياطي

— ٤ —

وعند مروره بالجاوة (بلاد المسلمين) ومُلْ جاوة (بلاد الكفار) اي الملايو ذكر اللبان والكافور والعود الهندي والقرنفل

١ — فقال عن اللبان « وشجرة اللبان صغيرة تكون بقدر قامة الانسان الى ما دون ذلك وأغصانها كأغصان الخرشف وأوراقها صغار رقاق وربما سقطت فبقيت الشجرة منها دون ورقة واللبان صمغية تكون في أغصانها وهي في بلاد المسلمين اكثر منها في بلاد الكفار » — وأقول إن شجرة اللبان تسمى باللسان النباتي (Boswellia thurifera, Roxb. = Boswellia Serrata, Roxb.) و (Boswellia Carterii, Birdw.) وفصيلتها البخورية (Burseraceae) وبالانجليزية (frankincense tree) وبالفرنسية (arbre à l'encens) وتنبت ببلاد الصومال وتلال الهند الجافة . وريقاتها مستطيلة منفرجة القمم منشارية الحفاف مغطاة بشعرات دقاق مُلس . وزهرها عبارة عن عناقيد (راسيات) تنشأ فرادى في آباط الأوراق وتكون أقصر منها . ويعرف صمغها باللُّبان او البخور وبالفارسية « كُندر » [1] وكثيراً ما يتبخر به

---

(١) olibanum — frankincense or gum وقد جاء في كشف الرموز في بيان الاعشاب للشيخ عبد الرزاق بن احدوش الجزائري في مادة (كندر) هو اللبان حصا لبان حار في الثانية يابس في الاولى منه ذكر مستدير الشكل صلب ومنه انثى غير ذلك ومنه الجاوي وهو حصا لبان بالحقيقة والسكل سواء في الفعل , والاكثار من اكل الكندر يورث الجذام والوسواس والبرص وينفع من وجع المعدة والخفقان ويرفع الاسهال واذا شرب بالعسل فتت الحصا من الكلى والمثانة وأكله يورث الذكاء والبخور به حسن

في معابد الهند ولكنهُ قد يستعمل ايضاً دواءً مقوّياً وقابضاً ومعرّقاً ويصفه الأطباء الوطنيون من الهنود ممزوجاً بالسمن المصفى في علاج مرضي « السيلان » و « سيلان الدم »

٢ — وقال عن الكافور « وأما شجر الكافور فهي قصب كقصب بلادنا الا ان الأنابيب منها أطول وأغلظ ويكون الكافور في داخل الأنابيب فاذا كسرت القصبة وجد في داخل الأنبوب مثل شكله من الكافور . والسر العجيب فيه انهُ لايتكوّن في تلك القصب حتى يذبح عند أصولها شيء من الحيوان والا لم يتكوّن شيء منهُ والطيب المتناهي في البرودة الذي يقتل منهُ وزن الدرهم بتجميد الروح وهو المسمى عندهم بالحردالة هو الذي يذبح عند قصبه الآدمي ويقوم مقام الآدمي في ذلك الفيلة الصغار »

— وأقول إن شجرة الكافور تسمى باللسان النباتي (Cinnamomum Camphora, (T. Nees & Ebern) . وفصيلتها الغارية (Lauraceae) وبالانجليزية (Camphor) وبالفرنسية (Camphrier) أصلها من اليابان وجزيرة فورموزا ولا تنبت حتى الآن الا قليلاً في غيرها

وهي شجرة ذات فروع رخوة مُملّس . أوراقها كالجلد نوعاً ما خُضْر انضرة وبرّاقة من أعلاها وأشحب لوناً من أسفلها ، في الواحدة منها غُدة غائصة عند آباط العروق الأساسية تنتؤ من السطح العلوي وتفتح بمسمّ بيضي من أسفل . وذنيبات الأوراق نحيلة مُملّس وطولها بوصة أو بوصة ونصف

والزهر عبارة عن « بانيكلات » إبطية وطرفية مشطية الشكل عُريانة . والزهرات مُملّس من خارجها . ويتحصل على الكافور الصيني من الخشب والفروع والأوراق بطريقة التقطير الجافة وهو ضرب من الستياروبتين[1] المتبقي بعد تحول الاليوبتين او الدهن الأثيري[2] من الشجرة الحية الى بخار . ويتحصل على كافور المتجر من جزيرة فورموزا على الأخص ومنها ينقل الى كانتون بالصين بكميات كبيرة جدًّا لامداد المتاجر الأجنبية . وفي المدة الأخيرة عزمت اليابان على احتكار الكافور فكان هذا مدعاة لتشجيع غرس اشجاره في البلدان الأخرى حتى أصبح يزرع منها الآن في سيلان نحو الف فدان انجليزي (إيكر) كما أخذت زراعته تنتشر في جهات غيرها

هذا واذا بلغت شجرة الكافور الثالثة من عمرها يمكن ان يستخرج منها الكافور فتقطع

(١) stearoptine (٢) elaeoptene or aethereal oil

الأغصان الصغيرة وتقطر بواسطة البخار ويمكن الحصول منها على ما يعادل ½ ١ في المائة من وزنها (١)

٣ — وقال عن العود الهندي «وأما العود الهندي فشجره يشبه شجر البلوط الا ان قشره رقيق وأوراقه كأوراق البلوط سواء ولا ثمر له وشجرته لا تعظم كل العظم وعروقه طويلة ممتدة وفيها الرائحة العطرة وأما عيدان شجرته وورقها فلا عطرية فيها وكل ما ببلاد المسلمين من شجره فهو متملك وأما الذي في بلاد الكفار فأكثره غير متملك والمتملك منه ما كان بقاقلة وهو أطيب العود وكذلك القماري هو اطيب انواع العود ويبيعونه لأهل الجاوة بالأثواب ومن القماري صنف يطبع عليه كالشمع وأما العطاس فانه يقطع العرق منه ويدفن في التراب أشهراً فتبقى فيه قوته وهو من أعجب انواعه »

— وأقول إن شجرة العود الهندي (٢) تسمى باللسان النباتي (Aquilaria Agallocha, Roxb.) وفصيلتها الثيميلية او المازريونية (Thymelaeaceae) وبالانجليزية (agallocha, agallochum) وبالفرنسية (agalloche, bois d'aloès) تنبت في سيلهت وأسام وهي ضخمة دائمة الاخضرار أوراقها بسيطة متبادلة ذوات ذنيبات وزهرها صيواني الشكل كثير الزهرات البيض وثمرتها علبية منضغطة حجمها ½ ١—٢ بوصة

هذا ويتحصل من هذه الشجرة على خشب العود الشهير منذ القدم والذي يستعمل في بلاد الهند دواء وطيباً

٤ — وقال عن القرنفل « وأما اشجار القرنفل فهي عادية ضخمة وهي ببلاد الكفار أكثر منها ببلاد الاسلام وليست بمتملكة لكثرتها والمجلوب الى بلادنا منها هو العيدان والذي يسميه أهل بلادنا نوار القرنفل هو الذي يسقط من زهره وهو شبيه بزهر النارنج وثمر القرنفل هو جوز بوا المعروفة في بلادنا بجوزة الطيب والزهر المتكون فيها هو البسباسة الى آخر ما ذكره »

(١) وجاء في كشف الرموز المذكور آنفاً في مادة (كافور) بارد يابس في الثالثة وهو صمغ شجرة عظيمة تألفها النسور والنمور فلا يوصل اليها الا في وقت معلوم فيؤخذ هذا الصمغ منها ويغسل ويصفى فيصير الى ما ترى من البياض وخاصيته يقطع الجماع كيفما استعمل حتى كثرة شمه ويسرع بالشيب

(٢) وجاء في كشف الرموز كذلك في مادة (عود) هو عود القماري حار يابس في الثانية مثل الصندل يقوي المعدة شرباً وشماً يقوي القلب وجميع الاعضاء الباطنة كلها وطرد الرياح وفتح السدد وينفع من ذات الجنب ويقوي الدماغ ويذهب برائحة الفم وقروح الامعاء ويقوي العصب ويفرح

— وأقول ان القرنفل[١] شيء وجوز بوا[٢] المعروفة بجوزة الطيب شيء آخر

(أ) فشجرة القرنفل تسمى باللسان النباتي (Eugenia Caryophyllata, Thunb. = Caryophyllus aromaticus, L.) وفصيلتها الآسية (Myrtaceae) وبالانجليزية (clove) وبالفرنسية (girofler) أصلها من جزائر ملوكا وقد احتكرها الهولنديون في بدء الأمر زمناً طويلاً وأخيراً أدخل الفرنسيون غرسها في «كاين» ومن هناك أدخلت الهند ثم انتشرت حديثاً في أنحاء كثيرة من العالم. وشجرة القرنفل متوسطة الجرم تبلغ في ارتفاعها نحو تسعة أمتار وتجود في الأراضي القوية وعلى ارتفاع ٤٥٠ متر من مستوى البحر وتبدأ في الإزهار في سنتها السادسة، ويجمع القرنفل ويجفف قبل إصداره وهو عبارة عن البراعم الزهرية المجففة هذا ودهن القرنفل دواء معروف لوجع الاسنان

(ب) وشجرة جوز الطيب تسمى باللسان النباتي (Myristica moschata, Thunb. = Myristica fragrans, Houtt.) وفصيلتها الميرستيكية (Myristicaceae) وبالانجليزية (nutmeg tree) وبالفرنسية (muscadier) أصلها من جزائر ملوكا ويبلغ ارتفاعها ٩ — ١٥ متراً وهي دائمة الاخضرار وتجود في الأراضي القوية في مستوى لا يزيد ارتفاعه عن ٤٥٠—٥٥٠ متر عن سطح البحر ذلك بأن يلقى النوى في الارض على ان تكون المسافة بين النواة والأخرى تسعة أمتار. وتبدأ الشجرة في الازهار في سنتها السابعة وتستمر على ذلك حتى تبلغ المائة سنة. والثمرة تشبه البرقوقة الكبيرة الصفراء، وعند تمام نضجها تنفصل القشرة عن الجوزة (النواة) وكلاهما مرغوب فيه لاشتمالها على دهن طيار يجعلهما مقويين في التداوي فاذا تعوطيا بكميات قليلة أفادا في تخفيف تطبل البطن بالغازات وسكنا الأوجاع المفصلية ولكن تعاطيهما بمقادير كبيرة ينشأ عنه تهيج في الدورة الدموية ويكون فعلهما التخدير. هذا وقد احتكر الهولنديون حيناً جوزة الطيب ثم شاطرهم الفرنسيون بعدئذ هذا الاحتكار حيناً آخر الى ان عمّ الاتجار بها العالم، ويظن أن من أسباب انتشار جوزة الطيب في غير موطنها الأصلي بجزائر ملوكا ان بعض الحمام الكبير الذي يهاجر من تلك الجزائر يبتلع الثمرة ثم يحتفظ بقشرتها ويلفظ النواة فتقع في البقاع الجديدة التي هاجر اليها وتنبت

(١) وجاء في كشف الرموز في مادة (قرنفل) حار يابس في الثانية وقيل حار في الثالثة ينفع القلب والكبد والمعدة وجميع الاعضاء الباطنة ويقطع سلس البول والتقطير اذا كان عن برد ويعقل البطن ويطرد الرياح ويهضم ويعين على الباءة واذا شرب منه نصف درهم مع الحليب قوى على الجماع ويسخن أرحام النساء ويشجع القلب وأصحاب السوداء ويفرح النفس وينفع من القيء والغثيان ويحد البصر اكتحالا وينفع من الغشاوة والسبل ومن خواصه اذا ابتلعت منه المرأة كل يوم حبة شهراً كاملا لم تحمل والمرأة التي لا تلد تشرب في كل يوم طهر درهمين في مرق حار أوضان فانها تحمل باذن الله وينفع من الاستسقاء للحمى شرباً وطلاء. (٢) وجاء في الكتاب المذكور في مادة (جوز بوا) هو جوزة الطيب حار يابس في الثانية وقيل في الثالثة وهو يطيب النكهة ويذهب بالبخر ويهضم الطعام ويقوي الكبد والمعدة ويزيل ورم الكبد والطحال الجاسي

عودة الملاح

لشاعر العرش البريطاني جون ماسفيلد

[من كتاب « ارواح شاردة »
للاستاذ علي محمود طه يصدر بعد أيام]

يا فرحتي ! للبحر أرجعُ ثانياً   متفـرداً بعبابهِ وسمائهِ
أقصى مُناي سفينـةٌ ممشوقةٌ   وبزوغُ نجمٍ أهتدي بضيائهِ
وصرير دَفّتِها ، وعزفُ رياحهِ   وخفـوقُ قلعٍ أبيضٍ في مائهِ
وأرى الضبابَ يرفُّ فوق جبينه   في شاحبٍ من لونهِ ورُوائهِ
يجلـوه ألأقُّ رمادي السّنى   متطلعٌ بالفجرِ خَلْفَ فضائهِ

***

يا فرحتي ! للبحر أرجعُ ثانياً   كيما أُلبي المدَّ في طفـراتهِ
هذا المزمجرُ ، لستُ أُنكر صوتَهُ ،   إنَّ الوضوحَ يشيعُ في نبراتهِ
أقصى مُناي لديه يومٌ عاصفٌ   يهفو رقيقُ الغيمِ في سُبُحاتهِ
حيث الرشاشُ المستطارُ وتحته   زَبَدٌ يفورُ الرغوُ ملء كُراتهِ
وضجيجُ زُمَّجِ مائهِ متخبطاً   بالموجِ وهو يثير من صرخاتهِ

***

يا فرحتي ! للبحر أرجعُ ثانياً   جوّابَ آفاقٍ غريبَ مسالكِ
أطوي مسارحَ طيرهِ ، ومسابحاً   للحوت عبرَ طريقيَ المتشابكِ
حيث الرياحُ كأنما وخزاتُها   حزُّ المُدى. وشَبا الحسام الفاتكِ
أقصى مُناي روايةٌ محبوكةٌ   من نسجِ قرصانٍ طروبٍ ضاحكِ
ولذيذُ أحلامٍ . وقد طاب الكرى   وتزايلتْ صُورٌ هناك تواركي !

عينان معصوبتان ...

قصة مصرية

بقلم محمود كامل المحامي

(ساعة مبكرة من ساعات الصباح . التليفون يدق دقات سريعة ثائرة في غرفته ... هو ... شاب يقطن منزلا مكوناً من غرفتين وهو حوله الى « معمل » يقوم فيه بنحت تماثيله الجديدة . أما هي ففي طرف القاهرة الآخر . « فيلا » تحيط بها حديقة صغيرة في « الزيتون » أحدهما لا يرى الآخر لان مسافة بعيدة تفصل بينهما)

هي — سعدت صباحاً

هو — سعدت صباحاً يا آنستي . . من أنت ؟

هي — أيهمك هذا ؟ هو — كيف لا يهمني ؟ ألا أعرف من يحدثني ؟

هي — (واحده)

هو — انا واثق من هذا . ان صوتك ليس من الخشونة بحيث يجعلني أشك في انك . . انك فتاة هي — هل بدأت ؟ هو — ماذا ؟

هي — هل بدأت تسخر ؟ هو — أتعرفين عني أني مغرم بالسخرية ؟

هي — يبدو ذلك من نظرتك هو — وكيف تعرفين ؟

هي — رأيتك هو — متى ؟

هي — أكثر من مرة هو — أين ؟

هي — في أكثر من مكان . هنا وفي الاسكندرية هو — ولكن . .

هي — ولكن ماذا ؟ هو — ولكن من أنت يا آنستي ؟

هي — أوه ! انك تشوه جمال حديثنا بهذا الالحاح

هو — أنا لا ألح . ان معرفة اسمك لا تهمني الى الحد الذي تتوهمين

هي — لو لم تكن مغروراً . . . .

هو — عجباً ! أليس من حقي ان أعرف من يحدثني في منزلي ؟

هي — ستعرف هو — متى ؟
هي — فيما بعد ..أترك هذا الآن.اني أريد ان أتعرَّف رأيك في أمر يهمني
هو — رأيي أنا ؟
هي — أجل هو — من أين جاءتك هذه الثقة بي ؟
هي — لست أدري . انهُ شعور قديم يعود الى اليوم الذي رأيت فيه أوَّل تماثيلك الرخامية الصغيرة التي كنت تعرضها في سراي تجران ... ذلك التمثال الذي يمثل المرأة (الغجرية) التي تحمل طفلها على كتفها . أتدري ماذا شعرت وأنا واقفة أمامه؟ هو — لا أستطيع ان أجزم
هي — شعرت انك تحمل هم تلك المرأة التي كانت الكآبة تبدو على قسماتها ، وهم كل امرأة تعسة في هذا العالم هو — اني أخاف من هذا المديح
هي — لا تخف ... بالعكس...سترى بعد ان تعرفني أن هناك أشياء أخرى ستخاف منها هو — مثلاً ؟
هي — اني أعرف أنك لم تحب بعد .. الشيء الذي عليك ان تخافه اذا رأيتني هو أنك مسوق الى حبك الاول ! هو — لو لم تكوني مغرورة !
هي — لا تقاطعني ! ولا تسرق كلماتي .. اني أعرف أنك بعد ان سمعت مديحي خيل اليك اني امرأة اعتادت ان تتملق الرجال . أنت واهم .. اني اعتدت على العكس ان أتلقى مديحهم . . اني أنال «نجاحاً» حيثما ذهبت ... هذا الصيف مثلاً ... لقد رأيتك أكثر من مرة في « جليم » مررت أمامي على بعد بضع خطوات . لا بدَّ انك رأيتني ولو أنك كنت تتعمد اخفاء عينيك بتلك « النظارة » ذات الزجاج الاسود ... لقد كنت أرشق وجه في ذلك الشاطىء المحتشد بالوجوه الرشيقة ... لا أذكر ان رجلاً رآني دون ان يغرقني في سيل من كلمات الثناء والاعجاب هو — ولِمَ كل هذه « المحاضرة » ؟
هي — لان الكثيرين يخيل اليهم ان المرأة التي تبدأ رجلاً بمشاغباتها « التليفونية » لا بد أن تكون دميمة هو — أنا لم اقل ذلك
هي — ولكنك ربما سمعت الآخرين يقولونهُ

هو — اعتدت ألاَّ أصدق كل ما يقال لي

هي — ستصدق ما قلتهُ لك الآن عن نفسي عند ما تراني

هو — أراك تكررين « عند ما تراني » ٠٠ كأنك توحين اليَّ ان أطلب رؤيتك ! هي — ألا تريد ؟

هو — دون أن أعرف من أنت ؟ هي — أجل هو — لا أظن

هي — أنت صريح ٠٠ لا ٠٠ ! أكثر من ذلك . جريء هو — هذا عيبي

هي — أتراهُ عيباً . اني لذلك أتحدث اليك هو — هأنذا استمع اليك

هي — أترى انك طيب القلب دون ان تعرف هو — يضحكني هذا الوصف

هي — أؤكد لك أنك تظن في نفسك القسوة ٠٠ ولذا تسير دائماً عابس الوجه مقطب الجبين ٠٠ لقد قلت لك اني رأيتك اكثر من مرة . أتدري ؟ لقد خيل اليَّ ذات مرة بعد أن رأيتك أن أصيح : « يا بابي ! »

هو — ولِمَ عدلت ؟

هي — لاني كنت اعتزم ان أتحدث اليك كما افعل الآن . ولم اكن أود ان استلفت نظرك اليَّ ...

هو — قلت لك اني استمع اليك هي — هل أنت على عجل ؟

هو — لا ٠٠ اني سعيد اذ أجد منك هذه الثقة

هي — صوتك يوحي بها ٠٠ ان الموضوع الذي سأحدثك عنهُ له اوثق الصلة بحياتي كلها ٠٠ التي تتحدث اليك الآن ليست (آنسة) كما خيل اليك. انها زوجة ٠٠٠ في الرابعة والعشرين ٠٠٠ جميلة كما قلت. تلقت اكبر قسط من التعليم يمكن ان تتلقاه فتاة مصرية . لها ميل طبيعي الى كل ما هو جميل ونقي .. تتذوق الصورة الفنية الموفقة . وتنصت الى النغمة الموسيقية حيثما كانت هذه النغمة . . . . في خرير الماء المتساقط من أفواه « الساقية » التي تجرها بقرتان معصوبتا العينين وسط حقل « العزبة » . أو المرتطم بصخور الجزء الثاني البعيد من شاطىء « جليم » حيث يأبى المصطافون والمصطافات أن يذهبوا لانهم يحبون — لسخفهم — الضجة ويأفون من الهدوء . أو في ارتجاف القطرات المنهمرة على



زجاج غرفتها المغلقة في ليلة ممطرة من ليالي الشتاء . وتقف طويلاً أمام التماثيل التي تعبر عن عاطفة أو فكرة انسانية . يدق فهمها على غيرها . . . وهي معروفة بين زميلاتها بسموّ ذوقها في اختيار الثياب . . . انه ذوق « أصيل » بشهادة الجميع . . . كما انها تختلف عن الكثيرات من المصريات في أنها تستيقظ من نومها مبكرة لكي تسرع أحياناً بارتداء ثوب أنيق من ثياب « الغرفة » وأحياناً أخرى بارتداء « بيجامة » أفرغت في (حياكتها) كل ذلك الذوق الذي حدثتك عنهُ . . . كما أنها لا تذكر أنها قابلت زوجها أو أحداً من أهله . في أية ساعة من ساعات النهار الا وهي متعطرة بالعطر الذي جعلتهُ يحبهُ كما تحبهُ هي لانهُ عطر شاعر . يرتفع بالروح الى جو أسمى من الجو الذي يعيش فيه الناس . هذه هي المرأة التي تتحدث اليك الآن لتقول لك أنها رغم ذلك كله تعسة التعاسة كلها بل أنها تكاد تكون أتعس نساء الارض هو — وكيف ؟

هي — لانها تبينت ان زوجها . الرجل الذي أحبته دون سائر الرجال والذي وهبت له أعز ما تملك .. قلبها ... قد خانها

هو — خانها ! هي — أجل . خانها مع فتاة أخرى هو — ولِمَ ؟

هي — وهل هناك أسباب يستند اليها الرجال عادةً قبل البدء بخيانة النساء اللاتي يحببنهم ؟

وسادت فترة صمت طويلة . وخيل اليه ان صوت حبيب بعيد تحمله أسلاك التليفون الى أذنه . وأحس بشعور غريب يستولي عليه نحو تلك المجهولة التي تتحدث اليه ... شعور من الرحمة والرفق والدعة والحنان

هو — وماذا تريدين مني يا سيدتي؟

هي — لست أدري . انني أبكي الآن وأنا مرتاحة ٠٠ ألا يدهشك هذا ! حتى البكاء لا استطيعه أمام الناس . انني اعتدت ان أبدو أمامهم متظاهرة بالفرح والسعادة . ان من الشاق العسير على شابة مثلي في الرابعة والعشرين ان تثير شماتة الناس بها ٠٠ لذلك أتظاهر بالضحك

وقلبي يدمى . . . أقسم لك انني أحياناً استغرق في الضحك لأتفه الاسباب حتى يتعب صدري ... لانني أكون إذ ذاك فريسة أزمة نفسية حادة من ازمات السخط على هذا الحظ الذي نكبني وأنا بعد في سن لا يحتمل أهوال النكبات ... لم أرتكب ذنباً . انني لم أسيء قط الى أحد . لا أذكر انني اقترفت اثماً استحق ان أجازى عليه هذا الجزاء

هو — أنك اذكى من أن تضعفي هذا الضعف يا سيدتي . من يدري ؟ ربما مهدت هذه العاصفة التي اجتاحت منزلك لحياة أرغد وأسعد . اني أذكر قولاً لالفونس دوديه أجراه على لسان احدى بطلات قصته الخالدة «سافو» هل قرأتها ؟

هي — أجل . . وأكاد أحفظها عن ظهر قلب . . ما هو ؟

هو — « اذا أردت ان تحتفظي بالرجل جيداً فاتركي له شيئاً من الحرية وتظاهري بأنك لم تفطني الى زلاته »

هي — أرجوك ألا تنصحني على الوتيرة التي ينصحني بها الآخرون . انني لم أتحدث اليك لأتلقى هذه العظات التي أعرفها قبل ان أسمعها منك

هو — آسف يا سيدتي اذ جعلتك تثورين فجأة بسبب هذه النصيحة . هل لي ان اسألك مرة ثانية « ماذا تريدين مني اذن ؟ »

هي — أن تدعني أبكي هو — فقط ؟

هي — أجل . . . دعني أبكي فقط لانني محرومة من ان أبكي أمام الناس المتصلين بي . القريبين مني . ان والدي نصحتني كما نصحت عجوز قصة « سافو » الصغيرة ايرن ان اغمض عيني عن خيانة زوجي واستدلت على ذلك بأن ابي كان في شبابه قد اعتاد السهر خارج المنزل الى ساعة متأخرة من الليل وذاع عنه انه اتصل باحدى الراقصات . فلما تركته مدة طويلة انتهى بأن تاب الى رشده . والتفت الى اسرته . . أنا لا افهم هذا النوع من النصائح لانني لا أطلب من الحياة الا ان اعيش هذه الأعوام القليلة في الجو الذي كنت أحلم به في طفولتي ... هل يزعجك ان ابكي هكذا بين يديك

بضع دقائق في كل يوم ؟ هو — كلاّ ... ولكن ؟

هي — ولكن ماذا ... أكاد أثق انني أزعجتك

هو — لا ولكن لِمَ اخترتني لهذا الموقف الأليم ؟ ان اقف مكتوف الذراعين امام سيدة شابة مثلك تبكي بحرارة

هي — ألا تعرف لِمَ ؟ هو — ربما . . . ولكنني اريد ان اسمع منك

هي — آه ! لو أنك قللت من هذا الاعتزاز بنفسك . . كنت أظن انني أصلب رأياً من أن أضعف امام رجل فاعترف له . وفي أول مرة أتحدث اليه بأمر كهذا ؟ هو — وما هو ؟

هي — منذ رأيتك لأول مرة شعرت بأنك الرجل الوحيد الذي يمكن أن أثق به . انني أعرف نفسي عنيدة وعصية . ولكن لست أدري ماذا دهاني بعد أن تحدثت اليك . . ألا تشاركني نفس الاحساس ؟ انني أحس . . . . أحس بأنني مسوقة اليك معصوبة العينين . مادة الذراعين ومع ذلك فانني أسير على هدى كانني أعرف أين تقطن على أن أحداً لم يخبرني بمكانك ولو سألتني عنهُ الآن لما استطعت أن أصفهُ لك . انني أتحدث اليك الآن وأنا أضع يدي على عيني كعصابة وأتخيل كل شيء يحيط بك . قل لي . هل أغلقت نوافذ غرفتك لتتقي حر هذا اليوم ؟

هو — أجل . . ولكنني أشكو من ألم في عيني اليسرى هي — لِمَ ؟

هو — كنت قادماً بالسيارة من الاسكندرية فأصاب تلك العين هواء بارد اثناء الطريق

هي — أوه ! انك تهمل نفسك كطفل مدلل . أعندك بعض أقراص الاسبرين ؟

هو — أجل . . . في درج مكتبي هي — وكوب ماء ؟

هو — أتحدث اليك وأنا أمسك بها هي — تناول هذا القرص

هو — ها أنذا أفعل هي — سترى . . أنك ستستريح بعد قليل

هو — ستسخرين مني اذا قلت لك انني أشكو من هذا الألم الشديد منذ أمس وأقراص « الاسبرين » عندي دون أن أذكر أنها هنا

هي — الى ان ذكّرتك انا .. انني أكاد أعرف كل شيء عنك دون ان

أعيش معك . لقد كنت اقول لك اني لو عصبوا عيني لأقبلت اليك .. ووقفت امام باب منزلك . ثم فتحته . وصعدت السلم درجة درجة . ثم تقدمت على أطراف أصابعي ووقفت خلفك وأنت تعمل في أحد تماثيلك ..

هو — ولِمَ هذه العصابة على عينيك؟

هي — لست ادري ! ألم أحدثك الآن عن تلك البقرة التي تربط الى ساقية القرية معصوبة العينين ولو انهم رفعوا تلك العصابة ما استطاعت ان تدور حول هذا القدر المحتوم شهوراً وأعواماً .. أنا أيضاً أعرف انني ارتكب خطأ اذ أسعى اليك .. ولكنني أحس بأنني مسافة اليك .. قلت لك ان شيئاً يدفعني نحوك وأنا كما صارحتك عنيدة عصبية . ولو أفقت وفتحت عيني لثرت على نفسي وعليك . ولذا أفضل أن تعصب عيناي لكي أدور حولك كما لو كنت أدور حول قدر محتوم دون ان أتضجر او أثور ...

هو — مدهشة

هي — كنت مدهشة . ولكنني أحس الآن انني كغيري من النساء يتعالين على جميع الرجال . ويخضعهن رجل واحد ..

هو — ماذا تريدين الآن ؟

هي — أراك لا تعلق على كلماتي الأخيرة كأنك توافق على أنك أخضعتني !

هو — ألا أستطيع ان أعرف ماذا ترتدين الآن ؟

هي — (بيجامة) وردية اللون

هو — انني لا أحب لون الورد في ثياب المنزل

هي — .. انتظر قليلاً .. انهم ينادونني هنا « وبعد قليل عادت اليه »

هو — فيمَ كانوا يطلبونك ؟

هي — لا شيء .. لقد أبدلت (البيجامة) الحمراء بثوب أزرق

هو — انهُ لون مريح

هي — ما هو الازرق في غرفتك ؟

هو — كل شيء فيها .. جدرانها ... بساطها ... غطاء مصباحها وستر التماثيل التي انتهى نحتها

هي — ان هذه الستر الزرقاء قد تراكم عليها تراب خفيف ؟

هو — أجل . شيء أشكو منهُ ولا سبيل الى رفعه

هي — اني أميل الى الاعتقاد ان حياتك مجدبة من امرأة تبث فيها شيئاً من الحنان. امرأة تفهمك وتعينك على تحقيق اطماعك في المجد الذي تنشده

هو — أتحدث اليك الآن والقطة تأكل أحد جواربي على عتبة الباب . . . وقيص (الاسموكنج) معلق أمامي دون كي كما تركتهُ في خير يوم رأس السنة . أي منذ أكثر من ثمانية شهور . . . والعنكبوت يرسم أشكالاً هندسية عجيبة على بعض دواوين الشعر التي تضمها مكتبتي

هي — تخيلني الآن وقد أقبلت اليك . في غرفتك . أزيل كل ما تشكو منه وأحمل معي باقة من الورد الابيض أضعها في آنية خزفية على مكتبك الذي يتوسط الغرفة . ثم أجلس في هذا الثوب الازرق الذي تحبه لأقضي الوقت في رسم صورة محببة لاحدى تماثيلك التي أحس أنك تعجب بها وتفضلها على غيرها حتى تعود من عملك في الخارج . فأستقبلك عند الباب ... يسبقني العطر الذي تحبه .. أتناول الكتب والمجلات التي تحملها . أحملها عنك وأضعها مرتبة على المكتب لتزينه كأنه كان ينقصها ! ثم أقدم لك الطعام الذي أكون قد أشرفت على اعداده في الصباح ... ثلاث صحاف فقط ... حساء ساخن وقطعة من اللحم المشوي . مع بعض الخضروات وصنف واحد من الفاكهة . هذا يكفي لا تكن « نجماناً » ! ان لديك استعداداً خطراً للسمن . ثم قدح من القهوة أعدها أنا بنفسي وأقدمها اليك بانحناءة كأنك ملك ثم أطلق ضحكة ساخرة وأنت تتلقى مني القهوة هادئاً وقد خيل اليك اني جادة اذ أنحني أمامك . . . وبعد ذلك أقفز برشاقة فأجلس خلف المكتب لاقرأ لك مالم تستطع قراءته في الصباح . الموضوعات التي تهمك . . الى ان تمل أنت من الاستماع . . . فأدنو منك وأجذبك كطفل الى « المقعد الطويل » فأجلسك عليه وأقول لك هامسة في صوت يرتجف حبًا « نم هنا يا طفلي الكبير . انك في حاجة الى الراحة . . . سأوقظك في الوقت المناسب لكي تعمل في التمثال الذي بدأته امس . اني اريد ان ارسم لهُ لوحة « مخيبة » علوني زهواً ان تكون

تماثيلك وجي صوري .. ستشتغل في المساء ثلاث ساعات . سأكون الى
جانبك . أنت تعمل في التمثال الجديد وأنا أسجل خطوط التمثال الذي
تمّ صنعه على اللوحة التي أرسمها ولكنني سأتركك في الدقائق الاخيرة
لكي أرتدي ثيابي وأصحبك الى الخارج فنصعد بالسيارة الى مكان
ناء بعيد.. ثم نترك السيارة ونسير متلاصقين مسافة طويلة . ثم الآن ..
لانني عثرت اليوم على قصيدة شعر مدهشة سأقرأها لك على ضوء هذا
المصباح الازرق بعد عودتنا في المساء الى المنزل .. سأغضب لو انني
رأيتك تتثاءب وأنا أقرأ لك شعري الحبيب »

هو — ماذا دهاني . . أن أناملي أضاءت المصباح الازرق دون أن أشعر
انني أراك الى جانبي هنا . . تتحركين في غرفتي . . في هذه الغرفة
اقرئي لي الشعر الذي وعدتني به . هأنذا قد اضأت المصباح الازرق

هي — انتظر حتى احكم اغلاق النوافذ . انني لا اريد ان نحس بالعالم في الخارج
يجب ان تنعدم اصوات الناس والعجلات . انني أرى انك أحسن
حالاً بكثير الآن .. كما انني سعيدة .. انا أسعد اثنين في هذا العالم...
أليس كذلك ؟ ان العالم في هذه الغرفة

هو — العالم في هذه الغرفة ! لقد سمعت هذه الكلمات قبل الآن

هي — وأنا سمعتها معك هو — أين ؟

هي — في السينما . . في تلك القصة التي رأيناها معاً عن الثورة الارلندية

هو — عند ما احتلى العاشقان للمرة الأولى هي — أجل. كما احتلينا الآن

هو — ولكن من أنت ؟

هي — تلك التي كانت جالسة الى جانبك تماماً . . في المقصورة الملاصقة لك

هو — واسمك ؟ هي — اخبرتك انني زوجة . .

هو — آه ! — لقد نسيت .. اسمحي لي أن أتركك الآن لأفتح النوافذ..
ان القطة قد شبعت من أكل الجورب وهي تموء لانها تلتمس منفذاً
للخروج الى العالم فلا تجد . . ان من حقها ان ترى العالم الذي
انقطعنا عنه نحن الاثنان هذه الساعة لنعيش هنا . وحدنا

ضغط الدم

للدكتور ابراهيم ناجي

كلمة «الضغط» مبهمة عند كثيرين ولكن معناها الحقيقي «الضغط داخل الشرايين الكبيرة». والمسألة مشابهة تماماً للطلمبة . ان الضغط يبدأ بالطلمبة وهي القلب عند انقباض عضلته . عند ذلك يرتفع الضغط في الشرايين المرنة . ويكون الضغط على أتمه عند ما يبلغ الانقباض اقصاه وهذا يسمى « الضغط الانقباضي » وبعد الانقباض يحدث « الانبساط » وينخفض الضغط بالتدريج . وعند ما يكون على أقله يسمى الضغط الانبساطي . ويعبر عن الضغط بمليمترات زئبق

وطريقة كتابتها طبياً تكون برقمين مثلاً ١٢٠ على ٧٠ او ١٢٠/٧٠ وهذه معناها ان الضغط الانقباضي ١٢٠ والانبساطي ٧٠ مليمتر زئبق

وكلما كانت المرونة تامة في الاوعية الدموية قامت بوظيفتها خير قيام . والعلاقة بين الصفة الطبيعية للشرايين وبين محتوياتها من أهم ما يكون . على انهُ من الطفولة تقل مرونة الشرايين بالتدريج ؟ حتى يبلغ الانسان الكبر فتزيد الشرايين صلابة . والضغط يختلف باختلاف الشرايين. ومما يلاحظ ان الضغط هو تحت تأثير الجاذبية . فحتى في حالة الرقاد ، يكون الضغط في الأورطي (اكبر الشرايين) أعلى من الشرايين الصغرى بمقدار ١٠ الى ٢٠ مليمتر . ويقل الضغط كلما صغرت الشرايين ، فانهُ في الشعريات من ٨ — ١٢ مليمتراً بينما هو في الشرايين الصغيرة من ٨٠ — ٩٠

وتحمى الشعريات من الضغط بواسطة الشرايين الصغرى — فانها الشرايين الصغيرة — تحت تأثير الجهاز العصبي وبذلك يمكنها ان تقوم بعملية «توازن» في انطلاق الدم . وهذه الشرايين الصغيرة تشبه « خزانات » دقيقة وانهُ عند ما تحتاج الأنسجة لغذاء واكسجين ، تتنبه هاته الشرايين بوساطة الفضلات وتنبسط ، ويجد الدم المجرى أكثر اتساعاً . كما انهُ في الراحة ، وعندما يلزم، تنقبض الشرايين في جهة ما ، لتقوم بخدمة في جهة أخرى

ولو لم تقم الشرايين بهذه الوظيفة ، لقام بذلك القلب وحده ، وفي هذا عبء كبير عليه .
ومما هو جدير بالملاحظة انه كلما كبرت « الشجرة » وكلما ظلت المرونة ثابتة ، انخفض الضغط على شرط أن لا تصاب « الطلمبة » بشيء . ويختلف « حجم » الأوعية في الناس فنهم من عنده « اتساع » طبيعيّ ومنهم من عنده « ضيق » في حجم الأوعية

وقياس الضغط مسألة سهلة فيكفي وضع « الكم » على الذراع والنظر الى « الساعة » . وتضغط الطلمبة المتصلة بالجهاز ضغطاً أعلى مما هو بالدم ، أي حتى لا يعود النبض واضحاً . ثم يخفف الضغط على الذراع فيلاحظ اول صوت يمحي ثم اول صوت يظهر ونقرأ على الساعة الأول ويدعى الضغط الانقباضي والثاني الانبساطي . المتوسط للضغط هو ١٢٠ مليمتراً انقباضيًّا ٨٠ انبساطيًّا ، على ان هذين الرقمين قابلان للتأثر بأشياء كثيرة كالجنس والوزن والهضم والانفعال والمجهود الخ . . .

***

عند الميلاد يكون الضغط من ٣٠—٥٠ م. م. وبعد اسبوعين يرتفع الى ٤٠ — ٨٠ وبعد ذلك يأخذ الارتفاع في البطء حتى البلوغ — ليس اكثر من ٢٠ — ٣٠ م.م. ثم يحدث ارتفاع سريع ، ويكون الضغط عرضة للمؤثرات الانفعالية . والنساء أقل ضغطاً من الرجال . والحمل قد لا يغير الضغط على انه قد يرفعه ، وكلما تقدم العمر ارتفع الضغطان بالتدريج وليس صحيحاً ما يقال ان متوسط الضغط هو العمر + ١٠٠ ، فانه في المتوسط عند الستين يكون ١٣٥/٩٠ مثلاً والسمنة تعرض الشخص لارتفاع الضغط وبعد الأكل يحدث ارتفاع قليل

وأما الانفعالات فتؤثر تأثيراً بالغاً في الضغط . وبعض الناس يبدون تأثيرهم باسراع القلب وبعضهم بتغييرات في الجهاز الهضمي

***

وقد عرف ان في بعض الشبان ذوي الانفعال السريع قد يزيد الضغط من ٣٠ — ٦٠ مليمتراً ، وقد يحدث ذلك في الأحلام ، على ان المعروف انه في النوم الهادىء المريح ينخفض الضغط . وعند القيام بعد القعود ، يزيد الضغط من ٥ — ١٥ م. م. في الانقباضي ولا يتأثر الانبساطي الا قليلاً

كذلك المجهود الجثماني يرفع الضغط . ويوجد قوم يكون الضغط عندهم منخفضاً انخفاضاً طبيعيًّا ، وعند ما يكون الضغط في حالة الرقاد أقل من ١١٠ يسمى هذا « انخفاض الضغط الأساسي » وقد عرف عن كثيرين ان ضغطهم الطبيعي يتراوح من ٩٠ و ٩٥ وللوراثة شأن في ذلك ،

فانهُ عرف ان الناس ترث اتساع الشجرة واتساع الأوعية ، وبطء القلب ، فمن ذلك يقل مجهود القلب ، والأوعية ، وليس هناك مرض ما ، وهؤلاء يعيشون حياة طويلة ولكن يشكون من الضعف والدوخة والحول ، وقد توجد هذه الحالة في المسنّين في الصباح عند القيام من النوم . وتختلف أحوال انخفاض الضغط الأساسي عند كثيرين ، فنهم من يكون طبيعيًّا في الرقاد ومنخفضاً في القيام ، وبالعكس

والأسباب المعروفة لانخفاض الضغط هي « البطن المرتخية ، والأوردة الملتوية ، واضطراب الغدد الداخلية وبعض الأمراض العصبية » وهؤلاء معرضون دائماً « للدوخة » عند انتصاب قامتهم

وليس ارتفاع ضغط الدم مرضاً بلا « علامة » وليس معناه ان يكون الضغط مستمرًّا أبداً ، فانهُ عند الشبان ذوي الانفعال يرتفع ثم يعود فينخفض ، وأحوال ضغط الدم المتوسطة التي ليست مصحوبة بمضاعفات لا تختلف في حالة القلب عن الاصحاء . فان كثيرين من المصابين به يعيشون كالمعتاد ، واذا احتاج جزء من الجسم لكمية من الدم وصلت اليه كما تصل في أي شخص سليم . والضغط عند المرضى « بالضغط » متساوٍ مع الاصحاء في الشريات والأوردة ، والفرق يوجد فقط في الشرايين الصغيرة

« فالخزانات » الصغيرة تقف لتسد الطريق ، فيرتفع الضغط ثم يعود لسيره الطبيعي ، وكلما ضاقت هذه الشرايين الصغيرة كلما ارتفع الضغط

***

ما هي اسباب ضيق هذه الشرايين الصغيرة وانقباضها ؟ نحن نعرف كثيراً ونجهل كثيراً فانهُ لا يوجد سبب واحد ، فهناك الوراثة ، وهؤلاء الوارثون هم بعكس ذوي « الضغط المنخفض الاساسي »

وفي اكثر الأحيان يكون ضيق هذه الشرايين ناشئاً عن أمراض تسبب اضمحلالها وانسدادها وقلة مرونتها

وكذلك أمراض الكلى . وليس بالواضح الجلي لماذا تسبب امراض الكلى دائماً ارتفاعاً في الضغط — واختلال الغدد الداخلية — والسمنة المفرطة وكذا التدخين والمجهود العقلي ، وكثرة الانفعال تسبب ارتفاع الضغط

ويستمر الضغط احياناً بلا اعراض ثم يأخذ المرضى في الشكوى من الدوخة وقلة النوم ، ثم تكون المضاعفات في الكلى او القلب او الجهاز العصبي

أحدث وسائل الاضاءة

في اميركا وطرق الانتفاع بالبصاصة الكهربائية للوقاية من غوائل الحرب الحالية

لعوض جندي

قالت مجلة الميكانيكا العامة الاميركية في أحدث ما وصل الينا من اجزائها ما تلي ترجمتهُ : —

ارتقت العلوم في الحقبة الاخيرة ارتقاء سريعاً جداً بحيث تعذر على أغلب الناس ادراك الانقلاب البعيد المدى الذي لابَسَ ذلك الارتقاء . ونعني بهِ تفوق المختبرات العلمية الكبيرة، على المخترعين العظام الذين اخترعوا المخترعات الرائعة. ويعلم كلٌّ منا مبلغ ما أسداه من هذا القبيل الى الحضارة ، أمثال اديسون وماركوني . ولكن لا يستطيع امرؤ تعيين المخترع الوحيد لعشرات من المخترعات الحديثة ، كالحرير الصناعي والصمغ المرن الصناعي ، والعجائن الكيمياثية «وقد وصفناها في غير جزء من اجزاء المقتطف السابقة » او المنسوجات الشفافة اللينة والراديو المصور ، او السيارة والطيارة العصريتين ، لانها من المخترعات الكثيرة النواحي التي أنبتتها المختبرات العلمية واشترك كثيرٌ من النوابغ وذوي العقول الراجحة في اختراع اجزاء منها غير مشهورة الاسماء

ويسوغ القول إن نظام هذا العمل المشترك قد حال دون القيام ببعض التجارب المستقلة ، بيد انهُ اذا اتفق أن بدت في اجوائنا ذات ليلة قاذفات القنابل الضخمة للأعداء ، كان ذلك باعثاً على تقدير الفوائد التي قد نجنيها من تعاون هاتيك المختبرات العلمية بعضها مع بعض

***

ومن فوائد تنظيم البحث ، امكان تأليف فرق خاصة من أولئك المهندسين المدرَّبين ، أسوة بوحدات الجيش بحيث يختص كل فوج منهم بعمل مُعيَّن: وهذا هو تمام الواقع فعلاً : فقد تطوعت المختبرات العلمية لأداء الخدمات الحربية ، وذلك بتفويض من الحكومة الاميركية . فتمَّ عدول ألوف من مهندسي المباحث العلمية عن مباحثهم التي كانوا يمارسونها ، متوخين الامعان في وقاية الناس من غوائل الحرب، اذ تفرغوا لتحسين معدات الفتك والهلاك ومنها المفرقعات والاسلحة

وأبراج المدافع الصغيرة والطرابيد والاجهزة الكشافة المضادة للطائرات (وقد وصفناها في مقالنا على كشاف الطائرات الحربية المنشور في مقتطف يونيه الماضي) ثم الانوار الكشافة وموجهات القنابل « الدبابات » bomb-sights وضابطات نيران المدافع والأسلحة الواقية وأجهزة المواصلات والمواد الكيميائية الحربية وأجهزة تقييد الاضاءة وأقنعة الغازات السامة وما اليها

***

ومما لا شك فيه أن معظم النتائج التي ظفر بها اولئك العلماء مازالت سرًّا خفيًّا ، وستبقى كذلك اذا اصبحت هذه البلاد « يقصد الكاتب بلاده الولايات المتحدة الاميركية » لا مناص لها من الحرب . وحينئذٍ سيدهش الاميركيون أنفسهم من بعض ما اخترعهُ خبراؤهم . أما المعدات التي سبق أن قامت باختراعها لاجل وقاية المدنيين احدى الهيئات العلمية الكبرى للمباحث وهي هيئات تعدُّ بالعشرات ، فليست من الأسرار . ونعني بتلك الهيئة ، مختبر الاضاءة لشركة الكهربائية العامة في مدينة شنيكتادي بولاية نيويورك . والاعمال التي قام بها هؤلاء العلماء ، يقصد بها الى مدى بعيد ، القاء الضوء على وسائل الدفاع عن الولايات المتحدة الاميركية . وذلك لأنهم متخصصون في فن الاضاءة « والشيء من معدنه لا يستغرب » ومنها التخلص من ضرورة تقييد الاضاءة في بيوت أميركا ومصانعها — على عكس الحال الآن في أوروبا — حيث يضطر السكان اما الى اطفاء الأنوار وإما الى تغطية النوافذ والأبواب بالمنسوجات الثقيلة . وقد بيَّن المستر ه . أ . بريدنج H. A. Breeding أحد علماء الطبيعة ، الموظف في مختبر شنيكتادي للاضاءة ، تلك الطريقة فقال : —

إن دهن زجاج البيوت والمصانع بالطلاء الازرق مشفوعاً باضاءتها بالنور الاصفر المتولد من الصوديوم هو الحل الوحيد لهذه المعضلة . ويستعمل هذا العالم لتلك الغاية ، الدهان المعتاد ، ممزوجاً بصبغة زرقاء خاصة . والنوافذ التي تعالج بهذه الطريقة لا تحول دون دخول نور النهار . ولكن الأنفع من ذلك في زمن الحرب ، امكان انارة داخل البيوت بأضواء الصوديوم بحيث لا يتسرب منها ليلاً في الخارج أي بصيص من زجاج النوافذ ، المدهونة بالدهان الازرق ، يمكن ان تسترشد به طائرات الاعداء المغيرة الى اهدافها

ويجوز ايضاً استعمال الاشعة التي فوق البنفسجية التي تصدر من المصباح الزئبقي ، وهي المعروفة بالضياء الاسود black light اذا ما أقدمت طائرات الاعداء على مهاجمة أميركا ، لان أشعة الضياء الأسود لا تبصرها العيون المجردة . وانما تستطاع رؤيتها بواسطة الدهانات المتألقة التي يمكن استعمالها في لوحات الاعلانات التي تقام عند مفارق الطرق لارشاد عابريها الراجلين ، وايضاً على امتداد الطوارات لارشاد سائقي السيارات

أما في حالة اطفاء الأنوار في الخارج طول الليل ، فيتسنى تنظيم نوافذ المتاجر بحيث لا نشاهد أضواؤها من الجو ، وذلك باستخدام مصابيح ضعيفة القوة ، مدفوعة بها كسات للضوء من نوع خاص ، تستطيع توجيه الضياء بعيداً عن الشارع ، الى خلف النافذة حيث يخبو في مخبأ مظلم . وللدهانات المتألقة والضياء الأسود منافع أيضاً لتلك الغاية

ويجرب الآن مهندسو شركة الكهربائية العامة الأميركية ، تجربة علمية في جهاز آخر يمكّن موارد الطاقة الكهربائية من اطفاء مصابيح الشوارع في خمس ثوان ، دون وقف الخدمات الكهربائية الأخرى في البيوت والمصانع متى كانت مهددة بالغارات الجوية ، على ان تعاد الأنوار الى سابق حالتها الطبيعية في خمس ثوان كذلك ، بعد اعلان اشارة زوال الخطر all clear signal

اما الآن فتستحيل السيطرة العاجلة على مصابيح الشوارع ، من غير قطع جميع الخدمات الكهربائية الأخرى ، أو من دون التوسل بالجهاز الثمين المستخدم حالاً في ست مدن من مدائن الولايات المتحدة الأميركية . وتضاء أغلب مصابيح الشوارع وتطفأ بالمفاتيح الكهربائية الزمنية time-switches (١) او بأيدي عمال موارد الطاقة الكهربائية . وهؤلاء لا بدَّ لهم من الانتقال الى المراكز العديدة النائية المسيطرة على مصابيح المدينة . وغنيٌّ عن البيان ان هذه الوسائل أضحت عتيقة غير صالحة لزمن الحرب ، الاَّ اذا صنعت مصابيح الشارع جميعها بطريقة تسمح باضاءتها بطاقة ضئيلة جداً من الكهربائية بحيث لا تراها عيون المغيرين الجويين ولذلك وجه العلماء ايضاً مجهوداتهم الى هذا البحث . وطبقاً لآرائهم ، وهم ابناء بجدتها ، يستطاع تقييد اضاءة مصابيح الشوارع تقييداً فعليًا باستعمال مشاك bulbs ضعيفة الطاقة مظللة تظليلاً لا يسمح برؤيتها الاَّ للسائرين على الأرض ، بينما تختفي كلية عن عيون المغيرين من الجو

***

وتصنع الآن الشركة الأميركية للكهربائية العامة ، مصابيح كهربائية كشافة ضخمة من قوة ستين عقدة (بوصة) يتيسر بها اكتشاف الطائرات المحلقة على ارتفاع خمسة اميال ، فيستعان بها على ارغام الطائرات المعادية على التوغل في الجو توغلاً يتعذر عليها فيه تسديد قنابلها الى الأهداف المنشودة تسديداً مضبوطاً . وقد تصلح هذه المصابيح كذلك في اعمال الدفاع الساحلي تجاه البوارج فتكشفها في عرض البحر ، وتمكن المدافع الساحلية من اطلاق نيرانها عليها قبل دنوّها من الشاطىء . وبلغ من قوة هاتيك المصابيح الكبيرة ان المرء يستطيع بنورها قراءة الجرائد وهو محلق في طائرة تعلو ١٢ ميلاً عن سطح الأرض

(١) هي مفاتيح كهربائية متحركة بذاتها وتسيطر عليها ساعة بحيث يتاح فتح الدائرة الكهربائية أو اغلاقها أوتوماتيكياً في الوقت المحدد

وكثير من المصانع الحربية في أميركا تواصل الآن أعمالها آناء الليل وأطراف النهار أي أنها تشتغل ٢٤ ساعة كاملة ، ابتغاء تعجيل انتاج المعدات الحربية المفروضة عليها . واذا تعمد أولئك العمال والصناع الى تدمير المصانع واتلاف مصنوعاتها التي يقومون بانتاجها ، انتقاماً من أرباب المصانع ، مؤثرين حلكة الليل ، على وضح النهار ، لتنفيذ مآربهم ، أخفقت مساعيهم وذلك لأن مهندسي الاضاءة اخترعوا وسائل خاصة للوقاية ، وهي مصابيح ساطعة الضوء لصون الحظائر المحيطة بمعظم تلك المصانع ثم أقاموا مصابيح كهربائية كشافة قوية فوق بيوت حراسها لكي تكشف العمال الذين تسول لهم أنفسهم اقتراف ذلك الوزر . وقد نصبت أيضاً في الأفنية المحظور دخولها (بصاصات [1] كهربائية) لكي تنبه على الاشخاص الذين يحاولون ولوجها بلا ترخيص. ولما كان الشيء بالشيء يذكر يجدر بنا التنويه الآن ببعض الأعمال التي تؤديها البصاصة الكهربائية في الظروف الحالية ، للحراسة والرقابة :—

تؤدي البصاصة الكهربائية واجبات شتى تقتضيها حراسة وتنظيم حركة مرور وسائل النقل والانتقال من والى النفق الممتد تحت النهر الشرقي East River البالغ طوله ميلاً تحت مدينة نيويورك حيث يتصل حي كوينز (الملكات) بحي مانهتان Manhattan ويحتوي نفق كوينز ميدتون Queens-Midtown على طريقين مزدوجي المسالك ، لكل طريق منهما مجموعته الخاصة بالسيطرة عليه ، بحيث يستطيع المرء الاشراف على أحوال حركات المرور في ذينك الطريقين في هنيهة وذلك بالاطلاع على اللوحة الضخمة للرقابة التي نصبتها هناك الشركة العامة للكهربائية حيث تقوم الاجهزة العدادة ذات البصاصات الكهربائية أول وهلة بحصر عدد المركبات السائرة في كل طريق في أي وقت حصراً مضبوطاً فيجمع الجهاز العداد الاول عدد السيارات الداخلة في النفق ، بينما يطارح الجهاز العداد الثاني عدد السيارات التي تخرج منهُ وفي كل جهاز عداد شعاعة من الضياء الكهربائي مسلطة من جانب الطوار على بصاصة كهربائية مثبتة في الطوار الآخر المقابل له . فكلما مرت مركبة على تلك الشعاعة فقطعتها ، نبضت البصاصة الكهربائية نبضة ، فتصل الى الجهاز العداد ؛ واذا زاد عدد السيارات في أي طريق من الطرق الممتدة في النفق ، على العدد المأمون من الخطر ، أعطيت اشارة تحذير في اللوحة المركزية للرقابة ؛ فيقلل حينئذٍ عدد السيارات التي يسمح لها بدخول النفق . وثمة شعاعة أخرى من النور تاتي على مداخل النفق ، فتمها من أسفلها الى ارتفاع ١٢ قدماً ونصف قدم . فاذا ما قطعتها أية مركبة نقل يزيد ارتفاعها على ذلك المقياس ، أثرت في البصاصة الكهربائية فتطلق

---

[1] وقد وصفناها في عدة اجزاء من المقتطف « المترجم »

بوقاً لتنبيه ضباط المرور لكي يقفوا تلك العربة ، إذ هي لا تستطيع المرور من النفق لانخفاض سقفه عن ذلك القدر ، وتقوم الصاصات الكهربائية أيضاً بإضاءة المصابيح الكهربائية في مداخل النفق وذلك عندما يخيم الظلام ، وتساعد على تسجيل كمية غاز أوكسيد الكربون الذي يتفشى في الطرق الممتدة في الانفاق فتنبه الضباط الى فتح المراوح الكهربائية لتجديد هوائها

وكذلك اخترعت أجهزة أخرى مساعدة للاضاءة يمكن استخدامها حينما تعطل الموارد الأصلية ، وقوام تلك الاجهزة مولدات تدار بالبنزين او بطاريات تخزين مثبتة في عربات النقل فتعدو من معدات الطوارىء الميسور نقلها من مكان الى آخر ، عند ما تدمر القنابل المصانع الاصلية للاضاءة . ويفكر الآن المهندسون في اختراع محطات عوّامة للاضاءة ايضاً[1]

ولم يفتر المختبر العلمي للشركة الأميركية العامة للاضاءة الكهربائية عن القيام بواجبه في الظروف الحالية الحرجة . وكذلك أرجأ معمل المباحث أعماله المعتادة ليتفرغ لحل معضلات الدفاع عن الجمهورية الاميركية العظمى — وفي هذا الصدد يقول المستر لورنس ا. هوكنز المهندس الاداري ما يأتي :—

إن المباحث الدائرة حالاً قد توخينا بها مبدئياً البناء للمستقبل ، إذ هي أبحاث نقابية لاكتشاف معلومات جديدة تصلح اساساً لصناعات جديدة أو قواماً لتحسين كل الصناعات القديمة ، يفضي الى انماء الثروة الاهلية وترقية مستوى المعيشة . ولكن متى حلت الاوقات العصيبة فلا بدّ حينئذٍ من التخلي وقتياً عن مباحثنا الحالية لتخصيص مجهوداتنا لما هو أجدر منها بالاهتمام ويسرنا أن دولتنا قد هبت مرة اخرى من سباتها القديم الى التأهب العميم للحرب فحشدت مصادرها العظمى وستتاح لمعامل البحث الاميركية اعمالها الجليلة التي لا بدّ لها من اداءها في هذا المعترك اذ الحرب الحالية حرب آلات ميكانيكية لدرجة لم يسبق لها مثيل . فاذا ما اعطيت هذه الأمة وقتاً كافياً ، تمكنت معامل ابحاثها واستطاع مهندسوها وأتيح لعباقرتها انتاج المصنوعات بالجملة ، تلك المصنوعات التي جعلت هذه الدولة اقوى دول العالم صناعة ، وفي مقدورها ايضاً جعلها اقواها أسلحة . فينبغي لنا اذن ألاّ نضيع يوماً واحداً سدًى وألاّ نقامر بسلامة هذه الامة . ونحن في مختبراتنا العلمية نصبو كل الصبوّ الى اعانة دولتنا بكل ما في وسعنا فاذا شبت الحرب يوماً ما فستجدنا على تمام الاستعداد لها من كل صوب

(١) وقالت الصحف الصادرة في الشهر الماضي في هذا الصدد ما يأتي : — ان الحكومة الاميركية تفكر في استخدام الباخرة الفرنسية الكبيرة نورماندي محطة لتوليد الكهربائية لزيادة القوى الكهربائية في نيويورك وستستخدم بواخر اخرى لتوليد القوى الكهربائية ، في بعض المدن التي ازدادت فيها صناعات الدفاع طلبات متزايدة

اللغات السودانية

الشرقية

للدكتور مراد كامل
مدرس اللغات السامية بمعهد اللغات الشرقية بجامعة فؤاد الاول

ظهر في شهر نوفمبر سنة ١٩٤٠ كتاب تحت « عنوان اللغات السودانية الشرقية » من تأليف ا. ن. تكر (يقع في ٤٤٩ صفحة من الحجم المتوسط وفيه سبع خرائط)

The Eastern Sudanic Languages, by A. N. Tucker, Vol. I, published for the International Institute of african Languages & Cultures, by the Oxford University Press, London — New York — Toronto, 1940

وأنتهز فرصة خروج هذا الكتاب لأظهر ناحية من نواحي النشاط العلمي في الدراسات الافريقية

تنقسم اللغات الافريقية الى ثلاث مجموعات كبرى : الحامية، السودانية، البنتو. فمجموعة اللغات الحامية تنتشر من المحيط الاطلنطي غرباً الى البحر الاحمر والمحيط الهندي شرقاً ومن البحر الابيض المتوسط شمالاً الى السنغال والنيجريا وجنوب لوبيا وبحر العرب وجنوب الصومال الايطالي جنوباً، على ان تستخرج من هذه كلها مناطق نفوذ اللغات السامية. اما مجموعة اللغات السودانية فتمتد من الصحراء الكبرى الى خط الاستواء ومن أعالي النيل الى المحيط الاطلنطي، مع استخراج لغة الفُلّ ولغة الهوسا، لأن علماء اللغات الافريقية لم يتفقوا على وضعهما في احدى هذه المجموعات الثلاث. اما مجموعة لغات البنتو فحدودها الشمالية نيجريا، فخط تقسيم المياه، فالصومال الايطالي، ما عدا منطقة نفوذ لغتي البُشمان والهوتنتوت اللتين تكوّنان وحدتين مستقلتين

وقد اصطلح العلماء على تسمية اللغات الحامية بهذا الاسم نسبةً الى حام وهو أخو سام ويافث أولاد نوح، كما ورد في سفر التكوين اصحاح ١٠ آية ١. ويقسمونها الى ثلاث مجموعات: (١) المصرية القديمة — القبطية (٢) اللوبية — البربرية (٣) الكوشية. وقد اهتم علماء من فرنسا وايطاليا وانكلترا والمانيا بدراسة هذه اللغات حتى ظهر كتاب الاستاذ ماينهوف عن

« لغات الحاميين » سنة ١٩١٢ C. Meinhof, Die Sprachen der Hamiten, Hamburg 1912، وهذا الكتاب يعتبر أهم مرجع في دراسة هذه اللغات . واقتصر العلماء بعده على تعديله أو إكماله

أما البنتو فقد اصطلح العلماء على تسميتها كذلك من لفظة ba-ntu بمعنى رجال (مفردها ntu) . وهناك محاولات مختلفة لتقسيمها : فن العلماء من قسمها الى مجموعات لغوية يلتف كل منها حول لغة معينة ، كما صنع دركسل Drexel في مقال له عن تقسيم اللغات الافريقية في مجلة Anthropos XVII—XIX, 1923—24 صفحة ٣٦ وما يليها، وكذلك شميدت W. Schmidt في كتابه عن لغات العالم Die Sprachfamilien und Sprachenkreise der Erde . وكيكرز E. Kieckers, Die Sprachstämme der Erde, Heidelberg 1926 مجموعات لغات العالم Heidelberg 1931

ومنهم من يقسمها جغرافياً الى مجموعة شرقية ومجموعة جنوبية ومجموعة غربية على نحو ما فعل سليجمان C. G. Seligman في كتابه أجناس افريقيا Races of africa, London 1930 ، وكذلك هارتلند S. Hartland في مقاله عن البنتو في موسوعة هاستنجس Hastings Encyc. of Religion and Ethics . وقد أثرت « مدرسة لندن لعلم الأصوات » تحت إشراف الدكتور Dr. Daniel Johnes والاستاذ Prof. A. Lloyd في دراسة علم الأصوات في لغات البنتو . وظهرت في ذلك مباحث للدكاترة Doke و K. Laman و A. N. Tucker و Nekes وآخرين. وقد لخص الدكتور E. W. Smith ما ينبغي اتباعه في تفحص تلك اللغات بقوله « تحتاج لغات البنتو أن ترتب على قاعدة دراسة الاصوات وأقسام الأسماء والمفردات وبناء الجملة ، وعندي أن التقسيم المفيد الى اليوم هو التقسيم الجغرافي »

ومما يستحق الذكر مقال جريء للآنسة L. Homburger في Mémoires de la Société de Linguistique XXIII, 1929 صفحة ١٤٩ وما يليها ، قد حاولت فيه أن تثبت قرابة بين لغات البنتو والهوسا من جهة وبين اللغة المصرية القديمة من جهة أخرى . وإذ أنا في معرض الكلام على لغات البنتو أذكر ما قاله لي أستاذي السابق Westermann رئيس معهد اللغات الافريقية ببرلين من وجود لغة عربية في شمال الكمرون بين منطقة نفوذ لغات البنتو، ويرجح أن المتكلمين بها وصلوا من الشرق والمظنون من صعيد مصر

أما اللغات السودانية فهي نسبة الى سودان . وقد اصطلح على استعمال هذه اللفظة بمعنى يختلف باختلاف العلوم . فاذا تكلم الجغرافي على السودان فهو يقصد السودان الفرنسي أي المنطقة المحصورة بين الصحراء الكبرى وحوض الكنغو تقريباً . وإذا قالها المؤرخ فهو يعني السودان المصري الانكليزي . واذا ذكرها اللغوي فهو يدل على تلك المجموعة من اللغات التي أسلفنا الكلام على منطقة انتشارها . أما اللغات السودانية فلم يحقق ما بينها من التشابه الا منذ عهد قريب . وقد حاول العلماء حصر هذه اللغات فعد العالم الفرنسي دلافوس M. Delafosse ٤٥٥ لغة سودانية ثم زادها الى ٥٩٠ [١] ، وقد قسم هذه اللغات على أساس جغرافي الى ١٩ مجموعة . ولم يوافقه الاستاذ Westermann في كل ماذهب اليه وكتب في ذلك مقالاً عن « صفات اللغات السودانية وتقسيمها » Charakter und Einteilung der Sudansprachen في مجلة Africa, Vol. VIII No. 2, 1935 صفحة ٤٨ — ١٢٩ . وممن تبع Westermann في رأيه Dr. A. N. Tucker في دراسة مجموعات اللغات في جنوب السودان Survey of the Language groups in the Southern Sudan في مجلة مدرسة اللغات الشرقية بلندن Bulletin of the School of Oriental Studies, Vol VII Part 4, 1935 صفحة ٨٦١ — ٨٥٦ . وقد قسموا اللغات السودانية الى أقسام : —

(١) — اللغات السودانية القديمة وتشمل في الغرب المجموعة المعروفة تحت اسم كوا Kwa (أيبو ، يوروبا ، تورية) ومجموعة إڤا — أكان Ewe—Akan (إڤة ، توي ، فنته) وفي الشرق تشمل مجموعة مورو — مادي ، بونجو — باكا — باجيرمي ، ندوجو — بڤيري

(٢) لغات المنده (مندنجو ، بمبارا الخ)

(٣) لغات متصلة تمتد من كردفان الى مصب نهر السنغال ، منها تيف وكذلك لغات شمال توجو (أي لغات تجور) ولغات ساحل الذهب (مُوسّى — داجانه وغيرها) واللغات الاطلنطية الغربية بين ساحل العاج ومصب نهر السنغال

(٤) اللغات السودانية الداخلية وتقع بين نيجريا والسودان المصري الانجليزي . هذا هو تقسيم ويسترمان وتكر . أمّا شميدت Schmidt في كتابه عن لغات العالم فقسمها الى ست مجموعات وتبعهُ في ذلك دركسل Drexel وكيكرز Kieckers . وتذكر المرجع الذي يعد أساساً لدراسة اللغات السودانية وهو كتاب ظهر سنة ١٩١١ للاستاذ Westermann عن اللغات السودانية Die Sudansprache, Hamburg 1911

---

(١) راجع الفصل الذي عقده عن لغات السودان وغنيا في كتاب ميه وكوهين عن لغات العالم صفحة ٤٦٣ : Les Langues du Soudan et de la Guinée ; dans les Langues du Monde P. 463, Paris 1924

ولم يعمد العلماء الى دراسة اللغات السودانية كما عمدوا الى لغات افريقيا ، وذلك لصعوبة الوصول اليها ولعدم اهتمام العالم السياسي بها . وظل العلماء تحدد اختلافات جنسيتهم يقومون بدراسات قصيرة متفرقة كلما سنحت لهم الفرصة إما برحلات الى الجهات التي تنتشر فيها اللغة وإما بوجود أحد الافريقيين في أوربا . واذ كانت سنة ١٩٢٨ عقدت حكومة السودان في شهر ابريل مؤتمراً في مدينة الرجف (في جنوب السودان على الشاطىء الغربي لبحر الجبل) ودعت الى هذا المؤتمر ممثلي جميع الجماعات التبشيرية في جنوب السودان وكذلك علماء من أوربا ، وكانت الأغراض التي رمى المؤتمر الى تحقيقها

(١) حصر اللغات وتقسيمها في جنوب السودان

(٢) أي مجموعة من اللغات في جنوب السودان يقترحها المؤتمر لاستعمالها في الأغراض التعليمية ، وأي اللغات يقع عليها الاختيار في الجهات المختلفة ، والقضاء على اللغات المحلية في الجهات التي تستعمل فيها اللغة التي وقع الاختيار عليها ، والنظر في وضع أساس لتعليم اللغة الانجليزية في المدارس

(٣) بحث امكان وضع طريقة واحدة لكتابة اللغات المختلفة

(٤) رسم خطة للتعاون في وضع قواعد اللغات المختلفة ، وكتب النصوص والمطالعة يكون الغرض منها تعليم السكان ثم سد حاجة موظفي الحكومة ورجال التبشير

وقد تنبه علماء الانجليز على أثر هذا المؤتمر فوجهوا عنايتهم الى دراسة أفريقيا وأخرج لنا اللورد هيلي بمساعدة الكثير من العلماء هذا المؤلف الضخم الذي يقع في ١٨٣٧ صفحة من الحجم المتوسط يتضمن دراسة عن المسائل التي تتعلق بأفريقيا (جنوب الصحراء الكبرى) من الوجهة الاجتماعية والاقتصادية واللغوية والتعليمية وغيرها. وقد استغرقت كتابته زهاء تسع سنوات

An African Survey, A Study of Problems arising in Africa south of the Sahara by Lord Hailey, Oxford University Press, 1939.

وكذلك أخذ في تنفيذ رغبات المؤتمر وقراراته ، فزاد التأليف زيادة مطردة وكثر الاهتمام بدراسة اللغات السودانية وأرسلت الجمعيات المختلفة مبعوثيها الى الجهات المختلفة للدراسة

وقد أشار الى ذلك Edwin W. Smith في التقرير الذي وضعه عن عمل معهد اللغات الافريقية وحضاراتها The Story of the Institute (the International Institute of African Languages and Cultures) ونشره سنة ١٩٣٤ في مجلة Africa, Vol. VII. No. Jan. 1934 من صفحة ١ — ٢٧ A Survey of Seven Years.

وتقدموا في تقريره بالعالم Dr. A. N. Tucker مؤلف الكتاب الذي بعثنا على كتابة هذا الفصل وذكر الجماعة في دراسة اللغات السودانية وأشار أيضاً الى زميلي الدكتور H. J. Melzian والدكتور J. Lukas وكذلك الى الدكتور I. C. Ward وهم يقومون بدراسات مختلفة في نيجريا

***

وقد أتيحت الفرصة للدكتور A. N. Tucker في دراسة لغات السودان لما كلفته حكومة السودان من سنة ١٩٢٩ الى سنة ١٩٣١ بدراسة لغات جنوب السودان ووضع حروف هجاء تكتب بها اللغات المختلفة . وجاء هذا على أثر القرارات التي اصدرها مؤتمر الرجف فكتب تكر خلاصة بحثه في مقال تحت عنوان « الحالة اللغوية في السودان الجنوبي » ، والمقصود بالسودان الجنوبي مديريات أعالي النيل وبحر الغزال ومنجلا أي بالتقريب الجزء الواقع جنوب ملاكال من السودان المصري الانكليزي The Linguistic Situation in the Southern Sudan ونشرها سنة ١٩٣٤ في مجلة Africa Vol. VII No. 1, Jan. 1934 صفحة ٢٨ — ٣٩ . وقد قسم تلك اللغات الى عشرة اقسام رئيسية :

الشلوك ، الدنكا ، النوير النيدوجبو ، الزنده ، المورو — مادي ، البونجو — باكا ، الباري ، اللتوكو ، والتوبوثا ، الديدنجا — بير

ثم أتيح مرة اخرى للدكتور Tucker السفر الى السودان لما أوفده معهد اللغات الافريقية بلندن في بعثة سنة ١٩٣٢ لاتمام دراسته في اللغات السودانية . وظهرت نتيجة هذه الدراسة الطويلة في مؤلفه الذي نشره معهد اللغات الافريقية في نوفمبر سنة ١٩٤٠ تحت عنوان اللغات السودانية الشرقية كما ذكرنا ذلك في مستهل كلامنا

وقد قسم المؤلف اللغات السودانية الشرقية الى اربعة اقسام

(١) مجموعة لغات مورو — مادي

(٢) مجموعة لغات بونجو — باكا — باجيرمي

(٣) « « ندوجو — سيره

(٤) لغة الزنده وبعض لغات سودانية اخرى

اما منطقة انتشار هذه اللغات جميعها فهي الهضاب الغربية والجنوبية من المديرية الاستوائية في السودان ثم شمال اوغنده والزاوية الشمالية الشرقية من الكونغو البلجيكي وفي مديرية اوبنجي — شاري ومنطقة بحيرة شاد في افريقية الاستوائية الفرنسية

أما المجموعة الأولى اي المورو — مادي فتمتد من منطقة أمادي من شمال مديرية منجلا (مورو) في شكل نعل الفرس مخترقة مريدي وياي (ابو كايا ، كيليكو) ثم تنعطف الى الزاوية الشمالية الشرقية من الكونغو (لوجو ، ليندو) فشمال غربي اوغنده (لوجبارا ، ماد) ثم تنحرف الى منطقة أوباري في مديرية منجلا (مادي) — وبما أنها تبدأ من المورو وتنتهي الى المادي أطلق عليها مجموعة لغات مورو — مادي

والكتاب الذي نحن بصدده دراسة لهذه المجموعة من اللغات . وفي مأمول المؤلف أن يتبع هذا الجزء بثلاثة أجزاء أخرى حتى يتم بذلك دراسة اللغات السودانية الشرقية

واني عارض هذا الكتاب ملخصاً لأهم النتائج التي وصل اليها المؤلف

يبدأ الكتاب بمقدمة عن اللغات السودانية الشرقية ومنطقة انتشارها وتقع هذه المقدمة في ٣ صفحات ويتلوها ٤ صفحات قدم فيها المؤلف شكره إذ ذكر كل من ساعده من الوجهتين المادية والعلمية . ثم بيّن الطريقة العلمية التي أجرى عليها الكتاب ، فقال انهُ كتبهُ ثم عرضهُ للنقد على الاستاذ فرث من جامعة لندن J. R. Firth of University College, London

فاضطره فرث الى ان يعيد كتابة الجزء الذي يتعلق بالنحو على جهة تخالف التي سار عليها ، وهي تطبيق للنظريات اللغوية المعروفة باسمه . ويلي ذلك ثبت للمراجع يقع في صفحتين

ثم كتب مدخلاً من صفحة ١ الى صفحة ٨٤ قسمهُ قسمين : قسم عن القبائل ، تكلم في الفصل الاول منهُ عن توزيع القبائل السودانية الشرقية . وفي الفصل الثاني عن تاريخ هذه القبائل وغزوهم لحوض نهر ويلي . وتكلم في الفصل الثالث عن اثر هذا الغزو من الوجهة التاريخية وخلص من هذا الى النتائج الآتية :

أظهرت الدلائل المتفق عليها من مقارنة اللغات والأساطير ان جموع البونجو — باكا او بعد ذلك جموع المورو — مادي هم اول من غزا الجزء الجنوبي من السودان عن طريق حوض نهر ويلي ومن المرجح ان المجموعتين ترجعان الى أصل واحد ، ويظهر أنهما نشأتا في منطقة بين بحيرة شاد ومنابع نهر شاري . ويغلب على الظن أنهما انقسما الى مجموعتين في عصر متقدم وربما كان ذلك سابقاً لوصولهم الى منطقة نهر ويلي قبل أن يصير البونجو والباكا والكريش والميتو وحدات منفصلة

هذا واتصلت قبائل البونجو بقبائل المومفو في حوض نهر ويلي ، وخضعت قبائل المورو مادي لقبائل الشلوك في القرن السادس عشر الميلادي . ومن المحتمل أن تجمع قبائل الكريش والميتو في ذاك الوقت كان قد استقر لأننا لا نكاد نلاحظ أثر المومفو والشلوك في هذه اللهجات

زحت قبائل الندوجو — سيره في وقت متأخر الى حوض الويلي مع قبائل الوندو والباندا والمابوجو وغيرهم وكانت هذه القبائل متفرقة منفصلة على الرغم من وجود امتزاج شديد

بينها . واستقرت قبائل الباسيري شمالي نهر مبومو ، أما قبائل الموندو فقد اتجهت جنوباً واندمجت بقبائل الباكا وكانت النتيجة أن أثر كل من لغتي الموندو والباكا في الأخرى وكانت قبائل البونجو في ذلك الحين قد وصلت الى مركزها الحالي في حين تحممت قبائل المورو — مادي جنوب نهر الويلي بنوع خاص

تتابعت موجات الغزو في القرون الثلاثة الاخيرة على السودان الجنوبي فدفعت القبائل المختلفة بالتدريج الى حوض نهر ويلي آتية من الشمال والغرب والجنوب . وقد بلغت أشدها من قبائل الفونجارا الرحل التي تدفقت على السودان الجنوبي خاصة، واكتسحت كل من لاقاها من قبائل سودانية شرقية حتى صدمم العرب وقامت بلاد الدنكا عقبة أمامهم . وهذه هي نفس العوامل التي وقفت تيار القبائل السودانية الشرقية الهاربة . وقد واجهت طلائعهم ثلاثة عوامل القضاء عليها، إذ كان لها أن تختار بين ثلاثة أمور . أن تفنى في قبائل الأزنده ، أو أن تتلاشى في قبائل الدنكا ، أو أن يسترقها العرب . وقد درست حالة هذه القبائل حديثاً فأرجعت اليها الحكومات القائمة وحدتها القبلية بعض الشيء

أما فيما يتعلق بأثر العرب فهناك مسألة هامة يظهر أن كالون بوفي Calonne-Beaufaict قد أهملها في كتابه عن الأزنده

Azande — Introduction à une ethnographie générale des Bassins de l'Ubangi—Uele et de l'Aruwimi, Brussels, 1921

وهذه المسألة أن غارات العرب من دارفور حدثت قبل غاراتهم من جنوب السودان بحوالي مائة أو مائتي سنة وبدأت تلك الغارات منذ بضغط العرب على السودان من الصحراء الكبرى . وكانت غارات العرب من دارفور في القرن السابع عشر الميلادي بمنزلة سهم حمل قبائل السارا ترحل جهة الغرب ودفع بموجات قبائل الزنده جنوباً وعمل على تدفق القبائل المختلفة الى الجزء الغربي من جنوب السودان . فأثر هذا الخلط الشديد في السكان الحاليين لتلك المنطقة ولم يترك تغلغل العرب الفعلي في هذه المنطقة أثراً كبيراً في مجموعه ، بل هو لا يعد شيئاً بجانب تغلغلهم في منطقة الاوبنجي — خاري

***

هذه هي أهم النتائج التي وصل اليها المؤلف في الباب الأول من كتابه . أما الباب الثاني (من صفحة ٥٩ الى صفحة ٨٤) فأفرده للدراسة اللغوية ، فتكلم فيه على خصائص مجموعة اللغات السودانية فالحامية فالبنتو ثم عقد فصلاً على خصائص اللغات السودانية الشرقية وآخر عن بعض

مبادىء وتعريفات عامة يجب مراعاتها عند دراسة قواعد اللغات السودانية الشرقية ، وأشار الى أن واضعي نحو اللغات الافريقية من علماء اوربا وجدوا أن وضع النحو على الطريقة المتبعة في دراسة اليونانية واللاتينية لا يصلح لدراسة اللغات الافريقية . كما أنه أشار الى أنه لا يجب أن نشتط فنطرح جانباً كل المصطلحات المتواترة لنستعمل مصطلحات جديدة ، بل الواجب أن نأخذ الصالح منها وأن لا نستعمل مصطلحات جديدة الا اذا عجزت المصطلحات المتواترة في الدلالة على المعنى المراد

ويتبع ذلك كله الجزء الأول من دراسة اللغات السودانية الشرقية وهو الجزء الخاص بمجموعة لغات مورو — مادي ويقع من صفحة ٨٥ الى آخر الكتاب

***

حصر المؤلف في هذا الجزء قواعد تلك المجموعة من اللغات ثم أضاف بعض النصوص وألحقه بمفردات مع مقارنة لجميع اللغات السودانية الشرقية . وقد درس جميع لهجات المورو (ويبلغ المتكلمون بها حوالى ٠٠٠ر٢٠ نسمة). ولهجاتها: ميزا وكيديرو ولاكامادى وموروإندري وأماليبي وموزا بنجي وادي

واللغات المتوسطة (وعدد المتكلمين بها نحو ٠٠٠ر٨٣) وهي افوكايا ولهجات أدريلا وأندزيجا ، وكليكو ولوجبارا ولوجو . ولهجة اجامي . أما لهجات المادي (ويتكلمها ٠٠٠ر٢٤٠ نسمة تقريباً فهي : لوكاي وباندبكيري وأبو رولو ولولو أبا . ولاختلاف لغة الثندو عن هذه المجموعة من حيث النطق والقواعد اللغوية أفرد لها المؤلف فصلاً في آخر الكتاب . وقد أثبت نهائيًا قرابتها من ناحية الاشتقاق للغات السودانية فوضعها لذلك ضمن هذه المجموعة بعد ان كانت تدرج غالباً في لغات البنتو

ولا يسعنا هنا الا أن نسجل للمؤلف هذا المجهود الجليل الذي بذله في دراسة تلك اللغات من الوجهتين النظرية والعملية ونخص بالذكر اختياره لأصلح الطرق في عرض قواعد اللغة مبسطة قريبة المنال فقد طرح جانباً منهج جسبرسن التي ذكرها في كتابه « فلسفة قواعد اللغة » Jesperson A Philosophy of Grammer, London 1924, P. 91 والتي حصر فيها أجزاء الكلام الى : (١) الأسماء (ومنها اسماء الأعلام) (٢) الصفات (٣) الضمائر (ويدخل تحتها الاعداد) (٤) الأفعال (٥) الأدوات (وفيها الظروف والحروف على اختلافها) وقد أخذ المؤلف بطريقة دوك Doke بقدر ما تسمح به دراسة هذه اللغات بعد أن لاحظ ما استفاده دوك من دراسته للغات البنتو وأخرج كتابه عن المصطلحات اللسانية في لغات البنتو سنة ١٩٣٥

قسم دوك .C.M. Doke Bantu Linguistic Terminology London 1935, P.28
في كتابه هذا أجزاء الكلام الى :

اولاً : الاسم — (١) اسم (٢) ضمير :

(أ) مطلق (ب) اشاري (ج) عددي (د) وصفي

ثانياً : الوصف — (١) الصفة (٢) الموصول (٣) العدد (٤) الملكية

ثالثاً : الاسناد — (١) الفعل (٢) المبتدا والخبر

رابعاً : الايضاح — (١) الظرف (٢) المحاكاة الصوتية

خامساً : العطف

سادساً : التعجب (ويدخل في هذا الباب النداء والامر)

***

ولكن لنا على المؤلف بعض الاعتراضات فقد تغاضى في القسم الاول من الكتاب عن ذكر المواقع الجغرافية لتلك اللغات وتأثيرها في انتشار لغة ما او سهولة تأثير لغة في اخرى . والملاحظ أن هذه العوامل الجغرافية لها اثر كبير في اللغات الافريقية على الخصوص

ثم لم يستفد المؤلف من وجوده في تلك الجهات لاستغلال المتواتر من الأخبار لدراسة الناحية التاريخية وتنقلات القبائل بل اختصر الكلام في هذا الباب ولا يخفى ما للناحية التاريخية من أثر في تطور اللغة

وكذلك عرض خصائص اللغات عرضاً موجزاً كاد يضيع الفائدة التي أراد أن يجنيها من وراء هذا العرض

وهناك بعض أخطاء مطبعية كان يحسن أن يتنبه اليها المؤلف خصوصاً فيما يتعلق بالصيغ اللغوية كما هو الحال في صفحة ١٣٤ سطر ٤٢ . أما الباب الخاص بالمفردات فقد أراد المؤلف أن يرجع الكلمات الى أصولها ولكنهُ تهاون في هذا فلم يذكر من الكلمات الدخيلة من اللغة العربية الا كلمة daragh درع ، وفاتهُ مثلاً كلمة kusu قوس وكلمة asi قيظ (والمعنى : النار) وقد أشرنا اليها في مقالنا عن أثر العربية في اللغة النوبية بمجلة المستشرقين الألمان جزء ٩١ كراسة ٣ سنة ١٩٣٧ صفحة ٦٢٥ (ZDMG, B. 91, H. 3, p. 625, Leipzig 1937.

Arabischer Einfluss auf die Nubische Sprache

فهذه المآخذ لا تمس قيمة الكتاب . ونحن نأمل ان يهيأ للمؤلف اخراج الاجزاء الباقية الموعود بها حتى ينير ناحية لا تزال مظلمة في الدراسات الافريقية وهي تهمنا بنوع خاص لعلاقتها بالسودان



بقاع الجمال

وأثرها في الشعر والادب

لمحمد عبد الغني حسن

في كل اقليم من أقاليم الدنيا بقاع جميلة ، ومواطن تفتن النظر وتخلب اللب وتقف أمامها العيون معجبة تستوعب جمالها ، وتحاول ان تصل الى سر الحسن والملاحة فيها

ومن جمال البقاع ومحاسن الاصقاع ما يكون وليد الفطرة ، وصنعَ الطبيعة كالأنهار الجارية والوديان المتدرجة ، والجبال الزُّعن ، والقمم الشم ، والغدُر الرائعة والرمال المنبسطة او المتموجة كثباناً خلف كثبان ، وآكاماً إثر آكام

ومن جمال البقاع ما يكون مجلوباً لا جبلَّة ، وصناعة لا فطرة ، كالبحيرات الصناعية والغدر المنشأة ، والحدائق المتضدة تنساب فيها الجداول . وتقام فيها النضائد . وتشذب فيها الخمائل ، وتنضد فيها الأرائك ، وتفرش أرضها بالحصى المتلون ، والرمل المتناثر ، وتكسى أحوازها بالعشب الناضر ، والكلأ الأخضر

وهذه البقاع الجميلة خليقة ان تسمى مواطن الجمال ، ولها في الادب أثر كبير ، ولها عليه سلطان واسع . وهي ألزم للأديب لزومها للمصور البارع او الرسام المبدع . واذا كان في تاريخ الفنون الجميلة جملة صالحة من اللوحات الخالدة سجلت عليها بريشة المصور لطائف من الجمال فان في الادب جملة صالحة من قصائد رائعة ومن قطع خالدة سجلت جمال هذه البقاع في شعر جميل او نثر فني بديع

ولا يستقل بذلك الادب العربي وحده ولا ينفرد به ، ففي الآداب الأجنبية كثير من التراث الأدبي أهتم بمواطن الجمال فصوَّرها وأحسن تصويرها

على ان هذه البقاع الجميلة قد تكون من ناحية أخرى مصفاة لعقل الشاعر او الكاتب كما تكون وحياً له والهاماً لأدبه

فمنطقة نهر (الايفون) بانكلترا من بقاع الجمال . ويكفيها فخراً أنها أنجبت للبشرية أعظم شاعر عرفته الى اليوم وهو « شكسبير » ولقد أعجبنا حينما زرنا هذه المنطقة بالجمال الطبيعي السائد

من راقصين فوق ربوعها ولم تكن ممن زارها الصبح بالأريج العاطر أن يعجب مثل « هنا كسير »
ولا شك أن الذين قرأوا الشاعر الانكليزي « Wordsworth » وردسورث شعروا فيه تعديه الطبيعة وتغنيه بمحاسنها حتى أنه ليكاد يذوب فيها . ولقد عقد الاستاذ « كامبايالك » المربي الانكليزي المعاصر فصلاً في كتابه عن التربية اختص به شاعر الطبيعة « وردسورث » وبين ضرورة تبصير الطفل بمواطن الجمال ليكون ذلك عنصراً من عناصر تربيته

وهذا الشاعر مدين بحبه للطبيعة الى بقعة من بقاع الجمال هي منطقة « البحيرات » في انكلترا . فقد عاش فيها وسمع خرير مائها ، وحفيف أشجارها وتسلق بعض جبالها — كجبل كونستون — وسجل كثيراً من هذه المناظر الفاتنة الساحرة في شعر تصويري جميل . وكانت قرية « جراسمير » الهادئة الجميلة في منطقة البحيرات أحب مواطنها الى نفسه فعاش فيها ومات تحت ثراها — وأتيح لنا أن نزور هناك قبره وبجانبه قبر أخته التي كانت تهيم أيضاً بهذا الجمال

وكان الشاعر الأميركي المشهور « هنري دافيد تورو » يعشق الطبيعة ويألف اليها وبنى له كوخاً قرب غدير (والدن) ألف عنده الطيور والحشرات والأسماك . وفهم تغريد الطير وخرير الجداول . وعاش في عزلة عن الناس أخرج في خلالها كتابه الخالد (والدن) الذي يعد بدعاً في الأدب الانكليزي

ولقد كانت بحيرة « ليان » بسويسرا الهاماً للشاعر الفرنسي العظيم « لامارتين » وقصيدته « البحيرة » مشهورة مذكورة مترجمة الى الأدب العربي

وفي ولاية « هامشير الجديدة » بأميركا الشمالية . وعلى ضفاف نهر « ميرماك » الجميل غنى « جايمس رسل لويل » الأميركي كثيراً من أناشيده الخالدة . وكان مثل صاحبه « تورو » يفهم الطبيعة كل الفهم . ويحسن الأصغاء اليها اذا صوتت بالنسم الرقيق أو الزعزع النكباء . وكتابه العظيم « من شباك غرفة مطالعتي » أثر من آثار الجمال الطبيعي في نفسه

***

وللشعراء العرب نصيب عظيم من تصوير جمال البقاع ، وتسجيل المناظر البهيجة الساحرة التي تركت في نفوسهم أثراً . وهذه البقاع الجميلة كثيرة في أنحاء المملكة العربية الاسلامية وهي متباينة المناظر ، متنوعة المشاهد ... ففي شبه الجزيرة الرمل والصخر والأباطح الفيح التي تسيل بأعناق المطايا . . وفي العراق الأنهار والجملات والجسور ، والبرك والقصور . وفي الشام الغوطات الكثاف كغوطة دمشق . وفي الاندلس الرياض والأزهار ، والبراعم والنوار والزيتون والأنهار . وفي مصر النيل والمراكب فيه صاعدات منحدرات

ولا شك أن البحتري قد وفق التوفيق كله وأجاد الاجادة كلها في وصف (بركة المتوكل)

فقصيدته فيها تجمع الى حسن التصوير حلاوة الوزن وحسن النغم ولا شك أن القارىء يرتاح لوصف البركة والنجوم منعكسة على سطحها بقوله

اذا النجوم تراءت في جوانبها ليلاً حسبت سماء ركبت فيها

والقصيدة معروفة مشهورة متداولة فلا داعي الى تدوين أبياتها. والبحتري مجيد للاوصاف مبدع فيها وليس كثير من الشعراء أوتي تلك الموهبة فهي تحتاج الى العين الحساسة الدقيقة — كعدسة التصوير الجيدة — والى الشعور المرهف، والى القدرة الشعرية في التعبير عن الجمال

ولقد أبدع البحتري أيما ابداع في وصفه الرياض الجعفرية في قصر الجعفري الذي بناه المتوكل. وهي بقعة شهيرة من بقاع الجمال في الأدب العربي. اسمعه يقول: —

مخضرة والغيث ليس بساكب ومضيئة والليل ليس بمقمر
ملأت جوانبها السماء وعانقت شرفاتها قطع السحاب الممطر
وتسير دجلة تحته ففناؤه من لجة غمر وروض أخضر
شجر تلاعبه الرياح فتنثني أعطافه في ساقط متحدر

وليس من الضروري ان يكون المكان مفرطاً في الجمال أو بالغاً الغاية في الحسن الطبيعي ليبعث ذلك الشاعر على تسجيله. فقد تكون البقعة جميلة لما للشاعر فيها من ذكريات، ولما له فيها من صبابات مضت، وعلاقات انقطعت. وحينئذ يذكرها بالحسرة ويود لو عاد سالف زمانها، ومنصرم أيامها «كالحجون» و«الصفا» فقد ورد الشعر بخصوصهما كثيراً وهما ليسا بموطن فائق للجمال

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

على انه من المحقق ان في شبه الجزيرة القاحلة ودياناً كثيرة رأى الشعراء فيها نوعاً خاصاً من الجمال فدونوه وتغنوا به

وأكثر الأودية حظاً، وأخلدها اسماً هو الذي خلدته حمدونة الاندلسية بهذه الأبيات الرائعة، وقد نسبت في بعض الكتب الى ابي المعلى: —

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا — على ظمأ — زلالاً ألذ من المدامة للنديم
يروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

وبعض البقاع — كبعض الأناسي محظوظ — تصادفه الشهرة وتدور حوله هالة السعد، فيدور اسمه، ويخلد ذكره، ليت قاله شاعر، او سطر دونه ناثر. وأصدق مثال على ذلك

« شعب » بوّان . فقد خلّدته أبيات المتنبي التي منها هذا البيت : —

مغاني « الشعب » طيباً في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان

***

واذا نظرت الى الأدب العربي وجدت ان أكثر ما يتعلق منه بالوصف ومحاسن الطبيعة يرجع الى الأندلسيين . ولهم في ذلك الحق كله . فبلادهم جميلة ناضرة . ورياضهم مثمرة زاهرة وقد خرج العرب من الجدب الى الخصب ، فأحسنوا الوصف وأبدعوا المقال . وحقَّ لابن خفاجة أن يقول : —

ان للجنة بالأندلس مجتلى مرأى وريّا نفس
فسنا صُبْحتها من شنب ودجى ظلمتها من لعس
فاذا ما هبت الريح صبا صحت واشوقي الى الأندلس !!

ولقد ذكر الشعراء الاندلس على طريقة التعميم . وبعضهم خصص فوصف وادياً بعينه ! أو روضة بذاتها أو جبلاً بنفسه فجاء وصفه كالأصل والصورة في المرآة — وممن ذكر الاندلس على وجه التعميم ابن سفر المريني حيث يقول : —

وكيف لا يبهج الأبصار رؤيتها وكل روض بها في الوشي صنعاء
أنهارها فضة والمسك تربتها والخز روضتها والدر حصباء
وللهواء بها لطف يرق به من لا يرق وتبدو منهُ أهواء

***

ومن المواطن الجميلة في الاندلس « العامرية » وهي نزهة جميلة من نزه الدنيا . فيها الشجر الملتف ، والغصن المورق ، والطير المغرد ، والجدول المصفق ، والزهر الناضر والنرجس الضاحك ، أنشأها « المنصور » المشهور بن ابي عامر ووصفها ابن العريف بقوله من أبيات طويلة : —

انظر الى النهر فيها ينساب كالثعبان
والطير يخطب شكرا على ذرا الاغصان
والقضب تلتف سكرا بميس القضبان
والروض يفتر زهرا عن مبسم الاقحوان
والنرجس الغض يرنو بوجنة النعمان

وكانت اشبيلية جميلة الموقع ، جميلة الضواحي فاتنة المساكن . وبها من الوديان كثير . الأ ان من بين هذه الوديان الكثيرة نذكر وادي الطلح في شرقيها وكان يرده الزائرون ، طلباً للعافية والتماساً للراحة واستجماماً للنفس . وفيه ما في وديان الاندلس من الماء والنماء . وكان

الشاعر المعروف نور الدين بن سعيد المغربي يتردد عليه في صحبة حبيب، ومأمن من رقيب فذكره بأبيات كثيرة منها هذه الأبيات :—

واذكر بوادي الطلح عهداً لنا لله ما احلى وما اطيبا
بجانب المعطف وقد مالت الأغصان والزهر يبث الصبا
والطير مازت بين ألحانها وليس الا معجباً مطربا

ولشعراء الشام شعر كثير في وصف الطبيعة وذكر مواطن الجمال. ولعل البقعة التي سجلها الشاعر بقوله

جوها سجسج وفيها نسيم كل غصن الى لقاه يميل
ايه يا ماء نهرها العذب صاصل حبذا يا زلال منك الصليل
ايه يا ورقها المرنة غني فحياة النفوس منك الهديل

لعلها مما يستحق التصوير في هذا الشعر الرقيق

(ونهر بردي) بالشام من أهم البقاع وأكثرها دوراناً في الشعر العربي. وقد ذكره المرحوم احمد شوقي بك في قصيدته التي اولها :—

سلام من صبا بردي أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق

كما ذكره في كثير من قصائده الشاميات.... وذكره أيضاً الشاعر الدمشقي حسان بن نمير يخاطب صلاح الدين الأيوبي :—

(ويا بردي) لازال ماؤك باردا وماء الحيا من ساحتيك نمير
أبى العيش الا بين أكناف جلق وقد لاح فيها أشمس وبدور
وكم بحمى (جيرون) سرب جآذر حبائلهن الماء وهو نفور

والآبار والعيون من مواطن الجمال الخالدة المخلدة في الشعر. وقد رأيتُ بعض العيون المشهورة في سويسرا وفرنسا وانكلترا وأدركت سر الجمال فيها. الا أن الجمال هناك صناعي مجلوب بالتطرية والتجميل ولكنهُ على كل حال جمال

وفي الشعر العربي كثير من الآبار التي خلدها الشاعر، وأبقاها الشعر. ومن ذلك (بئر الحبجيلاء) التي قال فيها يحي بن طالب الحنفي متشوقاً :—

ألا هل الى شم الخزامى ونظرة الى قرقرى قبل الممات سبيل
فاشرب من (ماء الحبجيلاء) شربة يداوى بها قبل الممات عليل ؟؟

ومنها أيضاً (بئر خدوراء) التي سجلها جعفر بن علبة الحارثي بقوله :—

ألا هل الى ظل النضارات بالضحى سبيل وتغريد الحمام المطوق ؟
وشربة ماء من (خدوراء) بارد جرى تحت أفنان الأراك المسوق ؟

ومن بدائع الجمال في الشعر العربي الديور جمع دير وكثيراً ما ورد وصفها في الشعر،وتسابق الشعراء في تسجيل جمالها والاشادة بمحاسنها . ويظهر لمطالع وصفها أنها لم تكن دياراً عبادة فحسب ولكنها كانت بقعاً من بقاع الجمال تفتن اليد الصناع في توشيتها وتحليتها ، وتبدع يد الفن في اقامتها وتشييدها ويحيط ذلك كله بدائع من الطبيعة ما بين ماء يجري ، ونسيم يسري ، وشجر تتعالى أفنانه ، وتتعانق أغصانه ، وزهر أنيق الألوان ، مختلف الأشكال ، وغدر جارية وعيون صافية

والشواهد على ذلك من الشعر كثيرة مبثوثة في كتب الادب ، منثورة في معاجم البلدان وللصنوبري الشاعر الوصاف في ذلك كلام يمتد ، ونفس يطول . اسمعه يقول في (دير زكى) قرب الفرات : —

سلام بل مآلف بانيات — بأكرم مهدين ومالفين
تضاحكها الفرات بكل فن — فتضحك عن نضار او لجين
كأن الأرض من خمر وصفر — عروس تجتلى في حلتين
كأن عناق نهري دير زكي — اذا اعتنقا — عناق متيمين .
أيا متنزهي في دير زكي — ألم تك نزهتي بك نزهتين ؟
ويا سفن الفرات بحيث تهوي — هُوِيَّ الطير بين الجهلتين
تطاردُ مقبلات مدبرات — على عجل تطارد عسكرين
ثُراناً واسلمك كما عهدنا — بوصل لا تغصه ُ بين ؟؟

فهذه الابيات تصور لك الدير صورة جميلة وقد ضاحكته مياه الفرات ،وبدت فيه الازهار كأنها وشي ثياب العروس ، وجرت أمامه سفن الفرات صاعدة ومنحدرة ...

على أن لكشاجم الشاعر المشهور وصاحب الريشة المصورة الماهرة أبياتاً في وصف دير القصير بمصر يقول فيها :—

أما ترى الروض كيف بكي الحيا — عليه فأضحت ضاحكات زخارفه
تسربل موشي البرود وأعلمت — حواشيه من نواره ومطارفه
وقد نثر الوسمي بالطل فوقه — لآلىء كالدمع الذي أنا ذارفه
وأعرس فيه بالشقيق نهاره — فأشبع من صنع العذارى ملاحفه
ولاحظه بالنرجس الغض أعين — فواتر ايماء الجفون ضعائفه ...

وقد أضافت كل هذه البقاع الجميلة ، والمواطن الفاتنة ثروة كبيرة الى الأدب العربي خليقة بالدرس والمعاودة من حين الى حين

الادب العالمى

—١—

أرنست رينان

ارنست رينان فيلسوف عبقري استطاع ان يخلب عقول الجمهور الفرنسي بما حباه به الله من جرأة في الفكر تفسكب سلسالاً عذباً في أسلوب رقيق فيه الطلاوة والحلاوة والروعة . . . ولقد كان يمزج رأياً فلسفيًّا محضاً وعاطفة مشبوبة ، لا ينكر الاول ولا يتناسى الثانية ، فهو يجذب قارئيه في هوادة ورفق الى مذهبه الدهري على حين ينفث في قلوبهم نسمة هينة من العقيدة الدينية ، ويبذر في نفوسهم غراس الدهرية التي دان بها على حين يبعث فيهم الشك في طقوسهم الدينية في غير عنف ولا شدة . وفي الحق لقد وجد في الايام معواناً وساعداً ، فكتابه « حياة يسوع » أخذ يدرج نحو الحياة والدنيا تموج مضطربة بالآراء الدينية .

وسيطرت على العقول فكرة ما تبرح أن رينان قد ارتد عن دينه . زعم جماعة هذا الزعم وهو كان يبذل جهد الطاقة في أن يغرس في نفوس الرومان الكاثوليك حب الخير والرقة والاخلاص والسمو ، وان يسدل على فكرة التثليث الالهي ستاراً كثيفاً لمحوها رويداً رويداً من عقيدة النصارى

وظهر كتاب « حياة يسوع » فأجج ثورة جامحة كانت هي حدثاً من الأحداث التاريخية في عالم الأدب والفلسفة في القرن الثامن عشر فلقد رنّ صدى خبره في أرجاء العالم المسيحي لأن عبقرية رينان الأدبية وروعة اسلوبه ودقة عباراته وسمو خياله وقوة أفكاره لم يكن لها نظير منذ أن كان شاتو بريان الفيلسوف الجبار ، ولأن المفكرين من ذوي العقول الحرة الجريئة كانوا قد راحوا يتهدمون على رجال الكنيسة ، ويندفقون سيلاً جارفاً من النقد الصارم على ما كان يحترمه

رجال الدين في ذلك الوقت ردوت الصيحة في كل مكان فاستلب رينان من كرسيهِ في كوليج دي فرانس بتهمة الالحاد والكفر . أفكان حقاً أن رينان قد مرق من الدين مروقاً وهو قد نشأ في البروتستنتية القديمة على يدي أمه البريطانية التي كانت تحاول أن يكون هو — في يوم ما — قديساً ؟ ومهما يكن في الأمر من شيء فلقد حنق الأساقفة ورؤساء الدين على هذا الزنديق الخائن غير ان زمراً من صغار القسيسين الذين انكبوا على الكتاب يطالعونه في دقة وعناية فنفث فيهم من روح الكاتب العظيم ميلاً نحو رينان فكتبوا اليهِ رسائل فيها الثناء والاطراء ، يشجعونه ان يمضي على سننه ... ثم ... انتشرت آراؤه ...

وتشعبت أبحاث رينان طرائق قدداً غير انها ما زالت تتصل بسبب بالمأساة الروحية التي نزعته من العقيدة الكاثوليكية ، وبمذهب الدهريين الذي صبا اليه بما يكتب عن تاريخ الاسرائيليين والمسيحيين ، وبفصول ينشرها على الناس بين الحين والحين ليجذبهم اليه ، وبالمآسي والمذكرات الفلسفية التي يطلع بها على العالم بين الفينة والفينة

ثم ... ثم جاءت حفيدته هنريتا تنشر على أعيننا صورة للرجل الفذ دونها كل صورة حين ضمت اشتاتاً من كتاباته وراحت تفندها وتستخلص منها حياة جدها بما لها من نظرة ثاقبة تغلغلت بها الى مشاعر الرجل وعواطفه ، فهي بذلك قد أبدت للناس أشياء جهلوها ومحت أشياء ما هي من الحقيقة في شيء أشيعت حول الرجل لأغراض أرادها جماعة من أعدائه الذين ينظرون اليه في تقريرهم تشويهاً من الضغينة والحقد ، ثم هي قالت ان العقيدة الدينية في الرجل ظلت تنزى بين الحين والحين في قلبه رغم ما ثار حواليه من وشايات وافتراءات بعثها زعماء الدين مدوية لأن عقله الجبار لم يشأ ان يميل به الى حيث يسلم بمعتقدات الكنيسة ، ولأنه استل من بين جنبيه مبدأ فلسفياً لم ينزع عنه طول أيام حياته . على ان رينان — في فلسفته — أبى ان يقيم حداً بين الماديات والالهيات بل قدس الطبيعة في مظاهرها جميعاً ، وبدا الانسان في عينيه مخلوقاً لم يركب قط من عنصرين منفصلين هما المادة (الجسم) والروح انما هو وحدة اتحدت فيها الروح والجسم في وقت معاً فلا يستطيع واحد منهما ان يستغني عن الآخر

لم ينس رينان قلبه في حين كانت الأفكار الفلسفية الصعبة تضطرب في عقله ولكنهُ كان مثلاً عالياً من أمثلة الهوى والحب والوفاء والاخلاص ، تشهد بذلك قصة زواجه وسنوحياته الزوجية ، وهو كان يرى في اتحاد الجسمين (الذكر والانثى) روحانية لا يسمو عليها اتحاد روحين ، ولهذا كره الرهبانية التي عكف عليها رجال الدين وسخر بها في أسلوب لذاع قاس.

وكان في رينان العناد ، فهو يدفع عن آرائه في غير وهن ولا ضعف ، وفيه من قوة الأخلاق والشجاعة والصرامة ما بدا واضحاً جليًّا حين توزعته آلام المرض الطويل وهو على فراشه لم يتضعضع ولم يذل ، وحين أخذته سكرة الموت وهو ينظر في هدوء ورضا ، وزوجه الوفية الى جانبه ما تستطيع شيئاً لأنه طلب اليها ان تذره الى الطبيعة . . . الى أمه الرءوم . . . وهي تسترد منه ودمنها في عنف وشدة . . . ثم فاه بالكلمة الأخيرة وهو يحدث زوجه : خبريهم اني استسلم دائماً للقانون ، ثم أسلمته الحياة المائجة الى الهدوء ... الى غاية كل حي

— ٢ —

في ندى مدام دو دوفان

مدام دو دوفان فتاة جذابة آسرة فيها روعة الجمال وطلاوة الحديث ولطف الشمائل ، وهي نبيلة المربى والمنشأ ، شبت بين السطوة والسلطان والجاه والمال في وقت معاً ، وبدت في المجتمعات — أول مابدت — سنة ١٧١٨ عروساً للوصي على عرش فرنسا ، وما لبثت الا قليلاً ثم ساورها الملل والسأم حين لمست تفاوت ما بينها وبين زوجها فهي فتاة في ريّق الصبا وغض الشباب واكتمال الانوثة تنزى عاطفة وأملاً ، وهو رجل قد حطمته الأيام وعبث المشيب فاندفعت تعيش عيشة الترف واللذة واللهو شأن زميلاتها في ذلك الحين . ورمت بها حياة العبث في مطارحها لا تهدأ ولا تستقر حتى وجدت بغيتها في هينولت ، في قاضي القضاة فألقت بنفسها بين أحضانه وتوثقت بينهما صلات . . . وعند الثالثة

والثلاثين من سني حياتها راحت تستقبل في دارها رجالاً من أفذاذ السياسيين وجهابذة الادباء وجدت في أحاديثهم المتعة والسرور فابتدأ مجلسها الادبي وهو أول مجلس من نوعه . . . ثم هي تدعوهم — بين الفينة والفينة — الى غداء حوى من ألوان الطعام وفنون الشراب ما تطيب له النفس وتقرّ به العين ، وهي نهمة ما تبرح المائدة إلاّ وهي لاتجد في معدتها متنفساً ، ولعل إسرافها في الشراب والمأكل كان بعض ما أسدل على عينيها ستراً كثيفاً ففقدت بصرها عند الخمسين

ولقد كان في عقلها من النشاط والقوة بقدر ما كان في معدتها من نهم وشراهة فهي رفيقة فونتناي ومونتسكيو وفولتير ... و ... وأربعين من عباقرة الجيل ، وهي بينهم واسطة العقد والزهرة الفذة في هذه الطاقة اليانعة . وظل هذا النديّ يسمو على نديّ مدام جوفرين وهو قد ضم بين أضعافه كتّاب دائرة المعارف ونخبة من السياسيين ... ووسط هذا الجدال الفلسفي العنيف الذي كان يضطرم تحت سقف دار مدام دوفان فقدت هي عقيدتها الدينية ، غير أنها لم تكن لتأذن لأحد أن يثلب الدين ، على حين كانوا يقدحون في حق الحكومة نقداً وتجريحاً ، واطمأنت هي الى هذه الحياة هوناً ما ، فعاشت في عقلها دون قلبها ، غير أنها لم تجد السعادة والمرأة لا تجد السعادة إلاّ أن تجد لذة قلبها — فكانت رسائلها تشف عن حزن عميق دفين بين ثنايا قلبها رغم ما فيها من نكتة ظريفة أو فكرة طريفة... وعاودها السأم مرة أخرى ، فأي هدف في الحياة ترمي اليه ، وأي أمل تهفو نحوه ؟ وبدت الحياة جرداء قاحلة حين ابتدأ الجمع ينفض عنها الى مجالس أخر ، وحين رأت نديّ مدام جوفرين يرقى رويداً رويداً فيسمو على نديها ، ولكنها تماسكت حين زعزعها الدهر... وأصابها العمى فبرهنت على بعض ما فيها من ذكاء وحزم وعزم ، فاخترعت نوعاً من الآلة الكاتبة تسطر بها خطاباتها إلى أصدقائها وصديقاتها والملل ما يزال يتسلل الى قلبها فما انسلخ عنها إلاّ وقد ولى شطر عمرها الحلو ، فأشرق النور على قلبها ولكنهُ لم يقو على أن يزيح عنهُ دياجير الظلام المتراكمة

ولشد ما آلم مدام دو دوفان أن ترى ابنة أخيها جوليا تهجرها لتؤسس لها نديًّا أدبيًّا في الطبق العلوي ! إن جوليا شابة في ريعان الشباب وهي طفلة غضة



بضة فتانة تستهوي القلوب بجمالها ودلالها وتأسر الأفئدة برقتها وحلاوتها ، فكيف لهذه العجوز التي تخطو نحو الغاية في خطىً فساح أن تنازعها الأمر ؟ وجوليا هي منها بمثابة الابنة لأنها نشأتها وسهرت عليها عمراً من عمرها أفتستطيع أن تغلظ عليها أو أن تقسو أو أن تحذرها مغبة أمرها ؟ وأخذ الغيظ والكمد يتسعران في قلب العجوز وهي ترى ابنة أخيها تستميل الناس اليها فتستلبهم منها رويداً رويداً لتخلّف ندّي العجوز قفراً الا من بقية لا غناء فيها ولا سلوة . وبدت جوليا فتاة حديثة عابثة مستهترة لا يردها دين ولا يردعها ضمير فربطت بينها وبين ثلاث من اصحابها في وقت معاً برباط ليس هو من الشرف ولا من الطهر...ووجدت مدام دو دوفان ثغرة فاندفعت منها والغيرة توشك أن تعصف بعقلها ... اندفعت تسخط على الفتاة بكلمات قارسة لذّاعة ثم قذفت بها الى خارج الدار

على أن مدام دو دوفان ظلت عمرها الطويل تحمل بين جنبيها قلباً فتيّاً لم يتسرب اليه برد المشيب ولا يأس العمى فهو ينتهز الفرصة ليخوض في بحر الهوى كأنما هو في سني الشباب الأولى ...

وتعرفت السيدة وهي عند الثامنة والستين بفتى انكليزي كاتب هو هوراس والبول ... عرفته حين ابتدأ يتردد على باريس في الفترة بعد الفترة فراعها أن ترى فيه العبقرية والظرف والرقة و ... أشياء أيقظت في قلبها خواطر دفنتها منذ زمان وأحست كأن شيئاً يدفعها إليه ففاض في فؤادها سيل من الحنان الأموي والهوى الجامح في وقتٍ معاً ، ولبثت هذه الآصرة بين العجوز والفتى عشرين سنة ، واختلفت بينهما الرسائل ، فرسائلها تحمل إليه عاطفة جياشة ثائرة في كلام عذب جميل هو بعض نزوات قلبها ورسائله تحوي عطفاً عليها وحناناً ثم يعتب عليها في غير إسراف أو ينطوي عنها في فتور أو يؤنبها في قسوة وملال . وأنى لعجوز عمياء أن تجذب اليها قلب هذا الشاب ليكون لها وتكون هي . . . . ؟ ولعلها أرادت أن تجد فيه أنيساً في وحدتها وخلوتها لا تجد في هذا العالم من يخفف عنها بعض آلام الحياة ومصائبها ...ثم...ثم ماتت وعلى فراشها خطاب الى الرجل الذي أحبت..

كامل محمود حبيب

((فجر القبرة))

« كثيرون يعرفون القبرة بشكلها الرمادي الادكن وصوتها الرفيع المرثان . ولكن القبرة من الطيور الغريبة في حياتها وتأملها للحياة . روحانية تبلغ أسمى ما تبلغه الروح ومادية تنحط الى أسفل سافلين . ففي حالتها الاولى تراها تغزو اطباق الجو عند منبلج الفجر تردد الغناء سكرى بالجمال حتى اذا بزغت الشمس نزحت الى الارض تفتش عن غذائها ذاهلة عن غنائها . ومثل هذا المشهد قد يصور أحسن تصوير حالة الذين يرقون الى شمس الحكمة بأرواحهم ، ثم لا يقدرون على مقابلتها فيهبطون ، فلا الارض تذهلهم عن السماء ولا السماء تفصلهم عن الارض . ولا شوقهم بمنطق ، ولا ارواحهم بساكنة . هؤلاء هم كهذه القبرة »

جبران خليل جبران

أُسمعها : أُسمعها بعيدة عني ، دانيةً مني .
أُسمعها يشق غناؤها الفضاء الذي تفتح جفناه
أُسمعها يتسلل شعاع قلبها مع شعاع الفجر

قد انجلت — يا قبرتي — غياهب الليل ، بعدما ظننتِ ان هذا الليل سرمد لا يزول
وانزاحت عن الأفق كتائب الظلمة ، وقد خلتِ ان هذه الألوان الربداء لا تحول .
وسطعت لكِ المروج بعد ما حسبت انها توارت عن عينيكِ الى الأبد !

أراكِ تمعنين في التحليق ، حتى لأرى أنامل الفجر تجذبك اليها :
فماذا تركتِ في الجو بالأمس ؟
أشيئاً تفتقدينهُ كل مطلع فجر ؟
أم أغنية تحملينها الى الفجر ؟
أم أمانة تتسلمينها من الفجر ؟

أرى جناحيك يرفّان ويخفقان ،
يرشدان طوراً وطوراً يلتهبان .
وصوتك المرن يصعد في السماء
تسمعهُ الارض فتهتز قليلاً ، ثم يتوارى كأن لم يكن شاد ولا غناء .

هي سكرة قدسية — يا قبّرتي — ترفعك الأوج السامق
ترفعك على جناحي الشوق ، وتنطقك بلغة الغناء
فما أسمى هذه السَّكْرَة التي لا يتخللها صحو !
وما أبدع هذا الشوق الذي لا يطفئهُ وصال .

أنتِ من فجرك — أيتها القبرة — في صعود دائم
أنتِ من شوقك في وصال قائم
تمجدين الشمس في الغفوة التي تتعانق فيها اشعة الفجر وخيوط الليل .
وترفعين اليها صلاتك وغناءك قبل ان تطل عليك .
حتى اذا لمعت في الافق ووقعت عيناك على نورها الخاطف ،
فررتِ الى أطباق الارض عشواء العينين واجفة الفؤاد .

ألا تمهلين قليلاً حتى تراك الشمس وانتِ في الاطباق العالية تغنين لها !
ألا تمهلين حتى تتمتع عيناك بالكوكب الساطع
ويرتاح قلبك لمن خفق للقائه شوقاً وحنيناً .
عينك لم تستطع ان تحمل شعاع شمس « المعرفة »
وفؤادك ناء بافراغ شوقه للحبيب !
وفي اللحظة الاخيرة تراخى جناحاك ، وعشيت عيناك .
وتدحرجتِ على الارض بعد ان رقيتِ معارج السماء .

ألم تتذوقي لذة الشروق ؟
ألم تطعمي طعام ذلك العالم العلوي ؟
ألم يكشف لك عن خزائن ذلك الوجود
الشوق والغناء والويل والعناء . . . كلها تذوب تحت لوائك أيتها الشمس !

ما وصلكِ الذي تتغنين بهِ ؟
ما شوقكِ الذي أفعم الفضاء

ما سكرك الذي لا صحوة فيه ؟
اذا كان نور « الحقيقة » لا تحمله عيناك .

أتخافين احتراقاً في الاجواء
أما بين التطلع الى شمس المعرفة !
أم تصلين كل يوم الى المعرفة وتقفين على بابها، فاذا أطلت تواريت من وجهها المهيب ، وآثرت ان تتخطي صامتة
كأنك كلما صعدت مرة ذهب جزء من روحك وراءها في الفضاء وهكذا حتى تتوزع اجزاؤك كلها وتبلغي المرحلة الاخيرة .

وددتُ — يا قبرتي — ان أراك تزيدين امعاناً في التحليق !
وددتُ ان أراك صاعدة حتى لا يبقى على الارض منك شيء
وتمنيت ان ترنيمتك لا تفتأ تتردد في الجو مبتعدة عني حتى تصير ترنيمة صامتة .

أهلاً بك أيتها العائدة من عالم المعرفة ! منتصرة او منكسرة
في عينيك ذبول الشوق
وفي قلبك لهيبه
وفي جناحيك وجيبه

لم تذوقي — بعدُ — تلك السكرة العميقة التي لا يعقبها صحواً !
ولم يضرم قلبك ذلك الشوق الذي لا يُسلمك الا الى شوق.
لم تحبي شمس المعرفة محبة كلية شاملة ولم تؤثري الفناء فيها .
أتخافين احتراقاً في هذه الشمس !
ادني واقتربي ! أيتها القبرة من الشمس
وتابعي أغنيتك حتى تحترقي ،وتردك الشمس الى الشمس،
يا فراشة الطيور المحترقة بدون لهيب

« دير الزور» « خليل هنداوي »



باب المراسلة والمناظرة

شيء حول « تشرتشل »

« بمناسبة ظهور كتاب تشرتشل لمحرر المقتطف »

إن القارىء لا يستطيع أن يفرغ من هذا الكتيب بغير أن يكون قد وقف أمام عبارتين للرجل وموقفين له . فاذا عثلهما فقد تجمعت لديه الخطوط الخارجية لهذا الرجل

فاما العبارتان فهما هاتان : « هل طاب لك القتال » يقولها لجندي في الحملة السودانية ، و« هل تجد متعة في القتال » يقولها لجندي في الميدان الغربي في الحرب الماضية . وأما الموقفان فهو ما كان من خروجه على زعيم حزبه المحافظ حين أراد العدول عن مبدأ حرية التجارة ! وانضمامه الى الأحرار و « قلب سترته » ، والآخر هو ما كان من تعبئة الاسطول قبل أن يصدر المرسوم الملكي بذلك وبغير أن يمنح سلطة من الوزارة

ويعطي هذان الموقفان ، وتانك الكلمتان لتخطيط هيكل الرجل كما يصوره الكتاب : رجل نضال بكل ما في الكلمة من قوة وعنف ، يتعشق القتال ويتلمس اليه السبل ، وهو بعد ذلك رجل يميل بطبعه الى الرأي الطليق والتفرد بالأمر وحمل مسئوليته كاملة

فأين هذه الصورة من الصورة التي تتجمع لدينا حين نتخيل زعيم أمة تحب ان تقدم نفسها للعالم محبة للسلام كارهة للحرب ، ولا تفتأ تدعو لنفسها بحب الحرية والديمقراطية وكره الطغيان والنظم الفردية ؟ وأين هذه الصورة من الصورة التي تتجمع لدينا حين نقرأ للرجل ونسمع الى حديثه منددأ بقوى الشر والظلام ،ومسفهاً نظم الاستبداد ،ومبشراً بعهد يسود فيه العدل والقانون في علاقات الدول فلا تكون بها حاجة إلى امتشاق الحسام لتسوي ما يشجر بينها من خصام ؟ اني أرى في هذه الصورة الاخيرة رجلاً خريج البيئة الانكليزية بما فيها من سيادة الشعب ورأي الاغلبية ، وبما فيها من حب الشعب للسلام ، فاذا استثير دخل المعركة بقلب كئيب لانه لم يقبلها الا حين أصبحت السلم شراً منها وأثقل وقعاً

ولا أريد أن أقول ان الصورتين تناقض احداهما الاخرى في الواقع . بل انما ادعي ان الصورتين تكمل احداهما الاخرى بما يظهر عليهما من هذا التناقض والتضاد ، ومن تكاملهما يخرج لنا رجل ينبض بالحياة . لماذا نحاول دائماً أن نجعل خالق الشخص خالياً من التناقض ، وتصرفاته غير

مشوبة بالتضاد ؟ إنّا لا نكاد نجد رجلاً يتصرف في كل شيء طبقاً لمنطق واحد. إن «الظروف» هي كل شيء في دوافعنا وتصرفاتنا . ولذا فأنا أعجب الى صورة تشرتشل صفات من يقدس رأي الجماعة، وينشق التفرد بالأمر مع ذلك، ومن يطالب السلام وينظر اليه كأعز أمنية لدى البشر ولكنهُ يهوى المعركة ويطرب لها ويجد فيها الحياة النشطة الجديرة بأن تسمى حياة: فهل ترانا نتكلف حين نجمع للرجل هذه الصفات المتباينة في وقت واحد ؟ يفصل في هذا أن نقرن الرجل برجلين عرفهما التاريخ وعرفنا عنهما الكثير، فنجد بينه وبين كل منهما شبهاً كبيراً، ثم ننظر اليهما معاً، فنجدهما يتباينان أشد التباين . ولأستدرك فأقول إني لا أريد أن أقول هل تشرشل قرين لهما، أم هو دونهما، أم انهُ قد شآهما، فهذا كلام يقوله التاريخ بعد أجيال

يذكرني تشرتشل بابراهام لنكلن حين أنظر الى وقفته الجبارة في وجه التحدي، وهزئه بالعاصفة معها تقتلع من شجر وتدمر من حضر، ثابت الجنان غير مزعزع الايمان . فكذلك فعل لنكلن عندما هدد أهل الجنوب بالانفصال وأخذوا جنوده على غرة، وأرادوا أن يفرضوا عليه ارادتهم بالقوة، فعندئذٍ رسخ كالطود، وذبَّ عن رأيه وعقيدته، ولم يقصر في تحدي العاصفة ما استطاع الى ذلك سبيلاً، ووطن النفس على كثير من الدم والدموع والعمل والعرق وراح يبشر بمبادىء الحرية الفردية واستهجان العبودية والرق وحب السلام . وكان نصير الديمقراطية والحرية . هكذا الرجلان . ولكن مع الفارق: فابراهام قد دخل الحرب بقلب كئيب وفؤاد كسير حين رآها شراً لا بدَّ منهُ، وهو يحاسب نفسه كل يوم كم سيقتل من أمته، ويود لو استطاع انهاء الحرب وقتل الغرائز التي تسوق اليها، وهو في ذلك صاحب فلسفة بديعة وأفكار سامية، وليس عجيباً أن نراه يفخر إبان المعركة، حين يذكر شيئاً عن ماضيه، بأنهُ قد انخرط في سلك الجنود لمحاربة الهنود الحمر ولكنهُ لحسن الحظ لم يقتل ببندقيته أحداً . فأين هذا الرجل من تشرتشل الذي تطيب له الحرب، ويجد متعة في القتال!

وهنا يذكرني تشرتشل بنابليون . وكيف لا أفعل وقد قرأت عنهُ كيف كان ينقطع ساعات طوالاً في إحدى مغارات كورسيكا يقصف بمدفعه النحاسي ويعبىء جيوشاً ويدبر خططاً للهجوم والدفاع، ثم ها أنذا أقرأ عن تشرتشل قصة طبق الأصل من هذه ؟ وأين الرجل الذي يؤرج للحرب بكل ما في الطاقة من بأس، وما وهب الله من قوة، لشبيه بالرجل الذي يستمر في سرجه سبع عشرة ساعة يشرف على ميدان القتال: ينظم البنود ويحفز الجنود . ألا يشبه تشرتشل ابراهام ؟ ألا يشبه كذلك نابليون ؟ ومع ذلك فان لنكلن ونابليون يختلفان أشد الاختلاف . أو هكذا يصورهما التاريخ

تشرتشل ولنكلن: كلا الرجلين تزعم انه أحسن التعبير عن أفكارهما وارادتهما . ولكن الأول مقاتل مغامر بطبعه، والآخر مسالم وديع يقرب اخلاقاً من الملائكة

تشرتشل ونابليون : كلا الرجلين فطر على الشغف بالمعركة كأروع ما تكون في سبيل قايته ، ولكن الأول زعيم أمة في فترة من حياتها ، والآخر قائد جيش

ويجب ان تقرر بأن في تشرتشل دماء الحاكمين بأمرهم كأحر ما تكون الدماء ، ولكنه بحكم الظروف يدافع عن قضية الحرية الشخصية والحياة الديمقراطية . والذي يمده في هذا السبيل تقاليد أمته في السلم وهي أمتن من نفسه وأرسخ في عروقها من دمائه الحارة في عروقه ، وتقاليد أمته في الحرب وهي مشجع وحافز لنزعاته النفسية ، ومفرج عن مرجل روحه الثائرة الفائرة . واذن فليس من الصدق ان تشرتشل لم يتلألأ نجمه الا على أطلال المعارك والاشلاء ففي الحرب تنزل امته عن أكثر حرياتها وتحصر زمامها في أيد قليلة ، وان شئت الاحرى ففي يد واحدة . بينما هو في السلم منبوذ من الأمة مقصي به عن الحكومة

ومن الانصاف للامة الانجليزية انها لم تتخذ على رأسها تشرتشل والسلم وارفة الظلال ، لأنه — في السلم — شذوذ عنها وخروج عليها . ومن الانصاف لها انها قد تخذته على رأسها وقد استحر القتال — فهو — في الحرب — خير معبر عنها . هذه كلمة أرمي بها الى قرارة كتاب الاستاذ فؤاد صروف عن ذلك الرجل الجدير بالتقدير عبد اللطيف غزالي

أبحاث علم النفس

في التربية والتعليم للاستاذ ادمون عبد النور

هو كتاب أشعر بكثير من الغبطة اذ أقدمه لقراء الثقافة عامة ولهيئة المدرسين ووزارة المعارف خاصة . وهو مجموعة بحوث قيمة لخمسة وعشرين عالماً ومربياً اميركياً . نقله الى العربية الاستاذ الفاضل ادمون عبد النور . وقد امتاز هذا الكتاب بدقة البحث ووضوح الغاية بالرغم مما في ترجمة مثل هذا المؤلف من صعاب لكثرة ما جاء فيه من اصطلاحات علمية لم يرد لها ترجمة عربية من قبل . فذلل الاستاذ المترجم كل هذه العقبات ووضع لهذه التعبيرات العلمية الفاظاً عربية صحيحة

وهو يبحث في موضوع كان وما يزال مثار الجدل الشديد ومبعث التناقض والاضطراب وهو موضوع معالجة مشكلات التعليم المختلفة . ويعالج علماء الأميركيين مشكلة العاطلين ببحث واف في فصل « التربية هي المقدرة على النمو في المستقبل » . فالطالب الذي يتمم سني دراسته ثم يقعد عن العمل لأنه عجز عن التوظف في الحكومة هو مشكلة تعليمية . فتعليمه من أوله كان ناقصاً فاسداً . وكم من المتعلمين العاطلين في بلادنا هم نتيجة سوء التربية والتعليم . وهذه حقيقة أثبتها علماء أمة حديثة تقدمتنا في الرقي والعلم بمراحل . ولقد عنيت الدوائر التعليمية الأميركية عناية خاصة بعلم حفظ الصحة العقلية لأنها رأت بعد البحث الدقيق ان سبب شذوذ

التلاميذ واختلافهم هو نقص الصحة العقلية . ولا يقصد بذلك حالة الجنون الحقي ولكن سوء التفكير الناتج عن الفقر واختلاط المعيشة وفوضى الحياة المنزلية . فرأوا ان السبيل الوحيد الى علاج هذا النقص هو عناية المدرسين بصحة الطلبة العقلية . ويصحب كل بحث من بحوث هذا الكتاب رسوم بيانية لبيان سير التعلم والنسيان ، وكفاية تعلم المواد الاجتماعية بالنسبة الى العمر، ومقدار الوعي بالنسبة المئوية وغيرها من البيانات مما يجدر بالمدرس الاطلاع عليه

أما فصل «التعلم» بقلم العلامة روبرت ديفز فقد كانت له اهمية كبرى في دوائر التعليم الاميركية

ومن أبحاث الكتاب ما يعالج تعليم اللغات وهو بحث مهم بالنسبة الى مدرسي اللغة العربية لأهمية ما جاء فيه من تيسير اللغة للنشء . ويبحث أحد مؤلفي الكتاب في «موضوع توزيع الجهد» فيقرر أن الحفظ المتواصل أياماً معدودة قبل الامتحان مما يخالف مبادىء الدراسة الصحيحة . فهو ليس طريقة فعالة لاكتساب المعارف وتثبيتها . اما الحفظ المنظم في فترات متقطعة موزعة مدى العام المدرسي فهو يتيح لنا فرصة مواتية لكي تنظم ما اكتسبناه ونصل الى اعماقه من غير سأم ولا اجهاد . أما بحث كيفية تحسين التعليم فبه عدة تجارب أجريت في طلبة مدارس مختلفة وفي موضوعات متنوعة ليقرر أيها أجدى لفائدة الطلبة . وأقل ما في هذه التجارب انها تساعد المدرس على تحسين طرق التدريس وأساليبه التعليمية . فالمدرس الذي يكتفي بتعليم الحقائق والمعلومات فقط لن يُكسب تلاميذه فوائد أخرى

وقد فطن أحد علماء النفس الى ضرورة تنمية رغبة المطالعة في نفس النشء ، فكتب فيها أبحاثاً مطولة . وهو يعزو نجاح التلميذ في مراحل التعلم الى وفرة المطالعة ونوعها

وأعتقد أن من أهم بحوث هذا الكتاب فصل الفروق الفردية الذي يبحث في حقيقة ما يأتيه الفرد من أعمال في المدرسة أو في وظيفته بصفته فرداً اجتماعيًا فان هذا لا يتوقف على مستواه في الكفايات العقلية فحسب ، بل يتوقف ايضاً على عوامل أخرى منها العوامل الشخصية والصحية والبدنية ، فكثيراً ما فسدت العقلية النابغة بسبب صفات سيئة تلصق بالشخصية

وهناك بحث طريف في كيفية تصحيح إجابة الامتحانات وكيف اختلف عدد من المعلمين في تصحيح ورقة واحدة فتفاوتت الدرجات ما بين ٣٠ و ٩٨ في المائة . ومن أبحاث هذا الكتاب أسباب العجز في المواد الدراسية وطرق الوقاية والتشخيص والعلاج ، والآراء الحديثة في فلسفة التربية ، وأثر علم حفظ الصحة العقلية ، وكيفية معاملة التلاميذ الشواذ وكلها مزوّدة بآراء سديدة وعلاجات ناجعة

واخيراً اهنىء قراء العربية عامة والمشتغلين بالتربية والتعليم خاصة بظهور هذا الكتاب في اللغة العربية . وأشكر للمترجم ما بذل من جهد وعناء في سبيل ترجمة هذا البحث الثمين الذي كانت تفتقر اليه دوائرنا التعليمية

الآنسة أمينة شاكر فهمي

عقيدة أسوالد اشبنجلر

حضرة الفاضل الاستاذ رئيس تحرير المقتطف الغراء

بعد التحية والسلام ، قرأت ما كتبه الاستاذ علي أدهم رداً على كلمتي في يهودية الفيلسوف الألماني أسوالد اشبنجلر في عدد ابريل من مجلتكم الغراء ولكن انحراف صحتي والاشغال الأخرى حالت دون ان أكتب اليكم قبل الآن ما بدا لي فيه ، فأرجو منكم التفضل بفسح المجال في العدد المقبل لما يلي ولكم الشكر الجزيل : —

أولاً : أشكر الاستاذ على نشره المصادر التي اعتمد عليها في حكمه بيهودية اشبنجلر بناء على طلبي

ثانياً : حين وصفت اشبنجلر في كلمتي السابقة بدقة التفكير وقوة البصيرة لم أقصد به انكار يهوديته كما فهم الاستاذ بل قصدت به وصفه الحقيقي مبنياً على اطلاعي التام ودراستي الوافية لفلسفته وأفكاره . وأتحاشى ما فهم الاستاذ فاني أعتقد ان الذكاء ، والعبقرية ، والحصافة ، والبصيرة من مواهب الله يعطيها من يشاء من الأفراد سواء كان مسلماً او مسيحياً او يهودياً او بوذياً وليس من محتكرات جنس دون جنس ولا من اختصاصات قبيلة دون قبيلة

اما « باروخ سينوزا » الذي ذكره الاستاذ فأعرف منزلته في تاريخ الفلسفة واثره في تحول الفكر الانساني ولكنه مع هذا لو قرأ مصنفات اسبينوزا ومصنفات اشبنجلر لوجد بينهما بوناً شاسعاً من حيث جدة الأسلوب ، ودقة التفكير ، وقوة البصيرة واستقصاء الموضوع ، واسبينوزا لم يصنف في فلسفة التاريخ والثقافة شيئاً ، وفلسفته في الحقيقة تمد الى مدى كبير صدى الفلسفة العربية الاسلامية ، وهو امر اعترف به كبار فلاسفة الغرب ومفكريه أذكر منهم الآن الفيلسوف وندلباند[1] والاستاذ آدم متز[2] ونفس الفيلسوف اشبنجلر[3]

اما تأثر الشاعر الالماني الكبير جوته به ، فلا أنكر ان هذا الرأي رآه بعض الكتاب والمفكرين ولكن بعضهم ينكر ذلك ، وقد قرر اشبنجلر في كتابه « انحطاط الغرب » ان جوته في تصوراته وافكاره كان تلميذاً للفيلسوف الالماني الكبير جوتفريد ولهلم ليبنتز Gottfried Wilhelm

(١) راجع Windelband : Allgemeine Geschichte der Philosophie Band I, V, S. 464

(٢) راجع A. Mez : Die Renaissance des Islams S. 194

(٣) راجع Untergang des Abendlandes Band II S. 294, 395

مسلماً وانا أزيد عليه انهُ كان تلميذاً للشرق كذلك فان تأثره في مصنفهِ الشهير « الديوان الغربي الشرقي » بالافكار الشرقية وعلى الاخص افكار شعراء ايران وتصوراتهم وأساليبهم ، وفي نشيده الشهير في سيدنا محمد عليهِ الصلاة والسلام الذي لم يتمه في حياته ، اكبر شاهد على ذلك

ثالثاً — أن المصادر التي اعتمد عليها الاستاذ في حكمهِ بيهودية اشبنجلر ليست من القوة بحيث تعطي لنا علماً يقينيًّا فيهِ لأن هذه المصادر إما يهودية او انكليزية او أميركية، ومحاباة الانكليز والاميركيين اليهود بعد انتفاعهم بهم في الحرب الماضية معلومة للجميع ، ومشهودة في سعيهم المستمر لتوطينهم في بلاد العرب . فالحق انهُ لا يسعنا في الحكم في مثل هذه الأمور أن نغض النظر عما للعوامل السياسية الاخيرة والتعصبات الجنسية الحاضرة من التأثير في عالم التصنيف والانتاج العلمي . فنفس عنوان الكتاب « دجال . دجال » أو « ماذا يريد هتلر » يوضح لنا قصد المصنف وروحه ولا سيما في الظروف الحاضرة. والعالم المحقق النزيه العدل مهما أحاطتهُ الظروف يعز عليهِ أن يقول قولاً لا يسمو فيهِ عن الاسفاف وان ينتقد ولا يتمثل فيهِ روائع الأدب وان يبحث ولا يتبع فيهِ الحق

لسنا من منكري اشتراك اليهود في بناء صرح الحضارة الحاضرة مع الأمم حتى ولو كان الالمان منهم قبل ربع قرن أو أكثر فان الألمان كانوا يعيشون حينئذٍ في المانيا مع اليهود في غاية الوفاق والمحبة كشعب واحد من عنصر واحد ، ولم تصب وحدتهم بالتصدع الا في الحرب الماضية فذاق اليهود بعدها من آلام الاضطهاد على أيدي الألمان ما ذاقوا

رابعاً — أن ما يدفعنا الى الارتياب الشديد في يهودية اشبنجلر بل الى انكارها هو شهادته في مصنفاتهِ على نفسهِ لأن شهادة اقوال الرجل وآرائه وأعماله على نفسه أقوى وأوثق من شهادة غيره عليهِ . فهو عاش في المانيا في زمن بلغ اضطهاد اليهود فيهِ ذروته حيث أنزل بهم أشد النكال وألحق بهم أعظم الضرر وحدث ذلك كله بمرأى ومسمع منه وهو لم يحول ساكن ولم يخفض لهم جناح الرحمة ولا وطأ لهم مهاد الرأفة بفكره الجوال وقلمه السيال ، بل بقي طول أيام حياته أكبر داعٍ الى « الجرمانزم » و « والبروشيانزم » كما يدل عليه جميع مصنفاته حتى رأى في بعضها إن العلاج الوحيد الناجع لما وصل اليهِ العالم من الوهن والضعف والفوضى والارتباك في جميع نواحي الفكر الانساني وأعماله هو « البروشيانزم » Preussentum

هذا وقد سألت زملائي الاساتذة في الجامعة من الذين عاشوا في المانيا سنين وتخرجوا من معاهدها فأقر من عرفه بأنه لم يكن يهوديًّا

القاهرة السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي



مكتبة المقتطف

الرسالة

للامام الشافعي

شرح وتحقيق الاستاذ الشيخ احمد محمد شاكر القاضي الشرعي

اخراج كتاب قديم اخراجاً علميًّا حديثاً وحسن القيام عليه ، وترتيبه وتبويبه وضبطه وشرحه ، وتحقيق أعلامه وتنظيم فهارسه ليس من الأعمال السهلة الهينة التي يتوقف نجاحها على المادة والورق . ولكنهُ عمل عظيم يتوقف على علم مخرج الكتاب وتمكنه من مادة الكتاب وسعة اطلاعه على كل ما ألف حول موضوع الكتاب وما كتب قبله وما كتب بعده وتنظيم عقلية المخرج تنظيماً يبعد بهِ عن الجنوح الى الاضطراب والميل الى الخلط ، وحسن ذوقه في الاخراج حتى يظهر الكتاب شيئاً سويًّا يسعف الراغب ، وينجد الطالب ، ويعين على فهم المسائل فهماً صحيحاً ، وادراكها ادراكاً تامًّا

ومن الحظ الحسن ان تتاح هذه الشروط وكثير غيرها لفضيلة الاستاذ الشيخ احمد محمد شاكر القاضي الشرعي الذي قدم الى علماء الدين ، وأعلام الفقه ، وعشّاق الاطلاع العلمي ، واذا ذمت فقل انهُ قدَّم الى المكتبة العربية هذا الكتاب العظيم للامام الشافعي فجاء بحق مثالاً ناطقاً في حسن الاخراج للكتب القديمة على نحو علمي ، ومَعلم نظامي

ولم يدع الأستاذ الجليل هذا الكتاب من غير أن يقدم بين يدي القارىء مقدمة تبلغ الثلاثين صفحة ، ذكر فيها شيئاً عن حياة الشافعي واشتهاره بالعلم والفضل ، ودخوله العراق ثلاث مرات ، وخروجه الى مصر . ثم ذكر مكانه بين علماء الاسلام ، وموضعه بين أئمة المسلمين فجعله أولى العلماء بأن يقلد ، وأحقهم بأن يتبع

والحق ان العلماء في الشافعي شهادات لا تنكر ، وما منهم الا مثنٍ عليه او آخذ عنه ، او آسف على ما فاته منه فهذا داود بن علي الظاهري يقول في كتاب مناقب الشافعي (قال لي اسحاق بن راهويه : ذهبت أنا وأحمد بن حنبل الى الشافعي بمكة فسألتهُ عن أشياء ، فوجدتهُ

فصيحاً حسن الأدب ، فلما فارقناه أعلمني جماعة من أهل الفهم بالقرآن أنه كان أعلم الناس في زمانه بمعاني القرآن وأنه قد أوتي فيه فهماً . فلو كنت عرفته للزمته . قال داود : ورأيته يتأسف على ما فاته منه)

وهذا أحمد بن حنبل ومقامه بين أئمة المسلمين معروف مشهور . ومكانه في العلم محفوظ مذكور يقول (لولا الشافعي ما عرفنا فقه الحديث)

وحبذا لو أطال الاستاذ شاكر في سيرة الشافعي وخرج — ولو قليلاً — عن الصفحات الثلاث التي كتبها في سيرته . ولكننا نستنجزه الوعد الذي أخذه على نفسه بكتابة سيرة جامعة خاصة في كتاب مستقل لهذا الامام الكبير . وفي المقدمة بعد ذلك تعريف بكتاب الرسالة وكيف الفه الشافعي مرتين . وكيف أملاه على تلميذه الربيع إملاء . وهذا الاملاء ليس على اليقين ! فليس هناك ما يؤيده ولا ما يدل عليه . وأما بناء الأستاذ شاكر على الرجحان وليعذرنا في أن نخالفه فيما ذهب اليه فالدليل الذي أتى به لا ينهض وحده على رجحان الاملاء

ويذكر الاستاذ في الصفحة نفسها الاسم الأول للرسالة وهو (الكتاب) كما سماه الشافعي نفسه ويستنبط أنها سميت الرسالة في عصره بسبب ارسالها الى عبد الرحمن بن مهدي . ويعيب في — هامش الصفحة — على المتأخرين تسميتهم كل كتاب صغير الحجم بالرسالة ، محتجاً بأن الرسالة من الأرسال . ويكرر فضيلته هذا الكلام في مقال له بالمقتطف عن كتاب مسند يعقوب ابن شيبة [المقتطف يونيو سنة ١٩٤١ . باب مكتبة المقتطف — صفحة ٧٨] . ويحيل القارىء المقتطف على صفحة ١٢ من كتاب الرسالة التي فيها هذا الكلام . والحق ان تسمية الكتاب الصغير الحجم بالرسالة ليست (عرفاً غير جيد) كما يقول الأستاذ . فكل كتاب صغر أو كبر (يرسل) المؤلف فيه آراءه الى قرائه ارسالاً . ولا يحتجز تلك الآراء لنفسه أو يضعها لتحبس عنده . ومن هنا جاز تسمية الكتاب الصغير بالرسالة . وليس من الضروري ان يكون المقصود بالارسال الارسال الحسي الذي فهمه فضيلة الشيخ الجليل

وفي المقدمة كلمة عن أصل الربيع الذي يوقن الاستاذ أنه كله مكتوب بخطه . وهذا الأيقان لم يكن فيه صاحبه مستأثراً برأيه او متفرداً بحكمه ، ولكنه أشرك معه أحد أخوانه ممن لهم بصر بالخطوط او علم بها نوافقه على الرأي الذي ارتآه ، وكم يكون جميلاً من الاستاذ لو انه أشرك معه أكثر من واحد فانا نعرف ان آراء خبراء الخطوط قد تختلف في مسألة يدلي فيها كل بما عنده . وفضيلة الاستاذ قاضٍ جليل فما باله يأخذ برأي الواحد في هذه المسألة ؟؟

ويعود حضرته في صفحة ١٨ فيضيف دليلاً جديداً على أن هذه النسخة من الرسالة هي من املاء الشافعي نفسه . والدليل ان الربيع لم يترحم على الشافعي في كل موضع يذكر فيه اسمه .

وحبذا لو كان جاء هذا الدليل في موضعه الأصلي مع أخيه الأول في صفحة ١٠ ... وهنا رد الاستاذ على من يشكون في تاريخ نسخة الربيع ويخص بذلك الدكتور (موريتز) الذي كان مديراً لدار الكتب المصرية وممن ذهب مذهبه. ويختم فضيلته بحجج ، ويستشهد بصاحب صبح الأعشى. وينشر لوحتين مصورتين للموازنة بين خط وخط [لوحة رقم ١٠ ، لوحة رقم ١١]

﴿ سماعات الكتاب ﴾ أثبت الاستاذ شاكر سماعات كتاب الرسالة مرتبة متسلسلة ، وحذف المكرر منها . وجعل للأعلام الواردة في هذه السماعات فهرساً مرتباً على حروف المعجم ثم ترجم لبعض الأعلام في هوامش المقدمة ، وبعض هذه التراجم موجز الإيجاز كله ، وبعضها جرى فيه الاستاذ على طريق الظن كترجمته للامير أبي الحرث عبد الرحمن بن محمد بن مرشد بن منقذ بقوله [يظهر انه ابن اخي الامير أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ] . وتحقيق الأعلام لا يأتي من طريق الظن أو اتفاق الاسماء . وقد يكون صنع الاستاذ أجمل لو أنه جعل التراجم صفحات خاصة من الكتاب كما صنع الاستاذ الدكتور سامي حداد في اخراج مسند ابن شيبه

﴿ الرسالة ذاتها ﴾ تأتي بعد المقدمة والسماعات واللوحات رسالة الشافعي نفسها برواية الربيع ابن سليمان ، ويقع هذا الجزء من الكتاب في ستمائة صفحة لا تخلو واحدة منها من هامش مملوء بالتحقيقات الكثيرة والتعليقات المختلفة ورد الآيات القرآنية الكريمة الى سورها أو موازنات بين نسخ الرسالة المطبوعة والمخطوطة وشروح لبعض غوامض الكلم مع ضبطها . ولقد بارك الله في نفس الاستاذ شاكر في الحواشي والهوامش فجاءت صفحات كوامل من الكتاب محلاة بتمامه [راجع ص ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢]

ولفضيلة الشيخ باع طويل في التحقيق والتدقيق ، وعمله في رسالة الشافعي خير شاهد على ذلك . هو يجمع الى مزية العلم وخاصية الصبر على البحث فضيلة التواضع . رأى في صفحة ١٥ أن الأجدر به ضبط كل آيات القرآن التي يذكر الشافعي على قراءة ابن كثير ، لأنها قراءة الشافعي ولكنه أحجم عن ذلك كما يقول بنص عبارته [إذ كان شاقاً عليّ عسيراً ، لأني لم أدرس علم القراءات دراسة وافية] . وهذه العبارة أكبرت الشيخ في نظري ، وجعلته من العلماء عندي في المحل الأرثق والمنزل الآكد

ومن فضائل الاستاذ في كتاب الرسالة تلك الفهارس المتنوعة التي عني بوضعها وترتيبها تسهيلاً للباحث وتخفيفاً عليه . ففهرس للآيات القرآنية الواردة في الكتاب ، وآخر لأبواب الكتاب على ترتيبها ، وثالث للأعلام مرتبة على حروف المعجم ، ورابع للأماكن التي ذكرت في الرسالة مرتبة كذلك ، وخامس للمفردات المشروحة في الكتاب وشرحه ، وسادس للفوائد اللغوية المستنبطة من الرسالة

وليأذن لنا الاستاذ أن نقف عند هذه الفوائد اللغوية وقفة قصيرة ، فبعضها يفيد لأنهُ ورد على وجه قوي أو استعمال غالب ، وبعضها لا يفيد لأنه ورد على أضعف الروايات في النحو أو أوهى اللغات . وما كان يجدر بمثل الاستاذ شاكر أن يتخذ من هذه الأمثلة الضعيفة الشاذة شواهد على الصحة أو الكثرة الاستعمالية ، والا أصبحت اللغة فوضى سائبة ، ونحن في النحو الحديث نحاول أن نوفق بين المذاهب المختلفة ونقضي على الآراء الضعيفة والمذاهب المتهاوية ليحل محلها رأي صحيح أو قول وجيه

ولقد عجبت أن يكون الشافعي وهو أفقه الناس بالقرآن وأفهم العلماء لسنة رسول الله — عجبت ان يكون ذلك الأمام ممن يجرون في اللغة وراء مذهب فاسد ضعيف ، أو قول مريض عليل . وهو يعلم ان القرآن نزل بأفصح لغة وأسلم لهجة

وأعجب من ذلك كله ألاّ يحمل الأستاذ شاكر ما شذَّ من كلام الرسالة على محمل الخطأ أو الشذوذ أو الضعف — كما يقول في هامش صفحة ٦٥٩ . بل يجعل ذلك الشذوذ [شاهداً لما استعمل فيه وحجة في صحته] وهو مذهب غريب لو جرينا عليه وأخذنا به ما استبحنا لأنفسنا أن نقول في اللغة هذا خطأ وهذا صواب ، وهذا قوي وهذا ضعيف ، وهذه لغة وهذه لغيّة ولجاز لكل انسان أن يحذف النون في الأفعال الخمسة من غير ناصب ولا جازم ، لأن فعلين وردا على سبيل الشذوذ او الخطأ النسخي في كتاب الرسالة [مادتي١٦٨٦ ، ١٨٠٨] . ولجاز أيضاً لكل من أمسك قلماً أن ينصب اسم كان المؤخر بعد الجار والمجرور — كما يخطىء كثير من الناس في ذلك — لأن ذلك الاستعمال الشاذ الغريب ورد خمس مرات في النسخة الخطية من كتاب الرسالة التي كتبها الربيع .... [مواد ٣٠٧ ، ٣٤٥ ، ٤٤٠ ، ٤٨٥ ، ١٤٩٤]

وأشد من ذلك عجباً ان يحتج فضيلة الأستاذ مخرج الكتاب للشافعي بقوله في هامش صفحة ١٧٤ [والشافعي لغته يحتج بها . والذي يبدو لي ان تكون هناك لغة غريبة لم تنقل في كتب العربية من اللغات الشاذة ....] ففضيلتهُ يعترف في هذه العبارة بشذوذ هذه اللغة ثم يجيز بعد ذلك استعمالها ويتخذ منها شاهداً ومستنبطاً على صحة استعمالها

وللاستاذ في تحقيق الكتاب وضبطه آراء وجيهة مقبولة ، ولهُ تعليقات لطيفة على ما ورد في النسخ المطبوعة الأخرى من الرسالة . الاّ انهُ في قليل من الأحيان قد يتعصب لرأيه ويخطّىء رأي غيره كتخطئته في هامش رقم ٧ صفحة ١٧٥ ورود الفاء في الفعل لزم من النسخة المطبوعة بالمطبعة الأميرية ببولاق . والصحيح أن الفاء في اول هذه الجملة ليست خطأ وموقعها هنا جميل وخاصة بعد قول الشافعي ثم [كانت لرسول الله في بيوع سوى هذا ه سنناً ، منها ... ومنها ... ومنها .... فلزم الناسَ الأخذُ بها]

وبعد: فإن كتاب الرسالة للامام الشافعي قد أوتي من الحظ كثيراً بقيام الاستاذ احمد محمد شاكر عليه: وهو يقع في قرابة ثمانمائة صفحة من القطع الكبير وطبع طبعاً معتنى به في مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، فخرج سليماً من ناحية ذوقه وفنه، مضبوطاً محققاً من ناحية مادته وموضوعه. ولقد اقتضى اخراج هذا الكتاب العظيم ثلاث سنوات من جهد فضيلة الشيخ وبحثه وسهره وجده ودأبه، وهن قطعة من العمر، وحقبة من الدهر. فالله أسأل ان يبارك في حياة الاستاذ الجليل ليتحفنا دائماً ويمتع العقول والابصار بنتائج بحثه وثمرات درسه وعليه سلام الله ورحمته

محمد عبد الغني حسن

معجم الثدييات

لاسماعيل مظهر صفحاته ٣٢ من القطع الكبير

مطبعة شركة فن الطباعة

وضع الاديب المدقق الاستاذ اسماعيل مظهر عضو المجمع المصري للثقافة العلمية السفر الاول من هذا المعجم الذي سماه معجم الثدييات. وحبذا لو سماه معجم ذوات الثدي لثقل هذا اللفظ ولا سيما انه قال في شرح مراده انه « السفر الأول في الطبقات العليا يتضمن الاسماء الاصطلاحية من ذوات الثدي ... » الخ

وقال في مقدمة الكتاب « انه اول عمل من نوعه في اللغة العربية بل اول عمل لغوي علمي وضعت فيه مصطلحات جديدة على قواعد جديدة »

قال « على اني لم أشأ أن أخرجه للناس منذ ان (ولا لزوم للفظة ان هنا) أكملت مراده... حتى أيقنت أن الأسلوب الذي اتبعته في تأليفه... هو غاية ما يصل اليه جهدي... وبوسع آفاق اللغة العربية المجيدة... » الخ

***

ولا ريب في ان هذا المؤلف على صغر حجمه — لانه مؤلف من ٣٢ صفحة من القطع الكبير — لقي فيه صاحبه من العناء ما لا يقدره قدره الا الذين عانوا مثله من المؤلفين فقد وضع امام كل اصطلاح عربي من اصطلاحات ذوات الثدي الاسم العلمي المقابل له في اللاتينية (او اللاطينية كما سماها) او اليونانية القديمة (الاغريقية كما يسمونها) وهذا لا يتسنى الا للعالم كثير البحث والتدقيق والعارف بأصول هذه الصناعة

والذي يلقي نظرة عاجلة على الكتاب يعلم منه الفرق بين الترجمة والتعريب مما خفيت في اباته اقلام الكثير على اللغة وألسنتهم فما أغناهم ذلك قبيلاً ولا يزال « أعلام » الكتاب يقولون عن كتاب ترجموه انهم عربوه . عفا الله عنهم وعنا

(ن . ش.)

تطريب العندليب

تأليف جبران النحاس — صفحاته ٣١٢ من القطع الكبير — مطبعة جريدة البصير

« من علامات الزمان » كما يقول الانكليز في بعض اصطلاحاتهم ان يأتيك كتاب ادب هدية من اديب كبير فلا تستطيع قولة خير فيه او كلمة نقد في جريدة ما لاشتغال الصحف في هذا الزمان بنشر اخبار الدمار والخراب .

والكتاب الذي أعنيه الآن هو ديوان « تطريب العندليب » لناظمه جبران النحاس من الاسكندرية وفيه مختارات من « تعريبه » لأمثال لافونتين وغيرها

والناظم من تلاميذ الشيخ ابرهيم اليازجي وهو شاعر وناثر معاً لا نكاد نجد له خطأ لغويًّا في نثره كما تدل مقدمة الديوان البديعة ولا خطأ في ديوانه وكله من الشعر الجزل ومعظم ما نظمهُ من بحر الرجز . قال في مقدمته : —

« رغبت اول العمر في نظم الأساطير وما يسمونهُ « الشعر القصصي » وكان البعض يدعوه الى انها طريقة عقيمة على القوافي العربية لحرج قيودها . وانما هو وهم منشؤهُ اشتغال اصحابه بآداب الغرب من غيرها والشواهد على نقيضه تفوت العدّ

« ويزداد تلك الرغبة عندي قول امامنا اليازجي » :

« اذا لم يكن في الشعر ما يستفاد من حكمة او أدب ، او ما يعجب من ابتكار معنى او ابتداء نكتة وكان قصارى ما يدور عليه الوزن والتقفية ، فما أقلها جدوى تسهر عليها النواظر وتكد فيها الخواطر ثم لا يكون من ورائها الاَّ أصوات يمكن أن يؤدي مثلها بنقر الدف ووقع مطارق القصارين » انتهى

غير أن المرء في كهولته يتنابه من عهد الصبا ما يشبه عداد السلم ثم هو لا يبرح عرضة لذكريات مضت يروقهُ الالتفات اليها وان امضه الاسى عليها لذا لم أتمالك اليوم من اختيار نبذة أجعلها ذكرى لذلك العهد وطيبه ولمن غابوا عن العين بغيبه » الخ . . .

وأكثر منظومات الكتاب مما أجري من النقاش والحوار على ألسن الحيوانات على مثال حكايات لقمان العربي ولافونتين الفرنسي . ننقل على سبيل التمثيل النبذة التالية بعنوان العندليب وهي من بحر الخفيف وهي اول نبذ الديوان بعد الديباجة الشعرية :

كان في الروض العندليب يغني ملقياً من تغريده الف لحن
لاعباً ناغباً من الزهر الغض طروباً كالشارب المرجحن
يتغنى طوراً ويسمع طوراً مشتكى الريح بين غصن وغصن
صوته والجناح في حركات مثل من أوقع الغناء بوزن

دلٌّ تطريه الشمائل عليه ربَّ فضل على أخي الفضل يجني
أحسدوهُ فبات معتقلاً في قفص مثل شاعر في سجن
وهو يدري وما دروا ان في الرز ق صغاراً تدعو بيأس التجني
عادة الطير ان تغني فغنى أنما شاب صوتهُ لحن حزن

والشعر كله على هذا المثال من دقة اللفظ ورقة النظم والذهاب كل مذهب في المعاني والبيان والسموّ الى السبع الشداد في البلاغة

وقد طبع الديوان اجمل طبع على ورق لا تجده في أرخى أزمان السلم والرخص وان وجدته حينئذٍ لم تختر مثله جودة لرغبة الناس عن الادب الى التكسب وعن كتب العلم واصلاح المآل الى الحرص وجمع المال

نجيب شاهين

كتاب كليلة ودمنة

طبعة ممتازة منهُ لمطبعة المعارف — صفحاته ٣٠٩

عرف القراء ان مطبعة المعارف في الفجالة لصاحبها الأديب شفيق نجيب متري اصدرت لمناسبة يوبيلها الذهبي طبعة ممتازة لكتاب « كليلة ودمنة » لتكون ذكرى تاريخية لهذا اليوبيل نقلاً عن أصح نسخة وأقدم نسخة لهذا الكتاب عثر عليها حضرة الفضال الدكتور عبد الوهاب عزام ومما قاله الدكتور عبد الوهاب في الكلمة التي قدم بها هذه النسخة أن الباعث على العناية بهذا الكتاب هو أن « قليلاً من الكتب نال من اقبال الناس وعنايتهم ما نال هذا الكتاب ، فقد تنافست الامم في ادخاره منذ كتب وحرصت كل أمة أن تنقله الى لغتها فليس في لغات العالم ذات الآداب لغة الا ترجم هذا الكتاب اليها وبحق عنيت الأمم بهذا الكتاب العجيب الذي يحوي من الحكم والآداب وضروب السياسة وأفانين القصص ما يملأ القارىء عبرة واعجاباً وسروراً . والامم العربية أولى أن تعنى بهذا الكتاب في لغتها وأجدر أن تهتم بتاريخه وتوضيحه ونقده لأسباب عدة أولها : أن النسخة العربية أصل لكل ما في اللغات الأخرى — حاشا الترجمة السريانية الأولى — والثاني من الاسباب ان هذا الكتاب كتب باللغة العربية في منتصف القرن الثاني من الهجرة فهو من أقدم ما بين أيدينا من كتب النثر العربي ، وأسلوبه مثال من أقدم أساليب الانشاء في لغتنا وهو لذلك جدير بعناية مؤرخي الأدب العربي والثالث انهُ نقل من الفارسية الى لغتنا — والرابع ان عندنا منه نسخاً مختلفة لا تتفق اثنتان منها اتفاقاً تامًّا ويعظم الخلاف بين بعضها بالزيادة والنقص في بعض الأبواب و بعض القصص والامثال ؟

وقد أكبرنا ما يتجلى في كل صفحة من صفحاتها من مجهود كبير وهمة عالية وذوق سليم وسخاء مالي حتى جاءت طبعة الكتاب أجمل تحفة فنية من تحف الطباعة العربية في مصر وأنصع دليل — اذا احتاج النهار الى دليل — على ما لمطبعة المعارف من قصب السبق في هذا الفن . وكيفما أجال القارىء طرفه في هذه التحفة وقع على آيات من الدقة والاتقان . فمن حروف تروق العين لنقائها وحسنها ومن صحائف مطرزة باطارات ذات أشكال رقيقة هادئة . ومن صور ملونة اجتمع فيها الخيال الراقي والرسم الجميل والالوان الزاهية من صنع الفنان رومان سدريكافسكي ومن تبويب وتنسيق يأخذان بمجامع القلوب

والكتاب مهدى الى جلالة الملك فاروق وقد رفعت الى جلالته نسخة مجلدة أنفس تجليد وصدّر هذه الطبعة حضرة الدكتور طه حسين بك بكلمة بليغة . وتلتها كلمة مسهبة لحضرة الدكتور عبد الوهاب عزام عرض فيها تاريخ تأليف كتاب كليلة ودمنة في اللغة الهندية ونقله أولاً الى اللغة الفارسية ثم ترجمته الى العربية والى عدة لغات شرقية أخرى وغربية وما بذله من الجهد في الحصول على النسخة التي أشرنا اليها وقال انهُ كان ماضياً في البحث عن نسخ أخرى للمقابلة بينها لولا مفاجأة الحرب ولكنهُ قابل بين هذه النسخة وما توفر له من النسخ فرأى أنها أقرب منها الى الأصل

فهذه الطبعة الممتازة علاوة على مزاياها الفنية تعد أضبط نسخة من الكتاب وجدت حتى الآن . وحبذا لو طبعت منها مطبعة المعارف نسخاً رخيصة يقتنيها الجمهور . فنغتنم هذه الفرصة لنكرر التهنئة لمطبعة المعارف بيوبيلها الذهبي ونتمنى أن تظل عامرة تقدم أجل الخدم للادب والعلم في مصر والشرق

ابن المقفع

لعبد اللطيف حمزة — صفحاته ٣٣٨ من قطع صغير — مكتبة الجامعة بمصر

هذا الكتاب مما تنشره لجنة الجامعيين لنشر العلم ، وصاحبه من مدرسي اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب في مصر . وهو كتاب مسوق على المنهج الحديث في التبويب والتأليف والمراجعة . ولما كان موضوعه ذلك الأديب البليغ الفذ : ابن المقفع رأى المؤلف أن يقدم بكلام مسهب على مكانة الشعب الفارسي بين الشعوب الاسلامية ، وأهمية العنصر الفارسي بين عناصر الثقافة الاسلامية ، وآثار الفرس الأدبية . وانتقل المؤلف بعد ذلك الى ترجمة ابن المقفع فذكر تفاصيل حياته وألوان أخلاقه واتجاهات نظره سواء الى المثل الأعلى او الدين او الاصلاح الاجتماعي ، ثم أقبل على دراسة أدبه وثبت آثاره وخصص فصلاً كاملاً لكليلة ودمنة

وختم البحث بالفحص عن تأثير ابن المقفع في الأدب العربي بين شعر ونثر وتصنيف

والكتاب كله فقرات متلاحقة متلاحمة : غرضها واضح وعبارتها فصيحة رشيقة ، وهنالك فصل طريف كنا نحب ان نراه على تطويل واسهاب وهو الفصل الموقوف على النظر في أسلوب ابن المقفع وانك ترى المؤلف يعرض لعبارة أو بضع عبارات من كليلة ودمنة أو غيرها فيفككها ارادة أن تجعلك تلمس خاصية التركيب البلاغي والأداء البياني ويعين لك أثر الفرس هنا وأثر الخطابة هنا . ويخرج المؤلف من هذا التحليل اللغوي النحوي إلى مناظرة بين أسلوب ابن المقفع ومدرسته وأسلوب الجاحظ ومدرسته . فالأولى كما يرى المؤلف بحق تحمل صبغة بدوية وميلاً الى الايجاز وضرب الأمثال في حين أن الثانية تنزع الى الطرارة الخاصة بالمتحضرين وتجنح الى الاسهاب والتطويل

وأما بحث المؤلف في تآليف ابن المقفع من الناحية الفكرية فنظنهُ أقلّ طرافة وأكثر تعويلاً على ما تقدم من المباحث ولا سيما مقالات المستشرقين

بقي أن نذكر أن المؤلف لم يدخر جهداً في اخراج كتاب يكون مرجعاً ، ولذلك كثرت مصادره العربية والافرنجية . وللكتاب « كشاف » أو « مسرد » بأشهر الأعلام الواردة فيه

وهو مطبوع طبعاً متقناً على ورق صقيل ويطلب من مكتبة الجامعة لصاحبها محمد افندي يوسف بشارع محمد علي وثمن النسخة ١٢ قرشاً صاغاً بما فيها اجرة البريد

الوثائق التاريخية لعهد محمد علي

منذ عامين تقريباً أهدى اليَّ الصديق العزيز الدكتور اسد رستم استاذ التاريخ الحديث في جامعة بيروت الاميركية كتابه القيم « مصطلح التاريخ » وهو بحث في نقد الاصول وتحري الحقائق التاريخية وايضاحها وعرضها . وكان أول مؤلف حديث في موضوعه وقد شغلتني الواجبات المتوالية فسبقني الى الكتابة عنهُ بعض زملاء المؤلف

وفي الشهر الماضي أخرج حضرة المؤرخ الفاضل برعاية حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول المجموعة الاولى من الوثائق التاريخية الخاصة بعصر المغفور له محمد علي باشا. فجاءت مرجعاً نفيساً يهتدي به المشتغلون بالتاريخ عند ما يتفرغون لبحث ناحية من نواحي حكم ذلك العاهل العظيم

وتعتبر تلك الوثائق التي بحثها ولخصها الدكتور اسد رستم في مؤلفه من اهم اصول التاريخ للمنقب والباحث

فتلك الآلاف العديدة من الرسائل الواردة الى مجلس محمد علي باشا والصادرة عنه هي بلا شك مرجع لتاريخ تلك الحقبة من تاريخ مصر وسوريا وتركيا وبلاد العرب وهي تكوّن بلا جدال المواد الاساسية التي يقيم عليها المؤرخ اركان كتاباته

وهذا المؤلف التاريخي الذي اخرجه الدكتور اسد رستم ليس باكورة تواليفه اذ سبقها غيرها منذ نشر الاصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا . وكان المؤرخون الاوربيون قد جمعوا اصول ومصادر هذه الحقبة من التاريخ المصري عن المحفوظات الاوربية من الرسائل التي كتبها ممثلو الدول في مصر الى حكوماتهم فتألفت منها عشرات من المجلدات النفيسة التي يعرفها كل باحث وهي مطبوعات الجمعية الجغرافية الملكية

واليوم وبرعاية حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول ظهر المجلد الاول من وثائق الشام بالمحفوظات الملكية المصرية . ومنها تؤلف النواة الهامة للمؤرخين الذين يرغبون في درس هذه الحقبة المجيدة من تاريخ مصر وسوريا

ومن تلك الوثائق ما لخصه الاستاذ اسد رستم بعد ترجمته الى اللغة العربية ملازماً الاسلوب القديم لان الوثائق الاصلية مكتوبة باللغة التركية . وقد دوّن رقم كل وثيقة ومحفظتها لكي يسهل الرجوع اليها

ونأمل ان لا تمضي مدة طويلة حتى نرى الاجزاء المتتالية من هذه المحفوظات النفيسة فينتفع بها عدد كبير من المشتغلين بالتاريخ المصري

الصاغ عبد الرحمن زكي

سلطان الظلام

صفحاته ١٦٥ من القطع الوسط — طبع بمطبعة التوكل بالقاهرة

الاستاذ توفيق الحكيم من احرار الفكر العربي لو صح أن للفكر قومية ينتمي اليها أو وطناً يُنسب اليه . ومن الحق أن نقول أنهُ من احرار الفكر الانساني ، لانهُ يذهب نفسه حسرات على مصير التفكير الحر الطليق الذي يصورهُ ذلك النضال العنيف القائم الآن بين الدكتاتورية والديموقراطية

وفي نهار هذه الحضارة الصناعية التي قدّر علينا أن نشهد ثمارها ، وفي ضوء هذه المدنية الحديثة التي تلت ليل القرون الوسطى المظلم — في هذا الضوء الذي يكاد سناه يخطف الأبصار يتساءل توفيق الحكيم في حيرة ، ممهداً لكتابه الجديد سلطان الظلام : —

[ما بعد حضارة اليوم الحديثة ؟ ما مصير هذا النهار ؟ أترى مصيره مصير كل نهار ؟

هل نستطيع أن نتبين في الافق جحافل الظلام المغيرة على هذا النهار ؟]

في التمهيد المبسوط لهذا الكتاب القيم تتجلى ومضات مشرقة من حرأر الفكر عند توفيق الحكيم. الا أن هذه الومضات على التماعها وسطوع الاشراق فيها لا تخلو أن تكون سلسلة متصلة من مخاوف الكاتب على مصير الانسانية ، ومن خيبة أمله في الحضارة الحديثة ؛ ومن خشيته من طغيان الصناعة الكبرى على العهد العلمي الحديث كما طغى من قبل الكوخ والتيجان على العهد الوثني فزلزل زلزالاً شديداً

ويخشى الكاتب أننا سائرون القهقرى الى المجتمع البشري الاول الوثني حيث كانت أحلام الجماعات وأعصابها قريبة لسلطان الرجل القوي يخدرها ويؤثر فيها . فهذا الزعيم (المخدر) في العصر القديم والزعيم (المروّض) في العصر الحديث شبيهان ، لا يكون في ظلالها مكان للكلام في الحرية (لان المروّض سجّان قبل كل شيء) والسجّان بالبداهة لا يحب أن تهمس شفتا سجينه بألفاظ الخلاص من القيود ، والانطلاق من الاغلال

وتوفيق الحكيم — حرّاً واسع حدود الحرية — ليس ممن يدينون بمبدأ (الملم للوطن) . لأن هذا يبني عنده خدمة الجيش والعسكرية والاستبداد وسيادة الجنس والدم . ولأن هذا المبدأ يدعو اليه « الزعماء المروّضون » الذين يمقتهم الحكيم كل المقت

وبالرغم من مخاوف توفيق الحكيم ووساوسه من سلطان الظلام الذي يهدد العالم من حين الى حين فهو مؤمن بأن (القيم التي كسبناها قد كسبناها) ومؤمن كذلك (أن الحرية والجمال الروحي والفني والفكر الطليق وحقوق الانسان ، كل أولئك أشياء لا يمكن للانسانية أن تنزل عنها أو تنساها . قد تعصف بها حيناً بعد حين عواصف القوى الأرضية ولكنها لن تستأصل جذورها التي تنمو وتمتد في أعماق النفس البشرية)

وهذا الايمان هو الذي يؤلب دائماً جيوش توفيق الحكيم الفكرية ، وهو الذي يدعوه دائماً — وهو من جنود القوى الروحية والفكرية — الى أن ينشر الصفحات ويطلق الصيحات لتذكير النفس الانسانية بحريتها الموهوبة وتراثها العتيق في الانطلاق والانفلات من عض القيود ، وصلصلة الحديد

(سلطان الظلام) كتاب الفه توفيق الحكيم في غمرة حالية لم يدع فيها القمع المثار — كليل متهاوي الكواكب — مجالاً للأحرار أن يتكلموا بكل ما في نفوسهم . فمتى يأذن الله لهذه السحابة الغاشية أن تنكشف عن وضح الصبح المبين ؟؟؟

عبد الغني



فحص الدم

في الوالدين وأولادهم

قررت محاكم أميركا العمل بنتيجة فحص الدم في الوالدين وأولادهم في جميع المسائل الخاصة بالوراثة وخطف الأولاد ، وسائر وجوه الخلاف على البنوّة . وحدث في شيكاغو منذ بضع سنوات ان أهل طفلين في مستشفى تنازعوا على هويتهما فتقررت هذه الهوية بامتحان الدم وأعيد كل منهما الى والديه وكان رجال المستشفى قد أخطأوا فيهما فسلّموا كلاً منهما الى غير والديه

وطريقة فحص الدم هذه مبنية على ان في الدم الانساني احدى مادتين اسم احداهما اجلوتينوجين A والاخرى اجلوتينوجين B او المادتين كلتيهما او قد يخلو من الواحدة او الاخرى او الاثنتين معاً فان خلا الوالدان من هاتين المادتين استحال وجود احداهما اوكليهما في اولادهما فان لم يحتو دم ولد احدى هاتين المادتين فلا يمكن ان يكون ابن هذين الوالدين

وهذه الطريقة لا خلل البتة فيها ولكن قد تعرض حوادث لا يمكن تطبيقها عليها . مثال ذلك اذا اتهم رجلان بأنهما والدا ولد ما واتفق انهما كليهما داخلان في «مجموعة» الدم الواحد كما يسمونها فيستحيل بهذه الطريقة اثبات اي منهما هو والد الولد . وقد ظهرت هذه النتيجة في خمسين في المئة من القضايا المتنازع عليها . وبعبارة أخرى ان هذه الطريقة تستطيع ان تثبت لنا ان طفلاً ما ليس ابن رجل ما ولكنها لا تستطيع ان تثبت لنا انهُ ابنهُ اذا كان ابنهُ حقاً . ولكن يمكن اثبات البنوة بطرق أخرى مثل لون العيون فانهُ يجري على قواعد وراثية معينة ومثل ملامح الوجه وبعض عيوب الخلقة التي ثبت أنها تورث ولكن هذه الطرائق خالية من التدقيق العلمي اللازم

مرضه حسن الرائحة

ظهر ان نبات الورد يصاب بداء عياء يتلفه ولكنه حسن الرائحة الا في انوف مربيه الذين ينتفعون به وقد وجد لحسن الحظ ان هذا الداء يقتل ببعض أصناف المطهرات

الطيران في الحرب العالمية الماضية

ظهر من احصاء في آخر السنة الأولى من الحرب العالمية الماضية انهُ من كل مئة طيار تلفوا في السنة الأولى مات اثنان بفعل الاعداء وثمانية بخلل في الطائرات و ٩٠ بخلل في أشخاصهم

البرد في القطب الشمالي

كان أخف مما هو الآن

يقول عالم أميركي ان الاسكا، والجمد يغطي أرضها على مدار السنة ، كانت حرارتها فيما مضى مثل حرارة اميركا الآن وان أشجار المنطقة المعتدلة كانت تنمو فيها وفي جرينلندا وشمال سيبيريا . وقد بنى حكمه في هذا على اكتشاف بقايا الأشجار المشار اليها شمالي الدائرة المتجمدة قال انها من بقايا عصر الايوسين منذ نحو ٥٨ مليون سنة ، وهذه المدة تعد وجيزة في حساب الجيولوجيين . وقد عرض في مقال نشره صور البقايا المتحجرة من تلك الأشجار ومعها صور هذه الأشجار التي تنبت الآن في الأقاليم المعتدلة

ويقول في مقالته هذه انهُ مرت عشرات الملايين من السنين وعلاقة اوربا واميركا الشمالية بالقطب الشمالي والمحيطات كما هي الآن وقد جعلت الغابات « تهجر » جنوباً طبقاً لتغيرات الاقليم في قارات ثبت هواؤها على مرّ العصور والدهور

تغيير جنس بعض الحيوانات

بعد الولادة

جرّب البروفسور مور من جامعة شيكاغو تجارب علمية في جراء حيوان البوسيوم من حيوان القنقر (الكنجارو) فتمكن من تغيير جنسها من الذكورة والانثوية . ومعلوم ان هذه الحيوانات تولد في حالة يصفونها بالناقصة او غير الكاملة فتضعها أمهاتها حالاً بعد ولادتها في جيوبها كما هو معروف حيث تبقى اكثر من شهرين لاتمام نقصها . وهذه الحيوانات تسكن في استراليا دون غيرها

***

وقد اتضح للبروفسور مور ان هذه الحيوانات تولد ناقصة كذلك من الناحية التناسلية أي ان لها اعضاء للتناسل ولكنها ناقصة ولا تظهر عليها نهائيًا علامات الذكورة أو الأنوثة الا بعد ولادتها بيومين أي في اليوم الثالث من الولادة بل بعد ذلك . فعالج ذكورها وأناثها من جراء سنها بين ثلاثة أيام ومئة يوم بمستحضرات غدد الذكور أو الأناث من الهرمونات بالحقن او بمزج المستحضرات بمواد دهنية وفرك جلود الحيوانات بها . فظهر له ان الجنس يتعين فيها من اليوم الثالث بعد ولادتها حتى يتعذر تغييره بهذا العلاج ولكن بعض التغييرات تطرأ على أبنية الجنس الثانوية حتى ان هرمونات الانثوية جعلت صفات الذكور تنتقل الى ناحية الأناث والعكس

افتقار مرضى السرطان الى الراديوم

نال مرضى السرطان ضرر كبير من ضرب الطائرات الالمانية لمستشفيات مدن بريطانيا المختلفة لما فقد في هذا الضرب من الراديوم الذي يعالجون بأشعته فني بريطانيا كلها نحو ٢٨ جراماً من الراديوم وهذا المقدار هو اقل من نصف ما في أميركا منهُ ومعظمهُ موجود في خمسة مستشفيات كبيرة في لندن ومستشفى في منشستر وهم الآن يخزنونهُ في أقبية لا تخترقها القنابل

ثم ان الراديوم يحتفظ بهِ لا لعلاج السرطان فقط بل لان في فقده تهديداً لنفوس الملايين من الخلق ولاسيما اذا اتصل بماء الشرب او الطبخ او بهواء التنفس . ويقدر ثمن الرطل منهُ بمئات الألوف من الجنيهات ولكن دقيقة صغيرة منهُ تقتل الجسم الانساني

وفعله في الجسم يشبه فعل الكلسيوم اي ان تيار الدم يلتقط الراديوم ويحمله الى العظام ليرسب فيها ولكن أشعته الشديدة تهاجم العظام وتفتتها ولا يمكن صدّ هذا الفعل وكل ما هناك انهُ يؤخر بالمعالجة بنوع من المصل يزيل بعض الكلسيوم من العظام ومعها بعض الراديوم الراسب فيها . ولكن لا بد من موت العليل عاجلا او آجلا . وفي العالم كله رطلان منهُ ثمنهما نحو خمسة ملايين جنيه اي ان العالم يفتقر الى اكثر من الموجود منهُ

فحص الدم في مصر القديمة

فحص الاطباء مومياء تاجر مصري عاش قبل المسيح بنحو الفي سنة واسمه « واه » وبدأوا بفحص عضلاته فحصاً كيميائيًّا فوجدوا ان في أوردته دمًا من صنف B ويقول الدكتور كنديلا الكندي « ان مصر الحديثة هي من أعظم مراكز هذا الصنف ولكن الأصناف الثلاثة الأخرى موجودة فيها »

وكان هذا الطبيب قد فحص عظام مصريين قدماء وعضلهم ممن عاشوا في نحو ذلك الزمان او بعده بقليل فقال ان طريقة الفحص التي اتبعها مع هؤلاء لم تنجح مع التاجر المصري « واه » فعمد الى وسيلة أخرى

وفحص مومياءهُ بأشعة إكس بعد رفع اللفائف عنها لمعرفة الجواهر التي ربما دفنت معها

جزء من مليون من الثانية

ليس في وسعنا تصور جزء من مليون من الثانية ولكن المهندسين الأميركيين اخترعوا أنبوبة جديدة من أنابيب أشعة اكس يمكن بها التصوير الفوتغرافي . هذه المدة في معدل جريدة أميركية هي أقل من جزء من عشرين الفاً من طرفة العين فوصفنا السرعة بانها مثل طرفة عين وصف خال من كل تدقيق وهي سرعة بطيئة جدًّا بازاء جزء من مليون من الثانية

سرعة الطائرات

سؤال يجب الجواب عنه

صنعوا في أميركا طائرات يمكن ان تقطع ٧٠٠ ميل في الساعة ولكن هذه السرعة مما تعدّ تجربةً ذات خطر شديد على الطيارين . أي ان الطيار في طائرة مثل هذه يستطيع ان يهبط من ارتفاع ٣٠ الف قدم — أعلى قنن جبال حملايا بين ٢٠ ثانية او ٣٠ وعند وصوله الى سطح الماء لايجد وقتاً كافياً يمنع به طائرته من الغوص في الماء واذا نزل الى سطح الارض تحطمت طائرته وتحطم هو معها

وعلى ذكر سرعة الطائرات سألت جريدة انكليزية قراءها منذ مدة طويلة هذا السؤال

« لو تمكن الانسان من اختراع طائرة سرعتها سرعة دوران الأرض مع محورها أي الف ميل في الساعة فما هي الظاهرة الغريبة التي تحدث للطيار اذا طار شرقاً مع دورة الأرض أو غرباً ضدها »

ونذكر انهُ لم يجب أحد عن هذا السؤال جواباً صحيحاً . وقد أرادت الجريدة أن تعلم بعبارة أخرى انهُ اذا خرج الطيار ظهراً من القاهرة مثلاً واتجه شرقاً فماذا يكون الوقت في المكان الذي يبلغهُ بعد قطع الف ميل . ومثل ذلك غرباً

فما رأي دارسي الفلك من قرائنا في ذلك

الاصوات ومدى سمعها

يقول الانكليز والفرنسيون البعيدون عن منطقة خليج المانش أنهم يسمعون قصف المدافع التي تطلق فيهِ ومن جانبيه . ومعروف عند العلماء ان قصف المدافع وصوت انفجار البراكين يمكن ان يسمعا من مسافة ٣٠٠ ميل

والغالب ان هذه الاصوات تكون أكثر جلاء في الصيف غرباً وفي الشتاء شرقاً . ففي صيف ١٩١٨ سمعوا في انكلترا صوت قصف المدافع في فلاندر البلجيكية ولم يسمع في المانيا وسمع الالمانيون صوت القصف شتاء ولم يسمعهُ الانكليز

سرعة سير الكركند

الكركند بطيء الزحف كالسرطان والسلحفاة ، ومع ذلك فقد جرَّب عالم اميركي التجارب في مدى المسافة التي قد يقطعها الكركند (او الجمبري الكبير) فأخذ واحداً وأطلقهُ في خريف سنة ١٩٣٩ في ميناء بوث من ولاية ماين الأميركية ثم وجدهُ على بعد ٥٤ ميلاً الى الجنوب ووجد بالحساب انهُ كان يقطع نحو ميلين في اليوم الواحد

التحكم في الازهار

تمكن عالم اميركي بتجاربه من التحكم في وقت إزهار بعض النباتات فجعل بعضها يعجل في الازهار من سنة الى نصف سنة ونتيجة ذلك رخص ثمن بعض الازهار العطرية المطلوبة لرائحتها ومنظرها . ومن هذه التجارب تغيير نوع السماد الذي تُسمَّد به ولا يبعد لذلك ان يستطيع العلماء تعجيل زمن الأثمار بعد الازهار فلا تنقطع الأثمار بل تبقى على مدار السنة

العواطف والبصر

أيدت مباحث العلماء ما قيل منذ زمان طويل عن تأثير بعض الشهوات الشديدة مثل شهوة الخوف وشهوة الغضب في البصر وأثبتت ان قوة الابصار لا تكون واحدة في حالتي التهيج والسكون بل ان الشهوات الشديدة « تعمي » البصر بمعنى ان الرجل يرى في حالة سكون العواطف ما لا يرى في حالة هيجانها . وان كثيراً من حوادث التصادم في الطيران يحدث والطيارون عائدون من طيران طويل وعنيف

ولذلك يشيرون بفحص عيون الطيارين قبل استخدامهم في الرحلات الطويلة

المناعة الدائمة من الدفتيريا والكزاز

اكتشفت كلية الطب في جامعة كليفورنيا مادة أو مصلاً اذا حقن به الأولاد وقاهم الدفتيريا والكزاز طول عمرهم . وهذه المادة هي مكروبات الداءين ومعالجتها بحيث يتكوَّن منها مصل شاف يتكوَّن من التوكسيد المتخلف عنهما ويحقن المصابون بمزيج منهما . وقد جرب بنجاح لأول مرة في ٤٠٠ ولد . والجديد في هذا الاكتشاف الحقن بالمزيج . أما الحقن بمصل كل منهما فمعروف في الطب منذ عهد طويل كما هو مشهور . ومزية الحقن بالمزيج هي ان مصل الداءين مستقلين يحقن به ثلاث مرات في حين ان حقنتين من المزيج كافيتان

وفي الكزاز لا تمد حقنة الأنسولين المعروفة سوى تدبير يقي وقتيًا من انتشار سم الداء في الجسم وأما الحقن بالمزيج ، فتدبير يمنح المحقون مناعة دائمة

لا جديد تحت الشمس

عرف اليونانيون القدماء مبادىء الآلة البخارية ولكنهم لم يستخدموها في الأعمال الجدية بل كانت لفتح ابواب هيا كلهم واستخدموا في العابهم آلة أخرى تشبه السيارة الحاضرة في مبدأها

تعليل غير شاف للاحلام

قال طبيب من نيويورك في مجلة هيجيا الأميركية : ليس الحلم حادثاً خارق الطبيعة . ولكنهُ مع ذلك قد يتضمن شيئاً من الانذار بالغيب بمعنى انهُ قد يبين لنا شيئاً نحاول الوصول اليهِ ونحن مدركون لذلك او غير مدركين له

«ودرس الأحلام يجب فيهِ درس أمرين: الاول الحلم نفسه كما يتذكره النائم عند تيقظه . والثاني معناهُ المخبوء في العقل الباطن ولكنهُ مشوه بأمور كثيرة . وللوصول الى هذا المخبوء يجب علينا ان نعود الى زمان طفولتنا ونراجع نمونا العقلي ونحن أطفال . والطفل في نموه هذا مضطر دائماً الى كبح جماح ميوله النفسية والأنانية المتسلطة عليهِ والمذخورة في عقله الناطق الذي يسطّر كل كبيرة وصغيرة منذ يوم الولادة الى يوم الممات . وضمائرنا تنكر علينا تلك الميول النفسية فتبدو مشوهة ومستورة فالأحلام أفضل وسيلة لدرسها واظهار رموزها

« وقد ترمز الاحلام الى النقود بلفظة مجين والى الدولارات بتماثيل صغيرة من الجنود والى الف دولار بيبانو كبير (كذا) . ومن وظائف الحلم ابقاؤنا نائمين . واذا عطشنا ليلاً فاننا نحلم بأننا شربنا مراراً من غير ان نرتوي وهكذا نبقى نياماً حتى يشتد بنا العطش فيوقظنا

وكثيراً ما يشتهي الحالمون اشياء تضرهم ولا تنفعهم وأشياء تؤلمهم لأن فيهم ميلاً الى معاقبة أنفسهم . وكثيراً ما نجد العقل الباطن اعظم ادراكاً لمصاعبنا من العقل الظاهر فاذا خفنا في احلامنا طروء مرض علينا كان ذلك الخوف مبنيًّا على علمنا المذخور في عقلنا الباطن بأننا مهددون بالمرض أو بأننا أخذنا نصاب به

وينجم الحلم أحياناً عن تخمة أو برد الرجلين ولكن الميول المذخورة في العقل الباطن هي التي تعين محتوياته لا التخمة ولا برد القدمين

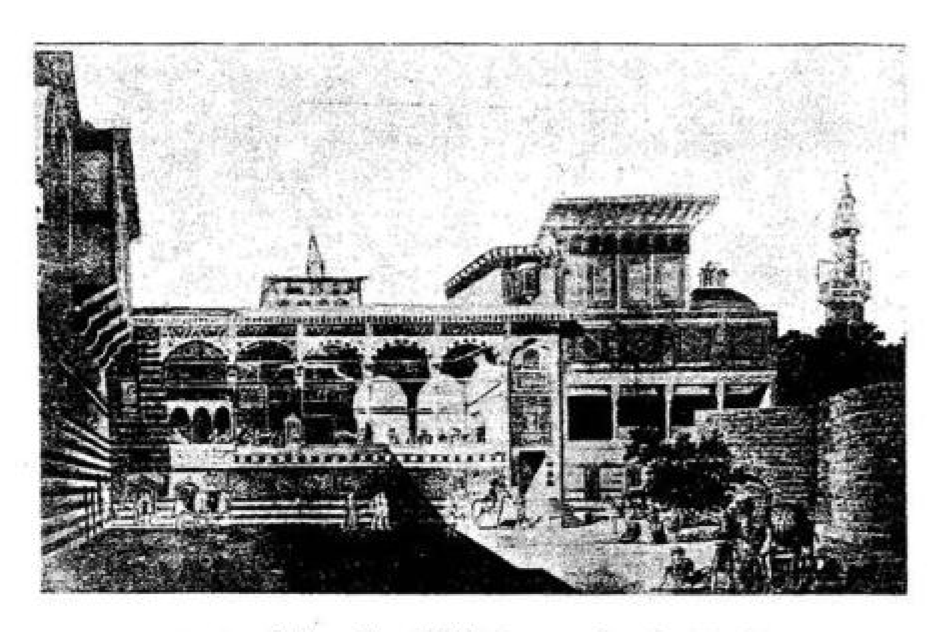
ويدل بعض الدلائل على أن الانسان يحلم ما دام نائماً وانه انما يتذكر جزءاً من أحلامه

صمغ الاذن وطنينها

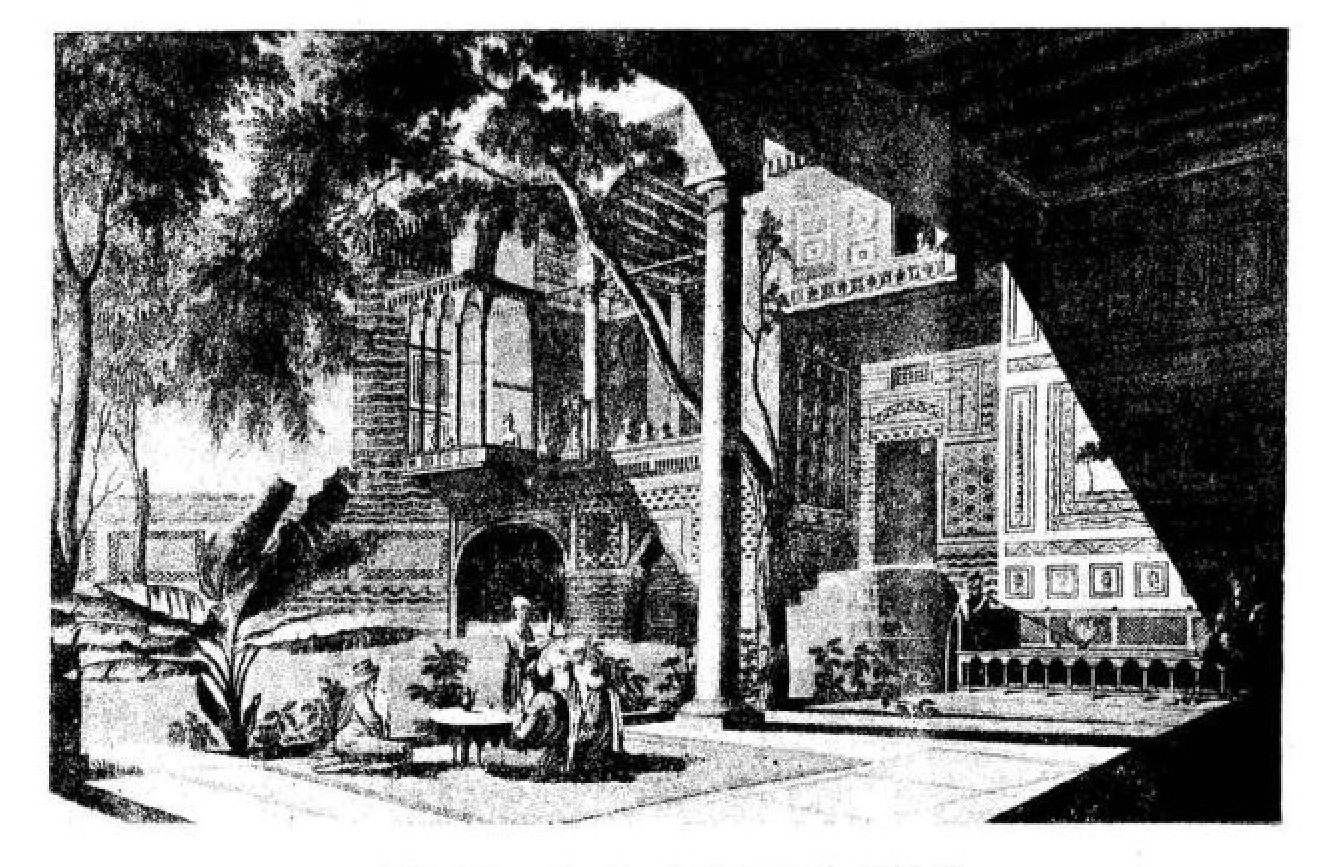
ينتج صمغ الأذن من افراز الغدد الحاوية له ويسمى في الانكليزية بالشمع وذلك عند تهيج الغدد . ومهما تغسل الاذن فان غسلها لا يحول دون ذلك الافراز ودون تجمع الصمغ في الاذنين فينتج عن هذا التجمع طنين يحسبهُ البعض ناشئاً عن تحدث أصحابهم حديثاً حسناً عنهم وصلهم بطريق التليباثي (انتقال الافكار)

والواقع ان هذا الطنين قد يكون أول اعراض التهاب في الأذن الوسطى او الأذن الداخلية ونذيراً بوجوب معالجة هذه او تلك حالاً

مسقط أفقي للطابق الرئيسي لبيت زينب خاتون



فناء منزل عثمان بك من رجال المماليك « القرن السابع عشر »



القاعة الرئيسية المطلة على فناء قصر قاسم بك من زعماء المماليك

[راجع مقال الدار الاسلامية في مصر صفحة ١٠٥]

فهرس الجزء الثاني

من المجلد التاسع والتسعين



كهربة القطر المصري

لحسين بك سري

المقتطف



العلم والصوفية

للدكتور مشرفة وكيل كلية العلوم

الكولونل لورنس

والثورة العربية

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

ذكاء الحيوان

للدكتور محمد ولي من اساتذة كلية العلوم

اجنحة المستقبل

لمستنبط الاتوجيرو ده لاثيرفا

المقتطف

الجزء الثالث من المجلد التاسع والتسعين

١ اغسطس سنة ١٩٤١ ٧ رجب سنة ١٣٦٠

الحرب والمرض

١ — لمحة تاريخية

من الأقوال العامة في الحرب والمرض المسلّم بصحتها قول قديم مؤداه ان المرض في الحرب أفتك بالجند والناس من الاسلحة . وقد اشار المؤرخون الى ما يؤيد هذا القول في حملة زركسيس الفارسي على اليونان ، وفي الحروب الصليبية ثم في حرب الثلاثين سنة وغيرها من الحروب التي تلت الثورة الفرنسية ولاسيما حروب نبوليون في عهده الأخير عند ما ضاق الخناق عليه وعلى قارة اوربا . أما الحروب القريبة منا فمنها حرب القريم وقد تفشت في اثنائها حمى التيفوس والهواء الأصفر والديسنطاريا وغيرها في صفوف الجيوش الروسية والبريطانية والفرنسية ففتكت بها فتكاً ذريعاً وحصدت من النفوس أضعاف ما حصده القتال . وفي الحرب الأميركية المكسيكية (١٨٤٦ — ١٨٤٩) بلغت الاصابات الناشئة عن المرض في الجيش الأميركي سبعة أضعاف الاصابات الناشئة عن القتال . وفي الحرب الأهلية الأميركية قتل المرض ١٨٦ الفاً من الجند ولم يقتل في المعارك الا نصف ذلك

وكانت العناية بصحة الجيوش والسيطرة على شتى الأمراض المكروبية قد تقدمتا تقدماً عظيماً عند ما خاضت الولايات المتحدة غمار الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩١٧ فتوازنت خسارتها من ابنائها بالقتال وبالمرض . أما في بلدان اوربا نفسها فقد زاد معدّل الوفيات في شتى الشعوب الأوربية في اثناء الحرب العالمية الأولى زيادة بالغة حتى فاقت المعدّل السوي أضعافاً أضعاف . وقد أثبت العالم ليمن هرش الاحصائي المدقق بجامعة جنيف ان خسارة اوربا من

الأهلين بسبب الحرب العالمية الأولى بلغ اثني عشر مليوناً او زاد عليها قليلاً . وهو رقمٌ قريب من خسارة اوربا في الجنود الذين قتلوا في المعارك او توفوا متأثرين بجراحهم او بأحد الأمراض

***

ان مشكلات الطب والصحة العامة في اثناء الحرب لا تختلف في اصولها عما يقابلها في اثناء السلام. ووجه الاختلاف في الكثرة واتساع النطاق وتمهد الطريق لاستفحال العدوى وانتشار الامراض بسبب النقص الغذائي الذي تفرضه احوال الحرب على الأهلين وكذلك التمرض لشتى العوامل ومنها تقلب الحالة النفسية بين الخوف والطمأنينة واليأس والأمل

والواقع ان تحوُّل الحرب الحديثة الى حرب كلية محا الفوارق القديمة بين القوات المسلحة والشعب . فخط القتال انتقل الى شارع المدينة وساحة القرية وجعل البيت والدكان والمصنع والمدرسة والمعبد جميعاً أهدافاً للهجوم . فطب الجيوش غدا لا يفرق في شيء ما تقريباً عن الطب الأهلي والصحة العامة في اثناء السلام

وليس ثمة ريب في أن الصحة العامة تتأثر بكل ما يؤثر في صحة الفرد وهو مجموعة من العوامل المتفرقة منها ما يُسندُ الى الوراثة ومنها ما يعزى الى البيئة ومنها ما يرجع الى تفاعل الوراثة والبيئة في جسم الانسان وما يتصل بهذا التفاعل من حالةٍ تواضعنا على تسميتها أو وصفها بالحالة النفسية او العصبية . ومن أغرب ما يروى في هذا الصدد زيادة الاصابات ببعض الحالات الناشئة عن اضطراب الغدد ولا سيما الغدة الدرقية في اثناء الأزمة الاقتصادية العالمية وكذلك في السنة الثانية من الحرب الحالية في نيويورك وهي السنة التي تفاقمت فيها الحرب في اوربا وبدأت أميركا تتأهب لمساعدة بريطانيا وتعدُّ عدتها للدفاع عن نفسها . وتدل البحوث الاحصائية الطبية الأميركية ان حالتي النزف الخفي والتهاب الكليتين بلغتا أعلى معدلها في السنة الاولى من بعد خوض الولايات المتحدة معترك الحرب العالمية الأولى . ثم في السنة الثانية عاد المعدَّل الى مستواهُ المعهود من قبل . والحالتان متصلتان بارتفاع ضغط الدم ، وضغط الدم متصل بالحالة النفسية والعصبية ، فلا غرو ان يكون نشوب حربٍ او تفاقم ازمةٍ وهما من أبعث البواعث على اضطراب الخواطر سبباً في زيادة حالات مرضية منوعة

فبحث موضوع « المرض والحرب » وما طرأ من جديدٍ على الصلة بينهما يقتضي رسائل مطولة او كتباً ضخمة . ولكن ما لا يدرك كلهُ لا يترك كلهُ ولذلك سنعالج في ما يلي من الصفحات ناحيتين من هذا الموضوع، لعلَّهما كانتا في الماضي أحفل النواحي بتأثير الحرب في صحة الجيوش والشعوب وهما الجوع والوبأ (١)

(١) الاعتماد في هذا المقال على فصل في مجلة هاربر الاميركية للكاتب العلمي جورج غراي

٢ — الجوع والحرب

لم تكد تنتصف سنة ١٩١٨ حتى كان الطعام قد قلَّ في المانيا والنمسا وكثرت الأمراض الناشئة عن نقص الغذاء. ومنها أمراض ظُنَّ أنها معدية كالبلاجرا، وهو مرض نعلم الآن ان مردَّهُ الى نقص خاص في بعض أصناف المواد المغذية. وانتشرت في أوربا ملايين من الاصابات بما وصف حينئذٍ بلفظي « الاستسقاء الوبائي »، وهذا الوصف أطلق أولاً في الهند على مرض ظهر وتفشَّى في أثناء القحط العظيم (١٨٧٦ — ١٨٧٧) وظُنَّ كذلك انهُ معدٍ. ولكن الحرب العالمية الأولى أثبتت ان مردَّهُ على وجهٍ خاص الى نقص البروتين في ذلك الحساء المائي الذي تعوَّد الناس تناوله لملء بطونهم. فنشأ عن هذا النقص انتفاخ البطون وتورُّم السيقان وعمَّ الكساح كذلك ولاسيما في جماعات معينة وبخاصة مدينة فينَّا

وكانت الجيوش تفضَّل على الأهالي في ما يصيبها من مواد الطعام ولكنها مع ذلك عانت كثيراً من هذا القبيل. فالجيش الايطالي مثلاً يعنَّف تعنيفاً ساخراً كلما ذكرت معركة كابورتو التي خذل فيها خذلاناً شائناً في سنة ١٩١٧ ولكن مؤرخي « طب الحرب العالمية الأولى » يقولون إن تقريعنا الايطاليين يخفُّ متى علمنا انهُ عندما نشبت المعركة كان قد مضى على الجيش الايطالي تسعة أشهر وجرايته أقل كثيراً من الجراية العادية وشبح الجوع يصاحبهُ ليل نهار

كان علم الأطباء بأصول الغذاء يسيراً مشتتاً من خمس وعشرين سنة. ولكنهُ تقدم في خلال هذه السنين تقدماً عظيماً من شأنهِ ان توقى الجيوش والشعوب جانباً كبيراً من آثار الجوع. كان مقدار الحرارة الذي يولده طعام ما أساس «علم الغذاء» في عرف الطب قبل ربع قرن من الزمان. ووحدة الحرارة (الكالوري) كانت الشمار والمقياس. نعم كان فريق من الباحثين قد كشف قبل سنوات عن عوامل غذائية اضافية لا يصلح طعامٌ ولا يتمُّ بدونها. وجرَّب بعضها تجريباً مقنعاً. ولكن جل هذا البحث كان محصوراً في معامل البحث. حتى كلمة « فيتامين » — وهي اللفظ الذي عرفت بهِ هذه العوامل الغذائية — لم يعترف بها إلاَّ في سنة ١٩٢٠ (استعملها أولاً الباحث فونك في سنة ١٩١١ وأطلقها على العامل الغذائي المقاوم للبريبري وهو العامل المستخرج من قشور الرز)

أما الآن فعدد الفيتامينات المعروفة لا يقلُّ عن ثمانية. والأطباء وعلماء التغذية على علم غير يسير بتركيبها وتأثيرها والأمراض التي تنشأ عن نقصها وكيف تصنع في معامل التركيب الكيميائي من مواد غير عضوية. وقد كشف الطب كذلك ما لبعض المعادن من تأثير عظيم في الغذاء، فمقادير يسيرة جداً من الكلسيوم والفصفور والحديد واليود وغيرها تقدم وتؤخر كثيراً في حالة المرء الصحية. وهذه المعارف مهدت السبيل لصنع مركبات مركزة تحتوي على هذه المواد

المغذية اللازمة للحياة فتضاف الى الطعام العادي وتجهّز صاحبها بعناصر كانت ممتنعة عليها إما لجهله بها وإما لتعذر فوزه بالمواد الأصلية التي تحتويها كالليمون واللبن والفاكهة والخضراوات وما أشبه. ومن هذه المركّبات مركّبان صنعها الدكتور هرس أستاذ كيمياء التغذية في معهد ماستشوستس التكنولوجي أساس أحدهما مزيج من دقيق الحنطة وفول الصويا وأساس الآخر مزيج آخر من الحبوب . وقد أضيف الى كلٍّ من المزيجين الفيتامينات والأملاح الضرورية . ولم يضف اليهما فيتامين C لأن الحصول عليه ميسور في عصير الطماطم الغضّ . ويقول الدكتور هرس ان مقدار ثلثي الأوقية من أحد المزيجين يكفي حاجة رجل الى الفيتامين والبروتين والملح في اليوم. فاذا أضيف الى طعام أيًّا كان تركيبهُ فاز جسم الرجل بما يقيهِ غائلة الجوع الصحيح. وصنع أستاذ في جامعة كاليفورنيا مزيجاً آخر من هذا القبيل وأفرغهُ في قالب حبوب كحبوب النعناع

قلنا « الجوع الصحيح » . والواقع ان الجوع في عرف العلم الحديث جوعان. أحدهما جوع البطن يكفيهِ موادّ تملؤه ولكنها قد لا تحتوي على جميع العناصر اللازمة للحياة . والآخر جوع النُسُج الحية في الجسم وهو الجوع الذي لا يكفيهِ الاّ حصول تلك النسج على ما يلزمها من الفيتامينات والأملاح وغيرها من العناصر الحيوية [1]

هذه الحقائق حملت الحكومة البريطانية على تعزيز الدقيق الذي يصنع منه الخبز في المخابز على اضافة فيتامين B_1 (ب ١) اليهِ وكذلك عنصر الكلسيوم. وجارتها الحكومة الأميركية في ذلك [2]

وليس في وسع احد ان يحكم الآن في هل تصاب اوربا القارّة بأحوال من قلة الغذاء تماثل ما أصيبت بهِ الدول الأوربية المتوسطة في الحرب العالمية الأولى . ولكن لا ريب في ان البلدان المحتلة بدأت تصاب بنقص الغذاء واذا طال الصراع زاد نقص الغذاء. نعم ان المكتشفات الحديثة في علم الغذاء قد تمنع بعض عواقب القلة ، ولكن الفيتامينات لا تركب والاملاح لا تستخرج الاّ من المواد اللازمة لها والمحتوية عليها . وعلاوة على ذلك يجب ان يتوافر لها العمال المتقنون وهؤلاء على الغالب من خيرة المتعلمين وربما تعذّر الاستغناء عنهم في معامل الأسلحة لكي ينهضوا بتركيب الأغذية للجماهير

ومع لزوم الفيتامينات والاملاح للصحة التامة فالجسم لا يستطيع ان يستغني عن مواد الطعام الاخرى التي « تملأ البطن » . والمرجح ان نقص الطعام في قارة أوربا أمرٌ قد لا يفضي في هذه الحرب الى موت ملايين جوعاً كما ماتوا في اثناء القحط الروسي سنة ١٩٢٠ ولكنهُ قد يكفي لبث الوهن في قواهم فيصبحون عرضة لفتك الامراض اذ تكمل الميكروبات ما بدأه نقص الغذاء

(١) راجع مقال « البحث العلمي الحديث في الصحة والمرض والجوع » — مقتطف مارس ١٩٤١ ص ٢٢١

(٢) راجع مقال « دقيق مشبع بالفيتامين » مقتطف مايو — ص ٤٦٩

٣ — الوباء والحرب

يمهد الجوع الطريق لتفشي الأوبئة ، لأنه يضعف الأجسام فتعجز عن مقاومة الجراثيم . وأشهر الأمراض التي يخشى تفشيها في الحرب الحالية هي الانفلونزا وذات الرئة والحمى المخية الشوكية والدوسنطاريا وحمى التيفوس والبرداء (الملاريا) . فكل مرض من هذه الأمراض كان له نصيب في ماحصده المرض بوجه عام من النفوس في الحرب العالمية الأولى . والدلائل تدل على وجود آثارها جميعاً في اوربا مع أن مرضاً منها لم يتفش تفشياً وبائياً . ومن الجائز ان يتفشى أحدها أو مرض آخر قبل انتهاء هذا الصراع كما تفشت الانفلونزا [1] في الحرب العالمية الأولى وبعيدها

ولكن للطب وسائل لكفاح هذه الأمراض لم تكن متاحة في اثناء الحرب العالمية الأولى . نعم أن الملاريا لا تزال متحدية الاطباء فلم تقهر تماماً . وفي وسع طفيليها أن يختبىء في النسج أحياناً فلا يتأثر بفعل الكينين . فيبدو وهو مختبىء أنه قهر ، ثم يعود الى الظهور فيصاب صاحبه بالقشعريرة والحمى . ومن نحو عشر سنوات صنع في ألمانيا عقار بالتركيب الكيميائي يدعى اتبرين Atebrin يفوق الكينين في علاج الملاريا من وجوه شتى . ولكنه غال واستعماله محدود بعوامل أخرى . ورأي الاطباء أنه لا بد من عقار آخر لقهر الملاريا قهراً تاماً . وقد اهتمت حكومة الولايات المتحدة الأميركية بالموضوع ، من وجهة الدفاع القومي فعينت مصلحة الصحة العامة فريقاً من أبرع باحثيها للاهتمام بتركيب عقار من هذا القبيل . والغالب ان هؤلاء الباحثين يستمدون أملاً كبيراً في احتمال النجاح مما رأوه من نجاح السلفانيلاميد ومشتقاته في علاج امراض كثيرة علاجاً ناجعاً

ومن الامراض الفتاكة التي عولجت علاجاً ناجعاً بأحد مشتقات السلفانيلاميد مرض الحمى المخية الشوكية . فقد كانت هذه الحمى في الحرب العالمية الاولى مصيبة الخنادق اذ تفشت فيها وباء حاصداً وكان الاسرى يعرفونها باسم «حمى المعسكرات» او «حمى المنقلات» . وكانت تنتشر حيث يحتشد اللاجئون او حيث يزدحم الناس في احوال من المعيشة لا تتيح لهم أسباب النظافة والغذاء الوافي . وكان معدل الوفيات بها ثمانين في المائة من الاصابات

وقد ظهرت اصابات هذه الحمى في مستهل هذه الحرب . ومن عهد قريب وضع أحد الأطباء العسكريين تقريراً فنياً وافياً عن ١٢٤ اصابة في أحد المستشفيات الخاصة بعزل المصابين بها حدثت في شتاء ١٩٣٩ وربيع ١٩٤٠ ومما جاء في هذا التقرير ان استعمال عقار مشتق من السلفانيلاميد يدعى صولوسبتسين Soluseptasine في علاج هذه الحمى أفضى الى خفض معدل الوفيات الى ٣ في المائة (كان في الحرب العالمية الاولى ٨٠ في المائة) . وكان بعض هذه الاصابات شديداً

(١) راجع مستهل مقال الانفلونزا مقتطف ابريل ١٩٤٠ صفحة ٣٦١

حاداً — ألمٌ شديد وقسمات شوهها الالم وشفاهٌ رمادية وعضلات متصلبة ، وكان بعضهم قد بدت عليهم عوارض الجنون وبعضهم قد فقد وعيه . ومن هذه الاصابات اصابة جندي ظن انهُ مات.كان منظره منظر جثةٍ ورائحتهُ رائحة جثةٍ.لم يكن لهُ نبض يجُسّ ولا تنفّس يُحسّ وكان جسمه مغطّى ببلطخ قرمزية وكانت اوردته مطبقة فيشقّ على الطبيب تبيُّن احدها لحقنه فيه بالعقار العجيب . فلما وجده كان الدم الذي دخل الحقنة منه اسود

حقن هذا الجندي حقنتين بهذا العقار (صولوسيتمين) بينهما اربع ساعات فنزع من براثن الموت

* * *

من الامراض التي تفشت في فرنسا وغيرها من البلدان المحتلة في الخريف الماضي وظهرت بوادره في بريطانيا مرض الديسنطاريا الباشلسية.وقد حضّرت مصول مختلفة من دم ناقهين من هذا المرض واستعملت في مكافحتهِ فأسفرت عن بعض الفائدة . ولذلك عنيت اللجنة المختصة في اميركا بارسال مقادير من هذه المصول الى بريطانيا.ولكن يلوح ان السلفانيلاميد سيكون المعين الذي يؤخذ منهُ عقار لعلاج هذا المرض.ففي أحدث الانباء من مستشفى جامعة جونز هبكنز — وكليتها الطبية مشهورة — ان عقاراً مشتقاً من السلفانيلاميد يدعى سلفا جوانيدن — واسمه الكامل Sulfanilylguanidine علاج نوعيٌّ فعال ضد باشلس الديسنطاريا وكذلك ضد باشلس التيفود وهذا العقار جديد ولم يكن متاحاً في يناير من هذه السنة ولكن شركة كالكو الكيميائية التي تصنعه وزعت مقادير منهُ على الاطباء لمتابعة امتحانه السريري

وكانت ذات الرئة من الامراض التي فتكت فتكاً ذريعاً في أثناء الحرب العالمية الاولى بالقوات المسلحة فمات بها واحد من كل اربعة اصيبوا بها . ولكن الطب تقدم تقدماً عظيماً في مكافحتها بالمصول وبعقارين مشتقين من السلفانيلاميد هما عقارا السلفابيرادين والسلفاتيازول . فهذان العقاران علاجان نوعيان ضد ذات الرئة الناشئة عن ميكروب «النوموكوك».وقد يستعمل احدهما مع احد المصول في الحوادث الخطيرة . والسلفانيلاميد نفسه ناجع في علاج ذات الرئة الناشئة عن ميكروب الستربتوكوك . وعقار السلفابيريدين من المواد التي يحملها كل جندي بريطاني فيستعمَل عند الاصابة بجرح او في المرحلة الاولى من العلاج

ولا يخفى ان الضربة القاضية في الانفلونزا تجيء على الأكثر عن طريق ذات الرئة.ولما كانت عقارات السلفانيلاميد فعّالة ضد البكتيريا المحدثة لذات الرئة فلا بد ان تكون ذات فائدة في انقاذ المصابين بالانفلونزا من الضربة القاضية . ولكن هذه العقارات لا تأثير لها — على ما يلوح — في ميكروب الانفلونزا فهو « فيروس » (راجع مقال الانفلونزا الذي تقدم ذكره) يخشى شرهُ كثيراً في اثناء هذه الحرب . وقد بذلت مساعٍ كثيرة لاشتقاق عقار من السلفانيلاميد يبطل فعل فيروس الانفلونزا فلم تسفر عن نجاح ما حتى الآن

ولكنَّ النجاح في مكافحة الانفلونزا جاء من ناحية اخرى إذ كشفت طريقة لصنع لقاح ضدّ الانفلونزا . وكان الكشف اتفاقاً في معامل معهد ركفلر بنيويورك . ففي نوفمبر سنة ١٩٣٩ كان الدكتور هورسفول Horsfall والدكتور لينت Lennette يجريان التجارب بينات عرس ملقحة بڤيروس الانفلونزا واتفق أن أصيبت اربعة من هذه الحيوانات بمرض يصيب الكلاب ويعرف باسم Distemper فلما حضّر مصل من هذه الحيوانات الاربعة ظهر ان الحقن به يقي الحيوان المحقون من الانفلونزا . ذلك بان الحقن بهذا المصل يولّد في الدم اجساماً مضادّة للانفلونزا . وتعدَّدت الامتحانات فثبت أن هذا المصل ينشيء مناعة ضدّ الانفلونزا مداها ستة أشهر. وقد يكون مداها أطول من ذلك. ولكن فعله الصحيح لن يعرف قبل أن تتاح تجربتهُ في حالة طارئة يتفشى فيها مرض الانفلونزا . غير ان جميع التجارب السريرية والعملية تبشر بالنجاح. وقد طعم عشرات الالوف من الاميركيين به وأرسلت مئات الالوف من جرعات هذا المصل الى بريطانيا في اثناء الشتاء الماضي

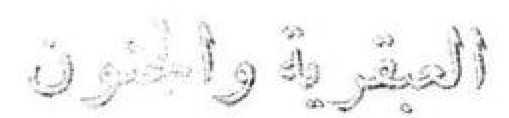
وحمى التيفوس من الأمراض التي تتفشّى في الحروب . وهي انواع منها نوع متوطن في المكسيك وشيلي والجزائر وبلدان أخرى معظمها استوائي . وهو يصيب الجرذان وينتقل منها الى الانسان بالبراغيث وحشرات اخرى . ونوع اخرى يعرف بالأوربي وهو أشد وأعنف من الاول وقد فتك فتكاً ذريعاً في اثناء الحرب العالمية الاولى في سربيا وبولونيا وروسيا وهو مرض يصيب الانسان وينتقل من امرىء الى آخر بالقمل . وفي البلقان بقية منهُ مختبئة . وفي اميركا نوع آخر يعرف باسم « الحمى الرقطاء » أو « حمى الجبال الصخرية الرقطاء » . وهو مرض يصيب الضأن وينتقل الى الانسان بواسطة القراد tick ومع انحصاره في مناطق المراعي في الشمال الغربي من الولايات المتحدة حدثت اصابات به في الساحل الشرقي

ووجه الشأن في ذكر « الحمى الرقطاء » جنباً الى جنب حمى التيفوس الفتاكة أن طبيباً اميركيًّا يدعى كوكس كشف من عهد قريب وهو يبحث في « الرقطاء » طريقة دقيقة بارعة لصنع مصل يقي من التيفوس . نعم سبقهُ باحثون الى صنع المصل ولكنهم واجهوا مشقةً عظيمة في صنع مقادير وافرة منهُ . فاتخذ الدكتور كوكس جنين الفرخ (الكتكوت) في البيضة مزدرعاً له. ذلك بانهُ ثقب في البيضة ثقباً بعد انقضاء خمسة أيام أو ستة على حضنها ثم أدخل الميكروب في كيس الصفار فوجد ان الميكروب يتكاثر هناك تكاثراً عجيباً وبذلك حُلّت مشكلة « المقادير » و « النفقة » التي حالت دون صنع المصل قبلا . وقد صنع احد المعامل الاميركية ألوفاً من الجرعات بهذه الطريقة وأُعطيت لجمعية الصليب الاحمر الأميركي لتجربتها في بلد بجنوب أوربا الشرقي يكثر التيفوس في احد مناطقه ولكن الاحوال السياسية حالت دون ذلك . فاستعمل بعضها في هنغاريا

بشار بن برد

في الحرب

وكنا اذا دبَّ العدوُّ لسخطنا	وراقبنا في ظاهرٍ لا نراقبه
ركبنا له جهراً بكل مثقفٍ	وأبيضَ تستسقي الدماء مضاربه
وجيشٍ كجنح الليل يزحف بالحصى	وبالشوك والخطّيُّ حمرٌ ثعالبه
غدونا له والشمس في خدر أمها	تطالعنا والطلُّ لم يجر ذائبه
بضرب يذوق الموتَ من ذاق طعمه	ويدركُ من نجى الفرارُ مثالبه
كأنّ مثارَ النقع فوق رؤوسنا	وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبه
بعثنا لهم موت الفجاءة إننا	بنو الموت خفّاق علينا سبائبه
فراحوا فريقٌ في الأسار ومثله	قتيلٌ ، ومثلٌ لاذ بالبحر هاربه
اذا الملك الجبار صعّر خدَّه	مشينا اليه بالسيوف نحاربه



العبقرية والجنون

لعلي أدهم

فكرة العلاقة بين العبقرية والجنون ليست من الافكار الحديثة ، فقد لحظها القدماء وأشاروا اليها ، والمعروف عن افلاطون انه كان يتحدث عن جنون الشعراء المقدس ، ويؤثر عن ارسطو قوله «المبرزون في الفلسفة والسياسة والشعر والفنون كان يغلب عليهم النزوع الى الحزن والاكتئاب » ، ولمح ذلك درايدن الشاعر الانجليزي وعبر في شعره عن « اقتراب الذكاء من الجنون وان بينهما فاصلاً دقيقاً رقيقاً » وأكد هذه الفكرة في الأذهان وأرسخها على مرور الأجيال كثرة التقاء العبقرية والجنون

ومنذ سنة ١٨٠٠ اخذ البحث عن العلاقة بين العبقرية والجنون ينحو نحواً علمياً ، وقد وجه شوبنهاور شيئاً من الالتفات الى هذه الناحية ، وفي سنة ١٨٣٥ ظهرت أول ترجمة لسقراط من ناحية تطبيق المعلومات الجديدة عن العلاقة بين العبقرية والأمراض العقلية على حياة العظماء وكبار المفكرين وقد كتبها ليلي Lélut ، وفي سنة ١٨٥٩ ظهر كتاب مورو دي تور وقد تناول المسألة من الناحية العامة ، وقد اعتبر العبقرية حالة من احوال الأمراض العقلية سببها فرط احتياج المخ ، ولم يحاول مورو تحديد العبقرية او ان يلحق بها معنى من المعاني النسبية ، وهو يعتبر الرجال الذين قاموا بأعمال عظيمة في أية ناحية من النواحي عبقريين دون نظر الى اختلاف بناهم النفسي والذين يشايعونه على آرائه لا مندوحة لهم عن الاعتقاد بأن كل الذين نهضوا بجلائل الأعمال كانوا مجانين ، وقد ظن مورو ان رأيه لا يمكن ان يتسرب اليه الشك لأنه كشف عن الكثير من امارات الجنون في سير العبقريين ، وقد أحصى حالات كثيرة من هذا القبيل قبلها المؤلفون الذين جاءوا بعده وترسموا خطواته وبنوا عليها وأضافوا اليها ، وزادوا مركزهم قوة باضافة استكشافات جديدة ودراسة حالات طريفة

ومن أرقى المؤلفات في هذا الموضوع كتاب لمبروزو عن «الرجل العبقري» وقد اثار زوابع من الخلافات ودارت حوله مناقشات حادة وجدل عنيف ، وهو على شمول بحثه والمامه بنواحيه وغزارة معرفته لا يحاول تعريف العبقرية وتحديد معالمها . وفي الفصل الذي يقدمه يتحدث عن

فسيولوجيا العبقرية يذكر لنا ان العبقريين في الغالب «ساخنو الرأس مبرودو القدم» وهو يرى ان العبقرية تشبه الجنون من نواح كثيرة وقد أوضح في هذا الكتاب القيم ان بعض العبقريين — اذا أغضينا عن بعض شذوذهم — كانوا ابرياء من الجنون، وهو يذكر في قائمة هؤلاء سبنوزا وكولومب ودانتي وميشيل انجلو، ولكنه عاد بعد ذلك وغيّر رأيه واعتقد اننا لم نلمح مظاهر الشذوذ وآيات الجنون في حياة بعض العبقريين لنقص معلوماتنا عنهم او لأنها لم تسترع نظرنا

وفي القرن العشرين ظهرت بحوث مختلفة في هذا الموضوع ويعتقد الكثيرون انها أكدت ما ارتآه مفكرو اليونان . ومن الباحثين الذين يقولون بذلك البحاثة الألماني ولهلم لانج ايكباوم ، فهو يعتبر الجنون عنصراً من العناصر الرئيسية في تكوين العبقرية ، ومن انصار هذا الرأي البحاثة الانجليزي (نسبت) وقد تتبع في كتابه عن « جنون العبقرية » آثار الشذوذ ومظاهر الجنون في حياة الكثيرين من البارزين في نواحي الحياة المختلفة

والعلوم العقلية قائمة على التجربة ، وكل ما نعلمه عنها مستمد من التجربة والمشاهدة وقد عرفنا من التجارب ان هناك ضروباً من الاضطرابات النفسية تنتهي بفقدان الوعي وانهيار الاعصاب ، وفي احوال معينة أخذت القوى العقلية في الضعف والانحلال حتى عجز المريض في في نهاية الأمر عن العمل عجزاً تامًّا ، وبهذه الطريقة العملية المحضة استقر رأي الباحثين في الامراض العقلية على وجود ألوان مختلفة من الامراض العقلية لكل منها مظهره الخاص وسيره المعروف. وبموازنة حالات المجانين الذين لا موضع للشك في جنونهم بحالات عقلاء الناس ودراسة المميزات والفوارق النفسية بين الاثنين وصل علماء النفس الى معرفة الكثير من علامات الجنون ودلائل التياث الاعصاب

ويحسن ان نلاحظ هنا ان العلامات المصاحبة لبعض الامراض العقلية لم تكن هي في بادىء الامر الدليل على وجود تلك الأمراض ، بل الأمر على نقيض ذلك فقد أدرك العلماء أهمية تلك العلامات بعد دراسة عناصر المرض ، مثلاً في الاوقات السالفة لتقدم الامراض العقلية كان خداع الحواس يفسر تفسيراً صوفيًّا ومن قبيل ذلك الرؤى المقدسة ورؤية العفاريت ، ولكن دراسة الامراض العقلية هدّت علماء الامراض النفسية الى أن خداع الحواس في غالب الاوقات من العلامات المصاحبة للامراض العقلية

وبدراسة سير الامراض العقلية وما يطرأ عليها من تطورات وما يقترن بها من علامات استطاع علماء النفس ان يشخصوا الامراض العقلية في مراحلها الاولى حيث تغيب آثارها عن عيون الكثيرين ، وهذا كان من نتائج المشاهدة وثمرات التجربة

ولكن كل تجربة جديدة تحمل في ثناياها مشكلات جديدة ، وذلك لان المنهج العلمي

الصحيح يقتضي أن تستخلص النتائج من التجارب والمشاهدات ، وقد تزيف التجارب الجديدة النظريات السابقة لانها تناقضها مناقضة واضحة أو لانها لا تطابقها

من أمثلة ذلك انهُ قد لوحظ ان امراضاً عقلية كثيرة مثل البارانويا وأنواع الملانخوليا والشذوذ العقلي كانت مصحوبة في الغالب بخداع الحواس، ثم كشفت التجارب بعد ذلك ان كثيراً من العبقريين كانوا مستهدفين لخداع الحواس فهل نستخلص من ذلك ان هؤلاء العبقريين كانوا مجانين ؟ هذا هو الاستنتاج الذي انتهى اليه مورو ولمبروزو ، ولكن هل هو استنتاج منطقي جار على سنن التجربة والاصول العلمية ؟

وواضح من ذلك ان مورو ولمبروزو ومن لف لفهما يأخذون مسألة ان خداع الحواس لا يحدث الا في حالات الجنون قضية مسلمة وحقيقة غير قابلة النقض او التبديل ، في حين أننا قد نلتقي برجل قد اختل ميزان عقله وشرد فكره وفقد وعيه فلا نرى مندوحة عن وصفه بالجنون ثم نلتقي برجل آخر قد أتى بأعمال باهرة أثارت الاعجاب والدهشة وهو يتصرف تصرف من يعي ما حوله ألا يقتضي ذلك ان نعد مثل هذا الرجل عاقلاً بلا ريب ؟

قال شارلز لامب «من الممتنع على العقل ان نتصور شكسبير مجنوناً » وفي رأيه هذا كثير من الحق والاصالة ، على ان جيتي معروف أكثر من شكسبير ، وقد كان مثالاً للرجل الكامل الشخصية المتعدد النواحي ، وقد حاز اعجاب من عاشروه جميعهم ، عده قوم اعجوبة من أعاجيب البشرية ، وقد ترك أثراً عميقاً في نفوس الذين كان لهم حظوة لقائه والتعرف اليه ، وقد كان مثالاً للرجل المكتمل العقل السليم الفهم ، وقد كان جيتي نفسه هدفاً لخداع الحواس وذلك باعترافه نفسه فهل نستخلص من ذلك انه كان كذلك مجنوناً ؟ أليس الأقرب الى المعقول في أمثال هذه الحالة ان نعترف بأن حسباننا خداع الحواس من علامات الجنون خطأ ؟ وان علينا ان نفرق بين خداع الحواس الذي يعرض للعقلاء وخداع الحواس الذي يلازم المجانين

وأهم علامة مميزة للعقل وسلامته وثبات بنيانه هي نمو العوامل النفسية نمواً متوازناً ، ولكن عند تقدير ذلك النمو والنظر في تفاوت نسبه يلزم أن ننظر الى مسألة الصحة والمرض نظرة واسعة شاملة ، فقد يمتاز بعض الناس بسرعة المضاء والمقدرة التنفيذية والكفاية العملية ، وقد يغلب على البعض حدة الشعور ويقظة الاحساس ، وليس عندنا هنا ما يبرر القول بأن أمثال هذه العقول قد تجاوزت منطقة الصحة ، وهذه الفروق الكامنة في علاقة العوامل النفسية بعضها ببعض هي التي يتكوَّن منها تنوع المواهب واختلافات الاخلاق

وكلما ارتقى الفرد في مراتب التقدم كثرت الخلافات ودقت التنوعات وتباينت العوامل النفسية ومن ثمَّ تتسع الزاوية التي ننظر فيها الى المسألة من ناحية الصحة والمرض ، ونحن

ويروى عن كرومويل انه كان في شبابه مستلقياً ذات يوم في فراشه وقد لازمه الاكتئاب فظهرت له امرأة ضخمة طوال وقالت له « انك ستصبح أعظم رجل في انكلترا » ولكن من يثبت لنا ان كرومويل وهو مستلق في فراشه لم يكن قد أخذته سنة من النوم وان المسألة كانت حلماً من الأحلام ؟

وتروى عن لوثر روايات من هذا القبيل ويمكن اخضاعها لنفس هذا التفسير والنظريات العلمية التي تقوم على ملاحظات مشكوك في صحتها لا يصح قبولها في يسر وسهولة ، ولا مفر من غربلة الاخبار التي تروى عن العظماء والتثبت من صحتها حتى لا نخطىء في استخلاص النتائج من المقدمات

على ان هذه الروايات على ما فيها من مبالغات وأوهام تنطوي على شيء من الحق ، فمن الحقائق غير المنكورة ان خداع الحواس كان يعرض لرجل لا خلاف في عبقريته وعظمة شخصيته مثل جيتي ، وقد لاحظ علماء الامراض العقلية ان خداع الحواس الذي يصيب المجانين له نظير عاقل في قدرة بعض الاشخاص على استحضار تأثرات الحواس ، وهذه القوة تنمو بدرجات متفاوتة في أمثال هؤلاء الاشخاص ، والصورة المستحضرة في الغالب أضعف من الاصل سواء في تخطيطها او في ألوانها ولكن في حالات نوادر لوحظ ان قوة الاستحضار قد نمت وبلغت حداً من التفوق لا مزيد عليه الى حد أنها صارت تعادل في الوضوح والقوة صورة الاحساس الأصيل . وقد روى لمبروزو عن أحد المصورين انه كان يكفيه ان يتأمل شخصاً ما مدة نصف ساعة ويستطيع بعد ذلك ان يستحضر أمامه صورة وهمية له ويشرع في رسمها بوضوح وثقة كأن صاحب الصورة لا يزال ماثلاً أمام ناظريه . ومن الخطأ وإساءة الفهم ان نعتبر هذه المقدرة ضرباً من خداع الحواس الذي يصيب المجانين لأن المصور يستدعي الصورة وفق ارادته ويسخرها لاغراضه الفنية ثم ينفيها بعد ذلك في حين ان الصورة التي تخيف الشخص المضطرب الاعصاب تأتي على غير رغبة . وكما ان الذاكرة تستطيع ان تستدعي تأثيرات الحواس فكذلك يستطيع التوهم — الذي تحدثت عنه في المقال السابق عن طبيعة العبقرية — ان يكوّن صوراً جديدة عليها طابع الخلق وميسم الجدة ، وفي الاشخاص ذوي الخيال القوي الخصب تصبح صور التوهم الخالق معادلة للصور التي تستدعيها الذاكرة في الوضوح والابانة بحيث تدنو من الصور الحسية الواقعية . ولمبروزو نفسه يقول عن المصور مونتينا Montina « كان يتصور انه يرى صورة ماثلة امامه قبل أن يشرع في تصويرها ، فاذا وقف بعض الناس بينه وبين المكان الذي كان يمثل فيه الصورة امره ان يتنحى ناحية أخرى ليتمكن من رؤية ما يصوّره » . وقدرة الكثيرين من عظماء الفنانين وبراعتهم في دقة الوصف

مرجعها هذه الصفة الملازمة لهم . والاشخاص ذوو التوهم السحري الخصب لا يستعصي عليهم خلق هذه الصور التي تعجز ذوي التوهم الجديب والذهن العقيم والذين يعيشون في عوالم الافكار المجردة

وقد عرضت لبعض عظماء الرجال حالات من خداع الحواس غير قائمة على الرغبة ، واكثر من ألمت بهم هذه الحالات من المستغرقين في العبادات والافكار الدينية مثل الأولياء والقديسين والمصلحين الدينيين . ولوثر يزعم انهُ رأى مرة الشيطان وقذفه بالدواة . وتختلف الآراء في اعتبار أمثال هذه الحالة من حالات المرض ، ففريق من علماء الامراض العقلية لا يراها مرضاً وفريق آخر يراها من علامات اختلال العقل ، والذين يعتبرونها مرضاً يعللون ذلك بخروج هذه الحالة عن المألوف ، ولكن لو كان الخروج عن المألوف في حد ذاته مرضاً لكانت العبقرية مرضاً لانها في صميمها ضرب من ضروب الشذوذ والخروج عن المألوف

ومن الحقائق المعروفة ان الايحاء قد يكون من البواعث التي تساعد على حدوث خداع الحواس ، فالجبان الرعديد قد يرى في المكان المهجور اذا ما أظلم الليل صوراً وأشباحاً ويخال عزف الريح وحفيف الاشجار ولولة وعويلاً ، والطفل القوي التوهم الذي فجع في والدته قد يصور له الألم اللاذع صورتها في السماء أو يسمعه صوتها ، وأمثال هذه الظواهر كثيرة وهي متوقفة على قوة التوهم ورقة العواطف . وقد كان لوثر يعتقد بوجود الشيطان ولذا كان خداع الحواس عنده ثمرة من ثمرات هذا الاعتقاد الراسخ . ورؤى القديسين والاولياء لا تجيز لنا ان نرميهم بالجنون فان الرجل الذي وقف حياته على الدين واعتقد بصحة مذهبه اعتقاداً لا يسمو اليه الشك وآمن بوجود الملائكة والشياطين ليس من المستنكر ان يرى في جيشان شعوره وفورة عواطفه رؤى دينية وصوراً قدسية ، ونابليون قبيل الوقعات العظيمة والحوادث الجسيمة كان يرى نجمه صاعداً في السماء . ومسألة ان خداع الحواس دليل اضطراب العقل مستمدة من التجارب ، ولو ان التجارب اظهرت لنا ان خداع الحواس لا يحدث الا في حالات اضطراب العقل لكان من حقنا ان نجزم باعتبارها علامة مؤكدة من علامات الجنون ، ولكن الواقع ليس كذلك فان المشاهد ان كثيراً من ذوي العقول الراجحة والبصائر النيرة وكبار الشعراء والفنانين استهدفوا لخداع الحواس

وخداع الحواس الذي يصح اعتباره من علامات الجنون هو الخداع الذي يؤثر على الارادة والوعي ويقلل مسؤولية الانسان عن أعماله

وهنالك مشابهة بين قوة التوهم عند الشعراء والفنانين وعلامات الجنون التي تميز فريقاً من المجانين ، فقد لاحظ الباحثون بين العلامات الدالة على الهستريا الميل الى الكذب وخداع

الغير ، وهذا الكذب لا تبعث عليه المصلحة الشخصية كالرغبة في الافلات من العقوبة وانما هو من خلق التوهم ، وأكثر هؤلاء الأشخاص المصابين بهذا الداء ضعاف العقول ، ولكن قوة التوهم فيهم ناشطة دائبة وهم يخالون ما يصوّره لهم التوهم حقيقة واقعة ، وبعضهم يميل الى غرائب المقارنات وعجائب المفارقات ويتوهم صلات خفية بين الافكار المتباعدة والمشكلات المتناقضة ، ويُكسب ذلك في بعض الأوقات تفكيرهم لمعة زائفة وقد يحسب الناظر السطحي ورمهم شحماً ويظن هوستهم عبقرية ، وهم لا يكتفون بانكار ما يتهمون به وانما ينكرون قصة مخالفة للحق ، وبعضهم لا يكتفي بتشويه الحقيقة وانما يضعون مكانها حواشي واضافات لا تمتّ اليها بسبب ، وهم يفعلون ذلك ليثيروا الاعجاب بهم والعناية بأمرهم . وهذا الضرب من التوهم موجود عند الشعراء والفنانين ، ولكنهُ عندهم ثمرة من ثمرات قوة الفكر في حين انه عند مرضى العقول من دواعي الاختلال ، وقد كان جيتي في طفولته يقصّ على أترابه أقاصيص من نسج خياله الخصب ويريهم لهم باعتبارها حوادث حقيقية وكان يعجب من تصديقهم لها

وفي المجانين والعبقريين دافع لا غلاب له يشبههم المصلحة الشخصية ولكنه عند المجانين يتجه الى توافه الأشياء وبعضهم يجرّ على أهله الشقاء والخراب لتعلقه بفكرة مستحيلة خاطئة واعتقاده بصحتها ولا يثنيه شيء عن متابعتها بعناية واهتمام في حين أن دافع الخلق عند العبقريين هو لبُّ لباب أكمل وأرقى ما في النفس الانسانية فهو الذي يبعث العالم النحرير على مصارعة المشكلات الفكرية ويحدو الفنان على خلق الآيات الفنية الرائعة ويغري الفاتح العظيم بطلب السيطرة والاستعلاء لا طمعاً في المال او الجاه وانما لأن حب التغلب والانتصار جزء من طبيعته وعنصر من عناصر وجوده . ويمتاز كبار الفنانين بتنوّع الحالات النفسية وتواليها وكذلك المجانين فهم هدف التنقل بين الجنة والجحيم والنزوات الطارئة والبدوات المتلاحقة من علامات الامراض العصبية وبخاصة الهستريا ، ولكن المشابهة هنا سطحية خارجية ، لان وفرة الحالات النفسية عند العبقريين دليل الحياة وفرط اليقظة

ومن شيمة عظماء الرجال انهم كلما انتهوا الى غرض من الأغراض وبلغوا غاية من الغايات طمحوا بأبصارهم الى قمة أعلى وغاية أبعد فهم في قلق مستمر وتطلع دائم لا يطمئنون الى حالتهم ولا يرضون عن انفسهم ، والشعور بالسعادة والغبطة من المشاعر المضنون بها على العظماء ومن ثمّ قول ارسطو ان الذين برزوا في الفلسفة والسياسة والشعر كانوا دائماً ميالين الى الاكتئاب . ولكن هذا الحزن يختلف عن الجنون وهو نتيجة محتومة لتركيبهم النفسي ، وأنفس ما في الانسانية هو هذا الشعور بالنقص وعدم الاقتناع بالنفس ونشدان العزاء والسلوان في العمل والخلق الذي يمتاز به العبقريون ، والذي يجعل الحضارة الانسانية مدينة لهم ومحسوبة عليهم

واستغراق الرجل العظيم في تفكيره وذهوله عما حوله قد يظهره في مظهر المجنون الذي لا يعي ما يحيط به ، ولكن وراء ذلك التشابه في المظهر الكثير من أوجه الخلاف والتباين فالمجنون يعجز عن إدراك ما حوله لضعف عقله وانحطاط تفكيره وفقدانه القدرة على الالتفات وحصر الفكر ومن ثم لا يعي ما يحيط به ، أما ذهول العلماء والفنانين فسببه فرط قوة الانتباه وشتان بين عقل شارد مخلوع العنان وعقل يستطيع ان يتابع تفكيره ويحصر جهده في ناحية بعينها حتى لا يعي سواها

ومن خصائص العبقريين علاقتهم بالبيئة التي يعيشون فيها ، والرجل الذي يشتهر بمواهبه الفائقة ويمتاز بين معشره بالسمو الفكري والعبقرية سرعان ما يجتذب حوله طائفة من المعجبين به القادرين لمكانته وكثيراً ما يندس بين هؤلاء المتملقون والأذناب ، فاذا كان من ذوي العبقريات المبكرة فانه يكون قد تعوّد الملق والاطراء وألف الاعجاب والاكبار فاذا وُجّه اليه بعد ذلك نقد فمن الطبيعي ان يتأثر به أكثر من غيره ممن ألفوا النقد وتعوّدوا المراجعة ، وربما غالى في ذلك وحسب الناقد عدوه الشخصي ، وقد يمتد غضبه من الناقد الى معاصريه جميعهم ، ثم يجيء العالم النفسي السطحي ويضرب هذه الحالة مثلاً لجنون الشعور بالاضطهاد غير ناظر الى الملابسات التي جعلت العبقري يبدو في هذا المظهر الشاذ

والرجل العادي قد تعوّد أن يكبح ميوله ويسيطر على اهوائه التي تعارض المجتمع وتخرج على تقاليده وسننه وألف الملاءمة بين سلوكه وأحوال البيئة حتى لا يبدو شاذاً متنافراً ، ولكن الرجل العبقري المشغوف بمراقبة دخائل نفسه وصور توهمه قد لا يلتفت الى صغائر الحياة اليومية ولا يعبأ بتفصيلاتها ولذا يبدو على حقيقته . ومن السهل ان تستشف ميوله وتقف على طبيعة أهوائه لأنه لا يحسن فن المداراة والتكتم واخفاء أهوائه وميوله على خلاف الرجل العادي

وقد قيل في تأكيد العلاقة بين الجنون والعبقرية ان كثيراً من العبقريين أصيبوا بالجنون مثل لوكريتس وتاسو ولينآو وسوفت وهلدرلين وموباسان وان بعضهم مات منتحراً مثل لسنج وكلايست وترفال ، ولكن مسألة إلصاق الجنون بالعبقرية لان بعض العبقريين أصيبوا بالجنون أو ماتوا منتحرين من المسائل التي لا يبت فيها الا عن طريق التجربة والمشاهدة وسبيل التجربة هنا هو عمل احصائيات دقيقة تبين عدد العبقريين الذين اصيبوا بالجنون وتثبت ان نسبة عدد المجانين في العبقريين اكثر من نسبة عدد المجانين في غيرهم من الناس ، ويقتضي ذلك ان تكون هذه الاحصائيات شاملة العصور القديمة والحديثة ومختلف الامم وان تراعى فيها الدقة التامة والحيطة الكاملة ويتيسر بعد ذلك أن نبني حكماً صحيحاً خالياً من الغرض وموسوماً بالميسم العلمي

ومجمل القول ان هنالك مشابه بين الجنون والعبقرية ولكن هذه المشابهات ليست مناط القرابة ، وهي كالمشابهة بين الذهب الابريز والنحاس الأصفر لا تعدو المظهر . والعبقري يفوق عصره ويسبق جيله وكثيراً ما يساء فهمه فيقرف بالجنون

الدار الاسلامية

في مصر

— ٢ —

للصاغ عبد الرحمن زكي

دولة المماليك البحرية

شيدت دولة المماليك الأولى القصور العالية التي تنافس الامراء في زخرفها وفرشها بشتى المفروشات مما جعل لجميع الفنون الزخرفية سوقاً رائجة في مصر ، فارتقت الصناعات وخصصت الاسواق للعمل في تلك المصنوعات . وقد أفاض المؤرخون في وصف عظمة تلك القصور بل وفي مقدار عنايتهم بالشوار الذي كانوا يعدّونه لأولادهم مما يعطينا أحسن فكرة عن مقدار البذخ والترف في ذلك العهد . وأمامنا مخلفات قصر (قوصون) المعروف الآن بقصر (يشبك) وعند العامة (بردق) الذي يقع الى الجنوب الغربي من مدرسة السلطان حسن . ويطلق على هذا القصر اسم بيت السلطان . وقد شيده الامير (قوصون) ثم ملكه الامير يشبك واخيراً كان من نصيب الامير (اقفردي) الذي تحوّل اسمهُ الى (بردق) — وعمارة هذا القصر العظيم تحمل طابع القرن الرابع عشر

ولا ننسى قصر (بشتاك) وقصر الامير (يسري) تجاهه مما أعاد التسمية لهذا الشارع بعد الدولة الفاطمية وبقيت حتى اليوم ويشترك في أسلوبه المعاري مع قصر يشبك . وقد بني قصر بشتاك في مكان باب البحر احد أبواب القصر الفاطمي الشرقي . وكان في الاصل لبدر الدين بكتاش الفخري ثم آل الى أمراء السلطان الناصر محمد بن قلاوون بطريق الشراء الذي انشأه من جديد وذلك سنة ٧٣٥—٧٣٨هـ

وقد احتفظ الجزء المتوسط لقصر بشتاك الى الآن بقسم كبير من وجهته التي تطاول السماء رغم ما لحقهُ من تغيير وتبديل خلال السنين التي مرت عليه والى جانبي هذا الجزء المتوسط العالي المشتمل على قاعة كبيرة ذات اربعة ايوانات . أما الايوانان الجانبيان البحري والقبلي

(١) كتاب وصف مصر — ج ١٥ — ص ٥٥ و٦٥ ؛

فيتكونان من عمد تحمل طارات يعلوها شرفات صغيرة ذات عمد رشيقة . ويلحق به حجرة صغيرة لها سقف منقوش مذهب به اسم بشتاك . وقد عنيت ادارة حفظ الآثار العربية بهذا القصر وبهذه القاعة فأزالت الابنية الحديثة من الوجهة وأنشأت سقفاً جديداً فوق صحنها

ومن البيوت المصممة بنفس الأسلوب المعماري قصر (الناق الحسامي) (خير بك) الذي بقي منهُ لليوم قاعة قديمة . ونذكر ايضاً القاعة الكبيرة في قصر الامير (طاز) التي بقيت من ذلك القصر الفسيح والتي ما زالت تحتفظ ببعض الافاريز الملوّنة والكتابات المنقوشة وآثار بعض الزخارف الهندسية

ولم يبق من قصر محمد محب الدين الموقع (٧٥١ هـ) اليوم الا القاعة النادرة التي تعرف اليوم باسم قاعة عثمان كتخدا أحد أصحابها (١)

وفي أحد أحياء القاهرة بيوت أخرى على الطراز المعماري للقرن الرابع عشر منها تلك القاعة القديمة التي تحوّلت وأصبحت تعرف باسم (تربة الغنامية) . والقاعة الرحبة التي يطلّ بابها على شارع الأزهر الجديد والتي يطلق عليها اسم قاعة دار (محيي الدين يحيي) وتعرف اليوم باسم مسجد شرف الدين وهناك أيضاً الصالة المجيدة التي نعرفها اليوم باسم مدرسة حوش آدم (او مسجده)

ولا جدال في أن هذه القاعة بقية من بقايا قصر قاهري منيف وهي تشتمل على جزء متوسط يحيط به ايوانان جانبيان ، وهي كاملة الزخرف . وهذه المدرسة تشتمل على مجموعة متباينة في التفاصيل . فالقاعة تحمل تاريخ ١٣٦٧ او ١٣٧٧ والدهليز يحمل اسم طاشتمور (١٣٨٦) والدهليز الثاني عام ١٤٦١ والمأذنة وتجديد بناء الردهة والمدرسة يحملان تاريخ ١٤٨٦ ، وكان هذا الامير من عظماء رجال عهد قايتباي

ومقعد قصر ماماي — (مقعد بيت القاضي) وهو كل ما تبقى من مخلفات قصر عظيم ويعطي لنا صورة واضحة من العمارة المملوكيّة . وتقارُب عمارة هذا البناء مع مقعد السلطان قايتباي الذي شيده بالقرب من مسجده في القرافة يؤيد التآلف والتناسق لطراز البناء المدني في ذلك العصر

الدور المصرية في العهد التركي

والآن ننتقل الى الدار في العهد التركي (١٥١٧م)

لدينا في القاهرة ورشيد ودمياط أمثلة عدة من الدور المصرية منذ القرن السادس عشر ومعظمها يحتفظ بطابعه الأصلي وتكاد كلها تتفق في هندستها وان اختلفت في مواد بنائها . وأول

(١) راجع كتاب المؤرخة المعروفة مسز ديفونشير Rambles in Cairo — ويقع هذا البيت بالقرب من بيت القاضي بالجمالية

ما نلاحظه ان الطراز المعماري الذي أتبع لداخل البيوت واحد ، فالباب الخشبي مكوّن من ضلفة واحدة مزخرفة من الخارج بحلية كبيرة على شكل جامة بيضاوية تحيط بها اربع جامات صغيرات موزّعة على الأركان وهي ملوّنة باللون الأحمر وأطرافها الخارجية باللون الأبيض . وكثيراً ما تقابل الجامة الكبرى آية قرآنية أو عبارة منقوشة في وسطها « وهو الحيُّ الباقي »

وهذه النقوش قد تكون سوداء أو بيضاء اللون وكان لأكثر أبواب الدور سماعة حديدية وقفل خشبي . كما توجد في الغالب درجتان من الحجر لامتطاء صهوة الجواد او الحمار وتبعد عنها حلقة حديدية تستخدم في ربط حمار صاحب الدار[1]

ويعلو الباب عقد موتور صنجاته محلاة ومزخرفة تحيط به من أعلاه نقوش عربية . وفوق العقد « منور » من خشب مربع الخرط متوسط المقاس

وبطابق الدور الارضي نوافذ خشبية صغيرة عالية لا تسمح للسائر في الطريق او الممتطي ظهر جواد بمشاهدة ما يجري في داخل الدور . أما نوافذ الطابق العلوي فتبرز في الغالب قدماً ونصف وكانت تصنع من خشب الخرط فلا يخترقها سوى القليل من الشمس والنور أو الهواء . وفي كثير من الأحوال لا يكون خشب الخرط ملوّناً بل يترك على طبيعة لونه الأسمر — تصفُّ عليها القلل الفخارية اثناء الصيف ، وتعلو المشربية نافذة مستطيلة من خشب الخرط أو الأصابع الخشبية أو الزجاج الملوّن

وتتألف الدار في الغالب من طابقين او ثلاثة . ولكل دور من الدور الكبيرة فناء مربع الشكل (حوش) يصل اليه من الباب الخارجي بواسطة طرقة على شكل كوع ذات لفة أو لفتين وذلك لكي لا تسمح للسائر في الطريق بمشاهدة أهل الدار وهم في الفناء وعلى يمين الطرقة او يسارها توجد « مصطبة » مشيدة في أحد جانبي الطرقة يجلس عليها حارس الدار أو الخدم . وتوجد في الحوش بئر تتوسطه أحياناً أو على جانب منهُ وبقربه الأزيار التي تنقل اليها المياه في قرب الجلد بواسطة السقايين من الخارج لترشيحها وتبريدها لاستعمالها بالمنزل . وتطلُّ الغرف الرئيسية في الدار على هذا الفناء . ويلاحظ وجود عدة أبواب في الحوش تصل بها الى أجزاء الدار منها باب الحريم (مثلاً) وهو المدخل الموصل الى بئر السلم ويؤدي الى سكن ربّ الأسرة والسيدات والأطفال . وهذا الباب يكون دائماً أقرب الى الداخل من الطرقة

وفي الدور الأرضي توجد غرفة يطلق عليها المندرة (المنظرة) يستقبل فيها الزائرون من الرجال ولهذه المنظرة نافذة كبيرة أو نافذتان من الخشب

---

(١) راجع كتاب المستشرق الانجليزي ادوارد وليام لين . ص ١ — ١٨ Manners and Castoms of the Modern Egyptians

وفي المنظرة يوجد جزء من الارضية عند بين الباب والجانب المقابل ينخفض بضع بوصات عن أرضية الطرقة ويطلق على هذا الجزء « درقاعة »

وفي منازل الاغنياء تبلط ارضية «درقاعة» المنظرة بالرخام الابيض والاسود والقطع الصغيرة من البلاط الأحمر اللطيف المنسق التركيب، وفي وسط «الدرقاعة» نافورة (فسقية) تصبُّ ماءها في حوض غير عميق أرضيته من الرخام الملوّن بلون الأرضية المحيطة بها . ويقابل الباب في نهاية الدرقاعة رفٌّ من الرخام او الحجر يبلغ ارتفاعه اربعة أقدام يطلق عليه اسم « الصفّة » تقوم على عقدين أو أكثر وفي بعض الأحيان ترتكز على عقد واحد يوضع تحتها قليل من الأدوات المنزلية كالمبخرة والحوض والأبريق المستعملين للغسيل قبل وجبات الطعام أو بعدها أو للوضوء كما توجد بعض الأواني الزجاجية وفناجين القهوة فوق الصفّة. وتكون هذه الصفّة أحياناً مبلطة بالرخام او البلاط على أسلوب النافورة

والاستراد او الجزء المرتفع من ارضية المنظرة يسمى « الديوان » وفي هذا المكان تفرش الحصر والبسط وتوضع المقاعد على الأرض ملاصقة للحائط خلفها الوسائد والطنافس . وكثيراً ما يُرى في داخل جدران هذه الغرفة دولابين أو ثلاثة جميلة الصنع أبوابها من الخشب المشغول برشاقة وفن عجيبين وأحياناً تكون مطعمة بالعاج أو الصدف أو الأبنوس . والسقف الذي يغطي الديوان مصنوع من الخشب، ذو ميدات (عروق) محفورة يبعد الواحد عن الآخر قدماً قد تكون ملوّنة او مذهبة . أما جزء السقف الذي يغطي الدرقاعة لبيت أحد الأغنياء فكثيراً ما يكون أكثر زخرفة وابداعاً وتنوّعاً في الألوان . وفي منتصف السقف يعلّق القنديل النحاسي الجميل

وفي بعض البيوت توجد غرفة أخرى تسمى المقعد تكون على ارتفاع ثمانية او عشرة اقدام (٣ متر) فوق الدور الارضي تستخدم كالمنظرة لها واجهة مكشوفة ذات عقدين او ثلاثة وسياج قليل الارتفاع . كما ان هناك أيضاً مكاناً مربعاً يطلق عليه اسم «التختبوش» له واجهة مفتوحة في منتصفها عامود من الرخام ليحمل البناء الذي يعلوه صفت على جانبيه المقاعد الخشبية الطويلة المتقنة الصناعة والتي يغطيها نوع من الأنسجة الحريرية . وفي اثناء الصيف ترشُّ أرضية فناء (الحوش) بماء البئر فتكسب البيت نسيماً منعشاً

ومن بين حجرات الدور العلوي في الجزء الخاص بالحريم توجد غرفة يطلق عليها القاعة العلوية وهي قاعة ذات سقف عالٍ على كلا جانبيها ايوانان احدهما أكبر وأضيق من الآخر. وجزء من سقف هذه القاعة الذي يغطي « الدرقاعة » ويقسمها الى ايوانين كما قلنا مرتفع عن الجزئين الآخرين وبه «عرق شخشيخة» اجنابه مؤلفة من ألواح المشربيات وتعلوها قبة صغيرة وقد لا نجد في هذه «الدرقاعة» نافورة ولكن نجد أرضيتها مبلطة بطراز ارضية المنظرة

وهنا توجد صفّة جميلة وبعض الدواليب الأنيقة وعلى جدران هذه القاعة نجد عدة رفوف من الخشب مثبتة على كوابيل مزركشة تحمل عليها بعض الاواني الخزفية وفي الغالب تكون القاعة أجمل غرف البيت وهي صالون الدار الاسلامية — وتقام في هذه القاعة حفلات الاسرة ومجلس الموسيقيات (العوالم) تغنين على الدفوف والعود والقانون والطبلة . ويلاحظ في تخطيط الدار المصرية انه ينقصها النظام الذي يراعى اليوم فالغرف مختلفة العلوّ وأرضياتها ليست في مستوى واحد وعند التنقل يخطو الانسان عدة درجات ، والغرف المتجاورة يفصلها الحمّام

بعض الدور الاسلامية في القاهرة

والآن قبل أن نختم هذا المقال نعرّج على بعض احياء القاهرة القديمة لنأتي على وصف بعض دورها الأثرية التي ما زالت الى اليوم قبلة عشاق الفن الاسلامي ومحبي العمارة القاهرية [1]

بيت جمال الدين الذهبي

بحارة خشقدم سنة ١٠٤٧ هـ — (١٦٣٧م)

أنشأ هذا المنزل الخواجه جمال الدين الذهبي كبير التجار بمصر وهو يكاد يكون باقياً على حالته الاولى ومظهره الخارجي لا يستوقف النظر على ضد مظهره الداخلي فانه جدير بالاعجاب فعلى حوشه اللطيف يشرف من الجهة القبلية مقعد ذو عقدين متكئين على عمود من الرخام، ومن الجهة الشرقية تطل القاعة الكبرى ذات الليوانين تتوسطها (درقاعة) مغطاة بقبة صغيرة من الخشب . وجدران القاعة مكسوّة أسفلها بوزرة جميلة من الرخام الدقيق وبصدر القاعة مشربية لطيفة مطلة على الشارع تعلوها شبابيك صغيرة من الجص المحلى بقطع من الزجاج الملون ، وسقفا القاعة والمقعد محليان بالدهان المموّه بالذهب . ومما يلفت النظر في هذا البيت حمّامه الصغير الكامل النظام فضلاً عن السلالم الكثيرة المؤدية الى اجزاء المنزل المختلفة

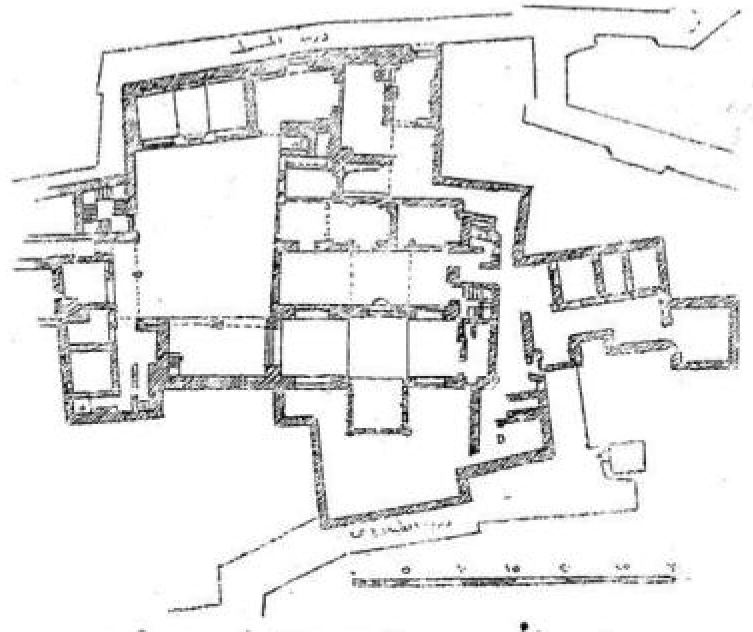
سراى المسافرخانة بدرب الطبلاوى

سنة ١١٩٣ هـ (١٧٧٩ م)

أنشأ هذه السراي محمود محرم احد تجار القاهرة . وهي مكوّنة من قسمين احدهما يجري انشاؤه سنة ١١٩٣ هـ (١٧٧٩م) وتتوصل اليه من درب المسمط . والآخر قبلي أنشىء سنة ١٢٠٣ هـ (١٧٨٩م) وتتوصل اليه من درب الطبلاوي الا ان القسمين ارتبطا احدهما بالآخر وصارا مبنى واحداً يتوصل اليه الآن من درب الطبلاوي

(١) راجع كتاب Edmond Pauty: Les palais et les maisons d'epoque Musulmane au Caire

الجزء البحري — يتكون من «دركاه» بها على اليسار باب يؤدي الى القسم القبلي وباب آخر يؤدي الى حوش مكشوف به على اليسار (الشرقي) باب يؤدي الى سلم ثانوي يوصل الى الغرف العلوية ويلي السلم قاعة ذات ايوانين بينهما (درقاعة) مفروشة بالرخام الملوّن . ويلي هذه القاعة باب يؤدي الى القسم القبلي ثم تختبوش سقفه قشر بلدي جميل



رسم الدور الأرضي بقصر المسافرخانة نقلاً « عن بوتي »

أما على اليمين ففي الجهة البحرية قاعة بسيطة يليها من الغرب السلم الرئيسي المؤدي الى جميع غرف الدور العلوي وأهمها القاعة الكبرى الراكبة فوق « التختبوش » والمشتملة على مجموعة قيمة من الرخام والنجارة وخصوصاً الشخشيخة . هذا فضلاً عن المشربيات الخرط المحيطة بالحوش

الجزء القبلي — يتوصل من بابه الاخير الى ردهة فسيحة تؤدي الى قاعة بأرضيتها فسقية رخامية دقيقة وجانبها القبلي كله من الخرط والسقف لا يقل فخامة عن سقفي التختبوش والقاعة العليا . ويلاحظ ان هذه هي السراي الاصلية بعد هدم اجزاء منها من الغرب والجنوب بسبب خللها

وبعد وفاة منشئها آلت الى الاسرة العلوية المحمدية فاتخذتها مقرًّا لضيافة الواردين الى مصر من الكبراء ولذلك عرفت (بالمسافرخانة)

منزل ابراهيم كتخدا السناري

حوالي سنة ١٢٠٩ هـ — (١٧٩٤ م)

هذا المنزل بحارة (منج) التي سميت بهذا الاسم نسبة الى مسيو (منج) احد علماء الحملة الفرنسية انشأه ابراهيم كتخدا السناري وَجِهتهُ بسيطة ليس فيها ما يهمُّ سوى الباب العمومي والمشربية التي تعلوه، وبالجنب القبلي للحوش تختبوش ومقعدٌ بابه مشحون بالزخارف وسلمهُ يؤدي الى بابين: الايمن منهما يوصل الى بعض حجر المنزل ثم الى القاعة الكبيرة والحمّام، والباب الايسر يؤدي الى المقعد والجناح الشرقي. وتنحصر مكانة المنزل في ان الحملة الفرنسية اثناء اقامتها بمصر سنة ١٢١٣—١٢١٦ هـ (١٧٩٨—١٨٠١ م) خصصتهُ لإقامة مصوريها وبعض علمائها ومنهم ريجو الرسام المشهور ومالاوس ولاتكريه وتبراج وجالوى. وفيهِ عملت الابحاث والرسوم القيمة التي نشرت في كتاب (وصف مصر) وفي المدة من سنة ١٩١٦ الى سنة ١٩٢٦ أقام بهِ جلياردو بك متحفاً باسم (بونابرت) أُغلق بعد وفاته ثم أُخلي من السكن سنة ١٩٣٣ [1]

بيت الشيخ عبد الوهاب الطبلاوي

الشهير ببيت «السحيمي» — بالدرب الأصفر ١٠٥٨—١٢١١ هـ (١٦٤٨—١٧٩٦ م)

هذا المنزل مكوَّن من قسمين. احدهما: وهو الجزء القبلي أنشأه الشيخ عبد الوهاب الطبلاوي سنة ١٠٥٨ — هـ (١٦٤٨م) وأهم مشتملاته القاعة الكائنة على يمين الداخل ثم القاعة الكائنة المشتملة على مجموعة قيمة من المشربيات والشبابيك الخرط الدقيقة الصنع

أما القسم الآخر وهو البحري فقد أنشأه الحاج اسماعيل بن الحاج اسماعيل چلبي سنة ١٢١١ هـ (١٧٩٦م) وأدمجه في القسم الأول وجعل منهما منزلاً واحداً

وهذا القسم أهم وأكبر من القسم الأول فهو يشتمل أولاً على قاعة بحرية كبيرة تعلوها حجرة مثلها ولكل منهما وجهة بحرية من الخشب الخرط الجميل مشرفة على الحديقة الكبرى ويقابل هذه القاعة قاعة اخرى غربية تتوسطها فسقية من الرخام الدقيق وبها نافورة تعدُّ من أدقّ وأجمل ما صنع من نوعها. ويكتنف هذه القاعة سلمان يؤديان الى الدور العلوي المشتمل ضمناً على قاعة راكبة على التختبوش هي أفخم وأجمل حجرات المنزل جدرانها مكسوّة بالقاشاني المنوع وبصدرى ايوانها دواليب دقيقة الصنع تنتهي من أعلاها بخورنقات تعلوها رفوف وضعت عليها مجموعة لطيفة من الأواني القاشاني وبالحجرة باب مطعم بالسن والزردشان من صناعة القرن العاشر الهجري. ووجهتها القبلية من الخشب الخرط الجميل

(١) راجع كتاب «في مصر الاسلامية» الذي طبعه المقتطف سنة ١٩٣٧ — مقال الاستاذ محمود أحمد باشا عن تاريخ العمارة الاسلامية بمصر

قصر محمد علي باشا بشبرا

وفي عام (١٢٢٣هـ — ١٨٠٨م) أمر المغفور له محمد علي باشا بإنشاء قصر خلوي في وسط بستان كبير في شبرا ، وقد بقي الى اليوم ، ويعرف بكشك الفسقية . وهو بناء مستطيل مسطحه ١٣٥٣٠ متراً تتوسطه بركة ماء كبيرة من الرخام في وسطها مجلس مستدير على هيئة جزيرة أحيط بسياج من الرخام ويحمل على تماثيل من التماسيح ، وكان الوصول اليه بزورق مذهب، وفي الأركان الأربعة لحافة البركة أسود رابضة تخرج المياه من أفواهها . وفي المثلثات التي ربضت عليها حفرت أنواع الأسماك بحركاتها وهي تسبح في الماء

ويحيط بالبركة عمد من الرخام تحمل السقف الحافل بالنقوش وبين هذه العمد سياج من الرخام المزخرف يحمل اصصاً رخامية بها زهور

وفي النواحي الأربع حجرات كبيرة احداها الشرقية القبلية المعروفة « بصالة الجوز » فرشت أرضياتها بخشب الجوز القيم وكسيت جدرانها بوزرة منه بها زخارف دقيقة ويعلو الوزرة طراز مزخرف ثم السقف الحافل بكثير من النقوش تتوسطه ثرية كبيرة كونت زخارفها من طيور ناشرة أجنحتها . وقد بقي في هذه الحجرة بعض أثاثها المنسجم مع طرزها . والحجرة الثانية في الركن الشرقي البحري وسقفها منقوش نقشاً عربيًّا ، وقد كتب في وسطه (محمد علي باشا — ابراهيم باشا) وكتب حولها (طوسون باشا — اسماعيل باشا — عبد الحليم بك — حسين بك — سعيد باشا) . والحجرة الغربية البحرية خاصة بالبليارد تتوسطها طاولة كبيرة كفتت بزخارف مذهبة

الخلاصة

وما زال في القاهرة عدد كبير من بقايا البيوت الأثرية ولاسيما ما كان يطل منها على الخليج قبل ردمه منذ نيف وأربعين عاماً . وقد أوردها المهندس الأثري المسيو ادمون بوتي في كتابه النفيس « قصور وبيوت القاهرة في العصر الاسلامي » الذي طبعه عام ١٩٣٣ . وفي هذا الكتاب استطاع المؤلف ان يصف حوالي ثلاثاً وستين دوراً موزّعة بين أحياء القاهرة القديمة : القاهرة البحرية التي تشتمل اليوم على حيّ الحسينية . ومن هذه الدور بيت البكري بالخرنفش وهو من طراز تركي شيد في عصر الوالي عباس الأول (١٨٤٨) . وبيت السلحدار . والقاهرة المركزية (الدرب الأحمر) والقاهرة القبلية (حي الخليفة والسيدة زينب) — وحي القلعة . ومصر القديمة — والقرافة الشرقية . . . الخ

ومن حسن حظ محبي الآثار الاسلامية ان تكون هذه البيوت الجميلة موضع عناية ادارة حفظ الآثار العربية ، وهي محط عطفها وتقديرها



كيف يصل الماء

الى رؤوس الاشجار الكبار

تجارب جديدة بجذور مفصولة عن نباتها

تتناول جذور النبات غذاءها من مصادر مختلفة . فمن التراب تتناول الماء والأملاح ، ومن ورق النبات السكر وغيره . فاذا فصلت جذراً عن نباته بقي في وسعه ان يتناول الماء والأملاح من التراب ، ولكنه يغدو عاجزاً عن أخذ السكر من الورق . فاذا غذيت الجذر بألوان الغذاء التي كان يتناولها من الورق والتراب مضى الجذر في نموه، على نحو ما فعل الدكتور كارل بعضل القلب من فرخ الدجاج . وقد عُني الدكتور فيليب هوايت أحد علماء معهد روكفلر بهذا النوع من البحث النباتي مدى العشر السنوات الأخيرة تخرج منهُ بحقائق شتى طريفة .

كان علماء النبات يعرفون شتى الأملاح التي يحتاج اليها النبات عندما بدأ هوايت بحثهُ. وكانوا يعرفون كذلك ان في نسيج النبات سكراً ، إما سكر قصب وإما جلوكوزاً . إلا ان غير واحد من الباحثين جرب صنع سائل مغذٍ لجذور النبات باذابة الأملاح والسكر جميعاً في ذلك السائل فأبت الجذور ان تنمو فيه ، وإذن فالجذور تتناول من الورق شيئاً او أشياء غير السكر على أصنافه ، فقال بعضهم إنها « أنوار » النبات ولكنهم كانوا يقولون هذا حزراً لا بناء على تجربة وتحقيق ، ولم يعرف الجواب الا بعد بحث طويل وتجريب دقيق

بدأ الدكتور رُبنز Robbins الأميركي تجربته باضافة قليل من الخميرة الى السائل المغذي المستعمل في تغذية جذور محفوظة في أنابيب الاختبار . والخميرة من المواد التي تحتوي على يسير من كل مادة مغذية . وحوالي ذلك الوقت (سنة ١٩٢٢) أضاف الدكتور كوت Kotte الألماني الى السائل المغذي قليلاً من خلاصة لحم البقر ، فكان من أثر زيادة هاتين المادتين في الحالين ان طال عمرُ الجذور قليلاً ولكنها كانت في الحالين تعجز عن المضي في النموّ بعد ذلك

وأقبل الدكتور هوايت على البحث نفسه في سنة ١٩٢٩ ومضى يبدّل ويعدّل في عناصر السائل المغذي مضيفاً اليه وحاذفاً منهُ ، قليلاً من الفوصفات أو الحديد او غيرهما . ولكنهُ مع ذلك داوم على استعمال خميرة الدكتور رُبنز الى ان وفق الى مزيج تعيش فيه الجذور وتنمو وكان قد انقضى عليها خمس سنوات وهي نامية في أنابيب اختباره عند ما كتب هذا الكلام من عهد غير بعيد ، ومن أغرب ما رواهُ أن بعضها زاد طولهُ بوصتين في يوم واحد

وتركيب سائله المغذي ليس ثابتاً لا يصيبهُ التغير ، فالخميرة فيه لا تزيد على جزء من عشرة آلاف جزء من الماء ، وقد يضيف اليهِ قليلاً من خلاصة لحم البقر او يسيراً من « فبرين » الدم ، او اليرا . ولكن الخميرة أفضل مصدر لكل ما تحتاج اليهِ الجذور عدا أصناف السكر والملح

ومما استوقف نظر الدكتور هوايت ان الجذور المفصولة عن نباتها تبدو كأنها تحتاج الى نفس عناصر الطعام التي نحتاج اليها نحن . إلاَّ أن هذا الخاطر لم يمنعهُ عن البحث بحثاً دقيقاً غرضهُ معرفة عناصر الطعام أو الحياة التي تستمدُّها الجذور من الخميرة . وهذا البحث استغرق ثلاث سنوات في مختبر الكيمياء الحيوية . فوجد ما أيَّد خاطرهُ المتقدم الذكر اي وجد أدلة على شدة الشبه بين ما يحتاج اليهِ النبات وما نحتاج اليهِ نحن من عناصر الغذاء . ذلك بأن البحث مدى ثلاث سنوات في الخميرة أسفر عن انها تمدُّ الجذور بثلاث طوائف من عناصر الغذاء ، اولاً — الاحماض الامينية وهي التي لا تستغني عنها ونصيبها في اللحم المشويّ مثلاً . ثانياً — فيتامين B الذي نصيبه في النبات الاخضر وغيره . ثالثاً — اليود الذي نتناوله في الملح الذي أدخل في تركيبهِ قليل من اليود أو من هواء البحر أو ما اشبه . فاذا غذيت جذور الطماطم المفصولة عن نبات الطماطم والمحفوظة في أنابيب الاختبار ، بالسكر والبروتين والفيتامين والأملاح اللازمة نمت كما لو أدخلت في سائلها المغذي مقداراً من الخميرة . واذا كنا في حاجةٍ الى دليل اضافي على ان اوراق النبات تركب البروتين والفيتامين فهذه التجربة بالجذور وتحليل الخميرة هي هذا الدليل.

ونمو الجذور في أنابيب الاختبار يختلف عن نموّ قطعة من عضل قلب الفرخ (تجربة الدكتور كارل) فعضل قلب الفرخ ينمو منتشراً في السائل المغذي لا شكلَ له ولا قوام . فلا يتحوَّل قلباً سويًّا. ولكن قطع الجذور تنمو جذوراً سوية فيها جميع مقوّمات الجذور ومنها الخيوط أو العروق الممتدة فيها من تحت الى فوق ، وهي الأداة التي تعتمد عليها الجذور السوية في نقل الاملاح والماء الى جذع الشجر فالى الاغصان والورق

وأراد الدكتور هوايت ان يعلم سبب نموّ هذه الخيوط او العروق في الجذور التي في انابيب الاختبار . ولا يخفى إن من أقدم المسائل التي حيَّرت ألباب العلماء مسألة ارتفاع الماء من جذور الأشجار الى ذرى الأغصان . فالماء بحسب ما عليهِ العلم والاختبار علينا لا يرتفع إلاَّ بتأثير الضغط او الامتصاص . فما القوة التي ترفعهُ من الجذور الى ذروة شجرة علوها مائة قدم أو مائتان أو ثلاثمائة قدم . هذه مسألة في علم النبات لم يجب العلماء عنها جواباً شافياً

ولكن من نحو قرنين من الزمان كان في انكلترا قسيس عالم يُدعى اسطيفان هايلز Stephen Hales وهو اول من قاس ضغط الدم في الحيوان ثم عكف على دراسة النبات فتوصل الى القول بأن في النبات ضغطاً كذلك « هو ضغط عصير النبات Sap Pressure » وان الجذور تفعل فعل المضخات فتدفع العصير في عروق النبات داخل الجذع والاغصان ، وبهذا

الأسلوب يرتفع الماء الذي تمتصهُ الجذور من الأرض الى ذرى الاشجار الكبار

وظل رأيهُ مقبولاً مدى قرن وربع قرن من الزمان . ولكن فريقاً من الباحثين لم يقتنع بهِ ذاهباً الى انه لا يحتمل ان تستطيع الجذورُ توليد ضغط يستطيع أن يدفع الماء في الشجر أكثر من خمسين قدماً . واعترض غيرهم اعتراضات أخرى عليهِ فانصرف العلماء عنهُ من نحو خمس وسبعين سنة بغير ان يقترحوا رأياً مقنعاً آخر لتفسير ارتفاع الماء في جذور الشجر وجذوعهِ الى أغصانه وورقه

ولكن الدكتور هوايت قال في ذات نفسه عند ما رأى الخيوط أو العروق في الجذور التي في أنابيب الاختبار : — حيثما تكون المضخات يحتمل ان نجد أنابيب . وحيثما تكون الأنابيب يحتمل وجود المضخات . فلما تبين ان هذه العروق هي في منزلة الأنابيب قال في ذات نفسه كذلك : — لعلَّ القسيس هايل مصيب في ما ذهب اليه . ولعلَّ هذه الجذور تفعل فعل المضخات وما هذه العروق الاَّ الأنابيب التي ينقل فيها الماء بفعل الضغط المتولد في المضخات

ومن ثمة صنع الدكتور هوايت جهازاً لقياس هذا الضغط ، فوضع أنابيب من الزجاج على الطرف الأعلى لعروق الجذور فما لبث حتى رأى الأنابيب تفيض ماء من طرفها الأعلى . أي ان الماء المرتفع في عروق الجذور أو أنابيبها بفعل الضغط الحيوي الذي تولده الجذور دخل أنابيب الزجاج وارتفع فيها حتى فاض من طرفها الأعلى

كانت أنابيب الزجاج الأولى التي استعملها الدكتور هوايت لا تزيد على بضع بوصات طولاً فمضى في تجربتهِ وهو يزيد الأنابيب المستعملة طولاً رويداً رويداً حتى بلغ ارتفاعها سبع أقدام ومع ذلك مضى الماء من عروق الجذور يرتفع فيها ثم يفيض من طرفها الأعلى . ثم تحول من زيادة طول الأنابيب الى استعمال الزئبق لقياس مقدار الضغط المتولد في الجذور على نحو ما هو مستعمل في « البارومتر » البسيط . ولكنه وجد ان الزئبق لا يكفي لذلك لأن الضغط عليهِ بلغ مبلغاً عظيماً يساوي رفع الماء في انبوب الى مستوى ثمانين قدماً . فعدل عنه الى الهواء المضغوط . فلما بلغ الضغط على عروق الجذور ما يعدل تسعين رطلاً (pound) على البوصة المربعة وجد الدكتور هوايت ان هذا الضغط لا يؤثر في خفض فعل الجذور الدافع بالماء الى فوق . فكأن القوة التي تولدها الجذور لدفع الماء اكبر من ضغط ٩٠ رطلاً على بوصة مربعة . وهذه القوة الضاغطة او الدافعة تكفي لرفع الماء الى علو ٢٠٠ قدم . وفي هذا عود الى رأي هايل

ما هو الحد الأعلى لهذه القوة ؟ عندما كتب الدكتور هوايت بحثهُ في هذا الموضوع من نحو سنتين كان لا يعلم ، لأن جهاز الهواء المضغوط الذي صنعهُ لقياس هذا الضغط في الجذور كان لا يصلح لقياس ضغط يفوق « ٩٠ رطلاً على البوصة المربعة » . وقد اعترف في آخر بحثهِ بأنهُ ما فتىء عاكفاً على صنع جهاز آخر يصلح لهذا الغرض

المهندس المساح المصري

فى عهد مصر القديم والحديث

للمهندس حسن محمد

قد يكون من الوفاء ونحن في هذا المقام حيث نتحدث عن الهندسة وشئونها ان لا نغفل ما كان للمهندس المسّاح المصري من أثر في عالم المساحة فلقد أجاد وأثمر وكان له فضل السبق في نواح شتى ما فنئت موضع المفاضلة والتقدير . وكما تنطق الأهرام بما تنطق فقد أثبت المؤرخ اليوناني «هيرودوت» أن ملك مصر «سيزوستريس» قسّم أراضي القطر المصري تقسيمات منظمة وتولّى توزيعها على الرعية، كلٍ بنصيب نظير جباية الأموال السنوية المستحقة عليها. ولقد كان هذا التقسيم بطبيعة الأمر موكولا الى المهندس المسّاح المصري الذي سبق غيره في استخراج مساحة الأشكال الهندسية. وقد ثبت من ورقة البردي المسماة Rhind Mathematical Papyrus طريقة عمل مساحة المثلث والاشكال الرباعية وهي بعينها الطريقة التي يستعملها مسّاحو المديريات الحاليون الى وقتنا هذا . وهذه الطريقة مؤسسة على القانون الآتي :—

$س = \left(\frac{ا + ب}{٢}\right)\left(\frac{ج + د}{٢}\right)$ أي ان مساحة الشكل الرباعي—اي المثلث المقطوع حسب اصطلاح المهندس المساح المصري الاول تساوي حاصل ضرب نصف مجموع كل ضلعين متناظرين في بعضهما ومساحة المثلث مفروض فيها ان طول الضلع الرابع يساوي صفراً

وقد ورد في ورقة البردي هذه جملة مسائل لعمل مسطحات المثلث نذكر منها على سبيل التفكهة هنا مثلين نقلاً عن ورقة البردي السالفة

١ — مثلث ارتفاعه ١٠ خت (الخت = ١٠٠ ذراع قديم والذراع = ٥٢٣ر٠ متر) وقاعدته طولها ٤ خت فما هي مساحته ؟

الحل = نأخذ نصف الأربعة أي $\frac{٤}{٢}$ = ٢ ونضربها في ١٠ بحسب طريقة المساح = ٢٠ خت مربع وبالذراع

١ — ٤٠٠ ذراع ١٠٠٠ ذراع

$\frac{١}{٢}$ ٢٠٠ ذراع

المساحة تساوي ٢٠٠ في ١٠٠٠ = ٢٠٠٠٠٠ ذراع مربع

٢ — مثلث ناقص أي مقطوع الذنب (شكل منحرف) ارتفاعه ٢٠ خت وطول قاعدته

٦ خت وطول القطع ٤ خت فما هي مساحته ؟

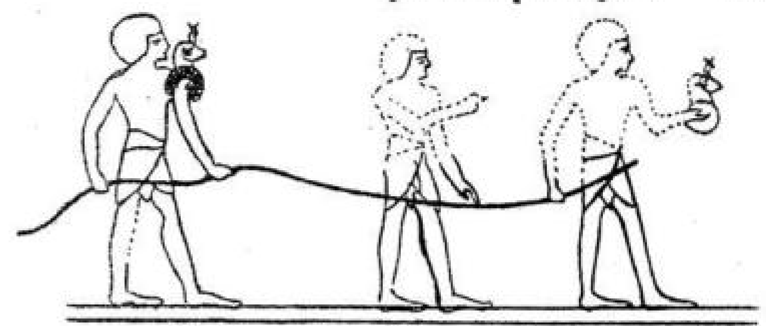
هنا نضيف ٦ زائد ٤ = ١٠ ÷ ٢ = ٥ ولاستخراج مساحة المستطيل الكافي نضرب ٢٠ في ٥ = ١٠٠ خت مربع والعمل هكذا حسب طريقته

١٠	١٠٠٠ ذراع	١	٢٠٠٠ ذراع
½	٥٠٠ ذراع	٢	٤٠٠٠ ذراع
		½	٢٠٠٠ ذراع

٥٠٠ في ٢٠٠٠ = ١٠٠٠٠٠٠ ذراع مربع

ويلاحظ ان المسّاح المصري الاول كان يقسم الشكل الى مثلثات إما قائمة الزاوية وإما متساوية الساقين ، والشكل الرباعي كان إما مربعاً وإما مستطيلاً وإما شبه منحرف ويسميه مثلثاً مقطوع الذيل ، وكان الذراع وحدة المقياس وقتذاك حيث تبين من تحقيق العلاّمة جريفث أن طوله يساوي ٥٢٣ر٠ متر ، وهذا يتفق مع طول الذراع النيليّة تقريباً . واستعمل في قياسه الكوبت وهو الذراع . وكان إما من الخشب وإما من الحجر ومقسمًا الى سبعة اقسام ، وكان قسمه الاخير أو القسمان الاخيران كل منهما مقسمًا الى اربعة اقسام متساوية كما ميّز منتصفه بعلامة خاصة

وكان يستعمل في قياس اطوال وعروض واعماق المباني واستعمل في قياس الاراضي الخت وهو حبل طوله ١٠٠ ذراع وسمّي بالحبل الملكي



طريقة مقاس أبعاد الغيطان بالحبل الملكى
صورة ماخوذة من مقبرة لمنصب بمدينة طيبة .

شكل نمرة ٢ يبين طريقة القياس بالحبل المذكور

ثم استعمل القصبة لقياس الاطوال واعتبر الفدان وحدة المساحة القبطية

ولقد توارث المساحون المصريون المتأخرون هذه الطريقة وظلوا الى الآن يستعملونها وان كانوا لم يراعوا في تقسيمهم المناطق المراد مسحها الى أشكال منتظمة كما كان يعمل المهندس المسّاح المصري الأول ، الأمر الذي ترتب عليه وجود فرق بين المساحة الهندسة الصحيحة

والمساحة القديمة يتفاوت بين ٣ و ٥ ٪ بالزيادة أو النقصان تبعاً لدقة المسّاح .

ويتضح مما تقدم أن مسّاح مصر القديم أوجد مساحة الأشكال الرباعية والثلاثية وأوجد وحدة للمقاييس الطولية وهو الذراع، وهو البادىء في ايجاد آلة القياس وهي الحبل الذي طوله يساوي خت = ١٠٠ ذراع كما أوجد وحدة للمساحة الغيطية وهو الستات ويساوي ١٠٠٠٠ ذراع مربع والذين خلفوه استعملوا القصبة في قياس الأطوال واعتبروا الفدان وحدة المساحة الغيطية. وقد تقسّم الوحدة الطولية أو المساحية الى ٢٤ قسماً وسمّي كل قسم قيراطاً، وقسّم القيراط الى أجزاء ورمز لكل جزء برمز مخصوص. ويتداول استعمالها للآن وهي مشهورة بين المساحين بالكسور القيراطية بالنسبة للقيراط وبصورة الفدان لكسور الفدان . وهذه الرموز هي جزء من عملية الاختزال المستعملة الآن . والى القارىء شكل هذه الرموز وما تدل عليه

جدول يبين رموز كسور القيراط وقيمتها

سهم	الرمز	اسم الرمز	سهم	الرمز	اسم الرمز
٤	ىه	دانق	١٦	حـ	حبتان
٨	حـ	حبة	٢٠	لحـ	نصف قيراط وحبة
١٢	ط	نصف قيراط	٢٤	قم	قيراط واحد

جدول يبين رموز كسور الفدان وقيمتها

قيراط	الرمز	اسم الرمز	قيراط	الرمز	اسم الرمز
١	قم	قيراط	١٣	ـ/ سو	ربع وسدس وثمن
١½	سقم	قيراط ونصف قيراط	١٤	ح	ثلث وربع
[illegible]	سمه	قيراط وعشرون سهم	١٥	سو	نصف وثمن
٢	سو	قيراطين	١٦	ى	ثلثاى
٣	و	ثمن فدان	١٧	ح و	ثلث وربع وثمن
٤	///	سدس فدان	١٨	ح	نصف وربع
٥	مه	خمسة قراريط	١٩	ى و	ثلثاى وثمن
٦	ـ/	ربع فدان	٢٠	سه	نصف وثلث
٧	/// و	سدس وثمن فدان	٢١	سح و	نصف وربع وثمن
٨	ىه	ثلث فدان	٢٢	ح	ثلثاى وربع
٩	ـ/و	ربع وثمن	٢٣	سه و	نصف وثلث وثمن
١٠	ـ///	ربع وسدس	٢٤	احـ	فدان
١١	ىه و	ثلث وثمن			
١٢	سو	نصف فدان			

وطريقة المساحة السابقة الذكر تباشر في الحقل بوساطة المسّاح واثنين من القصابة . والأول يدوّن في أوراقه التي تسمى (قواصير) جميع الأبعاد التي يقيسها الآخران بطريقة بسيطة تتفق مع الشكل الذي يقيسه ان كان رباعيـًا أو ثلاثيـًا . ومتى تمت عملية القياس يبدأ في ايجاد المسطح بالتطبيق للقانون السابق . واليك مثلاً من هذا العمل

الحمد لله

دفتر مبارك ان شاء الله تعالى الكريم يتضمن علم مساحة الأطيان بناحية سوهاج بمديرية جرجا بسداره علي افندى الدرويش معاون المديرية بمعرفة حنا مخلد المساح من طما وافلاديوس نخله من اللحه وسعيد بشاى من سوهاج قصابته مبارك بطرس وحبشي عبد الملاك من ناحية صدفا دلالة ايوب الحولي من سوهاج سنة ١٢٧٦

قبالـــــــــــــــــــة

عــــرب الطريق

١	٢	٣	٤
أحمد باشا راشد أنعام ٣٩ ٦٢ ٤١ ٦١ ٤٠ ٦٢	ابراهيم صالح ٥ ٦٣ ٠٠ ٦٣ ى ٦٣	احمد العارف ومحمد العارف ٣٠ ٦٥ ٢٧ ٦٢ ٢٢ ى ٦٤	المذكور [illegible] ٣٥ ٢٢ ى ٣٤ ٢٢ ٢٤ ٢٤
٢٤٩٠ فدن ٧ بور زمام مسجده خرز الانعام بقية فدن ٦٥ ى ٨ ٤١ ١١ ٠٠ ٩ ٤١ ٤٠٣ فدن ١	فدن ٣٢٤ ١ بور ترعه مسجاه بقية فدن ٥ ١١ ٤٣ ٠٠ ٠٠ ٥٨ فدن	١٥٤٤ فدن ٤ بور ترعه مسجاه بقية فدن ١١ ٢٠ ٢٣ ٠٠ ٠٠ ٢٢٣ ى	٩٥٧ فدن ٤ و ٢ بور ترعه بقية فدن ١١ ٣٥ ١٤ ٠٠ ٠٠ ٢٨٥ فدن و ١

ومن هذا المثل نرى ان المساحين كانوا يبينون أنواع الأرض المقيسة إن كانت بوراً أو مزروعة ويسمون الأخيرة بالمعمور ، وقد رأيناهم كذلك عند عمل المساحة إما ان يثبتوا أبعاد مساحة البور ومسطحه ويذكروا باقي التكليف تحت كلمة (بقيته) وإما يبينوا مساحة المعمور وأبعادها ويذكروا البور تحت كلمة (تالف)

وفي عهد من العهود سمي الفدان بالأرور وهو يعادل ٢٨ آراً (الآر يساوي ١٠٠ متر مربع) ويساوي الأرور ١٥٫١٨ س ط وهو مربع طول ضلعه ١٠٠ ذراع

وعند عمل مساحة أي بلد كان يقوم بهذا العمل عدد كبير من الكتبة والمسّاحين وكانوا يقيدون كل تغيير يطرأ في سجلات الحكومة. وكان يقام عند حدود كل عقار خط من القوائم يكتب عليه في أغلب الأوقات اسم المالك الأخير وتاريخ آخر تحديد عمله. ومتى تمّ كل ذلك يطلق على العقار اسم علم، وكان هذا الاسم يتمّ إما على طبيعة الأرض وموقعها أو احد العوارض الطبيعية التي تميزها مثل بحيرة الجنوب أو المرج الشرقي او الجزيرة الخضراء أو بركة الصيادين أو غابة الصفصاف، وهذه الأسماء تبقى دالة على مسمياتها اجمالاً فلا البيع ولا القسمة ولا التوارث ولا تغيّر الأسر المالكة تستطيع ان تصير هذه الأسماء نسياً منسيًّا، وهذا يدل على ان المهندس المساح المصري أنشأ السجلات العقارية (المكلفات) وراعى في عمله عدم وجود منازعات بين الجيران بوضعه القوائم الحاملة لاسم المالك وتاريخ آخر تحديد وتسمية العقار أو تسمية المنطقة التي بها. ولم نصل الآن في اعمال المساحة الحديثة لهذه الدقة ولذا كثرت قضايا الحدود

***

وفي عهد ساكن الجنان محمد علي باشا والي مصر عمل تاريع للقطر المصري وقام به المساحون المصريون تحت ادارة المعلم غالي واتبعوا الطريقة السابقة وأسست مساحتهم على القصبة التي حلّت محل الذراع في عهد حكم العرب لمصر وقد كان طول القصبة يختلف بين ٣٫٤٥ متر و٣٫٨٥ متر

وقد أثبت العلامة جومار أن طول القصبة وقت دخول الفرنسيين كان ٣٫٨٥ متر وان الفدان كان مربعاً طول ضلعه ٢٠ قصبة ومساحته ٤٠٠ قصبة مربعة

وطول هذه القصبة يعادل ١/٦٠ من طول قاعدة الهرم الكبير، أما طول الذراع البلدي فقيل انه ١/٤٠٠ من طول القاعدة المذكورة أي ٠٫٥٧٥ متر، أما الذراع القديم فقد قرّر العلامة المذكور أن طوله يساوي ٠٫٤٦٢ متر، وقال إنه الذراع الذي كان معتبراً وحدة للمقاييس وقت إنشاء الهرم المذكور ويعادل ٤/٥ الذراع البلدي اي ان النسبة بين الذراعين هي بعينها النسبة بين ارتفاع الهرم وقاعدته، كما قرر أن العرب عيّنوا بالضبط طول الذراع العتيق وطول الذراع البلدي . أما وحدة السطوح فقد قرّر أنها كانت الارور بعد عصر سبق الأول وهي عبارة عن قطعة ارض طول ضلعها ١٠٠ ذراع ومساحتها ١٠٠٠٠ ذراع مربع

وأطلق العرب على الارور اسم جريب مساحتها ١٠٠ قصبة مربعة او ١٠٠٠٠ ذراع قديم مربع والقصبة هنا كانت القصبة الكبرى وكانت مقسمة الى ثلاثة اقسام كل قسم منها ٥

أقدام وتسمى بالخطوة المساحية وطول ضلع الارور ٣٠ خطوة ومساحته ٩٠٠ خطوة مربعة . والخطوة المساحية كانت نصف القصبة القديمة التي طولها ١٠ اقدام وكانت أصغر من القصبة التي يقاس بها الفدان بقدر ربعها بمعنى ان القصبة التي وجدت وقت دخول الفرنسيين عبارة عن قصبة وربع قصبة صغيرة

ومما يلاحظ ان نسبة القصبة الصغيرة للذراع القديم موافقة لنسبة القصبة الكبيرة للذراع البلدي فالقصبة الصغيرة تساوي ٦ ⅔ ذراع قديم كما ان القصبة الكبيرة تساوي ٦ ⅔ ذراع بلدي

وأذكر بهذه المناسبة ان القصبة تساوي ٦ أذرع هاشمية وهذا الذراع يساوي قدمين مصريين = ١ ½ ذراع عتيق = ٠٫٦١٦ متر ويساوي ١ $\frac{1}{10}$ ذراع بلدي اي ٠٫٥٧٥ زائد ٠٫٠٣٨٣ = ٠٫٦١٣ متر والقصبة تساوي ٦ أذرع هاشمية = ٣٫٦٩٦ متر حسب أقوال المقريزي وتساوي ٨ أذرع صغيرة اي ٠٫٤٦٢ في ٨ = ٣٫٦٩٦ متر = ٧ ¼ ذراع سوادي = ٠٫٥١٠٦ في ٧٫١١ = ٣٫٦٩٦ متر وهذه المقادير مطابقة للاعداد ٣٢ و٢٤ و٢٧

أما الذراع المعماري فيساوي ذراعاً عتيقاً زائداً قدماً مصرية = ٠٫٤٦٢ زائد ٠٫٣٠٨ = ٠٫٧٧ متر = ٢ ½ قدم مصرية = ١ ⅓ ذراع بلدي اي ان الذراع البلدي تساوي ¾ الذراع المعماري

وقد كانت القصبة تساوي ٥ أذرع معمارية أي ٣٫٨٥ متر وقت الفرنسيين والفدان عبارة عن ٢٠ في ٢٠ = ٤٠٠ قصبة مربعة = ١٠٠ في ١٠٠ = ١٠٠٠٠ ذراع معماري مربع

وطول ضلع الهرم = ٣٠٠ ذراع معماري فتكون القصبة الكبيرة = ٣٫٨٥ متر فتكون القصبة الهاشمية = ٣٫٤٩ متر اي ان الأولى أكبر من الثانية بمقدار $\frac{1}{24}$

واستلفت النظر هنا الى ان طول القصبة من ايام الفرنسيين كان متغيراً بجهات القطر المصري وقد وُجد منها ما طوله ٣٫٦ متر و٣٫٦٥ متر. والمتعارف بين الناس ان طولها بالذراع البلدي ٦ ⅔ ذراع وكانت هي المستعملة في المساحة

اما قصبة المساحين الصغيرة وطولها ٣٫٦ متر فتساوي ٦ ⅔ ذراع مقياس النيل الحقيقي وقد استعاض المساحون القبط عن الذراع البلدي بهذا الذراع ونتج عن هذا زيادة في الافدنة بدون تغيير في عدد القصبات ، فالفدان مساحته بالقصبة التي طولها ٥ أذرع معمارية ٤٠٠ قصبة

ونعود هنا لأقوال العلاّمة جومار حيث قرّر أن مساحة قاعدة الهرم ٩ أفدنة بالضبط وطول ضلعه ١٠٠ ذراع كبير معماري وطول ضلع الجريب ١٥٠ قدماً فالنسبة بينهما كنسبة ٩ الى ٢٥ فالتسعة افدنة تساوي ٢٥ جريباً . وعلى هذا لو قسمنا ضلعين من اضلاع قاعدة الهرم كل واحد الى ثلاثة أقسام وأقمنا من نقط التقاسيم أعمدة لنتج ٩ مربعات كل منها يساوي فداناً قديماً ، ولو قسمنا كلاً منها الى خمسة اقسام وأقمنا الاعمدة لوجدنا ٢٥ مربعاً كل منها يساوي جريباً

وعلى ذلك يكون الهرم مشتملاً على الوحدة الزراعية التي هي أساس المساحة

أما طول القصبة في عهد ساكن الجنان محمد علي باشا والي مصر فكان متغيراً في جميع المديريات وتحدد بمقدار ٣٫٦٤ متر كما ذكر منجين ولكن مساحة الفدان تحددت بأمر الوالي بمقدار ٣٣٣ ⅓ قصبة مربعة

ذكرنا سابقاً ان مساحة الفدان الاصلي كانت ٤٠٠ قصبة مربعة طولها ٣٫٨٥ متراً ولكن وجد الفرنسيون سنة ١٨٠٠ بالحجج القديمة ما يثبت وجود فدادين بمصر السفلى بالقرب من النيل تحتوي على ٤٥٨٠ متراً مربعاً او ٣١٠ قصبات وأخرى بعيدة عن أفرع النيل مساحتها ٨١٤٠ متراً مربعاً أو ٥٥١ قصبة مربعة ، وكان الفدان بدمياط ٦٩٠٥ أمتار مربعة او ٤٧٠ قصبة مربعة

وبمديريتي المنوفية والقليوبية توجد حجج شرعية تثبت ان سطح بعض الفدادين — وتسمى بالفدادين الصغرى — مساحتها ٢٠٠ قصبة مربعة وبالفدان الكبير مساحته ٤٠٠ قصبة مربعة

وابتداء من سنة ١٨٦١ اصبحت مساحة الفدان ٤٢٠٠٫٨٣ متر مربع ولا تزال الارض تؤجر في مديرية الشرقية باعتبار الفدان ٣٠٠ قصبة مربعة تعويضاً للمالك عن الطرق والترع وغيرها التي يدفع عنها الضريبة والتي تستبعد من اطيان المؤجر

أما الأفدنة الصغيرة التي لم تزل مستعملة فقد دام استعمالها باعتبارها ١٨ أو ٢٠ أو ٢٢ قيراطاً من ٢٤ قيراطاً أي الفدان القانوني . وعند عمل مساحة القليوبية سنة ١٩٠٣ عثرت مصلحة المساحة على أوراق رسمية ذكر فيها الفدان باعتبار ٢١٫٥ قيراط و٢٢ قيراط وفي الأراضي البور شمالي بلقاس باعتبار ٢٥ و٢٦ بل ٣٠ قيراطاً

واستمر العمل الحكومي في تعيين المسطحات بطريقة المسّاح المصري القديم حتى بعد صدور أمر عالٍ سنة ١٨٧٩ بإنشاء مصلحة التاريع فقد تابعت هذه المصلحة المسّاح القديم في عملية المسطحات وامتازت عنهُ بعمل رسومات للحقول والبلاد

وفي عهد سمو خديو مصر عباس حلمي باشا الثاني انشئت مصلحة المساحة حوالي سنة ١٨٩٢ وبدأت في عمل المسطحات حسب المساحة الهندسية ، اما الاهالي فهم مستمرُّون في عمل المسطحات على حسب قاعدة أجدادهم الاقدمين الى الآن لان هذه الطريقة توفر عليهم عمل رسومات وتقسيم الاشكال التي تتمُّ في الحقل بدلاً من المكتب . وهذه العملية سريعة وتقريبية لدرجة انها قد تزيد أو تنقص بين ٣ ٪ و ٥ ٪ عن الحقيقة . وهذا فرق طفيف ومسموح بهِ لسرعة السير في العملية ونهوها في نفس الحقل

أما الأعمال الهندسية الحديثة فتتطلب من الوقت اكثر ولا يركن اليها الأهالي الا في الأراضي الثمينة المقدار مثل أراضي البناء . والنتيجة التي وصلت اليها هي أن المسّاح المصري القديم

هو أقدم مساح في العالم وأول من سهّل على الفلاح اعماله الزراعية من فصل حدود ومساحة أرض ، وأوجد له وحدة للاطوال ووحدة للسطوح ، وان طريقته هذه أسرع من الطريقة الهندسية والفرق بينهما يتنفر في نظير الوقت الذي يحتاج اليه كل من الطريقتين

والدفاتر التاريخية المنشأة حسب طريقة المساح القديم والموجودة بين أيدي أهالي مصر الوسطى تسهل على الفلاحين عملية فصل الحدود لاشتمالها على ابعاد اضلاع الحقول بالقصبة

أما الخارطات المساحية فصعبة التطبيق بالنسبة له وقد يكون الخطأ في تعيين البعد سبباً في جناية تقع بين المتخاصمين

وما اتبعتهُ المساحة الحديثة الآن من دق حديد في فواصل الحدود قضى على مشكلات كثيرة وحبذا لو كان وضعها إجباريًّا بعد أن تداخل بصفة رسمية في فصل الحد المختلف عليه

نخرج من هذا البحث الى نتيجة تشرّف المهندس المساح المصري فقد أوجد طريقة هندسية سهلة للغاية لقياس الأطوال والمساحات فبدأ بإيجاد وحدة للقياس وهي الذراع ومضاعفاتها وهو الحبل الملكي وطوله ١٠٠ ذراع ثم القصبة التي تحدد طولها بمقدار ٣ر٥٥ متر بأمر عال صدر في سنة ١٨٦١ وأوجد وحدة للمساحة القبطية مسطحها ١٨س و١٥ط وهو السنات وانتهى الى الفدان الذي قدرت مقادير مسطحه بالقصبات المربعة وانتهى بجعله بصفة رسمية :—

$333\frac{1}{3}$ = ٨٣ر٤٢٠٠ متر مربع بأمر عال سنة ١٨٦١

وأوجد الكسور المسماة بالكسور القبطية وهي أجزاء القيراط ومضاعفاته برموز مختزلة لا تزال مستعملة الى اليوم في مصر وانتقلت الى الأقطار الشرقية المجاورة . وهذه طريقة لم يسبقه اليها أحد من المهندسين

هذه صفحة المساح المصري القديم وهي كما تبدو خالدة الأثر، وتلك طريقته وهي بلا شك تنطق بما كان له من فضل على الأطوال والمساحات ما زال يفيض على مختلف الأجيال الى وقتنا هذا فقلَّ ان نرى رجل القرية يمد الى غير طريقته لما يكتنفها من السهولة والسرعة وعدم الحاجة الى تعدد الأيدي العاملة او استخدام الآلات المساحية الحديثة فضلاً عن الوصول الى نتيجة مباشرة دون الحاجة الى الرجوع الى المسائل الحسابية المتشعبة لاسيما وان الفارق بين استخدام هذه الطريقة والطرق المساحية المستحدثة لا يكاد يجاوز نطاق المسموح سواء بالزيادة او النقصان

ويستخلص من ذلك ان طريقة المساح المصري هي من حيث النظر أسرع ومن حيث العمل أيسر ، ولا أدلّ على ذلك من أنها لا زالت صاحبة الحظوة في القرى يستخدمها مساحو المديريات ورجال القرية في كل ما يتصل بأعمالهم المعروفة وتقسيماتهم المساحية بحيث اضطرت مصلحة المساحة الى مسايرتهم بعض الشيء فسجلت على جوانب لوحات المساحة مقاييس بالوحدات القديمة (القصبة) رغم استعمالها الوحدات المترية في جميع أعمالها المصلحية

معجزات الزجاج

المصري وما يرجى له من المنافع في الحرب والسلم

لعوض جندي[1]

ثبت من التجارب التي جربت في انكلترا «نقلاً عن جريدة المهندسين المعماريين الانكليزية» ان الوسائل المستعملة لوقاية النوافذ من أخطار الانفجار، تنحصر في أربع نقط أساسية أبسطها تركيب حاجز داخلي من شبكة سلكية مقرونة بمواد تقوم مقام الزجاج او بنوع جديد من الزجاج يكون من شأنه وقاية السكان من التغيرات الجوية. والثانية احلال الزجاج المقوي بالسلك محل الزجاج العادي. أما في نوافذ الحوانيت فتتبع هذه الطريقة مع تخشيب جزء من المساحة المشغولة بألواح الزجاج. والطريقة الثالثة، تركيب ضلف للنوافذ يستطاع اغلاقها في أثناء الخطر وعند ما يخيم الظلام. والطريقة الرابعة استعمال الزجاج الممزوج بالأسمنت glass concrete وهو ذو مقاومة شديدة جداً لتأثير الانفجار وشظايا القنابل والأنقاض المتناثرة

ويتوقع خبراء المباني في العالم انه في خلال السنين العشر الآتية، ستصير المدن نظيفة دائماً وذات بيوت يتخللها الضوء، خالية من الأركان الظلماء، وليست في حاجة الى تزيينها بورق الحيطان، اذ يتاح المرء السكنى في دار زجاجية حيث يمكنه ان يقذف منها ما شاء من أحجار دون الخوف من انتقام المقذوفة عليه. فيبطل المثل المشهور «ان كان بيتك من زجاج فلا تقذف الناس بالحجارة» لأن الزجاج الحديث الاختراع لم يعد قصماً دائماً كما كان القديم في بدء اختراعه بل ليناً ليونة مدهشة. وقد أخذ استعماله في المباني وغيرها من ميادين الأعمال يزداد على الدوام ولذلك لم يبق (البيت الزجاجي) من العبارات الاستعارية او المجازية في الحديث. وحينئذ يصح الاستغناء نوعاً عن الصروح الشاهقة (ناطحات السحاب) ذات الواجهات الزجاجية وذلك لكساد سوقها، ولكن المادة الزجاجية الواجهة في الحائط الخارجي التي تولد نتائج لونية ملائمة للذوق المصري، وهي المادة التي تسهل تنظيف المبنى بالماء والصابون، لا بد ان تتزايد منافعها بنمو العمران المصري بحيث يضطر أرباب العقارات العتيقة إما الى جعلها ذات شكل جذاب وإما الى تقويضها توفيراً للضرائب التي يدفعونها لأجلها

وأحدث طرق الانتفاع بالزجاج في ميدان المباني، استعمال ألواح الأسمنت ذات الوجوه

---

(١) المقصود بذلك الزجاج المصنوع من عجينة صمغ الاكريل «راجع مقتطف يوليو ١٩٤٠ ص ٦٦»

الزجاجية التي تحمل الاثقال وذلك في بناء الحيطان الخارجية، وستصبح الحيطان نفسها من هذه المصنوعات الجديدة إذ تستعمل وحدها في المباني الصغيرة ثم في المباني الشاهقة ، مدعمة بدعامة بنائية

وتصنع الآن قوالب من الزجاج ، فيها منشورات مسبوكة في سطوحها الداخلية لاجل التحكم في توجيه الضوء توجيهاً محدوداً . وثمة سلسلة من زجاج الزخارف المتمم تقوم كذلك بتوزيع الضوء واقامته وتوجيهه . ثم الزجاج المحشو sandwich glass وهو نوع آخر من الزجاج المصري، يسمح بدخول الضوء الموزع فقط . ويؤلف من لوح من الزجاج الشعري بمثابة حشوة تمنع مرور أشعة الشمس مروراً مباشراً دون احداث نقص محسوس في توصيل الضوء

وللزجاج الشعري fibre glass كذلك خاصية عزل الحرارة والصوت بمض العزل . وعلى حين يخدم الزجاج المسطح ، صناعة البناء خدمة دائمة ، فان التحسينات الجديدة في صناعته آخذة في توسيع مجال منافعه . ومنها الزجاج المقسّى أو المسقي tempered glass وهو الذي يحمّى (وهو تحمية) الى درجة عالية من الحرارة ثم تبرد سطوحه الخارجية تبريداً عاجلا بعصبات الهواء المضغوط . وتبريد السطح تبريداً أسرع كثيراً منهُ في الباطن يحدث عمداً ، يزيد قوة الزجاج أربعة أضعاف فيجعله يكاد يبلغ قوة قطاع من الحديد المصهور (حديد الزهر)

وقد أسفرت التجارب التي جربت في ألواح الزجاج المقسّى أو المسقى ، عن احتماله لتأثير الحرارة القصوى للرصاص المصهور ، إذا صُبَّ على لوح منهُ موضوع في الثلج فيباح حَنْيُهُ الى زاوية درجة عشرين دون كسره . ثم انهُ قاوم الصدمات العنيفة واحتمل الاثقال الباهظة. واذا انكسر فعلا فلا يتشظى بل يتحطم قطعاً صغيرة مثل الملح الصخري . وبما انهُ لا يستطاع قطعه ولا ثقبهُ بعد تقسيته ، فتصنع الواحه بحسب المقياس المطلوب

وقد فتحت القوة الفائقة لألواح الزجاج المقسّى أسواقاً جديدة له . فأثره بعض مفتشي المباني في انكلترا لصنع قوائم (برامق) درابزون السلالم حيث يحل محل المعدن المصهور أو المطرّق. وتصنع منهُ سبورات للكتابة بالطباشير في المدارس وقاعات المحاضرات ، ملونة بالالوان العاجية والخضراء والسوداء تمتاز على السبورات الخشبية بكونها أقل اجهاداً للبصر وأطول بقاء وأسهل تنظيفاً ومحواً للكتابة . ويحلُّ الزجاج المقسى أيضاً محل الزجاج الآخر في المواضع التي تتطلب احتمال الضغط العظيم . وأهم التحسينات التي استحدثت في الزجاج المسطح هي الزجاج الجديد الخاص بالسيارات، الفائق الأمن المقرون بالطبقات الداخلية ، المصنوعة من العجائن الكيميائية الجديدة ووسائط الربط . اما فوائد الزجاج المسطح في الزخرفة والزينة الداخليتين فانها تتضاعف بكل سرعة بحيث يتعذر التفريق بين الجديد منها والشيء الذي ثبتت منافعه

وغني عن البيان ان المرايا قديمة الاختراع ولكن المرآة التي تصنع من زجاج أصفر ذي ظهر من الفضة لحديثة الطراز ، وتولد انعكاساً ذهبيًّا للضوء ، يروق النظر . أما الحشوات

الزجاجية المستعملة للزخارف الداخلية فقد أصبحت واسعة الانتشار . بيد ان الزجاج المحشو وأعني به المؤلف من لوحين بينهما طبقة من الزجاج الشعري فيؤلف طريقة جديدة في هذا الميدان اذ يظهر بمظهر الصدف حينما يطلى استعمال الألوان ، وينتج نتائج مختلفة بالمصابيح الخلفية أو بالزجاج الملون او بهما كليهما . ويستعمل الزجاج المحشو كذلك كحاجز رفيع يقوم بنشر النور وضبطه وباضعاف نقل الصوت والحرارة . وربما كان أغرب أنواع الزجاج وأقلها شهرة بين الناس ، الزجاج الشعري او الزجاج المغزول وهو الذي يصنع على شكل خمل الصوف ، أو خيوط الحرير ، التي يمكن نسجها منسوجات مختلفة . ويخيل توًّا لغير الفنيين حينما يسمعون اسم الزجاج الشعري ، انه من الميسور الارتداء به ، ولكن يحتمل انه لم تبذل مجهودات ما في ادخاله ميدان المنسوجات الصالحة للبس لأن النسيج الزجاجي قليل النفع ، اذا تيسر الانتفاع به غير أنهُ قد ينفع بعض النفع في البيوت اذ تصنع منهُ المظال البيتية « التندات » وسيصنع من هذا النسيج مما قريب نوع من مشمعات السفرة يفوق في مظهره أفخر أنواع الدمقس (وهو النسيج الحريري المشجر) فلا تتلفه السيجارة المشتعلة اذا وقعت عليه أو السائل المغلي اذا أحرق فوقه . ويستعمل الصوف الزجاجي glass wool المصنوع من الزجاج الشعري ، لعزل الحرارة في المواقد وصهاريج المياه الساخنة والمثالج وقاعات مخازن التبريد وحيطان البيوت ، ولأجل عزل الصوت في الحيطان والحواجز . ولخفة وزنه ، يُؤثرُ على غيره من الوسائل للاستعمال ، في البواخر والطائرات ومركبات السكك الحديدية وغيرها من الأماكن حيث يكون الاقتصاد في الثقل اقتصاداً للمال

والزجاج الشعري يقاوم التأكل الذي تحدثه الحوامض ، فينفع في المرشحات الكيميائية اذ يوضع لوح من نسيجه بين لوحي بطارية الخزن فيجعل الحامض يدور في البطارية ولكنه يبطىء ذوبان ذينك اللوحين ، فيطول عمر البطارية

وقد ارتقت صناعة الأواني الزجاجية الجديدة ارتقاءً متواصلاً ، مجاراةً لتحسين صناعة الزجاج البطيء التمدد المقاوم للحرارة اذ الزجاج الجديد البطيء التمدد جداً ، يقاوم أشد التقلبات في درجات الحرارة بلا كسر . وأغرب ما اختبرتهُ المختبرات العلمية في هذا الصدد انها وضعت طبقاً من الزجاج الجديد في حوض من الثلج وسلطت عليه لهب الأكسيجين فلم يتحطم

وما من شك في أن الزجاج الذي من هذا الطراز والذي يحتمل مثل هذا التأثير البالغ ، دون ان ينكسر لا بدَّ ان يوسع نطاق سوق أوعية الطبخ توسيعاً عظيماً كما انه سيشق طريقه في كثير من المرافق التي تتطلب الزجاج ولكنها لم تتمكن من الانتفاع بالزجاج القديم لعدم مقاومته تقلبات درجات الحرارة المرتفعة . فلا عجب اذا سمعنا صناع الزجاج يسمون العصر الحالي ، عصر الزجاج ، كما يدعوه صناع الفولاذ ، عصر الفولاذ ، وعلماء الكيمياء ، عصر الكيمياء ، ومدار ذلك جميعهُ على وجهة رأي كل فريق منهم ، ومبلغ ما يؤيد به مذهبه من البراهين العلمية .

وقد اتجهت أفكار مهندسي البناء حديثاً في انكلترا وأميركا الى بناء البيوت وغيرها من قوالب الطوب الزجاجي المجوف وذلك لكيلا تحول نهاراً دون دخول الضوء في الحجرات . ثم انها تضيء ليلاً حينما يسري فيها التيار الكهربائي . وقد استعملت قوالب الزجاج في كثير من المباني العصرية التي تم بناؤها في بضع السنين الماضية الا ان أحدث التحسينات التي أدخلت فيها ملء تلك القوالب الجوفاء بغاز يضيء حينما يمرّ به التيار الكهربائي — فكل حجرة تبنى حيطانها على هذا النمط ، تتم اضاءتها جيداً دون احداث مواضع فيها ، باهرة الضوء ، تحدث سدراً مزعجاً لأبصار سكانها . واذا استعمل ذلك الحائط كحائط خارجي ، صارت الحجرة التي من هذا النوع ، مضاءة اضاءة كافية طول النهار ، من جراء الضياء الذي يتخلل حيطانها النصف الشفافة . ولذلك المبنى منفعة أخرى ، وهي ان حائطه ما دام مضيئاً بذاته فلا موجب لتركيب جهاز مستقل لحمل الضوء فيه . وما دام الضغط الداخلي ، فيه منخفضاً كل الانخفاض ، يقوم كل قالب مقام عازل جيد جداً للحرارة

واذا أريدت زيادة الاضاءة ، دُهنت بواطن القوالب الزجاجية بمادة تضيء بتأثير الأشعة التي فوق البنفسجية التي تتولد من الغازات التي يهيجها التيار الكهربائي . واذا مست الحاجة في الحجرة ، الى الأشعة فوق البنفسجية للتعقيم ، وما شاكلهُ أمكن صنع القوالب من الزجاج الذي ينقل تلك الأشعة ، على أن يوضع في بواطنها قليل من الزئبق — تم ما قالتهُ المجلة الانكليزية العلمية

وبما أني سبق أن كتبت مقالاً ضافياً نقلاً عن المجلات الاميركية في معجزات الزجاج الحديث في مجلة الموظف التي صدرت في مارس سنة ١٩٣٦ فرأيت أن أقتطف منها النبذة الآتية اتماماً للفائدة : — ويصنع من الزجاج ورق لزخرفة الحيطان بديع المنظر ، ويباع في ملفات تؤلف من خيوط رفيعة من الزجاج الملون ، مرصوصة على ظهارة من الورق ، وألوانه يختلط بعضها ببعض فتبهر الأبصار . ولما كان ذلك الزجاج يستطاع مده خيوطاً رفيعة جداً ، أصبح الانتفاع به ميسوراً في أعمال جديدة شتى . ومنهُ يصنع الصوف الزجاجي وذلك من خصل تؤلف من تلك الخيوط . ويستعمل في العزل وفي استخراج الغبار من الهواء المرطب . وقد اخترعت شركة أُنز ايلينويز مرشحاً جديداً للهواء ، فاستطاع التقاط ٩٠ ٪ من الهباء كما انهُ التقط حبوب اللقاح والبكتيريا من الهواء في اثناء مروره من ذلك المرشح . واستعمل الصوف الزجاجي في بواخر الركاب التي تمخر عباب المحيطات وذلك بمثابة اغطية حول أنابيب البخار ، بدلاً من المواد العازلة المعتادة فتمكنت البواخر باستعماله من تخفيف وسقها ٣٨٠ طناً أو ما يعادل ثقل اكثر من ٤٠٠٠ راكب . ويقوم مصنع كورنتج في أميركا بصنع أسنان زجاجية وكنجات زجاجية ونعوش زجاجية للموتى . وغير ذلك من الأدوات الطريفة

تطور الأسرة

المصرية[1]

للسيدة احسان احمد القوصي

في الأسرة ينشأ المصلحون والقادة والعلماء والفلاسفة وفيها تغرس في الافراد الفضائل الاخلاقية والعواطف الانسانية والمبادىء الديموقراطية وبين أحضانها تنمو عناصر الشخصيات القوية التي تقوم بالانقلابات الثورية والاصلاحات الاجتماعية التي تؤثر في تقدم البشر وسير الحضارة والعمران فهي مهد التراحم والتعاون ومنشأ السيطرة والتشريع ومرجع العادات والتقاليد واذا كنا لا نستطيع اصلاح الجماعات الا باصلاح الافراد فأقرب ما يكون ذلك في متناولنا وهم في الاسرة صغاراً في دور التكوين

والاسرة ككل نظام اجتماعي تخضع لنظام التطور والرقي كما يخضع الجسم الحي لنواميس الحياة وسنن النشوء والارتقاء وفي التاريخ أصدق شاهد ولا حاجة بي الى التبسط والرجوع الى عهد الامومة يوم كانت الاسرة قاصرة على الام والاولاد، ولا الى الخطوات التي تلتها بعد انضمام الأب اليها مسوقاً بعاطفة الحب والمصلحة، ولا الى تدرجها في الرقي حتى اصبحت وحدة اجتماعية تامة ويكفي ان أستعرض حال الاسرة المصرية في حقبة قصيرة من الزمن وعهد لا تزال نلمس آثاره ليتجلى لنا الشوط الذي قطعته في مضمار التطور من عهد محمد علي الى الآن وتتبين نواحي نهضتها ومواطن الضعف فيها ثم أبسط ما أراه لمقوماتها

كانت الاسرة المصرية الى ما قبل الاحتلال البريطاني متأثرة في الطبقتين العالية والوسطى من الامة بالطابع العثماني وحياة الحريم — على حد تعبير أهل الغرب — فكان رب الأسرة عائلها وسيدها المطلق له الأمر، وعلى نسائه الطاعة، زوجات كن أو بنات أو أخوات. أما الزوجة فكانت تعيش في عزلة تامة عن العالم لا تدري من شؤونه شيئاً ولا تعرف غير بيتها وأولادها . يتزوجها صغيرة عادة وفي كثير من الاحيان وهي دون سن البلوغ، ويوفر لها من وسائل العيش وضروب المتعة المادية ما تسمح به ظروفه الخاصة . لا ترى من الرجال الا محارمها أو جماعة الأغوات ولا تبارح بيتها الا لضرورة ماسة فلا تعرف طريق الاسواق ولا تخرج لنزهة أو رياضة . فتعيش حياة خمول

(١) محاضرة القيت في القاعة الشرقية بالجامعة الاميركية بالقاهرة

وكسل فيزيد وزنها ويترهل في غالب الاحيان بدنها وتقضي عمرها في تلك الدائرة الضيقة وقد ضرب عليها الاستبداد حجاباً حجب عنها نور العلم والعرفان وحاطها بسياج من الخرافات والأوهام. اذا مرضت لجأت الى وصفات العجائز وأكثرها خزعبلات وان عجزت هرعت الى الدجالين والعرّافات والله وحده يعرف عدد من رحن ضحية جهالة الذين كانوا يرون الموت خيراً من عار احضار الطبيب لانقاذ ام في ولادة متعسرة أو صبية أسقمها داء دفين . حدث أن مرضت ابنة شابة لأحد أدباء ذلك العصر المشهورين فأحضر لها الطبيب فلما دخل لعيادتها وجدها في سرير وقد تدلت عليه كلّة من الشاش حتى لا يرى منها شيئاً فجلس الى جانب فراشها وجعل يسأل عما تحس به ويستدرجها حتى تأنس اليه فيكشف عليها فطلب منها ان يجس نبضها فأخرجت له يدها فطلب رؤية لسانها

أتعلمون يا سادة ماذا فعلت ! لم تعيها الحيلة فقد مزقت الكلة وأخرجت منها لسانها وغلبته على أمره . هذه قصة حقيقية ما زالت صاحبتها على قيد الحياة وقد سمعتها منها بنفسي وهي صورة صادقة لأغلب نساء عصرها

أما من كان يسعدهن الحظ ويتعلمن — وقليلاً ما كن — فكان تعليمهن لا يعدو القراءة والكتابة وحفظ القرآن فقد كانوا يرون كما كانت اوربا في العصور الوسطى ترى تعليم البنت ضاراً ولو اقتصر على محو الأمية وكان التعليم يتم في البيوت اذ لم تكن في مصر مدرسة واحدة للبنات في عهد محمد علي . ان ديوان المدارس قدر ما لتعليم البنت في النهوض بالمجتمع المصري أشار سنة ١٨٣٧ على محمد علي بانشاء مدارس لهن أسوة بالبنين فان الاقتراح لم ينفذ في عهده لأن المجتمع لم يكن يألف كما يقول ارتين باشا في كتابه تعليم البنات في المدارس واكتفى محمد علي بانشاء مدرسة للقابلات كان كل تلميذاتها عشر جواري حبشيات من سرايه كان يصحبهن الى المدرسة بعض الأغوات لحراستهن . أما بنات اسرته وجواريه فقد عهد بتعليمهن الى المسز ليدر زوجة أحد المبشرين الانجليز التي أنشأت أول مدرسة بنات سنة ١٨٣٥ بتشجيع تلميذتها كبرى بنات محمد علي وزوجة محرم بك امير الأسطول المصري ولن أزيدكم بياناً وأترك لكم الحكم على تربية ابناء الجيل وحال أمهاتهم على ما رأيتم من الجهل والتأخر لتدركوا لماذا رسفت بلادنا في قيود الاستعباد كل تلك السنين الطوال وأنتم تعلمون ان الشعب لا يرتفع فوق مرتبة نسائه

ظلت الأسرة المصرية على تلك الحال من التأخر ردحاً من الزمن غير قليل ولو ان الأسرة المسيحية كانت أحسن حالاً اذ سبقت اختها المسلمة في الاقبال على ارسال بناتها الى مدارس الارساليات التي ظهرت قبيل منتصف القرن التاسع عشر بقليل فتسرب بتعليمهن بصيص من

نور العلم الى البيوت فأضاء جوانبها ورفع مستواها. ثم قامت الطوائف الشرقية غير المسلمة تنشىء المدارس فأنشأ الأقباط في عهد الأنبا كيرلس الرابع أول مدرستين للبنات ومن ثمَّ سارت الأسرة المسيحية في طريق الرقي بخطوات وئيدة ولكنها ثابتة، وحفز ذلك بعض الأسر المسلمة على الاقتداء بها وارسال بناتهم الى مدارس الارساليات على ان الرأي العام كان يستنكر ارسال البنات الى تلك المدارس

ولما أتى عهد اسماعيل بزغ فجر عصر جديد في تطور الأسرة ونهضة الأمة بفضل همة ذلك المصلح الكبير فقد نهض بالتعليم حتى بلغ عدد المتعلمين من الذكور في البلاد ٤٪ بعد ان كان قبل عهده ١٪ وشجَّع الأوربيين على فتح المدارس للبنين والبنات حتى بلغ عددها في احصاء سنة ١٨٧٣ سبعين مدرسة. وفي نفس السنة بدأ انشاء مدارس البنات فأسست زوجته الثالثة تشما أفت هانم المدرسة السيوفية بإيعاز منهُ ودخلها نحو مائتا تلميذة لم يمض عام حتى تضاعف عددهنَّ. وفي سنة ١٨٧٥ أسس مدرسة للمكفوفين والخرس من بنين وبنات فكان أول من عمل على اختلاط الجنسين في التعليم واقتنع بضرر تعدد الزوجات فأبى ان يكون لبناته ضرارٌ كما أبى ان يكون لأولاده الثلاثة الكبار غير زوجة واحدة ناهيك بالنظام والتجديد الذي دخل البيوت بتزويجه الجواري المتربيات في قصوره من وجوه البلاد

ولما قضت الظروف المالية المعروفة بالاحتلال لم يتغير الحال كثيراً وخاصة في العائلات المسلمة فبقي سوادها خاضعاً لسلطان العرف والتقاليد نافراً من التغيير والتجديد حتى ان المرحوم قاسم لما قام في أواخر القرن التاسع عشر بصرخته المدوية وتجاوب صداها في أرجاء الشرق تعرَّض لمر النقد من الكتّاب ورجال الدين من مصريين وغير مصريين ولم يحبذ دعوته الا نفر قليل من الخاصة أقنعتهم حجته وأدركوا أثر دعوته في رقي الأسرة ونهضة الأمة لهذا لم تؤت تلك البذرة الصالحة ثمارها الا بعد ربع قرن او يزيد اختمرت فيه فكرة تحرير المرأة وساعدت على اختمارها عوامل شتى في داخل البلاد وخارجها كان أولها التقدم الاقتصادي الذي زاد في ثروة البلاد ورخائها وساعد على قيام الحضارة ونشر التعليم وارسال البعثات العلمية الى أوربا

وثانيها التقدم العلمي الذي سهل المواصلات وزاد في روابط الصلة بين الشرق والغرب وفتح الأذهان لنقد النظم والتقاليد فلم يعد لها تلك القداسة التي كانت لها في نظر أجدادنا وثالثها حركة مباركة قامت بها المسز بنكهرست زعيمة المطالبات بحق النساء في انكلترا مع أربع وستين سيدة من خريجات الجامعات ذهبنَ الى البرلمان وقدمنَ اليهِ عريضة جاء فيها «لقد سئمت نفوسنا مظاهر العطف وضروب المجاملة والتحبيذ التي يبديها رجال السياسة ويريد النساء تحقيق مطالبهنَّ وسيبتأ نفنَ السير فاما نيل المرام واما الحمام»

ولما خرجت من البرلمان شرعت تجول في طول البلاد وعرضها تخطب في المعاهد العلمية والجمعيات والاندية ووصلت الى اكسفورد حيث عقدت مع زميلاتها عدة اجتماعات قررن في ختامها عقد مؤتمر في السنة التالية . وفي مايو سنة ١٩٠٧ قامت جمعية خريجات اكسفورد بعقد المؤتمر وضم نخبة كبيرة من أقطاب العلم وأساطين الفكر ورجال المال أذكر منهم السير اوليفر لودج العالم الطبيعي والسر وليم كروكس الكيمياني والعلامة رنتجن الألماني والفيلسوف هنري برغسن وأرنست هيجل البيولوجي وكوخ البكتريولوجي واللورد جلفن وماركوني وأديسن ومدام كوري وأينشتين وبرتراند رسل وتولستوي ومكسيم غوركي وغستاف لبون وأدمون دي مولان وسارة برنار وكارنيجي وفورد ومرجان ، لبى كل هؤلاء الاقطاب دعوة المؤتمرات واجتمعوا من مختلف أقطار الأرض تأييداً لتلك الحركة المباركة وخطب عشرة منهم في مركز الفتاة في الهيئة الاجتماعية ومزاياها العقلية والروحية وما يمكن ان يشاد عليها من الرفعة والمجد في حياة استقلالها ووردت برقيات التأييد من ملك انجلترا وملكة هولاندة وامبراطور المانيا ورئيس الولايات المتحدة وغيرهم. ولما انتهى المؤتمر رفعت قراراته الى برلمانات اوربا وأميركا وحكامها وجامعاتها فكان لها اثرها البعيد في العالم كله وخاصة بعد ان تحققت مطالبهن في كثير من الدول

وكان رابع العوامل ابطال الرق فقد كان لتلك الحركة اثرها في تقدير حق الحرية الشخصية والثورة على انواع العبودية وما هو أن أصدر البرلمان البريطاني قانوناً حدد بمقتضاه أول اغسطس سنة ١٨٣٤ لتحرير كافة الارقاء في الممتلكات البريطانية حتى بلغ عدد المحررين سنة ١٨٤١ في الهند الشرقية وحدها اثني عشر مليوناً وسرعان ما اقتدت دول الغرب ببريطانيا فأبطلته السويد سنة ١٨٤٦ وفرنسا والدنمارك سنة ١٨٤٧ وهولندا سنة ١٨٦٢ وتلتها باقي الدول تدريجيًّا ثم تحولت الجهود لابطاله في الدول الاسلامية فلم يأت عام ١٨٧٧ حتى عقد اسماعيل مع بريطانيا معاهدة لابطاله ومنع الاتجار به فلم يكن من المعقول بعد ان تحررت في مصر وغيرها الاماء ان ترضى بالاستعباد باقي النساء

وخامس العوامل تحرير المرأة التركية ونهضتها العظيمة بعد ان أخذ بيدها بطل الاستقلال كمال أتاتورك وأزال العراقيل من سبيلها فانطلقت الى ميادين العلم والحياة تسعى جاهدة وشاركت الرجل في بناء مجد بلادها وكان لنهضتها وهي المرأة المسلمة صدى بعيداً في الأمم الاسلامية خاصة

وسادس العوامل البعثات العلمية وسفر الكثير من المصريين الى اوربا مما ساعد على اقتباس الكثير من العادات الغربية في طرائق الحياة والتفكير ونبه الأذهان الى مواطن الضعف وأثار الهمم للعمل على الاصلاح فبضدها تتميز الأشياء

ولعل أبلغ ما أستشهد به نبذة من كتاب المرشد الأمين للبنات والبنين الذي وضعه رفاعه بك الطهطاوي بعد عودته من الدراسة في اوربا فكان اول من دعا فيه الى وجوب تعليم البنات ومساواتهن بالبنين واختلاط الجنسين فقد جاء فيه « ينبغي صرف الهمة في تعليم البنات والصبيان معاً لحسن معاشرة الأزواج فان هذا مما يزيدهن أدباً وعقلاً ويجعلهن بالمعارف أهلاً لمشاركة الرجال في الكلام والرأي فيعظمن في قلوبهم ويعظم مقامهن لزوال ما فيهن من سخافة العقل والطيش مما ينتج من معاشرة المرأة الجاهلة لمرأة مثلها وليمكن المرأة عند الاقتضاء ان تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر طاقتها فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن وهذا من شأنه ان يشغل النساء عن البطالة فان فراغ أيديهن من العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالاهواء وافتعال الأقاويل فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ويقربها من الفضيلة واذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال فهي مذمة عظيمة في حق النساء »

وقد كان في قيام مصريات لمعن كالنجوم الزاهرة وسط الظلام الجثم على اخواتهن ما أيد حجة القائمين بالدعوة الى تعليمها وتحريرها أذكر منهن فاطمة الأزهرية والسيدة الطهطاوية وتلميذتهما عائشة التيمورية التي تلقت عنهما النحو والعروض

ثم كانت آخر العوامل قيام الثورة الوطنية المصرية سنة ١٩١٩ فتحطمت آخر القيود التي قيدت المرأة فبرزت من خدرها واندفعت في حماسة الى ميدان الجهاد واتسع أمامها مجال العمل وتفتحت أبواب الأمل وبدت طلائع المستقبل المنير

وهكذا ترون ان تقدم الأسرة المصرية لم يأتِ طفرة فقد كان لكل عوامل من تلك العوامل نصيبه في تمهيد سبيل النهضة وتهيئة الأفكار للتطور المنتظر كما كان لما يحدث في الغرب صدًى بعيداً تجاوب في مصر فأيقظها من سبات طال أمده وفتح عينيها لاستقبال نور العلم وضياء الحرية وسرعان ما استجابت لنوازع التجديد في نظمها الاجتماعية والعلمية والسياسية وأسرعت الخطى فقطعت في فترة وجيزة ذلك الشوط البعيد في نهضتنا الحديثة وكان طبيعيًا ان تنال الأسرة نصيبها من هذا التطور الكبير وخاصة بعد ازدياد المدارس وانتشار تعليم البنات واطراد الزيادة في الاقبال عليه وتدرجه في الرقي تدرجاً دفع بالاسرة الى التقدم دفعاً سريعاً فتطورت العلاقة الزوجية وأصبحت تقوم بين طبقة على التفاهم والتعاون وبعد ان كان الزوج هو السيد المطلق الحاكم بأمره والزوجة في نظره متاعاً وأداة لانتاج الأولاد أصبح اليوم رأس العائلة وأصبحت هي العنق التي تحركه في رفق وهوادة لا يشعر معها بغضاضة وصارت الزوجة شريكته وصديقته لا أمًّا لأولاده فحسب تحررت من أسر الحجاب وأيقنت ان الحجاب ما حجب عن

أخلاقها الشر والسوء فخرجت من عزلتها السحيقة لتستنشق نسيم الحياة الحرة طليقة وشاركت زوجها التمتع بمباهج الحياة تحضر معه الاجتماعات وتدعى الى الحفلات وترافقه في الزيارات والخروج للرياضة والترويح عن النفس فاستغنى كثير من أفاضل الأزواج بهذا الاشتراك العائلي السعيد عن ارتياد المقاهي والبارات والسهر في الأندية والصالات ووسع هذا الاشتراك واقبالها على قراءة الجرائد والمجلات أفق الحياة أمامها فصارت أكثر بصراً لأمور الحياة وترفعت عن السفاسف وبعدت عن الخرافات وصارت تشعر بقيمتها وتعتز بكرامتها وتقدر مسئوليتها نحو الاسرة والمجتمع والانسانية وكانت النتيجة الحتمية لهذا كله ان ارتفع مستوى البيوت وارتقى فيها الذوق وسادها النظام وتقدمت صحة الاولاد وتحسنت تربيتهم وصار تعليم البنات ضرورة كتعليم الاولاد وأقبل كثير من بنات كرام الأسر على معاهد العلم العالية ينهلن من نبعها الصافي فانفسح أمامهن طريق العمل واشتغلن بالتعليم والتحرير والتمريض وغيره وساهمن بنصيب مشكور في الشئون العامة فأقبلن يواسين المريض ويساعدن الفقير ويحتضن اليتيم وشمل برهن مختلف الطوائف وما كادت تشتعل نار الحرب الضروس حتى انهالت طلبات المتطوعات لتخفيف ويلاتها ومصابها . هذا حال الأسرة المصرية الحديثة والاتجاه الذي تسير فيه اليوم . غير ان الأسر المتعلمة لا تزال قليلة اذا قيست بمجموع الأمة لاقتصار التعليم على الطبقتين العالية والوسطى واذا كنت قصرت بحثي الى الآن على هاتين الطبقتين فليس ذلك تقليلاً من شأن الطبقة الثالثة وهي سواد الشعب ودعامته وانما لأن التطور الذي أصاب تلك الطبقة ضئيل ضعيف الأثر

إن مهمة الباحث الذي يستعرض حال الأسرة المصرية ليتناول عيوبها بالعلاج مهمة شاقة عسيرة لا بد له معها من الأناة والروية ذلك ان الموضوع جد خطير يزيد في صعوبته تفاوت غير قليل في سلم الرقي الاجتماعي واختلاف غير يسير في مشاكل الأسرة في كل طبقة من الطبقات وقد ترددت بأيها ابدأ ، أبالطبقة الدنيا وهي السائدة الغالبة أم بالطبقة العالية وقد أعطي لها الزمام في القيادة أم بالطبقة الوسطى وهي حلقة الاتصال التي تخضع لناموس التأثير والتأثر ثم رأيت ان أكتفي بعرض أبرز العيوب في المجتمع المصري وأعظمها خطراً على كيان الأسر . وسأحاول ما استطعت ان ألمسها في رفق ولين ، حتى لا يكون لشوكها ما يجرح عاطفتكم ويدمي فؤادكم

***

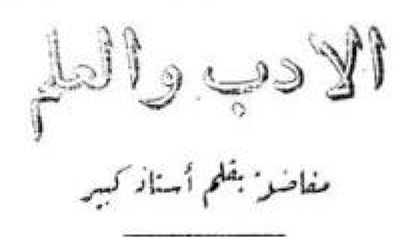
قفوا بنا عند تعدد الزوجات وارجعوا الى الاحصاءات التي تنتهي بنا الى كثرة الطلاق وما يترتب عليه من شقاء العائلات . من دواعي السرور ان أخذ الكثيرون يقلعون عن تعدد

ومشكلة أخرى تواجه الأسرة المصرية وتزلزل كيانها تلك هي انخفاض مستوى معيشة الملايين من الطبقات الفقيرة انخفاضاً نزل بها عن مرتبة الحياة الانسانية . ويزيد الحالة سوءاً كثرة العيال في تلك الطبقات كثرة أصبحن معها نواجه مشكلة اطراد الزيادة في عدد السكان في وقت زاد فيه الكفاح في سبيل العيش واشتد ضغط الحياة حتى اصبح الرجل في كثير من بلاد الريف يعمل طول يومه بقرشين والمرأة بأقل من ذلك

بالله . . . كيف يمكنني وصف حال هذه الاسر التي لا تجد الكفاف الا بشق النفس ان القلب ليذوب حسرة وينقبض ألماً ويكاد يعجزني عن الكلام فلأترك لحضراتكم تصور الحالة الصحية والاجتماعية لتلك الاسر فكلكم يعرف بؤس الفلاح وما يحيط به من شقاء وما يفتك به من امراض . وتصوروا معها حال اسر المتعطلين الذين سدت في وجههم ابواب الرزق وضاقت بهم سبل العيش . ان مشكلة ازدياد السكان مشكلة عويصة لا بدّ لعلاجها من همم وجهود جبارة وعندي ان نبدأ فوراً بمنع تعدد الزوجات ونشر الدعاية لتحديد النسل اذ ما من شك في أن كثرة الانتاج في الطبقات الفقيرة والطبقات التي تليها هي علة تلك الزيادة . وعلينا ان نعمل على نشر تعليم الصناعات المنزلية الصغيرة ليكون من دخلها معيناً للاسر الفقيرة على سد حاجاتها ورفع مستوى حياتها . ولا نغفل انشاء الصناعات التي تتوفر أسبابها في مصر واستغلال الأراضي البور ومختلف موارد الثروة المصرية ونشر التعليم بين سواد الشعب فلا سبيل الى النهوض بالطبقات الفقيرة بغير تعليم شعبي صالح يعمم عن طريق الالزام وبغير تضافر جهود المانحين بالأمر والعاملين على الاصلاح على رفع المستوى الاقتصادي لتلك الطبقات الى مستوى يتفق مع الكرامة الانسانية لأن الفقر والجهل هما علة جل ان لم يكن كل مشاكل الأسرة في تلك الطبقات

***

هذه يا سادة أهم مواطن الضعف في العائلة المصرية اجمالاً منها ترون ان بعض تلك العلل يرجع الى اثرة الرجل وأنانيته وبعضها يرجع الى تقاليد كان لها أثر بعيد وبعضها يعود الى نقص التربية وعجز القوانين عن حماية العائلة وتوفير أسباب سلامتها وتقصير الشارع المصري في سد هذا النقص واذا كنت قد أغفلت ذكر كثير من العيوب والعادات التي تحتاج الى الاصلاح والتقويم كحب الظهور والميل الى الاسراف وأساءة البعض لفهم الحرية وتطرفهم في الاختلاط . فلأني أخشى أن يطول بنا المقام ان أنا استعرضت كل ما تشكو منه الأسرة المصرية واكتفيت بما قدمت من العلل لأني رأيت فيها أعظم ما يهدد كيان الأسر ولا بدّ من المبادرة الى علاجها لنهض بمجتمعنا ومصرنا العزيزة . وختاماً أشكركم على حسن اصغائكم



مفاضلة بقلم أستاذ كبير

الروايات الممتازة أصدق وأبقى من كتب العلم

[وليم ليون فلبس William Lyon Phelps أستاذ الادب الانكليزي ورئيس دائرته في جامعة يايل الاميركية مشهور في أميركا وانكلترا بمنزلته الادبية العالية وآرائه في تاريخ الادب الانكليزي ونقده. فهو متعصب للادب حتماً على العلم ولكنه ليس تعصب رجل يحجب الهوى الحقيقة عن عينيه. بل هو يؤيد رأيه بالحجة القوية والواقع انجاباً غير يسير من الحق ملازم رأيه في الناحية التي اختارها للمفاضلة بين العلم والادب قال : —]

مع أن العلم يفوق الأدب في دقته وروعة الجديد فيه إلاَّ انهُ لا يكاد يقرب من الأدب العالي في صدقه فالروايات العظيمة أصدق في الغالب من أي مؤلف علميّ

لنفرض اني استاذ للطبيعة واني دخلت ذات صباح حجرة التدريس وقلت لنستعمل اليوم كتاباً في الطبيعة الف من خمسين سنة أي سنة ١٨٩٠ فلا ريب عندئذٍ في ان الضحك يغلب على الطلاَّب . فأقول لهم : ألم يكن مؤلف هذا الكتاب ثقة في موضوعه، ألم يكن أميناً للعلم وللحقيقة ؟ فيردون عليّ كان المؤلف كلَّ ذلك وأكثر منهُ ، ولكنهُ وضع مؤلفه من خمسين سنة . ولو كان حيًّا اليوم ، لما كان لهُ مفرٌّ من تنقيحه وإعادة كتابتهِ وطبعه . ان الطالب المبتدىء في علم الطبيعة يستطيع ان يشير الى ما فيهِ من خطإٍ يجب أن يحذف ، أو قول لا بدَّ من تعديله . لان كثيراً مما كان صحيحاً في عرف العلم سنة ١٨٩٠ أصبح لا يستقيم اليوم . بل هناك أشياء كثيرة كانت صحيحةً سنة ١٩٢٠ في نواحٍ من علم الطبيعة ولكنها ليست صحيحة اليوم. فالعالم يجب أن يدأب على تنقيح مؤلفاتهِ مجاراةً لتقدم العلم وتحوُّلهِ

والواقع اني اظن ان معدَّل عمر النظرية العلمية لا يزيد على سبع سنوات . فما يكاد ينشر أحد الباحثين نتائج بحث قضى فيهِ ثلاثين سنة ، حتى يطلع باحث آخر بعد بضع سنوات ببحث آخر يهدم بهِ معظم ما ذهب اليهِ الباحث الاول

فيجب ان تستوثق أيها القارىء عند ما تبتاع كتاباً علميًّا ، أو دائرة معارف من ان الكتاب او الدائرة من أحدث طبعة . ومن المقابلات الطريفة ان الطبعة الاخيرة من الكتب العلمية

هي أكبر قيمة من نسخ الطبعات القديمة، الا لمن يبتغي الطبعة القديمة لحفظها في متحف او للاطلاع على حالة العلم في موضوع ما في وقت ما . أما الآثار الادبية العظيمة فأقدم الطبعات أغلاها على الاطلاق وليس السر في هذا التفاوت ببعيد الغور

كان العلامة داروين معاصراً لدكنز. الاول عالم لا يشق له غبار. والثاني روائي من الطبقة الأولى. فالاول دوَّن في مؤلفاته «الحقيقة» عن التطور العضوي كما تبينها واستخرج الأدلة على صحتها . والثاني صنَّف روايات، ولكن لو كان داروين حيًّا اليوم لاضطرَّ ان يحذف صفحات متعددة من كتبه وأن ينقح الصفحات الاخرى . أما دكنز فلا يكون مضطرًّا ان يحذف كلمة واحدة من رواياته . ان كتاب « اصل الانواع » لا يصح بحذافيره الآن ولا يستقيم بل ان طائفة من رجال العلم ترى ان جانباً كبيراً منهُ خاطىء . اما « داڤيد كوبرفيلد » آية دكنز في تأليفه الروائي ، فصادقة اليوم صدقها يوم كتبت وأخرجت للناس

ألَّف شكسبير مسرحية « هملت » من نحو ثلاثة قرون . ومع اني استاذ للادب الانكليزي ، وأمتاز على شكسبير بأني درست ثلاثة قرون من هذا الأدب العالي كانت حافلة بالأعلام والعباقرة ، أحسبني أكبر أبله في الدنيا اذا حاولت أن أنقح رواية هملت . ولقد أتيح لي ان اشاهد درامات يونانية كتبت أربعة قرون قبل المسيح ، تمثل أمام أبناء القرن العشرين فتترك أثرها البالغ في نفوسهم وعقولهم . ان هذه الروايات في صدقها ، كأنها كتبت البارحة . فما الباعث على ذلك وما تفسيره ؟

ان النتائج التي يفضي اليها البحث العلمي ، والتصريحات العلمية العامة التي يقوم بها العلماء ، تنقلب وتتحول متأثرة بعوامل متعددة. بل قد تكون الأسس التي يقوم عليها البحث العلمي عرضة للريب . حالة ان الحكايات العظيمة ، والقصائد ، والدرامات ، صادقة كانت وصادقة ما تزال. والباعث على ذلك في نظري ، هو ان الروايات العظيمة قائمة على فهم او وصف شيء مستقر ، لا تتغير اصوله ولا تتبدل الا على المدى البعيد وهو « الطبيعة البشرية »

الطبيعة البشرية لا تتغير . لم تتغير في الماضي مدى التاريخ المعروف ولا يحتمل ان تتغير في المستقبل الذي يدركه الخيال . فالرجال والنساء الذين نراهم في شوارع المدن العظيمة في سنة ١٩٤٠ تحركهم نفس النوازع والغرائز والشهوات والرغبات التي كانت تحرك الناس قبل عشرة آلاف سنة ، اذ كانوا يطاردون بعضهم بعضاً بالفأس . والفرق الوحيد بين الفريقين ان الجماعة التي توصف بأنها متمدنة تمكنت بالتعلم ان تفوق أسلافها قليلاً في السيطرة على نوازعها

ان رجاء الانسانية ليس بمعقود على تغيير الطبيعة البشرية ، ولكنه معلق بزيادة السيطرة على بواعثها الأساسية وفقاً لأحكام العقل وضرورات الاجتماع [منقولة بتصرف يسير]

على هامش الحرب الدولية الحاضرة :

مصر وطريق الهند

في القرن الثامن عشر

— ٣ —

لجمال الدين الشيال

(المنافسة تبدأ بين انكلترا وفرنسا للسيطرة على طريق مصر — البحر الاحمر) — في هذه الآونة كانت المنافسة بين انكلترا وفرنسا على أشدها . وقد وجهت هذه الحوادث نظر الفرنسيين نحو مصر ففي سنة ١٧٧٧ أرسل إنسلي الى حكومته تقريراً يخبرها فيه بأن البارون دي توت Baron de Tott المفتش العام للثغور التجارية الفرنسية في الشرق قد زار القاهرة ساعياً لامضاء معاهدة تجارية مع المماليك (١) . وذكر انسلي في تقريره أيضاً ان بعثة دي توت كانت تعني بأمور أكثر جدية من هذه المعاهدة وانها كانت تعني بدراسة الوسائل الممكن اتباعها لغزو مصر والوسائل الممكنة لفتح طريق تجاري فرنسي بين مصر والهند واعادة حفر الخليج الذي بين النيل والبحر الأحمر، كان لهذا الحادث الفضل كل الفضل في تقريب شقة الخلاف بين بلدوين Baldwin من ناحية وإنسلي Ainslie والحكومة الانكليزية وشركة الهند الشرقية من ناحية أخرى، وسافر بلدوين في سنة ١٧٧٨ الى القسطنطينية ليسعى هو وإنسلي لدى الباب العالي كي يسمح للسفن الانكليزية التي تحمل المراسلات بالوصول الى السويس ولكن الحكومة العثمانية رفضت هذا الطلب وحذرتهما من السماح لأية سفينة بالتقدم شمال ثغر جدة . وعاد بلدوين الى القاهرة مظهراً الطاعة ولكنهُ فيما بينه وبين نفسه لم يقلع عن الفكرة لأنهُ كان لا يزال يعتقد بأفضلية طريق السويس (٢)

وأخيراً اقترح إنسلي على وزارة الخارجية ان تستعمل طريقاً آخر لايصال مراسلاتها الى الهند . هذا الطريق يبتديء من حلب ويخترق العراق الى البصرة ومنها الى بمباي . . . (وقد استعمل هذا الطريق بعد ذلك بقليل مدة احتلال الفرنسيين لمصر ١٧٩٨ — ١٨٠١) ولكن هذا الطريق لم يكن بالطريق الآمن ذلك لان العربان كانوا يغيرون على المسافرين فيسلبونهم ما معهم وقد يقتلونهم

---

(١) Ch. Roux, Op. Cit, P. P. 94-95 (٢) Hoskins, Op. Cit. P. 20

ولم تكد تبدأ سنة ١٧٧٩ حتى بدا للجميع ان طريق السويس على وشك أن يهجر ، فقد كان الباب العالي عاقداً النية الجازمة على القضاء على تجارة الفرنج في البحر الأحمر وهذا الحادث التالي يدل دلالة واضحة على قوة عزم الباب العالي . ففي الرابع والعشرين من شهر مايو ١٧٧٩ وصلت الى السويس سفينتان تحملان العلم الدانمركي ولكن يقودهما رجل انكليزي اسمه جورج مور G. Moore وكان مور يحمل معه خطاب توصية من حاكم بنغال الى الأمير المملوكي في القاهرة وكان معه في السفينة رجل ألماني يدعى فان در فلدن Van der Velden يحمل أيضاً خطاب توصية من نفس الحاكم الى بلدوين Baldwin

أما بلدوين فلم يجرؤ على مساعدة القوم. ولكنهُ عندما وصلته أوامر الأمير المملوكي بالاعتناء بتجارتهم تقدم وساعدهم حتى أفرغوا بضاعتهم . . وسار مور الى القاهرة تاركاً صحبه في مهمتهم وبعد قليل اتخذ الباقون (وهم هذا الألماني وأربعة من الانكليز وفرنسيان) طريقهم في قافلة تحمل تجارتهم نحو القاهرة وقد بدأوا رحلتهم آمنين غير مسلحين أو مستعدين لمقابلة ما عساه يعترضهم من أخطار، ذلك لأن الأمير المملوكي لم يؤمنهم على أنفسهم وتجارتهم فحسب، بل زوَّدهم بالجمال التي تحمل تجارتهم نحو القاهرة. ولكنهم فوجئوا بعد ان اجتازوا مرحلة قصيرة من رحلتهم بجماعة من البدو انقضوا عليهم فسلبوهم بضاعتهم التي كانت تقدر بمبلغ ٣٧٫٥٠٠ جنيه بل وسلبوهم ملابسهم التي تغطي أجسادهم وتركوهم عراة حيارى في الصحراء وقد عاد أودونيل O'Donnell — وهو أحد الاربعة الانكليز — الى السويس . وأما الباقون فقد اعتقدوا أنهم يستطيعون الوصول الى القاهرة فساروا في طريقهم ، ولكنهم سرعان ما ضلوا الطريق فقضوا نحبهم من الجوع والعطش والتعب وضربة الشمس ، الاَّ واحداً من الفرنسيين أنقذه أحد الفلاحين وهو في آخر رمق من حياته

وصل أودونيل O'Donnell الى القاهرة عن طريق السويس وهناك استطاع بمساعدة بلدوين الحصول على مبلغ من المال كهبة للمساعدة وفي نفس الوقت غيَّر الامير المملوكي خطته وأرسل فرقة من جنوده تبلغ المائتي جندي استولت على ما في السفينتين من تجارة . وألقى القبض على مور وبلدوين وأودونيل وأودعهم جميعاً السجن وأرسل البك تقريراً بالحادثة الى الباب العالي كما أرسل بلدوين وأودونيل تقريرها كذلك الى السير روبرت إنسلي Sir Robert Ainslie

وافق الباب العالي على الاجراءات التي اتخذها أمير القاهرة لأنها تنفذ لسياسته ورغبته ، كذلك لم يجد إنسلي اهتماماً ظاهراً لنفس السبب وان كان قد سعى سعياً جديًّا لدى الباب العالي ليأمر باطلاق سراح الاسرى ، وهذا ما فعله أمير القاهرة قبل ان يصله امر السلطان لأنهُ أحسَّ الأثر السيء الذي تركه الحادث في دول غرب اوربا جميعاً

أطلق الامير سراح أسراه كلهم ما عدا بلدوين ولكن هذا سرعان ما استطاع الفرار من سجنه وهرب من مصر — تاركاً وراءه جميع ممتلكاته — على سفينة فرنسية حملته الى ازمير Smyrna ومن هناك ارتحل بلدوين الى القسطنطينية حيث بقي شهوراً طويلة يوزع اللوم في حنق وألم على كل من ظنهُ سبباً في هذه المأساة الاخيرة وخاصة على التاجر البندقي ذي النفوذ الكبير كارلو روسيتي Carlo Rosetti ، وعلى رئيس الجمرك انطون قسيس، وفي سنة ١٧٨٠ ذهب بلدوين الى انكلترا محاولاً رفع شكواه الى حكومته متهماً انسلي بمماكسته وبخيانة وطنه وممالأة الاتراك في سياستهم، ومحاولاً في الوقت نفسه اقناع حكومته بالسعي لتشجيع طريق السويس وفتحه للتجارة والملاحة. وقد أثبت التحقيق براءة انسلي ، ولكن اخبار هذه الحادثة وصلت متأخرة الى الهند وانكلترا ولذلك فقد قصدت في صيف سنة ١٧٨٠ سفينتان انكليزيتان الى مدينة القصير فأنزلت الى البر خمسة من رجالها الانكليز ، وفي القاهرة أسر اربعة منهم وسمح للخامس بالسفر الى القسطنطينية ومعهُ الرسائل التي كان يحملها الى انكلترا ، وهناك فتحت احدى هذه الرسائل ومنها علم الاتراك ان السلطات الانكليزية في الهند لا زالت دائبة السعي لعقد الصلات التجارية مع مماليك مصر تبعاً لنصوص معاهدة سنة ١٧٧٥

وتمكن انسلي بصعوبة شديدة من اطلاق سراح مواطنه وارساله الى انكلترا بما معهُ من رسائل . اما السفينتان الراسيتان في القصير فقد دهم البدو ملاّحيهما وقتلوا منهم خمسة حتى اضطر الربان الى اطلاق مدافعه على المدينة

وارسلت الحكومة الانكليزية الى الهند تكرر اوامرها وتشدد في تنفيذها — ألاّ يتقدم احد بتجارته او سفنه شمال جدة ، ولكن ما حدث لقافلة سنة ١٧٧٩ ، وما حدث لرسل سنة ١٧٨٠ كان أسرع انتشاراً وأعمق أثراً من اوامر الحكومة الانكليزية او الباب العالي أو شركة الهند الشرقية

واذ اصبحت الاخطار التي تحدق بالتجارة الى مصر اكثر من ارباحها ، واذ اصبح الاتصال بمصر يعتمد على السفن المصرية التي تسير بين جدة والسويس فقد هجر هذا الطريق هجراناً تاماً، ولذلك لم تكد تنتهي سنة ١٧٨٠ حتى أقلعت السفن الانكليزية عن الذهاب الى السويس . ويقرّر هذه الحقيقة هوسكنس[١] « By the end of 1780 it was said that English vessels no longer came to Suez »

أثارت هذه المحاولات اهتمام دول غرب اوربا لهذا الطريق ولذلك فقد حاولت النمسا ان

(١) Hoskins, The British Routes to India, P. 25

توجد لها — بالاتفاق مع الباب العالي — وكلاء او قناصل تجاريين في القطر المصري (في الاسكندرية والقاهرة والمدن الكبيرة) ولكن هذه المحاولات لم تستمر طويلا

﴿ فرنسا تتحفز للوثوب على مصر ﴾ وكانت فرنسا تصوّب أنظارها في جشع منذ أمد بعيد نحو مصر ، وكانت تحفزها الى الوثوب ظروفها السياسية وعلاقاتها المعقدة مع انكلترا ولذلك فانها — بعد سنة ١٧٧٨ ، وبعد ان عقدت حلفاً مع المستعمرات الأميركية ضد بريطانيا — تضاعفت رغبتها في شل حركة التجارة الانجليزية في الشرق ، وعارضت اقتراحات كثيرة لتنفيذ هذه الرغبة ، كان بعضها يرمي الى الاتفاق مع ايران للوصول الى الهند ، وكان بعضها يرمي الى احتلال مصر وبلاد العرب وفتح قناة تصل البحرين الأحمر والأبيض

وفي سبتمبر سنة ١٧٨٣ عقدت معاهدة سلمية بين فرنسا وانجلترا وبذلك أسدل الستار مؤقتاً على هذه المشروعات وحاولت فرنسا الوصول الى الاتفاق مع مماليك مصر كما فعل الانجليز سنة ١٧٧٥ وبدأت الحكومة الفرنسية فأرسلت الى ممثلها لدى الباب العالي تسأله اعداد تقرير تقارن فيه بين فوائد الطريقين المؤديين الى الهند وهما : طريق البصرة ، وطريق السويس

وفي سنة ١٧٨٤ وصل الى مصر القائد الفرنسي البحري شفاليه دي تريجيه Chevalier de Truguet ، وقدّر لهُ ان يكون أحسن حظاً وأكثر نجاحاً من صحبه جميعاً ، ذلك أنه كان يحمل الى امراء المماليك في مصر خطاب صداقة من القبطان باشا قائد الأسطول التركي ، ولأنه كان على اتصال وثيق بالتاجر الفرنسي الشهير شارل مجالون Charles Magallon . واذا عرفنا ان مجالون كان قد قضى في مصر ما يزيد عن العشرين عاماً اكتسب في خلالها نفوذاً لا بأس به ، أدركنا كيف سهل على تريجيه الوصول الى الاتفاق مع المماليك

وأُمضيت المعاهدة في فبراير سنة ١٧٨٥ بين مراد بك وتريجيه ونصت على ضمان الحريات بأنواعها المختلفة للتجار الفرنسيين كما نصت على تخفيض الضرائب المجباة على التجارة الفرنسية تخفيضاً كبيراً

وعقد اتفاقان آخران : أحدهما بين تريجيه ومدير الجمارك في القاهرة خاصًّا بالضرائب التي تفرض على البضائع الفرنسية عند تفريغها في السويس . والآخر بين تريجيه وأحد مشايخ العربان خاصًّا بالقوافل التي تحمل البضائع الى القاهرة ، وبهذا وصل الفرنسيون الى ما لم يصل اليه الانجليز في محاولاتهم الماضية جميعاً

﴿ انجلترا تراقب المحاولات الفرنسية وتحاول القضاء عليها ﴾ أحسَّ رجال الحكومة الانجليزية بالندم يأكل نفوسهم أن أصرُّوا في الماضي على العدول عن طريق السويس ، وانتهز

هذه الفرصة بلدوين ورفع شكواه الى الحكومة فبرىء من التهم التي نسبت اليه ، ونشر في ذلك الحين كتيباً صغيراً عن الموضوع أسماه :

"The Communication with India by the Isthmus of Suez, vindicated from the Prejudices which have prevailed against it."

وحلل فيه وجهة نظر كلٍ من الحكومة العثمانية وشركة الهند الشرقية وأثبت بطلانها ، وألحّ على الحكومة الانجليزية أن تعيد السعي لاستعمال هذا الطريق والا جاء اليوم الذي يصبح فيه وصول الانجليز الى ممتلكاتهم في الهند تحت رحمة الفرنسيين وباذنهم

وعهد الى بلدوين أن يضع مذكرة يصف فيها كيف يمكن للانجليز إحياء علاقتهم مع مصر من جديد ، وكتب بلدوين المذكرة وبيّن ان الطريقة الوحيدة هي تعيين قنصل انجليزي في القاهرة يرسل من قبله مندوبين له الى الاسكندرية والسويس ، واقترح لتغطية مصاريف هذه الوكالات السياسية حلاً من ثلاثة :

١ — احياء التجارة بين الهند والسويس ووضع ضريبة خاصة على هذه التجارة تغطي هذه المصاريف

٢ — أو الغاء الاحتكار الذي تتمتع به شركة الهند الشرقية وتحويل الاعانة الحكومية السنوية التي تمنح لها الى هذا الغرض

٣ — أو تتكفل الشركة بدفع هذه النفقات من دخلها الخاص

ووافقت الحكومة الانجليزية على الفكرة ، وعُيّن بلدوين نفسه قنصلاً في مصر ، وقبلت الشركة أن تدفع له مرتبه السنوي وقدره ٥٠٠ جنيه ، وحددت مهمته بهذه الأغراض :

١ — أن يعمل لحماية رعايا صاحب الجلالة اثناء تجارتهم ومرورهم بمصر

٢ — أن يسعى لدى الحكومة المصرية للحصول على ضمان لحماية رعايا صاحب الجلالة وتجارتهم في ذهابهم الى الشرق وإيابهم منه

٣ — وهو الأهم — أن يراقب حركات الفرنسيين مراقبة دقيقة وأن يرسل لحكومته التقارير الوافية عن هذه الحركات

وأمرتهُ الحكومة الانجليزية أن يسعى أول ما يسعى الى عقد معاهدة مع المماليك لا تقل في امتيازاتها عن المعاهدة التي عقدتها فرنسا ، ومهدت الحكومة له الطريق في القسطنطينية قبل ان يغادر وطنهُ الى مصر ، ولكن هذه الرغبة اعترضها فرمان الباب العالي القاضي بتحريم مرور التجارة المسيحية في البحر الاحمر ، فأرسلت الحكومة الانكليزية الى انسلي تأمره أن

يجعل أساس حديثه مع السلطان الامتيازات التجارية والبحرية السخية التي منحت للانكليز سنة ١٧٦٥

وأقلع بلدوين في اغسطس سنة ١٧٨٦ قاصداً مصر ليتولى منصبه الجديد ، ولكن حظهُ السيء كان يلازمهُ اذ كان في مصر وقت وصوله جيشٌ وافد من تركيا لإخضاع الأمراء الثائرين ، كما كانت حالة البلاد الداخلية تهم بأشد أنواع الفوضى

كانت مصر في ذلك الحين مسرحاً لنزاع دائم مستمر بين امراء المماليك ، وكان المتغلب من هؤلاء الأمراء يتولى العرش ، ولكنهُ لا يلبث إلاَّ قليلاً حتى يغدر به أمير آخر فيأخذ مكانه بعد أن يقتله ، وكان كل أمير يحس أن أجل حكمه قصير ، ولذلك كان يتبع كل السبل المشروعة وغير المشروعة للحصول على المال ، وكان الباب العالي أمام الارتباكات الداخلية ، وتحت الضغط الروسي الملحّ الدائم لا يستطيع أن يتخذ أية اجراءات إيجابية لإخضاع هؤلاء المماليك . ولكن الكيل طفح أخيراً فقد طلب مراد بك سنة ١٧٨٦ مبلغاً من المال من قناصل الدول الاوروبية في مصر وإلاَّ عمد إلى تخريب كنيستي الفرنشيسكان في الاسكندرية ، ويقال إن هذه الوسيلة كانت من ابتكار القنصل الروسي في الاسكندرية البارون دي تونوس Baron de Thonus

أمام هذا الخطر الداهم لجأت الهيئة الدبلوماسية الاوربية في الاسكندرية الى ممثلي دولها في القسطنطينية ، وذهب وفد من وكلاء هذه الدول جميعاً — ما عدا السويد وانجلترا — يقدمون شكواهم الى الباب العالي ، ووافقت هذه الشكوى هوى في نفس السلطان فقرَّر العمل على إيقاف امراء المماليك عند حدهم ، وسرعان ما اتخذ الاسطول التركي أهبته كي يتقدم نحو مصر ، ولم يشأ السلطان أن يسند قيادة الأسطول الاَّ لربانه الأكبر حسن قبطان باشا[1]

أما إنسلي فمع أنه لم يشترك في هذه الشكوى فقد سرَّ لهذه الاجراءات لأنها ستقضي اذا نجحت على معاهدة سنة ١٧٨٥ الفرنسية المملوكية

ووصل الأسطول الى الاسكندرية التي سلمت دون مقاومة تذكر ، وسار الجيش التركي الى رشيد ثم القاهرة فاستولى عليهما بعد أن طارد جيش مرادٍ وابراهيم نحو الصعيد

ويبدو أن الأتراك لو كانوا قد أحرزوا النصر في وقت غير هذا لفرح الانكليز به أيما فرح ، ولكنهم وجموا لهذا النصر وأسفوا له كل الأسف ، ذلك لأن مبعوثهم بلدوين كان قد وصل مصر في ذلك الحين لعقد معاهدة مع المماليك فإذا بهِ يراهم مهزومين فارّين إلى أقاصي الصعيد ، وإذا بهِ يرى الاتراك يستولون على أزمّة الأمور في مصر فلم يكن أمامه إلاَّ الاعتراف بالأمر

(١) Ch. Roux. Op. Cit. P. 195.

الواقع فاستقرَّ في عمله وعين له مندوبين في الاسكندرية والسويس . وفي مارس سنة ١٧٨٧ قابل القبطان باشا محاولاً تحقيق رغبته بالاتفاق معهُ (١)، ولكن هذا كان يحمل معهُ الفرمان القاضي بتحريم الملاحة المسيحية في البحر الاحمر

كذلك كان إنسلي يسعى — من ناحيته — لدى الباب العالي ليحبط مسعى بلدوين ، أما الحكومة الانكليزية فكانت قد عزمت عزماً أخيراً على استعمال طريق السويس وخاصة لتيسير تبادل الرسائل بين انكلترا والهند

وانى انكلترا حظها الحسن فنشبت الحرب في خريف سنة ١٧٨٧ بين تركيا وروسيا واستدعى القبطان باشا من مصر ، ومنذ ذلك الحين تغير اتجاه السياسة التركية ، وابتدأ القبطان باشا يميل الى الاتفاق مع الانكليز والترخيص لهم بالمرور في البحر الاحمر ، ولكنهُ فوجىء بمساعدة انكلترا لروسيا إذ اكتشفت تركيا أن انكلترا تمد عدوتها بالسفن الحربية

في أثناء هذا كله كان بلدوين دائب السعي لتحقيق سياسته ، وكان مجهوده مضاعفاً لأنهُ كان يعمل لتحقيق فكرة يدين هو بها قبل ان تكون مهمة قد كلفتهُ الحكومة بتنفيذها

وأخيراً استطاع بلدوين — في ابريل سنة ١٧٨٨ — ان يرسل الى حكومته نتيجة سعيه، وتتلخص فيما يلي : —

« لقد نجحت في الحصول — من حكومة القاهرة — على حق السماح للمسافرين والرسائل بالوصول الى السويس بسفن الشركة ، وان تفرغ هذه السفن ما تحمل في أمان ، وان يمر هؤلاء خلال مصر في سلام ، ولقد أرسلت الأوامر بهذا الى السويس ، وأنا لا أشك ان هذه الحكومة لو استبدلت بغيرها فانهُ ليس من العسير الوصول الى الاتفاق نفسه مع الحكومة الجديدة » (٢)

ثم عاد فأرسل الى حكومته كذلك في فبراير سنة ١٧٨٩ يخبرها بوصول سفينتين فرنسيتين الى السويس وانهُ قد سمح لهما بتفريغ بضائعهما ، وانهُ يعدُّ العدة لاستقبال سفينتين تجاريتين انكليزيتين آتيتين من الهند وأن : « المرور في مصر الآن حر اذا شاءت الشركة ان تستغله »

***

﴿ انكلترا تفكر في الغاء قنصليتها بمصر ﴾ كان الاضطراب السياسي في مصر الناجم عن التنازع المستمر بين الوالي العثماني الذي يحاول عبثاً استرداد السلطان الفعلي لدولته وبين أمراء

(١) Hoskins Op Cit P 38

(٢) Hoskins Op. Cit. P. 42

المماليك الثائرين بزعامة مراد وابراهيم والذين كانوا يحاولون هم أيضاً القبض بيد قوية على مقاليد الأمور في مصر. كان هذا الاضطراب عاملاً من أهم العوامل التي زعزعت الأمن وهددت التجارة المتبادلة بين الشرق والغرب بطريق السويس. ولذلك أخذ الانكليز حوالي سنة ١٧٩٠ يصدفون عن هذا الطريق لأنهم لم يجنوا الأرباح التي أمّلوها من تبادل التجارة بهذا الطريق بل كثيراً ما زادت أرباحهم من التجارة المتبادلة بطريق رأس الرجاء الصالح رغم بعده وكثرة نفقاته على أرباحهم التي جنوها من تبادل التجارة بطريق السويس

ولذلك فقد تقدم اللورد جرنفيل Lord Grenville وزير الخارجية الانكليزية في سنة ١٧٩٢ الى هنري دونداس Henry Dundas وزير الحربية باقتراح لالغاء وظيفة القنصلية في مصر لكثرة نفقاتها وقلة نفعها. ولم يلاقِ هذا الاقتراح قبولاً في هذه السنة، ولكن اللورد جرنفيل أعاد الكرة في السنة التالية ١٧٩٣ قائلاً انهُ اذا كانت القنصلية الانكليزية في مصر ذات نفع لشركة الهند الشرقية فلتتولَّ هي أمر نفقاتها والاَّ فلا داعي لبقائها. وكان الاقتراح حلاً حاسماً لأن شركة الهند الشرقية والادارة الهندية لم تقبل واحدة منهما ان تزيد على نفقاتها مبلغاً لا يقل عن ألفي جنيه سنويًّا. ولذلك فقد أرسلت وزارة الخارجية في الثامن من اكتوبر سنة ١٧٩٣ رسالة الى مصر تلغي فيها انتداب بلدوين كقنصل لانكلترا

ولكن لحسن حظ بلدوين وصل هذا الأمر في غير حينه — ذلك انهُ بينما كان جرنفيل يؤكد ان لا فائدة من وجود بلدوين في مصر كان الأخير يؤكد من ناحيته العملية أهمية مجهوداته التي يبذلها في سبيل الامبراطورية. وتفصيل ذلك انهُ في ذلك الحين — أي في اليوم الأخير من شهر يناير سنة ١٧٩٣ — كانت الحرب قد أعلنت بين بريطانيا وفرنسا وأصبح الاتصال بين لندن وبين الهيئات الحاكمة في الهند اكثر أهمية للانكليز منه في أي زمن مضى منذ عين بلدوين قنصلاً في مصر. ولم تكد أخبار اعلان الحرب تصل الى بلدوين حتى أسرع فأرسلها الى الهند قبل ان يصل الى علم الحامية الفرنسية هناك أي خبر عن اضطراب الحالة في أوربا. وبذلك استطاع الانكليز الاستيلاء على Pondicherry وطرد الفرنسيين من الهند

كان هذا عاملاً هامًّا حفز دونداس Dundas الى ان يشير على وزارة الخارجية كي تعمل على استمرار قنصليتها في مصر وعلى تأييد بلدوين في سياسته لما أبداه من غيرة وحماس في الدفاع عن صالح الامبراطورية

وكان من حسن حظ بريطانيا ان بلدوين لم يغادر منصبه لأنهُ لم يستلم، لسبب غير معروف أمر عزله الصادر في ٨ فبراير ١٧٩٣، ولكنهُ مرض في ذلك الحين وكان مزمعاً السفر الى لندن حينما استدعت الحكومة الانكليزية وكيله الشخصي في لندن وأبلغته شفهيًّا ان يكتب الى

بلدوين يخبره بأن الحكومة تريد ان تستبقيه في مركزه متولية أمر نفقاته حتى تضع الحرب بينها وبين فرنسا أوزارها . وبذلك استأنف بلدوين مهمته وكأن شيئاً من هذا الاضطراب لم يحدث

﴿ بلدوين يعقد معاهدة جديدة مع مراد وابراهيم ﴾ كانت المهمة الاولى لبلدوين عند أول تعيينه قنصلاً في مصر — كما ذكرنا — ان يعقد معاهدة تجارية مع مماليك مصر .. ولذلك انتهز بلدوين هذه الفرصة السانحة وعقد هذه المعاهدة بينهُ وبين مراد وابراهيم وقد حصل فيها على الترخيص للسفن الانجليزية بالملاحة في البحر الأحمر حتى مدينة السويس وعلى الترخيص للتجارة الانكليزية بالمرور في أمان بين السويس والاسكندرية . وذلك مقابل ان يدفع التجار ضريبة مقدارها ٦ ٪ لمماليك مصر — يدفع نصفها التجار الانكليز والنصف الثاني العملاء المقيمون في مصر .. وليس غريباً ان نذكر ان المماليك قد رحبوا بعقد هذه المعاهدة اكثر من ترحيب بلدوين ونستطيع ان ندرك لماذا . لم يكن هذا غريباً اذا عدنا الى الماضي قليلاً لنذكر أن غالبية ثروة المماليك التي مكنتهم من ان يحيوا هذه الحياة المفعمة بالبذخ والترف .. كان مصدرها الرسوم الجمركية الباهظة التي كانوا يتقاضونها على التجارة المارة عبر مصر من الشرق الى الغرب . فكان لتفريغ البضاعة في الموانىء رسوم خاصة ولحق الابحار رسوم خاصة وللجمرك رسوم خاصة ولحق الشحن رسوم خاصة وهكذا ... واذا تذكرنا أيضاً ان هذا النبع الفياض قد غاض معينه منذ تحولت التجارة الى رأس الرجاء الصالح .. فليس غريباً اذن ان يحن المماليك الى قطرات تحاول ان تنحدر اليهم من هذا النبع الذي طالما سقاهم اللبن والعسل

وسعى بلدوين من ناحيته سعياً حثيثاً ليتوج هذه المعاهدة بالنجاح فأرسل صورة منها الى حكومته في لندن وأرسل صورة اخرى الى الهند يؤكد للتجار هناك أمله المؤكد في ان الحكومة العثمانية سوف توافق على هذه المعاهدة دون شك ودفعه الى تأكيد هذا الأمل ان عدوه الألد إنسلي كان قد ترك مركزه في القسطنطينية ليتولاه من بعده روبرت لستون R. Liston . لكن إنسلي حين عاد الى لندن كان أكبر همه ان يقضي على آمال بلدوين بتسفيه آرائه والتقليل من قيمة مجهوداته لدى وزارة الخارجية . ولذلك لم يحصل بلدوين من حكومته حتى على علم بوصول (A. R.) مذكرته عن المعاهدة

﴿ مصر تثير اهتمام روسيا وفرنسا في النصف الأخير من القرن الثامن عشر ﴾ وبينما الحكومة الانكليزية تحاول جهدها خلال النصف الأخير من القرن الثامن عشر لكي تنفض يدها من مصر وطريق السويس تماماً ، كانت هناك على الأفق دولتان قويتان تثير مصر اهتمامهما باستمرار .. هاتان هما روسيا وفرنسا

أما روسيا تحت حكم كاترين الثانية فقد كانت تعقد الآمال الطوال وتحاول تنفيذها للوصول الى مياه البحر الأبيض المتوسط . . ولذلك ابتدأت انظارها تتجه نحو مصر . وفي سنة ١٧٨٥ حاولت فئة من مماليك مصر بزعامة ابراهيم بك تعزيز استقلالهم بالتحالف مع احدى الدول الأجنبية ولهذا السبب دخلوا في مفاوضات سرية مع الروسيا. وعلم الباب العالي بهذه المفاوضات فأسرع بإرسال بعض القوى لتعزيز الدفاع عن مصر أمام الغارة الروسية المنتظرة ولكن الروسيا لم تسرع بإرسال هذه الغارة وانتظرت فرصة اشتباكها في الحرب مع تركيا حينما كانت مصر ولا قوة تحميها فأرسلت في أغسطس سنة ١٧٨٨ فرقاطة حربية مزوّدة بأربعين مدفعاً وتصحبها نقالتان تحملان بعض العدة والسلاح والهدايا الى الأمراء . . ووصلت هذه السفن الى دمياط يقودها القنصل الروسي السابق Baron de Thonus . ولاقت هذه الحملة الصغيرة كل عون من القنصل الفرنسي في ثغر دمياط . وكانت مهمة الروسيين في الواقع مساعدة المماليك للقيام بثورة ضد الترك . ولكنهم لم يفلحوا في مهمتهم والفضل في ذلك يرجع الى دهاء الوالي العثماني في مصر في ذلك الوقت وهو اسماعيل باشا

وفي سنة ١٧٩٠ أرسل إنسلي الى حكومته من القسطنطينية تقريراً آخر يخبرها بعزم الروسيين على غزو مصر . . ولكن هذا العزم لم يكن أكثر من خطة وضعت لإرسال ثماني سفن حربية تتخذ طريقها حول رأس الرجاء الصالح وتنفذ الى البحر الأحمر فتهدم جدة وينبع وتخرب مكة والمدينة وقبر الرسول ثم تهدد مصر ذاتها . . كانت هذه خطة وضعت كما ذكرنا ولكن الروس لم يجدوا في أنفسهم الشجاعة الكافية لتنفيذها

***

﴿ مقدمات الحملة الفرنسية على مصر ﴾ أما فرنسا فقد كانت أشد حزماً في اتجاهاتها . . وكانت المنافسة القديمة بينها وبين بريطانيا في الشرق والغرب على السواء تحس الخطر الذي يهددها ويهدد تجارتها اذا تحققت محاولات بلدوين المتكررة للسيطرة على طريق السويس. كذلك كان لرحلات الفرنسيين المتتابعة الى مصر في القرن الثامن عشر ، ونخصّ بالذكر منها رحلتي فولن وسافاري Savary — أكبر الفضل في توجيه أنظار الفرنسيين الى مصر. ولذلك لم تلبث فرنسا ان أعادت انشاء قنصليتها في القاهرة في ١٣ يناير سنة ١٧٩٣ واختارت لها التاجر مجالون Magallon وجاء هذا التعيين قبل الأمر بعزل بلدوين بتسعة أيام مما أثار احتجاج الانجليز لدى حكومتها يطلبون استمرار بلدوين في مصر

وفي اكتوبر سنة ١٧٩٥ وصل الى الاسكندرية Dubois Thainirlle ومهمته ان يعقد معاهدة مع المماليك لفتح طريق التجارة والمواصلات بين السويس والهند . وسرعان ما استشف

بلدوين من هذه المحاولات ان الفرنسيين يزمعون الاغارة على الهند عن طريق مصر بارسال جيش عبر مصر الى الهند لمساعدة Tippo سلطان ميسور وللقضاء على السيطرة الانجليزية في الهند . وسرعان ما أرسل تقريره الى حكومته يخبرها بنبأ هذه المحاولات . ومما يؤيد صحة هذا الخبر أن Magallon كتب الى حكومته سنة ١٧٩٥ يخبرها بأنه من الممكن ارسال فئة من الجيش عن طريق السويس عند ما تكون الرياح موائية — وان الجنود لا يمكثون فوق البحر عن هذا الطريق سوى ستين يوماً في حين أنهم يستغرقون ستة أشهر اذا انتقلوا عن طريق رأس الرجاء الصالح كما يقول « لا نفقد رجلاً في المائة ، على حين أننا نكون سعداء لو فقدنا عشرة رجال من مائة لو تتبعنا الطريق الآخر » ولتوضيح فكرته كتب الى وزارة الخارجية الفرنسية يقول :

« بالرحيل من طولون في العشرين من يونيو تستطيع القوى الفرنسية الوصول الى الاسكندرية في العاشر من يوليو والى القاهرة في العشرين منه والى السويس في الخامس والعشرين وبعد خمسة واربعين يوماً تصل الى الهند قبل أن يكون الانجليز قد اتخذوا عدتهم للدفاع .. وان عشرة آلاف فرنسي يستطيعون في معركة واحدة اقتلاع الانجليز من البنغال حصنهم المتين »

ويقال ان رسائل Magallon كانت السبب الاكبر في اثارة النقاش بين رجال حكومة الادارة حول موضوع الاغارة على مصر فاستدعى ماجالون الى فرنسا لاستشارته . وفي سنة ١٧٩٧ كانت فكرة الحملة على مصر ثم على الهند قد اختمرت في رؤوس رجال الحكومة وابتدأت تخطو الخطوات التنفيذية . ومما ساعد على نجاحها ان بلدوين الذي كان يقف لكل فكرة من هذا النوع بالمرصاد كان قد وهن منه العظم واشتعل الرأس شيباً وضعف بصره فغادر مصر الى وطنه حيث قضى الايام الباقية من حياته

***

والقراء الكرام يعرفون جميعاً ما كان بعد ذلك من أمر الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ وما كان من أمر فتح قناة السويس في عهد اسماعيل وما نعانيه حتى اليوم من طبيعة موقع بلادنا في هذا الطريق الى الهند أغلى درة في التاج البريطاني والى اجزاء الامبراطورية الاخرى كاستراليا أو نيوزيلند . ومن هذا أيضاً نتبين ان هذا الموقع الممتاز يستلزم من كل فرد في مصر ان يكون في نفسه قوة جبارة حتى تستطيع هذه القوة مجتمعة ان تتساند فتكون درعاً حصيناً يحمي هذه الكنانة المباركة من كل معتد أثيم

« انتهى البحث »

الحياة والموت

لا بُدَّ للانسان من ضجعةٍ لا تَقلِبُ المُضجَعَ عن جنبهِ
ينسَى بها ما كان من عُجْبهِ وما أذاقَ الموتُ من كربهِ
نحن بنو الموت . . ، فما بالنا نعافُ ما لا بُدَّ من شربهِ !!
تبخَلُ أيدينا بأرواحنا على زمان هيَ من كَسْبِهِ !!
فهذه الأرواحُ من جَوّهِ وهذه الأجسامُ من تُربِهِ
لو فكّر العاشقُ في منتهَى حُسْنِ الذي يسبيه لم يَسْبِهِ
لم يُرَ قرن الشمس في شرقه فشكّت الأنفس في غربه
يموت راعي الضأن في جهله ميتةَ جالينوس في طبه
وربما زاد على عمره وزاد في الأمن على سربهِ
وغاية المفرط في سِلْمِهِ كغاية المفرطِ في حربهِ
فلا قضى حاجته طالبٌ فؤاده يخفق من رعبهِ

[لأبي الطيب المتني]

اللغة العربية

القبط وما يجب عليهم

نحو هذه اللغة

لفريد كامل

لا موضع للجدل والملاحاة في ان لغة أهل مصر: مسلمهم وقبطيهم هي اليوم اللغة العربية . نعم انه كانت لهم قبل الفتح العربي لغتهم المصرية وهي التي اصطلحنا اليوم على تسميتها « اللغة القبطية » وقد رافقتهم ثلاثة آلاف سنة أو أربعة آلاف ، بل بقيت لساناً لهم حتى بعد الفتح ببضعة قرون. ولكن اللغة العربية كانت تزحزحها شيئاً فشيئاً عن مواضعها في دواوين الحكم ثم في سائر مرافق الحياة الى ان تركتها محصورة في الكنائس

ومما يحسن ذكره في هذا الشأن ما قاله المرحوم المسيو مسبرو العلاّمة الأثري في خطبة خطبها في نادي رمسيس في ١٩ نوفمبر سنة ١٩٠٨ وهو : —

« من المؤكد ان سكان مصر كانوا يتكلمون ويكتبون باللغة القبطية حتى السنين الأولى من القرن السادس عشر في أوائل حكم الترك . . . ولم يمض بعد ذلك قرن ونصف قرن حتى قدم الى مصر سائح فرنسي يدعى فانسليب في أيام لويس الرابع عشر فقدم اليه آخر قسيس قبطي يجيد التكلم باللغة القبطية وعجوز كانت تنازعه هذا الامتياز »

وليس المراد من قولي ان اللغة العربية هي لغة مصر الوطنية ان يهمل القبط لغة مصر القديمة او يقللوا من نشاطهم في العناية بها مع ما يرونه من اهتمام كثير من علماء اوربا بنشر كتبها وتأليف معجماتها ، فحسبها جدارة بالخلود انها كانت المفتاح الذي فك به العلاّمة شمبوليون رموز الكتابة الهيروغليفية على حجر رشيد وبالتالي كان لها الفضل الأول في فض اختام الحضارة الفرعونية واماطة اللثام عن وجه المدنية المصرية التي لا تزال آثارها موضع فخار المصريين وسبب مباهاتهم بالانتساب الى اولئك الأجداد

ولكني أعني بقولي هذا ان اللغة القبطية لم تعد — ولن تعود — لغة الأم والبيت والمدرسة والمكتب والمصنع والمتجر والمزرعة لأن اللغة العربية قامت مقامها في ذلك جميعه . وبات لهذه على القبط حق في ان يحذقوها ويباروا مواطنيهم في التضلع منها والتفوق فيها

ولا أجهل ان القبط يتلقون اللغة العربية في المدارس ويحفظون نحوها وصرفها ويقرأون

ويكتبون ويخطبون أحياناً بها وان تقرأ منهم يجيدها. غير ان القناعة بهذا القدر دون الاستزادة منهُ هي التي أردت أن أنبه الأذهان الى ما فيها من خطل . ولعلَّ كثيرين غيري شعروا معي بالعواقب المريرة لهذا الخطل حينما أنشىء مجمع فؤاد الأول للغة العربية ولم يجد المسؤولون «عالماً» قبطيًّا واحداً في هذه اللغة قميناً بأن يضموه الى أعضائه المصريين والأجانب

ويلوح لي ان علة تخلف القبط في هذا الميدان هي أنهم اكتفوا من اللغة العربية بما يكفل لهم كسب عيشهم اليومي . ولكنهم حتى في هذا المجال الضيق كان محصولهم دون الكفاية . معتقدين ان الانقطاع لاتقان اللغة العربية او التعمق في درسها للغوص على دررها والوقوف على أسرارها ليس ضروريًّا لاستدرار أخلاف الرزق . وهذا هو موضع الخطأ فالمادة ليست كل شيء في الحياة الجيدة التي يجب ان تحياها الأمم « وليس بالخبز وحده يحيا الانسان » بل هناك الطموح الأسمى . وهناك لذة العلم لذاته . وهناك التخصص للخدمة ونفع المجموع . ومع ذلك فليس أبعد عن الصواب من قول القائلين ان النبوغ في اللغة العربية ليس مورداً للارتزاق . فنحن في عصر قطعت فيهِ الأمة المصرية والأمم العربية شوطاً بعيداً في ميدان الرقي الفكري وسيتضاعف على الزمن عدد المتعلمين وبذلك تتسع آفاق الأمل برواج بضاعة الأدب العربي بين هذه الأمم

***

وقد يعلل بعضهم عدم تمكن القبط من ناصية اللغة العربية بأن أبواب الأزهر الشريف لا تفتح لهم ، فتَفُتُ هؤلاء يفوتهم ان في كلية الآداب في الجامعة المصرية قسماً للتخصص في اللغة العربية يقبل فيهِ المصريون بلا فارق. ويفوتهم أكثر من هذا ان علماء اللغة العربية في مصر وسوريا وفلسطين والعراق وبلاد المهجر ليسوا كلهم من تلاميذ الأزهر الشريف ولا تخرجوا في كلية اللغة العربية او في دار العلوم

فأحمد شوقي والشيخ محمد الخضري وأحمد زناتي وخليل مطران وبشارة الخوري والأب أنستاس الكرملي والمرحوم الدكتور صرُّوف والدكتور فارس نمر باشا وغيرهم من أعلام اللغة في هذا القرن والقرن الماضي لم يطأوا عتبة الازهر ولكنهم بلغوا أرفع مراتب الاجادة في اللغة نثراً ونظماً بما تلقوه من مبادئها في المدارس وما أضافوه اليها من نتاج تحصيلهم الشخصي

ومن الغريب انهُ ظهر من القبط في القرن الثالث عشر الميلادي غير واحد من جهابذة اللغة العربية كأبناء العسَّال . ثم نضب معين هذا النبوغ فجأة ولم نسمع بعدهم بأن غيرهم بلغ مداهم اذا استثنينا ميخائيل عبد السيد وتادرس وهبي في مغيب القرن الماضي ومطلع القرن الحالي وعدداً يعد على أصابع اليد الواحدة من الذين أهلتهم معلوماتهم لتدريس اللغة العربية في المدارس الحرة

وبات جهد ما وصلنا اليه ان الذين خلا نطقهم من اللحن وتنزهت كتابتهم عن السقم والركاكة ليسوا الا حفنة صغيرة . أما معظم الذين يقرأون ويكتبون منا ، فانهم أقرب الى العجمة منها الى العربية ، حتى ان الدكتور طه حسين بك لم يسعه الا ان يشير الى ما لاحظه على رجال الدين القبط من القصور في هذا الباب في فصل يجب ان يقرأه القبط في كتابه النفيس «مستقبل الثقافة في مصر »

وكم حز في نفسي ما قرأته في عدد من أعداد مجلة المصور الغراء عن عضو قبطي محترم في أحد مجلسي البرلمان المصري وهو قولها « حبذا لو كانت لغة الخطيب لغة عربية مصونة بنحوها وصرفها ونصبها ورفعها » مع ان هذا العضو المحترم متثقف ثقافة عالية

***

ومن تحصيل الحاصل ان أصف جمال اللغة العربية وعمقها وسموها وغناها بالمعاني الرائعة والخيال الراقي وما فيها من قول سري معجز ومن ضروب الكلام البليغ والقصيد المرقص . علاوة على ان العرب عالجوا بكلامهم شؤون الحياة واختباراتها ونوازع النفس البشرية وخطراتها وارتفعوا في كل ذلك الى مناط الافلاك وصفاً وتحليلاً واستنباطاً

وحسبي أن أحيل القارىء الى أعلام كتبها وعيون مصنفاتها كالحماسة والكامل والامالي والبيان والتبيين والعقد الفريد والأغاني ونهج البلاغة وأسرار البلاغة ودواوين البحتري وأبو تمام والمتنبي والأخطل وشوقي وحافظ وأصحاب المعلقات والمجمهرات وعشرات الشعراء في الجاهلية والاسلام وفيها من أفانين النثر والنظم ما يقوم اللسان ويكسب حسن البيان ويولي المرء الاجادة في التعبير والتبرز في التصنيف والتحبير ويبوئه مكان الصدر من أئمة الكلام وفوارس الكتّاب وحملة الأقلام. ينطق بالحكمة ويكشف عن علو الهمة بما يروي من روائع الأدب العربي وبما يجعله حجة في أصول اللغة وثقة يرجع اليه في قواعدها ويعول عليه في تقييد شواردها

وبلوغ هذه المرتبة في معرفة اللغة العربية والسباحة في محيطها الخضم لا يتيسران للطالب في سني الدراسة بل أنهما يتوفران بالمثابرة على المطالعة والبحث والاستظهار . ومن طلب العلا سهر الليالي . ومن خطب فتاة العربية أمهرها المهر الغالي . وما نبغ علماء العربية في جميع العصور الا بالكد وانضاء القوى في الاقتباس والاقتناص ورواية أجود الشعر وأرق النثر

فالذي أوده أن يعنى القبط بهذه اللغة أضعاف ما أراه من هذه العناية وأن يبرز منهم في علومها وآدابها وفنونها وتاريخها عشرات ومئات حتى لا تظن بهم الظنون ولا توجه اليهم غمزات العيون ولا يقال أنهم في هذا الميدان عاجزون او متخلفون

واذا وضع الشبان منهم نصب عيونهم الاستبحار في اللغة العربية وبلغوا الغاية من ذلك فانهم

بعملهم هذا لا يخدمون أنفسهم وحدها بل يخدمون الوحدة الوطنية ويعززون الرابطة القومية

ان من القبط كثيرين يجيدون الكلام والكتابة والتأليف باللغتين الانجليزية والفرنسية وبعضهم يتقن اللغة الايطالية او الألمانية ، وانما نطلب المزيد من هؤلاء « فكل لسان بالحقيقة انسان » . ولكن علام يدل هذا يا ترى . انهُ يدل على ان في مقدور القبط ان يجيدوا اللغة العربية بالأولى وهي اللغة التي ترافق المرء من المهد الى اللحد

وللشبان قدوة حسنة وأسوة طيبة بصاحب السعادة واصف غالي باشا فانهُ لم يكتفِ بما كشف من كنوز اللغة العربية بل أضاف الى ذلك انهُ نقل بعض هذه الكنوز الى اللغة الفرنسية بمؤلف شهير نال من أجله اكرام المصريين أجمعين في حفلة أقيمت له في سنة ١٩٠٦ . وفي هذه الحفلة قال أحمد شوقي :

انما « واصفٌ » بناءٌ من الأخـــلاق في دولة المشارق عالِ
واهب المال والشباب لما ينـــفع لا للهوى ولا للضلال
ومذيق العقول في الغرب مما عصر العرب في السنين الخوالي
في كتاب حوى المحاسن في الـــشعر وأوعى جوائز الأمثال
من نسيب تحاذر الغيد منه شرك الحسن او شباك الدلالِ
ونظام كأنهُ فلك الليـــل اذا لاح وهو بالزُهر حالِ
وبيان كما تجلى على الر سل تجلى على رعاة الضالِ
ما علمنا لغيرهم من لسان زال أهلوه وهو في إقبالِ
بليت هاشم وبادت نزار واللسان المبين ليس ببالِ
كلما همَّ مجده بزوال قام نخلٌ فحال دون الزوالِ

الى ان قال : —

يا شباب الديار مصر اليكم ولواء العرين للأشبالِ
كلما روعت بشبهة يأس جعلتكم معاقل الآمال
هيئوها لما يليق بعتق وكريم الآثار والاطلالِ
هيئوها لما أراد (عليٌّ) وتمنى على الظبي والعوالي
وانهضوا نهضة الشعوب لدنيا وحياة كبيرة الاشغالِ
والى الله من مشى بصليب في يديه ، ومن مشى بهلالِ

الشعر

في المعارك والحروب

لمحمد عبد الغني حسن

ذكَّرتني المقطوعة الشعرية الانجليزية « في سهول الفلاندرز » بموضوع لا تفرغ مادة الكتابة فيه ولا ينتهي أمد الحديث عنه ، وهو موضوع الشعر والحرب . وهذه المقطوعة لطبيب كندي اسمه (جون ماك راي) كان ضابطاً في الجيش البريطاني في الحرب العالمية العظمى وشهد بعينيه هول المعركة التي ظلت ستة عشر يوماً أسفر فيها دويُّ القنابل ، ودمدمة المدافع عن سكون الضحايا وهجعة الموت في مقابر فسيحة تُرى فوقها الصلبانُ صفوفاً إثر صفوف (١)

ولعلَّ هذه الأيام هي أكثر الأوقات مناسبة للكلام عن الشعر والحروب، فنحن نقرأ كل يوم خبراً عن معركة ، أو نسمع وصفاً لموقعة ، أو نرى أثراً لغارة في البر والبحر ، والسهل والوعر ، والقمة والسفح . ونرى عروشاً تزول ، وممالك تدول ، وأبرياء يصلوْنَ بحرَّ النار ، وهم لم يكونوا يوماً من جناة الحروب ولا أنصار القتال

وقد يتشعب بنا الحديث وتتسع مسالك القول لو أخذنا نحصي المعارك العالمية من فجر التاريخ وبدء التدوين وما قيل فيها من شعر ، أو ظهر فيها من شعراء . فذلك يقتضي احاطة شاملة ومعرفة تامة ، وذلك ما لا ندعي لأنفسنا العلم به او الاقتدار عليه

الا أن المطالع في الأدب العربي ، والقارئ لتاريخ العرب في جاهليتهم واسلامهم يصادف كثيراً من شعر الحروب ، وتقع عينه خلال قراءاته على أبيات متناثرة أو قصائد مطولة قيلت في إثارة حرب ، أو نجدة صريخ أو في وصف معركة أو في التفاخر بالشجاعة المبذولة ، والعزمة الماضية ، والبلاء الحسن

ولقد كان للعرب في جاهليتهم حروب كثيرة وأيام مشهورة ذكرتها كتب

---

(١) من مقال في مجلة النيويورك تيمس عدد يناير سنة ١٩٣٨ بقلم برنهارد راجنر

التاريخ والأدب . وعدّ منها ابن رشيق القيرواني صاحب كتاب العمدة خمسة وخمسين يوماً [(١)] . واكتفي بما ذكر تاركاً ما بقي منها للكتب الخاصة بذلك الموضوع . ولا يدخل في ذلك العدد ايام الرسول ووقائعه مع المشركين فقد أفردت لها دراسات خاصة في كتب السيرة ومراجع التاريخ الأولى كالطبري وابن هشام

والحرب نكبة يبتلى بها العالم وتنكب بها الأمم ، ويشترك في احتمال ضررها المحارب والمسالم والقاعد والمهاجم ، ويُذكيها أناس ويَصْلى نارها قوم براء

ولا شك ان العرب من قديم ذاقوا مرارتها واحتملوا مِحَنَها . ولذلك قالوا فيها : الحرب غشوم ، لأنها تنال غير الجاني . وسأل عمر بن الخطاب عمرو بن معديكرب الزبيدي عن الحرب فقال : « مُرة المذاق اذا قلصت عن ساق ، من صبر فيها عُرف ، ومن ضعف عنها تلف »

ولقد وصفها الكميت الشاعر ببيتين صادقين : [(٢)]

الناس في الحرب شتى وهي مقبلة ويستوون اذا ما ادبر القُبُلُ
كلٌّ بأمسيتها طَبٌّ موليةً والعالمون بذي غُدويتها قُلُلُ

وصوّر شاعر آخر قيامها وهي فتية تغري بالسلب والغنيمة ، وتنكرها بعد ذلك كأنها عجوز شمطاء . فأحسن التصوير ، وأبدع التشبيه حيث قال [(٣)] : —

الحرب أول ما تكون فتيةً تسعى بزينتها لكل جهول
حتى اذا استعرت وشبّ ضرامها عادت عجوزاً غير ذات خليل
شمطاء جزّت رأسها وتنكرت مكروهةً للشمّ والتقبيل

وما أشبه الحرب بالحب مع فارق في القياس وخلاف في النتيجة ، فأولها يكون لحاجة وكلاماً . وثانيهما يكون مجانة وتسلّياً . ولكن الحب اذا تمكن صار شغلاً شاغلاً ، والحرب اذا استعرت صارت شرّاً وبلاء . وما أصدق حينئذٍ قول نصر بن سيار فيها :

فان النار بالعودين تذكى وان الحرب أولها الكلامُ

(١) الجزء الثاني من « العمدة » ص ١٦٠ طبعة أمين هندية بمصر
(٢) عن عيون الاخبار ج ٢ ص ١٢٧ (٣) عن العقد الفريد وعيون الاخبار



فان لم يطفها عقلاء قوم يكون وقودها جثث وهام

***

والشعر مِحضأ(١) في الحروب يحرك النفوس ، ويمكن السخائم من القلوب ، ويدعو الجبان فيقلبه شجاعاً وبصيره مقداماً ، ويذكره الورع(٢) الهيوب فينقلب أسداً تسيل الدماء على صدره ولا يَدمى على العقبين كَلْمُه . ولقد تشجع معاوية بن أبي سفيان وصبر على قتال علي بن أبي طالب حينا ذكر أبيات الشاعر عمرو بن الأطنابة(٣) :—

أبت لي همتي وأبى بلائي وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإقدامي على المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت: مكانكِ تُحمَدي او تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات وأحمي بعدُ عن عِرضٍ صحيح

وأغرب من هذا في باب إثارة الشعر للنفوس وتحريكه السخائم أبيات قالها سعد بن مالك بن ضبيعة يعرّض فيها بالحارث بن عُبَاد لانه ترك حلفاءهُ من بكر يقاتلون بني تغلب وتخلف عن القتال قائلاً « لا ناقتي فيها ولا جملي » . ولقد دفعت هذه الابياتُ الحارثَ بعد تخلفه الى القتال دفعاً وهي غير متعاقبة(٤) :—

يابؤس للحرب التي وضعت أراهط فاستراحوا
الحربُ لا يبقى لجا حمها التخيُّلُ والمراحُ
الاَّ الفتى الصبار في النَّجدات والفرسُ الوقاح
والنثرةُ الحصداء والبيض المكلل والرماح
كشفت لهم عن ساقها وبدا من الشر الصُّراح
فالهمُّ بيضات الخدو ر هناك لا النعمُ المراح
بئس الخلائف بعدنا أولادُ يشكرَ واللقاح
من صدَّ عن نيرانها فانا ابن قيس لابراح

---

(١) المحضأ كوزن منبر عود تحرك به النار لتهيج (٢) الجبان (٣) عن نقد النثر وعيون الاخبار (٤) عن حماسة أبي تمام ج ١ ص ١٩٤ طبع مصر

صبراً بني قيس لها حتى تريحوا او تراحوا
ان المواثل خلفها بمتاقه الاجل المتاح
هيهات حال الموت دو ن الفوت وانتضي السلاح
كيف الحياة اذا خلت منا الظواهر والبطاح ؟
أين الأعزة والأسنة عند ذلك والسماح ؟؟

ومن عجائب الأمور أن الحارث بن عباد هذا هو الذي أثار بشعره القوي بني بكر على بني تغلب ليأخذوا بثأر ابنه بجير الذي قتله مهلهل . وكان قد اعتزل القتال ومال الى السلام . فلما جاءه مقتل ابنه لم يجد الا الرمح والشعر داعياً . وسار شعره في القبائل — قبائل بني بكر — محرضاً على القتال ، مهيجاً للنفوس ، معلناً في حنق الوالد المغيظ ، وسخط الشيخ المغدور به قيامه الى الحرب ، داعياً بفرسه (النعامة) قائلا

قربا مربط النعامة مني لقحت حرب وائل عن حيال
فلعمري لأقتلن (بيجير) عدد الذر والحصى والرمال
قربا مربط النعامة مني ليس قولي يراد لا بل فعالي
يا بجير الخيرات لا صلح حتى تملأ اليد من رؤوس الرجال
لم أكن من جناتها علم الله وأني لحرها اليوم صالي

وما كذب الشاعر ولا افترى . . فقد كان فعالا لاقوالا ودخل الحرب وخاض المعركة آخذاً نفسه بالوعد الذي وعد ، والعهد الذي قطع ، وهو ألا يتم الصلح حتى تمتلىء الأباطح بالرؤوس

***

وقد يجمع الشاعر الى مهمة الإثارة في الحرب مهمة تخذيل العدو ، والفت في عضده ، واشاعة التخويف في جوانب نفسه حتى لا يقدم على محاربة قومه ومقاتلة أهله . ومهمة التخذيل هذه تقوم بها الآن مكاتب الدعاية ، الا ان هذه سبيلها النثر وتلك سبيلها الشعر والغرض في الحالين واحد والغاية في المهدين متحدة . ولعلهم اتخذوا الشعر في العصور الأولى لذلك نظراً لمكانته في النفوس وموقعه في

القلوب وأثره في الاسماع ، ولأن الشعر كان طاغياً على النثر غالباً عليه ، وكان له دونه المحل والمقام ، والمنزل والمكان . وأحسن مثال يحضرني الآن لهذا النوع من الشعر أبيات قالها وداك بن ثميل المازني وكان بنو شيبان أرادوا ابعاد قومه — بني مازن — عن ماء لهم فأخذ الشاعر يهدد الاعداء ويخذلهم ويصور قومه في صورة الأبطال الذين لا تخضد شوكتهم ولا تغمز قناتهم قائلاً (١)

رُويدَ بني شيبان بعض وعيدكم ... تلاقوا غداً خيلي على صفوان

تلاقوا جياداً لا تحيد عن الوغى ... اذا ما غدت في المأزق المتداني

عليها الكماة الغرُّ من آل مازن ... ليوث طعان عند كل طعان

تلاقوهمُ فتعرفوا كيف صبرهم ... على ما جنت فيهم يدُ الحدثان

مقاديم وصّالون في الروع خطوهم ... بكل رقيق الشفرتين يماني

اذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهمو ... لأية حرب أم بأي مكان

ولا نحسُّ كبير فرق بين وصفه لخيله وجنوده وصبرهم على القتال وسيوفهم اليمانية القاطعة وبين وصف المتحاربين اليوم لما عندهم من مذخور العدد ومطوي العتاد

وقد يكون من علاقة الشعر والحرب الفخر الذي نراه كثيراً في كتب الأدب وهو ظاهرة تلفت النظر في الشعر العربي . وقلَّ أن نجد لذلك نظيراً في آداب الأمم الأخرى . ويكون هذا الفخر بالشجاعة ذا قيمة لو لم يجاوز الحد المعقول أو يجنح الى الاغراق في المبالغة . ويكون أقرب الى الصدق لو عرف عن الشاعر ميل الى الفروسية أو اخلاص في البلاء . وقد كان ذلك واقعاً في الشعر الجاهلي وعصر الاسلام الاول ، اللهمَّ الاَّ بعض الشعراء الذين عرفوا بشجاعة اللسان وجبن القلب كحسان بن ثابت . فقد كان في لسانه جراءةٌ وفي قلبه تهيب

أما في العصور المتأخرة في الاسلام فقد صار الشعر تقليداً لما قال الاوائل وترديداً لما تناولوه من المعاني . وصرنا نجد الفخر بالشجاعة مثلاً صناعةً تصنع ، وألفاظاً تردَّد . ولو لم يكن لصاحبها من صدقها نصيب كما يقول ابن سناء الملك : —

---

(١) عن الحماسة لابي تمام

سواي يهاب الموت أو يرهب الردى ، وغيري يهوى أن يعيش مخلدا
ولكنني لا أحذر الموت ان سطا ولا أرهب الموت الزؤام اذا عدا

ويُغرق بعد ذلك في الفخر الكاذب . وهو فخر — فيما أظن — يدعو اليهِ الشعور بالنقص فيقول : —

وأنك عبدي يا زمان وانني على الرغم مني أن أرى لك سيدا

ومن أصدق الفخر بالشجاعة والتحدث بالبطولة ما ذكره عنترة العبسي عن نفسه وصدق بلائهِ في الحرب واتجاه الأنظار اليهِ وثباته على جواده في معلقته التي يقول فيها : (١)

لما رأيت القوم أقبل جمعهم يتذامرون كررتُ غير مذمَّم
يدعون عنترَ والرماحُ كأنها أشطان بئرٍ في لبان الأدهم
ما زلت أرميهم بغرة وجههِ ولبانهِ حتى تسربَل بالدم
فازورَّ من وقع القنا بلبانه وشكا اليَّ بعبرةٍ وتحمحُم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان ، لو علم الكلام ، مكلمي

ولا يقلُّ عن عنترة صدقاً في الفخر بالشجاعة في الحرب وصدقاً في التعبير والوصف حينما يلتقي الجمعان — الشاعرُ الفارس قتادة بن مسلمة الحنفي الجاهلي الذي يصوّر معركةَ (جيرحان) خير تصوير حين يقول (٢) : —

قاتَلْتهم حتى تكافأ جمعهم والخيلُ في سَبَل الدماء تعومُ
اذ تتّقي بسراة آل مُقاعس حدَّ الأسنة والسيوف — تميم
لما التقى الصفان واختلف القنا والخيل في نقع العجاج أزوم
في النقع ساهمة الوجوه عوابس وبهنَّ من دعس الرماح كلوم
يمَّمت كبشهمُ بطعنة فيصلٍ فهوى لحر الوجه وهو دميم
ومعي أسودٌ من حنيفة في الوغى للبيض فوق رؤوسهم تسويم (٣)
قوم اذا لبسوا الحديد كأنهم في البيض والحلق الدلاص نجوم

وهناك نوع من الشعر كان له في ساح الحروب مكان أي مكان . وهو الأراجيز

(١) شرح القصائد العشر للتبريزي (٢) الحماسة ج ١ ص ٣٢٠ (٣) علامات

التي ينشدها المحارب او المحاربون . وأغلب الظن عندي أنها كانت تنشد على توقيع خاص لم يصل الينا علمه وهذه الأراجيز مبثوثة في كتب التاريخ . ويجد القارىء كثيراً منها في كتب المغازي والفتوح . وأغلبها كان يستعمل في التحضيض على الحرب والاستمساك بالصبر حتى يكتب الفوز ، ويتم النصر

ولقد قيل في الجاهلية من هذه المرتجزات كثير،وقيل في الاسلام كثير كذلك حتى لتجد الكثير منها مشتركاً في اللفظ هنا وهناك، فلا نكاد نعرف القائل الحقيقي والراجز الأصلي . وبعض الأمثلة تكشف عن ذلك ، ففي واقعة ذي قار التي كانت بين العرب والفرس قبل الاسلام يقول حنظلة بن ثعلبة مرتجزاً [1] : —

القوس فيها وتر عُرُدُّ مثل ذراع البكر او أشدْ

قد جعلت أخبارُ قومي تبدو أن المنايا ليس منها بُدْ

ويقول أيضاً

يا قوم طيبوا بالقتال نفسا أجدر يوم أن تفلوا الفُرسا

والبيت الاول مما قاله الحجاج بن يوسف الثقفي في عصر بني أمية مهدداً متوعداً أهل الكوفة [2]

وفي وقعة ذي قار نفسها وقفت امرأة عربية تحضض الناس وتقول مخاطبة الرجال من قومها [3] : —

إن تهزموا نُعانقْ ونفرش النمارقْ

او تهربوا نفارقْ فراق غير وامقْ

ولكن ابن هشام [4] صاحب السيرة النبوية يذكر أن هنداً بنت عتبة وقفت تحرّض الرجال على القتال في غزوة (أُحد) بهذه الأبيات نفسها مع استبدال كلمة تهزموا بكلمة « تُقبلوا » . وهند بنت عتبة هذه هي المشركة التي بقرت بطن حمزة عم النبي في غزوة أُحد وأخرجت كبده فلاكتها فلم تستطع إساغتها فلفظتها من فمها وعلت على صخرة ترتجز متشفية من المسلمين :

---

(١) الطبري ج ٢ ص ١٥٤ (٢) كتب الادب (٣) الطبري ج ٢ ص ١٥٣
(٤) سيرة ابن هشام ٣ ص ١٣

نحن جزيناكم بيوم بدرِ والحربُ بعدَ الحرب ذاتُ سُعر
ما كان عن عتبة لي من صبر ولا أخي وعمّهِ وبِكري
شفيتُ نفسي وقضيتُ نذري شفيتَ — وحشيُّ — غليل صدري
فشكر وحشيٍ عليَّ عمري حتى تَرِمَّ (١) أعظمي في قبري

ولكن امرأة من المؤمنات المشتركات في الوقعة لم تستطع صبراً على هذا الرجز الذي قيل في وسط المعركة شفاء لغليل الصدر ، فردّت عليها مرتجزة : —

خزيتِ في بدر وبعد بدرِ يا بنت وقّاعٍ عظيم الكفرِ
صبّحكِ الله غداة الفجرِ م ِ الهاشميين الطوال الزُّهرِ
بكل قطّاعٍ حسامٍ يفري حمزةُ ليثي وعليٌّ صقري
إذرام شيب (٢) وأبوك غدري فخضبا منهُ ضواحي النحر
ونذرك الشؤم فشرُّ نذرِ

***

ومن شعر الحروب ما قيل في وصف المعارك وصفة المواقع : وأول ما يخطر على البال من ذلك قصيدة أبي تمام التي يمدح فيها المعتصم ويذكر عمورية ويصف النار والدخان فيها فيبدع كل الإبداع في هذه الأبيات : —

لقد تركتَ أميرَ المؤمنين بها للنار يوماً ذليل الصخر والخشبِ
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى يشلّه وسطها صبحٌ من اللهب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت عن لونها أو كأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عاكفة وظلمة من دخان في ضحى شحب

وللشاعر السريّ الرفاء — من شعراء القرن الرابع الهجري — شعر كثير في المعارك والحروب ولقد كان عصره عصر نضال مع الروم . ولا تخلو مدائحه للأمراء من وصف دقيق للمعارك التي خاضوا غمارها واصطلوا بنارها . وكان أكثر الامراء من ذلك نصيباً سيف الدولة بن حمدان الامير المحارب ، والبطل المجاهد . وتعجبنا بائية للسري يصور فيها موقعة بين سيف الدولة والدمستق يقول فيها (٣) : —

(١) تصير رميمة نخرة (٢) شيب أصله شيبة ، علم حذفت تاؤه ترخيماً
(٣) ديوان السري الرفاء طبع القدس ص ١٨

لما تراءى لك الجمع الذي زحفت أقطاره ونأت بعداً جوانبهُ
تركتهم بين مصبوغ ترائبهُ من الدماء ومخضوب ذوائبهُ
فحائرٌ وشهابُ الرمح لاحقهُ وهاربٌ وذباب السيف طالبهُ
يهوي اليه بمثل النجم طاعنهُ وينتحيه بمثل البرق ضاربهُ
يكسوه من دمه ثوباً ويسلبهُ ثيابه ... فهو كاسيه وسالبهُ

ولا أبالغ اذا قلت أن هذه (اللوحة الشعرية) لمعركة حربية لا تقل صدقاً ولا روعة عن (لوحة زيتية) لمعركة حربية من لوحات السير موبرهد بون أو المستر روبرت أوستين من مصوّري الحرب الحديثة المشهورين

***

وما دامت الحروب قائمة ، وطبائع الطمع والجشع بين البشر مستحكمة متأصلة فسيظل الشعر الحربي قائماً : — يحض على القتال ، ويرثي الأبطال ، ويصوّر من أهوال الحرب ما لا سبيل الى تصويره الاّ بأقلام الشعراء ، ويعلي من شأن النفوس النبيلة الكريمة التي تموت فداء عن وطن أو ذياداً عن حق ، ويحض على السلام ... نعم يحض على السلام لو سمعت الآذان المتكبرة ، أو لانت القلوب المتحجرة

وفي العصور الحديثة نجد في الحروب شعراً رائعاً قويّاً . وقصيدة شوقي التي عنوانها : صدى الحرب [1] في وصف الوقائع العثمانية اليونانية مملوءة بالصور الفاتنة التي أجاد شوقي تصويرها كأنه — رحمهُ الله — كان مشتركاً فيها أو آخذاً بنصيب المجاهد منها

وللمعروف الرصافي الشاعر العراقي قصيدة عنوانها « الحرب في البحر » يصور بها واقعة « توشيما » بين الروس واليابان تصوير من رأى وعاين لا تصوير من أنبىء وخُبر . اسمعه يصف البارجة بقوله [2] :

كل مَتخَّارة اذا حركت دفـّا عبّها خضخضت به القاموسا
مُذ بنوها لهم كنيسة حرب تخذت كل مدفع ناقوسا
عرش بلقيس في المناعة لكن قد حكت في احتشامها بلقيسا
ألبسوها من الحديد وشاحاً فتهادت على العباب عروسا

(١) الشوقيات جـ ١ ص ٣٠ (٢) ديوان الرصافي جـ ١ ص ١٣١

ولقد كانت الحرب العالمية العظمى سنة ١٩١٤ وحياً لكثير من الشعراء .
ومنهم ولي الدين يكن الذي يقول فيها [1] :

ضاقت ميادين القتا ل عن المضارب والخيام
وتدافعت لجج الدما ء تعبّ أبحرها الطوامي
تمتد من وادٍ لوا دٍ في الفدافد والموامي
تسمو غواربها بها بين اضطراب وارتطام
فكأنما الطوفان قد أوفى لميعاد قدام
من يطّلب منه اعتصا ماً يمس من غير اعتصام
فتلفعت زهر المدا ئن بالدخان وبالضرام
وتواقعت من عزها آثار أسلاف عظام
فكأنها بين الربو ع وقد عفت بعض الرجام
جثثٌ على جثث علت مثل الأكام على الأكام
فيهن أوصالٌ مزيّلةٌ وأكبادٌ دوامي
في مشهد أهواله أهوالُ ساعات القيام
بين القنابل والقنا والموت مختلف المرامي
والجند دامية الظبي والخيل دامية الحوام
تسمو جباهٌ ثم تسفُلُ بين أمواج الزحام
متعرضات للحيا م ونعم أضحية الحمام

ولجميل صدقي الزهاوي شعر كثير في الحرب وويلاتها كمقطوعته « الحرب »
ص ١١٢ من ديوانه . ومقطوعته الأخرى «مشهد من الحرب الكبرى» ص ١١٤
وغيرها . وكلها لا يخرج عن تصوير الحرب في أبشع صورها وأفظع مناظرها

وبعد فقد اشترك الشعر في إثارة الحروب قديماً . ورأيناه اليوم يتجه اتجاهاً
مخلصاً الى الدعوة الى السلام لما عانى الناس من نكبات الحروب وما قاسوا من
أهوالها . أتراه يفلح في دعوته ، وينجح في وجهته ؟؟ حبذا لو صحت الأحلام !

(١) ديوان ولي الدين يكن ص ٥٠



مفتش التموين بالاسكندرية

لم يكن اتخاذ بعض الأشياء واسطة للتبادل ناشئاً عن اتفاق عقد ، وانما عن صفات خاصة تجمعت في هذه الاشياء ، وحملت الناس على تفضيلها واتخاذها أساساً للتبادل . وأخذت هذه الوسائل تتطور بتطوّر المدنية وتقدّم الحياة الاقتصادية ، حتى أصبح المعدنان النفيسان — الذهب والفضة — في الأزمنة الاخيرة أساس النقد لدى الشعوب المتحضرة ، ثم أصبح الذهب أساساً والفضة تبعاً . ولقد لبث الذهب حيناً من الدهر يؤدي وظيفته في الحياة الاقتصادية على خير سبيل الى أن تعقدت هذه الحياة ، وتشعبت أوجهها ، وتباينت مظاهرها ، وتشابكت مناحيها ، فأصبح الذهب عاجزاً عن أن يقوم بمهمته الخطيرة في الحياة الاقتصادية

ولم تأخذ مسألة الذهب مكانها من الخطورة والأهمية . ولم تُثَرْ مشكلة المعدن الأصفر كأساس للقيَم . ولم تتعدد الآراء بشأن مستقبله بقدر ما هو حاصل الآن . وتحمل الحرب الحاضرة بين طياتها بذور تفاقمها واستفحالها . بل ان هذه الحرب هي في الواقع عراك بين نظامين اقتصاديين مختلفين يضمّ احدها دولاً تعتنق فكرة قيامه بوظيفته القديمة كمعيار للقيمة ، وانهُ رمز الاستقرار ورسول الطمأنينة والسلام . والأخرى دولاً ترى الذهب أثراً بالياً من القرون الماضيات ومظهراً لا يتفق وتطوّر الحياة الاقتصادية وما أصابها من تغير وتبديل

وانا في هذا البحث سنحاول أن نلقي ضوءاً على تلك المشكلة يقرّبها للاذهان

١ — ﴿ العدول عن معيار الذهب ﴾ الأصل في معيار الذهب وجود نسبة ثابتة بين العملة والذهب . فالوحدة النقدية هي وزن من الذهب ، وهذا الوزن له قوّة إبراء غير محدودة . وما جميع الوسائل النقدية المختلفة الموجودة في التداول الا ممثلة لها . هذا هو معيار الذهب في جوهره . وأبسط مظاهره . وقد يختفي الذهب من التداول كما هو الحال في نظام الصرف بالسبائك ، بيد أن الذهب لا يزال روح النظام النقدي والقوة النابضة لجميع أنواع النقود التي يتكوّن منها ، اذ ينص قانون الدولة النقدي عادةً على شراء البنك المركزي أو دار الضرب الذهب بسعر محدد وبكميات خاصة . وهذه التبعية المتبادلة بين الذهب والعملة تقوم على أساس توفر نسبةٍ ثابتة من الذهب بسعر معيّن ، وبغير وجود هذا الأساس الثابت لا يوجد ثمة معيار ذهب

وكان تعميم الأخذ بنظام معيار الذهب ما جعل الذهب أساس الأنظمة النقدية في جميع أنحاء العالم . فكان لكل عملة وزنٌ قانونيٌّ من الذهب . وكان مقدار الذهب في كل عملة هو المحدد لنسبة صرف عملة بأخرى . وكان للذهب قيمة شرائية في جميع البلاد التي تستخدمه . وهذه القوة الشرائية مرتبطة أشد الارتباط بمستوى الأثمان العام في كل دولة . فاذا حدث في دولة ما ان أصبح الميزان التجاري موافقاً لها فان الذهب يؤمها بالقدر اللازم لسدّ الثغرة الحادثة بين الصادر والوارد ، واذا زاد الوارد عن الصادر في دولة لا يلبث الذهب أن ينحسر عنها فيتعدل مستوى الأثمان ويشجع هذا الهبوط الدول الاخرى على الشراء منها وبالتالي يتعدل الميزان التجاري في مصلحتها ويؤمها الذهب . ويعزّز هذا ما تلجأ اليه الدولة من جعل سعر القطع فيها أعلى منه في الخارج فيشجع هذا رؤوس الأموال الأجنبية على الانسياب اليها . فصيرورة الميزان التجاري في صالح الدولة وتدفق رؤوس الأموال لتستثمر فيها بتأثير ارتفاع سعر القطع كفيلان بتعديل مستوى الأثمان داخلها حتى يغدو متجانساً مع مستوى الأثمان في خارجها. ولم يكن ليحدّ من سير نظام الذهب كاملاً على هذا النسق سوى ما كانت تضعه الدول المختلفة من حواجز جمركية على تصدير أو استيراد بعض السلع أو منحها تسهيلات لبعض السلع الأخرى الى غير هذا من العوامل المحلية . على أن النظام في جوهره كان يؤتي ثماره و يحدث نتائجه العامة

ولقد كان في مقدمة أحداث الحرب العظمى الماضية ، تخلّص الدولة تلو الأخرى من نظام معيار الذهب لما تطلبته الحرب من نفقات هائلة دفعت الحكومات المختلفة على تقرير السعر الالزامي للاوراق النقدية . وصحب هذا تحريم تصدير الذهب لاسيما وإنه كان يخشى اندفاع الجمهور نحو البنوك للتخلص من الأوراق النقدية التي في حوزته . وما كادت الحرب تضع أوزارها حتى أخذ العالم يفكر في وصل حاضره بماضيه وفي استعادة طمأنينته ورخائه في ظل معيار الذهب . وفعلاً انصرفت كل دولة الى تحقيق هذا ، ولم تمض عشرة اعوام الاّ واستطاع العالم رأب ما تصدّع من بنيانه ، فاسترد الذهب عرشه المفقود وقرّ في الأذهان أن شؤون العالم النقدية قد عاد اليها الثبات والاستقرار . بيد ان عودة العالم الى الذهب لم تتخذ سبيلها القديم . فن الدول من أعاد قابلية صرف النقود الورقية بالذهب على أساس القيمة الاصلية (كانجلترا) ومنها من بلغ تدهور نقودها الورقية (كدول أوربا الوسطى) حداً دفعها الى الغائها وايجاد نوع جديد من النقود المعدنية والورقية . ومنها أخيراً ما أعاد صرف النقود الورقية بالذهب على أساس أقل من القيمة الأصلية لوحدة النقود القديمة (كفرنسا وايطاليا) . وانهُ وان كان الذهب قد استردَّ سلطانه على النظم النقدية الاّ انهُ من بين ثنايا ما اتخذتهُ الدول المختلفة من السياسات النقدية بعد الحرب يمكننا أن نلمح بوادر الخطر على نظام المعدن الأصفر

فلقد نشأ عن الديون بين الحكومات وهي ديون الحرب والتعويضات سوء توزيع الذهب في العالم وتركزه في دولتين كبيرتين دائنتين هما فرنسا والولايات المتحدة فنجم عن ذلك ندرة الذهب في الممالك الأخرى وارتفاع ثمنه ونقص ثمن السلع تبعاً لذلك ، فحفز هذا الأمر الدول الأخرى على الحدّ من وارداتها بمعادلة ميزانها الحسابي من جهة وللحيلولة دون انهيار نظمها النقدية من جهة أخرى . ثم كانت الأزمات المالية والاقتصادية وتتابع المشكلات السياسية فعجز معها الذهب عن ان يقوم بمهمته في الحياة الاقتصادية . فاضطرت الحوادث انجلترا الى الخروج عن معيار الذهب في عام ١٩٣١ وتبعها في ذلك كتلة الاسترليني (الممتلكات البريطانية المستقلة والهند وبلاد اسكندناوة ومصر والعراق وتركيا واليابان) وتلتها هولندا منذ عام ١٩٣٦ وفرنسا منذ عام ١٩٣٦ وبصفة خاصة في عام ١٩٣٧ بعد ان عدلت عن المعدلات التي فرضها قانون أول أكتوبر ١٩٣٦ معيّناً حدّي تغيُّر العملة . وانهُ وان كان قانون ٢٧ / ٩ / ١٩٣٦ قد عيـن نسبة ما يحتويه الفرنك السويسري الذهبي بـ ١٩٠ — ٢١١ مليجرام من الذهب الخالص إلاّ ان العلاقة بين الفرنك وبين الذهب ليست ثابتة كما يبدو . وهذا ينافي شرط معيار الذهب وكذلك الحال بالنسبة للولايات المتحدة ، فانها وان كانت قد عينت سعر أوقية الذهب الخالص بخمسة وثلاثين دولاراً الا ان القانون أعطى الرئيس سلطة خفض هذا السعر أو رفعه حسب الأحوال بين حدّي ٤٥ و ٣٤ دولاراً و ٣٤ و ٤١ دولاراً . أما المانيا قبل الحرب فانها كانت تسير على معيار الذهب من الوجهة القانونية (وتجاريها في ذلك الدول التي تقيد التبادل) إلاّ انها لم تكن تسير فعلاً على مقتضاه، طالما ان حرية انتقال الذهب ورؤوس الأموال لم تكن مكفولة

فمشكلة الذهب اذاً هي في الواقع مشكلة سوء توزيعه وحشده في الولايات المتحدة الأميركية فعجز الذهب عن أن يقوم بمهمته الخطيرة في الحياة الاقتصادية على النحو القديم المعروف مما سنبينهُ فيما بعد

٢ — ﴿ ظاهرة حشد الذهب في الولايات المتحدة ﴾ في عام ١٩٢٣ بلغت قيمة الأرصدة النقدية المنظورة للعالم ٥ ر ٨ بليون دولار تملك الولايات المتحدة منها حوالى الأربعة بلايين أو ٤٥ ٪ منها . وفي مستهل عام ١٩٢٩ بلغت قيمة الأرصدة النقدية الذهبية ١٨ بليون دولار وفي آخر عام ١٩٣٨ كانت تلك القيمة ٢٧ بليون دولار وبعبارة أخرى أضاف العالم في بحر عشرة أعوام الى رصيده نصف ما كان لديه قبل ذلك . وفي هذه المدة ارتفعت قيمة الاحتياطات الذهبية مقوّمة بالدولارات والتي تحوزها الحكومة والبنوك المركزية الأميركية بنسبة ٢٥٠ ٪ عما كانت عليه في عام ١٩٢٩

أما إنتاج العالم من المعدن فيطرد في الزيادة ويبلغ ١٣٠٠٠ مليون دولار سنويًّا ، ولقد

صاحبت زيادة الانتاج الذهب زيادة كبيرة جداً في المخزون منهُ في الولايات المتحدة ، فبلغت مقتنيات ٥٣ دولة الى نهاية دسمبر سنة ١٩٣٩ ماقيمتهُ ٢٥٧٢٧ مليون دولار ، نصيب اميركا منهُ ١٧٦٤٤ مليون دولار . والزيادة في عام ١٩٣٩ بمقارنتها بعام ١٩٣٣ ملحوظة جداً وأعظم عاماً من الزيادة في العرض العالمي للذهب . ولقد تكوّنت من الذهب المتدفق أرصدة فائضة في البنوك الأميركية بلغت في ٢٧ دسمبر سنة (١٩٣٩) ٥٠٤٦ مليون دولار . ولن تقل الأرصدة الفائضة اليوم عن ٦٠٠٠ مليون دولار . والذهب الوارد الى الولايات المتحدة يظل فيها دون أن يكون له من الأثر مايحدث لو كان معيار الذهب الدولي يتخذ سبيله القديم في الحياة الاقتصادية فلم يتبع تدفق الذهب تعديل في مستوى الأثمان وبذلك لم يجد التدفق أي عائق أمامهُ

وتظهر لنا الاحصاءات المبينة لتطوُّر الاحتياطي الذهبي للولايات المتحدة أنهُ بلغ ٦٧٩٣ مليون دولار آخر عام ١٩٣٣ وصعد الى ١٢٧٦٠ مليون دولار في عام ١٩٣٧ وبلغ ٥٠٠٠ مليون دولار عام ١٩٣٨

وتظهر الاحصاءات أن إنتاج الذهب في الخمس سنوات ١٩٣٤ — ١٩٣٨ بلغ ما قيمتهُ ٥٨٠٠ مليون دولار . وفي نفس المدة بلغت مبيعات مكتنزي الذهب ٦٥٠ مليون دولاراً ، ومن هذا يظهر أن الولايات المتحدة في خلال الخمس سنوات السالفة الذكر قد استوعبت ، ليس كل الذهب المستخرج في هذه المدة ومبيعات المكتنزين خلالها فحسب ، ولكنها استولت أيضاً على جانب عظيم من الأرصدة النقدية للأمم الأخرى . ولما كانت لندن تعتبر السوق المركزية للذهب ، فمن الجدير بالملاحظة أنهُ منذ عام ١٩٣٤ كانت حركات الذهب بين انكلترا والولايات المتحدة من جانب واحد أي من انكلترا الى الولايات المتحدة لا كما كانت الحال قبلاً من تبادلها بين البلدين وفقاً للأحوال الاقتصادية والاعتبارات التجارية البحتة

ويعتبر الوارد في عام ١٩٣٩ أشدّ حركات تدفق الذهب الى الولايات المتحدة منذ تولى النازي أزمّة الحكم في المانيا حتى نشوب الحرب الحاضرة . اذ بلغت قيمة الوارد ٣٥٧٤ مليون دولار بزيادة ٨١ ٪ عن قيمة الوارد اليها في عام ١٩٣٨ . وتجلّى هذا التدفق بصفة خاصة في مراحل ثلاث : الأولى في سبتمبر وأكتوبر ١٩٣٨ خلال أزمة ميونخ ، وابتدأت الثانية في مارس ١٩٣٩ عند ما احتل الألمان براغ ، وبدأت الثالثة في أغسطس ١٩٣٩ وظلت في اطراد حتى قيام الحرب وبعدها . وبذا بلغ مجموع الذهب المتدفق الى الولايات المتحدة من يناير ١٩٣٤ حتى أغسطس ١٩٣٩ أكثر من ٩٠٠٠ مليون دولار . كما بلغ صافي رؤوس الأموال التي أمّت الولايات المتحدة ٥٣٠٠ مليون دولار ، ثلثها يمثل أموالاً أميركية عادت الى وطنها ، وثلثاها رؤوس أموال أجنبية خاصة أُرسلت للولايات المتحدة لشراء اوراق مالية اميركية أو لتودع في مصارفها . ومن

لجدير بالذكر ان وارد الولايات المتحدة من الذهب في عام ١٩٣٩ بلغت أكثر من ٢/١ ٢ مرة الانتاج العالمي منه في هذه السنة

وفيما يلي بيان بمودعات الدول المختلفة من الذهب في الولايات المتحدة وما تملكه من الأوراق الأميركية حتى اغسطس ١٩٣٩ ونصيب الذهب من مودعاتها بين قوسين والقيمة بمليون دولار، بريطانيا العظمى ٤٢٣٠ (٣٠٠٠) — فرنسا ٣٥٨٠ (٣٠٠٠) — كندا ١٦٣٠ (٢١٥) — بلاد فرنسية وبريطانية أخرى (٥٤٠) — المانيا ١٦٠ (١٥٠) — ايطاليا ٢٠٠ (١٩٠) — هولاندا ١٧٨٠ (٧٧٠) — سويسرا ١٤٢٠ (٥٩٠) — روسيا ١٠٠٠ (١٠٠٠) — أقطار اوربية أخرى ٢٨٧٠ (٢١٩٠) — اميركا اللاتينية ١٠٠٠ (٦٦٠) — الشرق الأقصى وغيره ١٢٩٠ (٣٧٥) . المجموع ١٩٨٠٠ (١١٦٨٠) . وسنناقش فيما يلي عوامل هذا التدفق وعوامله

٣ — ﴿ موافقة ميزان اميركا الحسابي لها وأثر ذلك على تدفق الذهب اليها ﴾ يرى كثير من الباحثين ان تدفق الذهب الى الولايات المتحدة يعتبر نتيجة لخفض الدولار . بيد انهُ يلاحظ على هذا الرأي ان كثيراً من عملات البلاد الأخرى قد خفضت عقب الحرب الماضية وأنه منذ عام ١٩٣١ ارتفع سعر الذهب بالنسبة لعملات الدول الأخرى المختلفة . وبالتالي لا يمكن تفسير ظاهرة التدفق بالاختلاف الموجود بين الأثمان في الدول المختلفة . فلو كانت الولايات المتحدة تبذل جزءًا أكبر من نقدها للحصول على الذهب أكثر منهُ للحصول على السلع لكان من ذلك حصول الولايات المتحدة على الذهب وحصول الأقطار الأخرى على السلع الأميركية وهذا ما يأتي بهبوط أثمان البضائع في الولايات المتحدة أكثر منهُ في البلاد الأخرى . وليس أدل على بطلان هذا الرأي من أن تدفق الذهب لم يصاحبه إفراط مماثل في الصادر من الولايات المتحدة الى الخارج بل ان مدى رجحان الميزان الحسابي في المدة ١٩٣٤—١٩٣٨ كان في هبوط

بيد إن هذا لا ينفي تأثير موافقة ميزان اميركا الحسابي على تدفق الذهب اليها . ففي عام ١٩٣٨ مثلا جاوزت الصادرات الواردات بقيمة ٩٥٦ مليون دولار، وباحتساب الواردات غير المنظورة تصبح الزيادة ٨٠٢ مليون دولار . ولقد بلغ صافي الوارد من الذهب في هذه السنة ١٦٤٠ مليون دولار. فاذا ما قارنا هذه الأرقام بما يقابلها من ارقام ١٩٢٩ وجدناها ٨٤١ مليون دولار و ١٢٠ مليون دولار على التوالي

وفي الأعوام الأخيرة اشتدَّ طلب العالم على منتجات الولايات المتحدة فاشتدَّت حركة صادراتها وبصفة خاصة بعد نشوب الحرب وانصراف الدول المتحاربة لانتاج معدَّاتها وما تبع هذا من تقلّص صادراتها وصيرورة الميزان التجاري في غير مصلحتها كما سنبين في موضع آخر

وثمة حقيقة أخرى وهي ان الولايات المتحدة كانت تعتبر بعد الحرب الماضية قطراً مقرضاً

كبيراً . على ان الحال تغيرت في الأعوام الأخيرة فأصبحت الولايات المتحدة مدينة سنويًّا بمبلغ صافٍ كبير بلغ ٣٦٠ مليون دولار في عام ١٩٣٤ و١٥٣٦ في عام ١٩٣٥ و١١٦٩ في عام ١٩٣٦ و١١٨٧ مليون دولار في عام ١٩٣٧ و ١١٧٤ مليون دولار في عام ١٩٣٨ ومن هذا يظهر مدى الارتباط الشديد بين واردات الولايات المتحدة من الذهب والزيادة الحالية في مديونيتها للخارج . وهذه العلاقة شاذة الى أبعد حد ، لا تتفق مع الأوضاع الطبيعية المعروفة اذ كان صافي الوارد من الذهب لبلدٍ ما هو في الأوقات العادية نتيجة معادلة لما تدينهُ للخارج بسبب موافقة ميزانه الحسابي له

وكان تملُّك الذهب أمراً عرضيًّا يسير وفق حاجات التجارة والاقتصاد . فعوضاً عن أن تكون الولايات المتحدة اذاً قطراً مقرضاً كبيراً — كما كانت الحال منذ عام ١٩١٤ — اضطرتها الظروف الى ان يكون حسابها مديناً سنويًّا بمبلغ كبير . فهي لا تستورد الذهب بدافع من حاجتها اليه ، أي مقابل ما تؤديه من خدمات وما تصدره من بضائع ، ولكن بسبب الحالة الدولية التي حفزت الأفراد الاجانب على استبدال ما في حوزتهم من ذهب بدولارات . وهكذا غدت لديها ثروة قليلة النفع لها ، ثروة قيمتها في المستقبل يكتنفها الشك . وليس أدلّ على ذلك من ان صحافيًّا أميركيًّا كان قد سأل المستر نورمان محافظ بنك انكلترا عما اذا كان يأمل في عودة الذهب من الولايات المتحدة فأجاب إجابة ذات مغزى عظيم : « لقد عانينا ما فيهِ الكفاية من التعب لاستخراجه من الأرض »

فواردات الولايات المتحدة اذاً من الذهب في الزمن الاخير لا ترجع الى رجحان كفة الميزان الحسابي ولا ترجع بصفة خاصة الى مدفوعات تؤديها الدول الاخرى نظير قروض أقرضتها الولايات المتحدة لها

والوارد من الذهب اليها يمثل في الواقع ديوناً عليها كما سيتبين فيما بعد . وهي تستورده لا بمحض ارادتها ولكن وفقاً لإرادة البائعين الأجانب

٤ — ﴿أثر تقلقل الأحوال السياسية على اتجاه الذهب ورؤوس الأموال لأميركا﴾ — الخوف في الواقع هو الذي حفز الدول الأخرى على الاقبال على تصدير الذهب الى الولايات المتحدة بيد ان هذا وحده لا يكفي لتعليل تدفق الذهب الى هذه البلاد ، فلو صاحب حركة تدفق الذهب تعديلٌ في مستوى الأثمان لامتنع التدفق أو على الأقل خفت حدته . والواقع كان تعيين الولايات المتحدة سعراً ثابتاً للذهب سبباً في إبطال تأثير العوامل الاقتصادية المصححة التي كانت تعمل في الماضي على إعادة التوازن بين القوى الاقتصادية المختلفة فعندما كانت العملات مرتبطة بالذهب سرعان ما كان تغيُّر التوزيع الدولي للذهب يجد صداه في البلاد الأخرى فترتفع الأثمان

او تنخفض تبعاً للاحوال ولهذا تأثيره على حركات التجارة الدولية ، وبالتالي تصحيح حركات الذهب وتعديلها تعديلاً يتفق مع مطالب التجارة الدولية لكل دولة . وهكذا لم تكن ثمة دولة تحوز من الذهب قدراً أكثر من حاجتها

وفي نظام معيار الذهب الدولي اذا ما زاد الاقبال على الدولارات والاستعاضة بها عن الذهب فانه يتبع هذا هبوط الأثمان في الدول التي أتى منها الذهب وهبوط قوة الدولار الشرائية داخل الولايات المتحدة أي ارتفاع أثمان السلع منها فينجم عن هذا تثبيط تجارة الصادر الى ان يتوقف ورود الذهب . بيد ان الحال تختلف في الوقت الحاضر عما كانت عليه في ظل النظام السالف الذكر . فنظام معيار الذهب لم يعد له وجود الهم الا في الولايات المتحدة بل لا يوجد فيها سوى مظهره الخارجي ما دام الذهب في بقية أنحاء العالم قد بتر بتراً تامًّا عن هيكل الأثمان. وكان من جراء هجر العالم لمعيار الذهب ان أصبحت حركاته وليست لها تأثيراتها السابقة وبطلت وظيفة المعدن كمنظم للعلاقات الاقتصادية الدولية . وهكذا اذا ما تدفق الذهب على بلد ما فلن يؤثر في اقتصاده القومي تأثيره السابق ، ولن يجد هذا التدفق ما يعترض سبيله

وكان طبيعيًّا ان يعمل الذهب الوارد على رفع مستوى الأسعار داخل الولايات المتحدة لو ظل الذهب العملة الدولية ، بيد ان ما حدث يخالف هذا اذا لم يكن للذهب تأثير ما على مستوى الأسعار مثله في ذلك مثل أي سلعة أخرى . ولقد صاحب هبوط سعر الصرف — نتيجة للذهب الوارد — اتجاه الصادرات الأميركية الى الارتفاع بنسبة أعظم من واردات البضائع والخدمات

ويرد هذا الى أن تعديل سعر الصرف يجعل من الأسهل الشراء من الولايات المتحدة وأعظم صعوبة للأميركيين الشراء من الخارج . وهذا هو عكس النتيجة التي يتوصل اليها في نظام معيار الذهب الدولي الذي كانت واردات الذهب فيه يصحبها عادة تعديل في مستوى الأسعار يحدث هبوطاً في معدل الصادرات عن معدل الواردات في البلد الذي يتدفق الذهب اليه . وعلى هذا ليس ثمة اليوم عوامل تحد من تدفق الذهب فحسب ، بل ان ثمة عوامل تزيد نشاط هذا التدفق وتقويه

ولقد دأبت بعض الأقطار بين المانيا وايطاليا قبل هذه الحرب على تقويم الوارد بأعلى من الصادر وعلى اعتبار الصادرات السبيل الفرد لتزويدها بما تحتاج اليه من السلع المستوردة. وهذا في الواقع أثر من آثار الاستعداد للحرب والتهيؤ لها اقتصاديًّا . ومن ثم كان شراء الذهب عند هذه الأقطار عملاً غير مجدٍ. بل تراها ترسل ذهبها الى الولايات المتحدة لتعزيز أمر حصولها على المواد الأولية وليكون الثمن المتحصل من بيع ذهبها وصادراتها عاملاً في مدها بالمواد الخام اللازمة لها في استعدادها للحرب . ولما كان الذهب لم يعد أساساً للنقد فقد غدا وجوده فيها غير

لازم لها بالمرة وأصبحت عملية شرائه عند هذه الدول عبثاً على خزائنها لا مبرّر لها . وهكذا قوي ميلها الى التخلص من ذهبها واقتدى بها كثير من الحكومات الأخرى فأصبحت هي الأخرى تتجه نحو إنقاص احتياطيها الذهبي أكثر من اتجاهها نحو تعزيزه. وهذا التحليل يقودنا الى الفكرة الآتية ، وهي أن الاستعداد للحرب والتهيؤ لها قد جرَّ الى أن أصبحت الدول تميل الى رفع قيمة صرف عملاتها بالنسبة للدولار تسهيلاً لورود البضائع الأميركية اليها لا سيما المواد الأولية ضالتها المنشودة

نخلص مما تقدم الى القول بأنهُ لا يمكن انتظار وضع الحكومات الأخرى عقبات أمام حركة تدفق الذهب الى الولايات المتحدة كما لا يتوقع ضعف هذه الحركة الى أن تستوعب مخزون العالم من المعدن الأصفر فضلاً عن انتاج المناجم

٥ — ﴿ تحديد سعر ثابت للذهب وعلاقته بالتدفق ﴾ في يناير سنة ١٩٣٤ صرّحت وزارة خزانة الولايات المتحدة باستعدادها لشراء وبيع الذهب بسعر ثابت ٣٥ دولاراً لكل أوقية من الذهب العالمي، وسنناقش هنا ما ترتب على فرض هذا السعر الثابت للذهب من آثار وما نتج عنهُ من شد أزر نزعة التجاء الذهب والأموال الى اميركا . ففي عام ١٩٣٣ خرجت الولايات المتحدة عن معيار الذهب. حالة فريدة في بابها، بلد يخرج عن معيار الذهب في الوقت الذي يتوفر له حوالي نصف احتياطي العالم منهُ في ذلك الوقت ! والسبب الذي دفع الولايات المتحدة الى الخروج عنه في عام ١٩٣٣ يردُّ في الواقع الى خشيتها مناقسة بريطانيا العظمى السوق الدولية بعد ايقافها شرط معيار الذهب في عام ١٩٣١ وما عقبه من تعزز صادراتها . بيد أنهُ يلاحظ أن بريطانيا العظمى قد عمدت الى هذا الاجراء بعد ما هددت الحوادث رصيدها الذهبي ولا دخل للمنافسة التجارية فيه . هذا وقد قررت الولايات المتحدة العودة الى حظيرة الذهب في ٣١ يناير سنة ١٩٣٤ بعد تخفيضها قيمة الدولار بحوالي ٥٩٫٦٪ من قيمته السابقة وتطبيقاً لمبدأ الاحتفاظ بسعر ثابت للذهب لا تمتنع الولايات المتحدة عن شراء اية كمية تعرض عليها من المعدن ولا ترفض بيعه لمصدريه . وهذا يجعل الولايات المتحدة عاجزة عن السيطرة على حركات الذهب . ومن ثمَّ فان محاولة الإشراف على أسعار الصرف تعتبر في الواقع عبثاً لا فائدة تجنى من ورائه . فلو ارتأت السلطات النقدية الأميركية رفع قيمة صرف الدولار وبيع العملات الأجنبية لديها بالتالي فان في مكنة السلطات النقدية الاجنبية شلّ هذا الاجراء بواسطة الاقبال على شراء العملات المباعة بما يتحصل لها من دولارات ناجمة عن بيع الذهب للولايات المتحدة . وكذلك الحال لو رغبت السلطات النقدية في الولايات المتحدة في خفض قيمة صرف الدولار وشراء العملات الاجنبية ففي مكنة السلطات النقدية الأجنبية إبطال مفعول هذا الاجراء

عن طريق زيادة إصدار أوراق البنكنوت وبيعها وتلك وسيلة مباشرة يمكن ممارستها الى غير ماحد.
والواقع انه قد ذهب الزمن الذي كان لسعر الصرف فيه تأثير حاسم على حركات الذهب ، ولو لم تعمد الولايات المتحدة الى تعيين سعر ثابت للذهب لما بلغت ظاهرة الأموال اللاجئة اليها ما بلغته من قوة وعنف ولكان نتيجة الالتجاء الى الدولار رفع سعر صرف الدولار بالنسبة للعملات اللاجئة الى مستوى يحد من قوة التدفق

وطالما أن الولايات المتحدة قد أخذت على عاتقها منح ٣٥ دولاراً لكل أوقية من الذهب تقدم اليها فان تصدير الذهب اليها ينشيء حقوقاً فيها للمصدرين الأجانب على الدولار الأمريكي .
والعكس غير صحيح بمعنى أن الولايات المتحدة لن يتهيأ لها استبدال الذهب بالعملات الأجنبية الأخرى فلم تبد حكومة من الحكومات الأخرى استعدادها لتقبل الذهب بسعر معين .
والعادة في غياب حركات الذهب — أن يكون تخلص الناس من عملة ما بدافع الخوف باعثاً على رخص هذه العملة ، ومن ثمّ تغدو عملية الالتجاء في صالح الدول الأخرى اذ تبيع بضائعها رخيصة الى الدول الأخرى . وهذا الرخص يجرُّ وراءه تدفق بضائعها تدفقاً قد يضير مرافقها الاقتصادية . وهكذا تحمل هذه العملية بين ثناياها جزاءها للافراد والأقطار التي ترسل أموالها الى الخارج من جهة وللأقطار التي تقبل التجاء هذه الأموال اليها . وهذا التحليل لا يصدق الآن على الذهب فان تصديره الى الولايات المتحدة لا يحدث النتيجة السالفة الذكر . فالمصدرون في هذه الحالة لا يبيعون الولايات المتحدة عملاتهم الأهلية رخيصة ولكنهم في الواقع يشترون بسعر ثابت عملة نقدية أميركية ويدفعون في هذا الشراء الذهب الذي لم يعد يعد جزءاً من عملاتهم والذي عليهم وحدهم تتوقف مسألة استرجاعهم له من عدمه

فهل كانت اميركا على حق في اعادة ربط عملتها بالذهب في عام ١٩٣٤ في الوقت الذي هجرت فيه البلاد الأخرى قاعدة الذهب . وهل كان من سداد الرأي في وقت أصبح العالم فيه بمنأى عن قاعدة الذهب أن تظل الولايات المتحدة متبعة هذا النظام وأن تبدي استعدادها لشراء كل ما يعرض منهُ بسعر عالٍ جداً؟ يرى بعض الباحثين أنهُ يوجد في الوقت الحاضر سوء توازن خطير بين نفقة انتاج الذهب الواطئة وبين سعر بيعه العالي. ومن رأيهم أن هذا السعر من شأنه استمرار حالة انسياب الذهب الى أميركا . فلو لم تعين الولايات المتحدة سعراً ثابتاً للذهب لتيسر إنقاص سعر الذهب بالنسبة للدولار كما تطلبت الأحوال ذلك . أما الآن فان القيام بهذا الأمر بعد ان استمر هذا السعر ردحاً من الزمن وتأصلت جذوره في الحياة الاقتصادية يكلف الولايات المتحدة والعالم ثمناً فادحاً

ومن تحصيل الحاصل القول بتحويل الذهب الى دولارات حلاً للموقف طالما أن سعر

الذهب في الخارج بالدولارات لن يتعدى سعره الحالي الاّ بارتكاب أحد أمرين أحدهما من زيادة سعر الذهب أو إبطال حرية تصدير المعدن . فان أي حركة في أسعار الصرف سيتبعها بلا ريب تغير مماثل في سعر الذهب بالعملات الاجنبية وتحويل الذهب الى دولارات يحدث نتيجته الطبيعية اي التضخم النقدي وما يتبعهُ من هبوط قيمة الدولار الحقيقية (أي قوته الشرائية) . وبما ان الذهب مرتبط بالدولار ومقوم بهِ فستهبط قيمته الحقيقية كذلك بنفس النسبة . واذا ما امتنعت الولايات المتحدة عن شراء الذهب فان قيمته بالنسبة للدولار قد تذهب في هبوطها الى حدٍ أبعد من هبوطه ويعزّز هذا الرأي ما يجنيه حامل الأوراق المالية المقوَّمة بالدولار من ربح لا يتحقق له بحيازة الذهب . وهذه هي الحال التي عرضت للدول التي لديها الذهب فهي ترغب عنهُ لأسباب منها ان الدولار وسيلة للحصول على البضائع الأميركية التي هي في مسيس الحاجة اليها، ولأن ملكيتها لأوراق مالية مقوّمة بالدولار يغلُّ لها دخلاً لن يتأتى لها باستحواذها على الذهب فضلاً عن ان تخزين الذهب يكلفها نفقات كبيرة كما تتعرض لفقده في حالة اجتياح العدو أراضيها كما حدث لفرنسا وهولندا وبلجيكا والنرويج . الخ

والواقع انه اذا كانت دول أوربا — خاصة — تحرص على الاستحواذ على الذهب فلانهُ وسيلة للحصول على الدولار عن طريق بيعه بسعر ٣٥ دولار للأوقية السعر الذي حددتهُ

٦ — ﴿ مسألة العودة الى معيار الذهب ﴾ من الواضح ان مسألة العودة الى نظام معيار الذهب الدولي أمرٌ بعيد جداً . وليست الأفكار خارج الولايات المتحدة مستعدة لتقبل هذا الاجراء كما ان الظروف والأحوال الحاضرة لا تتيح امكان هذه العودة . فاذا كانت الأحوال العالمية في عام ١٩٣١ وما بعده قد اقتضت الخروج على معيار الذهب فان العالم يجتاز دوراً من أشد أدوار تاريخه خطورة وفترة أعظم شذوذاً من الفترة السالفة الذكر . وبعبارة أخرى فان استئناف الذهب وظيفته في الحياة الاقتصادية أمرٌ يعتبر ضرباً من المستحيلات في ظلّ الظروف التي بيّناها . وان استمرار السياسة التي تجري عليها الولايات المتحدة اليوم من تعيين سعر ثابت لشراء الذهب يلقي على هذه البلاد عبئاً جسيماً يكلفها سنويّاً حوالي المليار ونصف المليار دولاراً . ولا يتوقع توقف الذهب عن التدفق اليها فان سعر ٣٥ دولاراً للأوقية يشجع منتجيه على مواصلة زيادة الانتاج . فان شاءت الولايات المتحدة التخلص من هذا الموقف بالالتجاء الى التضخم وبالتالي الغاء السعر المحدد الثابت للذهب وترك المعدن تحدد قيمته العوامل الاقتصادية البحتة ، فسيؤثر هذا التخفيض على البلاد المنتجة للذهب لاسيا الكبيرة منها . فهذا الاجراء يعتبر بمثابة كارثة تحلُّ بها ويحتمل جداً ان يكون لهذا الاجراء صداه على الاقتصاد القومي للولايات المتحدة نفسها فضلاً عن ان الذهب الباقي في أنحاء العالم سيهرع اليها اتقاء حدوث تخفيض جديد . ويصطدم اجراء

التخفيض باعتراض خطير جداً ، فتخفيض دولار في سعر أوقية الذهب معناه خسارة قيمتها ٤٣٠ مليون دولار من القيمة الأسمية في السوق للمخزون الذهبي الذي تملكه الولايات المتحدة اليوم . ولو ترك الذهب يصل الى ٢٠٫٦٧ دولار للأوقية (سعر دار الضرب القديم) — وليس هناك ما يمنعهُ من الانحدار الى أقل من هذا المستوى لو ترك وشأنه — لبلغت خسارة الولايات المتحدة في مخزونها الذهبي الحالي حوالي الستة بلايين دولار ، وهذه الخسارة تعادل ضعف الربح الذي حققتهُ للولايات المتحدة عملية إعادة التقويم في عام ١٩٣٣ — ١٩٣٤ . فمبلغ الستة بلايين هذا كما يبدو أعظم من العبء الذي تتحمله الولايات المتحدة اليوم من جراء شراء الذهب (١½ بليون دولار سنوياً) . وتخفيض قيمة الذهب لن يتمَّ الا بزيادة نسبة غطاء الذهب في الدولار ، إجراء يكون له أوخم العواقب على الاقتصاد الاميركي . ففي سنة ١٩٣٧ زيدت نسبة الغطاء الذهبي بمقدار ٥٠٪ فأضرَّ هذا بالمصدرين كثيراً فماذا يحدث لتجارة الصادر لو بلغت هذه النسبة بنحو ٤٠٪

٧ — ﴿ وظائف الذهب اليوم في الحياة الاقتصادية ﴾ الآن وقد استعرضنا مركز الذهب يدور بخلدنا السؤال الآتي عن وظيفة الذهب اليوم وعن الدور الذي يشغله في الحياة الاقتصادية في الوقت الحاضر . أما عن وظائفه القديمة المعروفة فلم يبقَ له شيءٌ منها تقريباً . فلم يعد الذهب يستخدم مسكوكات أو سبائك تستعمل غطاء للاوراق النقدية ، وقد انهارت وظيفته كمنظم لعرض النقود . أما اتخاذه أداةً لتسوية المدفوعات الدولية فقد ضمر شأنها وغدا مصيرها الى الفناء . فان حركات الذهب تتجه اتجاهاً واحداً وهي لا تحدث — كما كانت فيما مضى — لتسوية الالتزامات الدولية بل انها اليوم تعتبر في الواقع وسيلة لانشاء التزامات جديدة كما تبيَّنا في موضع سابق . فليس ثمة اليوم صادرات وواردات للمعدن تنظيماً لعرض النقود بل غدا المعدن وسيلة لتهريب رؤوس الأموال من بلد الى بلد آخر بدافع الخوف والشك في مستقبله

والواقع ان كان ثمة فائدة للمعدن اليوم فهي درُّه الربح على منتجيه ومكتنزي المعدن الذين ينتفعون اليوم بالسعر العالي الذي تمنحه أميركا . أما عن اتخاذ الذهب كأساس لأرصدة تثبيت الصرف فهذا ما أصبحت الدول المختلفة تستبدلهُ بالدولار

وأخيراً يمكننا ان نقرِّر ان الدولار هو الذي يحدد اليوم قيمة الذهب لا العكس . ومن هذا يتبين ان ربط الدولار بالذهب هو في الواقع أمر ظاهر تماماً اذ لا يملك الذهب البتَّة التأثير على الدولار كما لو كانت الحال في نظام معيار الذهب الدولي

٨ — ﴿ أثر الحرب الحاضرة على مستقبل الذهب ﴾ بدلت الحرب الحاضرة مظهر تدفق الذهب الى الولايات المتحدة فبعد ان كان التدفق يتجلى في التجاء رؤوس الأموال الى الولايات

المتحدة عدا تدفق الذهب الى الولايات المتحدة الى حدٍّ كبير نتيجة للمعاملات التجارية بينها وبين العالم . وكان من نتيجة فرض القيود الشديدة على خروج الأموال في البلاد المحاربة والمهددة بالاشتباك في الحرب ، ان حدَّ كثيراً تدفق رؤوس الأموال اليها . ويقابل هذا من الجهة الأخرى ان الحكومة البريطانية قامت بتمويل عدد من صناعات الحرب في الولايات المتحدة واستتبع هذا بيعها أكثر من الأوراق المالية المقوَّمة بالدولار فضلاً عن جانب كبير من ذهبها فيها . والواقع أنهُ بلغت مبيعات غير الأميركيين لما يملكونهُ من أوراق مالية اميركية في أميركا في عام ١٩٤٠ مبلغاً يفوق الوارد اليها من الأموال الجديدة في تلك السنة . وهذا يردُّ كما ذكرنا الى امتناع الأموال الأوربية عن ان تولي وجهها شطر الولايات المتحدة بسبب الرقابة على رؤوس الأموال من جهة والسيطرة الألمانية على الشطر الأكبر من الدول الأوربية من الجهة الاخرى. ولولا هذا لعظم شأن تدفق الوارد من الذهب الى الولايات المتحدة في عام ١٩٤٠ أكثر مما كان عليه في عام ١٩٣٩ . ولما كان جلُّ رؤوس الأموال الأجنبية الموجودة في الولايات المتحدة خاصًّا ببلاد الحلفاء التي تستخدمه في شراء المؤن منها ، فكل محاولة لرفع الأثمان في أميركا يتبعها رفع الأسعار في الأقطار المحاربة . وحتى لو لم يتم هذا فان رفع الأسعار الأميركية لن يصدَّ الدول المحاربة عن استيراد البضائع الأميركية طالما أنها أداةٌ لمواصلة الحرب

نخلص من ذلك الى القول بان العالم سيجابه بعد الحرب مشكلة للذهب شاذة في عنفها وحدَّتها ، ويبدو لنا انهُ سيصبح من الصعوبة بمكان عظيم على أي نقد في العالم ان يتمكن من وضع قدمه أمام الدولار الأميركي ومجابهته . فالصناعة الأميركية سيقوى مركزها خلال هذه الحرب وبالتالي تغدو أقدر وأعظم على المنافسة ، وسيولي العالم المحارب وجهه شطر أميركا لمدِّه بما يحتاج اليه لإعادة الإنعاش الى ربوعه ومدّه بما يلزمه من معدَّات السلم . وكلما طال أمد الحرب كلما عظمت خسارة أوروبا وكلما اشتد الطلب على ما تبيعه أميركا ، حتى تصبح معادلة موازين المدفوعات أمراً من الصعوبة بمكان . وانه وإن كان استقرار أحوال العالم سيتبع عودة كثير من رؤوس الأموال الى أوروبا الاَّ ان هذا لن يتمَّ قبل مرور بضعة أعوام على عقد الهدنة وتلك حالة تضاف الى العوامل التجارية البحت التي أسلفنا ذكرها الخاصة بشدة الطلب على السلع الأميركية عقب الحرب. ويجب ان لا تغرب عن بالنا الحقيقة الآتية : — وهي انه من شأن استعادة التبادل حريته بعد الحرب التكالب على طلب الدولار ، ومباشرة هذا ستعمل على تدفق هذا القدر من الذهب الذي ما زال خارج الولايات المتحدة . وعلى ذلك لا مناص للعالم بعد الحرب من تقييد حرية التبادل نسبيًّا في فترة الانتقال على الأقل . ولكن لما كان دفع ثمن الواردات المنظورة وغير المنظورة أمراً مرغوباً فيه ، فيحتمل جدًّا ان تستمر حركة تدفق

رأس المال في ظل شيء من التقييد . فاذا حدث هذا فلا مناص من اتجاه العالم نحو خلق كتل نقدية قد تكون كتلة الدولار ، وكتلة الاسترليني مثلاً ، وستجري العمليات داخل نطاق كل كتلة حرة الى حد كبير ولكن ليس بين الكتلتين . وذلك وحده كما يبدو حل للمشكلة غير مرغوب فيه ولكن لامفر منه اذا ما سارت الحال على هذا المنوال

ولو حدث وتجمّع كل ذهب العالم في الولايات المتحدة ولو انقسم العالم الى كتل نقدية وصحب هذا توازن العمليات المالية داخل كل كتلة نقدية وقيدت العمليات المالية بين بعض الكتل والبعض الآخر فهل يعين فقدان الذهب وظيفته كوسيط دولي للتسوية؟ وهنا يدور بخلدنا سؤالان من الضروري الرد عليهما : الاول هل ستكون هناك حاجة ملحة الى وسيط دولي للتسوية . وبالتالي هل سيظل الذهب المرشح الوحيد لهذا العمل ؟ من الصعوبة جداً تصور عالم — أو على الأقل عالم يسوده نفوذ الحلفاء — يمكنه الاستغناء عن وسيط للتسوية . وانه من المستحيل فعلاً فرض إشراف تام على التبادل . وهيمنة النازي على التبادل بما يضمه بين ثناياه من تعقيد لا نهاية له ومع ما يفرضه من عقاب صارم لم ينجح رغماً عن هذا كله في إنشاء التوازن التام في إنشاء المانيا الخارجية . وبعبارة أخرى لا ينتظر ولوج العالم هذا الباب وإقباله على هذا النظام

واذا كان لا بد من وجود وسيط دولي للأداء (تسوية المدفوعات) فهل يكون هو الذهب ؟ من الصعب تصور قيام شيء آخر غير الذهب بهذا الأمر . والواقع أننا إذ نتكلم عن مشكلة الذهب انما نعني مشكلة الدولار . فليست مسألة تجمّع الذهب في الولايات المتحدة شيئاً خاصاً بالذهب وحده . فلو اتخذ صدف مثلاً وسيطاً في التسويات الدولية لأدت الظروف الحالية الى تجمّع أربعة أخماس صدف العالم في الولايات المتحدة الامريكية . ورغماً عما يحمله نظام الذهب بين ثناياه من مزايا وما يلصق به من نقائص لا ريب فيها ، فليس هناك بالتأكيد مادة أخرى غيره يمكن ان يقبلها العالم لأداء الديون دون أن تقام أمامها الرسوم الجمركية أو تحدد كميتها . أما القول بجعل الدولار نفسه يقوم بمهام الذهب فلا يمكن أن يقره العقل . فلا يمكن استخدام الدولارات لمواجهة عجز في الدولارات مثلاً . وفضلاً عن ذلك فإن هناك مصالح قوية لا يمكن الغض من شأنها يهمها الاحتفاظ بنظام الذهب الذي تعتمد قيمته كلية على استخدامه وسيطاً في النقد . والولايات المتحدة لن تتجاهل هذا الأمر كما ان الممتلكات البريطانية وروسيا لا توافق على خفض قيمة مادة تعتبر أعظم منتج لها

***

ومهما يكن من أمر ، فان عصر معيار الذهب أي العلاقة بين كمية من الذهب ووحدة النقود قد انقضى . ونزل الذهب عن عرشه العظيم وفقد سلطانه المكين

الخطر الذي يهدد المدنية

هل تنتهي الحرب بانقراضها ؟

لنقولا الحداد

ما هي المدنية التي نعني ؟

هي حياة الأمم جمعاء في طمأنينة ، وفي الفردوس الذي ينشئه العلم ويوسعه على توالي الأيام

هذا الفردوس في خطر عظيم من أفعى الفساد وشيطان الشر اللذين أوغلا فيه وطفقا يقتلعان أشجاره ويلفحان أزهاره ، ويتلفان ثماره ، . فاذا لم يضرب ملاك الخير بسيفه عنقيهما تركاه خراباً يباباً . ومن يدري ان كان الله يغرس بعد ذلك فردوساً ثانياً ويجبل من ترابه آدماً جديداً يعيش فيه عيشة راضية

وكان أنه لما أمعن الناس في الشر لعهد نوح أفناهم الله بطوفان ماء . فهل هو مفنيهم الآن بطوفان نار ؟

رأينا العلم الحديث ينشىء على سطح الكرة الأرضية براً وجواً وبحراً فردوساً غض الشجر ، يانع الثمر ، عاطر الزهر ، عذب القمر ، ناعم الأديم ، رطب النسيم — هو النعيم الذي كان يتوخاه عقل الانسان ويشتاقه قلبه وتطيب به نفسه ، فما باله انقلب جحيماً تجري من تحته أنهارٌ من دم تمخر فيها من الدبابات أساطيل وترمي أهله عفاريت سمائه بحجارة من سجّيل . أكان العلم شيطاناً رجيماً ؟ وكان معمله للناس جحيماً ؟ كلا بل العلم ملاك كريم . وانما قلب الانسان زنيم لئيم . إذن أين مصدر الخطر على جنة المدنية الجديدة ؟

مصدر الخطر في قلب الانسان نفسه . أتته المعرفة مزدوجة — معرفة الخير ومعرفة الشر . فاختار معرفة الشر . جعل العلم الذي كانت رسالته منح الهناءة للناس أداة للشر والشقاء . فالعلم الذي أنشأ الفردوس هو نفسه الآن يدمر هذا الفردوس ، فليت آدم بقي عرياناً جاهلاً — ليته لم يعثر على شجرة معرفة الخير والشر

***

مررت أمس بكبير مصارف (بنوك) العاصمة فرأيته مدثراً بأكياس الرمل الى عنقه ، تحامياً لشظايا قنابل الطائرات . ثم مررت بمعبد فرأيته عارياً من هذه الحصانة الرملية . ثم مررت بمعهد فاذا هو محاطٌ بسلسلة من تلك الاكياس . فقلت : يا لله ! هل صار المال أعزّ من الانسان وأغلى ؟ سبحان الله ! المال المثير الحرب يخاف على نفسه من كوارث الحرب : — أجل ان هيكل المال مهددٌ بالدمار شأن البيت المبني على الرمل سريع الانهيار

ان هذه المدنية غنية بالاختراعات . ولكن نفس اختراعاتها تحطم أدواتها . وغنية بالترف والبذخ ، والترف والبذخ يخدران اخلاقها حتى الموت . وغنية بالمال ، واله المال أخبث الشهوات فيام مدنيته الكوارث والنكبات . وغنية بالمعرفة ، والمعرفة ابتدعت آلات تدميرها

اذن هذه المدنية كاذبة لانها تغرُّ الانسان بالسعادة فلا يلبث ان يرى السعادة سراباً فيموت صادياً في بحر من الشقاء أجاج الماء . أجل ان هذه المدنية مزيفة تحمل في اذيالها اسباب فنائها

أنخشى اذن ان يكون أجلها دانياً ؟

هي الآن على مفرق طريقين عند تقاطعهما : طريق الدكتاتورية . وطريق الديمقراطية . يتقاطعان الآن ثم يفترقان . وفي أحد المفرقين سلامة المدنية وفي الآخر فناؤها

ليست الدكتاتورية شرّاً على الاطلاق ، فقد تكون خيراً اذا كان الحاكم بأمره صالح الضمير . ولا الديموقراطية خيراً على الاطلاق ، فقد تكون شرّاً اذا لعب فيها شيطان الوساوس ونخرها سوس الفساد . وانما الدكتاتورية والديموقراطية رمزان او اسمان لنظامين يغلب في أولهما شر قلب الانسان ويغلب في الأخرى صلاح قلب الجماعة

لسوء الحظ ان الدكتاتوريات الحالية ممثلة في نفوس أشخاص يستغلون لأنفسهم قوى الجماعة بدعوى الجهاد لخير الجماعة ورفاهية الجماعة . وانما هم بالحقيقة يضحون بهناءة الجماعة وسلام العالم على مذبح شهواتهم الشخصية

سل الألماني او الايطالي بأي نعيم كان ينعم في العشرين سنة المنصرمة ؟ أبالتقتير المؤلم في نفقاته وبالعمل الشاق في مصانع السلاح استعداداً للحرب ؟ ويالها من حرب تتقذف فيها تلك الاستعدادات الدافقة دخاناً الى السماء ، وحطاماً في الفضاء ، ومعها اشلاء الذين صنعوها . أهذا هو النعيم الذي كان الدكتاتور يمنيهم به ؟ وما هو ذلك النصر الذي كان يغررهم به اذا كانت مقدماته ذاك الجهاد المضني في المعمل وفي المعسكر وفي المعترك ، وخواتيمهُ تلك الاشلاء المتطايرة بين الأرض والسماء والديار المدمرة في البر ، والسفن المحطمة في البحر ؟

ولعلهم كانوا يملاون النفس بنعيم ارض الميعاد التي كان موسالم يمنيهم بها حين يتفانون في القتال على أمل النصر . أفبعد ان ينقضي شبابهم في الاستعداد ويفنى شبابهم في الجهاد يتمتعون ؟ عشرون سنة مضت وهم يشقون . فهبهم ربحوا الحرب ، فمن يبقى منهم لكي ينعم بغنائمها ؟ وماذا يبقى من نعيم ؟ سيرون بعد هذا الجهاد العنيف انهم غنموا خراباً يباباً ، وان النعيم الذي دفعوا ثمنه عملاً شاقاً وأرواحاً غالية لم يكن الا سراباً . هذه هي رحلة الدكتاتورية : من الوعود الى الخيبات !

وماذا يرجى غير هذه الخيبات اذا كان الحاكم بأمره يعد صعاليك شعبه بالرفاهية على حساب نهب شعوب اخرى . والشعوب الأخرى ليست أضعف بأساً ولا هي أقل اعتصاماً بحبل الحياة

الخطر الذي يهدد المدنية

هل تنتهي الحرب بانقراضها ؟

لنقولا الحداد

ما هي المدنية التي نعني ؟

هي حياة الأمم جماء في طمأنينة ، وفي الفردوس الذي ينشئهُ العلم ويوسعه على توالي الأيام

هذا الفردوس في خطر عظيم من أفعى الفساد وشيطان الشر اللذين أوغلا فيه وطفقا يقتلعان أشجاره ويلفحان أزهاره ، ويتلفان ثماره . فاذا لم يضرب ملاك الخير بسيفه عنقيهما تركاه خراباً يباباً . ومن يدري ان كان الله يغرس بعد ذلك فردوساً ثانياً ويجبل من ترابه آدماً جديداً يعيش فيه عيشة راضية

وكان أنه لما أمعن الناس في الشر لعهد نوح أفناهم الله بطوفان ماء . فهل هو مفنيهم الآن بطوفان نار ؟

رأينا العلم الحديث ينشيء على سطح الكرة الأرضية براً وجواً وبحراً فردوساً غض الشجر ، يانع الثمر ، عاطر الزهر ، عذب القمر ، ناعم الأديم ، رطب النسيم — هو النعيم الذي كان يتوخاه عقل الانسان ويشتاقه قلبه وتطيب به نفسه ، فما باله انقلب جحيماً تجري من تحته أنهارٌ من دم تمخر فيها من الدبابات أساطيل وترمي أهله عفاريت سمائه بحجارة من سجّيل .

أكان العلم شيطاناً رجيماً ؟ وكان معمله للناس جحيماً ؟ كلاَّ بل العلم ملاك كريم . وانما قلب الانسان زنيم لئيم . إذن أين مصدر الخطر على جنة المدنية الجديدة ؟

مصدر الخطر في قلب الانسان نفسه . أتنهُ المعرفة مزدوجة — معرفة الخير ومعرفة الشر . فاختار معرفة الشر . جعل العلم الذي كانت رسالته منح الهناءة للناس أداة للشر والشقاء . فالعلم الذي أنشأ الفردوس هو نفسه الآن يدمر هذا الفردوس ، فليت آدم بقي عرياناً جاهلاً — ليتهُ لم يعثر على شجرة معرفة الخير والشر

***

مررت أمس بكبير مصارف (بنوك) العاصمة فرأيته مدثراً بأكياس الرمل الى عنقه ، تحامياً لشظايا قنابل الطائرات . ثم مررت بمعبد فرأيته عارياً من هذه الحصانة الرملية . ثم مررت بمعهد فاذا هو محاطٌ بسلسلة من تلك الأكياس . فقلت : يا لله ! هل صار المالُ أعزَّ من الانسان وأغلى؟ سبحان الله ! المال المثير الحرب يخاف على نفسه من كوارث الحرب : — أجل ان هيكل المال مهددٌ بالدمار شأن البيت المبني على الرمل سريع الانهيار

يتمتعوا بنتاج عملهم ، بل لكي يعززوا السلاح الألماني الذي يستعمل لاستعبادهم . وعلى توالي السنين تتلاشى الامم الأخرى ثم تنقرض ، كما انقرضت الوحوش امام قوة الانسان ، وتخلي سطح الكرة الارضية لكي تملأه سلالة الألمان . وهكذا تصبح بقاع الأرض في أقاصيها الأربعة ملك امة واحدة فقط . ولكن أية أمة ؟ — امة أرقاء تتحكم فيها شرذمة من الزعماء الطغاة ردحاً من الزمن الى ان يدب الشقاق بين هؤلاء الزعماء فيختصمون الى ان يقتسموا ذلك التراث الفني العلمي وتسود السلالة البشرية الجرمانية الدم مجموعة امم في مجموعة ممالك . ولا تلبث ان تتداولها الحروب وتبيدها المهالك وربما بقيت حثالة في زنوج مجاهل افريقيا نسيها الدمار لانها بلا وطن ولا دار . ومن يدري ان كان هؤلاء الفضلة من الانسان يستطيعون ان يستأنفوا الحضارة وينشئوا مدنية جديدة في ألوف القرون ، او انهم ينقرضون أيضاً ولا يبقى أخيراً من رث ملكوت الانسان الا الضواري والحشرات . ويتجه فعل سنة النشوء والارتقاء اتجاهاً آخر لا يعلمه الا علام الغيوب . هذه عاقبة الفرض المحال الذي فرضناه آنفاً ونعني به انتصار هذين الدكتاتورين الجهنميين على الديموقراطية الحقة

واذا كانت نهاية هذه الحرب اندحار الهتلرية وانهيار الدكتاتورية كما هو إيمان جميع الأمم الراغبة في السلام فالأمر الذي لا ريب فيه ان السلالة البشرية ستخرج منها خروج المريض المصاب بحمى خبيثة ، منهوكة القوى مضعضعة الوجدان تستغرق نقاهتها مدة طويلة من الزمان

من هو السبب ؟

ولعل القراء يتساءلون عمن هو الجاني الأصيل في هذا الجنون الاجتماعي الويل الذي حطم فيه الانسان معالم مدنيته ودمر به جميع أسباب رفاهيته من غير ان يحسب حساب ربحه او خسارته في هذه المغامرات التي لا يمكن ان يكون الحظ فيها الا نحساً

قالوا : السبب هو معاهدة فرساي . وعندي ان معاهدة فرساي لم تكن سبباً حقيقيًّا البتة . بل كانت حجة لطغاة الالمان يتذرعون بها لغزو الانسانية . واذا كانت معاهدة فرساي السبب الحقيقي فما شأن نروج ودنمرك وهولاندا وبلجيكا في هذا النزاع ؟

لو لم تكن معاهدة فرساي قد وجدت في حوادث التاريخ لاختلق الألمان سبباً آخر لغزو الانسانية كما اختلقوا السبب في الحرب الماضية . ولم يكن ثمت من سبب لها غير رغبة طغاة الألمان ولا سيما العسكريين منهم في اجتياح العالم لكي يؤسسوا امبراطورية السوبرمان الجرماني

فسبب هذه الثورة الجرمانية الجنونية هو اقلام بعض مفكريهم المرج وأخصهم نيتشة الذي طلع على العالم بمبدإ اجتماعي سليط ينقض اركان الاجتماع ويقوضها الى الأساس ، وهو تمجيد القوة ومحق الضعيف . وبعبارة اوضح هو تحبيذ « تطبيق سنة التنازع الحيوانية على البيئة

الاجتماعية في حين أن هذه السنّة تتلاشى رويداً امام سنة التعاون والتضامن الانسانية التي هي أساس الاجتماع ، ولولاها لما كان اجتماع انساني ، ولا امتاز الانسان على الحيوان بشيء

تسمم الجرثومة الالمانية بسم السوبرمان

فمبدأ فلسفة نيتشه ومن جاراه لا يختلف عن مبدإ التنازع الحيواني الا بأن العامل فيه العقل المفكر المختار لا الغريزة المسيرة . ولذلك هو أفظع شرًّا من التنازع الحيواني . وسلوك الألمانيين الوحشي في هذه الحرب هو أوضح برهان — لا رحمة ولا عطف ولا رفق بل جبروت وقسوة وتفظيع لا حد لهُ ، تفظيع لا تأتيه الضواري

هذه الفلسفة النيتشية التي افتتن بها غليوم قبل هتلر وتسمم بها نظامه العسكري وقواده وجنوده حتى أخرجهم غرورهم من تحت سلطة القانون المدني بحيث يباح للجندي ان يقترف أية جريمة لأن النظام العسكري يحميه من العقوبة هي السبب الأساسي . ولذلك كانت القوة العسكرية الألمانية منذ عهد غليوم دائبة الشوق الى الحرب تتحين أية فرصة لخوض غمارها

وكان هتلر وصحبه أكثر تسمماً بهذه الفلسفة . فجاءت النازية مرض هذا التسمم الذي تفشى في الأمة الجرمانية بأسرها الا في جانب من عقلائها وعلمائها وحكمائها الذين أصبحوا لدى هذا الوباء النازي بلا حول ولا طول . ذلك هو السبب الأصيل لهذه الكارثة التي بليت بها الانسانية فاضطرت جميع الامم ان تضحي براحتها وهنائها وسلامها في سبيل الاحتياطات الغالية لاتقائها وتدارك نتائجها « الدمارية » . فانظر كم هو تأثير تفكير المفكرين في النظم الاجتماعية . وقارن رسالات الانبياء والرسل الاقدمين بمبادىء شذاذ المفكرين والفلاسفة المتأخرين

مثل هذه المبادىء العوجاء والفلسفات الهوجاء تختلق عذراً لتحديد حرية المفكرين والخطباء والمحررين ، ولاسيما لأن العامة ضعاف الحكم قصار النظر ضيقو الفكر . تتلاعب بعقولهم اهواء الكتّاب والخطباء كما تتلاعب الرياح بخفاف الريش والهباء . فخليق باهل التفكير والتحبير ان يرموا بابصارهم الى الاهداف التي تصيبها افكارهم وآراؤهم في النُظم الاجتماعية

القاعدة الأساسية للفلسفة الاجتماعية في اصطناع الآراء التي يراد بها ارشاد الجماهير هي ان يكون الهدف الاخير لكل رأي وفكر ادبي وخلقي واجتماعي تكتيل الجماعة وضم الجماعات وربطها برباط المصالح الاجتماعية الحقة العادلة ، لا التفريق بين الافراد والامم بتمجيد العصبيات الجنسية والنعرات الوطنية . ان تمجيد الجنس والوطن كان منذ القديم والى اليوم سبب تنازع الامم وحروبها . والآن وقد اصبحت الامم على اتصال سريع فيما بينها صار في الامكان ملاشاة العصبية الجنسية في « الانسانية العليا » وافناء « الوطنية » في « الاممية العامة »

فليفكر قادة الامم المفكرون في هذه القاعدة الانسانية قبل ان يمسكوا الاقلام ويقفوا على المنابر

باب المراسلة والمناظرة

حول عقيدة اشبنجلر

صديقي الفاضل محرر المقتطف : اطلعت في مقتطف يوليو على ما كتبهُ الاستاذ السيد أبو النصر احمد الحسيني الهندي ، ردًّا على كلمتي في مقتطف إبريل ، وأرجو ان يتسع صدر المقتطف لنشر الكلمة الآتية تعقيباً على ما كتبهُ الاستاذ وتوفية للبحث واستجلاء للحقيقة

المصدر الوحيد الذي اعتمدت عليهِ في تقرير يهودية اشبنجلر هو الفقرة الواردة في المقدمة التي كتبها ريشارد كالرجي لكتاب أبيهِ الكونت هنري كالرجي كما سبق أن أوضحت ذلك، وريشارد كالرجي من أسرة نمساوية عريقة ، والمقال الذي عرض كتاب الكونت كالرجي كُتب بالالمانية ونشر في جريدة نمساوية وترجمهُ بعد ذلك مجلة العصر الحي الاميركية ، وبديهي ان ترجمة المقال من الالمانية الى الانجليزية لا تجرده من الجنسية الالمانية أو النمساوية ولا تحيله انجليزيًّا أو اميركيًّا أو يهوديًّا ، فالمصدر الذي اعتمدت عليهِ اذاً ليس انجليزيًّا ولا اميركيًّا ولا يهوديًّا كما زعم الاستاذ وانما هو مصدر نمساوي ونمساويٌّ صميم لا غبار على نمساويته ، وسبيل إضعاف هذا المصدر أو التشكيك في صحته إما أن تكون بإظهار الخطأ في ترجمة الفقرة وإثبات أن اسم اشبنجلر أُقحم فيها اقحاماً وذلك بالرجوع الى الكتاب نفسه الذي وضعهُ الكونت هنري، او بنقض ما ذهب اليهِ ريشارد كالرجي ، وريشارد كالرجي شخصية نمساوية بارزة ومؤلف محترم المكانة ثاقب الرأي انساني النزعة ،وأظن انهُ من المستحسن أن نرد كلامهُ ونلغي رأيهُ برأي رجل آخر يعادله في المكانة الأدبية والسمعة الفكرية أو يفوقه ، وأصارح الاستاذ الحسيني وحضرات القراء أني عند ما راجعني حضرته في يهودية اشبنجلر تسرَّب اليَّ الشك لاني كنت أحب لنفسي ان أكون قد اعتمدت في ذكر يهوديته على مصادر عدة — لا على مصدر واحد — شأني في تحقيق أكثر ما أكتب — وذلك مع تقديري لصعوبة الحصول على المراجع في مثل هذه المسألة الدقيقة لان أكثر الكتَّاب اليهود يغفلون الاشارة الى يهوديتهم،والكثيرون ممن يكتبون عنهم لا يعنون بهذه الناحية ، وقد وددت أن يكون عند الاستاذ الحسيني الخبر اليقين الذي يقطع الشك ، والحجة الدامغة التي تجلو الحق ، ولكن الاستاذ لم يحقق أمنيتي . فالاستاذ مثلاً يستدل على ان اشبنجلر ليس يهوديًّا بأن حضرات زملائه اساتذة الجامعة الذين عاشوا في المانيا سنين وتخرجوا في معاهدها أنكروا ذلك. ولست أطيل مناقشة هذه الحجة ، ويظهر أني في حاجة الى بعض البساطة المقدسة لأسيغها ، وحاول الاستاذ كذلك التشكيك في يهوديته لانهُ «عاش في المانيا في زمن بلغ اضطهاد اليهود فيهِ ذروته ولم يخفض لهم جناح الرحمة » . كأنهُ كان

يريد من اشبنجلر ان يعيد تمثيل دور موسى الكليم ويتحدى فرعون العصر الحاضر ويقود يهود المانيا الى ارض الميعاد ليثبت يهوديته ، وأنا اعرف ان الاستاذ الحسيني يدّعي لاشبنجلر «قوة البصيرة ودقة التفكير» . ولم أعرف بعد انهُ يعزو اليهِ البطولة وحب التضحية والاستشهاد، فاذا كان يعهد فيه هذه المناقب العالية والصفات الحميدة فليتولَّ حسابه لتقاعده عن نصرة قومهِ وهو على أي حال ليس اول ولا آخر من آثر العافية وطلب السلامة وسار في ركاب الاقوياء ، والاستاذ الحسيني نفسه قد وصف اشبنجلر بأنهُ من دعاة « البروسية » وأمثال هؤلاء الدعاة يحبذون مظاهر الجفوة والخشونة والاضطهاد والقسوة ، والرحمة عندهم خور في الطبيعة

وقد كانت العبارة التي اختارها الأستاذ الحسيني للتعبير عن رأيه في نفي اليهودية عن اشبنجلر في كلمته الأولى تضطر الانسان الى ان يفهم انه ينتقص العقلية اليهودية وقد استصوبت في الرد على ذلك انَ اذكّره بالفيلسوف اليهودي العظيم باروخ اسبنوزا فاستخلص الأستاذ من ذلك اني اعتقد بأن هناك تقارباً بينهما في التفكير وأخذ يرشدني الى ما بينهما من خلاف وقد اتعب الأستاذ نفسه فاني لم اكن أجهل ما قاله وأشكر لهُ على أي حال تحرّيهُ

ويرى الأستاذ ان بعض المفكرين ينكر تأثير اسبنوزا في جيتي كبير شعراء الألمان ، وقد رجعت فيما ذكرته عن تأثره باسبنوزا الى نصوص واردة في كتابات رينان وماثيو ارنلد وادوارد كيرد وجورج سانتايانا ورينيه برتلو ووليم شيرر ووليم جيروسلم وهارلد هفدنج ووندلباند . فجورج سانتايانا يقول مثلاً « حقيقة كان جيتي طوال حياته تلميذاً لاسبنوزا[1] » والأستاذ جيروسلم يقول « كتاب الأخلاق لاسبنوزا اثر تأثيراً عميقاً في هردر وجيتي وشلنج وهجل[2] » ووندلباند يقول في صفحة ٥٩٧ من الترجمة الانجليزية لكتابه القيم في تاريخ الفلسفة « لقد أثر اسبنوزا تأثيره القوي في عقول الناس لانه كان يرى الطبيعة — دون ان يستثني الانسان — وحدة متصلة مترابطة يتكشف فيها الموجود المقدس في تمام كماله وقد اقتبس جيتي هذا التصور فأصبح له منزلة حاسمة في نموّ الفكر الألماني » وتحدث جيتي نفسه في احدى رسائله عن اسبنوزا فقال « الرجل الذي أثر فيَّ تأثيراً قويًّا والذي كان مقدراً ان يؤثر تأثيراً عميقاً في طريقة تفكيري جميعها هو اسبنوزا[3] »

ويرى الأستاذ الحسيني ان فلسفة اسبنوزا تعد « الى مدى كبير صدى الفلسفة العربية الاسلامية » وكنت احب ان يكون الاستاذ اكثر دقة من ذلك فان استعمال لفظة « صدى » هنا لا تخلو من امتهان لفيلسوف سامي الشأن مثل اسبنوزا ، وهي تقلل من طرافته التي اعترف بها كبار مؤرخي الفلسفة ، وقد تأثر اسبنوزا[4] بالآداب العبرية ودراسة التلمود واطلاعه على مؤلفات علماء اليهود

(١) راجع صفحة ١٣٩ من كتاب سانتايانا Three Philosophical Poets. (٢) راجع صفحة ٢٥٠ من كتاب جيروسلم Introduction to Philosophy (٣) راجع صفحة ١٧٦ من كتاب لويز The Libe & Works of Goethe (٤) راجع صفحة ٥٤٨ من كتاب روبرت فلنت Anti-Theistic Theories



(١) الملكة هيلين ملكة رومانيا الوالدة (٢) الملكة اليزابيث اليونانية (٣) الامبراطورة زيتا (٤) الملكة جيرالدين ملكة البانيا (٥) الملكة فكتوريا ملكة اسبانيا السابقة (٩) الملكة ثريا ملكة افغانستان السابقة (٧) الأمبراطورة هرمين الزوجة الثانية لغليوم الثاني (٨) الملكة اميليا البرتغالية (٩) الملكة رامبا يارني ملكة سيام السابقة

ملكات منفيات

لابراهيم موسى

من الحقائق الأليمة في هذا العالم الغريب الأطوار ، الكثير المفاجآت والتحولات ، ان عدد الملوك المخلوعين عن العرش ، المنفيين من أوطانهم ، أصبح بعد الحربين الماضية والحالية أكبر من عدد الملوك الذين ما زالوا يتربعون على العرش ويتولون مقاليد الحكم في بلادهم

وفي العالم ملكات كثيرات ، كن زينة الملك والتيجان والعروش ، فضاع ملكهن ، وقد يكون ذلك الى حين ، وقد يكون الى الأبد ، ولكنهن صابرات على محنتهن ، يقضين أوقاتهن في كتابة المذكرات او املائها ، أو في مرافقة أزواجهن في السياحة والصيد ، أو ينظمن الحفلات ويجمعن الأنصار ليوم موعود يوم تقوى شوكة أحزابهن وأحزاب أزواجهن في أوطانهم فيطلبون اعادة العروش المسلوبة اليهم . والعالم كله في أماني وأحلام ، فلماذا لا يمنين النفس بالأماني ولم لا يعشن بالآمال والأحلام ؟!

ملكة رومانيا الوالدة

وها هي ذي هيلين ملكة رومانيا (الوالدة) ولدت في عام ١٨٩٦ ، وهي ابنة الملك قسطنطين ملك اليونان السابق ، تزوجت البرنس كارول الروماني عام ١٩٢١ ، ولكن زوجها نزل عن حقه في العرش في عام ١٩٢٥ وهجر بلاده وذهب الى فرنسا مع خليلته مدام لوبسكو ، ثم عاد عن رأيه ورجع الى بلاده ونزع الملك من ابنه ، وأصبح الأخير وليًّا للعهد بعد ان كان ملكاً ثم نشب خلاف بين كارول وهيلين فحدث الطلاق المعروف ، واعتزلت الملكة العالم في فلورنسة بايطاليا ، وكانت تقابل ابنها الامير ميشل مرة كل عام ، ثم حدث انقلاب الحرس الحديدي المعروف وتولى الجنرال انطونسكو الحكم ، وعادت الأم الى جانب ابنها ترعاه بعينها وتكلأه برعايتها بعد ان قضت سنوات كانت لا ترى فيها ابنها وأرض وطنها الا مرة كل عام

أغرب ملكة منفية

وأغرب ملكة منفية في هذا الوجود هي اليزابت اليونانية ، كانت زوجة الجورج الثاني فطلقت منه . ولدت في عام ١٨٩٤ ، وهي ابنة الملك فردناند الروماني (شقيقة كارول) ، لم تتول الملك الا ١٤ شهراً ، ثم خلع زوجها في عام ١٩٢٣ ، وفي المنفى فترت العلاقات بينها وبين زوجها ، ثم دعي الأخير مرة ثانية الى العرش

ولكنهما طلّقا ، واليوم . . . هل تدرك مم تعيش هذه الملكة السابقة ؟

يقال إنها تدير متجراً لأنواع « البقالة » في بخارست مسقط رأسها ، ومتجرها قريب من القصر الملكي، ولا ندري هل صادر الالمان ما في متجرها بعد الاحتلال ام تركوه

فما أغرب حوادث الزمن وما أعجب تقلبات الدهر

الامبراطورة زيتا

والامبراطورة زيتا ، امبراطورة النمسا وملكة المجر ، كانت تتحكم في ربوع أوربا الوسطى كلها، وكان رعاياها يجلونها و يوقرونها ، من تشك الى مجر الى سلاف الى نمسويين. ولدت في عام ١٨٩٢ ، وهي ابنة البرنس الايطالي بوربون بارما ، ثم تزوجت البرنس تشارلس هابسبورج عام ١٩١١ ، وبعد سنوات أصبح زوجها امبراطوراً ، ولكنهُ لم يكد يقضي في الملك سنتين حتى هزمت النمسا مع المانيا في الحرب الماضية ، فخرج من بلاده يهيم على وجهه في أوربا ، ثم مات عنها ، وانقطعت أنباؤها بعد نشوب الحرب الحاضرة فلا يعرف العالم من أمرها شيئاً

ملكة البانيا

أما جيرالدين ملكة البانيا ، فولدت عام ١٩١٧ في بودابست ، فهي مجرية الأصل أبوها الكونت أبوني، كان من النبلاء ولكنهُ لم يكن من الأثرياء ، زارت تيرانا عاصمة البانيا عام ١٩٣٧ فقدمت الى الملك زوغو فهام بها حبًّا من النظرة الأولى، وخطبها وتزوجها في عام ١٩٣٨ وكان الكونت شيانو من شهود الزواج ، وما كاد يمضي عام حتى كان الكونت وحموه موسوليني سبباً في هدم صرح الهناء الذي كان الملك زوغو والملكة جيرالدين يعيشان فيه، إذ غزت ايطاليا البانيا وضربتها بالقنابل من البر والجو بدون مسوغ الا الجشع، فاضطرت الملكة الى الفرار مع طفلها الوليد حتى لا تقع أسيرة في أيدي الغزاة، وهي تعيش وملكها في مكان ما بانكلترا على الغالب وقد يأتي يوم تعود فيه الى ملكها بعد انتصار الحلفاء

ملكة أسبانيا السابقة

وهذه هي فكتوريا ملكة أسبانيا السابقة ولدت في قصر بالمورال عام ١٨٨٧ ، فهي حفيدة الملكة فكتوريا ، تزوجت الملك الفونسو الثالث عشر الاسباني عام ١٩٠٦ ، وانجبت ستة أطفال مات اثنان منهم في حوادث السيارات ثم طلقت من زوجها وهما يعيشان منفصلين ، وقد فقدت مُلكها بعد ٢٧ عاماً، وقامت حركة الجنرال فرانكو فأملت هي وزوجها خيراً ، ثم ظهر ان فرانكو لم يقاس بنفسه ليجعل على رأس اسبانيا ملكاً أو رئيساً غير نفسه . وقد توفي الملك الفونسو من عهد غير بعيد في ايطاليا

ملكة أفغانستان

أما ثريا ملكة أفغانستان السابقة وزوجة أمان الله خان ، فكانت كريمة لمحمود زارزي

وزير خارجية أفغانستان فأصبحت ملكة ، وأرادت ان تدخل مظاهر الحياة الأوربية الحديثة على بلادها فتشلتٍ، وكان فشلها سبباً في سقوطها ، وطردت هي وزوجها من الملك وسلبا عرشها وتاجها في عام ١٩٢٩ ، ويقال أنهما الآن في ايطاليا

زوجة غليوم

وهذه هي الامبراطورة هرمين ، الزوجة الثانية لغليوم الثاني امبراطور المانيا السابق ، شهدت من المجد والعظمة والجبروت ما لم يشهده أحد ، كان زوجها الاول هو البرنس شونلاخ كارولات وقد توفي عنها في عام ١٩١٩ ، وأنجبت منه خمسة أطفال ، وها هو ذا زوجها الثاني يموت من أسابيع ،ففقدت بذلك زوجين أحدهما أمير والثاني امبراطور ، وكل ذلك في اثنين وعشرين عاماً

ملكة البرتغال السابقة

وهذه هي الملكة إميليا البرتغالية ، ولدت في تويكنهام عام ١٨٦٥ وهي ابنة كونت دي باري زوجت عام ١٨٨٦ من ولي عهد البرتغال، وقد أصبح ملكاً بعد ذلك ، ولكن ابنها وزوجها قتلا غيلة في لشبونة عام ١٩٠٨ فتولى ابنها الأصغر مانويل العرش ولكنهُ خلع بعد قليل، وكانت تعيش في فرساي منفية عن بلادها قبل سقوط فرنسا ، فتقضي أغلب أوقاتها في أعمال البر والخير ، وهي في الصليب الأحمر الدولي اليوم ، عسى ان تجد في عمل البر والخير عزاء لها بعد ان نكبها العرش في زوجها وابنها

ملكة سيام السابقة

وأخيراً نحدثك ايها القارىء الكريم عن ملكة سيام السابقة راما يارني ، تولت الملك في عام ١٩٢٥ ، وفي أثناء حكمها زارت مع زوجها عواصم أوربا ، وكانا في خلاف مستمر مع حكومتها فنزل الملك عن العرش عام ١٩٣٥، وهما يعيشان في انكلترا وقد اشتهرا بأنهما مولعان بالرياضة وأسباب اللهو ويشاهدان كثيراً وهما يمران في شوارع المدن ، ويبدو أنهما يفضلان ملذات الحياة العادية على أبهة الملك ، ولا يدري المرء أيعزيهما في فقد العرش أم يهنئهما به !

فروع معهد ركفلر في اوربا

لمعهد ركفلر الطبي فروع في مختلف انحاء العالم وغرض رجالها البحث العلمي في الأمراض المتوطنة وغيرها في شتى البلدان

وقد اذاع الدكتور ريموند فزدك رئيس المعهد ان جميع الفروع الاوربية اقفلت ابوابها بسبب الحرب ولكن المعهد انشأ فرعاً مؤقتاً في لشبونة حاضرة البرتغال

ومن اعمال فروع المعهد السيطرة اوالسعي الى السيطرة على الملاريا على طريق بورما في الصين الوطنية والسعي الى ابادة بعوض الحمى الصفراء في البرازيل وصنع نصف مليون جرعة من لقاح الانفلونزا لترسل الى بريطانيا

كيف تجدد الشمس نشاطها

تستهلك الكربون ثم تبنيه بتفاعل العناصر

مضى على الشمس الوف الملايين من السنين وهي تشع طاقتها ضوءاً وحرارة وأشعة أخرى . وما تشعه كل ثانية من الطاقة يعدل أربعة ملايين طن من كتلتها . فكيف استطاعت أن تمضي الوف الملايين من السنين وهي تشع هذا الاشعاع بغير أن تضمحل ؟

من الحلول العلمية التي عرضت إجابة عن هذا السؤال حل عرضهُ الدكتور بيث Bethe أحد أساتذة جامعة كورنيل الأميركية ولبابه ان الشمس تستنفد الكربون في الاشعاع ثم تبنيه بتفاعل العناصر في باطنها وتستعمله ثانية وثالثة وهلم جراً في دورة تامة قدرها بيث أولاً باثنين وخمسين مليوناً وخمس مائة واثنين وخمسين الفاً من السنين (٥٢٫٥٥٠٫٠٠٠) ثم صُحِّح هذا الرقم بعد التجارب في معامل البحث الطبيعي . وقوام هذه الدورة الكربونية في الشمس ست مراحل تمكَّن بيث وغيره من علماء الطبيعة في اميركا وانكلترا من تحقيقها مرحلة مرحلة في المعمل الطبيعي . اي إن بيث وضع نظريته اولاً مستنداً الى الرياضة العالية والطبيعة الكهربية ثم حققت المراحل من حيث امكانها واستحالتها في معامل البحث فثبت بعد ثلاث سنوات أنها ممكنة . واليك المراحل الست :—

اولاً — الايدروجين المهتاج بفعل الحرارة العالية في باطن الشمس يهاجم الكربون. ولا يخفى ان نواة ذرة الايدروجين بروتون واحد فيخترق نواة ذرة الكربون المركبة من ستة بروتونات وستة نوترونات (مجموعها ١٢) فيتحول الكربون باضافة البروتون الجديد الى نواة نتروجين (وزنه الذري ١٣)

ثانياً — يطلق النتروجين كهرباً موجباً فيعود كربوناً ولكنهُ كربون وزنه الذري ١٣ (أي أنهُ أحد نظائر الكربون)

ثالثاً — يهاجم الايدروجين هذا الكربون (١٣) فيدخل بروتون الايدروجين نواة الكربون فيحوله نتروجيناً وزنهُ الذري ١٤ وهو النتروجين العادي

رابعاً — يهاجم الايدروجين هذا النتروجين فيضيف الى نواته بروتوناً فيصبح أكسجيناً ذا وزن ذري (١٥) وهو أحد نظائر الأكسجين العادي

خامساً — هذا الأكسجين غير مستقر فيطلق كهرباً موجباً فيتحول نتروجيناً وزنهُ الذرّي ١٥ وهو نظير آخر للنتروجين العادي

سادساً — يهجم الايدروجين على هذا النتروجين فيحوّله اكسجيناً عاديًا . ولكن هذا الأكسجين لا يبقى في باطن الشمس على حالهِ فينشطر شطرين أحدها نواة هليوم والآخر نواة كربون وبتولد الكربون تبدأ الدورة ثانية

في أثناء هذا التحوُّل الذري تفقد ذرات الايدروجين الأولى التي هاجمت الكربون شيئاً قليلاً جدًّا من كتلتها فيتحول الى طاقة. ولكن هذا التحول غير مستطاع إلاّ في أحوال من الحرارة العالية كأحوال باطن الشمس. فالطاقة التي تشعها الشمس تتولد من مادة صغيرة الكتلة. وعندما نقول ان طاقتها التي تشعها في الثانية تعدل ٤ ملايين طن نعني انهُ اذا تحولت أربعة ملايين طن بوسائلنا القاصرة ولدت هذه الطاقة. ولكن الطبيعة تستطيع توليدها من كتلة أقلّ كثيراً

ويرى الاستاذ بيث ان ما في الشمس من الايدروجين يكفي لاشعاعها مدى ١٢ الف مليون سنة أخرى

السلفانيلاميد والسل

يطالع القراء في مقال المقتطف الأول هذا الشهر أنباء عجيبة عن فائدة العقاقير المشتقة من عقار السلفانيلاميد وفي طليعتها ان عقار السلفاجوانيدين فعّال في الفتك بباشلس الدبسنطاريا الباشلسية وباشلس التيفود. ونضيف هنا الى ما اوردناه هناك ان طبيبين اميركيين استعملا السلفانيلاميد مسحوقاً استعمالاً ناجحاً في حالات التهاب البريطون ولاسيما الحالات التي تعقب عملية استئصال الزائدة

***

وأذاع ثلاثة اطباء اميركيين من معهد مايو الطبي المشهور انهم امتحنوا عقاراً مشتقاً من السلفانيلاميد دعوه پرومين Promin في مقاومة الدرن الرئوي (السل) وقال احدهم في رسالة تليت في جمعية الباثولوجيين والبكتيريولوجيين الأميركية ان النتائج التي اسفرت عنها مباحثهم في الارانب الهندية تبعث على الأمل وتشجع على مواصلة البحث

وقد جروا في مباحثهم هذه على الطريقة العلمية المألوفة فأخذوا فريقاً من هذه الأرانب وحقنوه بالبرومين وفريقاً آخر ارانبه كأرانب الفريق الأول عمراً وصحة وتركوه بغير حقن ثم حقن افراد الفريقين بما يحدث الدرن الرئوي فيها فلم تصب ارانب الفريق الأول (المحقون بالبرومين) وماتت جميع ارانب الفريق الثاني

ولما كان الدرن في الأرانب الهندية يختلف في سيره عنهُ في الناس فقد حذر الأطباء الباحثون شأن العلماء الحقيقيين من الاعتقاد بأن فائدة البرومين في كفاح الدرن البشري قد ثبتت. ولكن رجاءهم كبير في تحقيق ذلك

فيتامين B وحالة الاعصاب

اذا كان هناك وجوه شبه من الناحية الفسيولوجية الخاصة بالأعصاب بين الجرذان والناس ففيتامين B الموجود في الخميرة والكبد واللبن وجنين الحنطة يجب ان يقي اعصاب الناس من الأصوات المزعجة كأصوات القنابل وصفارات الانذار بالغارات الجوية وغيرها

وهذا الرأي مستخلص من بحث للعالم باتون Patton (جامعة بتسبرج الأميركية)

المواد القرنية غذاء

الشعر والأظافر والقرون والحوافر والفرو والريش والصوف قوامها جميعاً مادة بروتينية تدعى كيراتين ، وهي في حالتها الطبيعية لا تهضم . ولكن الدكتور جوزيف روث Routh احد علماء جامعة أيُوى الأميركية اذاع من عهد قريب انهُ كشف طريقة لتحويل جميع هذه المواد القرنية الى مواد مغذية

فقد اخذ الصوف وقطعه قطعاً صغيرة ووضعها في اسطوانة فيها كرات من الصلب فصارت اذا أديرت الاسطوانة تدحرجت الكرات بعضها على بعض وبينها قطع الصوف فسحقتها بعد ثمانية أيام سحقاً فغدت انعم من الدقيق

هذا الدقيق المصنوع من الصوف طعام مغذٍ لأنه يحتوي على ما لا يقل من سبعة من الأحماض الامينية وهي قوام الغذاء الذي نستخرجه من البروتينات . وقد صنع هذا الباحث طعاماً خمسه مسحوق الصوف وأطعمهُ حيوانات التجارب فنمت نمواً عجيباً وعنده انهُ اذا اعد هذا المسحوق الإعداد الواجب غدا عنصراً ذا شأن في تغذية الحيوان وربما الانسان

الأنوار (الهرمونات) وحب الشباب

في اثناء دور المراهقة قد تفرز غدد الجلد في الوجه والعنق والصدر والكتفين فيضاً من مفرزاتها الدهنية فتسد بعض قنوات هذه الغدد ويتكوَّن عند مخرجها حبٌّ أسود وقد يحدث التهاب في الجلد وبثور وهي ما يعرف بحب الصبا او حب الشباب او « الأكنة » Acne .

ويقول أحد الأطباء الأميركيين ان أربعة ملايين من المراهقين والمراهقات يصابون بهذه الحالة او معرضون للاصابة بها في الولايات المتحدة ولكنها أشيع في المراهقين منها في المراهقات

ولما كانت هذه الحالة ترافق المراهقة فقد ذهب الأطباء الى ان التحوُّل في الغدد الصم وأنوارها في هذا الدور من الحياة سبب ذلك ولكن التأييد التجريبي لهذا الرأي لم يُذَع إلاّ من عهد قريب وجاء نتيجة للمصادفة. وقد أذاعه الدكتور جيمس هاملتون أحد أساتذة كلية الطب بجامعة يايل الأميركية . فقد بدأ بحثاً ما وليس في نيتهِ مطلقاً ان يبحث في « حب الشباب » وسببه . وكان يعالج في أربعين مريضاً، نقصَ الأنوار (هرمونات) الجنسية . فحقنهم بما تقتضيهِ الحالة من خلاصة الغدد مدى ثلاثة أسابيع او أكثر . ولكنهُ حصل على نتيجة مستغربة وغير منتظرة ذلك بأن حب الشباب ظهر في ثلاثة أرباعهم

ومع ان هذا الكشف لم يفضِ الى ابتكار علاج تام لحالة « حب الشباب » إلاّ انهُ أيد الصلة بين التحول الطارىء على مفرزات الغدد الصمّ في المراهقة بهذه الحالة



مكتبة المقتطف

الصين وفنون الاسلام

ألفه الدكتور زكي محمد حسن وطبعته مطبعة المستقبل في القاهرة في ١٤٨ صفحة من القطع الكبير

كانت النواة الأولى لهذا الكتاب القيم بحثاً ألقاه المؤلف في المؤتمر السنوي الحادي عشر للمجمع المصري للثقافة العلمية ، ولكن المؤلف حفظه الله للعلم أراد أن ينتفع بهذا البحث قارئون لا سامعون . وإن يصل وجه المنفعة به الى من لم تتح له الظروف الاستماع اليه حين ألقي في المؤتمر ، فأخرجه كتاباً تبقى مادته وتحفظ معارفه ، ويرجع اليه في تحقيق علم أو درس مسألة من مسائل الفن الاسلامي ، وبالطبع زاد على البحث الملقى ما تقتضيه مصلحة النشر وما تستلزمه ضرورة الظهور في كتاب مستقل بنفسه قائم بذاته ، وأطال في الكتابة بما لم يتسع له وقت المحاضرة وأضاف الى الكتاب لوحات فنية مطبوعة على اثنتين وثلاثين صفحة من الورق الجيد الصقيل

واستوى البحث بعد ذلك كتاباً قائماً ومتاعاً دائماً وضع فيه الدكتور الفاضل مقدمة مختصرة هي أحق أن تسمى تمهيداً للموضوع لا مقدمة للكتاب ، أشار فيها الى عراقة الفن الصيني وتأصله في التاريخ ووجود وحدة فنية له ترجع الى ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح وتتصل الى وقتنا الحاضر وذكر فيها بعد ذلك في كلمات عواجل رؤوس الموضوعات التي سيتناولها بحثه ويشتمل عليها درسه ذاكراً في اختصار فضل العرب في رعاية الصناع وأهل الفنون من أهل الممالك المفتوحة والبلاد المغلوبة مما مهد للاسلام قيام فن جميل مستقل امتاز بطابع معين

أما موضوعات الكتاب فهي تجمع على اختلافها بين القيمة العلمية والنواحي الأدبية التاريخية والحق أنها مزيج من العلم والأدب والتاريخ . فاذا أفاد منها المؤرخ علماً أفاد منها الأديب تاريخاً أدبيًّا

ومن الطبعي أن يكون أول موضوعات الكتاب هو العلاقة بين الصين والشرق الأدنى . وكيف كان الاتصال بين هذين الركنين السحيقين من العالم المعروف في ذلك الحين

ويتدرج المؤلف في تدرج هذه العلائق حتى يصل الى اتصال المسلمين بالصين في أوائل القرن السابع الميلادي . وكيف دخل الاسلام هذه البلاد الشاسعة المدى البعيدة الأطراف .

وكيف زادت العلاقة السياسية بين العرب والصين في نهاية حكم الامبراطور الصيني (هسوان تسونج) الذي عاش صدراً من القرن الثامن الميلادي

ولا يقف المؤلف عند هذا الحد بل يتابع الاسلام في انتشاره هناك ويلاحق الجوالي من المسلمين النازلين بتلك البلاد في أزمان متعاقبة . ويؤيد كلامه في ذلك كله بحقيقة من بطون التاريخ ،او تحقيق لمستشرق ، او رحلة لعربي جعل الصين وجهته ، والشرق الأقصى طيته . فيشير مثلاً الى الرحالة العربي سليمان الذي ساح في الهند والصين في منتصف القرن التاسع الميلادي وألف كتاباً في رحلته طبعه المستشرق Langlés ونشره المستشرق Reinaud مع ترجمة فرنسية

ويعرج المؤلف بعد ذلك في إيجاز لا يعوزه التحقيق على القرن العاشر الميلادي ، وكيف قلّ الاتصال فيه بين الصين والشرق الأدنى وذلك حين « عدم العدل وفسدت النيات » وانتشرت القرصنة في البحار على يد أقوام من السند يقال لهم الميدوم [١] (ولهم بوارج في البحر تقطع على مراكب المسلمين المجتازة الى أرض الهند والصين وجدة والقلزم وغيرها كالشواني في بحر الروم)

والحق انهُ في هذا القرن بالذات لم يكن الناس يجرءون على ركوب البحر الأحمر من غير «مقاتلة ونفاطين» [٢]. وكانت جزيرة سقطرى بوجه خاص مركزاً خطراً للمتلصصة والقرصان وكانت تأوي اليها سفن القرصان ليقطعوا الطريق على المسلمين [٣] . وكان بحر الهند لا يُركبُ عند ما يهيج ويظلم ويصعب الركوب فيه [٤] . ويستمر المؤلف في تتبع هذه الصلات الى عصر الدولة الصفوية التي بدأ بعدها الاضمحلال يتسرب الى الفنون الاسلامية مما جعلها تتجه وجهة جديدة شطر اوربا لمحاكاة فنونها ومضاهاة آثارها

ويلي فصلَ الصلات بين الشرق الأدنى والصين فصلٌ آخر عنوانهُ التحف الصينية والفنانون الصينيون في الشرق الأسلامي وفيه اشارات الى كلام جاء في الطبري وابن خرداذبة والقزويني والوزير رشيد الدين والغزولي وابن اياس والمقريزي والأبشيهي وغيرهم عن التحف والألطاف التي اشتهرت بها الصين ولقيت اقبالاً في الشرق الاسلامي . ويذكر المؤلف قبل ختام هذا الفصل الممتع شيئاً عن استيراد المسلمين أنواعاً من الورق الممتاز من بلاد الصين

والحق أن هذا صحيح فقد ذكره عريب بن سعد القرطبي في صلة تاريخ الطبري كما يقول الدكتور زكي . وذكره ايضاً الثعالبي كما قرأتُ فهو يقول أن كواغيد سمرقند عطّلت قراطيسَ مصر والجلودَ التي كان الأوائل يكتبون عليها لأنها أجود وأصقل وأكثر موافقة للكتابة ولا تكون

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ١ (٢) المقدسي ص ١٢ (٣) المقدسي ص ١٤ ومروج الذهب ج ٣ ص ٣٧ (٤) ابن رستة ص ٨٦ — ٨٧

الأ بسمرقند والصين[1] . ويخيل الي أن الوارد من الورق من بلاد الصين كان قليلاً وخاصة في القرن الرابع الهجري عند ما وجدت مصانع له في دمشق وطبرية[2] وطرابلس الشام[3] ولا شك أن إعجاب المسلمين بتحف الصين كان عظيماً . والدكتور زكي في فصل تال لما تقدم يورد من النصوص التاريخية والأدبية مايؤيد هذا الكلام ويرجع في تحقيق هذا الفصل الى طائفة من الكتب منها لطائف المعارف للثعالبي والبلدان لابن الفقيه ومروج الذهب للمسعودي ونهاية الأرب للنويري وخريدة العجائب لابن الوردي وابن بطوطة وغيرها من المراجع الاوربية

ويلي ذلك الفصل فصل عن مظاهر الأثر الصيني في الفنون الأسلامية . وهو بيت القصيد في هذا الكتاب وفيه تتركز الفكرة التي من أجلها تليت المحاضرة ونشر الكتاب

ولكن المؤلف الفاضل أوجز الكلام في هذا الفصل إيجازاً لم يكن فيه على حق ، وقد كان باب الكلام أمامه مفتوحاً ، ومجال الحديث متسعاً ، وعنده من عُدة العالم وأداة الباحث وفيض المطلع ما يطيل له اسباب الكلام ، (فالورق) مثلاً وهو أول مظاهر الآثار الصينية لم يظفر من المؤلف بغير سطور قلائل . والتعبير عن الحركة والحياة في الرسم ، والرسوم التخطيطية بالمواد وهدوء الألوان واحتمال الفراغ وتلوين الجبال والمياه وأشكال الاواني والأساليب الصينية في الملابس وآلات القتال والسقوف المحدودبة وغير ذلك من أشباه هذه الموضوعات الطريفة كانت تقتضي من المؤلف الفاضل دراسة أوسع ، واحاطة أجمع وبسطاً وتفصيلا ونقداً وتحليلاً وتتبعاً وتقصياً . ولم يدَّع الدكتور زكي حسن في هذا الكتاب النفيس الدعاوى ، ولم يحاول أن ينكر فضل الذين أخذ عنهم واهتدى برأيهم حتى استقام له البحث ، فهو يشير في كل حقيقة الى مصدرها وردها الى أصلها ، ولا يكتفي بذلك بل يضع في ذيل البحث ثبتاً بالمراجع العربية والأفرنجية مما لم يذكره في هوامش الكتاب . والحق أنهُ قرأ لإتمام هذا البحث فيضاً غزيراً من المادة العلمية المبعثرة في بطون الاسفار . وعَرَض هذه المواد عرضاً علمياً متسلسلاً متناسباً في طريقته التي عرفت بها مؤلفاته وكتبه القيمة

أما اللوحات الفنية فقد طبعت على ورق صقيل طبعاً يقرّب مادة الكتاب العلمية الى الأذهان تقريباً ويصورها تصوراً . وشرحت كل لوحة منها شرحاً ردها الى مكانتها الفنية ومكانها الوضعي في الوجود وتاريخها وبعض خصائصها ومميزاتها الفنية

والكتاب في بحثه وصوره أثر جليل من آثار الصديق الكريم الدكتور زكي محمد حسن التي يتحف بها المكتبة العربية من حين الى حين

محمد عبد الغني حسن

---

(١) عن كتاب الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متز ج ٢ ص ٣٠٨ . وذلك نقلا عن لطائف المعارف (٢) كما يقول المقدسي (٣) كما يذكر ناصر خسرو في رحلته

علم الامراض الباطنة

الجزء الرابع - أمراض جهاز الهضم — تأليف الدكتور حسني سبح — رئيس المعهد الطبي العربي بدمشق — طبع بمطبعة الجامعة السورية — ١٠٤٤ صفحة قطع المقتطف بالصور والرسوم والفهارس

هذا الكتاب العلمي المدرسي النفيس هو الحلقة الرابعة في سلسلة وقف الدكتور حسني سبح نفسه على انشائها . موضوع السلسلة العام علم الأمراض الباطنة . وقد جعلها خمس حلقات أصدر منها حتى الآن أربعاً ، الأولى في أمراض الجملة العصبية . والثانية في الأمراض الانتانية والطفيلية . والثالثة في امراض جهاز التنفس . والرابعة في أمراض جهاز الهضم . أما الخامسة ففي أمراض جهاز الدوران وهي قيد التحضير . وأصدر فيما بين الحلقتين الثالثة والرابعة كتاب فلسفة الطب . هذه المجلدات الضخمة هي في الواقع دائرة معارف طبية لاعهد للعربية بمثلها توسعاً وتحقيقاً وانتظاماً في العصر الحديث . وقد كتبت جميعها باللغة العربية المحكمة فجاءت مع غيرها من المؤلفات الطبية والعلمية والمعجمات دليلاً قائماً وحجة دامغة على اتساع اللغة العربية للعلوم الحديثة ، اذا صحت النية وعُقِد العزم على تكبد المشاق العظيمة التي يقتضيها التأليف العلمي

ولكننا ما زلنا نرنو الى يوم يستطيع فيه المؤلفون العرب في علوم الطب ، توحيد الألفاظ والمصطلحات . وحبذا الحال لو عني مجمع فؤاد الاول للغة العربية عناية عملية بما يؤلفه علماء دمشق في علوم الطب — وغيرها — وبما تحتوي عليه هذه المؤلفات من مصطلحات طبية ، بغية التوفيق والتنسيق بينها وبين ما يوضع في القاهرة . فان هذه العناية توفر وقتاً ثميناً علاوة أنها تكون خطوة موفقة نحو الوحدة في الالفاظ والمصطلحات الطبية التي لا بد من تحقيقها في سبيل المصلحة العربية العامة . وبعد فهذا الكتاب قسمان او بحثان عامان اولهما أمراض أنبوب الهضم والثاني امراض توابع أنبوب الهضم . الاول يحتوي على أبواب وفصول في امراض الفم والبلعوم والمريء والمعدة والامعاء والثاني في امراض البانكره آس (رسم المؤلف) — ألا يجوز استعمال «الحلوة» مقابلاً للبنكرياس او البنقرياس او البانكره آس — والبريطون والكبد والطرق الصفراوية

ويقول الدكتور سبح في مقدمته «وسيجد القارىء في هذا الجزء بعض الابحاث الطريفة التي لم تنشر بعد في كتاب مدرسي ما ، وقد وجدت من الضروري الاهتمام بها بعد ما بدا من أغضاء معظم الاطباء عنها ، فضلاً عن اسس التدابير الغذائية والمداواة وهي المعول عليها في معالجة معظم امراض احشاء هذا الجهاز » وهو عند قوله وفي آخر الكتاب معجمان اثبت فيهما الجديد من الالفاظ والمصطلحات الطبية مما لم يسبق له استعماله في المجلدات السابقة . احدهما من العربية الى الفرنسية والثاني من الفرنسية الى العربية . وحبذا الحال لو صحت عزيمة المؤلف — بعد صدار الحلقة الخامسة — على جمع جميع هذه المعاجم التي ألحقها بمؤلفاته ، في معجم واحد ووضع المقابل الانكليزي كذلك فيها اتماماً للفائدة . حقاً أن القلم لعاجز ايفاء الدكتور سبح حقه من الثناء على همته وما يذله من علمه وفضله في هذه المؤلفات النفيسة

محمد فريد

رمز الاخلاص والتضحية

تاريخ مصر القومي من سنة ١٩٠٨ الى سنة ١٩١٩ بقلم الاستاذ عبد الرحمن الرافعي بك
٥٢٦ صفحة من القطع الكبير — طبع بمطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

اذا ذُكرت التضحية الخالصة لوجه الله والوطن ، والفدائية المترفعة عن أي جزاء أو ثمن ، برز اسم محمد فريد نوراً يلمع ، وحقاً يسطع في تاريخ الأمة المصرية الحديث ، ونهضتها القومية التي ازدهرت ، ومدًّا لشعلتها القدسية التي اتقدت وما زالت تضيء الطريق وتهدي السارين

هو البطل الحقُّ ، والشهيد الحقُّ ، والصريع الذي خرَّ في الميدان بعد أن حمل « لواء » الوطنية بعد الزعيم الأول ، واضطلع بالعبء الجسيم الذي خلفهُ له بطلٌ جاهد فهدَّهُ الجهاد ، وجالد فأضناه الجلاد ، ونسي نفسه وشبابه في حب مصر فلقي الموت وهي في أشد الحاجة اليه — اضطلع بالعبء الجسيم بعد هذا البطل العظيم فوجدت مصر فيه الروح الذي حسبتهُ قد همد ، والأمل الذي ظنت انهُ قد خمد . فأسلمته مقاد نهضتها فلم ينم عن أمرها ، ولم يغفل عن واجبه نحوها وضحى بكل غالٍ في سبيل الغاية البعيدة للوطن العزيز ، واحتمل مرارة السجن مرة ، ومرارة النفي مرات بعيداً عن أهله وأولاده وعشيرته ، يجد في مرارة هذا التشريد حلاوة الجهاد في سبيل العشيرة ، ويجد في ظلمة الوحدة لهب الوطنية ونورها مشتعلاً من وجدانه فظلَّ يحترق على مذبح الغاية السامية الى أن أسلم الروح ولم تكتحل عيناه بمرأى من مرائي وطنه ولا بطلعة من ولد أو عزيز اللهمَّ الاَّ نفراً من خلصائه الذين أحاطوا بالهالة في الغربة يقبسون من نورها ويتلقون تعاليمها

لقد نزل هذا البطل الشهيد في سبيل مبدإه وعقيدته عن منصبه وجاهه ، عن كل ما يحرص الانسان عليه ، ولم يأسف على شيء ، ولم تلهه آلامه عن وطنه ، لقد ضحَّى بما لم يضحّ به زعيم ، فماذا لقيَ بعد ذلك ؟

اذا كان قد لقي في حياته من المرارات أشدها ، فقد لقي المقدَّرون لهذه التضحية وهذه البطولة ايضاً اشد المرارات كلما انقضت الأعوام ولم يجدوا من أبناء الوطن تذكُّراً للواجب نحو البطل المنسي والشهيد الغريب في موته وفي قبره . ان في حياة فريد ، وفي سيرة فريد لدروساً عالية للبطولة ، وما أحوج مصر بل ما أحوج كل وطنٍ الى مثل هذه الحياة ومثل هذه السيرة !

ان حياة الأمم لا تقوم الاَّ على حياة ابطالها ، وسيرتها في التاريخ لا تنهض الاَّ على سِيَر قادتها وزعمائها ، فما أحوجنا الى بعث الحياة في الوطن الغالي دائماً ببعث حياة ابطاله ونشرها على النشء ليتلقوا عنها الدرس الرائع ، ويتشربوا منها الوطنية الخالصة من كل غاية مادية

وليس أبطالنا — شهداء الوطن — ملكاً لهيئة أو وقفاً على حزب ، ولكنهم ابناء مصر وغايتهم غاية كل فرد وكل حزب

ومن أعجب العجب ان تكون النهضة القومية قريبة العهد من جيلنا وقلَّ في هذا الجيل من يذكرها حقَّ الذكر أو يعرفها حق المعرفة ، وتلك وصمة في جبين الوطنية المصرية

ولقد اضطلع بعبء تاريخ النهضة القومية مؤرخ قدير ومطلع بصير ، رجل له من اتزان الفكر والبعد عن الهوى ما يسر له سبيله ومهد له طريقه فوضع للحركة القومية سجلا رائعاً ، كان آخر ما أخرج منه تلك الترجمة القيمة للرمز الخالد للوطنية الحقة والتضحية الخالصة . وأعني بهذا المؤرخ : الاستاذ الجليل عبد الرحمن الرافعي بك ، وبهذا الرمز الخالد : البطل المنسي محمد فريد

ومن أجدر بتناول هذه الشخصية الفذة في تاريخ الوطنية المصرية ومعرفة جوانب عظمتها وإظهار مراتب تضحياتها من الاستاذ الرافعي فهو من المخلصين للغاية السامية التي كان الفقيد يجاهد من أجلها ويتفانى في طريقها ؟ وهو من الذين آثروا مرارة الجهاد على حلاوة الجاه والمنصب ، ورزقوا الى جانب هذا كرامة الوطنية التي تأبى ان تجد الشعلة التي أنارت وليس من حولها من يذكرها ، فكان عمله في تاريخ البطل الشهيد مذكوراً عند الله وعند الوطن ، وعند ما يتنبه أهل هذا الوادي الى الواجب الاول عليهم نحو بطلي هذا الوادي الأولين : مصطفى وفريد .

والكتاب يشتمل على سبعة عشر فصلا يكشف كل فصل منها عن ناحية من نواحي هذه العظمة في نفس الفقيد من تاريخ نشأته ومراحل جهاده بين ربوع الوادي وفي مطارح الغربة وما لقي في كل ذلك من عنت واضطهاد وما بذل من كفاح وتضحية الى ان رجعت هذه النفس المطمئنة الى ربها راضية مرضية

وان تاريخ محمد فريد — كما ذكر الاستاذ الرافعي بك في مقدمته لهذه الترجمة — هو ولا غرو تاريخ لسني الجهاد من فجر الحركة الوطنية الحديثة ، فلقد شارك مصطفى في بعثها منذ سنة ١٨٩٣ وتولى قيادتها بعد وفاته في فبراير ١٩٠٨ الى أن لحق بالرفيق الاعلى في نوفمبر سنة ١٩١٩ فكانت هذه السنوات الاخيرة صفحات مجيدة من تاريخنا القومي ولولا ما خطته فيها من تضحيات وآلام ، وما بعثه في نفوس الجيل من إخلاص وشجاعة ، وثبات وإيمان ، لما كان لمصر تاريخ وطني في ذلك العهد ، ولانقلب هذا التاريخ سلسلة من خضوع للاحتلال ، وضعف في الأخلاق . فهذه الحقبة من الزمن التي غذاها الفقيد بوطنيته وإخلاصه ، وبذل فيها ما بذل من ماله وقلمه ولسانه ، ورواها بروحه ومهجة فؤاده ، هي ولا ريب معين لا ينضب من الفضائل القومية ، وأن هذا الكتاب ليتصل من هذه الناحية بالماضي والحاضر . أما صلته بالماضي فلأنه يحتوي على تاريخ بطل من أبطالنا العظماء ، كما يشمل تاريخ مصر القومي من سنة ١٩٠٨ الى سنة ١٩١٩ . وأما صلته بالحاضر والمستقبل فلأن التاريخ يفسر بعضه بعضاً ، ولأننا في حاجة الى ان نسمو بمستوى الوطنية في قلوبنا ، ونحاسب أنفسنا على ما قصرنا في

حق الوطن ، وتمي عقيدة الايمان بالواجب بين طبقات الشعب ، يستوي في ذلك الكبير والصغير والغنيُّ والفقير ، والرجال والنساء ، والسياسي والمؤلف ، والزارع والصانع ، والتاجر والمالك والطبيب والمحامي والمهندس . هؤلاء جميعاً لو أدى كلٌّ منهم واجبه نحو الوطن لسعد بهم ، ولكانت حالنا خيراً مما نحن فيه . وان ذكرى الأبطال لخليقة بأن تطهِّر نفوسنا ، وتبعث فيها روح الايمان بالواجب ، والاخلاص في أدائه . وانها لكتابٌ منشور تقرأ فيه الاجيال المتعاقبة آيات الوطنية الصادقة ، وقوة العقيدة ، وتضحية المنافع الشخصية في سبيل سعادة الوطن ومجده ، وتلك لعمري عُدَّة الأمم وذخيرتها الدائمة في حياتها العمومية »

ولقد أدى الأستاذ الرافعي بك واجبه نحو الوطن — وما أعظم هذا الواجب ! — حين خلد ذكرى هذا الفقيد العظيم وحين سجل للزمن وللاجيال المتعاقبة دروس الوطنية الصادقة لتقوم هذه الأجيال ان لم يقم ابناء هذا الجيل بأداء ما في أعناقهم من واجب نحو هذا الذي لم يغفل يوماً عن ذكر وطنه يوم نسيه الذاكرون وغفل عن حقه ابناء الوطن الا من ظلت ضمائرهم متيقظة ونفوسهم متوثبة نحو أداء الواجب الأسمى . ولقد ضمَّ هذا الكتاب الى قيمته التاريخية الجليلة قيمة أدبية بما اشتمل عليه من بعض المراثي التي قيلت في هذا الفقيد العظيم

فلله والوطن ما قدّم مؤرخ مصر الجليل ووطنيّها الصادق . ولهُ حسن الجزاء عن صنيعه يوم يعرف أبناء الوطن حسن الجزاء ، وليس هذا ببعيد

حسن كامل الصيرفي

الوراثة وتحسين النسل

تأليف حسين الايباري — صفحاته ٢٠٣ قطع وسط — مطبعة النصر بالقاهرة .

قدم هذا الكتاب المفيد الى القراء حضرة الدكتور عبد المنعم محمد عاشور المدرس بكلية الزراعة بجامعة فؤاد الأول فقال : —

في خلال الخمسين عاماً الماضية عرف العالم كثيراً عن علم الوراثة ، ولكن الانسان وجه استفادتهُ ، كلها أو أغلبها ، من نظريات هذا العلم إلى تحسين نسل الحيوان ورفع انتاج محاصيل النباتات ونسي جنسه ، مع أن أهمية هذا العلم الأولى هي فيما يختص بتطبيق نظرياته على الانسان ، واستخدامها كوسيلة لتحسين نسله ، فكم سمعنا عن أسر تفشت فيها العيوب الوراثية التي يعجز العلم الحديث عن علاجها ، فضلاً عما تكبد الدولة من مال تصرفه على الملاجىء والمصحات والسجون وغيرها ، وعلى النقيض كم سمعنا عن أسر عرف أفرادها بالنبوغ النادر والعقلية الفذة ولم تتمكن الدولة من الاستفادة بتلك المؤهلات بصفة عامة ، كذلك كم سمعنا عن حالات كان الأبناء فيها ضحية جهل الآباء وعدم تقديرهم لمسؤولية انتاج النسل التقدير الصحيح

هذه المشكلة الاجتماعية لا يمكن حلها إلاّ بمقدار تفهم المجتمع لمدى تطبيق القوانين الوراثية على الانسان ، تلك الناحية العملية التي لم يطرقها أحد — وأغلب ظني أن هذا صحيح — ممن كتبوا عن الوراثة في مصر

واليوم يسرّني أن اقوم بتقديم اول كتاب في هذا الموضوع وقد أودعهُ زميلي الاستاذ حسين الأياري من المعلومات والبيانات ما ينير الطريق امام من يريد الوقوف على فائدة علم الوراثة وتطبيقه على الانسان ، ولقد جاء هذا المؤلف في الوقت الذي تنبهت فيهِ مصر الى ضرورة الاهتمام بالناحية الاجتماعية ،فبدأت الفكرة حينما فكر رفعة علي ماهر باشا بانشاء وزارة خاصة للشؤون الاجتماعية . ولا يفوتنا ان نذكر انه لا يمكن لأية حركة من هذا النوع أن تقوم على أكتاف رجال الحكومة وحدهم ، إذ لا بد أن يتعاون الشعب معهم ، بل هو مطالب بالقسط الأكبر من هذا المجهود ، ولقد جاء هذا الكتاب — في اعتقادي — خير ما يجد فيهِ رجل العلم والقارىء العادي حاجتهما من مبادىء الوراثة وتحسين النسل ، فهو رسالة علمية ، كما أنهُ رسالة شعبية ، جديرة بأن يقرأها كل مهتم بالشؤون الاجتماعية

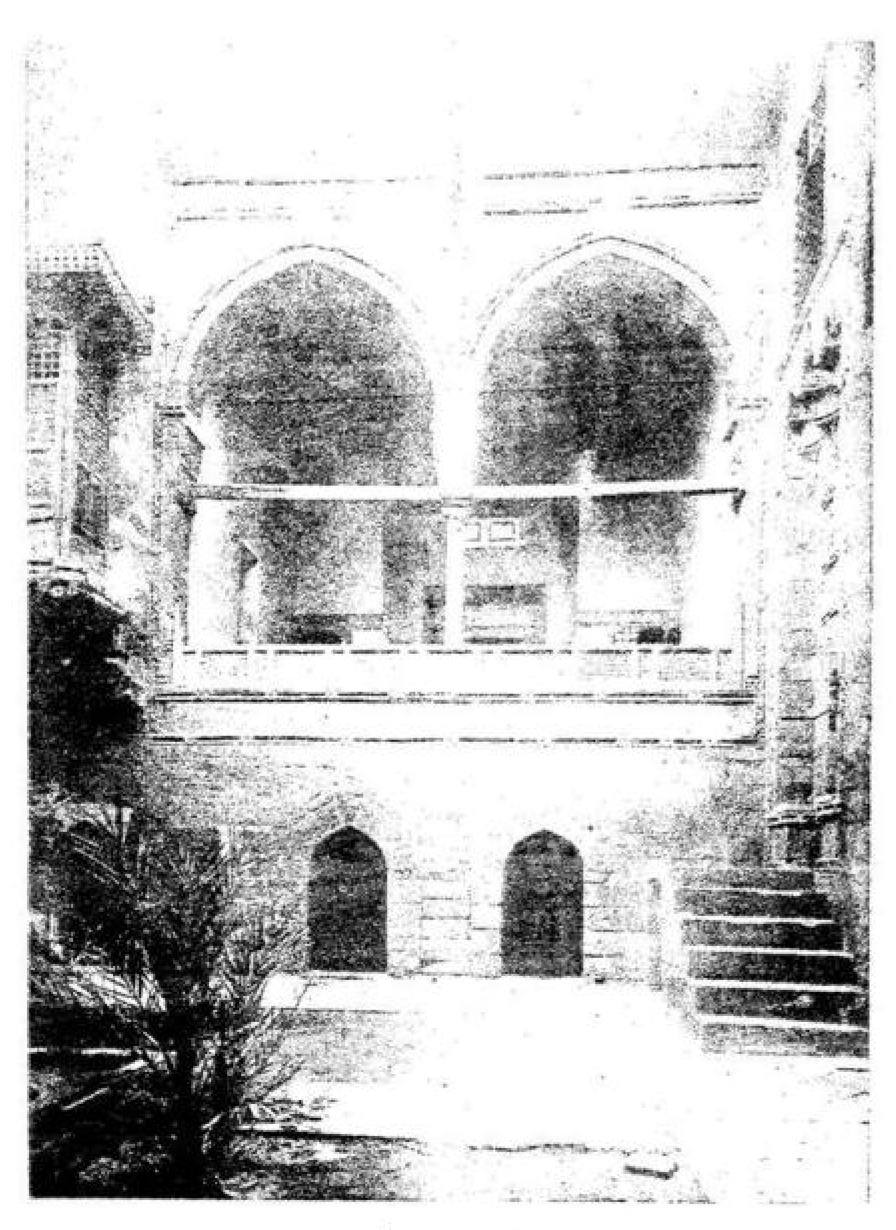
بحث علمي لفتاة شرقية

لم تعود حتى الآن نبوغ الفتيات الشرقيات في العلوم الطبيعية العالية ، مع أننا ألفنا تفوقهنَّ ونبوغهنَّ في الأدب والتاريخ والتربية والتأليف فيها . ولكن اهتمام فريق منهنَّ بطلب هذه العلوم في اوربا وأميركا وانتظام الفتيات المصريات في كلية العلوم وبوادر نجاحهنَّ في طلبها يمهدان الطريق لظهور الفتاة الشرقية في ميدان من البحث ألفناه حتى الآن مقتصراً على الرجال

ومن أحدث الأدلة التي وقفنا عليها ، المؤيدة لما تقدم ، بحث علمي أصيل في موضوع عويص في الكيمياء الحيوية . وقد نشر هذا البحث في مجلة جمعية طب العيون الأميركية في عددها الصادر في فبراير سنة ١٩٤١

موضوع البحث (١) امتصاص جزيئات مادة بروتينية خاصة للطاقة التي وراء البنفسجي وهو بحث دقيق يشمل القياس الطيفي المقابل لطائفة من المواد كالأحماض العطرة وعناصر البروتينات وما أشبه وقد قامت بهِ الآنسة سلوى نصار بالاشتراك مع زميلة لها تدعى جلاديس أزلو في أثناء طلب العلم في كلية سمث الأميركية للبنات . وقد انتقلت الآنسة سلوى نصار الى جامعة كاليفورنيا للتوسع في فرع العلم الذي خصتهُ بعنايتها فنتمنى لها اتمَّ نجاح وتوفيق

(١) The Absorption of Ultraviolet Energy by the Peptid Linkage



مقعد منزل جمال الدين الذهبي

[انظر مقال «الدار الاسلامية في مصر» صفحة ٢١٧]

فهرس الجزء الثالث

من المجلد التاسع والتسعين



كهربة القطر المصري

لحسين بك سري

المقتطف



العلم والصوفية

للدكتور مشرَّفة وكيل كلية العلوم

الكولونل لورنس
والثورة العربية

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

ذكاء الحيوان

للدكتور محمد ولي من اساتذة كلية العلوم

اجنحة المستقبل

لمستنبط الاوتوجيرو ده لاشيرفا

المقتطف

الجزء الرابع من المجلد التاسع والتسعين

١ نوفمبر سنة ١٩٤١ — ١٢ شوال سنة ١٣٦٠

حصاد الصيف

١ — ما يكنه المستقبل للانسان

يلوح لعلماء طبقات الأرض ، ان موارد الأرض الطبيعية تكفي لمعيشة الناس جميعاً معيشة رخيّة على سطح الأرض مدى الف سنةٍ مقبلة . فماذا يكنّه المستقبل للبشر ؟ إن أسلاف الانسان الذين يمتون اليهِ بصلة القربى عاشوا على الأرض من ثلاثمائة الى أربعمائة الف سنة وأما النوع الانساني المعروف باسم « هوموسابيينز » فليس وراءه الا خمسون الف سنة من الحياة . وفي تاريخ الاحياء على سطح الأرض دول من النبات والحيوان نهضت من أصل وضيع الى منزلة التفوق والسلطان واحتفظت بمنزلتها مدى قصيراً من الزمان ، بالقياس الى الزمن الجيولوجي ، ثم دالت وانقرضت

فالتطور لا يضمن التقدم ولكنهُ يضمن التحول والتغير . وقد يكون التحول تقدماً أو تأخراً وذلك يختلف باختلاف احوال الزمان والمكان وحيوية الأفراد . والأنواع الحيوانية التي تمكنت في غابر الزمان من الاحتفاظ بكيانها مدى مليونين او ثلاثة ملايين من السنين قليلة . وكان معظمها من الأنواع البسيطة التركيب . وكان كثير منها يقطن البحر حيث أحوال الحياة مستقرة مدى أزمان طويلة لا تنالها يد التقلب والتغير

أما ذلك القسم من الأحياء الذي ينتمي اليهِ الانسان فلسنا نجد بين انواعه نوعاً واحداً عمّر هذا التعمير . واذا استثنينا احوالاً خاصة من العزلة الجغرافية فليس ثمة نوع استمر

اكثر من مليونين او ثلاثة ملايين من السنين . ومهما تكن الدرجة العالية التي بلغتها هذه الاحياء من النجاح في ملاءمتها محيطها، تناسلاً وانتشاراً في مناكب الأرض فانها لم تلبث حتى انقرضت بعد حياة قصيرة بالقياس الى الزمن الجولوجي . ولعلَّ معدل حياة الأنواع في هذا القسم من الاحياء لا يزيد على خمسمائة الف سنة

فاذا كان نصيب الجنس البشري من الحياة هو المعدَّل فأمام البشر نحو خمسمائة الف سنة من الحياة قبل انقراضهم او تحولهم الى نوع ارقى بالملاءمة والتحوُّل . ولكن هل يجب ان ينطبق المعدل عليهم ؟ هل على البشر ان يخرجوا من ساحة الحياة من الباب الذي خرج منه الدينوسور ؟

حاولت قوة الحياة في معظم الحيوانات ضمان البقاء لهذه الحيوانات بالتخصص في الملاءمة بين تركيبها وطبائعها وعاداتها من ناحية وبين المحيط الخاص الذي تعيش فيه من ناحية أخرى . أما الانسان فمختص في الملاءمة بين تركيبه وطبائعه من ناحية وبين أنواع شتى من أحوال البيئة الطبيعية والاجتماعية . فليس ثمة حيوان فقري آخر يستطيع ان يعيش كما يعيش الانسان في المناطق المتجمدة الجنوبية (حول القطب الجنوبي) او في ادغال البرازيل ، تحت سطح الماء أو في أطباق الهواء العليا

ثم ان الانسان في مقدمة الأحياء من حيث قدرته على تحويل البيئة وفقاً له . فهو أبرع من القندس والنمل في ذلك . ينزح البطائح والآجام ويروي الصحاري ، ويحفر انفاقاً في الجبال ويبني جسوراً لعبور الانهر ويشق ترعاً ويكيف الهواء الذي يتنفسه في البيت والمكتب والمعمل . والواقع ان هذه الملاءمة لأحوال البيئة ، تتحقق بتغيير عناصر البيئة على الأكثر ، لا بتحويل في أعضاء الجسم او وظائفها الأساسية . فعندما نصعد مع الماجور ستيفنز الى طبقة الطخارير (Stratosphere) او نغوص مع بيب خمسمائة قامة تحت سطح البحر قرب جزائر برمودا ، او نعيش مع الاميرال برد على الجمد طوال الليل القطبي الجنوبي في « اميركا الصغيرة » ، فنحن نأخذ معنا نموذجاً من الأحوال المألوفة على سطح البحر . فهو بيئتنا المعتادة في حال ، كانت لولاهُ لا تطاق

ومع ان علمنا بأحوال البيئة في العصور الغابرة لا يزال علماً قاصراً ، فليس هناك ريب ، في ان الحيوانات التي ارتفعت ثم دالت دولتها ، انما انقرضت بفعل تغيير ما او أكثر في بيئتها ، وان وجوه التغيير هذه جاءت فجأة على الغالب فتعذر على هذه الحيوانات التحرز بالملاءمة اللازمة لها قبل فوات الأوان . أما الانسان فيجب ألاَّ يخشى شيئاً من هذه الناحية

ومن الواضح أن غزو الانسان محيطهُ ، نشأ عن براعتهِ في استعمال الاشياء . فاذا انقطع

سبل القطن والكتان والصوف والفحم والحديد والنفط والنحاس والرصاص والتصدير من الارض اليه ، غدا ضعيفاً حقيراً . فقدرته على استعمال بعض موارد بيئته ممكنة من التحرر من قيود تلك البيئة . فهل هذه الموارد كافية لتجهيزه بما يحتاج اليه، مدى غير محدود من الزمن للمحافظة على لون البيئة التي ألفها ؟

***

في الطبيعة مصدران أصيلان لما يحتاج اليه الانسان من مواد وطاقة ، في سبيل تقويم الحياة التي ينشدها . هناك في الناحية الواحدة المزرعة والشلال ، وفي الناحية الأخرى المنجم والمحجر . فالأشياء التي تنمو في الحقل والحرج ، والطاقة التي تولد من الماء المنحدر ، تدخل في باب الايراد السنوي من موازنته الارضية . أما وقد أتاح لنا البحث العلمي معين النتروجين الذي لا ينضب في الهواء ، لاستعماله في تركيب الاسمدة ، فموارد الحياة النباتية قابلة للتجديد . اننا نستعملها ولكننا لا نخشى نفادها . ويقابل هذا ان الموارد المعدنية ، التي مردّها الى المناجم والمحاجر ، لا تتجدّد فهي من الموازنة في باب رأس المال المدّخر

وقد تكونت وتجمعت مواد النفط والفحم والنحاس والحديد والرصاص والتنادبوم وغيرها مما هو من قبيلها، بفعل الطبيعة الارضية على مرّ العصور. وهي مواد لاغنى للحضارة الحديثة عنها، وبفعل التقدم العلمي والصناعي في استعمالها قد يستنفدها الانسان في مئات من السنين او في بضعة الوف على الاكثر . وهذه الحقيقة التي لا يستطاع جحدها ، هي السبب الأصيل في الضائقات الاقتصادية والحروب ونزاع الطبقات

ولدى العلماء تقدير على جانب غير يسير من الدقة ، لما تحتويه الارض من موارد لا تتجدّد موادُّها . فالمخزون في الارض من معظم هذه المواد التي لا تتجدّد ، يفوق اضعاف اضعاف ما يستهلك كل سنة . والمخزون من البقية المعرّضة للنفاد ، كالنفط ، عندنا بديل منه في مقادير تكفي الفين او ثلاثة آلاف من السنين (النفط المولّد بالكيمياء من الفحم) . فالبشر غير معرّضين حالاً لنفاد الخامات الاساسية ، اذا نظرنا الى الارض نظرة شاملة ، وعلى شريطة ألاّ تزيد المقادير التي نستنفدها منها زيادة كبيرة سريعة

ولكن هل من المحتمل ان يزداد الطلب على المواد غير قابلة التجديد ، زيادة كبيرة في المستقبل ، فتفضي الى نفادها سريعاً ؟

اذا تذكرنا ان «سكان هذا الكوكب السيار» زادوا في خلال القرون الثلاثة الاخيرة خمسة اضعاف ، فهناك ما يخشى من هذه الناحية . ولكن دراسة الاتجاهات العامة في زيادة السكان تسفر عن القول بأنه لا يحتمل ان يزيد عددهم في خلال بضعة القرون المقبلة على وجه يشبه

زيادتها في بضعة القرون الحالية . واذا لم يطرأ تغير على اتجاهات زيادة السكان في الولايات المتحدة فعددهم يبلغ اقصاهُ حوالي سنة ١٩٥٠ اذ يصبح ١٥٠ مليوناً . ولا ينتظر ان يزيد عددهم بعد ذلك الاّ اذا كثر المهاجرون الى الولايات المتحدة من بلدان اخرى

وهناك ما يبعث على القول بأن عدد الشعوب البيض يبلغ اقصاه في الثلث الاخير من القرن العشرين ، وبأن عدد سكان الارض قاطبة يبلغ اقصاه في اواخر القرن الحادي والعشرين . ومع ان عدد افراد الأسرة البشرية تضاعف منذ سنة ١٨٦٠ فلا يحتمل ان يبلغ عددهم ضعفي عددهم الآن وهو الفا مليون

فزيادة الطلب على المواد غير القابلة للتجديد ، لن يشتدَّ نتيجة لزيادة السكان في المستقبل القريب . وما تبيحه لنا الارض من مواردها الطبيعية اعظم كثيراً مما نظن

ولكن هناك سبب آخر يحملنا على القول بان ما يستنفد الآن من المواد غير القابلة للتجدُّد لا يصحُّ أن يتخذ مقياساً لمدى اعتمادنا على موارد الارض . فالطلب على السيارات والتلفونات وأجهزة الالتقاط اللاسلكي والطائرات وغيرها ليس موزَّعاً توزيعاً متساوياً على شعوب الارض وليس هناك الاَّ فئة يسيرة من البشر تستعمل هذه الاجهزة استعمالاً واسع النطاق . واما سائر الشعوب فلا تستعملها مطلقاً او لا تستعملها إلاَّ استعمالاً يسيراً جدّاً . ولا ريب في ان نطاق استعمالها إيَّاها سيزداد ازدياداً مطرداً . واذا لم يرتدَّ البشر الى حالة الهمجية فطلب البشر على المواد غير قابلة التجدُّد سيزداد ضعفين اوثلاثة اضعاف ، ولو لم يزد عددهم إلاّ بقدر

***

من نحو مائة سنة كان ثمانون في المائة من الاشياء التي يطلبها الناس ويستعملونها تصنع من مواد ينتجها الحقل . وكان معظم الطاقة التي ينفقها الناس في قضاء حاجاتهم مردُّها الى عضل الانسان والماء المنحدر . اما الآن فثلاثون في المائة لا غير من هذه الاشياء يرجع الى ما ينمو في الحقل . ومعظم الطاقة المستنفدة يرجع الى النفط والفحم . وقد كان اتجاه البشر بوجهٍ عام خلال هذا القرن المنصرم الى الإقلال من الاعتماد على الايراد السنوي ، والاكثار من الاعتماد على رأس المال المدّخر

ولكننا الآن على عتبة انقلاب في هذا الاتجاه . فعجلات تحريك السيارات تصنع من فول الصويا ، ومضارب « البيان » من جبن الكوخ ، وعشرات بل مئات من الاشياء والادوات تصنع من العجائن المستخرجة من قوالح الذرة والبرسيم والوف من الاشياء التي تحلُّ محلَّ ما يقابلها من الأدوات المعدنية ، تصنع الآن من نتاج الحقل . والطاقة تنقل كهربية

مدى مئات الاميال بعد توليدها من الماء المنحدر. اي ان الانسان بدأ يعدل عن استنفاد المواد غير قابلة التجدُّد، الى استعمال مواد تتجدَّد كلَّ سنة في الحقل سواءٌ أنباتية كانت أم حيوانية . إنهُ عدل عن تبذير ماله المدَّخر الى استعمال دخلهِ السنوي !

ولا بدَّ ان يكون لهذا التحوُّل تأثير عظيم في الخطط السياسية والاحوال الاجتماعية . انهُ يقلّل الضغط في سبيل السيطرة سيطرة سياسية على مناجم الفلزات وحقول الفحم وآبار النفط، فتزول بذلك طائفة كبيرة قوية من أسباب النزاع الدولي . ان العلم بدأ يحيي فينا الأمل بأن في وسع الانسان ان « يطبع سيوفهُ سككاً ورماحهُ مناجل »

هل تكفي الأرض الخصبة لانتاج كل ما يحتاج اليهِ الناس من طعام وكل ما تحتاج اليه الصناعة الحديثة لصنع هذه الأشياء الجديدة من البرسيم والذرة وفول الصويا وما أشبه ؟ والجواب بالايجاب ، لامواربة فيهِ ولا غموض . ان الباحث العالم برنال Bernal يقول ان زراعة الفي مليون فدان وفقاً للاساليب الزراعية العلمية الحديثة المتبعة في بريطانيا الآن، تكفي لانتاج طعام يكفي جميع سكان الأرض . وهذه المساحة هي نصف المساحة المزروعة الآن ولا تزيد عن ١٢ في المائة عن مساحة سطح اليابسة على الأرض . ولم يدخل برنال في حسابهِ هذا ما يحتمل في المستقبل من زيادة غلة الفدان باتقان أساليب التسميد والبذر والجني وغيرها . وبتحسين انواع النباتات المزروعة بالاعتماد على وسائل تحسين النسل بالانتخاب والمزاوجة فليس ثمة باعث يبعث الناس على الخوف . إن زيادة سكان الأرض لن تفضي الى قلة المتاح من موارد الطعام

ولكن هذه الأقوال التي تبعث على التفاؤل مبنية على احصاءات عالمية ولا تصدق الاَّ على الأرض اجمالاً ، أي انها لا تصدق اذا طبقت على اقتصاد دولة ما بعينها . فليس ثمة دولة من الدول الحديثة تشمل داخل حدودها طائفة من التركيبات الجولوجية تكفيها للفوز بجميع انواع الركاز المعدني اللازمة في الأعمال الصناعية الحديثة . وليس بينها دولة تشمل أنواعاً مختلفة من الأقليم تمكنها من ان تنتج في مزارعها وتتناول من حراجها كل ما تحتاج اليهِ من المحاصيل النباتية . فالدول الآن تعتمد بعضها على بعض ، ومن المحتمل ان تبقى كذلك مدة طويلة الى المستقبل . والمسألة الكبرى التي يواجهها القرن العشرون هي هذه : — كيف نستطيع ان ننظم الفي مليون او ثلاثة آلاف مليون نسمة تنظيماً يربطها بعضها ببعض ويمكنها من توزيع موارد الارض توزيعاً عادلاً ، وهي كما قدمنا موارد كافية ولكنها غير موزعة توزيعاً متساوياً . فواضح ان ما يكنهُ المستقبل للانسان مرتبط بمعرفة الجواب الصحيح عن هذا السؤال وتطبيقه

(عن "الاستاذ" مايذر استاذ الجولوجية بجامعة هارفرد)

٢ — زيت صلب كالفولاذ

أثبتت المباحث الطبيعية الحديثة ان لا قبل للعلم بفهم المادة فهماً صحيحاً إلاَّ اذا عرف رجاله تأثير الضغط العالي في ذراتها وجزيئاتها . ذلك بأن ٩٩٫٨ في المائة من مادة الأرض و ٩٩٫٩٩٧ في المائة من مادة الشمس خاضعة لضغط يزيد كثيراً على الف ضغط جوي على البوصة المربعة . ولذلك قال الأستاذ ولبولد ان تطبيق مباحث الضغط العالي قد تنطوي على مغزى جديد وهو ان للطبيعة الكونية والكيمياء الكونية نواميس وقواعد قلما نعلم منها شيئاً الآن . ففي عالمي الطبيعة الكونية والكيمياء الكونية ، تفقد النواميس الطبيعية والكيميائية التي استخرجها العلماء على سطح الارض كل معنى . كانوا يظنون أنهم يعرفون كيف تتصرف الغازات اذا عرضت للضغط العالي ولكن عند ما استطاعوا تعريضها للضغط العالي وجدوا النتائج مخلفة الظن . وكلما ارتفع الضغط اتسع الفرق بين النظر والحقيقة

إن الحياة على سطح الأرض تحدث بين حدود ضيقة من الحرارة والضغط . نعم ان بعض الأحياء ذات الخلية الواحدة تستطيع ان تتحمل درجات عالية من الضغط والحرارة . ولكن هذا نادرٌ . وقد كان العلماء يجهلون الى عهد قريب تأثير الضغط العالي في المادة والأحياء لأنهُ كان من المتعذر صنع أجهزة تمكن العلماء من توليد ضغط عالٍ يبلغ ٣٠ الف ضغط جوي . ونحن نعلم ان ضغط الهواء على سطح البحر يبلغ نحو ١٥ رطلاً على البوصة المربعة . فيرفع عموداً من الزئبق ثلاثين بوصة في أنبوب مفرغ . وهذا المقدار من الضغط يستعمل وحدة للقياس فيقال « ضغط جوّي » او « جوّ » و « الف ضغط جوّي » أو « ضغط الف جوّ »

فكيف يؤثر الضغط العالي في خواص المادة ؟

هناك درجات من الحرارة تذوب عند بلوغها ضروب المادة المختلفة او تنصهر . والضغط العالي يؤثر في هذه الدرجة فيغيرها

ففي أواخر القرن التاسع عشر قال جيمز طمسن شقيق لورد كلفن انهُ اذا كان هناك مادة تتمدَّد عند الانصهار او الذوبان فدرجة الانصهار او الذوبان يجب ان ترتفع بازدياد الضغط . اما اذا كانت من المواد القليلة التي تتقلص عند الذوبان او الانصهار — كالماء أو البزموت أو الغاليوم — فدرجة الذوبان او الانصهار يجب أن تنخفض بازدياد الضغط . وجرب لورد كلفن تجربة استوقفت الانظار لتأييد رأي شقيقه . انما اعترضتهُ حينئذٍ صعوبة كبيرة وهي ان قلة الضغط المتاح له لم تمكنهُ من تغيير درجة انصهار المواد التي جرَّب بها تجربته ، او درجة ذوبانها ، الاَّ تغييراً يسيراً لا يزيد عن جزء من الدرجة . اما الآن وقد غدا في وسع

العلماء ان يعرضوا المواد لضغط أعلى جداً من الضغط الذي كان في متناول كلفن ففي مكنتهم ان يغيروا درجة الانصهار او الذوبان مئات من الدرجات المئوية. حتى ليستطيعوا ان يجعلوا الزئبق ان يتجمد على درجة من الحرارة هي درجة الماء الغالي وذلك بتعريضه لضغط ٢٨ الف جو

اما حالة الماء عند تعريضه لضغط عال فتستوقف النظر خاصة . ما يكون تأثير الضغط فيه اذا مضينا في زيادته زيادة لا حدّ لها ؟ أتنخفض درجة الذوبان انخفاضاً لا حدّ له الى ان يصيبه تغيير آخر . وهذا الموضوع كان محل نظر وعناية من العلماء بعد اذاعة رأي طمسن وتجربة شقيقه لورد كلفن . الاّ ان ركن علماء الطبيعة لم يكن كافياً حينئذٍ ليمكنهم من النفوذ الى الحقيقة . وكان عالمٌ يدعى تامان Tammann أول من استعمل ضغطاً قدره ثلاثة آلاف جو في دراسة موضوعات من هذا القبيل فوجد شيئاً يثير الدهشة . ذلك انهُ وجد ان درجة ذوبان الجمد تتوالى الهبوط تحت الضغط المتزايد حتى يبلغ الضغط ٢٢٠٠ جو فتصير ٢٢ درجة مئوية تحت الصفر وهي درجة أبرد قليلاً من برد مزيج الجمد والملح المستعمل عند عمل المثلجات (دندورمة)

ولكن اذا عرّض الجمد لضغط اكبر من ٢٢٠٠ جوٍ وحرارة دون ٢٢ تحت الصفر تهاوت بلوراته ونقص حجمهُ ٢٠ في المائة وانتظمت جزيئاته في بلورات تختلف عن بلوراته المألوفة. وهذا التحول في نظام بلوراتهِ قد ثبت ثبوتاً لا ريب فيه بواسطة الاشعة السينية التي أصبحت وسيلة فعّالة لدراسة بناء المادة البلوري . ولا يخفى ان الجمد اقل كثافة من الماء ولذلك فهو يطفو عليهِ . ولكن اذا عرض الجمد لضغط عال كما قدمنا فان مايصيبهُ من نقص الحجم وتحول في تركيبه البلوري يجعله أكثف من الماء السائل فيغرق في الماء . فاذا صح قول جيمز طمسن فهذا الجمد الجديد — الذي يزداد حجمه عند الذوبان وهو على نقيض الجمد العادي الذي ينقص حجمه عند الذوبان — يجب ان ترتفع درجة ذوبانه اذا عرض لضغط عال بدلاً من ان تنقص درجة ذوبانه كالجمد العادي . والتجربة تؤيد هذا القول. الاّ ان الجمد الجديد يتحول جداً من ضرب آخر اذا فاق الضغط الواقع عليه ٣٥٠٠ جوّ . وقد وجد العلماء أنهم يستطيعون أن يصنعوا سبعة أصناف من الجمد عن الاة زيادة الضغط على كل جديد منها وآخرها ترتفع درجة ذوبانه الى ١٩٠ درجة مئوية عندما يكون معرضاً لضغط أربعين الف جو . وهي حرارة كافية على ما نعلم لصهر اللحام

فاذا صح هذا على الماء فيجب أن يصح كذلك على البزموت والغاليوم وهما عنصران ينقص حجمهما عند الانصهار كالجمد العادي عند الذوبان. فهل يتحولان الى صنفين جديدين من البزموت والغاليوم بزيادة الضغط عليهما حتى يصبحا موادّ ترتفع درجة انصهارها بدلاً من أن تنخفض أي هل يطرأ عليهما التحوّل الذي يطرأ على الماء ؟ والجواب بالايجاب ولكن هذا التحوّل

لا يتمّ الاّ بعد تعريض البزموت لضغط قدره ٢٨ الف جو والغاليوم لضغط قدره ١٣ الف جوّ

فيلوح من هذه التجارب أن ما نراه من تمدد الماء عند تجمده ليس الاّ ظاهرة تصحّ ما زال الضغط عاديًا فقط . والغالب عند الاستاذ بردجمن أن جميع المواد تتقلص عند تجمدها اذا كان الضغط على درجة وافية من الارتفاع

قلنا ان رفع درجة الضغط والمضي في رفعها تدريجاً أفضت الى صنع سبعة أصناف من الجمد وما يصحّ على الماء يصح على مواد كثيرة . فالبزموت له اربعة أصناف والغاليوم ثلاثة والكافور ستة ولا يبعد ان تكون احد عشر صنفاً

هذا ولا بدّ من حدوث هذا التحوُّل في المواد التي في قلب الارض حيث درجات الحرارة والضغط عالية جدًّا ولا بدّ ان يكون لها خواص غير الخواص التي نسندها اليها على سطح الارض وهي في حالتها المألوفة . وهذا يعني اننا لا نستطيع ان نتكهن بأحوال المادة في قلب الارض او الشمس الاّ بعد دراسة وافية للمادة وهي معرضة لدرجات عالية من الضغط والحرارة على سطح الارض وكيف تتحول

هذه التحولات في المادة وهي معرضة للضغط العالي تزول عند رفع الضغط عنها وترتد المادة الى أصلها . ولكن العلماء وجدوا مادة واحدة يحدث الضغط العالي فيها تحولاً دائماً وتلك المادة هي الفصفور الأبيض . فالفصفور الابيض مادة غير مستقرة تلتهب من ذاتها عند تعريضها للهواء ولكنها تتحول تحولاً دائماً بعد تعريضها لضغطٍ عالٍ فتصبح سوداء بدلاً من ان تكون بيضاء ثم انها لا تلتهب وتوصل الكهربائية بدلاً من ان تقاومها

فتغيير من هذا القبيل يذكي الخيال . ذلك بأنهُ اذا استطعنا ان نغير الفصفور تغييراً دائماً ونحوّلهُ الى مادة جديدة لها خواص مناقضة لخواصها الأصلية ، أفليس في الوسع تحويل غيره من المواد بتعريضها للضغط العالي فنصنع بذلك مواد جديدة لها خواص مرغوب فيها ؟

ثم كيف يؤثر الضغط في حجم المواد ؟ الغاز على ما نعلم يعنو بسهولة للضغط فتستطيع أن تضغط ما يملأ حجرة كبيرة من الهواء في أنبوب عجلة السيارة . أما الماء فقد قلنا في مستهل الكلام انه قابل للانضغاط وان كانت كتب الطبيعة تقول انه ليس كذلك . وذلك لأن التجارب القديمة الى منتصف القرن الثامن عشر عجزت عن ضغطه بما لديها من لوسائل . ثم هناك الجوامد وهي أقل قابلية للانضغاط من الماء ولكنها تنضغط . فالحديد أقل قابلية للانضغاط من الماء مائة ضعف. ولكن اذا استعمل ضغط قدره ألوف من الاجواء أمكن ضغط السوائل والجوامد ضغطاً يسهل قياسه فالسوائل تقل حجماً تحت الضغوط العالية من ٣٠ الى ٤٠ في المائة . وكل سائل لا بدّ أن يتجمد بزيادة الضغط الذي يوقع عليه . وعندئذٍ يصبح وهو متجمد شأنه شأن

المواد الجامدة أصلاً من حيث تأثير الضغط العالي فيها . فالجمد اذا عرض لضغط قدره ٥٠ الف جوّ كان حجمهُ ٤٠ في المائة اقل من حجم الماء الذي صنع منهُ اولاً . والفلزات أقل قابلية للضغط من السوائل ولكن التفاوت بينها كبير . فعنصر الكيزيوم مثلاً وهو أشد الفلزات قابلية للضغط أسهل انضغاطاً من الماء وينقص الى ٥٠ في المائة من حجمهِ الأصلي اذا عرّض لضغط ٥٠ الف جوّ

ثم ان المقاومة لسريان التيار الكهربائي تقل بارتفاع الضغط الذي تعرّض لهُ المواد حتى لقد تتحوّل المادة غير الموصلة للتيار الى مادة موصلة فالتلوريوم وكبريتور الفضة ليسا موصلين جيدين في الاحوال العادية ولكنهما يصبحان موصلين جيدين تحت الضغط الشديد وإيصالهما للتيار الكهربائي ألوف الاضعاف أقوى مما كان . والفصفور ليس موصلاً للكهربية اذا كان الضغط عاديًا ولكنهُ يصبح موصلاً اذا عرّض لضغط قدره الف جوٍ . ومن المواد ما قد تشتد مقاومته للتيار بارتفاع الضغط

ومن أغرب ما يروى عن تأثير الضغط العالي خاص باختراق الماء ألواح الصلب القاسي والزجاج. فقد روى العالم بولتر في مجلة «الطبيعة المطبقة» انهُ اذا ارتفع الضغط ارتفاعاً كافياً ففي الوسع ان يخترق الماء سطحاً صقيلاً من الصلب ، او طبقة سماكتها بضعة مليمترات من لوح زجاجي في بضع دقائق. وقدرة الكحول والأثير تحت الضغط على النفاذ او الاختراق أقل من قدرة الماء أما الغليسرين والزيوت فيندر ان يكون لها قدرة على هذا الضرب من الاختراق ولكن مواد تشحيم السيارات تصبح صلبة كالفولاذ اذا ضغطت ضغطاً عالياً . وأغرب من هذا انهُ اذا رفع الضغط رفعاً فجائيًا تخرج الماء الذي كان قد تخلل سطح الصلب تفتت السطح . واذا أخذ قضيب من الزجاج وأحيط بالماء وعرض الماء لضغط كافٍ هنيهة ثم رفع الضغط فجأة فالزجاج لا يتأثر . ولكن اذا طال الضغط خمس دقائق ثم رفع فجأة فقضيب الزجاج ينقسم حينئذٍ أقراصاً زجاجية واذا زاد التعرض للضغط الى عشرين دقيقة ورفع فجأة تهاوى القضيب شظايا زجاجية صغيرة

وما تأثير الضغط العالي في الأحياء ؟

ان الأحياء البحرية تمكنت من الملاءمة بين حياتها ودرجات الضغط المختلفة في البحار . ففي أغوار البحار اصناف متعددة من السمك تعيش حيث يبلغ الضغط « ألف جو » . ولكن الحيوانات التي تتنفس الهواء لا تستطيع أن تعيش اذا نقص الضغط الجوي كثيراً او اذا زاد كثيراً . ومع ذلك فدرجات الضغط في قعر البحر ، وفي أعالي الهواء ، تكاد تكون

عادية بالقياس الى درجات الضغط العالي التي يستطيع العلم توليدها ، او يفرض العلم وجودها في قلب الأرض او باطن الشمس

من الأحياء ذوات الخلية الواحد ما يستطيع ان يعيش في درجة من البرد تبلغ الصفر المطلق تقريباً ، ويستطيع ان يتحمل درجة من الضغط العالي لا يكاد يتصورها العقل . فمن البكتيريا ما يستطيع ان يعيش بغير ان يصاب بأذى في أحوال يتفاوت فيها الضغط بين ثلاثة آلاف جوٍ وأربعة آلاف جوّ ، ومن البكتيريا صنف لا يولد بزوراً (Spores) كالبكتيريا العنبية (ستافيلوكوك) يموت اذا بلغ الضغط ستة آلاف جوّ بينما البكتيريا التي تولد بزوراً تستطيع ان تتحمل ضغطاً يبلغ ٢٢ الف جوٍ فهي قادرة ان تعيش في قعر البحر ، وتتحمل ضغط مائه العظيم حتى لو بلغ عمق البحر اثنين وعشرين ضعف ما هو في أعمق أعماقه

ومن الغريب ان سمّ الأفاعي لا يدمَّر ولا يفقد صفتهُ بتعرضهِ لأعظم ضغطٍ استطاع العلماء توليده حتى الآن . يقابل هذا ان باشلس الدفتيريا يموت بفعل ضغط لا يزيد على ١٣٠٠ جوٍ . ويموت باشلس الدرن بفعل ضغطٍ دون ذلك . وتموت الخلايا السرطانية ، كسائر الخلايا الحية بتعرضها لضغط يبلغ الفي جوّ . ويؤخذ من هذا ان سبب السرطان ليس بكتيريا لأن أشد البكتيريا تأثراً بالضغط يستطيع ان يتحمل ضغطاً يبلغ ٤٠٠٠ جوّ بغير ان يموت . ولا تبلغ الحيوانات المجهرية مبلغ البكتيريا في قدرتها على تحمل الضغط العالي . ولكن النقاعيات (الانفوزوريا) وغيرها عرضت لضغط يتفاوت بين ٢٠٠ جوٍ و ٥٠٠ جوٍ بغير ان تموت . ومن بواعث العجب والحيرة ان التعرض لضغط عال يبعث على نشاط اعمال الحياة في البدء ثم يطفىء شعلتها فجأة . فتشاهد طائفة من « براغيث الماء » وقد زادت حركتها ونشط ذهابها وايابها عندما تعرض للضغط ، ثم تسكن كأنها نوّمت او ترسب في قعر الاناء . فاذا رفع الضغط فجأة او خفض عادت الى الحركة على سطح الماء على مألوف عادتها

ولكن تأثير الضغط العالي لا يقتصر على الأحياء وقد سقنا في ما تقدم طرفاً من الوان تأثيره في المادة وخواصها

ولا نعلم الآن ما يكون من شأن هذه المباحث الجديدة في ارتقاء علمي الكيمياء والطبيعة وتقدم تطبيقهما . ولكن مما يستوقف النظر ان نواميس الكيمياء والطبيعة تصدق على المادة عندما تكون خاضعة لضغط عادي ولا تصدق عليها عند ما تتعرض لضغط عالٍ جدًّا . ولا بدّ ان يكون لهذه الحقيقة أثر في آراء العلماء عن أحوال المادة في الأجرام الأخرى لأن هذه الآراء كانت قائمة الى حدٍ ما على ان خواص المادة هنالك تشبه خواصها على سطح الارض

٣ — النفط والحرب في أوربا

الحقيقتان الأساسيتان في هذا الموضوع الخطير ، هما مقدار نقص الاستهلاك الأهلي في المانيا وإيطاليا والبلدان المحتلة ومدى اتساع نطاق الاستهلاك الحربي . والسؤال الرئيسي بعد بحث هاتين الحقيقتين هو هذا : — كيف تُقابَل المقادير التي لا غنى عنها من النفط ومشتقاته للاستهلاكين الأهلي والحربي في أوربا النازية ، بالموارد المتاحة لها الآن ؟

زاد ما يستهلك من النفط ومشتقاته في المانيا ، من ثلاثة ملايين وثلث مليون طن الى سبعة ملايين وثلث مليون طن بين ١٩٣٣ — ١٩٣٨ ، وقد فرضت قيود شديدة على الاستهلاك في بدء الحرب ، فنقصت المقادير المستهلكة نقصاً كبيراً . وكان ما يستهلك عادةً في أبان السلام في النمسا وتشيكوسلوفاكيا وغرب بولونيا ودنمارك والنرويج وهولندا وبلجيكا وفرنسا المحتلة نحو ثمانية ملايين من الأطنان — وهذا بصرف النظر عن المقادير اللازمة للسفن في الحالين . ولا ريب في ان السلطات الالمانية في المانيا وجميع البلدان المحتلة فرضت قيوداً شديدة على استهلاك أصناف النفط ومشتقاته في تلك البلدان . فاستعمال السيارات لأغراض خاصة محظور اطلاقاً او في أغلب الأحيان . وقد عادت الدراجات الى باريس مثلاً أسلوباً غالباً للانتقال ولكن نقص الاستهلاك الأهلي له حدٌّ ولا سيما في بلدان صناعية يريد هتلر ان يستغلها استغلالاً صناعياً

والمفروض عند خبراء هذا الموضوع ان أقصى حدود الشدة في هذه القيود تفضي الى نقص الاستهلاك المألوف في أيام السلام ، من خمسين في المائة الى خمسة وستين في المائة . ولما كانت البلدان التي تقدم ذكرها تستهلك عادة في أبان السلام ، ما يزيد قليلاً على خمسة عشر مليوناً من الاطنان ، فالاستهلاك الأهلي فيها الآن لا يمكن ان يكون دون خمسة ملايين الى ستة ملايين من الاطنان

أما ايطاليا فكانت تحتاج في استهلاكها الأهلي في أثناء السلام الى مليوني طن ونصف مليون طن . والرأي عند الخبراء ان هذا المقدار لا يستطاع نقصه بالقيود المفروضة على الاستهلاك ، مهما تبلغ من الشدة والدقة ، أكثر من ٤٠ الى ٥٠ في المائة . أي ان ايطاليا تبقى محتاجة الى مليون طن ونصف مليون طن من النفط ومشتقاته لاستهلاكها الأهلي على الأقل . وهذا عدا ما تحتاج اليه لتموين سفنها التجارية . فمجموع ماتحتاج اليه دولتا المحور والبلدان الخاضعة لها للاستهلاك الاهلي لا غير ، يبلغ ستة ملايين ونصف مليون طن . وهذا الحساب عمل قبل احتلال البلقان . وما تستهلكه دول البلقان يجب ان يضاف الى ما تقدم

وماذا يقال في الاستهلاك الحربي ؟ إن هذا الاستهلاك مرتبط بنوع القتال الدائر او الذي يحتمل ان يدور . ولكن في الوسع ضرب مثل او مثلين . فالطائرة المطاردة التي قوة محركها الف حصان تستهلك ٢٥٠ كيلو غراماً من أصفى أنواع البنزين — وهو مشتق من النفط بأساليب خاصة — في ساعة واحدة . والقاذفة التي قوة محركيها ألفا حصان تستنفد ٥٠٠ كيلو غرام في ساعة واحدة . وقد أثبتت حقائق الحرب الميكانيكية في بولونيا وفرنسا ، ان فرقة متحركة تستنفد ١٨٠ طناً من الوقود السائل كل يوم . وقد استعمل الالمان في بولونيا ستين فرقة واربعة آلاف طائرة ، وفي معركة فرنسا عندما بلغت ذروتها من الشدة والعنف ، ١٢٠ فرقة و ٣٠٠٠ طائرة كل يوم . وهذا يقابل استهلاكاً سنوياً قدره أربعة ملايين طن في الحالة الأولى و ١٠ ملايين طن في الحالة الثانية . ولكن اذا اقتصر القتال على الحرب الجوية ، كان الاستهلاك أقل كثيراً . فاذا استعملت ألفا طائرة وكانت كل منها تطير ما معدله ساعتان كل يوم ، بلغ مجموع ما تستهلكه في السنة نصف مليون طن من البنزين النقي . ولذلك قلنا ان الاستهلاك الحربي مرتبط بنوع القتال الدائر او الذي يحتمل ان يدور

ويجب ان يضاف الى هذا ان ما تصاب به سكك الحديد الاوربية ولا سيما في المانيا من تلف وتعطيل قد يضطر المانيا الى توسيع نطاق النقل بالسيارات، وهذا يزيد مقدار ما يستهلك من الوقود السائل . وما أصيبت به سكك الحديد من تلف وتعطيل حتى الآن حملها على توسيع نطاق النقل البحري الساحلي في شمال اوربا وشمالها الغربي مع ما تتعرض له هذه السفن المتسللة من ثغر الى ثغر من خطر القاذفات البريطانية

وليس ثمة ريب في ان القتال الدائر في روسيا منذ اربعة أشهر ، من أعنف ما عرف في التاريخ وهو واسع النطاق يمتد الفاً وخمسمائة من الأميال او اكثر . وتشترك فيه جيوش تعد بالملايين وطائرات ودبابات ومركبات تعد بعشرات الألوف ويشمل مساحات شاسعة ومسافات طويلة . فلا ريب في ان الجيش الالماني استنفد مقادير عظيمة من النفط ومشتقاته . وقد تصعب معرفة هذه المقادير على وجه التحقيق . ولكن فريقاً من الخبراء قدّرها بخمسة ملايين من الأطنان في الأشهر الثلاثة الاولى . وهو تقدير لا نعلم مبلغه من الدقة ، لأن معرفة ما تستهلكه جيوش كبيرة قوامها مئات من الفرق وعشرات الألوف من الدبابات والسيارات المدرّعة وسيارات النقل الكبيرة والطائرات ليست بالأمر اليسير

فما هي الموارد التي تعتمد عليها المانيا في توفير ما تحتاج اليه من النفط ومشتقاته للاستهلاك الاهلي — وهو نحو ثمانية ملايين طن في السنة — وللاستهلاك الحربي ، وهو مقدار متغير ولكنه بالغ الآن ، ومعركة روسيا على أشدها ، مبلغاً عظيماً ، لاشك في ذلك

هذه الموارد ثلاثة ، أولها ما يستخرج من النفط من آبار في اراضي المانيا او الدول الخاضعة لها ، او ما يصنع فيها بالتركيب الكيميائي مستخرجاً من الفحم. وثانيها ما يستورد من الخارج . وثالثها ما خزن قبل الحرب تأهباً لها

زاد ما يستخرج من النفط الخام من آبار في المانيا والبلدان الخاضعة لها من ٢٣٨ الف طن في سنة ١٩٣٣ الى ٧٠٠ الف طن في سنة ١٩٣٩ وقد يبلغ مليوناً الآن او اكثر قليلاً وهذا يشمل ما يستخرج في بولونيا وفرنسا . وزاد المصنوع بالتركيب الكيميائي من ١٨٠ الف طن في سنة ١٩٣٣ الى ٠٠٠ ١٧٠٠ في سنة ١٩٣٩ وقد يكون — او من المفروض ان يكون — حوالي مليونين هذه السنة. فجموع ما يستخرج من آبار خاضعة لألمانيا — عدا رومانيا — وما يصنع ، بالتركيب الكيميائي ، ٠٠٠ ٧٠٠ ٢ طن في سنة ١٩٣٨ وكان مفروضاً ان يبلغ اربعة ملايين في هذه السنة على الأكثر

استعملنا لفظ «مفروض» مراراً في العبارة السابقة ، في الاشارة الى استخراج الزيت من الفحم بالاساليب الكيميائية. وسبب استعماله ان الحرب الجوية جعلت مصانع استخراج الزيت من الفحم بيوتاً من الزجاج ترشق بالحجارة أي بالقنابل. وقد جرت قيادة سلاح القاذفات البريطانية على خطة منظمة أحد أغراضها تدمير هذه المصانع وكل مصنع منها هدف لا مثيل له لطياري القاذفات لانها تحتوي على مواد ملتهبة تشتعل فوراً وتحدث حرائق ملتهمة اذا أصابتها قنابل متفجرة او متفجرة فحرقة . ولا ريب في ان انتاج هذا النوع من الزيت في المانيا قد تأثر تأثراً كبيراً بفعل هذه الغارات . وفي الوسع ان تتصور الوقت الذي ينقص فيه هذا الضرب من الانتاج الى مقادير تقرب من الصفر . ولولا هذه الغارات الجوية لكان من المفروض ان يبلغ انتاج هذا الزيت مبلغ كذا في هذه السنة . ولكن هناك فرق شاسع بين المفروض والحقيقة الواقعة

وهذه الناحية من الحرب ، قلبت في حدودها ، مبدءًا حربيًّا قديمًا . إذ كان من المسلَّم به عند الخبراء العسكريين ، ان الدولة التي تحارب حرباً تكون فيها خطوط مواصلاتها خطوطاً داخلية تفوز بمزية عظيمة على خصمها لان الخطوط الداخلية أقصر من الخطوط الخارجية ، كما ان قطر الدائرة أقصر من محيطها . ولكن الخطوط الداخلية القصيرة تعني احتشاد المصانع وهي ركن أساسي في الحرب الميكانيكية. والاحتشاد الصناعي يعني توفير الاهداف التي تتوخاها قاذفات الاعداء وهذا عين ما هو حادث في المانيا الآن

نعود الى النفط ومشتقاته فنقول ان ايطاليا لا تستطيع ان تنشىء في بلادها صناعة يعتدُّ بها للزيت المستخرج من الفحم لانها تحتاج الى استيراد الفحم على كل حال ولا تستطيع

استيرادهُ الآن الاّ من المانيا ونقلهُ بسكك الحديد كبير النفقة . ولعلَّ هذه السكك مرهقة الآن بأعمال حربية أخرى. وما يستخرج من آبار البانيا قد لا يزيد على ٣٠٠ الف طن في السنة على أكبر تقدير ولكنهُ يكرَّر في مصانع بايطاليا معرضة للغارات الجوية وبعضها هوجم وأصيب

فنفط البانيا يكرَّر في باري وليڤورنو بايطاليا وفي كل منهما يستخرج ١٢٠ الف طن من البنزين المصفّى للطائرات و٣٠ الف طن للتشحيم . ولكن انتاج الآبار الالبانية محدود بشح الآبار وقلة ما ينقل بأنبوب النفط الممتد من منطقة الآبار الى ڤالونا . ومصانع التكرير في باري وليڤورنو علاوة على مصانع التكرير في تريستا وفيومي وبورتو مارجيرا ونابولي وسبيزيا عرضة ، جميعها او معظمها ، لقنابل القاذفات البريطانية

فايطاليا من ناحية النفط ومشتقاته عالة على المانيا . أما رومانيا فتنتج الآن نحو ستة ملايين طن في السنة . وقد تكون خمسة منها جاهزة للاصدار الى المانيا . ولكن وسائل النقل بسكك الحديد وبنهر الدانوب لا يمكن في حال من الاحوال إن تتسع لأكثر من ثلاثة ملايين طن على أكبر تقدير . والغالب ان هذا تقدير مبالغ فيه . واسهل من ذلك استعمال بعض البترول الروماني في ميادين قريبة من رومانيا. والنفط نفسه لا يفيد كثيراً كما يخرج من الارض فلا بدَّ من تكريره . وأشهر معامل التكرير الرومانية في بلدة بلوستى . ولعلَّ القراء يذكرون ما قاله لوزفسكي في موسكو عندما سأله احد الصحفيين عن احتمال ضرب الروس لبلوستي. فقال — بلوستي : لم يعد لها وجود !

اما ما كانت تستورده دولتا المحور من خارج اوربا فقد قطع عنهما الآن وعن جميع الدول الخاضعة لهما . وأما المخزون تأهباً للحرب فلا يعلم على وجه التدقيق وقد قدره خبراء البترول بنحو ثلاثة ملايين طن في سبتمبر سنة ١٩٣٩ ووضعهُ بعضهم قبل الحرب الروسية في حدود اربعة ملايين طن . ولا يظن ان هذا المخزون مُسَّ قبل الحرب الروسية،لأن المانيا أخذت من البلدان المحتلة ما استنفدتهُ في معارك احتلالها.ولكن من المحتمل انهُ مسَّ الآن بعد كلّ ما استنفدتهُ الحرب الروسية فيما مضى من صراعها العنيف . ولا بد ان يطرد النقص في المخزون اذا مضى القتال في روسيا على الوجه المعروف حتى الآن

ولذلك لا بد للقيادة الالمانيـة من ان تصل الى فوز حاسم سريع في الحرب الروسية . ومن اركان هذا الفوز — من الناحيتين السالبة والموجبة — الوصول الى مناطق النفط الروسي في القوقاس . ولكن دون هـذا الوصول على ما نعلم مقاومة شديدة في جنوب أوكرانيا وعند مصب نهر الدون . ثم في بلاد القوقاس الجبلية الوعرة نفسها . والدفاع في هذه البلاد يستطاع تعزيزه من الجنوب اي من إيران

٤ — العرب والعلم (١)

هناك أناس يضربون على نغمة جديدة اقتبسوها عن الجاحدين لفضل العرب والاسلام، وهذه النغمة تدور حول قولهم ان العرب لم يكونوا غير نقلة للعلوم ، ومن الغريب ان لا نجد من رد عليهم ، ومن الغريب ان يكون الرد عليهم من عالم أميركي اشتهر بالبحث والتنقيب . قال الدكتور سارطون : — « . . . ان بعض الغربيين الذين يجربون ان يستخفوا بما أسداه الشرق الى العمران يصرحون بأن العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة ولم يضيفوا اليها شيئاً ما ...هذا الرأي خطأ ... لو لم تنقل الينا كنوز الحكمة اليونانية لتوقف سير المدنية بضعة قرون ...» ويمضي الدكتور في كلامه فيقول :— « ... ولذلك فان العرب كانوا أعظم معلمين في العالم في القرون الثلاثة : الثامن ، والحادي عشر، والثاني عشر للميلاد »

ولقد ظهر عند العرب علماء عباقرة أسدوا جليل الخدمات كالتي أسداها نيوتن وفراداي ورنتجن وغيرهم من نوابغ الغربيين . وقد اعترف سارطون وسمث وكاجوري وبول بأن العرب أخذوا بعض النظريات عن اليونان وفهموها جيداً وطبقوها على حالات كثيرة مختلفة ، ثم كوّنوا من ذلك نظريات جديدة وبحوثاً مبتكرة فهم بذلك قدموا للعلم خدمات جليلة لاتقل عن الخدمات التي أتت من مجهودات كبار رجال الاختراع والاكتشاف في الغرب

اننا أولى من غيرنا بمعرفة عباقرتنا ونوابغنا . انهُ لواجب مقدس علينا ان نهتم بتراثنا وبما أورثه أسلافنا الى الأجيال

أليس من العيب الفاضح ان لا يعرف الناشيء العربي ان الخوارزمي هو من كبار رياضيي العالم وانهُ أول من وضع الجبر في شكل مستقل عن الحساب وقد بوّبهُ ورتبهُ وزاد عليه زيادات هامة تعد أساساً لكثير من بحوثه . وعلم الجبر هذا من أعظم أوضاع العقل البشري لما فيه من دقة وإحكام في القياس . ولقد جمع العرب بين الجبر والهندسة وطبقوا الهندسة على المنطق كما طبقوا أكثر العلوم على مختلف مرافق الحياة . واعترف كاجوري بفضل العرب على الجبر فقال «... ان العقل ليدهش عند ما يرى ما عملهُ العرب في الجبر »وقال أيضاً : — « ... ان حل المعادلات التكعيبية بوساطة قطوع المخروط من أعظم الأعمال التي قام بها العرب» ويمكن القول ان بحوث العرب في الجبر والهندسة وفي الجمع بينهما كانت سابقة لبحوث ديكارت وفرما

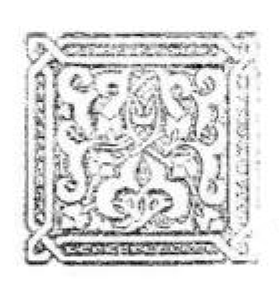
أليس غريباً ان لا يعرف كثيرون ان العرب هم الذين هذبوا الأرقام الهندية التي نستعملها

(١) من مقدمة قدري حافظ طوقان لكتابه « مآثر العرب في الرياضة والفلك » وهو هدية المقتطف السنوية

الآن والتي وصلت الغرب بوساطة الكتب العربية . وليس المهم هنا تهذيب العرب للارقام بل المهم ايجاد طريقة جديدة لها ، طريقة الاحصاء العشري ، واستعمال الصفر للغاية التي نستعملها الآن ووضع علامة الفاصلة للكسر العشري ، ولا يخفى ما لذلك من أثر في تقدم الرياضيات والعلوم وارتقاء الحضارة في مختلف نواحيها

هل سمع القارىء شيئاً عن البتاني الذي امتاز على غيره بمواهبه وقد تبوّأ مركزاً عالمياً في ميادين العلوم ولاسيما في الفلك والمثلثات والهندسة والجبر . ولقد اطلع لالاند وهو عالم غربي لمع في سماء البحث والاستقصاء والاستنتاج ، أقول اطلع لالاند على مآثر البتاني فكان ان عدّه من العشرين فلكيًّا المشهورين في العالم كله . وكان من العرب علماء آخرون أدهشوا الاوربيين وحملوهم على الايمان بقوة العقل العربي وابداعه . ومن هؤلاء العلماء ابن سينا الذي قال عنهُ سارطون انهُ من اشهر مشاهير العلماء العالميين والكندي الفيلسوف الذي سرى ذكره في كل نادٍ وهو من الذين امتازت مواهبهم بنواحيها العديدة ومن الذين عدّهم كاردانو من الاثنى عشر عبقريًّا الذين من الطراز الاول في الذكاء في العالم كله

أليس من المؤسف حقًّا ان لا يعرف الناشىء العربي ان اجداده تبنّوا الكيمياء وأنهم أبدعوا في الابتكار فيها وانهم سبقوا الغربيين في الالتجاء الى التجربة ليتحققوا من صحة بعض النظريات . واليهم يرجع الفضل في استحضار كثير من المركبات والحوامض التي تقوم عليها الصناعة الحديثة . فلقد استحضروا مركّبات تستعمل الآن في صنع الصابون والورق والحرير والمفرقعات والاصبغة والسماد الاصطناعي . وقد يجهل كثيرون أن جابر بن حيان هو من ألمع علماء الكيمياء العالميين ومن الذين أضافوا اضافات هامة الى الثروة الانسانية العلمية جعلته في عداد الخالدين المقدمين في تاريخ تقدم الفكر . وقد يدهش القراء اذا قلنا أنه وجد في الأمة العربية من اشتهر في كثير من العلوم كالبيروني ومن كان ذا كعب عالٍ فيها فاق علماء عصره وعلا عليهم وكانت له ابتكارات قيمة وبحوث نادرة في الرياضيات والفلك والتاريخ والجغرافيا . وقد توصل سخاو بعد دراسة حياة البيروني وبعد اطلاعه على مؤلفاته الى الوقوف على حقائق لم تكن معروفة خرج منها باعتراف خطير وهو : — « أن البيروني أعظم عقلية عرفها التاريخ » . ولو أن هذا الاعتراف صدر عن باحث عربي لرمي بالتحيز والمغالاة ولكنهُ بحمد الله صادر عن عالم يزن كلامه ولا يبدي رأياً الا بعد بحث وتمحيص . ومن بحّاث الغرب من حملته دراسة التاريخ والجغرافيا على القول بأن مقدمة ابن خلدون هي أساس التاريخ وحجر الزاوية فيه وان كتاب معجم البلدان لأبي عبد الله ياقوت هو معجم غني جدًّا بالمعرفة وليس له من نظير في سائر اللغات........ الخ



الآثار العراقية

بين الماضي والحاضر

بقلم كوركيس عوّاد

١ — تصدير

ليس من اليسير على الباحث، ان يتناول في صحائف قلائل، موضوعاً عامّاً، واسع النطاق كالبحث عن الآثار العراقية القديمة. لأن العراق، او بتعبير تاريخي أدق، « وادي الرافدين »، من الأقطار الغنية بآثارها العريقة في مجدها وحضارتها

ومعروفٌ لدى الباحثين، ان أقدم المدنيات هي تلك التي سايرت ضفاف الأنهار: فمدنية الرافدين مثلاً نشأت عند شواطىء دجلة والفرات وسواعدهما، والمدنية المصرية قامت على ضفاف النيل، كما ان المدنية الهندية كان منبتها على جوانب السند ... وبوسعنا ان نقول إن للانهار في فجر الحضارات البشرية شأناً يفوق شأن البحار، وذلك نظراً الى سهولة الاستفادة من الأولى في قديم الزمان، وصعوبتها من الثانية. فالبحار في عرف الأقدمين كانت أشبه شيء بالصحارى من وجهة الاستفادة! وعليه لا غروَ إذا كانت الحضارة في أول نشوئها ألصق بالجهات النهرية منها بالجهات البحرية!

إن حضارة ما بين النهرين لم تكن تحدّها حدود جغرافية حاسمة، بل كانت تبدأ شمالاً بمنابع دجلة والفرات، ثم تسير جنوباً حيث يسيران حتى يبلغا البحر. على ان هذه الحضارة كان ينتابها تمددات وتفرعات وفقاً للظروف والأحوال! فقد دلّنا التاريخ على أنها كانت تنعطف أحياناً غرباً حتى تشمل أعالي سورية، أعني سقي الفرات الشمالي والخابور، ولعلها كانت تمتد في بعض الاحيان الأخرى الى أكثر من ذلك، فتشمل سقي الأردن أيضاً! وهذا ما حمل بعض العلماء المعاصرين على تسمية تلك البقعة بأسرها باسم « الهلال الخصيب »، أحد رأسيه في جنوبي العراق وثانيهما في جنوبي فلسطين. والحق ان هذا الهلال لمن أخصب بقاع العالم، كما أنه من أقدم المواطن التي عمرت بالسكان

ولقد توالت على وادي الرافدين منذ آلاف السنين، دولٌ عديدة، وانبثت في سهوله

الخصيبة أمم كانت قد بلغت من الرقيّ شأواً بعيداً حيَّر العلماء في عصرنا . ويؤخذ مما توصل اليه علم الآثار ، ان تاريخ وادي الرافدين من أطول تواريخ الأقطار في العالم : فهو يتألف من حقبة مديدة من الزمن ؛ تبلغ السبعة الآلاف من السنين بحسب معلوماتنا الحالية ومن يدري ؟ فلعل وراء ذلك آثاراً تسبق العهد الذي ذكرناه، مما لا يزال أمرها رهن التراب !

ولما كان وادي الرافدين من الساحات الأثرية المترامية الأطراف الضاربة في أعماق التاريخ كان الكلام على كل دولة قامت فيه، او على ما بقي لنا من آثارها أمراً متعذراً في مثل هذا المقام لذلك سنتناول في بحثنا هذا الكلام بوجه عام على آثار العراق في عهوده التي سبقت الاسلام والتي تلته ، ثم نعقب على ذلك بلمحة في تكوين دور التحف العراقية

٢ — بدء دراسة آثار العراق

قبل نحو مائة وخمسين سنة كانت معرفة العلماء با ثار العراق وبتاريخه القديم شيئاً ضئيلاً لا يتجاوز ما روته عنهما التوراة ، او بعض المصنفات المؤتمَّة (الكلاسيك) ، كتاريخ هيرودوتس وزينفون وديودورس واسترابون ويوسيفس وأميانس مرسلّينس وأضرابهم . فلا غرابة اذا كان وقوف العلماء حينذاك على آثار العراق وقوفاً ناقصاً مشوّهاً ، يلازمه الخيال ويعتريه الوهم ، وتلابسهُ المزاعم والظنون ! ومن يطالع كتب التاريخ او أخبار السياحات التي وضعها أولئك العلماء قبل تلك المدة المذكورة ، ويتدبر البحوث التي دونوها عن أمثال هذه الشؤون ، يقف متعجباً من تلك الآراء الغريبة التي أضحت اليوم بفضل تقدم علم الآثار ضرباً من الأساطير ! على ان تلك المدونات بالرغم مما فيها من قصور ووهن ، أصدق شاهد يمثل لنا علم الآثار وهو في مهد طفولته ، بل انها أول المراحل في دراسته ، والأساس الذي شيدت فوقه البحوث الرصينة التي تلتهُ

ويمكننا ان نعزو التقصير المذكور في معرفة آثار ما بين النهرين الى عاملين رئيسين :

الاول : جهل أرباب الآثار ، وقتذاك للُّغات القديمة التي كانت سائدة في هذه المنطقة او في ما يجاورها ، من البلدان جهلاً تامًّا . وتلك اللغات هي : الشُّمَرية والأَكَّدِيَّة (الكلدانية — البابلية) والأشورية والكيانية [1] والكاسية والعيلامية والحثيّة والجُوثيّة وغيرها

الثاني : عدم القيام بالحفريات والتنقيبات العلمية في المواقع الأثرية ليستدلَّ بها على ماضي المدن العراقية وقراه المندثرة وعلى ما كان عليه القوم في ذلك العهد البعيد من سُبل الحضارة والعمران

(١) الكيانية عرفت بهذا الاسم لدى المصنفين العرب الاقدمين . وهي لغة القوم المعروفين عند علماء الافرنج باسم Achaminides أو Achéménides

٣ — حل الكتابة المسمارية

وتُعَدُّ سنة ١٨٤٧ م، من أبرز السنوات في تاريخ دراسة الآثار العراقية، بل كانت سنةً فاصلة في حياة هذا العلم: فلقد توصّل فيها أحد كبار العلماء المجدّين وهو السر هنري رولنصن Sir H. C. Rawlinson [١] (١٨١٠ — ١٨٩٥) الى حلّ رموز «الكتابة المسمارية». والمسمارية ضرب من الكتابة أُطلقت هذه التسمية لمشابهتها المسامير[٢] ان اللغات القديمة التي كانت شائعة في وادي الرافدين، كانت تُدَوَّن بهذه الكتابة، على اختلافٍ في الاشكال والإشارات. بل انّ هذا النوع من الكتابة كان يعمّ بعضَ ما جاوره من الأقطار ولقد وُجدت حقيقةً كتابات عديدة من هذا القبيل في ايران وتركية وسورية وغير ذلك من البلدان

انّ حلّ رموز تلك الكتابات فتح أمام الباحثين باباً كان موصداً، وذلّل لهم عقبةً كؤوداً! فالكتابات المسمارية، بعدَ أن كانت فيما مضى طلسماً من الطلاسم، حتى انّ أحد العلماء [٣] لم يتردّد يومئذٍ في اعتبارها زخارف ونقوشاً محضة، صار بمقدور من تعلمها منهم. أن يقرأ عشرات بل مئات النصوص المستخرجة من مختلف هذه البقاع، فيستخلص منها حقائق ثمينة كان للتاريخ منها أجلّ الفوائد

وكان أكثر ما اهتم به العلماء في هذا الصدد، قراءة تلك النصوص القديمة المكتشفة وإذاعتها بين الأندية العلمية، للاستفادة من مضامينها وللوقوف على الشؤون التاريخية والدينية والأدبية والسياسية والاقتصادية والشرعية وغير ذلك مما كان متعارفاً بين سكان هذا الوادي كالسُّمَريين والبابليين والأشوريين وغيرهم من الأقوام

إنّ تلك النصوص القديمة، دوّنها أصحابها على الآجرّ وعلى قطع الأحجار المختلفة الحجوم والألواح الرخامية الكبيرة والتماثيل الهائلة العِظَم ونظائرها مما صبر على الدهر... وما لم ينشرهُ العلماء منها يفوق ما نشروه حتى يومنا. ومع ذلك، فانّ المنشور منها يكوّن خزانة كتب قائمة بذاتها، تتألّف من مئات المجلدات، فضلاً عن أضعاف هذا العدد من المقالات والكراريس...

ولا يتصوّرنّ القارىء انّ التوصّل الى قراءة تلك الكتابات كان امراً ميسوراً،

---

(١) طالع ترجمته في كتاب: أعلام المقتطف (ص١٦٠—١٦٢) وفي كتاب Budge : Rise and Progress of Assyriology (London, 1925, pp. 47-129

(٢) تسمى بالافرنجية Cuneiform أو Cuniform

(٣) هو الرحالة الايطالي الشهير بترو دلا فاله Pietro Della Valle الذي قضى خمس سنين (١٦١٦—١٦٢١م) في جوب انحاء أشور وبابل وايران وغيرها

فالحقيقة هي انهُ من أصعب الامور ، بل من أعقد المشاكل التي ذُلّلت في تاريخ العلم ؛ ولم يُتَغَلَّب عليها إلاَّ بالجهد البليغ والصَّبر الطويل والتتبع الدائم سنين عديدة ! فقراءة الكتابة المسمارية من أجلّ الموفّقيات في تاريخ الآثار العالمية ، ولا يوازيها قيمةً سوى قراءة العلاَّمة شمبوليون (J. F. Champollion) الكتابة الهيرغليفية سنة ١٨٢٢

واذا ابتغينا وجه الانصاف في هذا الصدد ، قلنا إنّ رولنصن لم يكن اوّل من اشتغل بهذا الباب ، بل سبقهُ الى هذا الميدان علماء آخرون[١] حاول كلٌّ منهم ان يحلَّ تلك المعميات ، لكنهم لم يصلوا الى نتائج ظاهرة تحسم الموضوع ، حتى جاء هو فكشف اللثام عما اعتاص على غيره . ثم ساهم بعده عدد غفير من العلماء في تشييد هذا الصرح العلمي بحيث تكاملت بعض أقسامه ولا تزال أقسام أخرى بحاجة الى درس وتدقيق نظر فيها

ويطول بنا القول اذا اردنا ان نبين كيف توصّل رولنصن ، ومن حذا حذوه ، الى قراءة تلك الكتابات لأول مرة ، فان هذه الناحية وحدها تتطلب بحثاً خاصًّا ، بل انه سبق لنا ان أفردنا لهذا الموضوع ، مقالة نشرت في مجلة الرسالة بعنوان « حجر بهستون مفتاح الكتابة المسمارية »[٢] ولعلَّ في الرجوع اليها ما يغني عن الاطالة فيه هنا

٤ — الحفريات الاثرية

أما الحفريات ، فقد بدأت في العراق منذ أوائل القرن التاسع عشر ، واستمرت بعد ذلك — عدا فترات متقطعة — حتى سنتنا الحالية . ان نطاق الحفر أخذ يتسع شيئاً فشيئاً فبعد ان كان في مبدإ أمره مقتصراً على المواقع الشهيرة البارزة جدًّا ، كبابل وأشور ونينوى وكالح وخرساباد[٣] ، اتسع بحيث شمل الآن ما يربي على الخمسة والخمسين موقعاً ! وبعد ان كان العلماء يستهدفون في حفرياتهم القديمة « استخراج التماثيل الضخمة والآثار الكبيرة » ، صاروا يقنعون باليسير ، بل قد يجدون في بعض اللقى « الصغيرة » ما تفوق خطورته ذلك التمثال الكبير ! وبعد أن كانت مساعي العلماء منحصرة في نبش المواقع التي تعود الى الأدوار المتأخرة من تاريخ العراق القديم بالنسبة الينا ، أخذوا يتوغلون في مجاهل الماضي السحيق ، ويتغلغلون في أعماق التراب فيقعون على أقدم الآثار عهداً وأبعدها زمناً !

أما ما استخرج من « المواد الأثرية » من هذه المواقع طوال هذه السنين فيكاد يخرج عن دائرة التصديق لوفرته وخطره ونفاسته

---

(١) نذكر منهم Grotefend , Rask , Burnouf , Lassen

(٢) الرسالة العدد ٨١ الصادر في ٢١ يناير ١٩٣٥ ، ص ٩٠ — ٩٥

(٣) اسمها الاشوري « دور شاروكين » ، وكانت تعرف في العصر الاسلامي باسم « خرستاباذ »

ان هذه الحفريات الواسعة قامت بها بعثات علمية من مختلف الجنسيات بينها : الانكليزية والفرنسية والألمانية والأميركية والايطالية . ومنذ سنة ١٩٣٦ أخذت دار الآثار القديمة في العراق تنهض بأعمال الحفر والتنقيب في بضعة مواقع ، خاصة في المواطن الاسلامية التي لم يعرها الأجانب الاهتمام الذي تستحقه . وهكذا بعد ان كان تاريخ وادي الرافدين يقوم على الأساطير والأقاويل ، أصبح يستند الى علم الآثار المبني على نتائج الحفريات العلمية المنظمة

إن الاستمرار على هذه الحفريات والامعان في توسيع نطاقها سوف يزيداننا معرفة بماضي هذه البلاد ويقفاننا على ما خبأته يد الزمن من ذلك التراث الخالد الذي يؤهلنا لتكوين « تاريخ » لهذا القطر متكامل الحلقات متلاحم الأجزاء . وقد ذكرنا آنفاً ، ان المواقع التي جرى التنقيب فيها تربي على الخمسة والخمسين موقعاً . والآن نضيف اليها ان المواقع الأثرية التي لم ينقب فيها حتى الآن تبلغ أضعاف هذا العدد . ان نظرة عاجلة يلقيها المرء على نشرة « التلول والمواقع الأثرية في العراق » [1] التي أصدرتها دار الآثار القديمة تبين له ان عدد المواقع الأثرية التي تمّ تسجيلها والاعلان عنها بلغ نحواً من ألف وثلثمائة موقع !

فما قولك فيما لو تيسر الحفر في هذه المواقع او في بعضها واستخراج ما تكنّه من الدفائن والتحف التي من شأنها ايضاح ما أشكل من تاريخ العراق القديم وفتح ما استغلق على العلماء والباحثين ؟

٥ — ما أصاب العراق من آثاره

ونقول الآن : ما مصير هذه المكشوفات ؟ لقد مرّ بالآثار المستخرجة من العراق أدوار ثلاثة

الأول : يشمل الآثار التي استخرجت قبل الحرب العالمية الماضية وهذه الآثار كانت — حين اكتشافها — تنقل برمتها الى المتاحف والمؤسسات الغربية التي كانت توفد من يقوم بالحفريات في العراق . كما ان بعضها كان ينقل الى استانبول عاصمة الدولة العثمانية . أما العراق فلم يكن داخلاً في الحساب وعلى هذا ، لم ينل من ذلك التراث شيئاً قليلاً ولا كثيراً ..! وفي الواقع ان الآثار المكتشفة في أرض العراق ، كانت نهباً يتقاسمه الأجانب . . . فهل من غرابة إذا وجدنا المتاحف في بلدان الغرب تزخر بتلك الآثار النفيسة ، وتفخر بكونها قد أحرزت تلك الكنوز العجيبة !

الثاني : وهذا يشمل ما استخرج من آثار العراق في دور الاحتلال والانتداب البريطاني له . وقد جعل للعراق منها حصة محدودة ، صارت نواة للمتحف العراقي الحالي . ومع ذلك

---

(١) ظهرت سنة ١٩٣٩ ، ثم تلاها ملحق سنة ١٩٤١ والذي يؤخذ من صحيفة « الوقائع العراقية » أنه كشفت مواقع أخرى عديدة زيادة عما جاء في هاتين النشرتين

فان « قانون الآثار القديمة » السابق [1] منح الاجانب حقوقاً واسعة ، كان من أظهر نتائجها خروج عدد وفير من آثار العراق الى الاقطار الغربية

الثالث : وهو دور استقرار الآثار في العراق ورسوخها فيه . وقد بدأ منذ إنشاء الحكومة العراقية ، فأخذ الاهتمام بشأن الآثار طوراً جديداً في هذا الدور ، بما تؤديه « مديرية الآثار القديمة » من العناية بمصلحة هذه الآثار والسهر عليها ، وبما تشترعه الدولة العراقية من النظم والقوانين ، وبما تتخذه السلطات الحكومية المختلفة من صنوف التدابير لصيانتها والمحافظة عليها من عبث العابثين بها

إن هذا الاهتمام أدى الى ما كانت تتوخاه البلاد من «حصر آثار العراق بالعراق». فكان لهذا المسعى التأثير المحمود في نموّ « المتحف العراقي» واتساعه بالوجه الذي يُرى عليه الآن

إن «حصة» الأجانب الذين يتولون الحفر والتنقيب في العراق ، قد تقلصت اليوم كثيراً وحُدّدت بالنظر الى ما ينصّ عليه « قانون الآثار القديمة » الأخير [2] ، فهذه الحصّة لا تتجاوز بعض « المكررات » و « النظائر » للآثار المستخرجة . أما الآثار الرئيسية والقطع الفريدة ، فن حصة العراق بأجمعها

وعلى هذا المنوال ، اتسعت الثروة المتحفية في العراق بالرغم من قصر المدة التي مضت عليها . وصار المتحف العراقي ، المؤسس في بغداد سنة ١٩٢٣ ، يضم في قاعاته عشرات الآلاف من المواد الثمينة التي تمثل أدوار السكنى في وادي الرافدين ، منذ أقدم العصور حتى ظهور الاسلام . وبين هذه الآثار ما هو فريد في بابه ، لما يتضمنهُ من الدلالة الأثرية والقيمة العلمية ، فضلاً عن كونهِ مستخرجاً من مواقع سحيقة في القدم . وهذه لعمر الحق ثروة لا يمكن تقويمها بمال . فاذا ما استعرضنا هذه الآثار ، ألفينا فيها مختلف الصنوف والأشكال منها : المنحوتات الكبيرة والتماثيل ، والكتابات والنقوش والتصاوير ، والنقود والختوم والحلى والأسلحة والأواني وغيرها مما لا يقع تحت حصر

ويسهل على المرء ان يعلم ، ان بعض هذه الآثار متخذ من الحجر بأنواعه كالرخام والصخر والآجر والفخار وبعض الأصداف والأحجار الكريمة ، وبعضها من المعدن كالذهب والنحاس والحديد ، والبعض الآخر من العظم والزجاج والخشب ، وغير ذلك من المواد

ثم إن بعض هذه الآثار يعود الى الأدوار الحجرية الأولى ، وبعضها الى ما تعاقب من الأدوار الأخرى . ومن ثمة ، كان تاريخ وادي الرافدين طويلاً غاية الطول ، واسعاً الى أبعد

---

(١) صدر في ٢٦/٦/١٩٢٤ وظل معمولاً به حتى ٢٢/٤/١٩٣٦

(٢) صدر في ٢٣/٤/١٩٣٦ ، وما زال نافذ المفعول

حدود السعة . إذ يبدأ من أبسط مراحل العيش ، فيأخذ في معارج التقدم والرقي دوراً بعد دور ، حتى يبلغ القمة . وبلوغ القمة نذير بدنو الهبوط والانحطاط ! وهذا ما حصل لتلك الدول والدويلات العديدة التي نشأت فيه ، فانها بعد ان تقدمت في سُبُل الرقي ، انتابتها عوامل الضعف مما لا يتسع المجال لبيانها هنا ، فما لبثت ان انتهى بها الأمر الى التأخر فالتحول فالفناء ، وأمسى الحديث عنها من صميم موضوعات التاريخ !

٦ — الآثار الاسلامية

بعد ان جرى الفتح الاسلامي للعراق ، اهتمّ القائمون بالحكم فيه بتأسيس المدن لتكون قواعد او عواصم لهم . فأسست البصرة سنة ١٤ للهجرة ، والكوفة سنة ١٧ ، وواسط نحو ٨٦ ، وبغداد سنة ١٤٥ ، وسامراء سنة ٢٢١هـ . هذا فضلاً عن توسيع ما كان عامراً من البلدان قبل الفتح ، كالموصل وتكريت وإربل وغيرها ، وإدخال التطورات والتحسينات عليها

لقد كان في كل من هذه المدن ما يتناسب وسعتها من المساجد والمدارس والقصور والدور والأسواق والمقابر وغير ذلك من العمارات التي تقتضيها مرافق الحياة اليومية . وطبيعيّ انهُ كلما كانت المدينة أعظم جاهاً من الوجهة الحكمية كان عمرانها اكثر استبحاراً والعناية بتنسيقها وتجميلها أبلغ أثراً

وما ذكرنا من المدن ، إما أن يكون قد خرب خراباً نهائيًّا ولم يبقَ منهُ سوى أطلال شاخصة او تلول تنبىء بما تكننهُ تحت ثراها ، كما هو الحال في واسط مثلاً ، وأما أن تكون يد الدهر قد تلاعبت بمصايرها ، فأخربتها اولاً ، ثم عادت فجدّدتها في ما يجاورها من البقاع ، فاجتمع القديم والجديد في صعيد واحد ! وعلى هذا الوجه صرنا نرى اليوم ، الى جانب بعض المدن المندرسة مدناً جديدة مسماة باسمها القديم : فهناك سامراء القديمة وسامراء الجديدة ، ومثل هذا قل عن بغداد والبصرة والكوفة وغيرها من البلدان

عاشت هذه المدن قروناً عديدة ، ومرّت عليها احوال اطمأنت فيها الى الحياة ، فذهبت تسعى الى تنظيم وسائل عيشها واستكمال اسباب رفاهها ، وهما أمران يؤديان الى تحسين الصناعة ورفع عمادها في البلاد

ان الصناعة بلغت شأواً لا يجارى في العصر العباسي ، وهو عصر اتساع رقعة الدولة العباسية ونضج الحضارة الاسلامية . فكان خلفاء بني العباس وسائر الأمراء والوزراء وأماثل الناس يبالغون في تجميل قصورهم ويعنون بجعلها آية من آيات الفن ! فازدهر فنّ البناء أيما ازدهار وسايره فن الزخرف والنقش ، وتبع ذلك الاهتمام بتجويد صنع الأثاث الذي يتناسب وعظمة تلك المباني وأبهة أصحابها ! ولكن ما مصير تلك العمارات

ان قصور الخلفاء الرائعة وسائر البنايات : سواء أفي بغداد كانت أم في غيرها من المدن ، لم يبق منها — ويا للاسف — ما يستحق الذكر ..! والاسباب التي أدّت الى محو تلك الآثار أو عملت على تلاشيها بهذا الوجه كثيرة ليس هنا محلّ شرحها . وقد نجم عن خرابها ضياع الفائدة على الباحثين اليوم من الوقوف على ما كانت عليه إبّان عزّها . ولولا ما بين يدينا من المؤلفات القديمة التي تصف لنا بعض تلك المباني وتشيد بذكر ما كان فيها ، لكانت معرفتنا لها شيئاً يكاد لا يذكر !

٧ — صيانة الآثار الاسلامية

شرعت دار الآثار العراقية ، منذ سنة ١٩٣٥ ، بصيانة وترميم عدد من هذه الآثار الاسلامية التي أفلتت من عوادي الزمن ، بعضها في بغداد : كمنارة جامع الخلفاء (في سوق الغزل الحالي) والقصر العباسي (في قلعة بغداد) ، والباب الوسطاني ، وخان مرجان

كما أنها وجّهت عنايتها الى طائفةٍ صالحة من الآثار الاسلامية القائمة خارج بغداد : كقصر الأُخَيْضِر (على مسافة ٥٥ كيلومتراً من جنوب غربي مدينة كربلاء)، ومسجد الكوفة ، والباب الأثري في واسط ، وجسر حَرْبىَ (على مسافة ٨٧ كيلو متراً من شمالي بغداد) وجامع الجمعة ومئذنته « الملوية » وجامع أبي دُلَف ، وقصر الخليفة . وهذه المواقع الأربعة الأخيرة قائمة في أنحاء سامراء

وقد يضيق بنا المقام لو نحاول ان نحصي سائر الآثار والمباني التي تناولتها يد الاصلاح فأحيت مناظرها وأوضحت معالمها . هذا من وجهة البنايات الشاخصة ! فاذا انتقلنا الى الآثار « الدفينة » وجدنا العمل يدعو الى الاغتباط : فقد أمكن القيام بحفريات منظمة في بضعة مواقع إسلامية من ذلك مدينة سامراء ومدينة واسط اللتان استمر التنقيب فيهما بضع سنوات فأسفر عن نتائج مهمة حيث أستخرج من كلتيهما مجاميع أثرية بعضها منقطع النظير وهناك مواقع أخرى — كالانبار والحيرة وتكريت وسنجار وغيرها — جرت فيها تنقيبات تمهيدية دلّت على غزارة ما تحويه من الآثار

٨ — متاحف العراق

والآن ننتقل الى الكلام على المتاحف في العراق : إن المبدأ الذي يسار عليه بشأن المتاحف في العراق ، هي ان كافة آثار البلدان العراقية تجمع في « المتحف المركزي » المقام في العاصمة بغداد . غير انه لما تكاثرت هذه الآثار وتزايدت هذا التزايد الهائل صار من المتعذر عرضها جميعاً في البناية الحالية لهذا المتحف ، لذلك وزعت بين عدة بنايات في بغداد

فالآثار التي تسبق الدور الاسلامي معروضة بأجمعها في « المتحف العراقي » الذي سبق الكلام عليه في هذا المقال [١]

كما ان الآثار العربية عرضت سنة ١٩٣٧ في « دار الآثار العربية » [٢] المنضّدة في بناية «خان مرجان» الأثرية . وهذه البناية شيدها أمين الدين مرجان [٣] سنة ٧٦٠ للهجرة

في هذا المتحف أنواع الآثار الاسلامية : فهناك الزخارف الجصية والفخار والخزف العادي والصبوغ والمزجج والحلي والمنسوجات والأحجار المكتوبة والمحاريب وقطع الأثاث والأواني المعدنية والمصنوعات الجلدية والخشبية والزجاجية ذلك فضلاً عن طائفة من المخطوطات العربية التي فيها ضروب الخط والزخرفة والتجليد والورق والألوان !

وهناك « القصر العباسي » وهو من بنايات أواخر العصر العباسي . اتخذ سنة ١٩٣٥ معرضاً [٤] يضمّ مخلفات المغفور له الملك فيصل الأول والصورات التي تمثل أهم البنايات الاسلامية القديمة في العالم

أما «الأسلحة القديمة» فقد عرضت سنة ١٩٣٩ في متحف ماثل في «الباب الوسطاني» وهذا الباب إحدى بنايات بغداد الأثرية وكان يعرف قديماً بباب الظفرية . ويلاحظ ان السور الذي كان يطوف ببغداد قد زال من الوجود بكامله كما زالت الأبواب التي كانت فيه، ولم ينج من جميعها سوى هذا الباب !

وفي هذه السنة ١٩٤١ افتتح متحف آخر في بغداد ، نعني به « متحف الأزياء القديمة » التي كانت تستعمل في مختلف انحاء العراق ثم زال استعمالها أو كاد . هذه هي فروع «المتحف المركزي » الموجودة في العاصمة . وهنالك « متاحف محلية » تقام في المدن القديمة ، أو بجانب بعض الأطلال الأثرية . والغرض من اقامتها هو ان تضم المواد الأثرية الموجودة في تلك المدينة أو فوق ذلك الطلل مما يتعذر نقله الى المتحف المركزي كما انها تضم الآثار المضاعفة المستخرجة من جهات العراق المختلفة

ومن هذه المتاحف المحلية « متحف بابل » وهو في أطلال بابل ذاتها وقد افتتح سنة ١٩٤٠ . و «متحف سامراء» في مدينة سامراء الحالية وقد تم افتتاحه سنة ١٩٤٠ ايضاً

وربما لن تمضي مدة طويلة حتى تشاهد متاحف محلية أخرى في بعض المدن العراقية ، كالموصل وكربلاء والنجف وغيرها (بغداد) كوركيس عوّاد

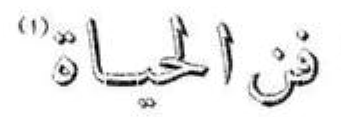
---

(١) لهذا المتحف دليل مطبوع بالعربية والانكليزية

(٢) لدار الآثار العربية دليل مطبوع بالعربية

(٣) هو من ولاة بغداد . كانت وفاته سنة ٧٧٤ هـ وله آثار أخرى غير هذا الخان

(٤) لهذا المعرض دليل مطبوع بالعربية والانكليزية كما أن للقصر العباسي ذاته دليلا آخر بالكتيب المذكور ...



فن الحياة [1]

للدكتور ابراهيم ناجي

قبل ان نتكلم عن فن الحياة ، نتناول بالتعريف بضع كلمات صارت من الشيوع بحيث لم نعد نفكر في معناها الحقيقي ، او على الأصح لم نعد نراجع أنفسنا في معناها ، وبكلمة أدق جرت مجرى المتعارف المألوف حتى لم نعد نعنى بالبحث في معناها

أقول ان محاضرتي الليلة هي عن فن الحياة . عنوان المحاضرة كلمتان — فن وحياة . فلنأخذ كلمة « الحياة » ولنسأل ما هي ؟ ؟ أجل ما هي حياتك أيها المستمع اليوم الي ؟ ؟ إني لواثق أني لو سألت أكثر الناس ما هي الحياة لتردد صدى السؤال ولسمعت همساً « الحياة ! الحياة ! ... » والغالب اني لن أسمع جواباً ، بل صدى سؤال . وسأرى اطراقة تفكير ، ونظرة ذاهلة ، ووجوم محيّر ، يطلب شيئاً من الامهال ليحسن الاجابة . ان مجرد البحث في تحديد كلمة الحياة أيها السادة يستدعي الالمام بعلوم عديدة ، ولن يضيع الانسان وقته عبثاً ، فهو مخلوق تجري « الحياة » في دمائه فكيف يجوز له ان يجهل كنه ما يجري في دمه ! الحياة عند علماء النفس، تفاعل بين عالمين — بين عالم خارجي ، هو الكون بما اشتمل عليه من العناصر المختلفة ، وعالم داخلي ، هو عالم النفس . فالأخذ والرد بين هذا وذاك ، الموازنة بينهما ، تكييف الضغط (Tension) العلاقة بين ذاتيتنا والموضوعية الكبرى — تلك هي الحياة . والكلام عن الحياة ، يقتضي إذن الكلام عن الناحيتين ، الخارجية والداخلية كالميزانية ببابيها ، مصروف وإيراد ، وكالأمة بسياستيها داخلية وخارجية . وكما يحدث دائماً حين تستعرض الدولة ميزانيتها او سياستها ، تراجع الدولة ماضيها وتوازنه بحاضرها لكي تدبر أمر مستقبلها، فنحن على هذا القياس ، يحسن بنا ان نستعرض أمر الحياة من مبدئها على أيّ نهج سارت وكيف تطورت ولماذا ، والى أي غاية تسير ، وهل هي تمضي قدُماً ، أم تنحدر وتضمحل ؟ لقد أحسن « هافيلوك اليس » كل الاحسان عند ما شبه الناس بجيش كبير ، في مقدمته بضعة قواد وفي مؤخرته خدمة الجيش وبين هؤلاء الجيش الغازي السائر على هدى

---

(١) خطبة ألقيت في جمعية الشبان المسيحية

شيئين: الغرائز والتقاليد. ووراء هؤلاء القادة الذين في المقدمة وهم الذين يمثلون العقل والتفكير يكشفون له الأسرار ويرودون له المجاهل فنسميهم الروّاد أي Pioneers ، السواد الاعظم من الناس بغير شك يعيشون كما يعيش هذا الجيش الذي يصفهُ هافيلوك اليس : وقد اختصر هافيلوك اليس معنى الحياة — الحياة بلا كلام عن فن ولا سمو ولا جمال — في هذه الغرائز والتقاليد التي تحكمت في القطيع على طول الاجيال وستتحكم فيهِ الى آخر الزمن . وكذلك اختصر كلمة الاخلاق او محاها ، إذ جعلها مرادفة للتقاليد والعادات ، وهو على صواب ، إذ أن الكثرة الغالبة من الناس ، هم عبّاد تلك التقاليد والعادات ، وكما قال الدس هكسلي انها تنتقل من جيل الى جيل حتى تتخذ على الزمن حرمة وهيبة ! . . .

والواقع ان هاته التقاليد والعادات ، وان اختلفت في الامم فما هي الاَّ قوانين ضرورة أو بالأصح هي القوالب التي تصب فيها الحياة ، لكي لا تتفكك أو تضمحل

هذا أمر السواد الأعظم من الناس ، فما شأن اولئك القادة الذين يتقدمون الصفوف ؟

ما حكم هذا المشعل السائر في الطليعة ، ما حكم هؤلاء العباقرة والنوابغ وأرباب الفنون ؟ هل أفلحوا في قيادة القطيع ؟ هل أمكنهم أن يشقوا له طريقاً أقوم مما رسمته الطبيعة بحكم الضرورة ؟ ان هاته الطليعة مكونة من « حفنة من المشرعين والفلاسفة والعلماء والشعراء » ولكنها حفنة تركت أثرها الخالد الذي لا يمحى ، ولكن بقي مجال كبير للتفكير ، هل هؤلاء الخالدون جعلوا من ذلك القطيع الذي يمارس الحياة ، هل جعلوا منهُ شيئاً آخر يرتفع بالحياة ويعيشها كفنٍّ ، لا كمجموعة رتيبة لا تتبدل من التقاليد والعادات ؟

أقول كفنٍّ فارجع كما بدأت الى كلمة طولها وعرضها يسعان هذه الاكوان جميعاً ! الفن . . . لقد حاضرت عن الفن في الجامعة [1] وقلت إذ ذاك ان الفكرة هي الجمال مستقراً ، والفن اخراج ذلك الجمال المستقر الى حيز الوجود اي أني قرنت الفن بالجمال

غير أني عدت فراجعت نفسي وراجعت كتبي . واخذت احدد علاقة الفن لا بالجمال بل بالحياة . فان ذلك أنفع وأجدى والانسان دائماً في حاجة إلى الخروج من دائرة تعاريفه لكي يوسع آفاقه ويخلص الى عوالم جديدة : وهذا دأبي دائماً . وقد تعلمته من فلسفة كيسرلنج في كتابه « فن الحياة » ! فصرت أراجع أحب التعاريف اليّ . وأناقش ألصق الآراء بنفسي وأقربها الى قلبي . فأخذت على مهل أرى ما كان يمنعني عنهُ تقيدي بآراء كنت أتحيز لها ولا أحيد عنها ! وذلك ما صنعته بموضوع الفن [2] . والواقع أني انتهيت الى رأي خاص

---

(١) راجع مقتطف ابريل ١٩٤١ صفحة ٣٩١ (الفن المجسم)

(٢) الجمال هو الفكرة مستقرة ، والفن إخراج ذلك الجمال الى حيز الوجود

وقد رأيت في ما راجعت من الكتب الحديثة التي تكلمت عن العلاقة بين العلم والفن موافقة تامة للرأي الذي انتهيت اليهِ وهو الذي سأشرحهُ لكم الآن وستجدون فيهِ كثيراً من الصواب والمنفعة وان كانت المنفعة آخر ما يعنى به الفن حتى قال شوبنهاور « ان الفن شيء لا يراد بهِ النفع وهذا سرّ عظمته ! »

ان التفكير يبدأ بأن نعلم (Conation) ثم ينتهي بأن نعمل. وكذلك العلم حكمته تدل عليه — اننا نعلم — اننا بواسطة العلم (Science) نعرف الحقائق فاذا أخذنا « نخلق » من ذلك العلم شيئاً فهذا هو الفن أي ان الفن ، هو العملُ والخلـق في اقتران وهذه المدنية هي خلاصة الفنون جميعاً أقصد بالمدنية الجانب المشيد المجسد منها لا الجانب الروحي فذلك في افلاس . ولماذا هو في افلاس ؟

قرأت كتاباً من أخطر الكتب يدعى العقل في التكوين The Mind in the Making لكاتب اميركي اسمهُ Robinson قال عنهُ ويلز انهُ أهم من مؤتمرات العالم وزعماء الدنيا جميعاً وفي هذا الكتاب تحليل لعلل العالم وارجاعها الى اسبابها . ورأيه يتفق مع ما قلته من ان العالم يسير في طريقين . أو هو محكوم بقوتين . التقاليد والغرائز في ناحية ، والعقل او التفكير في ناحية أخرى . وبعبارة اخرى قوة تحكم القطيع . وقوة أخرى تفكر له . القوة الاولى نسميها قوة التقاليد او الخُلـق، والثانية قوة العقل الخالق

القوة الاولى تتحكم في القطيع ولا تبارحهُ بل هي تقيدهُ وتكبلهُ . وهو نفسه يجعل للقيد قداسة وللتكبيل حرمة. ولقد وقف من هذا الامر موقف آبائه واجداده لم يتغير ولم يتبدل اي بقي عند همجيته الاولى . هو هو ذلك الرجل البدائي وان كان قد اكتسى حسن الثياب وسكن أفخم الدور ، وبدا رائع المظهر تحت طلاء من الاكاذيب المقررة وقناع من الآداب المتوارثة المصطلح عليها. وقد انغمس في ذلك المستنقع انغماساً تامًّا . وأبى ان يخرج منهُ أو يمد يده الى الذي يحاول ان يخرجهُ. هذا في ناحية — اما في الناحية الاخرى فعندنا قادة العالم من فنانين وزعماء وعباقرة . هؤلاء يتميزون عن القطيع بشيء واحد انهم رفضوا ان ينغمسوا في ذلك المستنقع وحطموا القيود وبدل ان يمرّوا بالصور وفي أيديهم مصباح باهت شاحب غمروها بنور الشمس فظهر معناها رائعاً واضحاً. ثم رفضوا ان يقفوا عندما قرر أسلافهم الوقوف عنده وكذلك رفضوا ان يغرقوا في ذاتيتهم وأن يظلوا في الدائرة الضيقة المحصورة من نفوسهم . اي انهم خرجوا من الخاص الى العام الشامل ، تحرروا من قيود الذات ليفهموا الموضوع وان كان تحررهم من تلك القيود لم يمح تلك الذاتية . . . ذلك طابع الفلاسفة والمفكرين والعباقرة من أول التاريخ . ولقد أصاب كيمرلنج في قوله انهُ لا فلسفة ولا شعر

ولا فن بدون هذه الذاتيـة القوية أولاً . ثم خروج الى الموضوعية ثانياً . أي ان الفنّان او العالم اوالشاعر او العبقري يجب ان يأخذ من داخله ليصل الاسباب بين الداخل وبين العالم الخارجي الكبير. ان هذا الخروج من الذات هو أول وسائل الامتزاج والفهم والـكشف . وبهذا صارت الحقـائق العلمية تكشف واحدة بعد أخرى — يكشفها العلم — ثم يسلمها للفن فيتناول تلك الحقائق فما يزال يجري عليها خياله وعبقريته حتى يجيء منها مزيج جديد. مخلوق، سمه كما شئت ، هو ذلك المخترع الذي هو حيناً بالراديو وحيناً آخر طيارة وهكذا .. . هذه الناحية من التقدم الفني ولا أقول العلمي في نجاح مطرد . . . وسيظل ذلك النجاح مطرداً ، كما سيظل وقوف الانسان في ناحية الهمجية البدائية ثابتاً

والنتيجة ان تختلف القوتان المسيطرتان،هذه جامدة كالقالب الذي ركب وانتهى.والثانية تتبدّل وتتشكّل وتتجدّد وبذلك تتقدّم . والخلاصة ان البدائي الهمجي المطلي بالأكاذيب يسلحه العلماء ويكسوه المخترعون وهو لم يستعد بعد لذلك أقل استعداد . ولا أخذ لذلك أقل أهبة فيسيء استعمال ما سلّح بهِ . وما ذلك الخراب والدمار الذي تَرونهُ إلاَّ النتيجة الحتمية للفرق بين قوتين — اخلاقية وقفت جامدة صماء — وأخرى علمية فنية تثب وثباً الى الأمام

هذا رأي روبنسون وهو رأي رائع جليل . غير ان العلاج عسير جدّاً . وخلاصتهُ ان يجيء قومٌ من هؤلاء القادة ويكونوا مستعدين لمحاربة ما اصطلحت عليهِ الاجيال جميعاً من ناحية الآداب والاخلاق فيفكرون فيها تفكيراً جديداً يستعرضونها كما يستعرضون الحقائق العلمية على ضوء آراء غير متحيزة لأحد ولا لشيء . ثم يبشرون بآرائهم ويكافحون في سبيل نشرها. نرد على روبنسون قائلين : وهل هؤلاء القادة لم يجيئوا في التاريخ ؟ ما رأيك في هذا الرسول وذاك وفي هذا المصلح الذي اضطهد وذاك الذي قتل ؟

يجيب — ونجيب معه ولز — نحن في حاجة الى ما يسمى بالانجليزية Team work —أي عمل اجتماعي —جهد عالمي مشترك يتنازل عن العصبيات والقوميات .... وأين هو ???

خلاصة هذا القول إن الفن قوة ديناميكية — قوة خلاّقة مبدعة وقد أبدى شوبنهاور هذا الرأي قائلاً : ان الفنان يتزوج موضوعه ليولـد من ذلك الزواج عمل فني . فاذا أردنا ان نصف الفن — قلنا هو القوة الخالقة ...

وفن الحياة اذن هو القوة التي تخرج من الحياة ثمرة ومن تجاربها شيئاً نفيساً أي ان فن الحياة هو ذلك الفن الذي يأخذ بيدنا الى آفاق غير منظورة وتجاريب غير معروفة فينشىء لنا أو يبدع من تلك التجاريب والآفاق شيئاً حقيقيـاً ملموساً نابضاً بالحياة والخير ....

ألمح سؤالاً يتردد على شفاهكم جميعاً .أليس أفراد القطيع متشابهين؟ أليسوا آدميين؟ وهؤلاء

القادة والزعماء، أليسوا كذلك آدميين ؟ فما الذي يميز هذا عن ذلك ؟ ولماذا تقول ان أفراد القطيع يمارسون الحياة كحياة غشيمة فجة . وأما الآخرون فيمارسون الحياة فناً رفيعاً سامياً ؟

يقتضي الرد على هذا السؤال بعض الالمام بمبادىء سيكولوجية مقررة . يجب ايها المتسائل ان تعرف ما هو الفكر الانساني وكيف يعمل وإلى أي صنف من الناس ينتمي هذا او ذاك . ان الفكر الانساني بإيجاز مجموعة من الغرائز المكدسة والكفايات والمواهب الموروثة تنمو في وسطها شجرة هي شجرة الذات او الـ Ego وهذه الشجرة انانية بطبيعتها ونحن على تعبير أدلر egocentric اي مركّز حول الذات، وان الطفل ليضع كل شيء في فمه ويكاد يلتهم العالم كله لو استطاع وليست المدنية والثقافة الا وسائل لكبح ذلك التركيز على صالح الذات . والواقع ان مقياس الفضيلة في نظري هو مقدار ما نستطيع ان نكبح من هذا الانصراف الى الذات . نحن لا نستطيع — ولا يجوز لنا — ان نقتل ذلك الحرص على الذات فهو أس الحياة والعمران ولكن الانصباب على الذات، هو أس كل ضعف وكل شقاء وهو آفة ذلك القطيع الذي حدثتكم عنه. ويكفيكم ان تنظروا الى حيوان كالحمار . ان له اطراقة طويلة معناها انصبابه على نفسه وهو لا يفيق الا حين يدعوه داعٍ كالأكل والشرب وهو لا يعبأ بالحمار الذي يجاوره ولا يهمهُ الا مطالبه الخاصة، الا حاجاته البدائية من غذاء وتناسل

أغلب الناس ايها السادة يمارسون الحياة على طريقة الحيوان . حياتهم انصباب تام على ما يخص نفوسهم . وقد يعيش الانسان في دائرة من عالمه الخاص ولا يرى الا بمقدار ما يحتاج اليه عالمه الخاص من الرؤية ولا يتحرك الا بمقدار ما يحتاج اليه عالمه الضيق، معاشرته لغيره مبنية على المنفعة الخاصة، حركاته جميعاً، تدفعهُ اليها ذاته المسيطرة عليه. وقد كتب برتراند رسل كتاباً ضخماً عن السعادة فأرجع كل اسباب الشقاء الى هذا الانصباب وأضيف أنا الى ذلك الانصباب عامل المنفعة

والفرق بين العبقريين وهؤلاء الافراد من القطيع هو ان العبقريين ينسون ذواتهم ولا يبالون بمنفعة خاصة . وكل نفع يجيء إنما يأتي عرضاً . ولذلك يكون أوقع وأسمى وأعم . ما من عبقري ولا فنّان نظر الى المنفعة الذاتية وانما انصرفت عبقريته أو فنه الى غرض كبير ينصب على درسه وفهمه فتأتي المنفعة رائعة جليلة وخالدة على الأيام . وقد كتب موروى كتابه عن فن الحياة فقسمهُ الى فنونٍ منها فن التفكير ومنها فن الحب ومنها فن العمل ومنها فن المشيب

وأنا أراها كلها فناً واحداً . وان تفرعت وتعددت الصور . وهذا الفن الواحد قائم على شيئين . العلاقة بين الفرد والوسط وعلى سيكولوجية الفرد بعينه . أما العلاقة بين الفرد والوسط فقد أفرد لها علماء النفس فصولاً طويلة منها ما كتبهُ هافيلوك أليس في كتابه الاخلاق والناس Manners & Men وما كتبهُ كيسرلنج عن العلاقة بين الفرد والنوع

وهذه العلاقة بين الفرد والنوع او بين الفرد والوسط هي بعينها مسألة الخروج من دائرة النفس وهي بعينها قضية الحب — فما الحب الا علاقة قوية بين اثنين على انها قضية لا يفصل فيها غير سيكولوجية الفرد وطرائق تفكيره ، وطرائق التفكير محكومة بالوراثة وبالتربية . والوراثة عنصر هام جداً لا يصح ان نغفله من حسابنا ونحن نرث الذكاء ونرث استعدادات خاصة واتجاهات نحو هذا الشيء او ذاك . يرث أحدنا بنية مستعدة لهذا المرض او ذاك . وأما التربية فكبح لجماح الغرائز وبخاصة غريزة التركيز على الذات وليست بأي حال قتلاً لهاتيك الغريزة التي لا يمكن ان تموت. والتربية ايضاً تدعو الناس الى فهم الغرض من التربية وهو سلامة التفكير — وكل الكتب التي كتبت عن فن التفكير كدمنت وشافتسبري وغيرهما نصت أولاً على ان التفكير السليم هو التفكير المرن المستعد لقبول اشياء جديدة والتطلع الى آفاق مرتقبة وان الانسان ليحار في بساطة العبقري اذ يراه كالطفل يجد في كل شيء عجباً وفي كل مسألة ألف وجه . ونصت ايضاً هاته الكتب على ان التفكير يجب ان يؤدي الى العمل والى الاثمار . ان جينه كان يدعو التفكير العقيم — النشاط الفاقد الصفة — وكان يشبه ذلك الفكر العقيم « بالنحلة » التي يضربها الصبية في الطريق فتدور وتدور ثم تقع منفلسة . ولكي يكون التفكير مثمراً؟ يقول موروى في كتابه انه يجب ان يحدد الهدف على شرط ان لا يكون الهدف اسعاد انفسنا وعلى شرط ان لا يكون قائماً على مصالحنا الشخصية . ويقول ان الانسان منا في هذه الدنيا يشبه السبَّاح على وجه الماء كلما كثرت مثقلاته كلما غاص الى قعر الماء وكلما صعب عليه ان يسبح الى الشاطىء . فمن الشجاعة ان نقطع ما يعوق تفكيرنا ويثقله ولو فكر الواحد منا لوجد ان تلك المثقلات اليومية صغيرة وكثيرة بحيث ان أكثرنا يقيد بها وتمنعه عن أي هدف كبير

أما فَنّ الحب ، — فيجب أن يقوم على فهم ما هو الحب — فتعريف الحب هو أنهُ « نصف يبحث عن نصفه الضائع » . . . أي أنهُ بحثٌ ونصَبٌ خلف عزيز مفقود . نصبٌ يتطلب التضحية ، وأكثر الناس يفهمون من الحب أنهُ أخذٌ بغير إعطاء فيعصرون الذين يحبونهم اعتصاراً ، وأساس هذا الأنانية ، وأعود فأكرر كما قلت أولاً أنهُ الانصباب على النفس ومحاولة اعطائها كلّ شيء وريها من ماء حياة الآخرين حتى ينضب ينابيعهم

الآن ، قد ذكرت لحضراتكم ما هي الحياة وما هو الفن وبينت لحضراتكم كيف تكون الحياة فناً ، وبينت آفة القطيع الآدمي ، ألا وهي الانصباب على الذات بغير تفكير في الآخرين ، وبينت لحضراتكم أساس الصداقات والمحبات ، وهو نكران الذات

وبينت لحضراتكم علة فساد العالم ألا وهي بقاء الأخلاق في قوالب جامدة مع تطور العلم والفن تطوراً سريعاً ، ولعلي اذ وصفت الداء قد وصفتُ الدواء لذلك

اقوال تؤثر

١ — اذا المرء أفشى سره بلسانه ولام عليه غيره فهو أحمق
اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه فصدر الذي يستودع السر أضيق

الأحنف بن قيس

٢ — من ظلم نفسهُ كان لغيره أظلم . ومن هدم دينهُ كان لمجده أهدم

٣ — أريد رجلاً اذا كان في القوم وهو أميرهم كان كبعضهم . وإذا لم يكن أميرهم فكأنهُ أميرهم

الامام عمر

٤ — قال سقراط ان الطالح يحيا ليأكل ويشرب والصالح يأكل ويشرب ليحيا

٥ — قيل لديماراتس هل صمتّ لأنك أحمق أو لأنك حُصِرت عن الكلام فأجاب ان الأحمق لا يصمت

٦ — قال سقراط انهُ ليس اثينيًّا ولا يونانيًّا ولكنه من أهل العالم

٧ — قال كاتون أفضل ان يقول الناس لماذا لم ينصب لهُ تمثال على أن يقولوا لماذا نصب لهُ

٨ — سئل طاليس ما أصعب شيء فقال ان يعرف المرء نفسه وسئل ما اسهل شيء فقال ان ينصح لغيره

٩ — كان سقراط يقول اقل الناس حاجات أقربهم الى الآلهة

١٠ — سئل حكيم عن رجل غنيٍ بخيل فقال انهُ لا يملك امواله ولكن أمواله تملكه

١١ — قيل لارسطوطاليس ما أفدت من الفلسفة فقال ان أفعل غير مأمور ما يفعله غيري خوفاً من القانون

١٢ — دخل ديوجنيس الحكيم مكاناً قذراً فقيل لهُ في ذلك فقال ان الشمس تدخل الأماكن القذرة ولا تتنجس

علم النفس

وأثره في الصناعة الحديثة

للاستاذ سي ، بي ، فرزبي [١]

نقلها الى العربية : حسن السلمان

يختلف هذا البحث عما تقدمه من الابحاث . تلك تناولت القواعد النظرية لعلم النفس الحديث بينما اختص هذا بشرح الناحية العملية الاقتصادية منه . ولهذا سميت هذه الناحية من علم النفس بعلم النفس المهني أو علم النفس الصناعي وهي وإن كانت حديثة التكوين وتاريخها لا يزيد على بضع سنين ، ذات تأثير عظيم جداً في تطور الانتاج الصناعي

تصوير تاريخي

قطع علم النفس أو علم العقل والسلوك خلال الخمسين السنة الماضية شوطاً بعيداً في مضمار التقدم والتطور وكان قبل ذلك لا يختلف عن الفلسفة اختلافاً بيناً فكلاهما بحث عن تعليل مظاهر الحياة العقلية تعليلاً غيبيّاً . فلما ترك الباحثون النفسيون اساليبهم القديمة العقيمة وانتهجوا نهجاً تجريبيّاً في البحث تطورت علومنا النفسية تطوراً سريعاً حتى أصبح السيكولوجي المعاصر لا يكتفي بدراسة نواحي التفكير وبابتكار النظريات الخاصة بعمل العقل بل يحاول دائماً توسيع أفق معارفه بالركون الى التجارب العلمية التي تضع حدّاً لكل حدس أو تخمين . ولم يقتصر عمله في مختبره على دراسة المظاهر العقلية وحدها بل تعداها الى دراسة المظاهر الفسيولوجية التي تلازمها وتصاحبها وتكون في منزلة المرآة العاكسة لصورها . فكان من نتائج ذلك ان استخدمت القواعد السيكولوجية لدراسة فعاليات مختلف نواحي الحياة العملية . وكان لزاماً على الباحث ترك مخبئه الذي كان يلجأ اليه كلما اراد الاستسلام الى التفكير والاستبطان متجهاً نحو المختبر والى التجارب العلمية . فعمّ انتاجه البيت والمدرسة ونفذت مبتكراته الى المستشفى والمعمل

ان علم النفس علم عملي حريٌّ بأن يدعى بعلم النفس المهني ، ذلكم لأن الباحث فيه

(١) C. B. Frisby سكرتير المؤسسة الوطنية لعلم النفس الصناعي

لا يقتصر انتاجه العلمي على الصناعة وحدها ولا يشمل ميدان عمله المصانع دون غيرها بل يضم اليهِ المخازن التجارية بأنواعها المختلفة والحوانيت بأشكالها المتباينة ودور المال كبيرها وصغيرها وجميع ما له علاقة بالمستخدمين والمستخدَمين

ويرجع تاريخ علم النفس الصناعي في بريطانيا الى سنوات الحرب العالمية الماضية عندما تشكلت « جمعية صحة عمال العتاد »[١] وأخذت تتحرى البحث عن ساعات العمل والوقت الضائع وما يصيب العمال من مرض ومن أضرار جسيمة وغير هذه من الأمور المختصة بصحة المستخدمين وبسلامتهم . ولسبب من الأسباب انحلت هذه الجمعية في عام ١٩١٨ وتشكلت بدلها « لجنة البحث عن التعب الصناعي »[٢] من بين اعضاء « مجلس البحث الطبي »[٣] فتغير مجرى اهدافها واتجه الى البحث عن علاقة ساعات العمل وأساليبه بالتعب الذي يقاسيه العمال من جراء كثرة ضغط العمل عليهم ، مراعياً في ذلك الكفاءة الصناعية للعمال وأساليب تحسن صحتهم . وفي عام ١٩٢٩ اتخذت هذه اللجنة لنفسها اسم « لجنة البحث عن الصحة الصناعية »[٤] لأنها اعتزمت تغيير وجهة مهمتها وتوسيع ميدان عملها حتى شملت جهودها جميع المشكلات الناشئة عن نقص الجدارة المهنية . ولقد تأسست قبل ذلك التاريخ اي في عام ١٩٢١ مؤسسة أهلية لدراسة المشكلات النفسية الصناعية بعيدة عن تأثيرات السلطة الحكومية سميت « المؤسسة الوطنية لعلم النفس الصناعي »[٥] . ويرجع الفضل في ظهور هذه المؤسسة الى جهود كل من الدكتور مايرز[٦] مدير المختبر السيكولوجي بجامعة كمبردج يوم ذاك والمستر ويلش[٧] احد المشتغلين معه في ذلك المختبر . ولقد نمت هذه المؤسسة بفضل كفاح ذينك الرائدين حتى عمت أبحاثها جميع المشكلات الصناعية المهنية

وفي الولايات المتحدة الأميركية قامت « الهيئة السيكولوجية »[٨] بالاشتراك مع « اتحاد جماعة البحث »[٩] بأبحاث على غاية من عظم الشأن وذات علاقة واسعة بمختلف شؤون العمال . الاَّ ان أسباب تقدم علم النفس الصناعي في هذا القطر تعزى الى جهود اساتذة الجامعات وكفاح القائمين على شؤون الجمعيات الصناعية ، نخص بالذكر منهم مونستر برغ[١٠] وبنجهام[١١] ولنك[١٢] الذين وجهوا جل جهودهم الى دراسة الجدارة المهنية والى وضع مقاييس ثابتة لانتخاب العمال . ولقد قام السيكولوجيون في المانيا بنصيبهم في إحياء الحياة الصناعية بعد ما منيت بهِ من شلل خلال

---

(١) Health of Munition Worker Committee (٢) Industrial Fatigue
(٣) Research Board (٣) Medical Research Council (٤) Industrial Health
(٥) Research Board National Institute of Industrial Psychology
(٦) Dr. C. S. Myers (٧) Mr H. J. Welch (٨) Psychlogical Corporation
(٩) Personnel Research Federation (١٠) Munsterberg (١١) Bingham
(١٢) Link

سنوات الحرب العالمية الماضية . ففي عام ١٩٢٢ بلغ عدد الشركات التي أسست لنفسها مختبرات سيكولوجية نيفاً وعشرين شركة ، كما ان الحكومة الالمانية يوم ذاك لم تألُ جهداً لتأسيس عدد ليس بقليل من هذه المختبرات في مختلف المناطق الصناعية من البلاد . وفي روسيا لاقى علم النفس الصناعي اهتماماً عظيماً من الحكومة السوفيتية . فأسست عدداً كبيراً من المختبرات السيكولوجية التي تعد بلا شك من أغنى امثال تلك المختبرات بتجهيزاتها وأوفرها نصيباً بعدد المشتغلين بها من الباحثين النفسيين : ولسنا مغالين اذا ما قلنا ان جل البلاد الاوربية اهتمت الاهتمام اللازم بهذه الناحية من علم النفس ، ولكننا لا نجد متسعاً في هذا البحث المقتضب لذكر جميع المشتغلين بهذا الميدان والذين اقاموا علم النفس الصناعي على دعائم ثابتة

اهداف علم النفس الصناعي

ان اول الاهداف التي يستهدفها علم النفس الصناعي تعميم السعادة الانسانية بين مختلف طبقات العمال وأصحاب المهن . ومن الطبيعي ان ذلك لا يتم الاَّ بالبحث للتوفيق بين مؤهلات ممتهني المهن وأمزجتهم وبين نوع الحرف التي يحترفونها . وبالبحث لاصلاح الظروف التي يتم بها العمل ولتقليل المصاعب الناشئة عن ضغط الاعمال على العمال ايضاً . ومما لا ريب فيه أن العامل الذي وهبتهُ الطبيعة المؤهلات اللازمة للعمل والمزاج الملائم لمقتضياته والذي يقوم بعمله في مكان توافرت فيه جميع شروط الاضاءة الجيدة والتهوية الكافية وجميع أسباب الراحة والذي توطدت علاقته برفاقه من العمال وبرؤسائه فأحبهم وأحبوه، لهو عامل اكثر اطمئناناً وأبلغ سعادة وأحكم كفاءة من غيره من العمال . واذا ما ساءت العوامل النفسية وغير النفسية المحيطة بالعامل ضاعت جميع محاولاته الجسمية والنفسية وتبددت جهوده العقلية سدىً وقد وجد الباحثون النفسيون ان اصلاح تلك الظروف ينمي تلك الجهود ويعزّز من تلك المحاولات ويجعل العمال يتجهون في اعمالهم وجهة منتجة فيتضاعف الانتاج ويجود نوعهُ ويحيى العمال في اطمئنان وفي سعة في العيش

ولم تؤد تلك الاصلاحات الى مضاعفة الانتاج وجودة النوع فحسب ، بل قللت من تغيب العمال عن العمل ومن تمارضهم وخلصتهم من كثير من الامراض التي تنتابهم، وأبعدت عنهم الحوادث الفجائية التي كثيراً ما أزهقت أرواحهم فرملت أزواجهم ويتمت اولادهم ، وحسنت من علاقة العمال بأصحاب الاعمال فقللت الاختلافات وتلافت الاضرار الناجمة عن تلك الاختلافات

ولم يقتصر علم النفس الصناعي على الاهداف المارة الذكر . فميدان عمله الواسع يشمل جميع نواحي الحياة المهنية حتى ان قسماً منهُ اختص بالبحث عن اجور العمال بالنسبة لنوع العمل الملائم لمؤهلاتهم الموافق لأمزجتهم . فليست مؤهلات جميع العمال واحدة وليست أمزجتهم

متماثلة ومنذ ان لوحظت الاختلافات بين الامزجة والمؤهلات احتلت الفروق الفردية بين العمال محلاً ظاهراً في علم النفس الصناعي

ان تحليل مختلف المهن تحليلاً سيكولوجيًّا هو ولا ريب اولى مراحل القيادة المهنية الناجحة والانتخاب المهني الصائب . وبغير ذلك يعسر على المهيمنين على شؤون العمال أن يقودوا عمالهم ويسيّروا اتباعهم ويوجهوهم بحسب ما تدعو مصلحة العمل . ونقصد بالقيادة المهنية تقدير القابليات الكامنة للافراد ومعرفة صفات أمزجتهم والاطلاع على ما اكتسبوا من معارف ومن تثقيف . وبذلك يتسنى للقائمين على شؤون العمال أن يصوروا لأنفسهم صورة جلية عن اولئك العمال ، تمكنهم من المقارنة بين مؤهلاتهم وبين مقتضيات المهن التي ستسند اليهم . اما انتخاب المهن فنعني به قياس درجة حصول العامل على بعض الصفات والمؤهلات التي تمكنهُ من القيام بمهام المهنة الخاصة التي ستوكل اليهِ خير قيام

وتقاس مؤهلات العمال باختبارات خاصة ابتكرت لتلك الغاية . فتعيين قابلية القيادة بين العمال تتبع اختبارات تصور قابليات المتحنين العامة احسن تصوير . اما في الانتخاب المهني فيتبع نوع آخر من الاختبارات التي تكشف الستار عن قابليات العمال الخاصة التي يقتضيها نوع العمل الذي سيوكل أمره اليهم . ولدينا شواهد ليست بقليلة العدد تدل على ما لاتباع الاساليب السيكولوجية من شأنٍ في تعيين قابلية القيادة المهنية وفي الانتخاب المهني أيضاً

فقد دلت الابحاث الدقيقة التي اجرتها « المؤسسة الوطنية لعلم النفس الصناعي » ان نسبة عدد الناجحين في أعمالهم من الذين اتبعوا استشارتها من الاولاد والبنات كانت ٩٣٫٣ ٪ منهم . أما الذين أهملوا نصحها وأعرضوا عن ارشادها فكانت نسبة الناجحين منهم ٥٣٫٩ ٪ فقط

وتتضح أهمية الاساليب السيكولوجية لاختيار العمال من مقارنة النجاح الذي أصابهُ العمال الذين تمَّ اختيارهم بحسبها ، بالنجاح الذي أصابه أولئك الذين اختيروا بغيرها من الأساليب . فقد تمَّ انتخاب ٧٠ ٪ من عمال أحد المصانع بالاستعانة بالاختبارات السيكولوجية وانتخب ٣٠ ٪ منهم بأساليب قديمة لا علاقة لها بالبحث النفسي . وبعد مدة وجيزة فصل ست وثلاثون من عمال ذلك المصنع إما لقلة كفاءتهم وإما لثبوت عجزهم عن العمل . ولدى التدقيق اتضح ان سبعة من العمال المفصولين ، أي ١٩٫٥ ٪ منهم ، كانوا من الذين تمَّ اختيارهم بالطرق السيكولوجية الحديثة ، وأما الباقون وعددهم ٢٩ عاملاً ، أي ٨٠٫٥ ٪ منهم فكانوا من الفئة التي تهاون أصحاب المصانع في أمر اختيارها

ويمكن ان يعين مقدار نجاح العمال في مهنهم بجمع الدقيق من الاحصاءات عن الغلطات التي يرتكبونها ، وعن أيام مرضهم وعن الزمن الذي يبددونهُ بلاجدوى وعن عدد الحوادث

الفجائية التي تهدد حياتهم من حين لآخر . وقد دلت أمثال هذه الاحصاءات على ان العمال الذين تمَّ اختيارهم باتباع اختبارات قياس القدرة وقابلية النجاح هم أثبت العمال على العمل وأقلهم تعرضاً لتلك العوامل الخافضة للانتاج المسببة لكثرة الاضرار . كما أنها أثبتت كثرة حدوث تلك العوامل كلما ازداد انتخاب العمال سوءاً وقل الاهتمام بالاختبارات السيكولوجية

والتدريب المنظم أمر أساسي لمن ينشد سرعة العمل والاتقان فيه. فانتباه العمال المستجدين لما يقوم به زملاءهم الأقدمون ، واسترشادهم بنصح الملاحظين او من يشرف على أعمالهم يدعو الى بطء تعلمهم أسرار الحرف التي سيحترفونها ولقلة حذقهم اياها ، ولاجتنابهم الغلطات التي اعتاد الآخرون ارتكابها . وهناك نواميس سيكولوجية يؤدي اتباعها الى سرعة تعلم العمال مهنهم ، ولاتقانها كلَّ الاتقان . وقد أثبتت التجارب ان تدريب من استجدَّ من عمال أحد مصانع الشيكولاتا تدريباً منظماً انقص زمن بلوغ الكفاءة العليا في المهنة من ثمانية عشر شهراً الى ثلاثة أشهر ونصف شهر فقط

العوامل المؤثرة في بيئة العمال

ومما أيدته النتائج ان بيئة العمال ذات تأثير بعيد المدى في صحة العمال وسعادتهم وفي كفاءتهم العملية . وأولى القضايا المتعلقة بمحيط العمال التي عالجها السيكولوجيون في أبحاثهم مشكلة الاستضاءة . ولهذه المشكلة ثلاث نواحٍ مهمة : كثافة الاضاءة ونوعيتها وشدة وهجها . فالاستضاءة الرديئة تؤثر في أعصاب العين وتعرض العمال لاجهاد عصبي كبير ولمختلف أمراض العيون . وإذا ما أصلح من أمر الاستضاءة زاد الانتاج زيادة لا تقل عن ٢٥ ٪ وقد تعرض العمال للاخطاء ولارتكاب كل ما من شأنه ان يلحق اضراراً في العمل والمعمل . وشبيهة تأثيرات التدفئة المضطربة والتهوية غير الكاملة ، بتأثير الاستضاءة . فما وجد ان رفع درجة الحرارة في أحد مناجم الفحم سبعة درجات فرنهايت ضاعف عدد المرضى من العمال بنسبة ٧٤ ٪ ولوحظ أيضاً ان اعتدال درجة حرارة الهواء في المعامل والمناجم ذو تأثير نفسي عظيم في العمال خاصة وان الهواء المحيط بأجسامهم ، الخالي مما تعلق به من مواد عضوية او كيميائية ، أشد مفعولاً من الهواء الذي يستنشقونه . والحقيقة ان التهوية والتدفئة من الأمور المهمة التي تبعث الراحة والاطمئنان في نفوس العمال وان اختلاف نوع العمل يقتضي تغييراً في كل من هذين العاملين . وقد لاقى الصوت ، وهو من أركان بيئة العمال المادية، عناية فائقة من الباحثين . فقد دلت تجارب « لجنة البحث عن الصحة الصناعية » على ان صحة العمال في مصنع من مصانع الحياكة تحسنت تحسناً ظاهراً بعدما استعمل العمال صمامات أذنية تقيهم شرَّ الأصوات المزعجة المتولدة من احتكاك الآلات

ولم يهمل النفسيون البحث عن الزمن الذي يتطلبهُ انجاز عمل من الاعمال ، وعن الحركات التي يأتيها العمال عند ما يتنقلون من موضع الى آخر او عند ما يتناولون المواد التي يتداولونها في أعمالهم . وقد ظهر من بحثهم هذا مبلغ علاقة الاختلافات الفردية بين العمال بأساليب عملهم وبقابلياتهم كما أنها أثبتت بطلان القول القديم بوجود سبيل واحد فقط يؤدي الى إنجاز عمل واحد انجازاً كاملاً . فثمة أصول متعددة تتبع لانجاز الاعمال وللحصول على أطيب النتائج . واختيار الاصول الملائمة للشخص من الامور التي تكشف عن خلقه وفطرته المثلتين في شخصيته

كذلك توصلوا من دراستهم لزمن العمل ولحركات العمال، الى معرفة تلك الاصول الاساسية وأثبتوا امكان التخلص من كثير من الحركات المضنية غير المجدية ، ومن تبديد الجهود التي لا طائل وراءها بتدريب العمال تدريباً دقيقاً وباتباعهم لتلك الاصول . فقد تؤدي قلة العناية بأمر ترتيب المواد على مناضد العمل الى اضطرار العمال للقيام بعدد من الحركات المتعبة المضنية كما ان ثقل الآلات وعدم العناية بأمر وضعها كثيراً ما يسبب تبديد جهود لا داعي له

ويتضح مما تقدم أن السيكولوجي يهتم بكثير من الأمور التي يحسبها أصحاب المعامل ومراقبو الاعمال وحتى العمال أنفسهم تافهة لا تستحق العناية والاهتمام . وذلك لأنهُ يدرك من تجاربهِ أن تلك الأمور التافهة ذات أثر فعال في مقدار الانتاج وفي نوعهِ وتستنفد جزءًا لا يستهان بهِ من الفعاليات التي يضطر لصرفها العامل في عمله اليومي

أما التعب فمن الامور التي يتعذر على الباحث قياسها قياساً مباشراً خاصة وان الجهاز الذي ابتدعاه دوجلاس وهولدين (١) لا يجدي نفعاً في قياس ما يتطلبهُ العمل من جهد فسيولوجي. وتدل الاقيسة الذاتية المستمدة مما صرح به العمال المتقدمين في المهنة على ان تزايد سرعة العمل المتأتية من تزايد سهولته تدعو الى توفير في الجهود التي يبذلها العمال لانجاز اعمالهم . ولدينا كثير من الشواهد التي تدعم هذا الزعم . فقد تزايد انتاج احد المناجم ١٥ ٪ بعد ما تدرب العمال على القيام بعملهم بسرعة وبسهولة تامتين. وتزايد انتاج احد مصانع الشيكولاتا بنسبة ٣٦ ٪ بعد ما ابدلت مقاعد العاملات باخرى جديدة سهلت عليهم الحركة ومكنتهم من تناول ما يحتاجون اليهِ من المواد بدون كبير عناء

وقد عني السيكولوجيون بدراسة اساليب تنظيم العمل وعلاوة على دراستهم ما يتبعهُ العمال من طرق في أعمالهم . وتتألف عوامل تنظيم العمل مما يأتي : سعة المعمل ، ونوعيته ، ووسائط الانتقال بين اقسامه ، وساعات العمل ، ووحدة العمل . فلسعة المعمل ولوسائط الانتقال تأثير في ما ينهض به العمال من اعمال . فضيق المعمل ورداءة الوسائط تعيق العمال عند ما يريدون

(١) Douglas—Hladane Apparatus

الانتقال من موضع الى آخر في داخل المعمل وتسبب لهم حوادث جنائية تلحق بهم اضراراً بالغة

اما مجموع ساعات العمل في الاسبوع الواحد فقد تناقص تناقصاً كبيراً خلال الاعوام العشرين الماضية نتيجة للتجارب التي أثبتت ان الملل الذي يشعر به العمال من اثر طول الوقت يسبب انخفاض مستوى الانتاج . وقد اوضحت ذلك تمام التوضيح الدراسات الدقيقة التي قامت بها « جمعية صحة عمال العتاد » خلال أيام الحرب العالمية الماضية . ومما عني به البحاث أيضاً الأثر الذي تتركه فترات الاستراحة خلال ساعات العمل في نوع الانتاج وفي مقداره . فقد شوهد ان الانتاج يزيد زيادة تتفاوت بين ٥ ./. و ٢٠ ./. عندما يسمح للعمال بالتمتع بفترات استراحة خلال مدة العمل

ومن أغرب ما استرعى نظر الباحثين النتائج التي توصلوا اليها بدراستهم «وحدة العمل» ونعني بوحدة العمل مقدار ما يستطيع العامل انجازه منه خلال مدة معينة . وقد ظهر مما قامت به « المؤسسة الوطنية لعلم النفس الصناعي » من دراسات تختص بأحد معامل المربيات ان انقاص كمية الفواكه التي توضع أمام العاملات المكلفات تصنيفها أدى الى زيادة سرعة التصنيف واضاعفة كميات ما يصنف منها دون ان تظهر على العاملات آثار التعب او الملل . كما انهُ شوهد ان كميات العمل في احد مصانع اللاسلكي تضاعفت وان الانتاج فيهِ ازداد زيادة كبيرة بعدما جزّىء العمل الذي كانت تقوم بهِ العاملات اجزاء صغيرة . وعلى هذا فان كميات العمل ومقادير الانتاج ذات علاقة وثيقة بوحدة العمل

ومن العوامل المؤثرة في بيئة العمال السيكولوجية نظام اجور العمال ، ونظام ترقيتهم وطرق مراقبة العمال اثناء قيامهم بواجباتهم . وربما كان التنظيم العام في المعمل أكثر هذه العوامل تأثيراً في بيئة العمال النفسية . فاذا ماحصل خلل في نظام ضبط الانتاج او في نظام حفظ المخازن تعرقلت مجاري العمل عن سيرها الطبيعي واذا ما نقصت مادة من المواد وعجز المصنع عن تحضير ما يحتاج اليه العمال من مواد أولية في الوقت المناسب توقف دولاب العمل مدة وتأخر العمال عن اتمام واجباتهم . وهذا ولا ريب ضرر في المعمل لا يستهان به ، وضياع في المال وفي الجهود . فالارتباك في تنظيم العمل يدعو الى تبديد الجهود والى خلق العراقيل للعمال ولأصحاب العمل معاً

ويكاد يجمع الباحثون على ان نسبة اجور العمال وثقتهم ببقائهم في أعمالهم من البواعث الاساسية لتشجيع العمال ولكثرة اهتمامهم بواجبات عملهم . وان ننس فلا ننسى الشعور بالفخر الذي كان يتملك أصحاب المهن اليدوية الأقدمين عند ما كانوا يحققون عملاً من الأعمال . ومما يؤسف له اننا لا نجد أثراً لهذا العامل المهم في مصانعنا الحديثة . ومع ذلك

في الامكان خلق الشعور بالتفوق وبالفخر في نفسيات عمالنا بمكافأة المتفوقين منهم على قدر ما ينتجه كل منهم من وحدات العمل خلال زمن معين . وفي الأمكان التخلص من السأم الناشىء عن القيام بعمل واحد مدة طويلة ، بتحريك نفوس العمال بحوافز خاصة بين حين وآخر وبذلك تتزايد رغبة العمال قوة ويتضاعف انتباههم لشؤون عملهم شدة . فان احصاء الانتاج مثلاً خلال فترات العمل يبعث روح التسابق في نفوس جماعات العمال ويذكي رغبة التفوق في أفئدتهم

ومما لا ريب فيه ان مراقبة العمال اثناء قيامهم بأعمالهم أهم ما يؤثر في المحيط النفسي للعمال، فالرقابة الرديئة تدعو الى شعور العمال بالبؤس والمرض وبالاضطراب النفسي وبعدم الاستقرار وبقلة الكفاءة . وقد اعتاد أهل الصناعة ترقية العمال المتفوقين في أعمالهم الى مصاف المراقبين الذين تعوزهم الدراية في المراقبة وتنقصهم الروح الطيبة في الارشاد او في النصح . والمراقبة المجدية تتطلب أكثر من المهارة في العمل والدقة في الصنعة. فهي تتطلب معرفة العمال فرداً فرداً ومقدرة خاصة على مزج اللطف والشفقة بحب النظام . وهي ولا شكّ أهم حلقة من حلقات الرقابة في المصانع . وقد عني السيكولوجيون بدراسة تأثير الرقابة في صحة العمال وسعادتهم وكفاءتهم عناية كبيرة . فأثبتت التجارب التي أجراها إيلتون مايو بالولايات المتحدة على عدد كبير من العمال لمعرفة استجابتهم لنوعية الرقابة إن سوء الرقابة يدعو الى تفشي المرض بين العمال والى كثرة تغيبهم عن العمل والى ارتكابهم لكثير من الاخطاء والهفوات

وخلاصة القول ان الصناعة الحديثة متجهة بجميع نواحيها نحو الآلية المطلقة . وينشأ عن هذا الاتجاه تعقيد في مشكلات العمال وتزايد في المسؤوليات الملقاة على كواهلهم سواء أجسمية كانت تلك المسؤوليات أم نفسية . وكما ان الآلة خلصت العمال مما كانوا يقاسونه من تعب ومن استرقاق ، فانها خلقت لهم مشكلات كثيرة نتيجة للاستمرار في العمل المتكرر وفرضت عليهم استدامة تركيز انتباههم وسلبتهم قابلية الابتكار التي كانوا يتمتعون بها عندما كانوا يصنعون الاشياء بأيديهم . فاذا لم يكترث أصحاب المعامل لازالة التوتر العصبي من نفسيات عمالهم ، ساء حالهم وتردى عملهم . وليس بعسير على أصحاب الاعمال ملافاة تلك النقائص بحسن اختيارهم للعمال وباسناد الاعمال الى من له قابلية لها، والى من له جلد على العمل المتواصل المتكرر ، وباستعمال وسائل تشجع العمال وتغريهم بمزاولة عمالهم المتشابهة المضنية مدة طويلة . وبالسماح للعمال بمزاولة ضروب الرياضة والالعاب والاستماع لأنغام الموسيقى في فترات راحتهم التي يجب ان تتخلل ساعات العمل المتواصل . وعلى الصناعة الحديثة ان تركن الى السيكولوجي كلما نشأ اضطراب في العمل او نشب خلاف بين العمال وأصحاب الأعمال ، فهو وحده الذي يستطيع حل أمثال تلك المشكلات



اثر طاغور [1]

في ذهن كاتب انكليزي بعد مقابلته

[كتبت خاصة للمقتطف]

— ١ —

ليس باليسير ان توصف العظمة حقَّ وصفها :

يقف الانسان وقفة روعة وتهيُّبٍ امام مشهد غروب الشمس او عنان جبل ذاهب في الفضاء او سهل فسيح يغمره الثلج . فاذا حاول ان يصف شعوره عجزت عن ذلك الألفاظ

هذا هو الشعور الذي يملك على الانسان عقلهُ ونفسهُ في مجلس شخصية فذة . اننا نحسُّ بمعاني القوة تنطلق منها حتى نكاد نلمسها فاذا حاولنا وصفها وتحليلها إبنا بالخيبة . وكثيراً ما يكون هذا الشعور مقلقاً هدَّاماً لكرامتنا النفسية اذ يجعلنا نحسّ بضعفنا وعجزنا . على انهُ يضرب حولنا ، احياناً ، نطاقاً من الطمأنينة والسلام ، ويبعث في نفوسنا شعوراً بالجميل وتقديراً للمنة ، اذ نحسُّ بأن ضعفنا بالغاً ما بلغ ازاء هذه الشخصية الطاغية علينا بقوتها ، لا يمنعنا عن السمو بعيوننا الى الاعالي

وعظمة السر رابندرانات طاغور ، الشاعر والمعلم والفيلسوف الهندي ، من هذا القبيل

انك تشعر بسكون الكون في مشيته الوقورة . انك ترى روعة الزمن وقد جرّد من عتوهِ في خصلهِ الفضية وفي قسمات وجههِ التي تحسبها منحوتة في العاج . انك تسمع موسيقى الاجرام في غنة صوتهِ الموسيقي . انك تثق بأن الثقافة لا تعرف حدوداً من الوطن والجنس اذ تصغي الى حديثهِ الانكليزي الفصيح ، وتتملى من معرفته الوافية بأدبٍ غير أدب قومه وفن غير فنهم وحضارة غريبة عن حضارتهم

— ٢ —

قال : كيف نستطيع ان نحكم على بيان عصرنا لمعرفة الآثار التي قد تنعم بنعمة الخلود ؟ ان بيان كل عصر هو نتيجة عوامل واحوال مهدت له السبيل في عصور سابقة ، وهو بدوره يمهد السبيل لبيان جديد في عصر تالٍ . فلا بد لنا من موضع للنظر المشارف لنستطيع الحكم على الانسان وأسلوبه في الافصاح عن نفسيته . والمسافة في الزمان والمكان

---

(١) ولد في ١٨٦١ وتوفي ٧ اغسطس ١٩٤١

ل مندوحة عنها هذا الحكم لان القرب يحير البصر لكثرة ما يراه من الدقائق فيمتنع علينا النظر الشامل وتتعذر رؤية الكل كلاً لا أجزاء متفرقة من كلٍّ

سألني كثيرون عن أحب الشعراء اليَّ وأي رجل أعظم الرجال في نظري . وانما لا نستطيع ان نحصر التفوق في شخصٍ واحدٍ لكثرة المتفوقين . تلقيت علومي في العصر الفكتوري فأنا أجيد لغتهُ وأفهم أدبه ولكنني لا أستطيع ان أفهم تعبيرات الأدباء المحدثين . قد تكون هذه التعبيرات غاية في الابداع وقد تنطوي على صفات تضمن لها الخلود كالصفات التي تمتاز بها أشعار شلي وكيتس [1] ولكنني لا أفهمها

ان لغة كل أمة كالأمة ذاتها . فاما ان تتقدم وإما ان تموت . انها لا تستطيع ان تجمد في مكانها . فالانكليز يتكلمون بلغة تشوسر [2] الآن . ولو أتيح لتشوسر ان يطلع على أساليب الكتابة في العصر الأليصاباتي — عصر شكسبير وفرنسيس باكون — لحسبهُ رطانة محدثة . هكذا ينظر أدباء العصر الفكتوري الى أساليب الادب الحديثة

وفي لغة كل شعب تتردد أصداء الزمان ! لقد انقضى عهد التجوال الشعري في الريف والطمأنينة في البعد عن المدن . ونحن الآن في غمار عهد لطنين السندان فيه واصطخاب الآلات أعظم شأنٍ . فالنغمات المتسقة الغنائية التي كنا ننشدها في امسنا الغابر قد انقضى عهدها وحلت محلها العبارات المقتضبة والشعر المطلق في يومنا هذا القلق المضطرب . وليس هذا بالأمر الذي يؤسف له . فكل فترة يزكو فيها الانتاج العقلي والفني تعقبها فترة راحةٍ تخلد فيها النفس الى السكينة لتستجمَّ قواها فاذا بدأت فترة الانتاج التالية اتصفت أساليبها بالعنف وبالرجوع الى السذاجة مستوحية دوافع البشر الاولية في الخلق والابداع

***

ان الثقافة الحقيقية لا تعرف حدوداً من البلدان والأجناس . فهي تحيط بالأرض كالجو وكما نقع في الجو على مناطق مختلفة من حرارة ورطوبة ولكنها على اختلافها متصلة الاطراف نقع كذلك في الثقافة على مناطق متصلة رغم اختلافها . فالشرق والغرب على اختلافهما متصلان حتى ليفنى أحدهما في الآخر في بعض النواحي . لأن العالم لا يعرف الآفاق الضيقة

فالشرق تغلب عليهِ الطمأنينة يخالطها الادراك الصبور الذي يؤمن بأن الزمن هو الكاشف العظيم . والغرب وثّاب متحمس يدفعهُ عنف الشباب

على ان كلا الشرق والغرب باحثان وجوهر الثقافة والجمال الذي يبحثان عنهُ واحد

---

(١) شلي وكيتس شاعران انكليزيان من أكبر شعراء القرن التاسع عشر

(٢) شاعر انكليزي من القرن الرابع عشر

الغرب : يقيم الحدود بين الطبيعة والطبيعة البشرية
والشرق : يؤمن بالوحدة الاساسية في كل الخليقة
الغرب : كعالم يشرح الطبيعة
والشرق : كفيلسوف يسلّم بها
الغرب : يرى بعيون الشباب الوثّاب ، عيون المادة
والشرق : يتأمل بعيون الروح التي لا يدركها الهرم
ومع ذلك فالذي يشاهدانه واحد — وهو الوحدة الخالدة — وحدة الانسان والعالم الذي يعيش فيه

***

كلما تقدمنا في السن قويت بصيرتنا الروحية فنستطيع أن ننظر الى الاشياء نظراً مشارفاً فنفهم عللها . فيحملنا ذلك على تفضيل أيام حداثتنا الزاهية على أيام كهولتنا أو شيخوختنا التي نعاني اعباءها فنشير الى أيام الشباب متحسرين : — كان زمن الشباب كذا وكذا . والواقع أن الحال لم تَسُؤْ والايام الماضية لاتفضل الايام الحاضرة حكمة وسعادة وانما بعدنا عنها يمكننا من رؤية أثرها رؤية مجملة شاملة . وهذا ما لانستطيع أن نفعله في أيامنا هذه لأننا مازلنا فيها إذ رسم الحائك لا يُرى الاّ متى تمت حياكة الثوب

ويغلب أن تكون الشهرة نتيجة الفرصة السانحة وكثيراً ماتشبهها في مداها !

قد يكتب أحد الشعراء نشيداً وطنيًّا في أثناء نشوب حرب طاحنة فتعصف بالجمهور كعاصف لأن الجمهور يرى في سطوره ونبراته صوراً للشعور الذي يجول في صدور أفراده . فيحكم على ناظمه بالنبوغ والتفوق ويرفعهُ على الاكتاف وتصبح كلماتهُ تتردد في كل نادٍ وتسمع أنغامهُ الحماسية في وقع الاقدام العسكرية !

ثم تضع الحرب أوزارها ويمتد رواق السلام فينجب شاعر جديد ينشد أفراح الطمأنينة ومسرات السكينة فيهب نسيمها اللطيف على صدور اكتسحتها من قبل الحماسة في الحرب ، فتُنسى الموسيقى العسكرية التي وضعها الاول ويتاح لمتطرٍ جديدٍ ان يرتفع فوق أكتاف الجماهير الى ذرى الشهرة . ولكن ما أقل الذين يتاح لهم ان يكون نصيبهم الفهم والتقدير من أبناء جيلهم وأبناء الأجيال التالية . ومع ان الغرب يمدُّ أيدي الجشع ترى الشرق قابعاً قانعاً منتظراً تحقيق غرضهِ — وغرضهما معاً انما هو — الحق !

— ٣ —

قال الكاتب : ولما غادرت دار طاغور أدركت أنني في حديثي معهُ تكلمت مع مَنْ يعلم

فوائد الرياضة

البدنية في الصحة

للدكتور شوكت موفق الشطي

تكوّن العضلات نصف الجسم تقريباً فاذا لم تحرك تحريكا كافياً يضطرب غذاؤها وتكثر الانقاض السمية فيها فتؤذيها وتؤذي الجسم معها. تحرك الرياضة قسماً كبيراً من عضلات الجسم فتقبضها وتبسطها فتسرّع بذلك جولان الدم والنفا وتيسر حرق الفضالات المتراكمة في البدن وتسهّل تسيير الفضول الباقية فيه وتساعد على إفراغها لذلك تعد الرياضة البدنية متى كانت رشيدة وتابعة للقواعد الصحية عاملاً من اقوى العوامل فعلاً في تنشيط الجسم وتحسين نمائه وتنسيق جمال اعضائه اذ انها العلاج الناجع للهزيل النحيف والدواء الشافي للفضاج السمين والوسيلة الصالحة للخلاص من كثير من ضروب التشوه وانواع الاوضاع المعيبة

ينشط بالرياضة القلب فيزداد عدد دقاته ويكثر دفعه للدم الشرياني ويغزر توارد الدم الوريدي اليه ويؤدي ذلك كله الى تنبه جميع الاجهزة وخصوصاً المفرغة منها وأخصها اعضاء الجهاز الهضمي إذ تتأثر عضلات الحجاب الحاجز والبطن وتستفيد الكبد فيسهل افراغ الصفراء منها ومن مرارتها ويقوى عمل المعدة والامعاء فينتظم الهضم ويزول القبض ويعرق الجسم من جراء الرياضة ويكثر مقدار البول

هذا ولما كانت الأعصاب مشرفة على حركات العضلات فانها تقوى بالرياضة ويقوى معها الدماغ والنخاع وباقي أقسام الجهاز العصبي وما يرتبط به من غدد واعضاء وتقوى أيضاً العظام والمفاصل وينتج من ذلك كله تحسن اضطراب الضغط الدموي وطرد السموم المتراكمة وافراغ النفاوات واصلاح الجسم اصلاحاً عامّاً لذلك كانت الرياضة ضرورية للانسان في كل سن ولا سيما لمن كانت مهنتهم عقلية لا تستدعي حركة زائدة

يختلف فعل الرياضة باختلاف السن والجنس وطرز الحياة والارتكاسات الشخصية. تبدو الرياضة غريزة ملازمة للانسان منذ نعومة اظفاره فتحريك الطفل يديه ورجليه وهو ما زال في الاقمطة واللفائف وبذله جهد طاقته للإفلات منها ثم حبوه فلعبه وركضه ووثبه نوع

من الرياضة يناسب سنه ويلائم طبعه، تقتضيه حياته وتتطلبه نموه وترعرعه . وكذلك الحيوان فان لعب كباره وصغاره رياضة لازمة لها وما على الانسان وهو الحيوان الناطق الاّ ان ينمي هذه الغريزة ويضع لها قواعد وأنظمة فلا يُفرط ولا يفرّط فيها ولذلك عظم شأنها وظهرت لها مكانة في جميع النفوس

ان الرياضة ضرورية للانسان لازمة له في دور الرضاع وفي مراهقته وفي شبابه وكهولته وشيخوخته فلا ينمو الولد الاّ بتوافر ثلاثة عوامل له وهي غذاء صحيح كافٍ وهواء نقي يستنشقه وعيشة هادئة تتخللها دراسة وألعاب رياضية موافقة لسنهِ . ولا يسعد الشبان الاّ بشعور داخلي يساورهم فيجعل الحياة لهم طيبة والعيش فيها لذيذاً . وأهم أركان هذا الشعور الصحة والنشاط ولا يكتسبان الاّ بتحسين حالة الجسم والعقل بالاعتدال في الاغتذاء والرياضة فان في ذلك سر السعادة في الشباب . وكذلك الكهول فانهم اذا مارسوا الرياضة حفظوا قوة شبابهم وأضافوا اليها رجحان العقل وتخلصوا من امراض بطوء الاغتذاء العديدة المزعجة . واما الشيوخ فلا تتحسن حالتهم وتدفع عنهم ظواهر الشيخوخة المزعجة الاّ برياضة تناسب سنهم وغذاء صالح يحسنون هضمه وتمثيله

والرياضة ضرورية أيضاً للاحتفاظ بسلامة العقل فتأثيرها في تنمية الملكات العقلية صريح وجلي . ولذلك قيل العقل السليم في الجسم السليم . ويناسب هذا القول العربي الذائع قول جان جاك روسو ما معناه: أن التفكير الصحيح يتطلب رياضة الاطراف والحواس والاعضاء التي تعد بحق وسائل تنمية الذكاء والعقل وتدعم أيضاً دعوة هيربرت سبنسر القائلة بحفظ صحة الجسم بالرياضة تأميناً لحسن السير في نماء العقل ونشاطه

وتعلم الرياضة الانسان اعتياد ظلف العيش والخشونة والقناعة والجرأة والشجاعة وتؤمن تناسق الأعضاء واستمرار القوة في كل شيء وتخلص من شر كثير من الأمراض وتحفظ الجمال

***

يتضح مما سبق أن الرياضة تحسن حال الوظائف الغريزية وتنمي المواهب العقلية وتكسب الانسان صفات أدبية سامية وتحفظ جمال الجسم وتناسقه وتخلصه من التشوه باصلاحه وتقي الانسان الاصابة بكثير من العلل والآفات وتنجيه من شر كثير من الأمراض والادواء. وقد ثبت طبيّاً أن الرياضة بالحركة عامل في الشفاء أشد نفعاً في كثير من الاحيان من العلاج والدواء فلا غرو والحالة هذه أن تعد حاجة الانسان الى الرياضة كحاجته الى الغذاء وأن تحسب عملاً أساسيّاً من الأعمال الاسبوعية أن لم يكن من الأعمال اليومية

كلمة تاريخية

عن الرياضة عند العرب بعد الاسلام

أشار القرآن الكريم الى الرياضة في سورة يوسف بقوله «أرسلهُ معنا غداً يرتع ويلعب وإنّا له لحافظون» وقوله « انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا » . وفي هذين القولين ذكر للعب والرتع وهو التنعم باللعب والرياضة والمسابقة عَدْواً أو بالرمي وكلها من وسائل التربية البدنية. وقد عرف أيضاً علماء العرب وفلاسفتهم وحكماؤهم وأطباؤهم أثر الرياضة في الجسم والنفس والعقل فدونوا ذلك في أقوالهم وكتبهم وحثّ النبي صلى الله عليهِ وسلم على تعاطي الرياضة وأسباب الفروسية فسابق راجلاً وراكباً ورمى وصارع وأجاز المراهنة في بعض الرياضيات ترغيباً فيها وتنشيطاً للقائمين بها كما تبين ذلك الأحاديث الشريفة الكثيرة الواردة في هذا الصدد . ويروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهُ أقوال تعد من أحسن الوصايا في الرياضة وأروعها معنىً وأكثرها بلاغةً منها قوله : اتّزروا وارتدوا وانتعلوا واحتفوا واياكم والتنعم وعليكم بالشمس فانها حمام العرب وعليكم بالمعدية او قال تمعددوا [1] واخشوشنوا [2] واخلولقوا [3] واقطعوا الركب [4] وارتموا [5] الأغراض . وقال لن تخور قواكم ما نزوتم [6] ونزعتم [7] وهكذا ظهر بين العرب رجال أقوياء استطاعو ان يباهوا الأمم بقوتهم كما يتضح من القصة التالية :

أراد ملك الروم ان يباهي العرب والاسلام فبعث الى معاوية رجلين أحدهما طويل والثاني قصير شديد القوة فدعا للطويل بقيس بن سعد بن عبادة فنزع قيس سراويله ورمى

---

(١) تمعددوا أي الزموا المعدية وهي عادة معد بن عدنان في أخلاقه وزيه وفروسيته

(٢) اخشوشنوا أي تعاطوا ما يوجب الخشونة ويصلب الجسم ويصبره على الحر والبرد والتعب والمشاق فان الرجل قد يحتاج الى نفسه فيجد عنده خشونة وشدة وقوة وصبراً ما لا يجدها صاحب التنعم والترفه بل يكون العطب اليه أسرع

(٣) اخلولقوا أي تهيأوا كما يراد منكم وكونوا خلقاً جديرين بفعله لا كمن ضيع أركان وأسباب فروسيته وقوته فلم يجدها عند الحاجة

(٤) الركب : جمع ركاب فأمرهم بذلك لئلا يعتادوا الركوب دائماً بالركاب

(٥) ارتموا الاغراض : امرهم أن يكون قصدهم في الرمي الاصابة لا البعد

(٦) النزو هو القفز على ظهور الخيل دون الاستعانة بالركاب

(٧) النزع هو الرمي بالقوس

بها اليه فلبسها الطويل فبلغت ثدييه فلاموا قيساً على نزع السراويل فقال

أردت لكي ما يعلم الناس أنها سراويل قيس والوفود شهود

وكيلا يقولوا خان قيس وهذه سراويل عادٍ أحرزتها ثمود

واني من القوم اليمانيين وما الناس الأ سيد ومسود

ثم دعا معاوية للرجل الشديد القوة محمد بن الحنفية نخيرهُ بين أن يقعد فيقوّمهُ او يقوم فيقعدهُ فغلبهُ في الحالتين وانصرفا مغلوبين

***

وقد جاء عن رياضة الصبيان في كتاب احياء علوم الدين للعلاّمة الامام الغزالي قوله :—

وينبغي ان يؤذن للولد ان يلعب لعباً جميلاً يستريح اليه من تعب المكتب فان منع الصبي وارهاقه الى التعلم دائماً يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش . ويقول العبدري الذي عاش في القرن الثامن للهجرة في كتابه مدخل الشرع الشريف ينبغي ان يلعب الأطفال بعد انصرافهم من المكتب لعباً جميلاً حتى تذهب عنهم آثار التعب والملل وحتى يستأنفوا دروسهم بشوق واهتمام. ومما قاله ابن سينا في هذا الصدد: الرياضة حركة ارادية تضطر الى التنفس العظيم المتواتر والموفق لاستعمالها على جهة اعتدالها في وقتها بهِ غناء عن كل علاج تقتضيه الأمراض المادية والأمراض المزاجية التي تتبعها وتحدث عنها . وبيان ذلك هو انا كما علمت مضطرون الى الغذاء وحفظ صحتنا هو بالغذاء الملائم لنا المعتدل في كميته وكيفيته وليس شيء من الأغذية بالقوة يستحيل بكليته الى الغذاء بالفعل. بل يفضل عنه في كل هضم فضل والطبيعة تجتهد في استفراغه ولكن لا يكون استفراغ الطبيعة وحدها استفراغاً مستوفى بل يبقى لا محالة من فضلات كل هضم لطخة وأثر فاذا تواتر ذلك وتكرر اجتمع منها شيء لهُ قدر وحصل من اجتماعه مواد فضلية ضارة بالبدن من وجوه احدها انها ان عفنت أحدثت امراض العفونة ، وان اشتدت كيفياتها أحدثت سوء المزاج ، وان كثرت كمياتها أورثت أمراض الامتلاء ، وان انصبت الى عضو أورثت الأورام ، وبخاراتها تفسد مزاج جوهر الروح فيضطر لا محالة الى استفراغها، واستفراغها في أكثر الأمر انما يتم ويجود اذا كان بأدوية سمية . ولاشك انها تنهك الغريزة ولو لم تكن سمية أيضاً لا يخلو استعمالها من حمل على الطبيعة . ثم يقول ما خلاصتهُ : والرياضة أمنع سبب لمكافحة الامتلاء بانعاش الحرارة الغريزية وتعويدها البدن الخفة وذلك لأنها تثير حرارة لطيفة فتحلل ما اجتمع من فضل كل يوم وتكون الحركة معينة في ازلاقها وتوجيهها الى مخارجها فلا يجتمع على مرور الأيام فضل يعتد بهِ

وبحث علي بن العباس المجوسي عن الرياضة بحثاً مطولاً قسمها فيه الى فاعلة ومنفعلة كما هي معروفة اليوم وذكر تأثير كل نوع منها

وقال رئيس أطباء مرستان نور الدين الشهيد ما ننقله بتصرف: بقاء البدن بدون غذاء محال، ولا غذاء يصير بجملته جزء عضو. بل لا بد ان يبقى عند كل هضم أثر ولطخة اذا تركت وكثرت على طول الزمن اجتمع شيء له قدر يضر بكيفيته وبكميته والرياضة تمنع تولدها لذلك فان للرياضة حظاً عظيماً في حفظ الصحة وهي تعود البدن خفة ونشاطاً وتجعله قابلاً للغذاء وتصلب المفاصل والأوتار والرباطات فتقوى على الأفعال وتأمن من الانفعال وتؤمن من جميع الأمراض المادية

ولم يقصر أدباؤهم في الدعاوة الى الرياضة بأسلوب رائع بديع وأدب رفيع. ومن ألطف أقوال أدبائهم في الرياضة عامة والتروض بالصيد خاصة كلمات المولى الفاضل شهاب الدين محمود ابن سليمان الحلبي الكاتب حيث يقول: —

والرياضة تبعث النفس على مجانبة الدعة والسكون، وتصونها عن مشابهة الحمائم في الركون الى الوكون، وتحضها على أخذ حظها من كل فن حسن، وتحثها على إضافة الأدوات الكاملة الى فصاحة اللسن، وتأخذ بها طوراً في الجد وطوراً في اللعب وتصرفها في ملاذ السمو في المشاق التي يستروح اليها التعب فتارة تحمل الأكابر والعظماء في طلب الصيد على مواصلة السرى، ومقاطعة الكرى، ومهاجرة الأوطار، ومهاجمة الأخطار، ومكابدة الهواجر، ومبادرة الأوابد التي لا تدرك حتى تبلغ القلوب الحناجر. وذلك من محاسن أوصافهم التي يذم المعرض عنها، واذا كان المقصود من مثلهم جد الحرب فهذه صورة لعب مخرج اليها منها. وتارة تدعوهم الى البروز الى الملق، فيمتسفون اليها الدجى اذا سجى، ويقتحمون في بلوغها خرق النهار، اذا انهار، ويتنعمون بوعثاء السفر في بلوغ الظفر، ويستصغرون ركوب الخطر في إدراك الوطر، ويؤثرون السهر على النوم، والليلة على اليوم، والبندق على السهام والوحدة على الالتئام

***

يلاحظ القارىء مما مرّ ان أقوال المتقدمين في صدد الرياضة تتفق وأقوال المتأخرين وان آراء علماء الغرب وأدبائهم في فوائد الرياضة وطرق تأثيرها تحاكي آراء حكماء العرب وعلمائهم فالى هؤلاء يرجع شرف البحث والتحقيق والتمحيص والتدقيق. وقد قصدنا بذكر قطر من بحر وغيض من فيض مما قالوه وبينوه ابتغاء رد الفضل الى ذويه والسلام

معركة الاصلاح

الاجتماعي

قادتها ، خططها ، أسلحتها ، جنودها ، ميادينها [1]

لمحمد العشماوي بك

سيداتي ، سادتي . بناتي ، أبنائي :

إنه لمن حسن حظي أن تتاح لي الفرصة لأتكلم كي أحقق غرضين :

الأول — ان أنفس عن نفسي . فان مشكلة الاصلاح الاجتماعي ، وقصور العناية به وضعف الثورة من أجله لما يرد النفس عن هدوئها ويجعلني محدثاً ثورياً بدل أن أكون محاضراً . والغرض الثاني — أن أؤدي ديناً عليّ لمدرسة الخدمة الاجتماعية ، فقد كنت أول المتكلمين في حفل افتتاحها ، بيد أني تكلمت وكيلاً لوزارة المعارف مكلفاً من قبل وزيرها بصفة رسمية ، ثم توثقت بيني وبين المدرسة صلات المودة والتعاون بعد خروجي من الوزارة ، على غير العادة المألوفة التي تقضي بتراخي العلاقات بعد ترك المنصب ، فأبى وفاء هذه المدرسة إلا أن يقلب الأوضاع فتتوشج بيني وبينها الصلات حيث تنتفي المصلحة لاحيث تدعو ، فتلقاء هذا الخلق الكريم أؤدي واجب التحية لهذه المدرسة في مستهل عامها الخامس ، راجياً لها مطرد التوفيق

وقبل أن أحدثكم في شأن معركة الاصلاح الاجتماعي أريد أن أدفع وهمين : الاول ما أفاضه عليّ وكيل وزارة الشئون الاجتماعية الاستاذ حسونة بك من ثناء ، فانه مؤدٍّ بي الى حرج حينما يقاس إليه ما أنا متحدث به وستجدون هوة بين قولي وثنائه إذ تسمعون حديثي فلا يروعكم بشيء مما أفاضه عليّ ، فلتردوا ثناءه الى نبالة شخصه وكرم صداقته ، ورأي الصديق مفروض فيه المبالغة . وإنه لمن مصلحتي أن أتجرد مما نحلني إياه من الفضل شاكراً له سخاءه ، وأن أطالعكم بحقيقتي في ثنايا قولي . فأما الوهم الآخر الذي أريد دفعه فهو أني ألقي محاضرة . والحق أني لم ألق محاضرة ، في حياتي قط إلا في القانون أعني مادتي وميدان علمي . ولست في مضمار الاصلاح إلا هاوياً من الهواة . ولا يجوز

---

(١) الكلمة التي افتتح بها عزته العام الخامس لمدرسة الخدمة الاجتماعية يوم ٤ أكتوبر ١٩٤١

أن يسمى الهاوي محاضراً . ولعلَّ من الواجب أن تحتج مدرسة الخدمة على أن أحشر في زمرة أساتذتها المحاضرين المتخصصين ، على حين أني إنما أطالعكم في حديثي بفورة من فورات النفس أتيحت لها الفرصة أن تندلع

***

وربما كان مما أغراني بقبول التحدث اليكم في معركة الاصلاح الاجتماعي أني أقوم على رأس جماعة تمنى بالاصلاح وتعمل له، فبيننا وبينكم أمتن الروابط وآكد العلاقات القائمة على تداول الرأي وتبادل المعونة . ومن حقي إذن أن آتي اليكم حاملاً علم الجماعة التي أرأسها، فانها بما أنشأته من مؤسسات الطفولة وبما ترعاه من الشؤون الاجتماعية تسايركم الى غاياتكم النبيلة في الاصلاح ، وتنهض بقسط من مهماتكم في الخدمة العامة . فأنا في مقامي هذا أؤدي لكم واجب الشكر وواجب المعونة معاً . وبذلك أكون دائناً ومديناً في وقت واحد، فتقع المقاصة وأخرج بريء الذمة لا لي ولا عليَّ

ولكم أن تسألوني وقد اخترت كلمة « معركة الاصلاح الاجتماعي » عنواناً لحديثي لماذا آثرت هذا الوصف ؟ والحق أني متأثر بعاملين : الاول أننا في عهد حرب تناذرنا أنباؤها المنكرة في الصباح وتغير علينا نوائبها الجائحة في المساء . فقد مني بها العالم أجمع لا فرق بين محارب ومحايد . ولا منجاة منها في بر أو بحر أو سماء . وقد سخرت لها كل ما في الدول من قوى وزجت فيها كل وسائل الدفاع والهجوم ، وجندت لها العلوم والعقول والجسوم . فلا غرو إن تأثرنا في جو الحرب بلغة الحرب . ولا بدع إذا استعملنا ألفاظ القتال الدائرة في أفواهنا لنصل بأحاديثنا الى القلوب . والعامل الثاني أنَّ معركة الاصلاح معركة حقة فليست هي وحي خيال أو وهم شاعر ، وإذا قام الخلاف على معركة الحرب ، أهي بين الخير والخير، أم هي بين الشر والشر، أم هي بين الخير والشر . فانه لاخلاف على ان معركة الاصلاح قائمة بين الخير والشر لا غير . ومن ثمَّ فهي مقطوع بمشروعيتها يجب أن نؤازرها وأن نعمل في ميادينها حتى نكفل لها الفوز والنصر

ولو تقصينا الموازنة بين معركة الحرب ومعركة الاصلاح الاجتماعي لوضحت لنا وجوه الشبه بينهما . فكلتاهما لها خططها وأهدافها ، ولها قادتها وجندها ، ولها ميادينها ومناطقها . فان معركة الاصلاح الاجتماعي تعتمد على أسلحة متنوعة كالشأن في معركة الحرب، وهي أسلحة تتفاوت بتفاوت المستوى الاجتماعي لكل أمة، ولكنها تلتقي في وجوب اجتماع قوى الأمة كما تجتمع في الحرب قوى الدولة . وهي كذلك معركة يجب أن يكون لها طلائع من الكلام

والدعاية كما في الحرب . فواجب أن يمهد المصلح لها . وأن يعمل على تقبل الشعب لجديد الاصلاح . وهي معركة تبتدئ بالقول وتنتهي بالسلاح ، وما أشبهها بالاسلام إذ بدأ بالدعوة وانتهى بإعمال السيف ، وقد أجاد شوقي بك تصوير ذلك في قوله :

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفواً كل ذي حسب تكفل السيف بالجهال والعمم
والشر إن تلقه بالخير ضقت به ذرعاً وإن تلقه بالشر ينحسم

***

على أن معركة الاصلاح الاجتماعي تختلف عن معركة الحرب بأنها كما أسلفت معركة مشروعة وبأنها لا هدنة فيها ولا صلح . فان امّل العالم وضع الحرب أوزارها على أي وجه فانه يجب أن نقطع الأمل من انتهاء معركة الاصلاح ما دام الشر قائماً ، وسيقوم حتى تقوم الساعة

ومن عناصر الخلاف بين المعركتين ان معركة الاصلاح للتعمير لا كمعركة الحرب للتدمير ، نصيب المهزوم فيها الخراب ، وحظ المنتصر فيها الخسران لا محالة . فما يراد بمعركة الاصلاح إلاّ تعمير البلاد أخلاقاً وعقولاً وحياة ، وإلاّ استقامة الامر للحاكمين والمحكومين على السواء

ولما كانت معركة الاصلاح للتعمير فقد كانت اسلحتها للتعمير ايضاً لا كالأسلحة الحربية المدمرة ، وإذن فتلك خير المعارك التي يشتغل بها الناس اذا أرادوا كسب المعركة الكبرى . وليت شعري كيف تستقبل معركة الحرب امة نهك الفقر قواها وتعطلت من الاخلاق نفوسها . حتم أن تكون معركة الاصلاح سابقة لمعركة الحرب حتى تكفل أسباب الانتصار

وعلينا اذن ان نخرج على العرف فنسمي معركة الاصلاح المعركة الكبرى ونعتبر ما عداها صغرى المعارك . وإني ليحضرني في تأييد ذلك حديث للرسول صلوات الله عليه في عودته من إحدى مغازيه إذ قال : « رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر » . يريد مجاهدة النفس ومغالبة الأهواء . فالاصلاح الاجتماعي هو الجهاد الاكبر بلا مراء

ولقد وضح لكم أن لمعركة الاصلاح أوضاع المعركة الحربية . ومن هذه الأوضاع إعداد القادة . ففي معركة الحرب يعدون بالدراسة والمرانة معاً . وقد يبرز بعض القادة كبعض المصلحين تحفزهم همة وثابة ، ونفس قوية ، دون إعداد سابق أو تمرين . بيد أن المعارك الحربية الحديثة لم يعد يصلح لها هذا الضرب من القوّاد . فلا بد للقيادة من دراسة لفنون

الحرب . واتساع علم بطبائع الأرض وطبقات الجو واعماق البحر، الى تفهم لنفسيات الشعوب ومعرفة بمواردها ومصادرها . وكذلك الأمر في معركة الاصلاح ، شد ما تحتاج الى قادة متخصصين . فلم يعد يكفي في ذلك أن تعرض لمصلح فكرة فيستخدم بلاغته للتأثير في محيطه فان ذلك منته حتماً الى الاخفاق . وكيف تتمثلون قائداً لا يفقه شيئاً من شؤون البلاد ولا من نفسيات أهليها ولا من وضعها الاقتصادي ولا من العوامل التي تؤثر في الدعوة رفضاً أو قبولاً . ولهذا وجب أن يسبق القيادة في ميادين الاصلاح احاطة بمشكلات المجتمع وبواعث الانحلال فيه ووسائل النهوض به

ومن الطبيعي وأنا في صدد تكوين القيادة أن تعرض لي على الفور مهمة وزارة الشؤون الاجتماعية، فقد ألقيت اليها مقاليد القيادة . ثم جندت البلاد كلها تحت لوائها . ومن العبث أن نكل الى هذه الوزارة مواجهة المشكلات على وجه التفصيل . فذلك عنت لا تستقل به هيئة . فالوزارة كما أتصورها في مركز القيادة حولها هالة من رجالات الفكر وذوي الرأي يدرسون وسائل الاصلاح في الأمم الناهضة . ويراعون الفوارق بين البيئات المتباينة . فان نوعاً من الاصلاح في بيئة قد لا ينتج في بيئة أخرى . وحين تتهيأ للوزارة هذه الكفايات يتسنى لها أن ترسم الخطط وتضع البرامج مستنفدة ما يتطلبه العمل من وقت متسع وجهد متصل ومال موفور . فعلى هذا الأساس تصورت وزارة الشؤون الاجتماعية وعلى هذا الأساس تمثلت عملها ، وعلى غير هذا الأساس لا يمكن أن يكون للوزارة أثر محمود . ولا يفوتني في هذه المناسبة أن أندد بالآراء المرتجلة في الاصلاح تلك التي لا برنامج لها ولا خطة يقوم عليها أمرها . فهي قد تلفت الانظار وتستهوي الافئدة . ثم لا يلبث أثرها أن يتزايل ، شأن كل عمل لم يعين هدفه ولم تراع ملابساته ولم تستكمل دراسته ، فمن رأيي الذي أجهر به أنهُ يجب أن تتوافر أولاً كل الوسائل التي تمكن وزارة الشؤون الاجتماعية من رسم خططها . لا يضن عليها في سبيل ذلك بمال ولا بعقول تجارب ولا بأية وسيلة تعين على الدرس واستقرار الرأي والاطمئنان الى بلوغ الغاية وإصابة الهدف

وللتمكين من ذلك كله يجب أن يكون للوزارة سلطان يستوعب سائر الوزارات والمصالح ، لا تقف في طريقه عقبات تنازع الاختصاص ، فانهُ لا فائدة من تنفيذ البرنامج الاصلاحي المستقر غير المرتجل إلاّ بتوحيد القيادة وتقويتها وإعطائها حق الفرض والتنفيذ ، وإلاّ بانطواء جهود الحكومة والشعب تحت راية واحدة ، يبذل كل من خفقت عليهم ما حباه الله من رأي أو مال

فأما خطط المعركة فقد ألمعت اليكم أن الاصلاح لا خطة له في مصر . وإنما هي مرتجلات

من الآراء والأفكار تواجه بها كل مشكلة حين يشتد تعقدها. وما أحوجنا الى تجنب الارتجال في حل ما بين أيدينا من مشكلات تداعي الاسر ، والتشريع الناقص ، واضطراب القوت ، وبلبلة التعليم . فان تفكيرنا في ذلك وأمثاله مرتجل لا ينهض على أسس من الدراسة المنظمة والنفوذ الى الجوهر

***

لقد آن لنا أن نعدل عن هذه الحال وأن نستعرض حياتنا في شتى مرافقها . فنرسم لجوانبها المختلفة خطة منسقة تَستَوعِبُها وتعالج أدواءها. وكفى اننا سرنا طوال هذا الزمن على غير هدى. وهذا هو ريفنا أمامنا مقياساً لما تورطنا فيهِ من اهمال وفوضى . ولأذكر لكم حديث رجل من كبراء الأجانب قال لي يوماً « رأيت الريف اول ما رأيت وشهدت حاله فلم أشك في أن عاصمة هذه القرى قرية على مثالها تمتاز ببعض السعة في الرقعة . ثم دخلت القاهرة فلم ألبث أن تصورتها رأساً كبيراً ركب في جسم ضئيل . ولا يستقيم لمخلوق كهذا عيش ولا حياة » وان هذا الحديث لحق كل الحق، وحسبكم مصداقاً لذلك أن القاهرة وحدها تضم نصف معاهد التعليم في أنحاء الوادي كله . فنحن لا ننظر الى مصر كلها باعتبارها رقعة واحدة . وإنما نعني بكبريات المدن ونركز فيها أسباب العمران . وبذلك كانت الهوّة عميقة بين الحواضر والقرى . فاختل توازن الحياة الاجتماعية لأبناء البلاد . فلزامٌ علينا أن نراعي المساواة في غير تطرف، وأن نقرّب الهوة بين الطبقات حتى لا تسير الأمة بشق مشلول ، وتلك هي مهمة الاصلاح الاجتماعي وذلك واجب القيادة العامة . فعلينا أن تراجع الحياة الاجتماعية للشعب مبتدئة بالطفل الى الشيخ ، مستوعبة لمناحي الثقافة والاقتصاد والاجتماع

***

ولننتقل الآن الى الجنود ، ومن هم ؟ هم أبناء البلد جميعاً، فيجب أن يجند كل قادر على العمل في أي ميدان ، ويجب ألا يترك ذلك لمحض الرغبة بل يكون التجنيد إجبارياً، كلٌّ بما يتسع له ذرعه وينفسح له إمكانه. وقد أرشدنا الى ذلك رسول الله صلوات الله عليه حين قال : كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته . وقد بلغ في حديثه الشريف الى الخادم فسمّاه راعياً وعده مسؤولاً عمن يرعاه . فعلينا إذن ان نعتبر الاصلاح فرض عين لا فرض كفاية . ذو المال يقدم مما ملكت يمينه ، وأخو العلم يبذل من علمه، وصاحب التجربة يفيد مما أضاءت عليه التجارب، وذو الجاه يزكّي عن جاهه فان للجاه زكاة كالمال يجب أن تؤدى . وعلى الجملة لا بد أن يكون كل فرد خادماً اجتماعيًّا في المحيط الذي يعيش فيهِ وفي الميدان الذي يصلح له وبذلك يتعاون

الأفراد في شتى البيئات فتكون الأسر والمصالح والمعاهد مثابات للاصلاح ، وتصبح الأمة كالبنيان يشد بعضه بعضاً

واننا ان بلغنا من ذلك مأربنا واجهنا معركة الاصلاح ضامنين الفوز والنجح . ولكن ما هي عدّة الجنود ؟ الايمان اولاً والعلم ثانياً، يجب ان يؤمن الجند بالفكرة . وبواجب العمل بها . فاذا قوي الايمان لم يبق في سبيل الاصلاح عائق . ولقد سمعت مرة قائلاً يلتمس العذر للراغبين في الاصلاح بأنه لا مال لهم يكفل النهوض بالغرض المرجو، فحضرتني حينئذٍ دعوة الاسلام،وهل كان سلاحها الا الايمان والاعتقاد وما تبعه من احتمال للأذى ومواصلة للسعي ؟ ويميناً لو وضعوا العقيدة في كفة وأسلحة الدنيا في كفة لرجحت الأولى وان طال بها المدى

ولن ننسى أسلحة أخرى لها خطرها في سير المعركة، فهناك الصحافة بقوتها وجبروتها، فلو عملت على التبشير بفكرة الاصلاح الاجتماعي في أساليبها الصحفية المؤثرة ومنطقها المعتمد على استخدام الحوادث الجارية ، لبعثت من المراقد اولئك الذين استكانوا ورضوا بالنقص الاجتماعي الراهن . وهناك توأم الصحافة أعني الاذاعة ، وعلى عاتقها يجب أن يقوم قسط كبير من الدعوة والتوجيه والارشاد. واذا شئنا ان نضمن لأنفسنا الفوز في تلك المعركة فلا نصير لنا كالدين فهو أكبر سلاح للإصلاح، والدين المعاملة ، والتربية الدينية الصحيحة أوفى دواعي النهوض الاجتماعي والعمل له . فعلينا ان نعتمد على مبادئها الصافية تبعث في نفوسنا أعمق الايمان بالاصلاح والتجرد لخدمته في أشق الميادين جهاداً وأدعاها الى التغذية بكرائم الأموال وعظائم الجهود

***

وهيهات أن يفوتنا الالتفات الى المرأة، ومن الخير ان نكاشف أنفسنا بأنها في أغلبيتها العامة عامل من عوامل الضعف الذي نعانيه، فما ننكره من تداعي الأسر والأمة من ورائها انما يرجع الى أن المرأة لم تهيأ لتأدية رسالتها في الحياة على وجهها الصحيح . ورحم الله شاعرنا شوقيّا إذ يقول :

وإذا النساء نشأنَ في أمّيةٍ   رضع الرجال جهالةً وخمولا

فاذا لم نعن بتهيئة المرأة واذا لم نراع الرشد في التهيئة المنشودة فلا سبيل الى اصلاح . ومن الرشد ان نصرفها عن ان تزاحم الرجل في ميدان هي فيه أقل جدوى ، وإنما تدفعها اليه فكرة المساواة على اطلاقها ، متغابية عن واجب توزيع العمل . فلقد كدنا نواجه ازمة هي ترك المرأة ميدان المرأة — ذلك هو تربية الجيل — واستباقها ميدانَ الرجل الذي أسميه «ميدان

أكل الخبز » ولو مضت المرأة في هذا الانحراف لفقدنا هذا الجندي في ميدانه الذي أعدته له طبيعة الحياة

***

أما الشباب فهو خيرة الجند الذين يجندون في معركة الاصلاح . ولقد طالما تناقل بعض الناس قالة اليأس من الشباب وإسقاطه من الحساب إذا أريد الاصلاح الحق . واجتزئ في رد ذلك بالإشارة إلى ما كان من شأن عرب الجاهلية في مفتتح الدعوة الاسلامية فلقد كان تدبير صاحب الدعوة أنه قلب الشر في أنفسهم خيراً ، والبغي عدلا ، والغصب والعدوان فتحاً ونشراً لكلمة الله . واذا أسقطت شباب اليوم فمن يقوم على بناء المستقبل . ومن ينشئ أبناء الغد ؛ ألا إنني أسقط الأجيال القادمة جميعاً اذا أسقطت من الحساب شباب الحاضر وانما السبيل ان تتولى القيادة توجيه الشباب توجيهاً صالحاً ، واستغلال وقت فراغه استغلالاً يعود على الوطن بأطيب الثمرات

***

والآن نسأل أنفسنا ما هي ميادين الاصلاح التي تجري فيها المعركة المنشودة ؟ أمامنا ميدان الطفولة . وانه ليقتضينا جهوداً متواصلة فالطفولة مهملة في بيئة الغني وبيئة الفقير على حد سواء . فالفقير عاجز عن النهوض بتبعات التنشئة والتربية . والغني سادر في لهوه تارك طفله لخادمه ينشئه على غراره . فعلينا ان نلج هذا الميدان في بيوت الأغنياء والفقراء حتى نخلق جيلاً جديداً يسلم من النقص الاجتماعي الذي يشكوه المصلحون

***

ووراءنا ميدان الريف ، آمال مصر في الحياة . فنحن نسمع به ولا نرى شأنه أو نرى ثم نتعامى عن حقائقه المرة . وأين نصيبه من وسائل الاصلاح ؟ ولعلكم تذكرون ما قام من العراقيل حين نودي بمشروع المراكز الاجتماعية وما قيل في صدد ذلك من أن عمل وزارة المعارف ووزارة الصحة فيه العوض من عمل هذه المراكز . وبذلك خلطوا بين مهمة الثقافة العامة والصحة العامة وهذه المهمة الخاصة بحياة الفلاح التي يراد من أجلها انشاء المركز الاجتماعي في القرية

والحق أن مرافق الحكومة صحية كانت أو اجتماعية أو اقتصادية هي بمثابة الهواء في الاجواء . وليس يكفي أن يتناوح الهواء في الخلاء ليتنفس فيه أولئك الذين أغلقت عليهم أبوابهم وسدت دونهم منافذهم فليست تجد النسمة اليهم مخلصاً وليسوا واجدين اليها سبيلاً . وما المراكز الاجتماعية التي هي موضع التساؤل بين المصالح والوزارات عن فائدتها الا بمثابة

الباب ينفذ منه الهواء أو النافذة يمرق منها الضوء الى حياة الفلاح المظلمة . وإذ تتضح مهمة المراكز الاجتماعية على هذا الوجه لا يبقى مجال للتساءل عن فائدتها فانما هي ارشاد وتوجيه وتسديد وتبصير للجاهل وتذكير للغافل ليستنشق الهواء ويستمتع بالنور. وليس يبعث تيار هذه الهداية الاّ القيادة العامة أعني وزارة الشئون الاجتماعية . وعلى الرغم من وضوح هذا الغرض واستقامته في الذهن مضينا نتقاتل ونتجادل في فائدة هذه المراكز ، وشغلنا عن الغرض الاسمى ، غرض الاصلاح والتعمير بتقوية هذه المراكز ودعمها

وهكذا يفقد ريف الفلاح إشرافاً مباشراً محسوساً له صفة خاصة تيسر له وسائل الاصلاح. ولقد عشت في الريف أشهراً هذا العام . فوضح لي أن الفلاح لا يشعر بأن هناك حكومة تعمل من أجله شيئاً . ومما أفكهكم بهِ على تصويره للحقيقة أن فلاحاً شيخاً سئل : هل تعرف الحكومة ؟ فأجاب في سذاجتهِ الطاهرة : والله لقد عشت عمري كله لم أر لها في بلدي وجهاً!!

***

وهل يليق بنا أن نغفل في ميادين المعركة ميدان الأسرة، وهي الخلية الحية في جسم الأمة؟ أين هو المركز الاجتماعي الذي يتغلغل في مختلف الطبقات لاصلاح حال الأسر صحياً واجتماعياً وخلقياً لانتزاع الخرافات ، وبواعث الشقاق ، مما أدى الى التخاذل والانهيار ، ألاَ إن ميدان الأسرة يحتاج الى جنود صادقة الجهود، وهو بعنايتنا العاجلة جدير

***

بقي عليّ أن أشير الى انقسامنا طائفتين في الروح : طائفة المتفائلين وطائفة المتشائمين. وائذنوا لي أن أصارحكم بأن كلتا الطائفتين نكبة هذا البلد . فالمتفائلون دعاؤهم أن يصلح الله الحال ، وعقيدتهم ان التطور الطبيعي كفيل بازالة الفاسد وإصلاح الشأن ، وأولئك شر على الأمة فان لله سنناً كونية ليس منها ان يغير الله ما بقوم لم يغيروا ما بأنفسهم ، وأنت إن لم تزرع فلا حصاد . أما المتشائمون فهم يمضغون في أفواههم ان المشكلة عويصة وان البلد مختل الحال . وانهُ لا أمل في اصلاح وانهُ لا يمكن تغيير الواقع بين يوم ويوم . وفي هذا تسويغ لكسل الذهن وقعود الهمة، واعتذار عن التقصير في حق الوطن والنكوص عن بذل المجهود من أجله

فلنتجنب هؤلاء وهؤلاء، ولنكن عمليين ندعو الى الاصلاح ونتقاسم الجهود في ميادينه ونؤمن بأننا جميعاً في سفينة ، فمن خرق منا مكانه هلك وهلكنا ، فإن منعناه نجا ونجونا

والسلام عليكم ورحمة الله

مخاطر الحياة

في غواصة في أثناء الحرب

عندما تغادر غواصة قاعدتها ، وقد لا تعود اليها إلاَّ بعد أسابيع ، يتعين عليها ان تبقى مختفية في أثناء النهار تحت سطح الماء ولا تصعد الى السطح إلاَّ ليلاً لشحن بطرياتها الكهربية وتجديد هوائها . وعندما تكون الغواصة على سطح الماء يجب على بحارتها ان يبالغوا في اليقظة لئلاَّ يفاجأوا بسفينة حربية تطلق عليهم مدافعها او تقذفهم بقنابل الاعماق بعد غوصهم. ونور النهار لا يرى في داخل الغواصة إلاَّ عن طريق منظارها . وهناك دائماً رائحة كريهة مردُّها الى الهواء المشبع بأنفاس البحارة ، والطبخ وأبخرة البطاريات وما أشبه . والغواصة دائمة التعرض لقنبلة الأعماق او للاصطدام بلغم او الوقوع في شبك خاص يستعمل لصيد الغواصات في أحوال معينة

واذا هبطت الغواصة الى القعر ولصقت بهِ ، فنجاتها محتملة اذا كان العمق معتدلاً . ولكن اذا لصقت بالقعر في مياه تابعة للاعداء فنجاتها نادرة . نعم ان الرجال قد يخرجون من الغواصات متوسلين باحدى وسائل النجاة الحديثة ، يحدوهم الأمل بأن يلتقطهم أحد ولو كان من الاعداء . ولكنهم في كثير من الاحيان يموتون برداً قبل ان تقع عين عليهم

والتعاون بين رجال غواصة ما ، قاعدة لا يستغنى عنها . وليس أدلّ على وجوبها من ان غوص الغواصة يقتضي وجود رجالها في خمسة عشر موقعاً من مواقعها وتحريك نحو مائة صمَّام . فاذا لم يكن كلُّ رجل في مكانهِ واذا لم ينهض كلٌّ منهم نهوضاً دقيقاً بما ينتظر منهُ فقد لا تغوص الغواصة كما يجب ان تغوص وعندئذٍ تتعرض هي وجميع رجالها للخطر

وتدقق الأميرالية في كل بلد في اختيار الرجال للخدمة في الغواصات لأن المشاق الجسمية التي يعرضون لها والجهد العقلي الذي تقتضيهِ الحياة في الغواصة ، أعظم مما يعانيهِ رجال السفن الحربية الأخرى بوجهٍ عام

ولا يخفى ان هواء الغواصة يأخذ في الفساد بعد غوصها ، بما ينفثهُ فيهِ رجال الغواصة من ثاني اكسيد الكربون في أثناء تنفسهم . واذا عجزت الغواصة لسبب ما ، عن ان تصعد الى سطح البحر لتجديد الهواء ، فان هواءها لا يجدد بطريقة أخرى . وقد أثبت البحث العلمي

الحديث انهُ اذا بلغ مقدار ثاني اكسيد الكربون في الهواء ٣ في المائة لم ينشأ عنهُ ضرر ما، وهذا المقدار يزيد على المقدار السوي في الهواء الطلق أكثر من مائة ضعف. فاذا زاد مقدار ثاني اكسيد الكربون عن ٣ في المائة عسر التنفس ولا سيما في من يُطلب منهُ جهدٌ عضليٌّ ويشعر الرجل نفسه ان صدره ضيق وانهُ لا بدَّ من بذل نشاط خاص للتنفس. فاذا بلغ المقدار ٤ في المائة بدا الاعياء على الرجال ولاسيما اذا صحب زيادة ثاني اكسيد الكربون ضرورة الجهد العضلي. فاذا بلغ المقدار ٥ في المائة أصبح الشعور بالاعياء حادًّا والجهد العضلي قريباً من المستحيل، فاذا زاد المقدار الى ٥ر٥ في المائة حصل تشنج وقد يعقبهُ الموت بعد تعرض طويل. وزيادة مقدار ثاني اكسيد الكربون في الهواء يفضي الى ابطاء الاعمال العقلية فيسفر ذلك عن ارتكاب اخطاء في التصرف والحكم. فقد يحكم ضابط غواصة في حالة من هذا القبيل ان مسافة سفينة يراها بالمنظار لا تزيد على مائتي متر بينما تكون أقرب من ذلك او أبعد. وقد يحاول بحار ان يدير مفتاحاً ما عدداً معيناً من الدورات فيخطئ العدَّ

***

وفي اثناء تولد ثاني اكسيد الكربون ونفثه في هواء الغواصة بالتنفس ينتزع المتنفسون مقداراً من اكسجين الهواء. أي انهُ متى ارتفع مقدار ثاني اكسيد الكربون الى ٣ في المائة يكون مقدار الاكسجين قد نقص الى نحو ١٨ في المائة. والظاهر ان التأثير البادي في صحة الرجال العقلية والجسدية، مردُّهُ الى كثرة ثاني اكسيد الكربون لا الى قلة الاكسجين، لأنهُ اذا لم يزد مقدار ثاني اكسيد الكربون ونقص مقدار الاكسجين الى ١٤ في المائة لا الى ١٨ في المائة وحسْبُ، لم تظهر الآثار المتقدمة الذكر على المتنفسين. ومما يؤيد هذا القول ان الصعدين في الجبال استطاعوا أن يلبثوا وقتاً غير يسير على قمة جبل بيك (Pikes Peak) في اميركا حيث مقدار الأكسجين لا يزيد على ٥، ١٢ في المائة. واستناداً الى التجارب التي جرّبت بالطيارين الذين يحلقون الى مرتفعات عالية جدًّا، لا يشعر المرءُ بهبوط قواه كما تهبط قوى رجال الغواصات، الاَّ اذا هبط مقدار الاكسجين الى ١٠ في المائة على شريطة بقاء مقدار ثاني اكسيد الكربون معتدلاً او سويًّا

فازالة ثاني اكسيد الكربون من هواء الغواصة يجب ان يضاعف مدى استنشاق الهواء بغير ان تحدث العواقب التي اشرنا اليها. ومعلوم ان الجهد العضلي يزيد مقدار ثاني اكسيد الكربون الذي ينفثهُ رجال الغواصة في تنفسهم. فاذا تعذَّر تجديد هوائها لسبب ما فعلى الرجال الذين لا يتعين عليهم النهوض بعمل خاص ضروري ان يلبثوا في اماكنهم بغير حراك.

واذا كانت درجة الحرارة عالية فعليهم أن يتجردوا من ثيابهم ليجتنبوا انفاق الطاقة التي لا بد منها لتوليد العرق . لأن العرق وسيلة الجسم لخفض حرارته . وبهاتين الوسيلتين ينقص توليد ثاني اكسيد الكربون واستنفاد الاكسجين الى أدنى حدٍّ مستطاع

وقد وضعت الاميرالية الاميركية حدوداً لمقدار الاكسجين وثاني اكسيد الكربون في هواء الغواصات لا يجوز تعديها الاَّ اضطراراً فالاول لا يجب ان يهبط دون ١٧ في المائة. والثاني لا يجب ان يزيد على ٣ في المائة وبذلك يضمن للرجال هواء يقيهم شروراً عظيمة

***

وعلى ذكر الهواء النقي وغير النقي في الغواصة ، يجب ان نعرّج على موضوع الغازات السامة التي تتولّد في احوال معينة وتتسرّب الى الهواء . فاذا تطرقت مياه البحر الى بطريات التخزين الكهربي تولد مقدار كبير من غاز الكلور . ووجود مقدار منهُ يبلغ خمسة في الالف من شأنهِ ان يعرّض الرجال لخطر كبير . ومن الغازات السامة التي أفضت الى تسمم رجال الغواصات البريطانية غاز الأرسين Arsine وقد حدثت إصابات تسمم مزمن بهذا الغاز في الحرب العالمية الأولى . وكانت الحوادث الأولى في غواصات مضى عليها ثماني عشرة ساعة وهي تتولى عمل الدورية في منطقة ما . فأصيب فريق كبير من رجالها بالدوار مع انهم متمرسون بحياة البحر والدوار أبعد ما يكون عنهم عادة . وتحوّلت اصابتهم الى ما يشبه اليرقان ووصفوا بأنهم « البحارة الصينيون » عند عودتهم الى البر . وظن اولاً أن مردّ اصابتهم الى التسمم بأول اكسيد الكربون ثم ثبت ان غاز الارسين هو السبب

ووجد الزرنيخ (وهو المادة الأساسية في الأرسين) في شعر الرجال وأظافرهم . وبعد البحث توصلوا الى معرفة سر توليده ، فاذا هو في صناديق البطاريات ولم تكن مصنوعة صنعاً دقيقاً وفقاً للمواصفات الفنية

ومن نحو سنتين او أكثر قليلاً رويت رواية عن اصابة غريبة بالغاز في احدى الغواصات الايطالية وورد ذكرها في بيان سلاح الغواصات الايطالية . ففي اليوم الرابع بعد قيام الغواصة من قاعدتها أصيب معظم رجالها بالضعف والصداع والدوار والقيء وضعف الذاكرة وكان لا بدّ من علاجهم وراحتهم مدى خمسة أيام الى خمسة عشر يوماً قبل شفائهم . وعرف السبب فاذا هو غاز «ميثل كلوريد» Methyl Chioride المستعمل في أجهزة التبريد

ومن المخاطر التي يتعرض لها رجال الغواصات خطر غاز الايدروجين مع انه ليس غازاً ساماً . وهو يتولد في بطاريات التخزين الكهربي في أثناء شحنها بالكهرباء . ومن المتعارف

انهُ اذا بلغ مقدار الايدروجين في الهواء ١ر٤ في المائة اصبح الهواء قابلاً للاشتعال واذا بلغ المقدار ٨ في المائة اصبح قابلاً للتفجر . ولذلك تستعمل وسائل خاصة للتهوية لكي لا يزيد مقدار الايدروجين على ٢ في المائة . ومع ذلك رويت روايات عن حوادث انفجار في بطاريات الغواصات وغيرها في جميع اساطيل العالم . وعدد المصابين في هذه الحوادث كان كبيراً

واذا كانت حرارة المياه التي تغوص الغواصة فيها عالية نقص ما يشعهُ جسم الغواصة من حرارته . فترتفع الحرارة في الداخل ارتفاعاً لا يطاق ويكثر تصبب العرق من الجسم وقد يبلغ اوقية من الماء في الساعة اذا كان الرجل مستريحاً . وقد يبلغ ثلاث اوقيات اذا كان يعمل عملاً يحتاج الى جهد عضلي كبير . وقد تغلب المهندسون البحريون على هذا باختراع أساليب تمكنهم من نزع الرطوبة من الهواء وخفض الحرارة بوسائل شتى للتبريد

والهواء في الغواصات الحديثة التي تنقل عدداً كاملاً من الضباط والرجال يكفيها مدى ٢٤ الى ٢٧ ساعة بغير تجديد . في هذه المدة يرتفع مقدار ثاني أكسيد الكربون الى حوالي ٣ في المائة . ولذلك ليست هناك حاجة الى تجديد هواء الغواصة في أثناء السلام وهي تغوص غوصاً عادياً الاَّ اذا أصيبت بكارثة ألزمتها البقاء تحت سطح البحر مدة طويلة

أما في أثناء الحرب ، فالغواصة تطفو على سطح البحر في الليل للتهوية وشحن البطاريات وليتنفس رجالها هواء الليل . ولكن قرب سفن الأعداء من مكان الغواصة قد يقتضي منها الامتناع عن الصعود الى السطح وعندئذٍ لا بدَّ من الالتجاء الى أساليب تجديد الهواء

وقد يسأل سائل عن أطول مدة تستطيع الغواصة ان تبقى في خلالها تحت سطح البحر بغير ان يفسد الهواء ويتحتم تجديده . والجواب ان أقصى مدة معروفة هي ٩٦ ساعة . وكان ذلك في الغواصة الأميركية ١٥ — () وكان عدد الرجال الذين غاصت بهم ثلاثة وثلاثين رجلاً . وكان ذلك في سنة ١٩١٨ ولم يزد مقدار ثاني أكسيد الكربون في أثناء هذه الغوصة عن ٤ر٢ في المائة ومقدار الاوكسجين عن ٢ر١٨ في المائة

***

ومن أبرع المخترعات الحديثة الخاصة بالغواصات اختراع يعرف باسم « رئة الغواصة » وهو جهاز يركب على الانف والفم فيستنشق لابسه من أحد جانبي الجهاز اكسجيناً نقياً بمقدار وينفث نفَسَه في الجانب الآخر حيث توجد مادة تمتص ثاني أكسيد الكربون . وعند ما يخرج الغواص من غواصة غارقة الى سطح البحر يستطيع ان يقفل صمامات هذا الجهاز ويستعملهُ منفوخاً معواناً على الطفو وحفظ الجسم من الغرق

الجنتلمان !

قصة مصرية

بقلم : محمود تيمور بك

كنتُ وصديقي « عزُّوز » إذا طالت جلستنا في القهوة ورغبنا في تناول العشاء قصدنا مطعم « فورفاتلّى » بشارع عدلي ... نفضّلهُ على سائر المطاعم — بالرغم من صغره وتواضعه — لعنايته بإعداد بعض الألوان الإيطالية الأصيلة

وأعلن السنيور فورفاتلّى أنهُ سيحدث انقلاباً في مطعمه يتناول كلّ شيءٍ فيهِ بالتجديد. وذهبنا يوم الاحتفال بافتتاح المطعم في مظهره الحديث فلم نرَ إلاّ تغييراً يسيراً سطحيًّا ، إذا استثنيتُ امراً واحداً جديراً بالملاحظة ، ذلك بأن السنيور فورفاتلّى رأى ان ينصب على مقربة من باب المطعم دمية من ورق مقوّى تمثّل سيّداً أنيقاً يحمل في يده قائمة الطعام ، وكانوا يسلّطون على هذه الدمية نوراً كهربيًّا تبدو بهِ بهجةً تستوقف الانظار !

ووقفت أتأمل هذه الدمية فلم ترقني هيئتها على ما امتازت بهِ من اتقان في الصنعة ومَثَل السنيور فورفاتلّى عن كثب منا يحدثنا في شأنها مسهباً ، ويكشف لنا عن مواطن الإتقان والبراعة فيها ويثني على صانعها الفنان أطيب الثناء

كانت هذه الدمية تمثل شخصية السيد المتظرف الانيق «رجل الصالون العصري» وأنيس كل حفلة شائقة . ومن منا يجهل هذا الزهوّ المتحذلق وهو يخطر في لبوس المحافل الرسمي ووجههُ الأمرد مستنيرٌ بشبه ابتسامة يختلط فيها الترحيب بالكبرياء . وهذا « المونوكل » المثبت على حُقّ عينهِ بمهارة خليقة بالإعجاب ، وهذه الشملة السوداء ذات البطانة الحريرية البيضاء يبسطها على كتفيهِ في تأنق مصحوب بإهمال مقصود . واخيراً هذه اليد المكسوة بالقفاز الأبيض آخذة بعصاً مفضضة القبض متلاعبة بها . لبثت أتأمل الدمية وقتاً وقد شغلتني

شخصيتها عن قائمة الطعام الماثلة في يدها اليسرى ، ولكن السنيور «فورفاتلّي» نبّهني إلى أن عشاء الليلة يحوي غير « الاسبجتي النابوليتانية » صحناً من «الرافيولي» الفاخر . ثم تركنا ليستقبل بعض روّاد مطعمه . وملتُ على صديقي عزّوز أقول وأنا أشير الى الدمية :

ما رأيك في هذا الصديق الجديد ؟!

— لقد أتى بهِ السنيور فورفاتلّي ليستقبل ضيوف المطعم ... ألا ترى يده التي تحمل القائمة مشيرة الى الباب ترشدنا اليه وترحب ؟!

— انها طريقة جديدة في تكريم الزوّار كأنّي اسمعه يقول لنا وهو يدعونا الى الدخول : تفضلوا يا سادة ، وبالسمّ الهاري . . . !

وتبادلنا الضحكات ودخلنا ..

***

كنت كلما ذهبت الى مطعم فورفاتلّي ، لقيني وجهُ ذلك « الجنتلمان » المتغطرس بابتسامتهِ الكاسفة ، فيرشق كلّ منا صاحبه بنظرةٍ عجلى ، نظرة يتجلى فيها الاحتقار والزراية ، وما هي الاّ ان أحوّل طرفي عنهُ وأنا أحثّ خطاي نحو الباب

وجلست مع صديقي عزوز على مائدتنا المختارة في المطعم نتذوّق حساء « المينسترون » اللذيذ . وبغتة رفعت رأسي وقلت :

لو كنت حاكماً بأمره لقضيت على هذه الفئة الغشوم ...

فقال عزوز وهو منهمك يأكل :

أي فئةٍ تعني ؟

— فئة هؤلاء الجنتلمن المزيفين ... هؤلاء السادة المتعطلون ... هاتهِ الدّمى التي تخفي تحت مظهرها الرشيق رؤوساً خاوية لا يسكنها إلاّ الصلَف والازدراء بالناس ...

فأجابني عزوز وهو ما زال منكبّاً على حسائهِ :

لا تنس ان هذه الفئة هي زينة حياتنا الاجتماعية العصرية ... ! !

وأقبل علينا السنيور فورفاتلّي يستطلع رأينا في حساء « الميناسترون » وقبل ان نجيبه بكلمة انطلق لسانه بحديثٍ كأنه السيل الجارف يصف محاسن هذا الحساء وجودة طهيه ...

***

وصادفت عزّوز مساء أحد الأيام في القهوة فبادرني بقوله :

سنذهب الليلة حتماً الى مطعم فورفاتلّي .

فقلت له وأنا أخلع طربوشي وأمسح وجهي

ولمَ ؟

— لقد مررت بهِ وأنا في طريقي الى هنا ، فاستقبلني «صديقك الجنتلمان» وقرأت في قائمة الطعام التي يحملها في يده ان عشاء اليوم يحوي لوناً من « اللازانيا »

— اللازانيا ... إنها لذيذة ... !

— لذيذة جدًّا ...

— ولكن ...

— ولكن ماذا ... ؟

— ليس لي رغبة في الذهاب ... !

— كيف ... ألستَ جائعاً ؟ !

— جائع ... ولكنني ... ولكنني أفضّل أكلةً طريفة من الطعمية والفول ...

— لقد سقم ذوقك بلا ريب ، أتفضّل الطعمية والفول على اللازانيا .. ؟ !

— وماذا في ذلك ؟ !

أتذكر أنك كثيراً ما طلبت من السنيور فورفاتلّي هذا اللون من الطعام

— هذا صحيح ... ولكني لا أُحسّ الليلة رغبة في تناوله ...

وأصررت على رأيي فلم أرافقهُ

***

وقلَّ اختلافي الى مطعم « فورفاتلي » ، فكان صديقي عزُّوز يعجب من انصرافي عنهُ ، وزهدي فيهِ ، ويسائلني في ذلك ، فأزعم له ان المطعم — منذ تجديده — قد فقد طابَعهُ القديم ، وفقدَ مع هذا الطابع ميزتهُ في جودة الطهي وإرضاء روَّاده ، فكان عزُّوز يحتجُّ على هذا بقوله :

إني أرى المطعم — على عكس ما تقول — يزداد اتقاناً لألوانه ، وكذلك استطارت شهرته

وخرجت مرَّة من المطعم ، وبينما كنت ماراً عن كثب بالجنتلمان إذ عثرت قدمي وكدت أسقط على الرصيف سقطة لا تخلو من خطر لولا ان أدركني عزُّوز فاعتدلت في وقفتي وأنا أصلح من شأني ، ووقع بصري على « الجنتلمان » وهو مائل في وقفتهِ الأرستقراطية المتحذلقة ، فاذا هو منطلق الوجه في بِشر وانتصار وراعتني منه ابتسامة لم ألمحها على ثغره في هذا المظهر الساخر قبل الآن . وخيِّل اليَّ ان شفتيهِ تتحركان بغمغمة : ما أشدَّ غباوتك من رجل غفل . وشملني اعتقاد راسخ بأن هذا « الجنتلمان » كان سبب سقطتي . . . أتكون قدمهُ اليمنى في حذائها اللامع الأنيق قد امتدت في طريقي فأعثرتني . او تكون تلك العصا المقوّة ذات المقبض المفضض قد استطالت واعترضت قدميَّ ... ودنوت منهُ وقد رفعت يدي لأهوى بها على صدغهِ المصعَّر ... ولكنني وجدتني انتزع قائمة الطعام من يده وانهال عليها أمزّقها شرَّ ممزق ... ! !

منذ ذلك الحادث لم تطأ قدمي مطعم « فورفاتلي » وقابلت « عزُّوز » يوماً فحمل اليَّ خبراً خطيراً . ذلك ان السنيور « فورفاتلي » أفلس ، فلقد كان ممن يضاربون في السوق المالية ، فأصابتهُ نكبةٌ رازحة ، فاضطرَّ أن يُغلق مطعمهُ ، ورأيتني أفاجئ صديقي بقولي :

والجنتلمان ؟

إن مصابي في المطعم أكبر من أن يجعلني أهتمُّ بهذه الدمية ..

— ولكنك تعلم على الاقل ما حلّ بمتاع السنيور فورفاتلى .. ؟
— علمت أن كلّ ما يمتلكه في المطعم قد بيع بالمزايدة ..
ولم أطل معهُ الحديث في هذا الشأن ، وفي اليوم التالي قصدت الى المكان الذي كان يشغلهُ المطعم ، وطفقتُ أسأل البوّابين والجيران عمن اشترى « الجنتلمان » فلم أحظَ بجواب ...
وتركت المكان وأنا مغيظ ...

***

وتوالت الايام ، وبينما كنتُ مارًّا في حارة « جامع البنات » أمام حانوت « كوهين الورّاق » إذ رأيت تقمي وجهاً لوجه أمام « الجنتلمان » فبُهتُ ، وأحسستُ لحظةً حيرةً وارتباكاً ، ولكن سرعان ما تزايل ذلك عني وألقيتُ بنظرة متفحّصة عليهِ فوجدتهُ يحمل في يده اليسرى لوحاً من الورق المقوّى مثبتة فيهِ بطاقات زيارة في أشكال مختلفة وخطوط شتى . وكان كعهدي بهِ يرتدي لبوس السهرة وعلى كتفيه تلك الشملة الثمينة ملقاة في إهمال مقصود وما زال قابضاً بيده اليمنى على عصاه الثمينة ذات المقبض المفضّض . كان هو هو ذلك الجنتلمان الارستقراطيُّ عريس الصالون العصري ... ولكنّ شيئاً واحداً لحظتُهُ لم أعهدهُ فيهِ من قبل ، شيئاً راعني وأشعرني بإحساسٍ غريب ذو تلك النظرة التي يرنو بها للناس . لقد تضاءلت لمحتها الوهاجة المنطوية على الزهو والصلف . أما وجهه فقد شاع فيهِ النحول والسقم واكتسى بطابع الأسى . وخُيّل اليَّ وأنا أتفحصهُ انهُ كان يزيغ ببصره عني ليتجنب مواجهتي . وكأنه يتململ في وقفتهِ ضجراً ... فابتسمتُ وقد انكببتُ على بطاقاته أتفرج وأنا أهمهم : يا للحظ العاثر من مطعم فورفاتلى الفاخر في شارع عدلي الى ورّاق صغير في حارة جامع البنات » ... !
وداعبتُ بعصاي عصاه فشعرتُ بها تهتزُّ في يده على وشك ان تتحطم فتركتهُ ومضيت في طريقي ...
لا أدري ما الذي دفعني الى ان أكثر ترددي على حانوت « كوهين » الوراق ، فأجعلهُ مكاناً مختاراً أقضي فيهِ بعض الأصائل لعلهُ ذلك الجوُّ القديم

الذي يشمل حارة « جامع البنات » وملحقاتها حيث يطيب للمرء أن يستعيد ذكريات الماضي المحببة . . . أو لعلهُ شيءٌ آخر لم أستبنهُ . وعلى أية حال فاني لا أنكر أنهُ كانت تحلو لي جلستي على المقعد الخشبي الخشن أمام الحانوت أرشف القهوة وأدخن على مهل ، وغير بعيد عني صاحبنا « الجنتلمان » في وقفته التي لا تتغير يحمل على مضض وكرهٍ منهُ لوح البطاقات يعرضهُ على المارين . وكنت أمضي وقتي صامتاً أراقب دخان لفافتي ثم أتراخى في جلستي وأطبق جفني حالماً فأحس ان «الجنتلمان» يهمس مهمهماً بألفاظ لا أتبينها . ثم يتوضح رويداً حديثهُ فأرهف لهُ السمع فاذا بهِ يروي نبذاً من تاريخ حياته — قصصاً جديرة بالتسجيل يصف بها مغامراته الغرامية وصوراً طريفة من حياة الصالون ومراسيه لا تخلو من مبالغات وأكاذيب كان يرويها لبقاً في صوت المتأمر المزهوّ . ولكن كثيراً ما يخونهُ صوتهُ فيضعف متزايلاً في لهجة أشبه بلهجة الاسترحام واذا بوجهه يزداد شحوباً وقامته تتقوّس و « المتوكل » يهوي عن عينه ورأسه يميل على صدره وقد غمره صمت شامل . . . فأصحو مرتاعاً . ولا أكاد التفت اليه وتتلاقى عيوننا حتى أحسّ رجفة تسري في جسدي فأقوم ألتمس الطريق في العتمة المقبلة

***

وكنا في مستهل الصيف فتهيأ لي الرحيل الى رأس البر وأقمت فيه نحو شهر ولما عدت قصدت الى دكان الوراق فلم أرَ صاحبي « الجنتلمان » في مكانه المألوف فسألت «كومين» عنه فأخبرني وهو لم يغادر مقعده أمام مكتبه وأنفه المقوّس الطويل يعبث في دفتر الحساب وقال :

لقد ضقنا ذرعاً به . طالما شكا المارة منه زاعمين أنهُ يشغل حيزاً كبيراً في الحارة فيعوقهم في الغدوّ والرواح

— وماذا صنعتم به . . . ؟

— بعناه . . .

— لمن ؟

— لشخص لا أعرفهُ ... رضي ان يدفع لي مبلغاً حسناً ثمناً له

فتركت الحانوت على الأثر وأنا ضيق الصدر وقد تجلت أمامي صورة ذلك السيد الارستقراطي الأنيق وهو واقف في سوق الرقيق تتناقله الأيدي كمتاع غث رخيص وقد ستر وجهه بطرف شملته ليخفي نفسه عن أعين الشامتين ... في حارة « جامع البنات » ...

وانقضت بضعة أشهر كدت أنسى فيها حوادث صاحبي « الجنتلمان » وبينما كنت أمرّ بحارة « بين الصورين » في « الموسكي » إذ شعرت أن يداً تأخذ بطرف سترتي ، فالتفت فلم أر إلاّ كومة من الملابس البالية موضوعة على شبه مشجب أمام حانوت من حوانيت بيع المتاع القديم ، فلم أعن بالأمر ، واعتزمت مواصلة سيري ، غير أنهُ استرعى نظري على حين بغتة شيء يشبه اليد في قفّاز أبيض قذر قد ظهرت من بين الملابس ، وتصور لي أنها كانت تضطرب ، كأنها تستوقفني ، فمدت أدراجي وقلبي يدق ، ومضيت على الفور أرفع كومة الملابس عن المشجب فبان لي رويداً صديقي « الجنتلمان » . يالله ما أشدّ شحوبه ، وما أكثر تجاعيد وجهه ورأيته كأنهُ يتنفس الصعداء ويحاول أن يرفع قامتهُ المقوسة التي حناها وأذلها وقر تلك الملابس القديمة ... وقفت أتأمله في حسرة وحيرة لا أجد من نفسي الشجاعة على الدنو منهُ . لقد كان كلّ شيء فيه ينطق بالبؤس والفاقة . شملة ممزقة ، وكسوة قذرة عاثت فيها يد التخريب .... وعصاه الثمينة لم يبق منها غير مقبضها الفضي الحائل حَرَص على أن يبقيه في يده ذكرى لحياة العز والسؤدد .... « والمتوكل » ؟ لم أرَ له أثراً ... ولكن كل ذلك لم يعد شيئاً مذكوراً اذا وازناه بما دهم عينيه ... ياللقدر القاسي . لقد أصبحتا منقوبتين فهل فقد حاسة الأبصار ؟ ... وأخيراً وجدتني أدنو منهُ بخطا هينة ثم أطبقت بيدي على يده وطفقت أهزها في حنو وإخلاص فأحسست شفتيه تختلجان بابتسامة مكتئبة وكأن جفنيه قد انطبقا وانحدرت منهما قطرتان لامعتان ...

وفي لحظة ألفيتهُ ينهار أمامي ويصبح كومة من الانقاض !!

انتهى

ما أسداه الدكتور جون بول الى :

المساحة المصرية

المستشار الفني بمصلحة المساحة والمناجم المصرية
سيرته ومؤلفاته

للدكتور احمد موسى

في اليوم الحادي عشر من شهر يوليو الفائت في نحو الساعة الخامسة عشرة — الثالثة بعد الظهر — انتقل الدكتور جون بول Ball الى عالم الخلود بعد حياة حافلة بالعمل الجليل قضى منها في خدمة مصلحة المساحة والمناجم المصرية نحو الثلاثة والأربعين عاماً (١)

ولولا الحرب الدائرة الرحى واستئثارها باهتمام الناس لكان لوفاة جون بول صدى بعيد المدى نظراً لمكانته الرفيعة وخدماته الجليلة للجغرافيا والجيولوجيا وعلم الآثار، ولكان نعيه سبباً في نشاط علمي كبير يتناول كل ما ذكر من العلوم والبحوث

وهو الابن البكر لابنيزر بول Ebenezer Ball من دربى، وقد تزوج وهو في سن السادسة والأربعين من صغرى كريمات الوجيه جيمس رسل وايت J. R. Waite، وله منها ولد وحيد كان طبيباً في انكلترا ثم انتظم في سلاح الجو البريطاني في الحرب الحالية

قضى الدكتور بول كل حياته في خدمة العلم بالسفر والارتحال والمشاهدة والدرس والفحص، ثم في تسجيل ما درس وعاين تسجيلاً دقيقاً

وتلقى الفقيد علومه العالية في كليتي العلوم والمناجم بلندن، والتحق بالأكاديمية الملكية للمناجم في فرايبورج Freiburg، كما انه قضى وقتاً ليس بالقصير في جامعة زوريخ بسويسرا ثم اشتغل عملياً بشركة فينكس الكبرى Phoenix واشترك في وضع تصميم جسر (كوبري) بارنس بانكلترا

---

(١) ولد الدكتور بول في ١٥ يناير سنة ١٨٧٢ والتحق بخدمة المساحة المصرية في ١٧ سبتمبر سنة ١٨٩٧ أي أنه عاش ثمانية وستين عاماً وأربعة اشهر وخمسة وعشرين يوماً

وأول عمل مارسه كان في آيل أوف مان Isle of Man وهي جزيرة في البحر الذي يفصل أرلندة عن انكلترا ، ثم واصل التعليم في المانيا وأسبانيا دون ان يضيع الفرصة التي أتيحت له ، فتعلم الألمانية والأسبانية عامي ١٨٩٥ و ١٨٩٦

وفي ١٧ سبتمبر عام ١٨٩٧ عيّن في مصلحة المساحة المصرية التي بدأ الدكتور ليونز بتأسيسها . فهو دعامة متينة في بناء المصلحة . كما حمل تبعات منصبه بفطنة وجد وأمانة فيما له علاقة بطبقات الارض والجغرافيا واشترك في بعثاتها التي تولّت البحوث العلمية في شبه جزيرة سينا وأراضي مصر والسودان ، ثم ندب للعمل في وزارة الاشغال على ترميم أساس معبد فيليه قرب اسوان في عامي ١٩٠١و١٩٠٢ فأنعم عليه وقتئذٍ بالنشان المجيدي تقديراً لعمله

وفي أثناء الحرب العالمية الماضية انضم الى هيئة حراسة الحدود المصرية وهي التي قامت بأعمال المساحة المتعلقة بالاغراض الحربية في صحراء لوبيا ، كما أعدّ كثيراً من الخارطات الحربية فضلاً عن الخارطات التي أفادت منها البعثات المساحية فيما بعد . فضلاً عما أداه من الخدمات للحكومة البريطانية في بحوثها بأراضي الصومال وبلاد العرب ، ومساهمته في مشروع تنظيم الخط الجوي البريطاني من مصر الى بغداد ذهاباً وعودة في سنة ١٩٢١

ولم يكن الدكتور جون بول قعدة على كرسي الوظيفة بين جدران المصلحة ، بل كان جوّاباً جوّالاً فطاف أنحاء مصر شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً باحثاً ومنقباً في كل جدير ببحثه او خليق بتنقيبه او قمين بدرسه

وناهيك بسفر الصحراء وما يتكبده صاحبه من مشقة ويتحمله من اعياء وتعب . فلم تكن طرقها بالممهدة على ما نراه الآن ، ولا معالمها بالموثوق بها في دلالتها كما استجد الأمر بعهدنا هذا ، فلشد ما انتهكت قواه ولمس الاخطار وتعرض للهلاك مرات ومرات ، فقد طوى الفراسخ على ظهور الأبل القلص ، وسيراً وسرى على الاقدام

***

كان الدكتور بول متعدد النواحي في علمه ذا مؤهلات ممتازة ومعين ذكاء لا ينضب قادراً على العمل وتطبيق العلم عليه حتى اجازته بضع كليات بأعلى رتبها الفنية فكان دكتوراً في العلوم D. Sc. ودكتوراً في الفلسفة P. H. D وعضواً في معهد المهندسين المدنيين M. Inst. C. E. وزميلاً للجمعية الملكية للمناجم A. R. S. M. وعضواً في الجمعية الجيولوجية بلندن F. G. S. وعضواً في الجمعية الجغرافية الملكية بها F. R. G. S. وعضواً فخرياً في غيرها من الجمعيات ، وأنعم عليه بوسام O. B. E.

واليك بياناً وافياً بآثاره

١ — (طبوغرافية وجيولوجية الواحة الخارجة) طبع بولاق سنة ١٩٠٠ صفحاته ١٦٦ و٣٥ رسماً وخارطة قدمهُ بقذلكة عن جهود من سبقوه من العلماء امثال هوسكينز Hoskins وتسيتل Zittei وشواينفورت Schweinfurth وبروجش Brugsch وجولينيشف Golenischeff وليونز Lyons وبهِ وصف دقيق للطرق المؤدية الى الواحة ولموقعها وللآثار والمعابد والمدن القديمة ، وكذلك الحصون الرومانية وبقايا الآثار المسيحية والعيون والآبار فيها ، هذا الى جانب تحديد موقع الواحة وأثر العوامل الجوية فيها

٢ — (بعض النتائج الأولية لطبوغرافية وجيولوجية جبل جرّه وواحة قرقر) طبع بولاق ١٩٠٢ ، صفحاته ٤٠ و ٧ خارطات ورسوم . ولقد امتازت هذه الرسالة بتعريج المؤلف على الناحية الاجتماعية والحياة الزوجية في تلك الواحة

٣ — (طبوغرافية الواحة البحرية وجيولوجيتها) بولاق ١٩٠٣ صفحاته ٨٤ و١٠ خارطات ورسوم واشترك معهُ في تأليفه بيدنل Beadnell وصف فيهِ الطرق المؤدية الى الواحة وطبيعتها وموقعها والآثار والمعابد فيها

٤ — (الشلال الأول أو شلال اسوان بولاق) ١٩٠٧ صفحاته ١١٣ و١٣ لوحة و٢٠ صورة وصف فيهِ موقع الشلال وصلة اسوان بالجغرافيا القديمة وما قيل عن هذا الشلال في المؤلفات السابقة له

وضمن الصور ما يبين فحص الصخور فحصاً ميكروسكوبيًّا وهي موصوفة وصفاً علميًّا دقيقاً

٥ — (طريقة جديدة في مسح الشواطىء) بولاق ١٩١١ صفحاته ٤٦ و٣ لوحات وأربعة اشكال وهي رسالة طريفة طابعها علمي بحت بالنظر الى ما تناوله المؤلف فيها من القوانين والجداول الرياضية والهندسية والقياسية

٦ — (نيزك النخلة البحرية — مركز ابو حمص بحيرة) بولاق ١٩١٢ صفحاته ٢٠ و٣ لوحات وخرائط . وهو وصف شامل للنيزك الذي سقط في نحو الساعة التاسعة من صباح ٢٨ يونيو سنة ١٩١١ ، ولنيره باماكن اخرى

٧ — (جغرافية الجنوب الشرقي للقطر المصري وجيولوجيتهُ) طبع بولاق ١٩١٢ صفحاته ٣٧٧ و ٢٨ لوحة وخارطة و ٦٢ شكلاً ورسماً ، وهو مجهود علمي شاق يتشابه

مع سابقيه من حيث الدقة العلمية الا انهُ اكثر تعمقاً وأوسع أفقاً

٨ — (مواقع الفوسفات) بولاق ١٩١٣ صفحاته ٦ وخارطة . وهي رسالة لبيان مواقع هذا الملح في الاراضي المصرية

٩ — (طبوغرافية منطقة الفوسفات في سفاجة وجيولوجيتها) بولاق ١٩١٣ صفحاته ١٩ و ٤ لوحات وهي رسالة وصفية لهذه المنطقة الواقعة بالصحراء الشرقية المصرية

١٠ — (جغرافية غرب سينا الوسطى وجيولوجيتها) بولاق ١٩١٦ صفحاته ٢١٢ و ٢٤ لوحة وخارطة و٥٤ شكلاً وصورة فوتوغرافية . وهو من الكتب الشاملة ، يقع في سبعة أبواب : الاول وصف عام للطرق المؤدية الى وسط سينا وللآثار والسكان . والثاني أعمال المساحة الجيولوجية . والثالث الوديان وما اليها . والرابع الجبال والتلال . والخامس للمنطقة المحصورة بين زنيما والسويس . والسادس للجيولوجيا الاستراتيجرافيكية Stratigraphical Geology والسابع للجيولوجيا الطبيعية Physical Geology,

١١ — (تقرير عن أعمال تفتيشية على آبار معينة في الواحات الخارجة) غير مطبوع (١٩١٧ يقع في ١١ صفحة فولسكاب بالآلة الانكليزية الكاتبة) . وصف فيه نحو الستين بئراً في تلك الواحات واعتقد — بعد ما علمته من اهتمام وزارة الزراعة المصرية بمسألة تعمير الواحات والعمل على إمدادها بالماء — ان ما جاء في هذا التقرير من أنفع ما كتب في هذا الشأن حتى الآن

ولعلنا نطمع في أن تعنى وزارة الزراعة بدراسته في المستقبل القريب

١٢ — (تقرير عن مناطق الزيت في الصومال البريطاني) بولاق ١٩١٨ صفحاته ١٧ و ٧ لوحات وخارطات . اشترك في تأليفه المستر طمسون Thompson

١٣ — (مذكرات عن الأعمال البحرية الجديدة) بولاق ١٩١٨ صفحاته ١٣ بلوحتين واشترك في تأليفه المستر طمسون Thompson

١٤ (كتاب الاسطرلاب النشوري) بولاق ١٩١٩ صفحاته ٢٨٠ . واشترك في تأليفه نوكس — شو H. Knox-Shaw . والاسطرلاب آلة فلكية قديمة تستخدم في قياس الزوايا التي بها يمكن تحديد خط الطول وخط العرض لمكان ما . والكتاب جداول في غاية الدقة ، لها مقدمة تفسيرية

١٥ — (مذكرات عن تحديدات حديثة لمواقع جغرافية في صحراء ليبيا) بولاق ١٩١٩

صفحاتها ١٥ وهي نتيجة البحث الذي تم في أثناء الحرب بين سنتي ١٩١٥ — ١٩١٨ . تكلم فيها عن وادي النطرون والمغرة والصحراء الواقعة بين مرسى مطروح وواحة قارة وما حولها وواحات السلوم وواحات سيوة وجغبوب وفرافرة والخارجة والداخلة والكفرة وبير الطرفاوي وعين هذه المواقع جميعها بالدرجة والثانية

١٦ — (اطلس الجداول الاسطرلابية البيانية) بولاق ١٩٢٨ . وهو شامل لخمس لوحات كبيرة

١٧ — (مد مرسى مطروح بالمياه) وهي الرسالة رقم ٤٣ طبع مصلحة المساحة بالآلة الكاتبة . تشمل ثلاثة اشكال اخرى مأخوذة بالآلة الفوتوغرافية وبها جدول وثلاث لوحات

١٨ — (على هامش جغرافية مصر) بولاق ١٩٣٩ صفحاته ٣٠٢ و ٩ لوحات وخارطات و٤٢ شكلاً ورسماً وهو كتاب شامل لخلاصة دراسات وافية وبحث طويل قام به المؤلف في المرحلة الأخيرة من حياته . قدم له بنظرة عامة في تكوين الأرض المصرية في الحقب والمراحل الجيولوجية المختلفة . ثم تناول خط سير النيل ومجراه وشاطئيه بالبحث المستفيض كما عالج تطورات المستوى الأرضي والبحري ومنطقة السد حيث توجد بحيرة كبرى . جاء في تسعة أبواب ثامنها مخصص للفيوم وبحيرتها . ولم يفت المؤلف ان يبين لنا آراء غيره ممن سبقوه فذكر علماء أمثال Schweinfurth, Whitehouse, Linant de Bellefonds, Jomard , Beadnell , Grenfell & Hunt , Hanbury Brown , Flinders Petrie و Sandford & Arkel وزود هذا المؤلف النفيس بخارطة بين عليها أسماء المدن في عصر البطالمة وما يقابلها في هذا العصر فضلاً عن البيانات الطبوغرافية للاراضي

١٩ — (آراء قدماء المصريين في الكون) انتهى منه المؤلف وعاجلته المنية قبل طبعه فهو آخر ما كتب ويقع في نحو ٣٥٠ صفحة

ولا يسعنا الكلام عنه قبل درسه ولكنه على كل حال من خيرة ما كتب كما أفادني عن ذلك حضرة صاحب العزة الأستاذ حسن فؤاد بك المراقب العام لمصلحة المساحة وهو الذي أخذ على عاتقه ابراز هذا الكتاب بالقدر الذي يناسب قيمته وقيمة مؤلفه

مصلحة المساحة : مصر احمد موسى

مختارات من «ميّ»[1]

رحمةُ الله عليها

ونفعنا اللهُ بما خلفتهُ من أدب رفيع

١ — عند قدمي أبي الهول[2]

الأفق واسع واسع، والليل عميق عميق، وأنوار المساكن وأضواء الشهب في أحشاء الدجى جراح وحروق، وأصوات المدينة تحدث عن أوصاب المدينة جاهلة ما عداها، لذلك جئت انشد الأختلاء والسكينة وراء تلال فصلت بين عمران البشر الضاج المقيَّد وعمرانك المستقلّ في حضن السكوت غير المتناهي

تتتالى على البسيطة شعوب ودول . تأتي بالاديان والشرائع واللغات والعادات وتتبارى هازئة في محق عمل الاجيال زلازل وبراكين وأعاصير وصواعق وأوبئة وثورات وزعازع وطوفانات — وأنت هنا رابض أمام اهرام انتصبت في وجه الفضاء تنقض أحكام الفناء . والهيا كل تلقي بين يديك حديث الدهر بألفاظ الحجر والصوان وتعزّزه بصور الأرباب والملوك والـكماة . وكأن ما نزل بها من العاديات بعض تلك الصور المنيلة خطابها بلاغةً وروعةً

هاهنا تربض فريداً على وثير الرمال في مملـكتك الفيحاء ،مملـكة الكتمان والايمان والجلال ، وعظمة القياصرة حديثة النعمة دميمة حيال عظمتك المجردة الرفيعة . والانسان المتطاول الشغوف بهتك الاستار يدخل ايوان وحدتك السني ولـكنك في غيبوبتك غير منظور لهذه الاشباح الفانية ، وغير ملموس لهذه الأيدي الدبابية المتنقلة على مخالبك ومنكبيك مزاحاً واستقصاء

غير ان الانسان ليس بالمازح المستقصي فحسبُ ، بل هو خصوصاً اللاعب المتألّم . يتناوله من الـكون قهراً دوّار الفواجع والنوائب فيدرك ان الثبات العام منسوج من الوجل والاضطراب ، وان البقاء الظاهر مصنوع من التغير

(١) توفيت ظهر الاحد الموافق ١٩ اكتوبر ١٩٤١
(٢) نشرت أولاً في العدد الممتاز من جريدة السائح التي تصدر في أميركا

والتحول . يدرك مأساة الكفاح بين الحرية والقدَر . يدرك ان عجاجات القوى تضيع جزافاً في شلال الدراري والانسال الجارف الآلهة والجاريين والشارعين والقديسين والانبياء والقتلة والقتلى سواسية . يرى التعاسة على طريق العروش والصوالجة والتيجان تختلط بقيود المجرمين . يرى الاعراس والجنازات والمواليد والوفيات يتخللها العوزُ والبطر، والمرض والعافية ،والخيانة والامانة ، والدعوى والتطير ، والضلال والهدى . وازاء ما يفطره ويعذّب سواهُ يظلُّ السكون على على ما هو والخلائق والاشياء تتوثب فيه وتتولد كالمياه الرهوة الرجراجة وكل ما خال منها وشيكاً كان نهايةً تعقبها بداية ، وانقاضاً تستوي عليها الأسس

واذ يزفر طالباً للحوادث تفسيراً يقال لهُ « هذه هي الحياة ! » « ما هذا الا الحياة » « لا تكون الحياة الا كذا » نعم يا أبا الاهوال الساعي ، ازاء الهبة والحرمان ، والوفاء والغدر ، والبياض والسواد ، والفخار والمذلة ، والغلبة والاندحار ، ازاء كل مسرة وكل توجّع التفسيرُ واحدٌ لا يتغير! اننا نفسر الحياة بالحياة، ونداوي داء الحياة بمصل الحياة ، ونهرب من الحياة لنجدنا والحياة وجهاً لوجه

***

وانا صورةٌ من ملايين الصور الحيوية نهضت اتفهّم الحياة كما نهض جميع اولئك الساكين . وكما وقفت قديماً على طريق طيبة تلقي الاسئلة على العابرين وقفت أسأل أبناء السبيل عن معنى الحياة . فقال أحدهم « هي صدر الام »

فالتصقت بصدر أمي فاذا أنا منهُ في عش دفء وحرارة وحصن مناعة وامان، لاترعبني الرياح العاصفة ، والرعود الداوية ، والبروق الململمة والسيول المتدفقة. ومرَّ يوم فضاق بي صدر امي وعدتَ الى موقفي أسأل « ما هي الحياة »

فأجاب مجيب «هي الدين والتقوى»

فبادرت أمرّغ جبهتي على عتبة المذبح مخفية اداة التقشف والامانة تحت مزركش الاثواب ، وأقرع صدري مستغفرة عن آثام لم أرتكبها وذنوب لم تخطر على بالي فناجتني الصور الصامتة في أطُرها وهمست لي الصلبان بنكال الحربة والمسامير. فمرَّ يوم ، وصدر الهيكل الذي كان ليناً عطوفاً انقلب كالمرمر صلابة

وبرودةً . وصارت الطقوس الدينية ترتيباً مرسحيًّا . وأرواح البخور التي كانت تنزل على فيض الوحي والالهام غدت مزعجة كعطور تنشرها ذوات الذوق الكثيف فعدت الى مكاني من السبيل سائلة « ما هي الحياة ؟ »

فقال صوت الغرور « وهل هي للفتاة غير التيه والدلال والتظرُّف ؟ »

قضيت أساجل مرآتي فتعشقت صورتي فيها . ولم أكن أفارق تلك الصورة الاَّ لأبحث عما يزينها ويجملها . وكان يبكيني مشهد الباكين . فأصبحت وقد تذوَّقت لذة اللهو واللعب في نسل خيوط القلوب . ومرَّ يوم ، فأطل شبح الملل في عيني . فعدت أسأل ابناء السبيل « ما هي الحياة »

فعلا صوت الحضارة في صفير البخار وجلبة الآلات وقال « هي الثروة والجاه العالمي وأبهة العمران »

فعدوت في سبيل هذه ، سوى أني لم أصرف ساعة حتى تحجر كياني فعدت واليأس يسحقني أسأل « ماهي الحياة »

سألتُ طويلاً وبكيتُ عزيزاً وقنطت حتى طلبتُ الموت فانبثقت صورةٌ من غور عنائي . لم تتكلم وانما فهمت أن الحياة عندها . أرأيت يا أبا الهول ، النجوم راقصة ؟ بلحظة تملل ثابت النواميس فرقصت جميع النجوم حوالي وخشعت الكائنات سجوداً لدى من هو شفيعها عند ذي الجبروت ، وتناقلت الموجودات صورة وجه واحد ، أو نخرت بنسخ خط من خطوطه وانتحال معنى من معانيه . فاستحدثتْ جميع الاشرقة نورها من تألق عينين اثنتين ، وصارت زرقة الجوّ وبهجة الربيع وطلاوة الامواج انعكاساً مبهماً ضئيلاً لتلك البسمة — البسمة البطيئة الرقيقة النادرة . واستدعتني الألوهية الى عرشها فوضعت يدي ويد الباري على لولب الوجود وقتاً واياهُ بادارة حركة الاكوان . فمرَّ يومٌ فقمعت ثورة النجوم وقدمت خضوعها للنظام الأوحد ، وعادت لكل كائن أهميتهُ في الخليقة : فرجعت أسأل العابرين « ما هي الحياة ؟ »

فقال صوت العلم الرزين « أنا الحياة لأني أشرح الحياة »

فألقيت بنفسي في الخضمّ الزاخر أعالج العلم المادي تارة والفلسفة الروحانية أخرى . كم من علم خلقنا ، أيها المليك ، لنبحث عما لايعلم ، وكم من لغة أبدعنا

لتشرح ما لا يشرح ! فهداني الجهابذة الى القوة التي يتم بها التفاعل الكوني بين الاجرام العاقلة وغير العاقلة فلا تتفلت من عناقها شمس ولا ذرة : الجاذبية فسألت وما هي هذه الجاذبية ، من رآها ، من سمعها ، من لمسها ؟ أهي وسيط يتنقل على نموذج الأثير ، أم هي سيال يتموَّج بنفسه مستقلا عن العناصر ؟ فأجابوا « ذاك سر الحياة وهو مجهول »

الحياة ! مجهول ! لفظتان تمثلان الانفصال والاتحاد جميعاً

هذه الرمال التي تفرش ربوعك بطنافس ناعمة ،منذ اربعة آلاف سنة ، يا حارس الصحراء ، منذ اربعة آلاف سنة ، والعلم يقلب الذرة الواحدة منها ويديرها، ويقسمها ويجزىء تقسيمها . لقد أوسعها بحثاً ، ونخرها درساً، وقتلها تشريحاً وتحليلاً متلمساً علّة تركيبها واللغز المتواري وراء محلها. فسارت جهوده من مجهول الى مجهول ومن استفهام الى استفهام، وما زال مثلي أنا الطفلة الغريرة يسأل « وما هي الحياة ؟ ما هي الحياة ؟ »

وهكذا طال استجوابي للسائلة فضحك كثيرون ومضوا لانهم لم يفهموا والقليلون الذين وقفوا وأجابوا أرهفوا فيَّ اللجاجة والحرقة والأسى

***

يا وليد بابل أم السحر والتعاويذ ، الى أي حقيقة رمز بك الرامزون ؟ لماذا جعلوا بين كفيك درجات خفية تفضي الى سرداب امتد وتاه في مجاهل الاهرام ؟ لماذا أودعوا قلبك مفتاح باب الغيب حيث كان العرافون يستمعون الآلهة الهواتف ولماذا لا يعرف موضع أصغرك الأجوف منك سوى شفتيك المطبقتين على كرّ الأعقاب .

تفتر شفتاك دون كشف واعلان ، أتأكيد هذه البسمة أم ايهام ؟ أإشفاق على دماء الفاداة وقد أذيبت فيها الأوحال ؟ أم لأن كل ما هو كائن أقلص من ظل حصاة حيال ما سيكون

هذا نيلك رضاب الطبيعة المحيي عُبدَ من منبعه الى مصبه لما يظهره من أريحية ووفاء ، أتدرك معنى احمراره الصيفي ومعنى خصبه ؟ أتفهم معنى شكل هندسي تجلت به اهرامك الخالدة ؟ أنت الذي نحتك الكلدان قبل ان يرسموا

دائرة البروج ، أتعلم هل كانت هذه الاهرام منائر للصحراء أم مدافن للفراعنة أم حصون دفاع ، أم مستودعات كنوز ، أم مجتمع عشاق ، أم محفلاً يدين فيه أوزريس موتاه ؟ أتعلم لماذا أدرجت أوراق البردي وأسرارها الهيروغليفية في الأكفان مع المومياآت في قلب التوابيت والنواويس ؟ أتعرف معنى سوسن الماء وزهرات عرائس النيل العائمة على النهر المقدَّس ؟ نحن الجهَّال نعلم أن جميع هذه رموز الى الحياة المتحكمة فينا ، وأنت ألم يبقَ لك ما يكتسب ههنا لتحول عينيك وتسكت سكوتاً لا ينتهي ؟

أم أنت لا ترقب هناك سوى ما نرقب ؟ أترصد حركة الأصبع الموجهة الابرة المغنطة نحو الشمال تجر بعدها النظم الشمسية وهيئات الكواكب ؟ أم تستعرض مواكب الأنوار والظلمات ، وجيوش الثوابت والسيارات وجحافل الأمكنة والأزمنة ؟ أم أنت تتهجأ اسم الحياة يخطهُ قلم النواميس بحروف الشموس والمذنبات والسدم والعوالم ؟ أم يذهلك تدفق الفيض الالهي من وراء حجب الوجود ليتكوَّن اثيراً وهواءً وناراً وماءً وهيولى ؟

نحن مثلك نترقب ونتوقع ونترقب ، فهل تعلم ما هذا الذي ننتظره وتنتظره الآفاق المنحنية علينا ؟ لقد سُجِنّا في حالك الظلمات تخترقها خيوط النور حيناً بعد حين، فنهب نحسبها مقدمة لتحقيق الرجيَّة وما هي غير السراب الخداع فيزيد الظلام حلكاً ونلبث في الانتظار مترددين

لقد دفن نصفك في الرمال المغيرة على علاك وما زلت ترقب الشرق وتبتسم ونحن تغزونا الكوارث وتفتك بنا الدواهي فنظل نترقب ونرجو

أصحيح ان لغزك لغز الدهور أم خلقك الانسان رمزاً له كما خلق آلهته على صورته ومثاله ؟ لقد أعطاك من الثور الخاصرتين مكمن الغريزة الجوفية الرامزة الى السكوت ، ومن الأسد براثن التحمس والاستماتة في القتال الرامزة الى الجرأة ، ومن النسر الجناحين المحلّقين في بعيد المدى الرامزين الى المعرفة ، ومنهُ — من أنسانيته — أعطاك الرأس مشيراً الى التبصر والارادة المدركة المتغلبة على الغريزة والانفعال والخيال . فكيف يحصر فيك جميع هذه النزعات التي تتجاذبهُ ولا يضيف ما بقي ؟ لماذا لا يكون ابتسامك الدائم صورة الأمل

المتجدد أبداً فيه ؟ أليس أنهُ مثلك لأنك مثلهُ ؟ أليس ان في أعماقه أباهول شاخصاً أبداً في السموات العلى كلما ظفر بشروق لبث يتوقع بزوغ كوكب جديد وشروق شمس ساطعة ؟

---

٢ — عائشة عصمت تيمور

... أحصيت الأسباب العمومية لدرس الشاعرة ولكن لديَّ سبباً آخر، وهو مقابلة معنوية جرت لي معها منذ حداثتي القصوى

كان ذلك في تلك البلدة بفلسطين وقد بدا الحي متجلياً ببهجة الأعراس وبهائها لزواج ذلك الوجيه السري . ونُصب صيوان عظيم على سطح الدار الواسعة ليقام فيه مهرجان الفرح كل ليلة . فما يخيم الظلام الاَّ وتأخذ تعزف الآلات الشرقية تحت الخيمة الوضّاءة بتألّق الانوار ومعالم الزينات، الغاصة بوجوه القوم وأعيانهم من تلك البلدة وضواحيها

إذ ذاك يهرع أهل الحيّ الى الشرفات والنوافذ وسطوح المنازل يتسمعون الى آهات الطرب الشائعة في الفضاء حتى لتتهادى أصداؤها نحو ما جاور من جبال الجليل . والأطفال مغتبطون بأن يحتضنهم صدرٌ دافئ ويحميهم من أهوال الظلام، فتتنبهُ منهم النفوس لتفهّم أعجوبة الألحان

كنتُ على ذلك في ليلة فاذا بصوت ينشد على نقرة العود :

كحل بعينيك أم صبغ من الرحمن ... جفن من السحر ام سحر من الاجفان
خال بخديك أم صنع من الديان ... توّهت فكر الأنام في الجفن والخالات[1]
تبارك الله ما أحلاك من انسان

سمعت وأصغيت ليس بنفسي كما كانت صغيرة وقتئذٍ بل بكل قواي الكامنة التي سينميها المستقبل وبكل ما في الأيام التي عشتها وسأعيشها من أمل ويأس وسعادة وشقاء . ولعلي استشعرت ببعض ما سأفهمهُ بعدئذٍ من نجوى الموسيق

---

(١) كذا في الاصل . أما أنا فاذكره كما كنت اسمعه « توهت فكر الانام بالعين والحاجب »

الشرقية ... تقول ان الانسان يجهل كيف ولماذا ولد ، ولكنهُ يعلم انهُ يحتاج الى السعادة التي لم يفز بعد منها سوى بفتيت موهوم . تقول للطفل والشاب انهما أكبر سنًّا مما يظنان ، وتقول للقويّ الظافر انهُ ضعيف مدحور ، وتقول لكل أحد ان حياته كانت الى هذه الساعة خالية سخيفة قحطاء . تقول لهُ ان في الدنيا أموراً لم يختبرها وان جهله لها فقر وضنك وذلّ وعبودية وموت سبق الموت . تقول الاجتهاد والجهاد عقيم النتائج لان العمر قصير سريع العطب ، وان كل لحظة يجب ان « تعاش » بأكلها ليستخرج منها أقصى ما تكن . تقول ان القلب روي بالعبرات ينتظر اليد القادرة تضرب عليهِ لينفجّر كصخرة موسى . . . واذ تنطلق الأصوات سابحة كالأجنحة في فردوس من الألحان، ثم تصبح متفجعةً منتحبة ، ثائرة عاصفة تلج وتتمادى يخيل ان الفزع قد جوّف تحتها هاوية تترامى فيها الأصداء المرتعشة. فتعكف النفس على حاجتها ، ووحدتها وحيرتها بين هذه الهاوية وذلك الفردوس ، وتطلب التوازن والراحة في سحر الحب وذوب الحنان . . . ولكن العمر قصير سريع العطب ، وكل ما فيهِ موسوم بوسمه . . . ولكن الحياة مراوغة في استقامتها ، وشحيحة في كرمها ، وكل ما فيها كريم شحيح مراوغ مستقيم

هذا بعض ما قاله لي فيما بعد شهيق الأوتار ، فهل فهمت منهُ عندئذٍ شيئاً ؟ لا أدري . ولكن كم ذا انتقش الظلام بالمشاهد الخلاّبة لذكر ذلك الشخص العجيب الذي لم يكن أحد يعلم هل كان جمال عينيهِ كحلاً أم صبغاً من الرحمن ! ذاك الشخص الذي تاهت بهِ أفكار الناس فتجمهرت لتهتف : تبارك الله ما أحلاك من انسان ! أتتصورون أن هذا الرسم في مخيلة صغيرة شديدة التيقظ ، وفي نفس لينة ترتعش أمام مظاهر الفن والجمال حتى لقد تبكي لمرور سحابة زهمة في الأفق الأزرق

***

ولطالما سمعت هذا « الموال » بعدئذٍ من منشدين أصوليين وغواة يقبلون عليهِ إقبالهم على جميع الأدوار المصرية الشوقة . ولكن أكانوا يعلمون من هي شاعرتهُ

أرجح ان تلك كانت نشوتي الموسيقية الاولى فأبقت في آرائي كأنما هو اشارة من روح التيمورية تنبهني. وما تبينت تلك الاشارة الا عند مطالعة ديوانها والاهتداء الى ذلك «الموال» فيه. فأدركت انها حدثتني منذ زمن بعيد تلك الروح التي غاصت نغماتها الحزينة الطروبة في أرواح المنشدين فخبت على أوتارهم ألحاناً ، وانطلقت على أمواج الهواء فناً وتغريداً وابداعاً . وهكذا تلك المرأة التي وقعت زفراتها في وحدة خدرها وراء الحجاب، صار الشجن والطرب منها فعالاً تتناقله أجواء الاقطار وتتأثر به ليالي الافراح في نائح الديار

كذلك برقت التيمورية في تلك الظلمة وكان ذلك النور منها رمزاً لنور آخر خطير . ان عائشة عصمت ظهرت حين كانت المرأة في ليل دامس من الجهل فجاءت بارقاً يبشر بحاضر المرأة المصرية ومستقبلها

---

٣ — كولمبوس

هو ذا الرجل الذي يريد تحقيق ما لم يسبقهُ اليهِ أحد . للناس جميعاً أطماع ومآرب : فهذا يسعى الى الثروة ، وذاك يشوق الى الحب ، وذلك يرغب في السؤدد والتفوق . القائد يبغي فتح المدينة ظافراً ، والملك يسره التفاف الرعايا حول أريكته ، والعالم يتفرغ لمعالجة الذرات والعناصر ، والمكتشف يودُّ استجلاء سر من أسرار الطبيعة . أما هذا الرجل فقد حلّق فوق كل فائز وكل عظيم لأنهُ انما يريد ان يوجد عالماً جديداً

هو فقير فارغ اليد ، يُنظر اليهِ بالريبة والتحذر لأنهُ غريب في قومه وعشيرته . هو شاذ مجنون لا يشبه الآخرين . ماذكر الأ ارتسمت على الشفاه ابتسامة التأفف والاستخفاف فرجعهُ السافلون بأقذار سفالتهم ، ولوَّث اسمهُ الخاملون بأوحال خمولهم

أما أنت ذو الفكر النبيل والنظر الثاقب ، فتقدم تجد ان هذا الرجل ليس له من بعض المعدمين الوقاحة والتطاول ، ولا من الآخرين المذلة والمسكنة . في ذاك الوجه تدرك إدراكاً مبهماً معنى العظمة والعبقرية . وعلى تلك الجبهة ترى

وسم المجد وقد حاذته علامة الحزن العميق الذي يرافق المجد في الغالب . وفي تينك العينين تبصر تعاقب التثبت والاستقصاء بنظرة تتغلغل فيك وقد ترجد عندها غور الهاوية وشروق الوحي والرؤيا . ثم ينسى هذا الرجل ما يحيط به من الناس والأشياء ناظراً الى عمود النور السائر أمامهُ في الفضاء نحو أبعاد قصية نحو شواطىء مجهولة ، نحو خراب سيصير بهمته عمراناً مجيداً

هذا الرجل هو كولمبس الذي قام يحقق ما لم تتخيلهُ كبار العقول على مرور أربعين قرناً . هذا الذي لا بيت له لم تعد تسعهُ القارات الثلاث . والبلاد والرياض والمروج التي فنيت فيها ملايين الآجال دهراً بعد دهر ، وتكيفت في رحابها الحضارات والأديان والأنظمة شكلاً بعد شكل — قد ضاقت بهذا الذي لا حسب له ولا نسب . فاستعمل فضلة من ذكائهِ للتقرب الى أرباب بلاد أخرى فعطفت عليهِ إيزابلاً الاسبانية ملكة قشتالة وحبتهُ بسفن ثلاث كاملة التجارة جاهزة المعدات فمضى نحو ذلك المجهول المنشود

***

نشر كولمبس شراعه على البحار بيد انهُ ما خطا الخطوة الأولى وراء عمود النور الا وتكشفت له الأخطار والمصاعب، قبله وصل الصينيون الى الحد الأقصى حيث تكاد تتقابل البراكين الاسيوية وبراكين اميركا الجنوبية . فوقفوا هناك ثم انقلبوا راجعين قبلهُ . كاد النروجيون ينتهون الى الجهة الشرقية من أميركا الشمالية فوقفوا هناك ثم انقلبوا راجعين . قبلهُ وصل العرب الى سويداء الصحارى المائية فأحجموا أمام بحر الظلمات ثم انقلبوا راجعين . أما هو الفرد الواحد فتابع المسير عنيداً . انعقدت لهُ الأيام على صفحة الماء أسابيع وتكونت الأسابيع شهوراً دون ان تقع عيناه على أنس الشواطىء . فتابع المسير عنيداً . الأمواه الكئيبة تحدق بهِ من كل جانب، والوحشة الفيحاء توسع الآفاق حواليه، وبحارة السفن يشكون ويتمردون، ونفاد الزاد يهدد بالموت جوعاً ويشير بالعودة . ولكن عزمة الصنديد لم تتزعزع ، وظلت بصيرته ترى ما كانت دونهُ الأبصار وفي وسط الغم واليأس بسمت يوماً أرض الميعاد وراء بكر الشواطىء وتراءى العالم الجديد للعالم القديم الآيس المترقب

٤ — شرر وحبب

حكمة اليوم في مذكرتي تقول ان الدَّعة أقدر من الحدَّة . كما ان أعظم الدهاء يكون أحياناً في البساطة

***

كيف أشفق على الذي يبدّد ألمهُ في الشكاية والتظلم فلا يبقى منهُ ما يستدعي الشفقة أكل شفقتي تتجه اليك أنت الذي لا تشكو مع ان ألمك الصامت لاحدَّ له ولا نهاية

***

هل من سبيل الى حل عقدةٍ تستوجب القطع ، وكلما لمستها علمت ان خيوطها من نياط قلبك ؟

***

من خساسة النفاق أنهُ يتكلم بلهجة تحاذي الصدق ويتلوّن بلون الواقع المحسوس

***

الألم الكبير تطهير كبير

***

الاختبار والعلم يصقلان العبقرية ولكن لا يقومان مقامها

***

الألم محسن كبير لانهُ يجرّدنا من الغرور والدعوى

***

سؤال صغير كنت أعيده على نفسي يوم كنت أستمع على مقاعد المدرسة ، للكاهن الصالح الذي كان يشرح لنا التعليم المسيحي، وما زلت اردده اليوم بلجاجة أشدَّ وحرقة أعمق : لماذا ... لماذا يخلق الله الأشرار؟

***

يحسب بعضهم ان السدود التي يجتهدون كثيراً في اقامتها تكفي لإطفاء نور الشمس وتضييق رحاب الفلك

***

جبّار هو ذاك الذي يكون شعاره في الحياة : «سأتألم ولكنني لن أغلب»

الحرب في سنتين[1]

في الوسع تلخيص حوادث الحرب العالمية الثانية في ختام السنتين الاوليين وبدء الثالثة، في ان المانيا ، على حسن تأهبها لها من سنوات وإضمارها الاعتداء كسبت معارك كثيرة ولكنها لم تكسب الحرب ، ولعلها أبعد عن كسبها في مستهل سنتها الثالثة منها في اواخر سنتها الاولى ، وان بريطانيا وحلفاءها على قلة تأهبها للحرب خسرت معارك كثيرة ولكنها لم تخسر الحرب وهي مع حلفائها ومؤيديها أدنى الآن الى كسبها منها في أي وقت مضى خلال السنتين المنصرمتين

كانت الآلة الحربية الالمانية متأهبة للقتال بعد سنوات من الانتاج الصناعي الحربي الكلي وتوسيع نطاق الجيش وسلاح الطيران ، وتدريب الفرق المنتقاة على أساليب الحرب الميكانيكية، ومعظم هذه الاساليب جديد مبتكر فكان ينطوي بحكم مافيه من الجدة والابتكار على عنصر المفاجأة ، العظيم الشأن في الحرب ، من قديم الزمان الى حديثه . فاجتاحت بولونيا في سبعة عشر يوماً والدنمارك والنرويج في نحو ذلك وهولندة وبلجيكا ولكسمبرج وشمال فرنسا في سبعة وثلاثين يوماً

فلما سلمت فرنسا وعقدت الهدنة مع المانيا وايطاليا ، بدا لكثيرين من متتبعي الحوادث ان المانيا باتت قاب قوسين او أدنى من كسب الحرب . ولا سيا عند ما علم ان بريطانيا خسرت معظم معداتها الحربية الحديثة في سهول فلاندرز عندما أجلت الجيش البريطاني عن دنكيرك . فكان هذا اليقين ، باعثاً رئيسياً على دخول ايطاليا الحرب (١٠ يونيو سنة ١٩٤٠ وكانت معركة فرنسا قد أشرفت على ختامها وعرفت نتيجتها العسكرية المحتومة) لتظفر بنصيبها من الاسلاب ، كما كان باعثاً على امتناع قادة فرنسا، بعد سقوط وزارة رينو عن المضي في المقاومة في افريقية وسائر الامبراطورية وهم لو فعلوا لكان لفرنسا شأن آخر أعظم وأكرم وأجدر بتاريخها وتقاليدها في هذا الصراع

﴿ دنكيرك : نقطة تحول في الحرب ﴾ غير ان الذين نفذوا الى سر الجلاء عن دنكيرك ادركوا بزكنهم ودقة نظرهم ان هـذا الجلاء لم يتم لانه اتفق ان كان البحر رهواً في أيام الجلاء (اوائل يونيو ١٩٤٠) بل لان سلاح الطيران البريطاني — وبخاصة قيادة المطاردات — استطاع ان يثبت سيادته على مضيق دوفر فتمكنت مئات السفن البريطانية — من سفن الحرب الى زوارق النزهة والصيد — من أن تنقل ما يزيد على ثلاثمائة الف جندي من الساحل الاوربي الى الساحل البريطاني . ولو لم تفرض المطاردات البريطانية من طراز هاريكاين وسبتفير سيطرتها على تلك الشقة الضيقة من الماء لكانت السيطرة عليها لسلاح الطيران الالماني ولما

---

(١) نشر الجانب الاكبر من هذا الفصل في مجلة « المصور » ٤ سبتمبر في مقال لرئيس تحرير المقتطف وقد أعدنا نشره بعد ما أضفنا اليه فقرات جديدة يقتضيها المقام تلبية لطلب طائفة من اصدقاء المقتطف

أجدى سكون البحر في نقل الجيش البريطاني ولاتيح للقاذفات والمنقضات الالمانية ان تغرق وتدمر وتعطب جميع السفن التي تحاول ذلك او معظمها

فلما تم الجلاء أدرك فريق من الخبراء العسكريين ولاسيما الذين يعلون من شأن سلاح الطيران في الحرب الحديثة ان غزو بريطانيا بات غير محتمل في سنة ١٩٤٠ واذا حاوله الالمان باءوا بالخيبة الذريعة . لانهم اذا عجزوا عن الفوز بالسيطرة الجوية فوق مضيق دوفر في اثناء اجلاء جيش مقهور ، فالغالب انهم يعجزون كذلك عن الفوز بها لحماية سفن الغزو . فيتولى البريطانيون تدميرها بالاشتراك بين سلاحهم الجوي وأسطولهم البحري المتفوق الواقف بالمرصاد

« معركة بريطانيا » ولكن الألمان ، لم يعبأوا على ما يلوح بهذه العبرة ، اعتزازاً منهم بقوتهم ، وثقة ببأسهم ، وثمة من الأدلة ما يشير الى اقدامهم على الخروج من ثغور المانش لغزو بريطانيا قل بعد من الحالة الا بعض من أقدم عليها وكان معظم من عاد يحمل آثاراً من عواقب اقدامه

كان ذلك فيما أظن حوالي منتصف سبتمبر سنة ١٩٤٠ ، وكان الألمان قد مهدوا له بغارات جوية نهارية واسعة النطاق على سواحل بريطانيا الجنوبية خلال الأسابيع الثلاثة الأخيرة من اغسطس ، ثم على لندن في أثناء شهر سبتمبر ، ولكن سلاحهم الجوي مني بخسارة فادحة في الرجال والطائرات حتى ليقدر ما خسروه في هذه الغارات في شهري اغسطس وسبتمبر بألفي طائرة وستة آلاف طيار ومساعد طيار ، فكفوا عن هذه المحاولة في آخر سبتمبر وأوائل اكتوبر وخسرت المانيا « معركة بريطانيا » او تلك المرحلة من « معركة بريطانيا » ، وصح في رجال المطاردات البريطانية — واليهم يعود الفخر الأول في هذا الظفر البريطاني — قول تشرشل المشهور

Never in the history of mankind have so many owed so much to so few.

والى القارىء بعض ما جاء في التاريخ الرسمي لقيادة «القاذفات البريطانية» عن نصيبها في احباط حملة الغزو قبل قيامها : —

وقد شاع مرة وخاصة في أكتوبر ونوفمبر سنة ١٩٤٠ في اميركا وبر اوربا ان محاولات سفن الغزو قامت فعلاً وان قاذفاتنا تغلبت عليها في عرض البحر وقيل ان تاريخ قيامها كان في ١٥ سبتمبر . ولا ريب في ان موانىء المانش كانت محتشدة حوالي هذا التاريخ بعدد وافر من الصنادل والسفن وان سفناً كثيرة كانت تسلك الاقنية الى الداخل . وجميع هذه السفن قذفت قذفاً قوياً بقنابل الطائرات . ويبدو مرجحاً ان الغرض من هذه السفن المحشودة كان اشتراكها في المرحلة الثانية من الهجوم علينا . وهو هجوم كانت مرحلته الاولى السعي الى تدمير قواعدنا البحرية والجوية وكذلك اسراب سلاح مطارداتنا والفوز من هذا الطريق بسيادة

الجو . وقد شوهدت الصنادل والسفن الأخرى متجهة الى مواقعها في مستهل هجوم جوي وذلك اما لتقلع في الدقيقة المعينة في يوم محدد واما لتكون متأهبة بعد انذار قصير الأجل لاستغلال نجاح ما تصيبه الطائرات

أما عدد ما دمر من الصنادل والسفن الصغيرة وعدد ما قتل أو جرح من الرجال فليس له شأن حاسم مباشر الآن . ولكن حقيقة واحدة تبرز واضحة دون الحقائق الأخرى . وهي ان الغزوة لم تتم في الخريف الماضي . وعلى الرغم من أعمال التأهب العظيمة التي جرت وتمارين الغزو العديدة التي توالت مدى اسابيع على سواحل غرب اوربا من اركاشون الى دن هلدر ، ومع ان صغار الصبية كانوا يتبعون الجنود الألمان الى ارصفة الموانئ الهولندية وهم يقلدون بحركة ايديهم حركتها في اثناء السباحة ويخرجون من أصواتهم أصوات الغرقى ، ومع ان كل القارة الاوربية وقفت حابسة نفَسَها منتظرة انباء خروج هذه الأرمادا — ارمادة القرن العشرين — الى البحر — على الرغم من كل هذا لم تبد اشارة من القيادة الالمانية العليا ولم يشن هجوم ما. ولم تكن لتجرؤ على هذا ما دمنا نملك زمام البحر والهواء . وبتوالي الأيام طالت الليالي واشتدت غارات القذف على هذه المواقع وليس هناك ريب في ان هذه الغارات بدأت تؤثر في نفوس الجنود الألمان الذين أعدوا لركوب هذه الصنادل وازدادت الموانع التي تحول دون استعمال الموانئ لحشد الجيش الغازي فتعذر تحريك السفن الى مواقعها تحت وابل القنابل وفي حالة الإظلام التي تقتضيها الغارات. وصعب تسيير الجنود الى متن السفن . وكان غرضنا أن ننشئ هناك حالة من الفوضى ولاريب في أننا أصبنا الغرض وما فتئت خطتنا ضرب العدو في موانئه قبل ان يبحر

فلما كف سلاح الطيران الالماني عن الغارات النهارية الواسعة النطاق في أواخر سبتمبر لفداحة ما أصيب به من الخسارة ولعجزه عن الفوز بالسيادة الجوية فوق مياه المانش وسواحل انجلترا الجنوبية تمهيداً للغزو ، انقلب الى الغارات الليلية على مدائن انجلترا ، بغية ارهاب الشعب وتدمير مصانعه . فلم يفز من الأول بطائل بشهادة جميع المراقبين المحايدين وما أدركه من الثاني لم يؤثر في تعاظم الانتاج الحربي البريطاني الاّ تأثيراً مؤقتاً . واستمرت الغارات الليلية الالمانية على مدائن بريطانيا مدى أشهر الشتاء الى الربيع عند ما بدأت المطاردات الليلية البريطانية نشاطها الفعال في مقاومة المغيرات الليلية وتحول سلاح الطيران الألماني الى البلقان والجنوب ثم الى روسيا

﴿ الى البلقان وروسيا ﴾ وأدرك هتلر وهيئة أركان الحرب الألمانية ان اخضاع بريطانيا في

عقر دارها بالغزو والغارات الجوية بعيد المنال فوضعت الخطط لاتجاهين حربيين في وقت واحد احدهما تشديد الحرب البحرية بوساطة الغواصات والقاذفات البعيدة المدى والمغيرات السطحية على خطوط الملاحة في المحيط الاطلسي والثاني الهبوط بجيشه الى البلقان والتطرق منه اما الى الشرق الاوسط واما الى روسيا. ولكن المقاومة المنيفة الباسلة في جبال اليونان ثم في جزيرة كريت أتاحت للقوات البريطانية والمحالفة فرصة لاخماد فتنة العراق وتبديد خطرها وانتزاع سوريا من براثن صنائع المانيا الڤيشيين . وكان الجيش البريطاني قد سحق الامبراطورية الايطالية في شرق افريقية فتحولت الصورة الحربية في الشرق الأوسط تحولاً لا يغري كثيراً بمحاولة تنفيذ الخطة الالمانية فيه . ولعلّ هيئة اركان الحرب الألمانية، رأت على كل حال، ان المغامرة في تنفيذ خطة الشرق الاوسط — لو اتيحت لها العوامل المؤاتية — تعرضها لخطر عظيم ما دام المارد الروسي منتصباً في الشمال الشرقي على يسارها يعد العدة ليوم الحساب . ولعلها ادركت كذلك ان العجز عن قهر بريطانيا في النصف الثاني من سنة ١٩٤٠ وعن جرحها جرحاً بالغاً في النصف الأول من سنة ١٩٤١ يعني حرباً طويلة وألمانيا لا تستطيع ان تواجه حرباً طويلة الا اذا استوثقت من موارد اقتصادية وافرة تجدها في اراضي الاتحاد السوفياتي ولا تجد طائفة كبيرة منها في بلدان اوربا التي احتلتها فكان في هذا الادراك المزدوج مهد الاعتداء الالماني على روسيا

* * *

هذه الحرب حرب كلية تندمج في خططها الواسعة شؤون السياسة بحقائق الاقتصاد والصناعة بقوة الجيوش والاساطيل وأسلحة الجو ويشترك فيها الجند وغير الجند الرجل والمرأة على السواء . واذا كانت المانيا قد أحرزت حتى الآن ظفراً عظيماً في معارك متعددة وأخضعت معظم القارة الاوربية لسلطانها فان مصير الحرب الروسية لا يزال معلقاً في ميزان القدر وعلى الرغم من احتلال اراض روسية شاسعة لم يفز الجيش الالماني حتى الآن بتحقيق هدف واحد من أهدافه الرئيسية في روسيا، كاحتلال حواضرها الكبيرة، أو كسر جيشها وفل سلاحه او تدمير كيانها السياسي او استغلال مواردها المبتغاة

﴿ الحرب البحرية والاقتصادية ﴾— فاذا التفتنا من حرب البر، الى حرب البحر وحرب الاقتصاد، كانت لنا ناحية أخرى من الحرب، كفة المانيا مرجوحة فيها على العموم . فقد خسرت جانباً كبيراً من اسطولها البحري (خسرت بارجتين هما الجراف فون شي والبسمارك، وعطبت البارجتان شارنهورست وجنيسنو وخسرت طائفة من الطرادات والمدمرات في معركة النرويج وغيرها . أما الغواصات فلا يعلم على وجه التحقيق عدد ما خسرته منها لأن الكتمان يحيط هذه الناحية من الحرب البحرية) ، واكتسحت سفنها التجارية من بحار الأرض السبعة

ولا يسير ما يسير منها في مياه أوربا الساحلية الا وهو معرض للخطر . وقد كانت خسارة حليفتها ايطاليا في البحر أفدح ولا سيما في تارنتو (١١ نوفمبر ١٩٤٠) وماتابان (٢٧ مارس ١٩٤١) واكتسحت سفنها هي الأخرى من بحار الأرض السبعة، ولا تسير في البحر المتوسط — بحرنا على قول السنيور موسوليني — حتى ولا في الشقة الضيقة بين صقلية وشمال افريقية ، الا والطائرات والسفن الحربية البريطانية لها بالمرصاد . وقطع كل وارد تقريباً من وراء البحر عن المانيا وايطاليا والدول الخاضعة لها

وخسارة بريطانيا البحرية لم تكن يسيرة . فقد خسرت من بوارجها « الرويال اوك » التي ضربتها غواصة المانية في قاعدة سكابافلو (نوفمبر ١٩٣٩) و « هود » (في ٢٤ مايو ١٩٤١) وطائفة من طراداتها ومدمراتها وغواصاتها . ولكن الأسطول البريطاني ما فتىء سيد البحار ، وقد عوضت دور الصناعة البحرية البريطانية جانباً كبيراً مما خسره الأسطول وما تم صنعه من البوارج الجديدة يفوق ما خسرته عدداً وتفريغاً وقوة (ثلاث بوارج هي جورج الخامس والبرنس اوف ويلز والدوق اوف يورك وقد تكون الرابعة والخامسة من هذه الطبقة على وشك الانضمام الى الاسطول) . وفي كل معركة بحرية اشتبكت فيها القوات البحرية البريطانية كان الفوز فيها للبريطانيين ، وفي معركة ماتابان لم يخدش طلاء احدى السفن الحربية البريطانية التي اشتركت فيها !

غير ان آية القوة البحرية لا تتجلى في المعارك التي تستوقف الأنظار وحسب . ولكنها تتجلى كذلك في العمل الصامت الذي تنهض به مئات من السفن الحربية الصغيرة ، مدمرات تحرس القوافل ، وكاسحات تكسح الالغام وباذرات تبذرها ، وفي ألوف من سفن تنقل الزاد والعتاد، وأخرى تحرك الجيوش، وهذا عمل دائم اضطلع به الأسطول البريطاني وأساطيل حلفاء بريطانيا الحربية والتجارية على أوفى وجه، وما قوة الجيوش البريطانية في الشرق الأوسط ومنطقة سنغافورة الا دليلاً قائماً على صحة هذا القول

نعم بلغت خسارة بريطانيا وحلفائها بضعة ملايين من الأطنان في السفن التجارية ، ولكن خطر اللغم الممغنط أحبط ومعركة المحيط الاطلسي لم تسفر حتى الآن عن قطع « خط الحياة » بين اميركا وبريطانيا بل أجمع الخبراء في العهد الأخير على ان كفة بريطانيا فيها بدأت تميل الى الرجحان . واجتماع تشرشل بروزفلت في « مكان ما » بالمحيط الاطلسي في اغسطس الماضي برهان قاطع على من يسود البحار . وفي كل يوم يدخل المرافىء البريطانية ويخرج منها مئات من السفن الموسوقة

﴿ المدد الاميركي ﴾ هذه الحرب حرب كلية ، قاعدتها العريضة هي الموارد الاقتصادية والقدرة الصناعية . ولبريطانيا وحلفائها أن تعتمد على موارد الولايات المتحدة الاميركية

وقدرتها الصناعية ، اعتماداً على موارد جامعة الامم البريطانية وقدرتها الصناعية . والانتاج في جميع هذه البلدان — ولا سيما الولايات المتحدة الاميركية — لم يبلغ حده الأقصى بعد ، بينما الانتاج في المانيا والبلدان المحتلة التي تنتج لها بلغ حده الاقصى أو كاد

فمستقبل هذه الحرب ، محدود بعوامل شتى ، جميعها تفعل فعلها ضد المانيا . وفي مقدمة هذه العوامل ، اولاً — مد الانتاج الحربي الآخذ في الارتفاع في بريطانيا والولايات المتحدة ومن يواليهما . وثانياً — الاضطراب النفسي في صدور الشعوب الاوربية المقهورة ، وعدم استنامتها الى الذل والحرمان . وثالثاً — تفتح العيون والنفوس على أن النظام الذي يريد هتلر ان يقيمه في اوربا — بله في العالم — ينطوي على انكار جميع القيم الروحية في العمران التي هبط بها الوحي على الرسل الكرام وتغنى بها الشعراء وفصلها الفلاسفة . وهذا التفتح من شأنه ان يذكي البرم والقلق في نفوس الشعوب المغلوبة على أمرها وتعزز عزم الدول التي ما فتئت حرة على مناصرة الدول والشعوب التي تناهض النازية و « نظامها الجديد »

﴿ كيف تنتهي الحرب ﴾ أما كيف تنتهي الحرب وما السبيل العملي الى ذلك ومتى ، فمن يدري ؟ ولكننا نستطيع ان نتصور ما يأتي : — ١ — استنزاف جانب كبير من قوة المانيا الحربية في بطاح روسيا اذا مضت روسيا في مقاومتها الباسلة العنيدة وكذلك بفعل الحصر البحري وغارات القاذفات البريطانية على مصانع المانيا ومواصلاتها ٢ — نقمة الشعوب المغلوبة المحرومة — ومنها جانب من الشعب الالماني نفسه — حتى تصبح كالموجة الطاغية ٣ — ارتفاع مد الانتاج الحربي في بلدان جامعة الامم البريطانية والولايات المتحدة الاميركية ارتفاعاً يمكن القوات الدمقراطية المسلحة من التفوق تفوقاً حاسماً على القوات النازية المسلحة ٤ — فوز سلاح الطيران البريطاني بسيادة تامة فوق غرب اوربا تمهد لقوات الحلفاء البرية طريق غزوة اوربا مستعينة بالشعوب الناقمة المنتظرة وصول منقذيها

ومن الجائز — في رأي بعضهم — ألاّ تقوم ضرورة لغزو أوربا بالجيش ، على شرط انشاء سلاح جوي للحلفاء ، يستطيع امتلاك ناصية الجوّ في جميع النواحي في غرب أوربا وشرقها وجنوبها الشرقي . واذا كثرت فيه الطائرات التي تفتك بالدبابات — مثل الطائرة الاميركية « ايراكوبرا » — تغلبت على الدبابات الالمانية بغير منازلتها على سطح الأرض . وهناك فريق آخر يرى أنه لا بدّ من التفوق على الدبابات الالمانية بدبابات أكثر منها وأقوى وهؤلاء لا يرون مناصاً من غزو القارة الأوربية عند ما تجتمع الوسائل الكافية لذلك والتفوق الميكانيكي في الناحيتين متاح للحلفاء بمعونة الولايات المتحدة

لقد كانت بريطانيا وحلفاؤها تحارب حتى الآن للمحافظة على كيانها وفي المرحلة التالية من الحرب ستحارب لكي تفوز بالنصر الحاسم

النظام الجديد

في أوربا من الوجهة الاقتصادية

عند ما يتحدث أقطاب النازي عن النظام الجديد في أوربا بغية اقناع العالم بمحاسنه ، يشيرون الى « التعاون الحر بين الدول الأوربية في سبيل رخاء جميع الناس » . ولكنهم في الواقع يتأهبون لانشاء نظام ، تخضع فيه القارة الأوربية لألمانيا ، والقاعدة في خططهم هي تنظيم أوربا على أساس لا يتيح لدولة ما من الدول المغلوبة رفع رأسها ثانية او الثورة عليهم . وقصدهم ان يبسطوا فوق هذه الدول ظلّ « الاكتفاء » بحيث تصبح أوربا مستغنية عن استيراد الخامات من سائر العالم ولاسيما من الولايات المتحدة وأميركا اللاتينية ، وان ينقلوا ملايين من البشر لانشاء صناعات في مواقع لم تكن فيها صناعة ما قبلاً . وان يدمروا الى الأبد الحياة الصناعية في أماكن ما فتئت الصناعة مزدهرة فيها منذ قرون

وقد عكف خبراء النازي منذ نشبت الحرب ، على وضع الخطط المفصلة لهذا النظام . وقد تمّ وضعها الآن ، وجوانب منها طبقت فعلاً

قد يبدو لقراء الصحف ان طرد السكان الفرنسيين من الالزاس واللورين ، انما هو فصل آخر من فصول النزاع الألماني الفرنسي على هاتين الولايتين . ولكن الألمان جروا على مثل هذا في هولندا وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا . فقد رحّلوا السكان من مقاطعات كثيرة وأحلّوا الألمان محلهم . ويقدر عدد الذين رُحلوا بالقوة بنحو تسعة ملايين من السكان ولا يزال عشرة ملايين آخرين من السكان في انتظار مثل هذا المصير

وليس هذا العمل وليد الشعور الوطني الجتاح وحسب . لأن الغرض الرئيسي هو تحويل صناعات الحديد والكيمياء في أوربا الى صناعات ألمانية . ولا يخفى ان الصناعات الأوربية الكبيرة تكاد تكون محصورة في منطقتين ضيقتين ، احداهما على محاذاة الرين ، والثانية على محاذاة سلسلة الجبال التي تفصل المانيا عن بوهيميا . وقد كانت نصف مساحة هاتين المنطقتين قبل الحرب الخاطفة في أوربا داخل الحدود الالمانية . ولكن هتلر ينوي الآن أن يجعلهما منطقتين المانيتين من الناحيتين السياسية والعنصرية في آن

وتحويل هاتين المنطقتين الى منطقتين المانيتين قلباً وقالباً ، هو إحدى الوسائل التي يتوسل بها الألمان للحيلولة في المستقبل دون ثورة الأمم المغلوبة ، لأن قصد النازي ان ينزعوا سلاح هذه الأمم نزعاً دائماً . وليس هناك من هو أدرى من أقطاب النازي بأن الحروب

الحديثة، تُشَنُّ في المصانع وراء خطوط القتال، ولذلك لن يسمح لاحد غير الالمان بالاشتغال بالصناعات الاساسية

ولذلك ستحتكر المانيا صناعة الطائرات والدبابات وغيرها من وسائل الحرب الميكانيكية. وقد وصل مع النصائل الالمانية التي احتلت فرنسا طوائفٌ من المهندسين، أكبوا من ساعتهم على وضع كشوف دقيقة بما تحتوي عليه مصانع الطائرات الفرنسية من آلات، ثم نقلت تواً الى المانيا. ومصانع ستروين في باريس، تنقل الآن الى متز في ولاية اللورين التي ضمتها المانيا اليها ضماً نهائياً. واذا كان من المتعذر على الالمان ان يحلوا محلّ سكان منطقة ما، فالخطة الموضوعة تقضي بتدمير مصانع تلك المنطقة. فالمصانع الكيميائية الفرنسية والهولندية، مقضيٌّ عليها بالخراب والدمار، اذا لم تكن هي ومصانع الصلب في منطقة واحدة. وعلى هذا الخط فرر مصير صناعة السيارات في بلجيكا ودور السفانة المشهورة من قديم الزمان في روتردام وانفرس وبرست وصناعة الادوات الكهربية في هولندا. وقد روت الجريدة السويسرية « نوي زورخر تسيتونج » — وهي من الصحف التي يعتمد عليها — ان معظم الآلات في مصانع فيلبس الهولندية المشهورة بصناعة طائفة من الأدوات الكهربية، قد نقل من هولندا الى المانيا

وستختص المانيا دون غيرها بحسب هذه الخطط، في صنع الصلب والمحركات والسيارات وفي السيطرة على المصانع الكيميائية ومعامل البحث العلمي الصناعي. وفي ذلك تقول صحيفة « شفارتس كور » — وهي لسان حال الحرس الهتلري — « اننا لا نريد ان يبقى اثر ما لتقاليد الصناعة الثقيلة والهندسة الميكانيكية، والبحث الكيميائي، خارج المانيا »

وتنوي المانيا ان تشد ازر احتكارها لهذه الصناعات بالسيطرة على نظام الاعتمادات المالية في اوربا. ومن بضعة اسابيع أوردت جريدة « نيويورك تيمس » بياناً رسمياً بأن الحكومة النازية انشأت شركة محتكرة لجميع اعمال « إعادة التأمين » reinsurance في قارة أوربا. ومع ان هذا النبأ نشر في مكان لا يستوقف الانظار من صفحة ثانوية في الجريدة المذكورة، الا ان الخبر نفسه يوازي على الاقل خبر غزو المانيا لبلد اوربي آخر. لان انشاء هذا الاحتكار مكن المانيا من الاستيلاء دفعة واحدة على مقدار يتفاوت بين ربع الاموال الاوربية الموفرة وثلثها، لتستعمل المال في سبيل تحقيق اغراضها السياسية. وهذا العمل يمكن للسيطرة الالمانية على الدولة المغلوبة، اذ يتعذر على هذه الدول ان ترفع النير الالماني عنها بغير أن تؤذي الوفاً من الناس الذين عروا مالهم يسيرة مما وفروه وكذلك تحوّل منشأة قديمة مفيدة اداة لتثبيت الاستعباد النازي

ومع هذا لا يعتبر النازي ما تقدم وسائل كافية لتحقيق اغراضهم. انهم لا يعتقدون ان

اوربا تبقى خاضعة لهم ، ما دامت اوربا تعتمد في جانب من موارد طعامها وخامات صناعتها على الاستيراد. وهتلر مولود في قلب اوربا فهو في تفكيره بعيدٌ عن الاهتمام بشؤون البحر ولا يرى ان المانيا تستطيع ان تنافس الدول الاخرى في القوة البحرية كما فعل القيصر غليوم الثاني . ولذلك يجب ان تنظم القارة الاوربية على اساس يمكنها من إعالة نفسها بنفسها، وتوفير خامات الصناعة اللازمة لها في بلدان تستطيع المانيا ان تحميها بجيشها وسلاحها الجوي (وهذا يفسر اندفاعه صوب اوكرانيا) . فانشاء اوربا المكتفية المستغنية عن العالم ، هو اكبر مطامح هتلر في اوربا . وهو يفوق اعظم ما طمح اليه نبوليون وطمع فيه

وفي وسع شرق اوربا ان ينتج كلَّ ما تحتاج اليه المانيا تقريباً من الحنطة والنحاس وجانباً كبيراً من الزيت الذي تحتاج اليه المانيا وآلتها الحربية . ومنزلته المنتظرة في النظام النازي ان يغدو في المستقبل المنتجَ الاول للبضائع الصناعية الرخيصة التي تحتاج اليها جماهير الناس

ففي البلدان التي كانت تعرف باسم بولونيا وسلوفاكيا ورومانيا وهنغاريا ويوجسلافيا وبلغاريا يقطن نحو مائة مليون من الناس وخمسة وثمانون مليون من هؤلاء يشتغلون بالزراعة ولكن الأرض التي في متناولهم لا تكفي ، وتربة جانب غير يسير منها لا يصلح للانتاج الوافر . واذن فيجب ان يرحل نصف السكان او ان يفسح لهم مجال لتشغيلهم بالصناعة

ان الفلاح البلقاني ، معوَّد العمل ساعات طويلة ، وقد الف مستوى من العيش ، ليس أعلى كثيراً عن مستوى « الكولي » الصيني . وهو ذكيٌّ فهيم ولذلك تنوي المانيا ، على ما جاء في جريدة « اسينر ناسيونال تسيتونغ » — وهي لسان حال جورنغ — تحويل طوائف من هؤلاء الفلاحين الى انتاج منسوجات وأحذية وأدوات زجاجية وما اشبه لتباع الى السواد الاعظم من سكان أوربا البالغ عددهم ٣٥٠ مليوناً . ولهذا الغرض تنشأ مصانع عظيمة وتجهز بالآلات ضخمة تصنع في ألمانيا . ولكن يتعين على العمال ان يعيشوا في حجر كبيرة مشتركة ، وان يعمل العامل منهم اثنتي عشرة ساعة في اليوم او اكثر ، ويحظر عليهم الامتناع عن العمل او تبديله وفقاً لرغبتهم

وقد أنبأ النازي رجال صناعة الخزف والزجاج في الدنمارك ، انهُ عندما تضع الحرب أوزارها ، فستنقل مصانعهم الى تشيكوسلوفاكيا ، حيث تركَّز صناعة الزجاج والخزف لكل أوربا . وقيل لصنَّاع المنسوجات من الدنماركيين كذلك ان مصانعهم ستنقل الى بولونيا حيث تركَّز صناعة المنسوجات لأوربا الشرقية كلها . وقد ورد في بيان الماني رسمي ان جانباً كبيراً من آلات صناعة المنسوجات في شمال فرنسا وجنوب بلجيكا تنقل الى مصانع جديدة في سلوفاكيا وهنغاريا، وهذا يعني القضاء على صناعة ترتد في نشاطها وتقدمها الى القرن الثاني عشر

كانت هولندا وبلجيكا وفرنسا تتمتع قبل الحرب ، بموازنة لابأس بها ، بين الانتاج الزراعي والانتاج الصناعي . ولكن النازي ينوون القضاء على هذه الموازنة ، بالقضاء على الصناعات الكبيرة . وبينما يساق الفلاحون الى العمل الصناعي في البلقان يساق الصناع في غرب أوربا الى الارض وحرثها

والباعث الأول على كل هذا هو سياسيٌّ في المقام الاول . وقد أفرغه ضابط الماني ، في قوله : « بإزالة الصناعات من فرنسا تقضي القضاء الأخير ، على كل محاولة فرنسية غرضها الاعتداء علينا » ولكن خطة تحويل هولندا وبلجيكا وفرنسا الى بلدان زراعية ، لها مزايا اقتصادية كذلك . فموطن الضعف الأول في الزراعة الاوربية هو قلة انتاج العلف للمواشي وبلدان غرب اوربا تصلح من ناحية الجغرافية والتربة لانتاج مقادير وافرة من مواد العلف . فعليها اذن أن تنتج اصنافاً خاصة من المحاصيل الزراعية كانت اوربا تشتري معظمها من الولايات المتحدة وأميركا اللاتينية

ويزعم الألمان ان الحاجة تقتضي تحويل جميع سكان هولندا وبلجيكا وفرنسا — وعددهم ستون مليوناً — الى هذا الضرب من الزراعة فلا يفيض فيها عمال للاشتغال بالصناعة . ولا ريب في أن تطبيق هذه الخطة على غرب اوربا يفضي الى خفض مستوى المعيشة . ولكن هذا الاعتبار لايعيق النازي عن تنفيذها. واذا حُسب حساب ما هو معروف فقط عن موارد منطقة البحر المتوسط كانت كافية لانتاج جميع الخامات المامة التي لا توجد في المنطقة الاوربية المعتدلة وليس في الوسع احلال الاعواض Substitutes محلّها الآن

واذا نظرنا الى المسألة من الناحية الاقتصادية البحت وجب ان نسلّم بامكان انشاء قارة اوربية مكتفية. واذا طبقت أساليب الانتاج النطاق الواسع فقد لا يستغرق انشاؤها على هذا الغرار زمناً طويلاً ، ولا سيما اذا لم يحسب حساب للضحايا البشرية التي تضحّى في سبيله . وهتلر لم يقم يوماً ما وزناً للحياة البشرية .

ولكن هل يقنع النازيون بحصر جهدهم في السيطرة على اوربا بما فيها جانبٌ من روسيا ؟ او هل يوجهون سعيهم الى السيطرة العالمية ؟

قد يقيم بعضهم الحجة على ان انشاء النظام المتقدم الذكر في قارة اوربا يعني تخلي النازي عن الغزو العالمي . وفي الوسع كذلك اقامة الدليل على ان انشاء هذا النظام يمكنهم من اتخاذ قارة اوربا قاعدةً للاعتداء على اي منطقة أخرى خارجها. ولكن الخطط التي وضعها النازي تجلو لنا أمراً لاريب فيه وهو انهُ اذا أحرزوا الظفر فلا الولايات المتحدة ولا اميركا اللاتينية تستطيع أن تتجر بدولار واحد مع القارة الاوربية

كاتب الفصل الذي نقلناه في ما تقدم — عن ريدرز دايجست عن مجلة هاربرز — عالم اقتصادي اميركي من أصل نمسوي وهو يدعى دروكر Drucker وقد شغل منصب محاضر في الموضوعات الاقتصادية في غير معهد واحد من معاهد الولايات المتحدة ، وله مؤلف اقتصادي نفيس عنوانه The End of Economic Man ومقالات محكمة في مجلات اميركية محترمة كمجلة « هاربرز » وما كان على طرازها

ويسرنا ان نوجه انظار قراء المقتطف الذين يعنون بالناحية الاقتصادية من الحرب الى كتاب « النظام الجديد في اوربا » الذي ألفه الباحث الاقتصادي والمالي البريطاني « باول اينتسج » ونقله الى العربية الأستاذ أحمد عبد الخالق والاستاذ محمد بدوان . وهو من خيرة الكتب التي فصّلت فيها قواعد « النظام الهتلري الجديد » في اوربا من النواحي الاقتصادية والمالية . والى القارىء فقرة واحدة من كتاب أينتسج صفحة ٦٩ وهي تؤيد ما قاله دروكر ، والكتاب كله جدير بالدراسة : —

« وستنظم التجارة الخارجية أيضاً في ظل « النظام الجديد » لخدمة المصالح الألمانية وحدها فستقضي بالتأكيد على تجارة الصادرات للشعوب الخاضعة لسلطان ألمانيا اذا كانت هذه تنافس الصادرات الألمانية . ولقد ذهب الألمان الى أبعد من هذا فعطلوا بعض الصناعات الفرنسية التي تنتج مواد الترف للتصدير ، مع أنها لاتنافس الصناعات الالمانية بحال من الاحوال . ولسنا نستطيع أن نفهم هذا الموقف الذي تقفه المانيا من صناعات البلاد المحتلة الخاصة بالمواد المصدرة على أنهُ من وسائل التنظيم الاقتصادي وحده مهما كان في هذا التنظيم من رعاية لمصالح المانيا دون غيرها . ذلك أن من مصلحة المانيا أن تظل تجارة الصادرات في البلاد الخاضعة لها قائمة تمدها بما هي في أشد الحاجة اليه من العملة الاجنبية لتشترى ما تحتاجهُ من الحاصلات من وراء البحار . ولكن مصلحة المانيا السياسية والحربية تقضي عليها أن تعطل صناعات البلاد المحتلة الى أقصى حد مستطاع ، وأن تستحيل البلاد الخاضعة لسلطانها بلاداً زراعية خالصة . ويستدل من هذا على أن التنظيم الاقتصادي في ظل « نظام أوربا الجديد » لن يكون من ورائه الا الحاق الضرر بالبلاد الخاضعة لسلطان المانيا ، ولن يكون منشأ الضرر مقصوراً على أن المانيا ستراعي فيه مصالحها الاقتصادية وحدها ، بل سيكون من أسبابه أيضاً أن الاعتبارات السياسية والحربية ستسخر كلها لبقاء الشعوب التي تحت حكمها خاضعة لها خضوعاً أبديًا »

باب المراسلة والمناظرة

يهودية اشبنجلر

صديقي الفاضل رئيس تحرير المقتطف الغراء

أحييكم وأقدم اليكم التهنئة القلبية للتعافي ، وبعد فرأت في عدد أغسطس ما كتبهُ الاستاذ علي أدهم في عقيدة اشبنجلر رداً على كلمتي في عدد يوليو « توفية للبحث واستيفاء للحقيقة » كما يقول فأرجو منكم فسح المجال لما يلي في العدد المقبل لأنهُ كلمتي الأخيرة فيه ولكم جزيل الشكر

حين سألت الاستاذ عن مرجع حكمهِ بيهودية اشبنجلر لم اقصد به سَومَه النقاش فان عندي في الآراء وبخاصة في المسائل العلمية رحابة الصدر ، احترم كل رأي من حيث الرأي سواء كان خطأ أو صواباً غير أني بنفسي أبذل قصارى جهدي في أن يكون رأيي صواباً قويّاً ولا يكون قائلاً أو خطأ . فلذلك سألت الاستاذ عن المرجع لأغير رأيي اذا كان دليله أقوى من دليلي ، ولكني من الاسف لم أجده أقوى من دليلي لذلك رفضته ، فبدأ الاستاذ يناقشنا فيه

والنقاش اذا روعيت فيه شروطه وقصد منهُ الحق المحضّ في الحقيقة مفيد . ومن أهم شروطهِ ضرب كبد الموضوع وعدم الخروج عنه . ولكن عادة الاستاذ أن يخرج عن الموضوع بلا ضرورة كما عمل في كلمته السابقة اذ ساق كلامي بغير أي داع الى غير ما قصدته والى ماشاءه هو ، وأنزلني منزلة الجاهل فبدأ يلقي علينا درساً عن اسبينوزا وعن الزمن الذي عاش فيهِ وهو من البديهيات ، كذلك عمل في كلمته الاخيرة ما سنتكلم عنه فيما بعد . واني على كل حال أشكر الاستاذ واعتذر بكل الأسف أنني قد صرفت جزءاً هامّاً من حياتي في دراسة العلوم العقلية والفلسفية وتحملت مشقة تعلم عدة لغات لأستفيد من المراجع الاصلية دون التراجم لذلك أنا في غنىً عن دروس الاستاذ

وبعد هذا اتوجه الى كلمة الاستاذ الأخيرة . أما في الموضوع فلم يقدم لنا الاستاذ فيها دليلاً جديداً « توفية للبحث واستجلاء للحقيقة » اذ كلها إعادة وتكرار لما سبق واصرار

عليه ، وقد قلت سابقاً أن أقوال الرجل وآرائه واعماله على نفسه عندي أقوى وأوثق من شهادة غيره عليه ولذلك لا وزن عندي لاقوال الناس ودعاويهم في يهودية اشبنجلر ما دامت تصانيفه وآراؤهُ وأعماله تثبت خلاف ذلك. وهو السبب اني لم أتبسط في أقوال بعض زملائي الاساتذة في الجامعة إذ ذكرته كدليل ثانوي

أما قول الاستاذ : « كأنه يريد من اشبنجلر ... الخ » فلم أقلهُ وأنا لم أبتغِ بكلامي ذلك بل قصدت به ما قاله الشاعر العربي

وفي الأرض منأى للكريم عن الاذى ‏ ‏ وفيها لمن خاف القلى متعزل

فان العالم ليس عبارة عن بلاد المانيا فقط ومتتبعو الحوادث في العالم يعرفون وافرض ان الاستاذ ايضاً يعرفهُ انه حين بدأ اضطهاد اليهود في المانيا احتجَّ كبار علماء المانيا من اليهود وغير اليهود من اصحاب المبادىء الحرة عليهِ ، فلما لم يجد احتجاجهم نفعاً اختاروا الهجرة، فالعلامة اليهودي اينشتين هجر والشاعر الاديب الشهير توماس مان واخوه الكاتب هاينرش مان والكاتب البارع اميل لودوج والعالم الكيميائي هابر وغيرهم كثيرون هجروا فكان ممكناً لاشبنجلر ايضاً ان يحذو حذوهم على الاقل ولكنهُ لم يعمل بل شد ازر النازية بمصنفاته وأفكاره وهو أكبر دليل على انه لم يكن يهودياً

أما قول « الاستاذ انهُ آثر العافية والسلامة وسار في ركاب الاقوياء » فهو دعوى بغير دليل ولا ثبوت

أما في الامور الخارجة عن الموضوع فأتعب الاستاذ نفسه بذكر المراجع العديدة وترجمة بعضها في اثبات أثر اسبينوزا في جوته وهو تحصيل الحاصل فاني لم انكره ولا طلبتهُ منهُ كما لا اجهلهُ اذ جميع تلك المراجع عندي ، بل أعلم من مصنفات جوته نفسه اعترافه بأثر اسبينوزا وانتقاده له ، واما ما ذكرت في مقالي السابق من افكار بعض المفكرين له فهو مما قرأت منذ سنين في مباحث علمية تحليلية جليلة القدر عظيمة المنزلة لبعض كبار المفكرين في بعض المجلات الالمانية

عيّرني الاستاذ باني لم اكن اكثر دقة حين قلت في مقالي « ان فلسفة اسپينوزا تعد الى مدى كبير صدى الفلسفة العربية » وانا ارى ان الاستاذ بنفسه حسب المثل العربي « رمتني بدائها فانسلت » لم يكن اكثر دقة في فهم كلامي ، فما دعوتي بازدراء المفكرين العظام والعلماء الأفاضل ولم انوِ بهِ امتهان اسپينوزا ولكل امرىءٍ ما نوى ، وقد قيدت « صدى » بقيد « الى مدى كبير » ولم اقل ان فلسفته كلها كانت « صدى » او « ظلاً » كما قال الاستاذ. وما نقلهُ عن كتاب الاستاذ الدنماركي هارالد هوفدنج ايضاً يثبت ما قلتهُ إذ هو يعترف

باستفادته من ابن رشد وابن ميمون . وقد ذكرت في مقالي السابق المراجع التي يرى أصحابها الفضلاء أيضاً هذا الرأي . وعليه فأرجو ان لا يؤاخذني الاستاذ لو صارحته ان رأى هؤلاء العلماء هو عندي أصوب من رأيه

يقول الاستاذ على ذكرى حقيقةً تاريخيةً ملموسةً شهدها العالم منذ ربع قرن تقريباً وكانت أساس دعاية الجانبين ولا تزال ان لهجتي «الدون كيشوتية» مع ان كلمة الاستاذ بنفسه حسب المثل رمتني بدائها فانسلت ليست بخالية من تلك اللهجة فقوله «فرعون العصر الحاضر» وقوله «وهو محسوب على الثقافة الألمانية» اكبر دليل عليها . أوليس الأجدر إذن ان يعيد الاستاذ نظره في الكتاب الذي يرى ان أهديه أنا ، ثم يتولى هو بنفسه تقديمه الى من يشاء من الأحياء والموتى ، لان الطبيب أولى بمباشرة علاج مرضاه من غيره ، ولان علم الاستاذ يقدر باعجازه ان يصلح بذلك الكتاب الأحياء والموتى على السواء فينال به زعامة الأحياء في هذا العالم والموتى في يوم الحشر

وفي الختام استسمح الاستاذ لأوضح مسلكي في مثل هذه الأمور لكي لا يتعب نفسه في ذم فريق ومدح فريق آخر . أنا ياسيدي الاستاذ قد ولدت في بلاد شرقية لا تعد نفسها جزءاً من أوربا وتشعر شعوراً مستقلاً قويّاً بمجدها الماضي الشرقي وتسعى بكل ما لديها الى إحيائه على ضوء الافكار الحديثة بغير جمود ولا جحود ، وقد تثقفت بثقافة علمتني من الصغر «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ اذا اهتديتم» و «الحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها» وعليه فالحكمة او الحق هو ضالتي أينما كان لذلك اذا طعن الاستاذ في فريق دون فريق فأنا لا أتأثر منه لان للمسائل العلمية عندي قداسة فوق ذلك . وأعلن ان هذه كلمتي الأخيرة في الموضوع ، وفي يوم يقدر الاستاذ ان يثبت لي بآراء اشبنجلر وأقواله وأعماله ، او بمصدر نازي لان النازية ضد اليهود والاشياء تعرف باضدادها او بدليل آخر أقوى من ذلك انهُ يهودي ، سأعلن مشايعتي لرأي الاستاذ مسروراً ممتناً . وأما الدلائل التي دونها في القوة والوثوق او الكلام الخارج عن الموضوع فلا يستحق عندي ان أرفع له رأسي والسلام م؟

***

حاشية : استعمل الاستاذ في كلمته «افتراض» بمعنى فرض وما نعرفه هو أن افتراض يستعمل بالعربية لمعان خاصة غير معنى فرض فاذا كان الاستاذ اعتمد فيه على كلام أحد شعراء القدماء أو أئمة اللغة فنرجو ... ره في المقتطف وله الشكر

السيد ابو النصر احمد الحسيني الهندي



باب الأخبار العلمية

العلم والحرب وما بعد الحرب

ضرورة التعاون بين العلماء والساسة

مجمع تقدم العلوم البريطاني : من الهيئات العلمية الكبيرة التي تعوّد قرّاء المقتطف مطالعة اخبارها وقراءة محاضرات رجالها، وقد نشرنا من سنوات كتاباً كبيراً يحتوي على عدد وافرٍ من خطب الرآسة فيها . هذا المجمع لم يعقد اجتماعه السنويّ في السنة الماضية ، لأن شهر سبتمبر ، وهو الشهر الذي يعقد فيه الاجتماع السنوي عادة ، كان شهر موت او حياة في بريطانيا ، اذ فيه بلغت معركة بريطانيا أوجها من الشدّة والعنف الى ان رُدّت كتائب الالمان الجوية ،وغدت تحاذر الاغارة على بريطانيا في النهار ، ما عدا طائرات قليلة تأتيها فُرادى

ولكن المجمع عقد اجتماعه السنوي، في شهر سبتمبر الماضي (١٩٤١) وحضره فريق كبير من أكبر علماء العالم ، بل ان ثلاثة علماء على الاقل طاروا من الولايات المتحدة الى لندن ليحضروا جلساته ويلقوا فيها محاضرات نفيسة

ولم يقتصر اجتماع هذه السنة على العلماء البريطانيين بل شمل جماعة من أكبر رجال السياسة ، نذكر بينهم الرئيس بنش والمستر ايدن والمستر وينانت السفير الاميركي والمسيو مايسكي السفير السوفياتي والدكتور ولنغتن كو السفير الصيني ، كما شمل فريقاً كبيراً من علماء الحلفاء في مقدمتهم علماء فرنسا الحرّة ، وعلماء المانيا المضطهدة، وعلماء الصين المكافحة وغيرهم

كان الموضوع العام الذي عالجه اعضاء المؤتمر « العلم والإنشاء بعد الحرب » . وكان رئيسه السر رتشرد غريغوري رئيس تحرير مجلة نايتشر سابقاً . وكان المؤتمر نفسه تحت إشراف قسم جديد في المجمع اسمه قسم « العلم وعلاقاته الدولية والاجتماعية »

حرية علمائنا سلاح

بدأ الاجتماع يوم ٢٥ سبتمبر في دار المعهد البريطاني British Institute بلندن فتلا فيه الرئيس رسالة من المستر تشرتشل هذه ترجمتها ... « ازاء الظلام العقلي الذي أخذ يرخي سدوله على المانيا ، نعتبر حرية علمائنا سلاحاً قويًّا في أيدينا ، لأن التفوق في الارتقاء العلمي عامل حيويّ في التأهب للنصر

« ولا بدّ ان يستغرق جهد الأمم المتحضرة زمناً طويلاً قبل ان يرمموا ما يخلفه الألمان

وراءهم من الخراب المادي والأدبي . ولا بدَّ ان يستأثر هذا الجهد بجميع موارد العلم . ولكنني أنظر بعين الرجاء الى اليوم الذي يستطيع فيهِ علماء كل أمة وقف نشاطهم على عمل الانشاء المشترك »

السياسة خادمة العلم

وخطب المستر إيدن فقال « اننا ندعوكم لمساعدتنا في سبيل القضية التي نكافح من أجلها، وستزداد حاجتنا اليكم في عمل الانشاء بعد الحرب . عندئذٍ سنواجه كفاحاً آخر ، لا يقلُّ مشقة واستثاراً بالهمة وطلباً للتضحية من كفاحنا الحالي — وهو كفاح ضد الجوع ، والعبودية ، والألم ، ألم الجسم وألم الروح »

ثم قال : ان ما نبذلهُ وتبذلونهُ الآن من النشاط وقف على القضاء على نظام هتلر المضرج بالدماء الملفوف بالأوجاع . إن المانيا فرضت بنفسها على نفسها حصراً عقليًّا ، فهي مطوقة من الناحية الفكرية . وهي التي تخلت بنفسها عما يشيع في روح العلم من مبدإ الاشتراك العام والتعاون الدولي، إنها أبعدت خيرة علمائها ، إما بطردهم بالقوة وإما بانشاء حالة من العيش لا يطيقها روح العالم الحر

«وأبغض ما في النظام الهتلري ، هو فكرة « الشعب السيد» والشعوب المسودة الخاضعة لهُ . فالعلماء الالمان الذين لم يطردوا او لم ينفروا من المانيا ، أصبحوا عبيداً لنظامٍ يناقض كل ما يمثلهُ روح العلم الصحيح»

ثم تحول المستر ايدن الى موضوع العلم والاجتماع فقال : انما أسداه العلم الى الحضارة سهل أسباب العيش على كثيرين من الناس ولكنهُ أفضى الى غير قليل من التفاوت والأثرة والتوزيع الجائر والنزعة المادية. قال :

فاذا أردنا بعد الحرب ، ان تتاح لنا فرصة طيبة لمكافحة هذه المساوي ، فعلى العلم والسياسة ان يعملا معاً . عليكم ان تساعدونا وترشدونا ، واذا كان في قدرتنا ان نسدي خدمة ما فسنسديها مغتبطين . ان السياسة في اثناء الحرب خادمة الخطة الحربية (الستراتيجي) وأملي أن تغدو في أثناء السلام خادمة العلم . ويتعين على السياسة ان تضمن حينئذٍ ان ثمار العلم لا تضيع جزافاً ولا يساء استعمالها في حياة الشعوب

القضاء على الجوع والسيف

وخطب المستر وَينانت سفير الولايات المتحدة في لندن فقال « ان الخدمة الأولى التي في وسع العلم اسداؤها الى البشر الآن ، هي توحيد الأسلوب العلمي والعلم العملي في تأييد قوات الحلفاء المسلحة ، فهي تنشأ الآن وتدرَّب وتسلح لكي تقضي على سطوة النازي. إن أصحاب هذه السطوة حاولوا بقوة لا ترحم وقساوة لا تلين اهانة الكرامة الفردية والقضاء على حقوق الانسان » . ثم قال : — « ان النازية قد سرقت المخترعات العظيمة التي ابتدعتها العقول الحرة المبدعة

وانطلقت بها هائجة متهوّرة تستعملها في استعباد الروح البشري لا في تحريره». ثم قال: على العلماء ان يمدوا نظرهم الى ما بعد الحرب، اذ لا بدّ ان يكون العالم جريحاً كسيحاً تشتد فيه الفاقة، وتعظم الحاجة، فهناك المجال لأيدي العلم الآسية وقدرة العلم على الانشاء المنطوية في الفنون الميكانيكية والصناعية

***

« واذا نحن نحاول ونسعى جهدنا الى تأييد حقوق الانسان السياسية، وهي الحقوق التي لا غنى عنها وكنّا للتقدم العلمي وشرطاً للعقل الحرّ، فعلينا ألاّ ننسى ان على العلم تبعة عظيمة في ان يبذل غاية ما في وسعه لاكفاء حاجات الانسان الاولية، أي علينا ان نعترف بأن ضرورات الحياة هي جزء من حقوق الانسان. علينا ان نقضي على الجوع وعلى السيف وسيلة لتسخير الناس. وبهذه الوسيلة دون غيرها نستطيع ان ننفخ معنى وحياة في ذلك الحق الانساني « حق الحياة والحرية ونشدان السعادة ».

طرف من اقوال المحاضرين

كان نطاق الموضوعات التي عالجها العلماء في محاضراتهم واسعاً جدّاً ولكنها كانت تدور جميعها حول مسألة عامة وهي ما نصيب العلم في انشاء العالم الجديد، بعد ان يساهم العلم في قهر الطغيان النازي. وقد أجمع المؤتمرون على ان مساهمة العلم في قهر الطغيان النازي أمرٌ لا مفرّ منه، مع ثقله على طباع العلماء، لأنه اذا ظفر النازي واتباعهم في الحرب، قضي على الأسلوب العلمي في البحث وأساسهُ حرية الفكر والبحث

أما مقام العلم في الانشاء بعد الحرب، فقد عالجهُ كلٌّ من ناحية اختصاصهِ

فألقى الاستاذ لوثر جوليك — وهو أحد أساتذة جامعة كولومبيا وقد طار من أميركا الى لندن ليشهد هذا المؤتمر — محاضرة عما أنشأتهُ حكومة الولايات المتحدة بوادي نهر التنيسي من مصانع كبيرة لتوليد الطاقة الكهربية ومصانع للسماد وغيره، وساق هذا دليلاً على ما يستطيعهُ العلم متعاوناً مع الحكومة في اصلاح قطرٍ كاملٍ وشقِّ طريق الرخاء أمامهُ. فالمنطقة التي تشملها هذه المشروعات الاميركية العظيمة تبلغ مساحتها مساحة بريطانيا ولكن سكانها لا يزيدون على مليونين ودخلهم يسيرٌ وكثيرٌ من أرباب العائلات فيها لا يزيد دخلهم السنوي على ٥٠ جنيهاً في السنة أما الآن فقد أخذ الرخاء يعم المنطقة؛ وما أنشئ فيها من منشآت صناعية يسدي خدمات جليلة الى النشاط الحربيّ

وألقى المستر هربرت موريسون وزير الداخلية البريطانية محاضرة عالج فيها ما يستطيع العلم ان يسديه الى الناس في مسائل المأكل والمسكن والملبس بحيث لا ينزل أدنى ما يصيبه الفرد منهم عن مستوى معين يحدّدهُ العلم.

وقال ان تعيين هذه الحدود يجب ان يكون عاملاً سياسيًّا واجتماعيًّا من الطبقة الاولى . وقد صفق له المؤتمر وقتاً طويلاً عندما ختم خطبته بقوله «لا بدَّ للسياسي المطبق بأذنه على الارض لتبين الاتجاهات السياسية ان يخلي مكانهُ في ما بعد الحرب للسياسي الذي تحدق عيناه في المستقبل»

وخطب الفسيولوجي الكبير الاستاذ هل نائب جامعة كمبردج في مجلس النواب فبحث في موضوع مكانة العلم في الحكومة، ووجوب تعيين مستشارين علميين في الوزارات المختلفة على ان لا يقيَّدوا في بحث المشكلات التي تعرض عليهم بقيود الأداة الحكومية، لكي يكون بحثهم والنتائج التي يخلصون اليها قائمة على أساس علمي صحيح. وضرب مثلاً على ذلك بمستشارين علميين في وزارة التموين كان لآرائهم في شتى المسائل فائدة كبيرة . وختم بقوله ان البحث العلمي يجب ان يوضع له نظام ولكن بغير ان يجور ذلك النظام على روح البحث الحرّ

وخطب الدكتور نجرين رئيس الوزارة الاسبانية في عهد الحرب الاهلية فبين قيمة التدريب العلمي في حياة السياسي لانهُ يمكنهُ من البحث بحثاً دقيقاً والحكم حكماً صادقاً في المسائل المعروضة عليه . وكان بليغاً البلاغة كلها في مناشدته جميع الامم ضمّ الجهد للقضاء على «الحكم الكلي الوحشي الذي قام في اوربا»

ووصف الاستاذ برنال التقدم في بعض نواحي العلم ولاسيما في علم الإحصاء . وهذا يمكن العلماء ورجال الحكم من الاجابة عن مسائل كثيرة معقدة في الشؤون الفنية على أهون سبيل ومن أخصر طريق . وعنده ان هذه الناحية من التقدم يجب ان تختصر مدَّة تطبيق الاساليب الفنية الجديدة في الصناعة وملاءمة الاحوال الاجتماعية لها . وهذا في رأيه يحقَّق في اثناء الحرب متأثراً بضغط الحاجة فيجب ان يكون مستطاعاً في ايام السلام بوحي العقل

ووقف العالم الزراعي المشهور السر جون رسل خطبته على موضوع اصلاح الأراضي الزراعية الروسية التي اقتضت الحرب تدميرها فاقترح ان تنقل البذور المؤصلة التي استصفاها علماء الزراعة في روسيا، الى انكلترا حيث تحفظ في مكانٍ أمين لتعاد الى روسيا بعد الحرب، لأنها اذا وصلت اليها يد التدمير، فقد يتعذر عود الزراعة الروسية الى حالتها السوية قبل عشرات من السنين. وذهب الى ان تدمير أشجار الفاكهة في أوكرانيا من أبعث بواعث الأسى واقترح ان تجمع البراعم وتنقل بالطائرات الى حيث يتعهدها الخبراء بالعناية والرعاية ثم تعاد لغرس بساتين الفاكهة في اوكرانيا بعد الحرب

وخطب لورد صمويل وهو ذو منزلة عالية في دوائر الفلسفة علاوة على مكانته السياسية فبين منزلة العلم في تأييد قضية الحلفاء واقترح تعيين ملحقين علميين اسوة بتعيين

ملحقين حربيين وتجاريين بالسفارات والمفوضيات فيكون همهم تتبع مجالي الارتقاء العلمي في البلدان التي يوفدون اليها

وتلاه السر جون اور Orr العالم المشهور في موضوع الغذاء فقال ان اوربا ستواجه بعد الحرب أعظم كارثة نزلت بها فعلى الحلفاء ان يعينوا من الآن لجنة دولية لبحث موضوع الطعام ووضع خطة ينفذها الحلفاء عندما يكتب لهم النصر لاتقاء غائلة المجاعة والأمراض. وأيده في ذلك المستر نويل بايكر عضو مجلس النواب البريطاني، والاستاذ يوليوس لوي

وخطب المستر ولز ملخصاً رسالة طويلة كتبها للمؤتمر في مستقبل الانسان على سطح الأرض واحتمال انحطاطه وانقراضه اذا لم يحكم عقله ويطبق ما يقضي به العقل من ملاءمة نفسه للتحول العمراني. وبعد ما عالج مهمة رجال الفكر في إعداد العالم للمستقبل اقترح السيطرة على وسائل النقل الجوي، وحفظ موارد الارض من البعثرة والتبذير، وانشاء لغة مشتركة للتفاهم السياسي والعلمي والفلسفي والديني، وتأليف دائرة معارف عالمية. وهذه المقترحات ليست جديدة في أقوال ولز فقد عالجها في غير كتاب واحد من كتبه بل في جميع الكتب التي ألفها في العشرين السنة الاخيرة

دستور العلم والعلماء

وقد قرأ الرئيس السر رتشرد غريغوري على العلماء ورجال السياسة الذين حضروا الجلسة الختامية وثيقة وصفت بأنها « دستور العلم والعلماء » وهي تحتوي على سبع مواد اليك ترجمتها :—

١ — حرية التعلم، وفرصة التعليم، والقدرة على الفهم، لا غنى عنها في توسيع نطاق المعرفة، ونحن العلماء نقول ان التضحية بها تفضي الى إهدار كرامة الحياة البشرية

٢ — الجماعات تعتمد في بقائها وتقدمها على معرفتها أنفسها وخواص الاشياء في العالم الذي يحيط بها

٣ — جميع الأمم وجميع الطبقات أسدت أيادي الى المعرفة وطرق استعمال الموارد الطبيعية والى فهم تأثيرها في الارتقاء البشري

٤ — المبادىء الأساسية في العلم تعتمد على الاستقلال مقترناً بالتعاون وتتأثر بحاجات الانسانية السائرة الى الأمام

٥ — ان رجال العلم هم أمناء كلّ جيل على ما يرثه من المعارف الطبيعية. فيتعين عليهم ان يرعوا هذا الأرث وان يضيفوا اليه، بالوصاية الأمينة وخدمة المثل العالية

٦ — جميع طوائف المشتغلين بالعلم اخوان في جامعة العلم العامة، وهذه الجامعة نطاقها الارض قاطبة وكشف الحقيقة غرضها الأسمى

٧ — إن المضي في البحث العلمي يقتضي حرية عقلية وتبادلاً دولياً لا قيد لهما، ولا يترعرع الا في حضن الحياة المتمدنة الحرة

الموت [illegible] الى الاحياء

لعوض جندي عن الاستاذ هولدين

مفروض على كل امرىء في الاتحاد السوفياتي أن ينفع أبناء وطنه في أيام حياته وقد يطرد أحياناً هذا النفع الى بعد مماته ولادراك وسائل ذلك النفع لا بدَّ لنا من فهم شيء بشأن كنه الموت

كان المذهب القديم في الموت، انهُ مفارقة الروح للجسد . فاذا ما طلَّقت النفس جسدها، مات في هنيهة ولو شاهدت امرءًا وهو يلفظ روحه لرأيت نفَسَهُ ينقطع في لحظة معينة . وهذا سبب من الاسباب التي تجعل الحياة وثيقة الارتباط دائماً بالتنفس. ولا غرو فكلمتا حيوان وروح ، مشتقتان في اللغة اللاتينية من لفظين يدلاَّن على التنفس . ومتى فاضت روح الانسان، كفَّ مخهُ توّاً عن اداء وظيفته فيموت بوصفه كائناً حيّاً . ولكن بعض اعضائه الاخرى يظل حيّاً . اما اذا قضى المريض بعلةٍ غير قلبية ، بقي قلبه ينبض ما دام دافئاً ، مزوداً بالدم . وقد يلبث بعض خلايا بدنه حيّاً عدة ساعات

وما من شك أن خلايا فرُّوج أمكن حفظها حية زهاء ثلاثين سنة وذلك بوضعها في مزيج صالح لتغذيتها مؤلف من الدم والمصادر الغذائية الاخرى

«المترجم : يقصد الكاتب فلذة قلب الفروج في تجربة الدكتور الكسيس كارل . واليك ما قاله فيها فرناس في كتابه المائة سنة القادمة»

ينبغي ان يظل يوم ١٧ يناير سنة ١٩١٢ يوماً مشهوداً في علم الاحياء . إذ قام فيه الدكتور الكسيس كارل الطبيب المشهور في معهد روكفلر للمباحث الطبية بأدخار قطعة من قلب فروج لاجل الاعقاب . وكانت تلك الفلذة حية حينما نزعها من موضعها وتولى الاشراف عليها . وما زالت حية الى الآن وسوف تبقى كذلك لتصير تاريخية خالدة . وهي الآن في سنة ١٩٣٦ سليمة قوية البنية مثلها حين وضعت في ذلك المعتقل . ولكن يبعد جداً ان يستطيع أي مجرب عادي القيام بتجربة علمية كهذه في قلوب الفراريج . لان الدكتور الكسيس كارل يراعي تلك الفلذة مراعاة فائقة كأنها أميرة من الاميرات فيقدم اليها كل ما تحتاج اليه من اللوازم بحيث تبقى البيئة التي تعيش فيها تحت رقابة يقظة ، كما لو كانت كامنة في صدر فروجها ، إذ يوصل اليها الهواء الصالح والغذاء النافع من البروتينات التي تغذى بها الاجنة ، وترطب بمحلول ملحي مركز التركيز الملائم لنموها ، وهذا الى جانب تنظيفها جيداً من الفضلات التي تتبقى فيها ، من استحالة الغذاء . وبما أنها حية فهي دائمة النمو ، ولذلك تكشط الانسجة الزائدة من حولها لتبقى ذات حجم معين لا تتعداه . وكل خلية من خلايا الجسم البشري تلقى هذه العنايات جميعها . والمقصود من التركيب العضوي الحيواني انما هو تعاون طائفة كبيرة من الخلايا بعضها مع بعض ، بحيث يعنى كل منها بالوسط الذي تعيش فيه أخته ، فتتمكن الخلايا جميعها من الحياة . ومدار حياتها ، قيام كل منها بتنظيف الاخرى . إذ الخلايا الفردية لا تستطيع الخلود ، بيد ان فلذة قلب ذلك الفروج التاريخي موشكة على الخلود ما دام معاونو الدكتور كارل في معهد روكفلر داعو الرقابة على الجهاز المنظم الحرارة التي تحتاج اليها آناء الليل وأطراف النهار . تم ما أردنا اقتباسه من من ذلك المصنف النفيس ، إيضاحاً للموضوع

وتظل هاتيك الخلايا تنقسم بذاتها . ولكن لما يفلح امرؤ في خلق فروج جديد منها ، أسوة بالزارع الذي يتناول فسيلة من النباتات او فلذة من الحيوانات البسيطة جداً ليتمم تركيب ذلك النبات والحيوان . فلو كان الانسان آلة من الآلات المعروفة لاستطعنا ان نستبدل أية اداة تبلى من أدواته بأخرى من غيره ولكن دون ذلك خرط القتاد . وهذا ينطبق على الحيوان انطباقه على الانسان . فاننا اذا نزعنا رجل أرنب وغرزناها في جذع أرنب آخر ماتت في الغالب . وهذا عينه مايحدث بلاشك للانسان

ومن وجهة أخرى يتاح نقل الدم من انسان الى آخر بشرط ان يتم النقل من الطائفة الصالحة . وقد تصلح لتلك الغاية دماء الحديثي الوفاة على ان يكون موتهم غير ناتج عن مرض معد. ومع ذلك ففي وسع الاصحاء منح الضعفاء دماءهم دون أن يحيق بهم مكروه وبناء عليه غدت عملية التصفيق عامة مقتصرة على الاحياء

وللعمى عدة أسباب أكثرها شيوعاً تعتيم قرنية العين وهي النافذة الشفافة لمقدم العين . وكان الطبيبان زيرم Zirm الألماني وإلشينج Elshing البراجي (نسبة الى مدينة براج عاصمة تشيكوسلوفاكيا) في مقدمة من عالجوا ذلك الضرب من العمى بغرز قطعة من قرنية العين سليمة بدل قرنية مريضة ثم قام الدكتور توماس من أطباء كارديف في انكلترا بتحسين الطريقة المشار اليها

وفي ثغر أوديسا الروسي ، طبيب جراح وهو الدكتور فيلاتوف Dr. Filatoff قام بعدة عمليات ترقيع خاصة بقرنيات شفافة نزعها من عيون عميان كان علاجهم ميؤوساً منه . وهذا ينطوي على فقء العين من محجر رجل حي او امرأة حية يكون أعمى أو تكون عمياء من علة غير تعتيم القرنية . وكذلك جرب استعمال عيون الموتى وذلك بأن يثلج العين المقلوعة ، فوق درجة التجميد تماماً ، يوماً كاملاً او أكثر من يوم ثم يقطع منها بآلة خاصة جزءاً مستديراً يبلغ قطره نحو خمس قيراط. ثم ينقب في قرنية الاعمى ثقباً مماثلا لذلك الجزء المقلوع فيغرزه فيه . فدهش ذلك الطبيب المشهور من نجاح عمليته هذه [١]

فاستعمل رقعاً من قرنيات الاحياء [٢] فنجحت بنسبة ١٦ الى ٧٥ ثم جرب الرقع المنقولة من عيون الموتى فأعاد بها البصر الى ٨٧ من ١٣٥ أعمى

وقدر الدكتور فيلاتوف عدد العميان في العالم قاطبة بستة ملايين . وعدد المصابين بالعمى الجزئي بخمسة عشر مليوناً وهو يظن أن زهاء مليونين منهم يتاح علاجهم بهذه العملية علاجاً ناجعاً ، إذ

---

(١) عرض هذا المقال على صديقي الدكتور أحمد عبد الرحيم فهمي نطاسي العيون وكبير أطباء الرمد في المجموعة الصحية ببولاق في القاهرة فاعجب به

(٢) راجع «العمي يبصرون» في مقتطف فبراير سنة ١٩٣٩

تمكن حتى أوائل السنة الحالية من شفاء نحو ثلاثمائة أعمى ، بيد أنه يؤسفهُ أن نشوب الحرب الحالية أو التحيز الاجتماعي يحولان دون اتصال أطباء العيون السوفياتيين بزملائهم من أطباء الرمد في سائر انحاء العالم فيبقى أولئك المكفوفون على حالهم حتى تضع الحرب أوزارها

وذلك لأن جراحة العين من الفنون التي تتطلب مهارة فائقة وكل دقيقة من دقائقها لها قيمتها . ويستعين الدكتور فيلاتوف على اتمام العملية المشار اليها بمادة مطهرة هي الليسوسيم lysosyme فتوضع فيها العيون ريثما تباشر عملية الترقيع . والليسوسيم مادة طبيعية واقية من التعفن اكتشفها فلمينج Fleming أحد أطباء بريطانيا العظمى وذلك في دموع البشر وفي غيرها من المفرزات الطبيعية الجمة . ومع ذلك لم تستعمل في البلاد التي اكتشفتها بل اقتصر استعمالها على جمهورية السوفيات حيث يتوسلون بها الى وقاية البطارخ caviare من الفساد

وقد عني الدكتور فيلاتوف بالوقوف على سبب نجاح الانساج التي تؤخذ من عيون الموتى الحديثين اكثر منها عند نقلها من عيون الاصحاء فتبين ان التفاعلات الكيميائية التي تحدث في انساج الجسم البشري بعيد الوفاة وان يكن الجسم قد صين من العفونة هي التفاعلات نفسها التي تلين اللحم عند تعليقه في الهواء . وقد قام الطبيبان سبارسكي Sbarsky وفوروبيف Vorobiev بحقن جثة لنين بالمواد الكيميائية صوناً لها من التعفن فنجحا في تلك المهمة اذ أتيح لهما وقف التغيرات المشار اليها

وأبلغ الدكتور سبارسكي الاستاذ هولدين أن أرملة أميركية من ربات الملايين طلبت اليهِ وقاية رفات زوجها من التعفن وعرضت عليهِ مبلغاً كبيراً من المال فأبى لاعتقاده ان أرباب الملايين لا تسوغ معاملتهم أسوة بلنين .

ويلوح لنا ان المادة التي تتولد في الدور الاول من عملية التليين قبل ان تموت الخلايا موتاً حقيقياً هي التي تثبت الرقعة في مكانها وهي التي تساعد الانساج المحيطة بها على عودتها الى حالتها الطبيعية

وقد شرع فيلاتوف في نقل قطع كبيرة من جلود الموتى ، الى اجساد الاحياء ففاز بنتائج باهرة . ومما يذكر في هذا الصدد أن روسياً من المشتغلين باستخراج المعادن من مناجمها وبصناعتها احترقت يداه ثم عولجتا فشفيتا ولكن بقيت في يده اليمنى آثار زرق كثيفة حالت دون حنيها فعولج بعض تلك الندبات برقع طبيعية من جلد ميت فصارت الباقية ألين مما كانت عليهِ . ومن ثمة أتيحت اعادة استخدام اليد. وفي الآونة الحالية يجرب فوج من تلاميذ فيلاتوف ترقيع اجسام الاصحاء من جميع الانواع ويأخذون رقعاً من أبدان الموتى الحديثة . ويصح القول انهم متفائلون جداً اذ ظفروا ببعض نتائج تبعث على الدهشة





١ — الصعلوك ، أبو شوشه ، الموكب

ثلاث مسرحيات من فصل واحد بقلم الاستاذ محمود تيمور بك نشرتها مجلة « الحوادث »
في ١٣٦ صفحة من القطع الوسط — مطبعة عطايا بمصر

في عدد يونيو سنة ١٩٤١ من هذه المجلة بسطت القول في فن تيمور في آثاره القصصية فأوضحت أطوار فنه وسمات كل طور . وقلت في ختام ما كتبت ان فن تيمور دائم الحياة مستمر النبض ، ينقل عن الحياة فيحسن النقل ، ويأخذ من الخيال فيحسن الاخذ والتصوير كما قلت ان الوصف عنده من أدقّ مظاهر فنه، ومن أوضحها ظهوراً ومن أغزرها فيضاً بالحياة

واليوم أتناول اتجاهاً جديداً لفن تيمور ، إذ أخرج لقرائهِ ثلاث مسرحيات هنَّ أول مجموعة لالتفاته نحو المسرح . فلقد بذل جهوداً قوية في تدعيم فن القصة حتى أقام بنيانه موطد الاساس ، واتجه منذ حين الى أدب المغامرات فأخرج قصة « نداء المجهول » . وها هوذا يلتفت نحو المسرح يغذيه ويقويه كما كان يعمل أخوه المرحوم محمد تيمور بك من قبل

وشأن محمود تيمور بك في مسرحياته شأنهُ في قصصه ، فهو دقيق الملاحظة لا تفوته بسيطة من بسائط الجوّ المحيط بالصورة التي يرسمها . وهو يضع لكل شخصية ما يميزها من خلق او عمل فلا يتجاوز معها حدّها الطبيعي ولا جوهرها الأصلي فتبدو الصورة طبيعية . فهي إن كانت ساذجة ظلّت على حالتها من السذاجة ، وان كانت على شيء من الحيلة ظلّت ظاهرة المعالم بدون مبالغة

وقد وضع الاستاذ تيمور مسرحياته باللغة العامية الدارجة بل كتبها بحروفها كما تُنطق في اللغة الدارجة فلم يضع حرف القاف في مكان الهمزة في كلمة « قلت » مثلاً بل كتبها هكذا « ألت » . وحجته في تناول الحوار باللغة العامية الدارجة هو ان المسرحية ينبغي في كل تفاصيلها ان تكون صورة صادقة للحياة التي تصوّرها

وقد نختلف مع المؤلف في هذا الشأن فاننا نرى ان يكون أسلوب الحوار فيما بين

الشخصيات المثقفة اقرب الى لغة الكتابة الرقيقة . أما ما تنطق بهِ الشخصيات الساذجة فلا بأس من وضعه على حالته ولنا فيما وضعهُ تيمور بك في قصصه حجة لنا . لأن الأدب يجني من وراء هذا أغلى الثمرات . ولو وضع كبار الكتاب هذه الخطة للناشئة من الأدباء لأستمصى بعد ذلك تطوُّر الفن المسرحي في اسلوبه وإن كان المعوَّل فيهِ على القدرة على اجادة التصوير والأداء، وهذا أول ما يتجلى في مسرحيات تيمور كما يتجلى فيها الروح الفكه الوثاب الذي يسري في كل حواره ، وهو يعيد الى الأذهان الروح الجميل الذي كان يغمر المسرح من فنّ المرحوم أخيه

وقد رسم لنا في المسرحية الأولى منها شخصية المرأة المترفة التي يعبث ترفها بكل ما كانت تقدره المرأة في الرجل فأصبحت لا تجري الاّ وراء ماله لتشبع رغبات مظاهرها . ورسم لنا في مسرحيته الثانية صورة الرجل الذي محت حياة الريف في نفسه كل مظاهر المدنية وشغلتهُ عن عواطفه . أما الثالثة فهي صورة ساخرة من لونين من ألوان الحياة الاجتماعية بين آثار الماضي وزخرف الحاضر . وفي جميع هذه المشاهد تلعب ريشة تيمور بسحرها فتخرج الصورة في أجل إطار

وإنا لنرجو ان يمتد نشاط الاستاذ تيمور في تغذية المسرح فهو حريص على ان يؤدي رسالته كما يقتضيه فنه فلم يترك ناحية يستطيع فيها ان يرفه عن الانسانية بفنه إلاَّ اتجه اليها . ولقد أخرجت له دار « المكشوف » بلبنان اخيراً مجموعة صغيرة من القصص تحت عنوان « حورية البحر » وضعت للناشئة كما تخرج له قريباً مجموعة أخرى تحت عنوان « رجل رهيب » وقد أعلن هو عن مجموعة أخرى اسمها « قال الراوي » وهي في هذا الغرض السامي وانها لخدمة جليلة

٢ — أرواح شاردة

بقلم الاستاذ علي محمود طه — ٩٦ صفحة من قطع المقتطف — طبع شركة فن الطباعة بمصر

لقد كُتب على الملاح التائه أن يظلّ خفّاق الشراع جوَّاب الآفاق يطوي عالماً ليطلّ على عالم، وكأن جنيّات البحر لا يردنَ ردّهُ الى شاطىء ما حتى لا تستأثر بهِ عروس من عرائس الأرض

فهذه رحلة جديدة له ، رحلة بين أرواح ثارت على قيد الصمت العميق بعد أن وهبها الخلود عرشه ، وأطلعها على أسراره فظلت تطوف بهذا العالم كما يطوف الحلم الجميل بعين النائم الخلي

ولقد ضمت هذه المجموعة دراسات في الأدب الفرنسي تناولت علمين من أعلامه هما

« بول فيرلين » و« شارل بودلير » تناوُل شاعر لحياة شاعرين ، ومن أدرى بحياة الشاعر من الشاعر ؟ وهاتان الدراستان من امتع فصول الكتاب ، والى جانبهما دراسة من رسائل الكاتبة « ربيكا وست » فيها عرض جميل للأدب الانجليزي الحديث

وبعد هذه الدراسات نفحاتٌ قدسية ترجمها الشاعر من شتى ألوان الأدب فهذه قبرة شيلي ينقلها شاعرنا الى العربية نظماً غير مجترىء على معاني الشاعر وأفكاره وسياقه الشعري بشيء من الحذف بل مضيفاً ما يقتضيه اظهار المضمر من المعنى وتبسيط المركب من الخيال مراعياً في التعبير عن الاصل الانجليزي ما توحي به مقتضيات البيان الشعري العربي موفقاً ما أمكن بين الاثنين . وهذه قصيدة «الشاعر وكتابه» للشاعرة الاميركية « إدنا سانت فنسنت ميلاي » نقلها نثراً في أسلوب رائع ، وهذه « عودة الملاّح » لجون ماسفيلد ، وهذه «اغنية القطيع» لروبرت سيتول — وقد نشرت هذه القصائد الاربع في اعداد سابقة من المقتطف — فبيت الراعي لالفرد دي فيني ، وقد نقلها الشاعر الى الشعر العربي نقلاً جديداً ناسخاً به الترجمة التي سبق أن نشرها لها منذ أعوام . أما روائع الكتاب فهذه الفصول التي عقدها المؤلف عن ذكرياته في مطارح الغربة ومنازح القلوب ومسارح الفن والجمال عند ما طوّف في الغرب قبل ان تتلاشى جنّاته وتتقوض جنباته وتعصف أعاصير الحرب وويلاتها بسحره ومفاتنه

وفي الحق أن هذه الذكريات صور من الأدب العالي وقصص لروح شاعرة شاردة عادت الى وكرها تهتف بما ملئت من سحر وفتنة صاغها الشاعر في أجمل صور النثر فكأنما هي هدية اليه

فمتى تعود الى الغرب مباهجه حتى يعود الملاّح الى تيهه ويؤوب الينا بذكرياته، متى ! فلنعش يا اخي على هذه الذكريات العِذاب ، ولنضع عمرك بينها حتى لا تهتف بعد ذلك بأنك ضيعت عمرك في الاوهام، فما ضاع منك شيء ولك من هذه الذكريات حيوات وفيها شباب متجدد السمات

٣ — ويك عنتر !

رواية في ثلاثة فصول تأليف الاستاذ عادل كامل المحامي — ١٦٥ صفحة من القطع الوسط — مطبعة الحلبي بمصر

الاستاذ عادل كامل قصصي موهوب تلمس في أولى آثاره القصصية التي أخرجها وهي هذه الرواية، اشعاع هذه الموهبة ، وهو يكتب بفكره فتحس اثر ذلك في حواره وفيما يضفيه على جوّ المسرحية من ألوان

واذا كانت هذه المسرحية بما فيها من جهد وما فيها من تفكير ومعالجة لمشكلة من أدق مشكلاتنا الاجتماعية وتصوير المرأة التي تلزمها ظروف قاسية على أن تعمل ما لا ترضى به في سبيل ضمان الحصول لبناتها على أزواج بجانب أن تحصل لنفسها على « رجل » يمثل معها الدور الذي يضمن لبدها قبض ايرادها من الوقف فتكون وظيفته في الدار هي هذه الوظيفة فحسب كما يعالج

صوراً للشباب الذي فقد معاني « الرجل » من فتوّة روتها الأجيال السابقة فما استطاع ان يصطنع لنفسه في عصره المتحضر فتوّة كشباب العصر الخالية : فتوة لا تفقدها المدنية شيئاً من معنى الرجولة والحزم ....

اذا كانت هذه المسرحية بما فيها من هذا الغرض الجميل والفكرة القوية هي أولى آثار المؤلف فما أجدره بالتقدير والتشجيع ، فهو لا ينقصه من العناصر الأساسية في التأليف المسرحي شيء . على أن لنا مأخذاً على هذه الرواية هو ان المؤلف أضفى على شخصياته من الألوان ما اخرجها في بعض مظاهرها عن طبيعتها في الحياة حتى ليكاد القارىء يستبعد وجود هذه الشخصيات ويجعلها أقرب الى أن تكون صوراً مجسمة يحركها المخرج على المسرح اكثر مما تحركها الحياة . كما ان هناك بعض هنات في قواعد اللغة نرجو أن يتداركها المؤلف في الطبعة الجديدة

وانا لننتظر من الاستاذ عادل ان يتبع أثره الاول بغيره فلهُ في مستقبل الفن المسرحي مكانة جديرة بالاعجاب

حسن كامل الصيرفي

الثقافة الجنسية والامراض السرية

تأليف الدكتور حنا حنا — صفحاته ٢١٠ صفحة من القطع الوسط

من ألزم الواجبات أن يعرف كل إنسان ما يمس التربية الجنسية ليأمن الضرر ويتعرّف الى الخطأ في تربية النشء ومسالك الخطر في تكوين المجتمع . فمن أجل هذا تلقى المحاضرات ومن أجل هذا يعظ الواعظون ويكتب الاخلاقيون . ولكن لا بدَّ ان تكون أمام الانسان دروس ثابتة في كتاب يقرأها كل يوم فيملأ نفسه وتضع امام عينيه طريق التربية الحقة صوناً للاجسام والعقول فما أخطر على الامم من النقص في ناحية التربية الجنسية

ولقد اضطلع بعبء هذه المهمة الدكتور حنا حنا حكيمباشي مكتب البغاء سابقاً . والاخصائي في الامراض الزهرية والجلدية فأخرج لنا كتاباً في الثقافة الجنسية ألمَّ في فصوله الاربعة عشرة بكل مايتصل بهذه الثقافة من ابحاث علمية وأمثلة حية من التاريخ القديم والحديث فجاء كتابه خلاصة لتجارب طبيب مضى عليه ثلاثون عاماً وهو متصل اتصالاً وثيقاً بهذه الناحية واقفاً على ما يعتري شباب الامة من الصعوبات في سبيل حفظ أجسامهم بعيدة عن الدنس وحفظ عقولهم بعيدة عن عقائد فاسدة ونظريات لا أساس لها ، كما جاء الكتاب متضمناً خلاصة البحوث الجديدة في التربية وعلم النفس والطب وكل ما يتصل بالثقافة الجنسية وللمؤلف الباحث طريقة جذّابة في شرح فكرته واداء الامثلة عليها وسوقها للقارىء بحيث لا يحس مللاً ولا سأماً مما له اكبر الاثر في التهام ما في كتابه من ثقافة واجبة التعرف واجبة الحفظ . وهو كتاب جدير بأن يقال انهُ من خيرة ما وضع في هذه الناحية في المكتبة العربية

كتب صدرت عن الاقطار الشرقية

خارج القطر المصري في العشر السنوات الاخيرة وتناولها « المقتطف » ببحثه

١٩٣١

معجم البستان
وثيقة الدزدار وقضية العراق
خطبات لقمان
لا جديد في الجبهة الغربية
امكان التهذيب
على بساط الريح
التطبيب بالصوم
الفكرة الزراعية
مجلة الناشئة
الحصاد الاول
الماطر
آلهة الارض
كتاب الدواجن
مجلة الاصلاح
صحة الفم والاسنان
حقائق ودقائق
أصول علم الفلك الحديث
رسالة النسبة
الخيام
الآداب العربية وتاريخها
الدليل الثاني
عبدة الشيطان في العراق
البابيون في التاريخ
الانتدابات في العراق وسورية
المشرقيات
الحياة الزراعية
الزراعة الحديثة
فتح العرب للشام
ذكرى فوزي المعلوف
منابت الصهيونية
المجلد الثامن من الاكليل
الرسالة النباتية

١٩٣٢

سيد قريش
امراء الشعر العربي في العصر العباسي
الخطرات
تفسير الالفاظ الدخيلة
ذكرى الامير فؤاد ارسلان
ديوان الرصافي
الجاحظ
فتح الاندلس
كتاب العراق
ميزان الاكوان ودولاب الزمان
الصاحب بن عباد
جماعة أخوان الصفا

١٩٣٣

غرازيلا
سوريا في فجر التاريخ
ابو نواس
ديوان فرحات
علم الاقتصاد
الراحل
علم الطبيعة
الظمأ
الامواج
مريض الوهم
كتاب الرثاء
صلاح الدين وشوقي
كتاب الشخصية
امير الشعراء شوقي
التربية عند العرب
الكوخ الهندي
بول وفرجيني
اهم آثار دمشق
فن الصحة
شرح التكميل لخاتمة التسهيل
كتاب الفلاحة لابن العوام
عنوان الاريب
شاهنامة نوبخت
رحلة الى الثغرين الشحر والمكلا
القراءة الفريدة
تلخيص كتاب المقولات لابن رشد
حاضر العالم الاسلامي
ذكرى الشاعرين — ذكرى الدكتور محمد بن ابي شنب
* جبران حياً وميتاً
العروبة في الميزان — محاضرات في التربية والتعليم على طريق
الهند — مقالات في التربية والتعليم
ابن عبد ربه وعقده
رحلة الى بلاد المجد المفقود
الاعاصير — آلاء الرحمن في تفسير القرآن
علم طبقات الارض
مفكرة القس أسعد منصور
سلم اللسان في الصرف والنحو والبيان
جغرافية سوريا
جنفياز — انظمة التعليم
البخيل — سيرة حياتي
زفرات القلوب — أنتم الشعراء
آداب الطب وحياة الطبيب
صناجة الرياشي

١٩٣٤

الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي
من الصحة — الجزء الثاني
حيات في الغرب
الحكيم وسلمى
مختار البيان والتبيين للجاحظ
محاولات في درس جبران
تاريخ الوزارات العراقية
فيصل الاول
تاريخ نابليون بونابرت
الجغرافية العامة الحديثة
الجغرافية الطبيعية

قاموس لبنان
موجز الاغاني العراقية
تاريخ الصحافة العربية (جزء رابع)
الشرق والغرب
استشارات الطبيب المارس
أركان التدريس
رحلة الى العراق
مصطفى كمال أو المثل الاعلى
ابن سعود
تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني
الروافد
الاصلاح

الاوازيانة
في سبيل الحرية
مثلنا الاعلى
الحسناء العربية أو اوبات بنت اسحق
دلال
الحوضة القلوية
مجلة الدهور
أثر قديم في العراق
الاسلام والحضارة العربيه
علم الطبيعة
علم قياس المثلثات

١٩٣٥

الاسلام والحضارة العربية
معضلة السرطان
جبران خليل جبران
أغلاط اللغويين الاقدمين
على عتبة الأمومة
فن الجرائم
جولة أثرية

تاريخ الصحافة العراقية
الادب العربي في آثار أعلامه
من حي الى ميت
مفتاح العقول
تاريخ شرقي الاردن وقبائلها
نبات سوريا وفلسطين
شهر في أوربا

علم الامراض الباطنية
المعلم الجديد
عمر ابن ابي ربيعة
الاسلام الصحيح
المدرسة المستنصرية
الزراعة العملية الحديثة
يوبيل مجلة العرفان

١٩٣٦

لبنان في عهد الامراء الشهابيين
تطور الاساليب النثرية في الادب العربي
العراق في دوري الاحتلال والانتداب
قصص وأساطير وعادات شعبية لبنانية
الحيرة المدينة والمملكة العربية
تاريخ غزوات العرب
ميناء البصرة
تقسية الرسول العربي
الآثار المقطعة

عمدة الاديب امرؤ القيس
علم تكوين الجنين
تنظيم سوريا الاقتصادي
الادب العربي في آثار أعلامه
أسباب الحلة المصرية
شوقي على المسرح
الكيمياء العامة
ضجعة الموت أو بين أحضان الابدية
الحديث في قواعد اللغة العربية
محمد والقرآن
محاضرات في التربية والتعليم

شعراء العصور
حوض البحر المتوسط
الحبشة
عبقر
اعيان الشيعة
رحلة الى الهند
ديوان الامير شكيب ارسلان
علم الامراض الباطنية
تاريخ ابن الفرات
النظام الاقتصادي في سوريا ولبنان

١٩٣٧

- دياطاسرون طيطيانوس
- الامراض الجراحية
- شوقي أو صداقة اربعين سنة
- صور من الحياة في جبل القلمون
- سوريا
- عشر قصص
- الصبي الاعرج وقصص أخرى
- الفارابي
- الحكيم وليلى
- طرق التدريس المثلى
- التربية على طريقة دالتن
- علم الامراض الباطنة الجزء الثالث

١٩٣٨

- القضية الفلسطينية
- عشائر العراق
- الشرق في الآداب الفرنسية بعد الحرب
- مقاييس الكفاءة للاستقلال
- تاريخ ابن الفرات — المجلد التاسع — الجزء الثاني
- الحلل السندسية
- المعجمية العربية على ضوء الثنائية والالسنية السامية
- السيد رشيد رضا أو اخاء ٤٠ سنة
- كان ما كان
- الجدلية
- أرجوحة القمر
- نهم
- عمر افندي
- قميص الصوف
- أفاعي الفردوس
- ابن سينا الفيلسوف

١٩٣٩

- راشدان
- ديوان ابن الساعاتي جزء أول
- مقابر الفجر
- مصور الجيش العراقي
- دريفوس
- تل السنديانة
- معلقة الارز
- تفسير مابعد الطبيعة
- الرغيف
- وهل يخفى القمر
- كتاب الموسيقى الشرقية والغناء العربي
- مقدمة في الاجتماع
- مجموعة نادي القلم العراقي
- الازليان
- نخب الذخائر في أحوال الجواهر
- ملخص الكيمياء
- النواسي
- لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم
- سيف الدولة وعصر الحمدانيين

١٩٤٠

- فلسفة الطب
- النقود العربية وعلم النميات
- قدر يلهو
- الوعي القومي
- عمر ابن ابي ربيعة
- العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث
- سيف الدولة وعصر الحمدانيين
- الغدد الصم وتأثيرها في شخصياتنا
- الكاظمي
- النظام الاقتصادي في فلسطين
- الحلل السندسية في الاخبار والآثار الاندلسية
- مسند يعقوب بن شيبة في الحديث النبوي
- وادي الفريكة
- ديوان ابن الساعاتي جزء ثاني
- تاريخ حمص
- الاعدام
- الادب العربي في ماله وفي ما عليه
- الفلسفة
- ملوك العرب
- مجلة الحديث والمرحوم اسماعيل ادهم
- ديوان الشبيبي

ومجموعها ٢٤٦ كتاباً

وقد نشر المقتطف في اجزاء متفرقة من سنة ١٩٣٩ فصولا ممتعة في «الحركة الادبية في سوريا ولبنان» للاديب الشاعر الياس ابو شبكة

فهرس الجزء الرابع
من المجلد التاسع والتسعين



المقتطف



العلم والصوفية

للدكتور مشرفة وكيل كلية العلوم

الكولونل لورنس
والثورة العربية

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

ذكاء الحيوان

للدكتور محمد ولي من اساتذة كلية العلوم

اجنحة المستقبل

لمستنبط الاتوجيرو ده لاثيرفا



الجزء الخامس من المجلد التاسع والتسعين

١ دسمبر سنة ١٩٤١ ١٢ ذو القعدة سنة ١٣٦٠

ضوء النهار

في الانابيب

عند ما افتتح معرضا نيويورك وسان فرنسيسكو قبل سنتين من الزمان، كانت الانابيب التي تطلق في بعض ارجائهما نوعاً جديداً من الضوء، أشد معروضاتهما استيقافاً للنظر وكان طول هذه الانابيب في معرض نيويورك نحو عشرة أميال. وكان ينبثق منها ضوء قزحي لطيف، منتشر انتشاراً متساوياً كأنهُ ضوء النهار، ولكنهُ يختلف عنهُ في تلوّنه بألوان شتى لاتجارى في صفائها وبهائها

وما رآه الناس في هذين المعرضين، انما كان الفصل الأول من رواية الضوء المتألق، وهو ضوء تختلف قاعدتهُ اختلافاً اساسيًّا بيناً عن القاعدة التي طبقها اديصون في المصباح الكهربي المتوهج. ففي مصباح اديصون سلك معدني تحميه الحرارة الى درجة البياض فيشع ضوءاً باهراً. وليس في هذه الانابيب سلك ما، ولا حرارة. ومع إعجاب مرتادي المعرضين بهذا الضوء الجديد، ذهبوا الى أنهُ على الأكثر ألعوبة جديدة ليس من ورائها نفع عملي عام. ولم يقتصر هذا الريب في قيمة الضوء الجديد، على عامة الناس. بل جاوزهم الى غير واحد من خبراء الضوء. فقد كان رأيهم ان هذا الضوء لا تعدو منفعته حدود استعماله في الاعلانات الضوئية، على مثال الانابيب التي فيها غاز النيون. وقد كانت تعرض في المدن الكبيرة ومنها القاهرة، قبل ان ران الإظلام الذي تقتضيه حالة الحرب، على كثير منها

ولكن ريب المرتابين تبدد في خلال سنتين قصيرتين . لأن صناعة هذا الضوء الجديد التالي تقدمت تقدماً عظيماً في خلالهما ، وغدت أنابيبه ركناً أساسياً في اضاءة مصانع العتاد الحربي ، والمخازن الكبيرة ، والمطاعم ، والطائرات وما أشبه . وفي الولايات المتحدة الاميركية الآن ما يزيد على مليون مبنى تضاء به ، والانابيب التي تولّد هذا الضوء ، تمتد لو صُفّت في خطٍ واحد ، مسافة ستة آلاف ميل

واستعمال هذا الضوء في الاضاءة ليس الاّ ناحية واحدة ، من نواحي هذا التقدم العلمي الصناعي العظيم . ذلك بأن مبدأه قد طبق على أعمال شتى . فالاطباء الباحثون يجدون فيه اداة جديدة لدراسة المرض . والزراع وسيلة جديدة لانقاذ محاصيل البطاطس بمكافحة الفطر ، ومفتشو الصحة طريقة لكشف مواد الطعام المشوبة ، وسكان لندن اسلوباً فعالاً في ارشادهم الى المخابئ عند ما تغير الطائرات ويطفأ في المدينة العظيمة كل مصباح ظاهر .

هذا المصباح الجديد ، قائم على مبدإٍ جديد في تحويل الكهربية الى ضوء . فليس فيه سلك معدني كالمصباح الكهربي المألوف . بل فيه بخار الزئبق ، وهذا البخار يولد أشعة فوق البنفسجي عندما يجتاز الانبوب تيارٌ كهربي . والأشعة التي فوق البنفسجي تقع على غشاء مصنوع من مادة طباشيرية ، مبسوطة على باطن الانبوب ، فتتحول ضوءاً يصلح للانارة ، بل هو أصلح من الضوء الكهربي المألوف ، لأنهُ أخفُّ وقعاً على العيون ، وأبهى ، وأبرد ، وأقل استهلاكاً للطاقة التي لا بدَّ منها لتوليده ، من مصباح مزدا او تونجسرام

ومن أهم ما يتصف به ، انه يشيع الاضاءة في الحجرة او المخزن على التساوي فلست تجد جانباً من جدار مضيئاً وجانباً آخر مظلماً او قاتماً ، وليس للاجسام التي يقع عليها هذا الضوء ظلال ما والنتيجة التي أدركها علماء الضوء ومهندسوهُ ، في هذه الانابيب المضيئة ، ما فتئت غاية العلماء منذ نصف قرنٍ من الزمان . فقد انقضت خمسون سنةً أو تزيد والمهندسون الكهربيون يصنعون الضوء الكهربيَّ بامرار تيار كهربيٍّ في سلك . فيحمى حتى يتوهج ويضيء . وهذا مفضل على الاضاءة بالغاز . ولكن أحدث انواع المصابيح الكهربية ، التي تحتوي على سلك الطنجستن وغازٍ لا يتفاعل مع السلك ، لا تزال اتوناً حامي الوطيس في الواقع ، لأن الطاقة الكهربية تولّد حرارة اكثر مما تولد ضوءاً . بل ان تسعين في المائة من الطاقة الكهربية تنفق في احماء السلك وعشرة في المائة لا غير في توليد الضوء . ويلوح ان العقبة دون زيادة الضوء المتولد من الطاقة الكهربية ، مما يشقُّ تذليله . لان ارتفاع الحرارة في السلك فوق درجة معينة تصهر السلك . فتوليد ضوء ، لا تضيع تسعة اعشار الطاقة التي تولّده في الاحماء ، اقتضى البحث عن مبدإٍ آخر غير مبدإ احماء السلك في المصباح

وقد وجدوا السر في الضوء المتألق fluorescent فذللوا العقبة . وتفوّق هذا الاسلوب الجديد من اساليب الاضاءة ، بادٍ في عدد وحدات الضوء التي تتولد من تيار معين من الكهرباء. فطاقة « وط » واحد تولد في مصباح السلك ١٢ الى ١٣ وحدة ضوئية بينما تولد نحو ٤٠ وحدة ضوئية في المصباح المتألق . وقد بلغ عدد الوحدات الضوئية المولدة من « وط » في التجاريب العلمية في المصباح المتألق ٦٠ وحدة ، وقد تزيد كثيراً في المستقبل. والمهندسون الكهربيون لا يرون مانعاً يمنعهم من صنع مصابيح متألقة تفوق مصابيح السلك المتوهج ثمانية أضعاف في ما تولده من وحدات الضوء ، من قدر واحد من الطاقة الكهربية

ومن يزر معمل نيلابارك في مدينة كليفلند الاميركية التابع لشركة « جنرال الكتريك» يقابل فيه جورج إنمن وهو باحث كان له يد في اختراع هذا الاسلوب الجديد من الاضاءة. وهناك يرشده إنمن الى قطعة مبقعة من الصخر تشبه قطعة من الجبن تعلوها بقع صغيرة سود. ثم يطفىء انمن مصابيح الحجرة ويضع الصخر تحت مصباح يطلق الاشعة التي فوق البنفسجي . فيتحول الصخر الى كرة متألقة بضوء أبيض مخضارّ. هذا الصخر يعرف باسم «وليميت» willemite وهو مادة تكثر في انحاء اميركا وتتألق بوقع الاشعة التي فوق البنفسجي عليها

ان كلمة التألق او « الفلورة » fluorescence أصبحت الآن كلمة شائعة . ولكنها لم تكن تعني شيئاً اذا استثنينا رجال البحث العلمي قبل نصف قرنٍ من الزمان . ان كثيراً من المواد التي نشاهدها كلّ يوم تتألق ان عرضت للاشعة التي فوق البنفسجي . وقد انقضت ثلاثة قرون وبعض الناس يعلم طرفاً من هذه الخاصة الغريبة . ففي مستهلّ القرن السابع عشر (١٦٠٢) عاد سروجي ايطالي من الجبال ، بحجر تنطلق منهُ ألقة عجيبة ، عند ما يعرّض لضوء النهار . وكان هذا الرجل مشهوراً بعنايته بفنون السحر . فلما رأى الناس هذا الحجر الغريب العجيب بين يديه استعاذوا بالله من الشيطان وتجنبوا الحجر وصاحبه . ولكننا نعلم الآن ان ذلك الحجر كان يحتوي على مادة تتألق وانها كانت تتألق فعلاً متأثرة بالأشعة التي فوق البنفسجي في طيف الضوء الشمسي

وعنيت طائفة كبيرة من العلماء بهذا الموضوع بغير ان يوفق أحد الى تفسير مقنع لهذه الظاهرة . ومن نحو تسعين سنة اتجه الى العناية بها عالم انكليزي يدعى ستوكس [١] فجمع ما تفرّق من شتات هذا الموضوع وضمّها جميعاً في تجربة بارعة فأخذ قطعة من حجر « الكوارتز » — البلّور الصخري — وفرّق بها الأمواج الداخلة في تركيب ضوء الشمس، أي صنع طيفاً شمسيًّا ، ثم أخذ أنبوباً وملأه بمحلول كبريتات الكينا — وكان معروفاً

(١) راجع ترجمته في « اعلام المقتطف» صفحة ٢٠٣

أن هذا المركب تبدو فيه سمات غريبة عندما يعرض لضوء الشمس — وأخذ ينقل الانبوب من الطرف الأحمر في الطيف الى الطرف البنفسجي ، ثم الى ما بعد الطرف البنفسجي ، وهناك لاحظ ألسنة زرقاء عجيبة تملأ الأنبوب . فأثبت بذلك ان تأثر هذا المركب بالضوء يقتصر على تأثره بالأمواج التي فوق البنفسجي . وأنهُ قادر على امتصاص أمواج معينة ، من طول معين ، ثم يطلقها بعد تحويلها أمواجاً أخرى من طول آخر . فوصف ستوكس هذه الظاهرة بلفظ fluorescence أي « التألق » أو « الفلورة »

وكان ستوكس كغيره من أعاظم العلماء ، لايدري أن لكشفه هذا فائدة عملية ما . وكان لا بدَّ كذلك من التوسع في بحث هذه الظاهرة والتعمق فيها ، قبل أن يفضي البحث الى تطبيق عملي ما . وشرع الباحثون في المانيا وانكلترا وفرنسا والولايات المتحدة يعدون كشفاً يحتوي على أسماء المواد التي تتأثر هذا النوع من التأثر بالضوء وجرّبوا تجارب لا تحصى ليعرفوا أية منطقة من مناطق الطيف تؤثر فيها فتحدث تألقاً

وأخيراً خطر لباحث أن يجمع في أنبوب واحد بين الاشعة التي فوق البنفسجي ومادة متألقة . فكان من ذلك مصباح جديد . وقد ظهرت الأنابيب المتألقة أولاً في هولندا من نحو خمس سنوات أو ست سنوات ولكنها كانت مصابيح تحتاج الى تيار كهربي عالي الضغط ، وسلك كان لا يصلح للاستعمال العام . فألقي عبء تحسين هذا النوع من المصباح ، واتاحة استعماله العام الواسع النطاق ، على كاهل المهندسين الأميركيين

سحق إنمن صخر الويلميت ونقاه من الشوائب السود ثم خلط المسحوق بمادة صمغية وصنع منه غشاء لباطن انبوب من الزجاج . وركّب في طرفي الانبوب قطبين كهربيين وملأهُ ببخار الزئبق ليكون في منزلة موصل ثم اقفل الدورة الكهربية وسرى التيار الكهربي فتولد منهُ في داخل الانبوب قدر وافر من الأشعة التي فوق البنفسجي ، فأثرت هذه الاشعة في مسحوق الويلميت فامتصها وأطلقها اشعة أخرى تصلح للاضاءة ، أي أن الأنبوب أفاض ألقاً لطيفاً تضيء ما حولها ولا تتعب العينين

فتبين إنمن في هذا الأنبوب نواة الاضاءة المتألقة الجديدة . وفي خلال ذلك كان شاب يدعى كوكس مكبّاً على بحث الموضوع نفسهِ خاصّاً المسحوقات المتألقة بعنايته ، بينما كان طالب من طلاب الهندسة معنيّاً في شركة وستنغوس بالناحية الميكانيكية من المصباح الجديد فاخترع له مفتاحاً جديداً

وقد ارتقت أساليب صنع هذه المصابيح المتألقة . فالصخور لا تسحق الآن سحقاً ولا تنقى باليد ، وإنما كشفت اساليب فعالة اخرى للفوز بالمسحوق نقيّاً على أدرن سبيل ، وكشفت

عشرات من المساحيق التي تتأثر بالاشعة التي فوق البنفسجي فتولد ضوءاً متألقاً من كل لون مطلوب. وفي الشركات الصناعية التي تعنى بصنع هذه المصابيح يستطيع الباحث ان يرى زجاجات شتى في كل منها مسحوق اذا نظرت اليه في ضوء النهار كان عادياً أبيض كمسحوق الطباشير، ولكن خذ قليلاً من أحدها وعرّضهُ للاشعة التي فوق البنفسجي ترَ حبيباته وقد أصبحت كريات من الضوء الاخضر أو الازرق أو الاصفر . وبمزج المساحيق يستطيع الصناع ان يصنعوا مصابيح تولد ضوءاً من لون معين مطلوب . فالمساحيق الثلاثة التي تولد تألقاً وردياً، اولبنياً، أو أزرق، تولد تألقاً ابيض اذا مزجت معاً . فاذا غيّر المزيج تولد ضوء مصفار يشبه ضوء النهار، ولا يستهلك من الطاقة الكهربية الا ثلث ما يستهلكه ضوء المصباح المتوهج

ولم يكد يخرج هذا المصباح الجديد من قماطه في معمل البحث، حتى تلقفتهُ أيدي الصناعة. وقد اتفق في سنة ١٩٣٧ ان زار رجل يدعى باسيت جونز — وهو المشرف على أعمال الاضاءة في معرض نيويورك — معمل «نيلا بارك» حيث الباحث انمن، وسأل «ما عندكم من جديد في شؤون الاضاءة» ، فعرضوا عليه هذه الانابيب المتألقة، فعاد وهو لا يرضى للمعرض بمصابيح أخرى . وتعاقد مع جميع الشركات التي تصنعها، فاضطر رجال البحث ان ينزلوا من معاملهم الى حجر المصانع ويرتدوا ملابس العمال لكي ينجزوا الانابيب التي طلبها جونز في الموعد المعين . وقد صُنع مليونا انبوب منها في سنة معرض نيويورك، ولكن يقدر ما صنع منها هذه السنة وما ينتظر ان يصنع منها قبل نهايتها بعشرين مليون أنبوب

ومن محاسن الصدف ان اختراع هذا المصباح الجديد واتقانه، وافق شروع اميركا في برنامجها الواسع لاعمال الدفاع . وقد أثبت الامتحان ان هذا النوع من الاضاءة اصلح ما يكون في المصانع حيث العمل دقيق . وقد مدّ في احد مصانع الطائرات بكاليفورنيا أنابيب متألقة طولها ستة وعشرون ميلاً . والعمال في مصانع كريسلر للدبابات، وباكارد لمحركات رولز رويس، وبل للطائرات وغيرها، يعملون الآن على ضوء هذه الانابيب فيزيد انتاجهم زيادة تذكر وبغير ان يعرضوا عيونهم لتعب ما

كان الخبراء يعلمون عند ما شرعت الولايات المتحدة في برنامج الدفاع العظيم، أن اضاءة المصانع الاميركية، ليست على جانب وافٍ من البهاء ولاسيما في المصانع التي تصنع فيها أجزاء دقيقة . وكان معدل قوة الضوء في هذه المصانع لا يعدو درجةً معينةً من البهاء وهي درجة لا تزيد على جزء من مائة جزء من ضوء النهار في ظل شجرة . وكان المصلحون الصناعيون قد قضوا سنوات وهم ينادون بوجوب زيادة الضوء في المصانع، رغبةً في زيادة الانتاج وفي حفظ صحة عيون العمال . ولكن زيادة الضوء كانت تقتضي زيادة غير

يسيرة في النفقة التي لا بدّ منها لمد الأسلاك اللازمة ، واستهلاك مقدار اضافيٍ من الطاقة الكهربية . فلما بدأ مشروع الدفاع طالبت الحكومة بزيادة ضوء المصانع ستة أضعاف الى عشرة أضعاف . ولما كان المصباح المتألق يولد من تيار معين ثلاثة أضعاف الضوء الذي يولده المصباح المتوهج من التيار نفسهِ ، كان من الطبيعيّ ان يعتمد عليهِ في تحسين الاضاءة في مصانع الدفاع . فالمصباح الجديد في نظر الصانع الصناع وهو مكبّ على قطعة دقيقة من محرّك ، أشبه ما يكون بادخال الشمس الى حجرته

وقد حذت مصانع النسج حذو مصانع الدفاع في الاقبال على هذا الضوء المتألق . ولعلّ ضرب مثل واحدٍ يكفي لتبيان الفرق بين الضوئين . ففي احد هذه المصانع ، ركّب المهندس المختص باضاءة المصنع ، جميع المصابيح المتوهجة التي تسمح الأسلاك المدودة بتركيبها . ومع ذلك ظلّ الضوء ضعيفاً ، وظلّ ضعف عيون العمال ، حالة غالبة على رجال المصنع ونسائه . فلما ركّبت الانابيب المتألقة تضاعف بهاء الضوء بغير الاضطرار الى زيادة الاسلاك المدودة ، او زيادة القدر المستهلك من التيار الكهربي

ولا يخفى ان سنوات انقضت على مهندسي الاضاءة في دور الصوَر الفنية، وهم يحاولون ان يصنعوا ضوءاً يشبه ضوء نافذة شمالية ، وهو الضوء الذي يعتمد عليهِ المصوّر عندما يصوّر ، وذلك لكي يستطيع روّاد الدار ان يشاهدوا الصور في نفس الضوء الذي صنعها فيه المصورون . ولكنهم عجزوا عن تحقيق أمنيتهم إلى ان طلع عليهم المخترعون بالضوء المتألق ، فعمدت دار « معهد كارنيجي في مدينة بتسبرج » الى تركيب هذه المصابيح فيها ، فحُلّت المشكلة . وقد انتشر استعمال الضوء الجديد في المخازن والدكاكين ، ومعظم اصحابها يقرّرون ان استعمال هذه المصابيح وفّر عليهم نحو ٣٠ في المائة مما كانوا ينفقونه على الاضاءة . والاضاءة الجديدة أبهى وأجمل ..وأسفر الاقبال العظيم على هذه المصابيح عن انصراف الباحثين والمهندسين بعض الانصراف ، عن العناية باتقانها اتقاناً يلائم استعمالها في البيوت . ولا تزال هذه الناحية من الاضاءة الجديدة في دور التجريب والامتحان

ومما هو جدير بالذكر ان مدى استعمال الأنبوب او المصباح المتألق ٢٥٠٠ ساعة ويقابل ذلك في المصباح المتوهج الف ساعة . وتبديل انبوب قديم بآخر جديد من أسهل ما يكون غير ان الاضاءة في هذه الأنابيب تستغرق ثانية او ثانيتين بعد ادارة المفتاح ، ولذلك لا تصلح لاضاءة اماكن تشتدُّ الحاجة فيها الى الإضاءة فوراً مثل سلالم الدور الكبيرة

ولظاهرة التألق ، تطبيق عمليٌ عظيم الشأن في الصناعة والتجارة والزراعة والطب والفن والبحث الجنائي . وأساس هذا التطبيق ان كلّ مادةٍ تتألق بلونٍ خاص عندما توجّه اليها

الأشعة التي فوق البنفسجي . ومع ان هذا اللون ليس مقياساً حاسماً يصح الاعتماد عليه دون غيره في جميع الحالات ، إلا انه يهدي القائمين به الى رأي صحيح او أقرب ما يكون الى الصحة في أقصر وقت ، فلا يستغرق هذا النوع من البحث سوى ثوانٍ معدودات ، حالة ان التحليل الكيميائي قد يستغرق ساعات ؛ والى القارىء أمثلة منوعة على هذا

ان الحكومات التي سنت قوانين دقيقة لمراقبة ما يبتاعه الناس من مواد الغذاء، وجدت في هذا الاسلوب من البحث خير معوان . فقشر البيض الطازج يتألق عند توجيه هذه الأشعة اليه بلون وردي . أما قشر البيض القديم فيتألق بلون أزرق أو بنفسجي. ودقيق القمح والجويدار (rye) يتألق بلون أزرق خفيف حالة ان دقيق الشعير والبطاطس لا يتألق قط . فاذا خلط مخبز ما الدقيق الاول بالثاني ليصنع الخبز من هذا الخليط أسفر امتحان الخليط بتوجيه هذه الاشعة اليه ، عن ان تألقه الازراق اضعف من تألق دقيق القمح والجويدار النقي، فيكشف انه خليط . واذا أضيف مقدار من دقيق فول الصويا لا يزيد عن واحد الى اربعة في المائة ، الى دقيق القمح كان لون الخليط عند التألق غير لون دقيق القمح . وبالطريقة نفسها يمكن تمييز صنف جيد من القمح من صنف لا يبلغ مبلغه من الجودة . وتقاس جودة القمح عادة بمقدار ما في الحب من « الجلوتين » . فحبوب القمح الجيد — اي القمح الذي يكثر فيه الجلوتين — يتألق مكسرها بلون ازرق خاص حالة ان حبوب صنف آخر «جلوتينه» قليل، تتألق بلون اصفر. وكما تميز أصناف الحنطة بعضها عن بعض من حيث مقدار « الجلوتين » بهذه الطريقة تميز بعضها عن بعض من حيث أعمارها كذلك

وما يصح على القمح والدقيق من هذا القبيل يصح على أصناف الزيت والدهن والزبدة والشحم . وأغرب من ذلك ان هذا الأسلوب من البحث والامتحان مكن للباحثين تتبع نضج الجبن باللون الذي يتألق به عند تعريضه لهذه الأشعة وما ينتج عن التعريض من تألق بلون خاص . فالجبن الذي لا يزال في أول مراتب النضج يتألق بلون أصفر ، ثم يتحول رويداً رويداً الى لون أزرق عندما يكتمل نضجهُ

هذا مما يتعلق ببعض مواد الطعام . ولكن هناك ناحية أخرى تتجلى فيها فائدة هذا الأسلوب الجديد من أساليب البحث والكشف . نعني ناحية التحقيق الجنائي . فاذا عثر المحقق على شظية زجاج في ثنية من ثنايا ملابس متهم ، وكان المتهم ينكر التهمة ويستند الى انهُ كان في مكان آخر عند وقوع الجريمة ، ثم ظهر ان هذه الشظية تتألق بلون كاللون الذي تتألق به شظايا إناء مكسور في بيت القتيل ، فللنيابة من هذا البحث دليل قوي تضيفه الى أدلتها الأخرى . بل قد يكون هذا الدليل مفتاحاً يفتح به ما أغلق من خفايا الجريمة . أو قد

يعثر المحقق في جيب أحد المشبوهين على عود ثقاب يتألق عند توجيه الاشعة اليه بلون معين هو نفس اللون الذي تتألق به عيدان أشعلت وسقطت في حجرة سرق أثاثها وقتل ساكنها ، فيتخذ المحقق من ذلك منفذاً ينفذ به الى سر الجناية . ولم يمط اللثام عن سر جرائم متعددة الا بهذا الاسلوب .

ثم ان هذه الاشعة تفضح أساليب السجناء والاسرى الذين يحاولون أن يكتبوا بحبر خفي بين سطور خطاب مكتوب بحبر عادي . وقد كانت الطريقة قبل اكتشاف أسلوب البحث « بالتألق » أن تغمس الخطابات المشتبه بها في محلولات خاصة او تدهن بمواد كيمائية معروفة تجلو الخفي . ولكن توجيه الأشعة التي فوق البنفسجي الى خطاب مشتبه به يبدي حالاً المادة التي كتب بها بين السطور . لأن كل مادة من المواد المعروفة التي يستعملها السجناء والأسرى والجواسيس للكتابة الخفية تتألق بألوان خاصة وقد وضع بها بيان في المعامل الخاصة بهذا النوع من البحث . والأوراق المالية المزيفة تفضح عند تعريضها لهذا الضوء لاختلاف يتبينه الفاحص بين اللون الذي يتألق به ورق الأوراق المالية الأصلية وحبرها وخطوطها المائية ، واللون الذي يتألق به ورق الأوراق المزيفة وحبرها وخطوطها المائية

ومن هذا القبيل امتحان الصور القديمة . فتوقيع المصور في الصور التي ثبتت نسبتها اليه يعرض لهذا الضوء العجيب فيتألق بلون معين . ثم تأخذ الصور المختلف فيها أو المشتبه بأنها معزوة اليه ، ويعرض التوقيع عليها للاشعة فيعرف الصحيح من الفاسد . كذلك الرخام القديم يتألق بلون يختلف عن لون الرخام الحديث ، فلون القديم عند تعريضه للاشعة التي فوق البنفسجي ابيض مبقع فيه ظلال من اللونين الأصفر والازرق ، ولكن الحديث المكسر يتألق بلون ارجواني قاني

وما يصدق على الرخام يمكن تطبيقه مع التنويع اللازم على حجر المرمر والحجر الجيري والعاج

ولا يخفى ان بعض طوابع البريد القديمة والنادرة تباع وتشترى بمبالغ طائلة من المال وهذا يغري المزورين والمزيفين بتزييف طوابع جديدة حتى تشبه القديمة في مرآها ، وقد يبلغ التزييف من الدقة مبلغاً يعجز معه الهاوي البارع عن تبين الفرق بين هذه وتلك . فالبحث بالاسلوب المتقدم الذكر، يشبه البحث في الاوراق المالية، وكشف التزييف مستطاع بسرعة عظيمة ولاسيما لان مادة الورق والحبر والصمغ في طوابع البريد يمكن فحصها أدق فحص بهذا الأسلوب

أما في الطب فقد ثبت أن لكل نوع من أنواع البكتيريا تألقاً خاصاً به فباشلس الدرن يتألق بلون وردي مصفار وطراز A من باشلس التيفود يتألق بلون أصفر يخالطه قليل من اللون البنفسجي وطراز B بلون أصفر مخضار . والنسيج السرطاني يتألق بلون لؤلؤي ضارب الى الارجواني . وللفيتامينات وغيرها باب في هذا البحث يضيق عن نطاقه هذا الفصل

يقظة الضمير الاجتماعي

في الأمة المصرية

افتتاح معهد دراسات الطفولة

١ — كلمة معالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا

وزير المعارف ورئيس رابطة الاصلاح الاجتماعي

سيداتي، سادتي — يسرني أن أتحدث الى حضراتكم اليوم بوصف كوني رئيساً لرابطة الاصلاح الاجتماعي أكثر مني وزيراً لوزارة المعارف . على اني أعترف بأن المجهود الذي بذلته وتبذله الرابطة ، قد كان لصديقي العشماوي بك ولزملائي أعضاء الرابطة فيه من الأثر أكثر مما لي. ذلك بأني منذ أسندت اليّ شئون وزارة المعارف لم تتح لي الفرصة ولم يسمح الوقت أن أكون وثيق الاتصال بالرابطة ومع ذلك فقد خطت خطوات فسيحة محمودة . والمعهد الذي نفتتحه اليوم لشهيد بأن أخواني العاملين في الرابطة قد نهضوا بالعبء نهوضاً موفقاً مشكوراً

سيداتي : انكنّ خير من يعرف أن الطفل يكون من الحياة الانسانية كما يكون التمثال في الحياة الفنية . وكما أن ذوق الفنان وقوة نفسه وجميع مواهبه تظهر في تأليف التمثال ، فكذلك يظهر ذوق الأم أو المربية في تكوين الانسان خَلقاً وخُلقاً ، مظهراً ومخبراً ، والطفل الذي يتعهد تعهداً سليماً ينشأ سليم الجسم والعقل والذوق . أما الطفل الذي يتعهد تعهداً مريضاً فانه ينشأ مريضاً في كل شيء . واذا كان هذا المعهد يقوم بالاعداد لدراسة الطفولة فمعنى هذا أنه سيقوم بالاعداد لخلق جيل جديد كنا نرجو أن نكون نحن من أبنائه

سيداتي ، سادتي : أذكر في جولاتي خارج الوطن ساعات ، قضيتها في غبطة وسعادة ، بين الحدائق في عواصم البلاد الاوربية : لندن ، برلين ، باريس . تلك الحدائق بما فيها من أزهار بديعة وأشجار مورقة وتماثيل بارعة ، كان يفيض عليها من الحياة والجمال أطفال يأوون اليها فاذا الازهار أضوع شذاً ، واذا الاشجار أجمل منظراً ، واذا التماثيل أبرع خلقاً كأنما تطل عليهم بعيونها فرحة مستبشرة . وكنت أتمنى أن أرى من بنات وطني مربيات تمثل

ذلك النشء في بلادنا . ذلك النشء الذي استطاع حمل الأعباء العظيمة في العالم ، تلك الأعباء المعنوية التي تظهر الرجال أكثر من الأعباء المادية ، فالرجل هو من يواجه الكارثات والنوازل بجنان ثابت ، لا من يحمل الحديد والأثقال

فاذا كنتم إخواني أعضاء الرابطة قد نهضتم بهذا العمل العظيم ، تعاونكم وزارات الشؤون الاجتماعية والصحة والأوقاف والمعارف وغيرها ، فأنتم جديرون بالحمد وبخاصة من زميل لكم لم يكن له شرف مشاركتكم في العمل

والآن أود أن أتجه بكلمة الى الفتيات المثقفات اللاتي سيشتركنَ في هذه الدراسات . أرجو أن تعلم كل منكنَّ انها تؤدي أقدس الواجبات الوطنية حين تعمل في معاهد الطفولة ورعايتها ؛ وان واجبها ليس العمل في حدود المعهد أو المدرسة ، وإنما نشر هذه المبادئ بين الأسر وتقريرها في نفوس الأمهات . وإن هذا الوطن سيشكر لكنَّ أصدق شكر ما ستبذلنَ من مجهود في سبيل توطيد بنائه وتدعيم أركانه

وفقكنَّ الله للخير ، وألهمكنَّ الرشاد ، إنهُ سميع مجيب «

٢ — كلمة معالي الاستاذ ابراهيم دسوقي أباظه بك
وزير الشئون الاجتماعية

أيها السادة : انكم لتعلمون حق العلم ما تبذله رابطة الاصلاح الاجتماعي من جهود مثمرة في خدمة الوطن وما تنهض به من أعمال جليلة في سبيل الله والمصلحة العامة . فلقد دأبت منذ أنشئت على التذكير بواجب إصلاح المجتمع المصري ، فيما نظمت من مؤتمرات وما عقدت من دراسات ، ثم اتجهت وجهة عملية في خطتها الرشيدة ، فأرتنا مُثُلاً لتنفيذ الإصلاح ، وذلك بما أعدت من مؤسسات للكفالة والارشاد والتعليم . وما أحوج مجتمعنا الى أن تقوى بين رجاله العاملين هذه الروح الاجتماعية الخيّرة ، فان كل مؤسسة تقام إنما تضمد جرحاً من جروحه ، وتبرىء علة من علله ، وتعمل على أن يصبح جسمه سليماً أو أدنى الى السلامة

ومما لا شك فيه أن كل بناء تراد إقامته يجب على من يقيمه أن يُعنى أول ما يُعنى بأساسه ، حتى إذا اطمأنَّ إلى أنه متين وطيد ، كان البناء قميناً أن يشمخ ويعلو ويثبت للزعازع والأعاصير . وفي معتقدي ان الطفولة تنزل من اصلاح المجتمع منزلة الاساس من البناء ، ولهذا نرحب أكبر ترحيب بالمشروع الوليد الذي أخذته الرابطة على عاتقها منذ اليوم ، وهو إنشاء معهد لدراسات الطفولة ، تتلقى فيه الفتيات المثقفات ما ينشئهنَّ تنشئة صالحة ، ويجعل منهنَّ أمهات يدركنَ مهمتهنَّ السامية ، ويغرسنَ الرجولة الصحيحة فيمن يضعه المستقبل بين أيديهنَّ من الاطفال . وكان أولى أن يقدم هذا المشروع على كل مشروع ، وان يبدأ به

قبل كل شيء ، وبذلك نواجه المشكلات من أصولها ، ونعالج الداء في منبته

ولقد شعرت الأمة بما تعانيه الطفولة من إهمال في التنشئة والتربيب ، وما لذلك من أثر سيء في الغد المرجوّ للنشء ، فراح الأسرياء يسلمون أفلاذ أكبادهم الى الأجنبيات ، فكان الأطفال يستفيدون منهن جانباً من النظافة والنظام ، إلاّ ان التعويل على الأجنبيات أدّى الى خطر عظيم ، ذلك هو ضعف الشعور القومي ، وسوء التوجيه الثقافي . ونحن نسمو بآمالنا الى جيل جديد نستأنف به مفاخر ماضينا التليد ، ونستعيد به سير الأولين من أبطال العروبة شباناً ورجالاً أكفاء ، ولن نبلغ من هذا مأربنا الاّ اذا اشتدت قوميتنا واستقامت ثقافتنا على نهج رشيد

نريد أيها السادة أن يكون شبابنا على غرار عبد الله بن الزبير في رجولته الحقة ، إذ كان صبيًّا يلعب مع أترابه ، وما ان لحوا الخليفة قادماً حتى فرّوا وبقي في مكانه وحده . فسأله الخليفة : لِمَ لم تفر مثلهم ؟ فأجابه على البديهة : ليس الطريق بذي ضيق فأفسح لك ولستُ جانياً فأخشاك ! فقال الخليفة : سيكون لهذا الطفل شأن . وكان لابن الزبير من علو الهمة وشجاعة القلب ما سجله له التاريخ ، وظلّ مضرب الأمثال للابطال

نريد أيها السادة شباناً من طراز ذلك الشاب الذي وفد على أحد الخلفاء في جمع من قومهِ ، فتقدم دونهم يتكلم فيما حضروا من أجله ، فقال لهم الخليفة : أما فيكم من هو أكبر من هذا الغلام يحسن الكلام ؟ فقال له الشاب : لو كان الأمر الى السن لكان بين المؤمنين من هو أحق بإمارتهم منك ، إنما المرءُ بأصغريه قلبه ولسانهِ . فسرّ الخليفة من جوابه ، وأذن له في القول

فبمثل هؤلاء الشبان تتكوّن الامة الناهضة ، ويكثر الرجال العاملون ، وتمتلىء صحائف التاريخ بالمآثر والامجاد . ولن تقوم للشبان قائمة الاّ إذا احتضنتهم صدور وعت أشتات المعارف صحية واجتماعية وثقافية ، وتلقفتهم أيدٍ تعرف النفع والضر ، فتنشىء أبناء المستقبل على بصيرة وهدًى

ولقد سمعنا الآن من معالي الدكتور هيكل باشا أن كل فتاة يخرّجها هذا المعهد الناشىء تسدي الى الوطن خدمة جليلة ، وإني لأرى أنها تشترك في بناء الصرح القوميّ للمستقبل القريب . فلنَنْهض جميعاً هذا المعهد النافع ، ولنعاونه بما يسعنا من جهد ومال ولننتظر من ورائه الخير كله ما دام يرعاه رجال أخلصوا لله والوطن جهودهم أمثال صديقي الأستاذ محمد العشماوي بك الذي وهب للخدمة العامة ليله ونهاره . والله المسئول أن يكلل أعمال الرابطة بحسن التوفيق

٣ — كلمة سعادة الأستاذ محمد العشماوي بك

المستشار الفني لوزارتي الأشغال والشؤون الاجتماعية ونائب رئيس رابطة الاصلاح الاجتماعي

أرى واجباً علي أن أفتتح حديثي بشكر الوزيرين الجليلين ، وزير المعارف ووزير الشؤون الاجتماعية ، إذ أغدق كل منهما على الرابطة كلمات التشجيع ، وآزرها بجميل العطف ، وصور عملها عظيماً جديراً بالتكريم ، وبذلك عظمت التبعة على الرابطة ، وأصبح فرضاً عليها أن تحقق ما يقتضيها ذلك التشجيع ، وأن تثبت كفاءتها لهذا العطف . فالوزيران الفاضلان أرادا في لباقة أن تقع الرابطة في حرج شديد ، فاتخذا من آفاقهما الرفيعة ومثلهما العليا صوراً مما تقوم به الجماعات العاملة ، وفرضا أن الرابطة مرآة لهاتيكم الصور ، فانتهت بذلك مهمتهما وبقي العبء كاملاً على كاهل الرابطة . ونحن نقبل هذا الإحراج والتحدي وإن كنا ضعافاً في الجهود والقوى ، ولنبدأ بما بدأت به الدعوة المحمدية الكبرى ، أعني الإيمان الصادق ، وإذا صدق الإيمان فلا ارتداد ثم ولا نكوص . ولقد آمنا الإيمان كله بفكرة الإصلاح الاجتماعي ، ومضينا في طريقنا على قلة الموارد تحدونا الهمة وتمدنا المثابرة . وها نحن أولاء نفتتح اليوم معهد دراسات الطفولة ، كما افتتحنا بالأمس دار كفالة الطفل ، وسنفتتح في القريب ان شاء الله داراً لكفالة الفتاة ، مفكرين دائماً فيما يمكن إنشاؤه من دور الخدمة العامة ، مستأنسين بذلك العون المادي والأدبي الذي نلقاه من الجهات المختلفة حكومية أو شعبية ، منتظرين أن يزيد العون حتى تزداد به جهودنا إنتاجاً

ولقد وقفت منذ أيام لمناسبة كهذه المناسبة في حفل قريب من هذا الحفل ، أتحدث في معركة الإصلاح الاجتماعي ، فصورتها معركة لها قادتها وجنودها ، ولها أسلحتها وميادينها ولها برامجها وخططها . وقلت إنها هي المعركة الكبرى ، وما عداها صغير بالإضافة إليها ، ولكي ننجح في المعارك الاخرى يجب أن نصطلي معركة الإصلاح حامية . وتساءلت : أين القادة ؟ وهل وضعنا الخطة ؟ وهل أعددنا الجند ؟ وهل عينّا الميدان ؟ ثم عددتُ وجوه شبه بين معركة الاصلاح ومعركة الحرب ، وأثبت أنه لا بد من قادة درسوا أدواء المجتمع المصري دراسة تستند الى إحصائيات دقيقة وموازنات نافعة ، ولا بد من روية في وضع الخطة تخرج بنا عن سياسة الارتجال ، وكذلك لا بد من اقتباس النظم المفيدة في الأمم المتحضرة بما يلائم البيئة والخصائص القومية . وقلت في حديثي إن أعداءنا في المعركة : الفقر والمرض والجهل والانحلال الخلقي . ومحاربة هذه الأعداء تحتاج الى صبر وإقدام ومثابرة ، فليس في معركة الاصلاح الاجتماعي هدنة ولا سلام !

وبينما أنا أعدد الميادين التي تنشب فيها معركة الإصلاح ، ألمعت الى ميدان الطفولة إلماعاً وأنا اليوم أفرده بالحديث . وإذا ذكرتُ الطفولة ، فانما أعني المستقبل ، أعني الجيل الجديد ،

بل أعني الاجيال المتتابعة حتى تقوم الساعة ، فانه اذا حبت الطفولة حبت الشباب وحبت الرجولة في الاعقاب وأعقاب الاعقاب . فطالب الزرع الصالح يعني بالبذر الصالح ، فان قصر في اختياره كان حصاده الخراب والهلاك . والطفولة في مصر مشكلة يجب ان يكون علاجها بدء الاصلاح ، ويجب ان يكون العلاج عامًّا في الاحزاب والحكومات والجماعات ، عامًّا في البيوت وفي معاهد التعليم ، بل يجب أن يكون فرضَ عين تتوافر له الجهود من المال والجاه والعلم والتجربة . فهل قامت المعركة في ميدان الطفولة ؟ وهل جمع القادة أمرهم لانقاذها ؟ وهل تدارسوا ما يتطلبهُ الانقاذ من خطط ؟ ان من صفة المؤمنين الجهر بالحق دون مواربة ولاسيما فيما يتعلق بالشئون الحيوية للامة ، فأذنوا لي ان أكاشفكم بأن الطفولة في مصر مهملة لم تبذل لها حتى اليوم عناية جديرة بالاعتبار . فالطفولة مهملة في قصر الغني وكوخ الفقير ، فأما في قصر الغني فالطفل مكفول له الغذاء الطيب والفراش الوثير ، ولكنه يقيم في حضن أبويه ، شقي وهو يتقلب في النعماء ، فقير وهو يلعب بالمال ، وذلك لأنه فقير الروح والنفس عديم الخلق والتربية . فأما الطفل في كوخ الفقير فكما نعلم : غذاء منقوص ، وكساء ملفق ، ومأوى غير صالح ، ونشأة كما يتفق أن تكون

فهل هيأنا للطفولة مؤسساتها ، وهل راعيناها وهي جنين ، وحين ولدت ، وحين شبت ؟ وهل عرفنا أنها تطلب أولاً والدين صحيحين في الجسم والعقل ليستطيعا إنشاءها نشأة صالحة ؟ وهل التفتنا الى أن الطفل كالمرآة تنطبع عليها أول ما تنطبع أعمال الوالدين ؟ وهل أعددنا الأم وهي التي تتلقى الطفل عجينة تسويها على النحو الذي تفهم ؟ إني لأذكر أني قلت في بعض المواقف : لو ترك لي الأمر دون معقب لأخرجت البنين من المدارس وملأتها بالبنات ، حتى يتسنى لنا إخراج جيل من الأمهات الصالحات . ورحم الله شوقيًّا إذ يقول :

وإذا النساء نشأنَ في أمية رضع الرجال جهالةً وخمولا

فالأمهات الجاهلات يرضعنَ أطفالهنَّ جهالة صحية وجهالة اجتماعية تخرجهم مهازيل في العلم والجسم يصبحون عالة على البلاد

ولقد ذكر معالي وزير الشؤون الاجتماعية عبد الله بن الزبير ، ورجا ان يكون في الأمة العربية أمثاله همةَ نفس وعظمة شخصية ، فلننظر كيف نشأ ذلك البطل الهمام . إنهُ نشأ في حضن أسماء بنت أبي بكر . وكيف كانت أسماء ؟ حسبكم منها أنها هي التي أخرجت ولدها هذا ليلقى الموت حين ضيق الحصار عليه الحجاجُ بن يوسف ، وقالت له : إن كنت تدفع عن حق فأقدم ولا تسكت عنهُ . فقال لها اني لأخشى ان يمثلوا بي بعد القتل ، فأجابته : ان الشاة يا بني لا تألم السلخ بعد أن تذبح فانظروا أي أم كانت أسماء ، ولا تعجبوا بعد ذلك

أن يكون ولدها عبد الله على العظمة التي سجلها له التاريخ

ولست في هذا المقام أتحدث عن طفولة العاصمة ونحوها من المدائن ، وانما أتحدث عن طفولة القطر كله ، أعني طفولة ستة عشر مليوناً من أبناء مصر ، يسكن الريف من بينهم ثلاثة عشر مليوناً أو أكثر . وانها لمهمة شاقة أن نعد الأمومة في هذا العدد العظيم ، ولكن يجب أن نبدأ الجهاد ، وأن نبذل المال في سخاء ، فلا خير في مال ليس وراءه رجال ، ولا خير في عهود تحسب في تاريخ الأمة وهي خلاء من الاصلاح

والرعاية الصحية في مقدمة ما تفتقر اليه الطفولة،فهل أنشأنا في أنحاء الحواضر مؤسسات صحية تسد حاجة البلاد ؟ وهل يجمل هذا الركود في بلد قيل في احصائياته إن كل فرد تكمن فيه ثلاثة أمراض على الأقل ؟ وأين المؤسسات في الريف وكلنا يعرف أنها لا تبلغ عشر معشار ما يجب ان يكون ؟

ولطالما قلت ان من العبث ان نلقي العبء دائماً على الحكومة ، فان لها من المشاغل العامة ما يقف جهدها دون الغاية المنشودة ، وانما يجب ان تنهض الأمة بنفسها وتتولى أمرها إن كانت تريد لها بقاء محمود الأثر ، وتبغي أن تستخلف خلائف جديرين بالانتساب الى مصر وتاريخ مصر . وهنا يقوم واجب الأغنياء ، فان لزاماً ان يكون في مالهم حق معلوم لهذه المؤسسات المرجوّة ، بل يقوم واجب الطبيب والكفء والمجرب ، فما أجدر أن يكون لكل مؤسسة حق من وقت الطبيب وجهد الكفء ومعرفة المجرب ومال القادر . فإذا عنينا بصحة الطفولة بنينا أمة غير مريضة منهوكة ، والمعوّل في الأمم على سلامة الصحة لا على زيادة العدد ، وما خير أبناء يُعَدّون ثم لا يلبثون أن تحصدهم العلل ويَنخرهم الهزال ؟

فأما الرعاية الاجتماعية للطفولة فهي من عويص المشكلات ، لانه يجب أن نتفق على نوع المجتمع الذي نريده وننشده ، ونعرف ماذا يتطلب المستقبل لأولئك الأطفال الذين خلقوا لزمان غير زماننا ، والعالم يتمخض الآن عن حياة كدح وشقاء وامتحان ، فالنشء الجديد أحوج ما يكون إلى أن تربى فيه غرائز الطموح والشجاعة والصبر . ونحن في مصر لما نتفق بعد على خطة السير بالأمة في طريق الحياة ، وما زلنا نتراشق بالتهم ، فهذا رجعيٌّ يعود القهقرى ، وهذا مجدد يتجاوز الحدود . فعلينا أن نجمع كلمتنا على نوع الثقافة الذي نرضاه ووجهة الحياة ، الحياة الاجتماعية التي نسعى اليها ، حتى نمضي في طريقنا صفّاً

ويحسن بي هنا أن أشير الى نظام التعليم الاولي الذي قصد به إعداد الطفل الأعداد الثقافي . فهل وفى بالغرض ؟ إننا نسمع في كل يوم صيحة ، ونقرأ في كل صدد دراسة ، إلا أنه يمكن أن يقال على أية حال إن الاطفال في معاهد التعليم الأولي لاينعمون بالرعاية التي

ترجى للطفولة ، فلم يهيأ المعلمون التهيئة الاجتماعية لرعاية الأطفال ، ولم تعد الأمكنة الصالحة لاستفادتهم استفادة صحية مثمرة. وأمامنا مشكلة التغذية، وقد ارتفعت في شأنها الأصوات ، ثم هدأت الثائرة ، وسكنت عواطف البر ، وطوي المشروع الذي رحب به نصراء الاصلاح. ولو تقصينا أسباب ذلك الإخفاق لوضح لنا أنها جميعاً ترجع إلى سبب واحد ، هو أن التعاون الاجتماعي معدوم في المجتمع المصري ، فكل يعيش لشأنه وجاهه ومتاعه

فمتى نفهم أن للعلم وللجاه وللمال زكاة تؤدى ؟ ومتى نفهم انه إذا لم تنجح الدعوة الحرة في الحث على الزكاة صار واجباً أن نقيم أساسها بقوة التشريع، فنفرضها على الأكفاء والقادرين فرضاً محتوماً ، ونعرض المقصرين منهم للجزاء ، وانه لخير ان نقسو ونشتد في سبيل المصلحة العامة حتى لا ندع البلاد تذوي زهرتها ويعاجلها الفناء

ولتسمحوا لي ان أتهم القادرين على انقاذ الطفولة مع التقصير عن القيام بهذا الواجب : بأنهم يريدون الخراب لهذا البلد في حاضره ومستقبله ، فهم يرون أعداء الطفولة من الفقر والجهل والمرض تغير من كل ناحية . ويقفون مكتوفة أيديهم لا يبدون حراكاً ، فلنفرض عليهم الواجب فرضاً ، ولنجند القادرين على الاصلاح جميعاً

الحق ان مشكلة الطفولة فوق ما نتصوره من الخطر ، والحق ان إنقاذ الطفولة يجب ان يكون برنامج الجماعات وموضع تشجيع الحكومات ، فلقد خسرنا باهمال الطفولة خسارة جسيمة يفسرها لكم ما جاء في تقرير لعالم أجنبي ، إذ يقول : « لقد لمست الذكاء في الطفولة المصرية عن كثب ، فهو في أرفع مستوى ، ثم رأيته بعد السابعة يخمد شيئاً فشيئاً » وذلك راجع للبيئة ، فالأم عامل من عوامل إطفاء الذكاء ، والأب عامل أيضاً ، والمدرسة قد تكون عاملاً كذلك . على أن ما تعالجهُ المدرسة يفسده البيت ، فهما يتعارضان

فلنؤمن إيماناً قوياً بمشكلة الطفولة ، ولنمض حازمين راشدين لانقاذها ، ولنعلم أننا إذ أعددنا الطفل أعددنا الشعب الكريم العزيز . وقد قال شوقي :

ورب فقير قوم علموه سما وحما المسومة العرابا
وكان لقومه نفعاً وفخراً ولو تركوه كان أذى وعابا
فعلم ما استطعت لعل جيلاً سيأتي يحدث العجب العجابا

وها هي ذي رابطة الاصلاح الاجتماعي تقوم في هذا الميدان الواسع بمواردها القليلة منشئة معهد دراسات الطفولة ، وهي تعلم أنها تحدث بهذا المعهد أثراً محدوداً في دائرة محدودة. ولكنها على أية حال تعطي المثل، وتحفز الهمم، آملة ان تقوم بجانبها الجماعات التي تمد يدها الى النهوض بجانب من هذا العبء ، فالقليل الى القليل كثير، والضعف الى الضعف قوة . والله نصير العاملين

طاغور في مصر [1]

في الحفلة الكبيرة التى أقيمت بتياترو حديقة الازبكية مساء ٢٩ نوفبر ١٩٢٧ احتفاء بالشاعر الهندي العالمي طاغور، رحب بهِ أحمد لطفي السيد باشا مدير الجامعة المصرية ترحيباً ختمهُ بقولهِ «لا عجب ان نكرم طاغور لأنه جرى في حياتهِ على سنن أفلاطون وورع عمر بن الخطاب وهدي تولستوي». ثم وقف طاغور وشكر للامة المصرية حفاوتها ثم استأذن في الجلوس لأنه «ليس محاضراً بالمرانة ولا الصناعة وجل ما يستطيعهُ ان يناجي نفسه والوقوف يتعب النفس ويقطع نجواها»

ثم قال: انهُ ليس فيلسوفاً بالمعنى المتعارف وليست الفلسفة سوى ناحية يسيرة من نواحي حياتهِ وان لهُ شيئاً من الفلسفة في اشعاره لا ينزل بها الى مستوى المذاهب الفلسفية التي تفقدها صفتها الغنائية. ولكنه كأحد الهنود له فلسفة قومهِ وهي فلسفة الشاعر اذ عندها تلتقي الفلسفة بالشعر. ثم قال ان فلسفة قومهِ ليست فلسفة تشاؤم كما يظن الغربيون بانين حكمهم على انهم — أي الهنود — لا يقبلون حقائق الكون المعروفة كأنها ثابتة او نهائية. فاذا صدقنا قول الغربيين قلنا ان جنين الفرخ في البيضة متشائم لان فطرته تدفعهُ الى البرم بعالمه الذي يعرفهُ فيشقُّ القشرة حتى يطل منها على عالم لا يعرفهُ. ان الهنود يؤمنون بشيء ثابت لا نهاية له ولا حد، سمه اذا شئت الوحدة الروحية، وهي سر الوجود وفيها يبغون ان يجدوا حريتهم المطلقة وحقيقتهم الخالدة

يقول الغربيون اننا متصوفون وعلى ثغورهم بسمة ازدراء، على ان أغنية من أغانينا القومية التي ينشدها الفلاح في حقلهِ والصياد في قاربهِ تحدد غاية هذه الفلسفة الصوفية. انهم ينشدون «ماذا جنيت حتى حكم عليَّ بأن أسكن في سجن

---

(١) نشرنا في مقتطف نوفمبر الماضي فصلاً عن طاغور وأدبه ومنزلته في نفس كاتب انكليزي بليغ ونشرنا في الشهر القادم في صحراء دراسة مستفيضة في أدب طاغور وشعره لكاتب مصري مجيد

الحقائق » . ويراد بالحقائق الامور التي يكشفها البحث وتتغير من عصر الى عصر بتغير الباحثين وأساليب التفكير ، أي أنهم يريدون الانطلاق من قيود الحقائق ليطلبوا الحق الأزلي ، فغاية فلسفتنا البحث عن هذه الحرية في سر الكون المطلق ، في الحقيقة الأزلية

***

والغاية من الفنون والآداب اظهار هذه الحقيقة وابرازها . أنظر صورة عجوز دميمة فتعجب بها لا لأن العجوز تستحق الاعجاب ولكن لان جمال الصور يقوم في ان المصور عرف كيف يصور العجوز على حقيقتها فحركت هذه الحقيقة في نفوسنا معاني الاعجاب . فالجمال اذاً في الحقيقة . والعثور عليها يجعلنا أحراراً (جاء في الانجيل وتعرفون الحق والحق يحرركم) . وشخصية الانسان هي الحقيقة الأولى التي يجب ان نعرفها . والحب يظهرها لنا في أجلى مظاهرها . لذلك نسعد بالحب . قد لا يكون من نحب جميلاً او صالحاً ، ولكن حقيقته ثابتة لنا فلا نستطيع ان نصرف نظرنا عنه ، وهذه هي الحرية الصحيحة ، الحرية التي تقوم على معرفة حقيقة ثابتة كحقيقة وجودنا . ولذلك يحب الوالد ابنه لأنه يرى فيه صورة من نفسه ، يرى فيه ذاته وقد اتسعت واتخذت شكلاً جديداً . ولذلك نجد أنفسنا أحراراً في جماعة الاصحاب والاحباب وغير أحرار بل مقيدين بأنواع القيود حينما نكون في جماعة من الاغراب

وعمل الآداب والفنون هو جلاء هذه الحقيقة في كل ما يحيط بنا ، فننال بجلائها حريتنا

***

وكما ان في جنين الفرخ داخل البيضة فطرة مبهمة تدفعه الى اكتناه العالم الذي يحيط بقشرته ، كذلك في النفس البشرية ، قوة مبهمة تدفعها الى تفهم الاسرار المحيطة بالامور التي يجلوها البحث يوماً فيوماً ، الى طلب الحقيقة

الازلية التي تجد فيها حريتها المطلقة . ولذلك ترى الهنود يشعرون ان الله حقيقة لانهُ يمثل النزعات العليا والاسرار التي تختلج في النفس

***

واحتفل به كذلك في فندق شبرد احتفالاً خطب فيهِ وزير المعارف وألقى طاغور فيهِ الخطبة التالية

اذكر اني لما سافرت الى الصين احتفل بي اهلها . ومما سرني ان اوضاع الحفلة قضت بأن يلبسوني ملابس سفراء الصين وان يقيموا عيد ميلادي وان يقيدوني شاعراً صينيًّا ذلك بأني وان كان مولدي بالهند ولغتي غير لغة الصينيين فقد سبقتني كتبي وسبقني شعري اليهم . وأشعر الآن بينكم وقد قرأ كثير منكم كتبي مترجمة اني استطيع ان اعتبر نفسي شاعراً مصريًّا ايضاً . وقد وفقت في سياحاتي اكثر مما وفق غيري فزرت طائفة من الممالك في الشرق والغرب لم تتم لكثيرين غيري زيارتها . وفي هذه الممالك جميعاً وجدت من آثار كتبي وشعري ما سرني . فهذه الآثار خير ما يكافأ بهِ شاعر

وقد أشار صديقي بان أكون واسطة تفاهم بين مدنية الهند ومدنية مصر واني قابل هذه الوساطة لنشر فكرة اعتقدها سبيل السلام . فقد اسرفت الامم في الاثرة والانانية وفي العصبية الجنسية التي يتمسك بها فريق كبير من اهل الامم المتحضرة على ان هذه العصبية أكبر مظاهر ضعف المدنية الحاضرة فهي التي تجر الامم الى التطاحن لنيل غايتها وهي التي تثير بينها حروباً مهلكة ما كانت لتقع لولا هذا التعصب وتلك الاثرة . وما اشك مطلقاً في انهُ قد وجدت امم من قبل وبادت . أفنتها الحروب في سبيل اغراضها . وما تزال الآن في مجاهل افريقيا امم تسير في طريق الفناء لاخذها في حياتها بهذه الخطة . ولئن كان هذا ممكناً تصوره يوم كانت الحدود الجغرافية حقيقة واقعة تفصل بين الامم وتجعل كل امة تعتز بكيانها وبجنسها وتجعل من لون اصحابها وسيلة لحرب من كانوا من لون آخر فلم يبق لهذا التصور اليوم محل بعد ان أصبحت الحدود الطبيعية لا حقيقة لها لاسباب

أهمها تقدم المواصلات والتمازج العقلي بين الامم . لذلك يجب ان تزول الأثرة وان يزول التعصب للجنس والتعصب للون ويجب ان يشعر العالم ان هناك وحدة روحية تربط امه المختلفة . ومن حسن الحظ اني رأيت في اثناء سياحاتي في البلدان المختلفة كثيرين من كبار المفكرين متفقين واياي في الرأي واثقين كما اثق بان سيأتي اليوم الذي تسود فيه هذه الفكرة الشعوب جميعاً . بل لم يقف الاقتناع عند المفكرين الكبار ، فقد احتفل بي في بلاد متعددة كثير من البسطاء لانهم حسبوا في كتاباتي الدعوة الى هذه الوحدة الروحية التي تصبو اليها نفوسهم، والوسيلة لقهر الانانية ولزوال التعصب الجنسي ليست هي الحديد والنار وانما هي انتشار الافكار السامية بين الشعوب وسعيها جميعاً الى إدراك الحقيقة . فهذه الحقيقة ، الحقيقة المجردة ، الحقيقة المطلقة يجب ان تكون غاية الغايات لكل شاعر ولكل مفكر ولكل فيلسوف وغاية الغايات للانسان الكامل . ويوم يأتي الوقت الذي يعمل فيه كل لمعرفة الحقيقة فاذا رآها لم يتردد في اعلانها يومئذٍ يكون الانسان قد وصل الى الكمال . وفي هذا اليوم يتم السلام على الارض . نعم فالسلام لن يترتب على عمل صناعي مطلقاً كالاتفاقات الدولية وما اليها . انما الوسيلة الوحيدة لتحقيقه هي الوحدة الروحية وأحس ان هذه الوحدة بدأ في العالم ظهورها

وختاماً لهذا الحديث أرتل كلمة غالية من أحد كتبنا المقدسة

***

وهنا أطرق ورتّل حكمة بصوت عذب جدًّا يصل الى القلب بلغته الاصلية ثم نقل الابيات الى الانكليزية ومعناها على التقريب

« رب الارباب واله البشر جميعاً تنزهت عن كل لون وجنس

« يا مهيمناً على جميع الامم وان اختلفت ألوانها

« وحّد بين قلوبها والهمها تبادل المحبة

« وايدها بروح الحق والعدل »

«حضرة الملك فؤاد»

والنتائج العلمية لرحلة «مباحث»

للدكتور حسين فوزي
مدير معهد فؤاد الاول للاحياء المائية والمصايد

« حيما أراد المغفور له الملك فؤاد الاول ان تكون لمصر منشأة خاصة بالكشف العلمي للبحار وسفينة أقيانوغرافية ، لم يدر بخلد أحد منا أنه لا يمضي على هذه الارادة أقل من خمسة عشر عاماً حتى تشترك الحكومة المصرية في بعثة من أهم البعثات الاقيانوغرافية في القرن العشرين » . وقد « تألفت هذه البعثة بأموال أوقفها السر جون مري على البحث العلمي فلجأت الى الحكومة المصرية تستعيرها سفينتها العلمية « مباحث » بضباطها ورجالها ، والى جامعة فؤاد الاول ومعهد فؤاد الاول للاحياء المائية تسألها بعض المعونة كضم اثنين من اخصائيي البحار المصريين الى رجال البعثة » . وقد أصدرت وزارة التجارة والصناعة في أواخر سنة ١٩٣٩ كتاباً تذكارياً عن أعمال البعثة وضعه الدكتور حسين فوزي ثم ألقى الدكتور حسين محاضرة في هذا الموضوع في المجمع المصري للثقافة العلمية نشرت في كتابه السنوي (١٩٤٠) فنقتطف منها ما جاء فيها عن «النتائج الطبوغرافية» التي أسفرت عنها الرحلة . قال :—

وفقت بعثة السر جون موري في بحوثها الطوبوغرافية توفيقاً كبيراً مما يجعل نتائجها في هذا الباب من أبرز ما صدر من البحوث الأقيانوغرافية . فاستطاعت البعثة أن تنتقل بالمحيط الهندي من عالم شبه مجهول كان أقرب الى القارة الأفريقية قبل عصور الاستكشاف ، الى عالم معلوم

والفضل في هذا يعود الى تجهيز البعثة بأحدث أنواع المسابر البحرية وهو مقياس الأعماق بواسطة الصدى . ويمكن تشغيله طوال سير السفينة فهو يسجل آلياً جميع الأعماق التي تمر السفينة فوقها . وبهذا الجهاز كشفت البعثة عن سلاسل جبال تحت سطح البحر في خليج عدن والبحر العربي . وعند مدخل خليج عمان . وهذه الجبال الاخيرة يؤيد اتجاهها وشكلها وتسلسلها مع جبال الشاطىء في السند ومكران نظرية فيجنر Wegener في «تسوح القارات» Drift of Continents . ومن أهم اكتشافات البعثة الطوبوغرافية ذلك الحاجز الجبلي الكبير الغائر الذي يقسم المحيط الهندي الى حوضين الحوض الشمالي الشرقي والحوض الجنوبي الغربي وهو حاجز يبدأ عند جزيرة سومطرا ويتجه جنوباً الى خط الاستواء حيث ينحدر جنوباً

لينصل بأرخبيل « شاجوس » . وترتفع آكامه من أعماق أربعة آلاف متر في المحيط الى عمق ألف متر تحت سطح البحر

***

وقد هللت جرائد العالم عند سماعها بخبر هذا الاكتشاف وأكد بعضها أن البعثة قد كشفت عن آثار القارة الغارقة في المحيط الهندي المسماة «ليموريا» أو « جوندفانا » وهي قارة خرافية غير أرض « الاطلانطيد » التي ترامت أخبارها الى أفلاطون فذكرها في محاوراته على أنها كانت جنة أرضية ابتلعها المحيط غرب أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) . وللعثور على قارة (جوندفانا) هذه منزلة خاصة في تأييد نظرية فيجنر التي أشرنا اليها تحت اسم « تسوح القارات » فهي القارة التي قيل إنها انخسفت عقب انفصال القارة الاسيوية عن القارة الافريقية تبعاً لتقلصات القشرة الأرضية

ولكن فحص بعض الجلاميد التي اقتلعتها أجهزة البعثة من سفح هذا الجبل البحري ، على عمق ٣٩٠٠ متر ردّ هذا الزعم . إذ تبين الباحثون أن تلك الصخور البازلتية نشأت من تأكد تحت الماء لا في الهواء ، وان تركيبها الكيميائي يختلف عن تركيب صخور هضبة « الدكاز » الهندية . فهي أقل منها في مقادير الحديد والبوتاسيوم . بل هي أكثر شبهاً بصخور استخرجت من أعماق المحيطين الاطلسي والهادي (الباسفيك)

كما ان مقدار الراديوم في الجلاميد التي اقتلعت من بطون المحيط الهندي ، أقل منه في صخور هضبة « الدكان » وقلة الراديوم فيها قد أيدت نظرية عامة عن الاشعاعات الراديومية . وهو انه كلما كان تكون الصخور في طبقات عميقة كلما ضعفت طاقتها الاشعاعية

واطلق اسم حاجز « كارلسبرج » على سلسلة الجبال الغارقة التي نحن بصددها ، بعد أن حاولت بعثة الباخرة « مباحث » أن تطلق عليها اسم السر جون موري : ذلك بأن البعثة الدانمركية التي وجهها معهد « كارلسبرج » في كوبنهاجن سنة ١٩٢٨ — ١٩٣٠ لتطوف بحار العالم على ظهر الباخرة « دانا » كانت قد عبرت فوق هذا الحاجز عند موضع واحد منه ، واعتمدت على هذا العبور في استنتاج وجوده . وبذلك رؤي ان يبقى صانع البيرة الدانمركي « كارلسبرج » — وهو ذلك المحسن الكبير الذي انشأ معهداً من اكبر المعاهد العلمية في العالم الى جنب مصانعه في ضواحي كوبنهاجن — علماً على هذا الاكتشاف الخطير الذي ايدته بعثة السر جون موري بالعبور فوقهُ في غير موضع واحد . وتقرر العدول عن تسمية الجبال الغارقة عند مدخل عمان باسم « مباحث » ليطلق عليها اسم « حاجز موري »

حتى ان أفضل ما سجلته البعثة تخليداً لاسم صاحبها هو تأييد كشفها عن طبيعة قيعان المحيط الهندي لما نشره هذا العالم الكبير عن هذه القيعان في سنة ١٩٠٨ مع قلة النماذج التي أسس عليها بحثه ، ورسم بمقتضاها خارطته المشهورة

***

وقد كشفت البعثة فيما كشفت عن هضبة غارقة غرب ارخبيل المالديف تبدو في شكلها كأنها شعب مرجاني غارق على عمق ٣٠٠ متر من النوع الحلقي المعروف باسم (الأتول) . وأرخبيل المالديف نفسه هو مجموعة من هذه الشعاب الحلقية الظاهرة على وجه الماء . ولفهم ما لهذا الاكتشاف من شأن كبير يجدر بنا ان نشير اشارة عاجلة الى النظريات التي وضعت لتفسير الشعاب المرجانية

الشعاب المرجانية في أساسها مجموعة من الحيوانات المرجانية ، وهي تلك الاحياء الدقيقة التي تعيش في داخل منشآت تفرزها من مادة جيرية صلبة . ولكن الشعب نفسه مع انه يتألف من منشآت الحيوانات المرجانية في غالبه، الا أن هناك أحياء أخرى نباتية وحيوانية تعيش في مستعمرة واحدة مع الحيوانات المرجانية وتساعد في تكوين الصخور المرجانية. وهناك أحياء طليقة او ثابتة تعيش في فرجات تلك المستعمرة فيتكوّن من المجموع تلك الوحدة البيولوجية الغريبة التي تعد أجمل ما في البحار منظراً وأبدعها ألواناً وأعجبها حياة. وقد درس الباحثون حياة الحيوانات المرجانية التي تكوّن الشعاب فعرفوا لحياتها ونموها شروطاً من العمق ودرجة الحرارة ومقدار الاكسجين وصفاء الماء واتجاه التيارات الارضية وكمية الغذاء تجعل امر تكوينها محدداً بجميع هذه الملابسات في نطاق معروف فوق الكرة الارضية المائية وفي مواضع معينة لا تتعداها تقع بين خط عرض ٣٠ر٥ شمالاً وخط عرض ٢٧ر٥ جنوباً وتنقسم الشعاب الى : شعاب افريزية وشعاب حاجزية وشعاب حلقية

***

﴿ الشعاب الافريزية Fringing-Reefs ﴾ تنبت الشعاب الافريزية قرب الشواطئ إذ تجد الاحياء المرجانية متكأً فوق الافريز الاقليمي للقارات ، وهو الافريز الذي يبدأ بالشاطئ المكشوف وينحدر رويداً رويداً تحت سطح البحر الى عمق ٢٠٠ متر . ومن السهل ان تجد الحيوانات المرجانية فوق هذا الافريز العمق المناسب — وهو لا يفوق ٤٠ متراً — ودرجة الحرارة ، وجميع الظروف المواتية الأخرى لنموها . فتنمو وترتفع الشعاب حتى تظهر فوق سطح الماء مسافاتٍ قريبة من الشاطئ

« الشعاب الحاجزية Barrier Reefs » الشعاب الحاجزية لا تختلف عن الشعاب الافريزية إلا في أنها أبعد منها عن الشاطىء . ولكن الاصل في تكوينها يفسر بمثل ما يفسر به تكوين الشعاب الافريزية ، مع تصور موت الاحياء المرجانية شيئاً فشيئاً بين طرف الشعب والشاطىء ، واشتداد نموها وحياتها في الطرف البعيد عن الشاطىء ، بفعل الرياح والتيارات والامواج . وبذلك تتكوّن تلك البحيرة الداخلية بين الشعاب الحاجزية والشاطىء ، وهي المسماة « باللاجون »

***

« الشعاب الحلقية : الاتولات Atolls » تتميز الشعاب الحلقية عن سابقتيها بأنها توجد وسط المحيطات لا علاقة لها بشواطىء القارات . وانها تكون جزائر كبيرة وصغيرة ، عامرة بالسكان أو مهجورة وهذه الجزائر مجتمعة في شكل دائرة تامة او ناقصة . وتحيط ببحيرة داخلية هي «اللاجون» . ويتصل اللاجون بالبحر بواسطة معابر قد تكون صالحة للملاحة او غير صالحة لها ولكنها على كل حال خطر على الملاحة . ومن هذه الشعاب تتكوّن أغلب جزائر المحيط الهادىء والارخبيلات المعروفة في المحيط الهندي باسم ارخبيل المالديف واللاكاديف . وتتميز بمنظرها في الطبيعة — فيما عدا شكلها الحلقي — بالشواطىء الرملية الناصعة البياض حيث تنبت أشجار النارجيل (جوز الهند) والمانجروفا والباندانوس الخ . وهو منظر عودتنا اياهُ قصص السينما التي تجري حوادثها فيما يعرف بالبحار الجنوبية

وما فتىء تكوين هذه الشعاب الحلقية لغزاً . وقد وجدنا في الافريز الاقليمي متكأ تعيش فوقه الحيوانات المكوّنة للشعاب المرجانية من النوع الافريزي والحاجزي . أما في الاتولات فأين وجد المرجان المكون لها تكأتهُ وهي قائمة وسط المحيط بعيداً عن القارات

قال بعض الباحثين : ما أشبه شكل هذه الأتولات بفوهة بركان . ألا يمكن ان تكون الحيوانات المرجانية قد وجدت تكأتها على فوهات براكين خامدة غائرة تحت سطح الماء ؟ قد يكون هذا تفسيراً لأصل بعض الأتولات . ولكنهُ لا يمكن ان يفسر تكوين آلافها المنتشرة في المحيط الهادي والهندي حول النطاق الاستوائي . وهنا جاء داروين وألقى شعاعاً من ضياء عبقريته على الموضوع ، بعد ان جاب محيطات العالم ودرس أغلب شعابها المرجانية فقال : في أغلب الأتولات التي زرتها وجدت دلائل على انخساف ناشىء عن تقلص القشرة الارضية . فاذا تصورنا جزيرة من الجزر وقد تكونت حولها شعاب إفريزية او حاجزية بدأت هذه الجزيرة في الانخساف رويداً ، فان شعابها تنخسف معها ، ولكن بفعل كف

يسمح للاحياء المرجانية بالاستمرار في عملها الانشائي . ثم يأتي وقت تختفي الجزيرة تماماً فتظهر الشعاب في شكلها الحقيقي تحيط باللاجون الذي لا يزيد عمق قاعه عن أربعين متراً ، وهو في الاصل سطح الجزيرة المنخسفة

هذه النظرية التي تحمل اسم داروين ، والتي اتمها العالم «دانا» تعرف بنظرية الهبوط او الانخساف Subsidence Theory وقد لقيت قبولاً عظيماً في الدوائر العلمية في القرن الماضي حتى جاء السير جون موري فرفض هذا التفسير وعاد الى التفسير القديم القائم على وجود قوعدات براكين خامدة تحت سطح البحر ولكنه لم يقل بضرورة وجودها . بل اشار الى انه قد يكفي ان توجد الجبال تحت سطح الماء من اصل بركاني فاذا كانت قمم تلك الجبال على قرب من سطح الماء مناسب لحياة مكونات الشعب وعموها ، استطاعت هذه ان تنمو ، والا فان رواسب البحار تظل تتساقط على قنانها في آلاف السنين حتى تبلغ هذه القمم طبقة الماء المناسبة فتبدأ الحيوانات المرجانية استيطانها وعملها الانشائي . واذا كانت الاتولات منفرغة من داخلها حيث اللاجون ، فلأن المرجان الذي يعيش في الجهات الخارجية المعرضة للبحر يجد من ظروف الحياة اكبر مساعد على نموه بينما تختنق الاحياء المرجانية التي تعيش وسط المستعمرة وبذا يتم نمو الشعاب المتوسطة . وهذا اصل اللاجون

***

تلك هي نظرية السير جون موري في الصعود وهي تعارض نظرية داروين ودانا في الانخساف . ولست اريد ان ادخل في تفاصيل مناقشة هاتين النظريتين ، ولا ان أشير الى النظريات التي تقدم بها أجاسي وستانلي جاردنر . فهذا ليس موضوع المحاضرة

وانما جاء ذكر « الأتولات » في عرض الكلام عن اكتشاف بعثة السر جون موري لشعب مرجاني حلقي مغمور على عمق ٣٠٠ متر غربي أرخبيل المالديف .

وهذا الشعب مدار مناقشة علمية هامة عن أصل تكوين الأتولات . ويغلب على الظن ان في اكتشاف هذا الشعب الحلقي على عمق ٣٠٠ متر تأييداً لنظرية داروين ضد نظرية جون موري

واذا أتيح لكم ان تفتحوا خارطة حديثة للبحرية البريطانية خاصة بمنطقة سيلان وأرخبيل المالديف فسوف تجدون أثراً لهذا الأتول المغمور مشاراً اليه باسم « هضبة الملك فؤاد » King Fuad Bank إذ رأت البعثة ان تطلق اسم الملك الراحل اعترافاً بفضله على البعثة خاصة ، وأياديه البيض على المباحث الاقيونوغرافية عامه





الشباب

ازاء الازمة المالية

لسلامة موسى

هذه الحرب القائمة هي الانفجار الاخير لاختناق قديم . أو هي التبلور لنزاع طويل مضى عليه سنوات عديدة . وقد كان احد الساسة المتعمقين يقول : اذا شئت ان تتعرّف الى الاسباب التي قادت الى حرب ما فانظر الى التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية في السنوات العشر السابقة لها

وفي السنوات العشر السابقة نجد حرباً فكرية بين معسكرين من المبادىء والآراء والفلسفات. احدهما المعسكر الديمقراطي والآخر المعسكر الفاشي . كلّ منهما يناقض الآخر في العام والخاص بل في الجليل والحقير من نظام الدولة الى ملابس المرأة . وهذان المعسكران قد انتظما في النهاية في حرب دموية . ولكن هذه الحرب هي العَرَض ، هي النزف الدموي الظاهر لخرّاج عميق قد أحدث اوجاعاً خفية تتفشى في انحاء الجسم الاجتماعي قبل ان يتورّم وينزف . وهذه الاوجاع تدلنا عليها السنوات العشر بل العشرون السابقة للحرب . فاننا نجد مجتمعاً متمدناً قد وصل الى مأزق في التاريخ . قد تعددت مشكلاته التي كانت تصرخ للحلول الحاسمة فلا تجد غير القهر او العلاج المخفف الذي لا يغني . كنا نجد ازمات متوالية تتسم جميعها تقريباً بوفرة الانتاج وقلة الاستهلاك . فهناك مصنع احذية يقفل ويطرد عماله لأنه أنتج مقداراً كبيراً من الأحذية تكدست به الاسواق مع ان هؤلاء العمال الذين صنعوا هذه الأحذية ليس لهم ما ينتعلون به . وهنا حقول تعد بملايين الأفدنة قد زرعت بالبن أو القمح . ولكن انخفاض الأثمان قد حمل الحكومات على حرق مقدار كبير من هذين المحصولين . بل ان الحكومة الاميركية قد أدت اعانات مالية سخية للمزارعين في الولايات المتحدة لكي يحرثوا قطنهم ويتلفوه في التراب بدلاً من ان يجنوه ويبيعوه

في كل شيء في العالم تقريباً : انتاج كثير واستهلاك قليل . لان الذهن الذي اخترع وسائل الانتاج بالهندسة الميكانيكية او الكهربائية قد عجز عن اختراع وسائل الاستهلاك.

لان هذه تحتاج الى هندسة اخرى: هندسة اجتماعية لتنظيم المجتمع . هذا المجتمع الذي يجد وفرة في القمح في بعض انحائه مع قحط في انحاء اخرى ، فلا يعطي القمح للجائعين بل يحرق . ذلك ان الناس كانوا أحراراً في اختراع الآلات المنتجة . ولم يكونوا قط احراراً في اختراع المجتمعات المستهلكة . لأن لكل مجتمع تقاليده في العادات والانظمة والعقائد والثقافة . فالاجتراء على تغيير المجتمع جناية في حين ان اختراع الآلات حر مباح يكافأ عليه مخترعوه

***

فنحن الآن في هذا المأزق التاريخي : مجتمع جامد في استهلاكه وآلات حرة في انتاجها . ولذلك يجوز لنا ان نقول ان الناس قد أصبحوا آلات آلاتهم . فان الانتاج العصري يتحكم في الناس . فقد كان المخترعون يظنون ان الحديد والنار انما هما في خدمة الانسان وان كل اختراع جديد سوف يزيد الرفاهية . ولكن من يتأمل مثلاً الطائرات في الجو هذه الايام جدير بأن يتساءل : هل الانسان هو الذي غزا الجو بالطائرات ام الجو هو الذي يغزو الانسان بها ؟

وعندما نسمع ان نصف الاسرة في مستشفيات الولايات المتحدة الأميركية وأكثر منها في بريطانيا أو المانيا انما هي للمرضى بالامراض النفسية أي لأولئك القلقين المهمومين الذين تزعزع كيانهم وفقدوا اتجاههم في الحياة يجدر بنا ان نتساءل : ما قيمة الثروات والأموال والانتاج الكبير والمصانع الضخمة اذا كانت تؤدي الى هذا الشقاء ؟

وهنا لباب النزاع القائم الذي تبلور في النهاية في الحرب . وهذا النزاع او هذا المرض الاقتصادي قد استحدث اعراضاً عديدة تبدو لنا في القلق الاجتماعي بل القلق الروحي والاضطراب النفسي والتشوش السياسي

وهذا الكلام الكثير الذي سمعناه قبل الحرب مدى عشر سنوات او اكثر عن الفاشية والديمقراطية انما هو تشوش سياسي نشأ من هذا التفاوت العظيم بين الانتاج والاستهلاك . فان ملايين العمال في القارتين الاوربية والاميركية الذين عطلوا عن العمل عقب سنة ١٩٢٩ قد أوضح وجودهم عجز المجتمع عن مسايرة الرقي الآلي

وهنا ظهرت الفاشية . وهي في منزلة المريض قد يئس من العلاج النظامي البطيء فعمد الى أحقير الطب يقرأ تذكرة داود الانطاكي ويتعالج بالوصفات البلدية فيها . وهي وصفات قد تجمعت فيها ثقافة الفراعنة الى كهانة البابليين الى غيرهم من الامم القديمة . وهكذا الشأن

في الفاشية التي ترجع الى الماضي في اتخاذ اساليب القرون الوسطى في احياء نظام الطوائف للصناعات (وهو الذي الغي في مصر ايام اسماعيل باشا) . وفي انكار حرية المرأة بل حرية الفرد من أي الجنسين وانكار التفكير والاستقلال الشخصي ومطالبته بالانقياد للسلطة سواء أروحية كانت هذه السلطة أم سياسية أم اجتماعية أم ثقافية

***

اما الديمقراطية التي كانت في الماضي مبادىء تعلم او تتبع وقد اوشكت في أيامنا ان تكون معيشة تمارس فهي النقيض للفاشية اذ هي تنادي باستقلال الفرد ذلك الاستقلال الروحي الذي يجعله يحس انه هو — وليس الدولة — في المقام الأول من الاهتمام الاجتماعي . وانه حرٌ يفكر ويعمل كما يشاء بحيث لا يضر الناس وان اعظم تبعاته ينشأ من نظامه النفسي وليس من نظامه الحكومي . ولكن ما شأن الشباب هنا ؟

شأنه خطيرٌ جدًّا فان الشاب في الأمم الفاشية قد حل مشكلات العصر بالرجوع الى ما ترمز اليه بتذكرة داود الانطاكي . الى تقاليد في السياسة والاجتماع والاقتصاد كأنها أحافير . فهو يؤمن بالسلطة التي تملي على المرأة طول ثوبها وتأمرها بالتزام البيت كما يؤمن بالاستعمار والقيصرية والحرب . وهو يُزجر وينزجر عن قراءة هذا الكتاب او التفكير في ذلك النظام . وقد اطمأن الى هذه الحال التي يعانيها منهُ ويعانيها معهُ سائر العالم

ولكن الشاب في الأمم الديمقراطية يحس قلقاً لا يستقر معهُ . ذلك لأنهُ حر . والحرية تعني هنا تقلد تبعات ثقيلة وتحمل مسؤوليات جسيمة. فقد كان الشاب في الاجيال الماضية التي تحاول الفاشيات استعادة نظامها العصر الحديث يخضع للسلطة — سلطة الحكومة في التفكير . وسلطة الآباء في العادات والأخلاق وسلطة التقاليد . وكان راضياً بهذا الخضوع لانهُ كان يعيش في مجتمع مستقر

اما الآن فان الشاب يعيش في مجتمع قلق . ولكنهُ في وسط هذا القلق حر . وهذه الحرية تدفعهُ الى أن يستقل ويفكر . ومن هنا يشعر كل شاب شريف ان الحرية قد حمَّلتهُ مسؤوليات. ثم هو يجد نفسهُ محروماً من السلطات القديمة التي كان الشاب في الاجيال الماضية يستند اليها ويستقر على أقيستها في الاخلاق . والعقائد والاجتماع . ثم هو يجد ان الاقيسة الجديدة لما تتكون . فهو في حيرة

وهذه الحيرة قد خالها كثير من الناس انها انحلال اخلاقي . ولكن أحق بنا أن نصفها بانها فوضى اكثر مما هي انحلال . لأن الشاب العصري لا تنقصهُ الرجولة . ولكن تنقصهُ

الاقيسة . فهو مطالب بان يعين لنفسه ماهية الشرف ومعنى الطهارة ومعنى الوطنية ثم عليه ان يختار في حرية تامة العقائد التي يريد ان يعتقد . ولو كان المجتمع مستقراً لوجد الشاب ان جميع هذه الاشياء ثابتة ولما احتاج الى التفكير في الموازنة بينها وبين غيرها

ولكن المجتمع الذي نعيش فيه حتى مع محاولته الجمود غير مستقر . اذ هو في تمور اي انه يتحرك هنا وهنالك ويتغير ويتطور واحياناً يثور . حتى ان ما نسميه فضيلة قد يستحيل أحياناً الى رذيلة . ولنضرب مثلاً : فقبل أشهر قرأت كتاباً لمجرم عظيم يدعى جان فالتن في الولايات المتحدة الاميركية حاول ان يقتل احد الناس فحكم عليه بالسجن بضع سنوات ومثل هذا السجين في بلادنا نعامله بالعنف . فاذا أفرجنا عنه بعد استيفاء العقوبة سلمناه شهادة سوابق تحرمه من العمل الكاسب سائر حياته تقريباً . وعندنا ان هذا هو الجزاء الحسن لاجرامه . ولكن جان فالتن وجد غير ذلك . فانه وهو في السجن انتسب الى احدى الجامعات التي علمته بالمراسلة وقبل ان يخرج من السجن كان قد حصل على شهادة في الصحافة فتحت له أبواب الرزق عند الافراج عنه بدلاً من أن تقفلها كما هو الواضح عندنا من شهادة السوابق . وقد وضع هذا المجرم السابق والصحفي الحاضر كتاباً دوَّن فيه سيرته يدعى « الخروج من الظلام » Out of The Night

فالشاب المصري القارىء لهذا الكتاب ستتغير آراؤه في الجريمة ومعاملة المجرمين ومهمة الدولة . لأنهُ سيخرج منهُ متردداً حائراً . ولكنهُ ليس في « انحلال » اخلاقي لهذا السبب بل هو في حيرة فقط . وهو لا بدَّ منتهٍ الى أن العقوبة في نفسها جريمة . وأن الدولة الحسنة هي الدولة الايجابية وليست الدولة السلبية . اي الدولة التي لا تقنع بكف الأذى عن الناس بحبس المجرم بل تعمد الى تعليمه حتى يخرج عضواً نافعاً في المجتمع

***

او لننظر في مثل آخر . ففي الاجيال الماضية كان المجتمع يكفل لكل انسان عملاً يرتزق منهُ ولم يكن يتعطل الا ذلك الكسول المتراخي . فكان التعطل تشرداً قبيحاً . ولكن المجتمع الحاضر بالتزامه الانظمة الاقتصادية الضيقة قد أوجد حوالي سنة ١٩٣٠ نحو ثلاثين مليون عامل متعطل ليس واحد فيهم متهماً بالتراخي او الكسل . لأن التعطل كان يرجع في العصور الماضية الى ضعف الكفاءة الشخصية . أما الآن فانه يرجع الى نظام اقتصادي كثير الانتاج قليل الاستهلاك والى وفرة المخترعات في الآلات الصناعية وقلة المخترعات الاجتماعية .

والشاب المصري الذي يرفض السلطات القديمة التي كانت تملي عليه الاخلاق والعقائد انما

رفضها لأسباب قوية . وهو ليس في انحلال اخلاقي لهذا السبب ولكنه في حيرة وقتية يحاول ان يهتدي الى الأقيسة الجديدة . وليس من الممكن ولا من الصحيح ان نقول له : عد الى ما كان عليه آباؤك . لان قصارى ما نحصل عليه من هذه العودة حياة زائفة متصنعة لن تدوم طويلاً . ولأنهُ ما دام لكل عصر مشكلات فيجب أيضاً أن تكون له حلوله وعلاجاته الخاصة . وما هي من التقاليد او العادات او الثقافة عامة لا يمكن احياؤه الحياة الطبية لأنه انما مات بأسباب قوية تطلبت موتهُ . وتاريخ التطور في الحيوان يثبت ان العضو المنقرض لا يُسترد . كالأسنان فقدتها الطيور أو استغنت عنها فلم تستردّها بعد ذلك . وما زالت الاحافير من الطيور القديمة المنقرضة تثبت انه كان للطيور أسنان . ولكن بعد انقراضها لم نسمع عن طائر قد استردها في آلاف الطيور المنتشرة في اجواء العالم

***

وهكذا الشأن في التقاليد القديمة لا يمكن ان نلجأ اليها ونعيدَ اليها الحياة لكي نعالج بها مشكلة عصرية . وكل محاولة هنا ينكرها التاريخ . فاننا نضحك الآن ونأسف معاً من اولئك الفراعنة الذين أحسوا في الدولة الأخيرة ان مجدهم قد ذهب سناؤه وان الأمة في انحطاط وتدهور . فنهضوا يستعيدون هذا المجد وذكروا مصر ايام خوفو وخفرع فصاروا يدفنون موتاهم او مومياتهم عند اهرام الجيزة . . . وبالطبع كان هذا الدفن رمزاً للعودة الى تقاليد مصر قبل ٢٥٠٠ سنة او اكثر . وكانت النهضة لهذا السبب فاشلة

بل كذلك نذكر دقلديانوس قيصر رومة . فانه حين وجد الامة الرومانية في تقهقر وانتكاس والاخلاق العامة في تدهور فكر في احياء الدولة باعادة « رقيب الاخلاق » وكانت وظيفته قد نسخت منذ اكثر من قرن . وكان ظن دقلديانوس انهُ سوف يحيي التقاليد الميتة فتحيا الدولة الرومانية ولكن هذا السعي ذهب هباءً . لأن لكل عصر مشكلاته ويجب ان تكون له ايضاً حلوله الخاصة . ولا يمكن ان تحيا امة باحياء ماضيها وحسب ، ولكنها هي تحيا بالاستجابة السليمة لتحدي المستقبل فتعالج حضارتها العلمية الجديدة بثقافة علمية جديدة

ولم يعرف التاريخ الماضي او الحاضر مجتمعاً نهائياً هو غاية التطور وتاج الرقي . ومجتمعنا الحاضر هو طور من اطوار الحضارة . وما دمنا قادمين على تغير فاننا يجب ان نحرص على أن يكون هذا التغير مطابقاً لأعز الاماني وأشرف المثليات . وما دام الشباب هم ورثة المستقبل فان عليهم تقع تبعاته . وازاء هذه التبعات يجب ان يكون لهم حقوق في تكوين هذا المستقبل وتكييفه

وأول هذه التبعات ان يحس الشاب ويوقن ان الحرية التي استفاضت في ايامنا انما هي المسئولية . وانه حين ينفض عن نفسه السلطات القديمة فانما يفعل ذلك لانهُ احسَّ امام نفسه مسئوليات جديدة. فالضوابط الخارجية قد زالت او ضعفت ولكن الضوابط الداخلية قد تكونت او نمت وقويت. ومثل هذا الشاب يستطيع ان يقول انهُ قد أتم استقلاله الروحي وانهُ لا يعيش في غروب عصر زائل بل في بزوغ عصر قادم

كيف نعرف هذا الشاب ؟ ما إماراته ؟

اول ما نعرفه به انه يعيش حياته بروح التدين . فلا يسلك في هذه الدنيا وشعاره « أنا وحدي » بل يجعل رقيه ورفاهيته مرتبطين برقي المجتمع ورفاهيته. وهو يحب ولا يكره لأن الحب ولود والكراهة عقيمة . الحب ايجابي بنائي . والكراهة سلبية تهدم وتدمر . فالشاب البار الذي يرجى منهُ في المستقبل مجتمع بار هو ذلك الذي يحب عائلته ويحب مجتمعهُ يعالج المشكلات بالروح الايجابي روح البناء والتعمير والمصالحة والتعاون

ولكن في وسط المشكلات المعقدة المحيطة بنا نحتاج الى النور — نور المعرفة. فالشاب الجديد الذي يأخذ على عاتقه تهيئة المستقبل هو ذلك الذي يأخذ نفسه بالدرس لكي يعرف الاصول والفصول في هذه المشكلات . يجب ان يدرس السياسة والفلسفة والاجتماع وسائر العلوم درس المحقق المستقل وان يعدها جميعاً علوماً تجريبية مثل الكيمياء والفيزياء

وأسوأ الشباب هو ذلك الذي لا يدرس ولا يبالي المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . هو « صفر افندي » الذي يقنع بقراءة القصص والمجلات التي يكتبها له أيضاً « صفر افندي ». وهؤلاء الأصفار هم كارثة العصر لا يشبعون من القيل والقال ولا يقدمون على دراسة جدية ولا يفكرون في تحمل التبعات البشرية كأنهم يعتقدون ان على غيرهم تحمل هذه التبعات. أما هم فلهم الحق في ان يقضوا حياتهم في تفاهة التفكير والتذاذ السخافة . أجل . ان مثل هؤلاء الشبان هم الذين يعممون الوهم الشائع بأننا في انحلال واننا في غروب حضارة زائلة ولسنا في بزوغ حضارة مشرقة

ولكننا نظلم الشباب اذا قلنا انهم جميعهم على هذه الوتيرة . فان الكثرة الساحقة في شباب جميع الأمم تضطلع الآن بتبعات اجتماعية وتجهد في درس المشكلات الاقتصادية بروح التدين والرغبة في الخير . وهي تدرس القوى التي سوف تصوغ تاريخ الغد . وهذه الكثرة الساحقة تستطيع ان تميز بين التيارات المختلفة وان تسير مع ذلك التيار الذي يؤذن بعصر جديد . ولهذا العصر الجديد بشائر صغيرة في مقدارها ولكنها كبيرة في مغزاها نستطيع ان نذكر بعضها على سبيل الاشارة وليس على سبيل الاحاطة :

١ — فقد ذكرت ذلك المؤلف الصحفي جان فالتن الذي انتسب الى الجامعة وهو في السجن . فهنا نظر جديد للشاب الجديد . أي بدلاً من أن يتعفن المجرمون في السجون يجب ان يتعلموا . وبدلاً من أن يحملوا شهادة سوابق يجب ان يحملوا شهادة جامعية

٢ — ثم هناك المغزى الجديد من قيام الحكومات . فان الحكومة المتمدنة يجب ألاّ تكون سلبية تقتصر واجباتها على كف الأذى عن الشعب . بل يجب ان تكون ايجابية تعلم وتبني المنازل وتؤسس المؤسسات التي تزيد رفاهية الشعب الذهنية والجسمية

٣ — وهناك أنواع التأمين الاجتماعي الذي يكفل للمتعطلين أجوراً . وكذلك الشأن لمن بلغوا سن الستين وللمرضى وللحوامل وغير ذلك مما يجعل المفاجآت الاقتصادية غير فادحة . وليس في العالم أمة متمدنة تهمل المتعطلين فيها وتتركهم للجوع . والأمة التي ترضى هذه الحال هي امة غير متمدنة حتى ولو كان لها تاريخ سابق في التمدن يبلغ عشرة آلاف سنة

٤ — هذه هي بعض التيارات الاجتماعية التي يستطيع الشاب الجديد ان يتلمسها ويسير في مجراها ويساعد على توسعها لتعجيل العصر الجديد . ولكن هذه التيارات هي ثمرة المزاج الاجتماعي الجديد . هي ثمرة الديانة الاجتماعية التي تقتضي كلاً منا ان يكون انساناً انسانيا ينشد الخير لوطنه بل للعالم . وهذا المزاج هو الذي يجعلنا نرى في الانسان قبل كل شيء قيمة انسانية . فقيمة الانسان ليست في انه صانع او زارع او تاجر . وانما قيمته في انه انسان قبل كل شيء . وهو ليس انساناً اقتصاديا نقدر ثمنه بالجنيه والمليم

هذه القيمة الانسانية للانسان هي شعار العصر الجديد للأمم الديموقراطية التي تحاول ان تجعل الديمقراطية معيشة يمارسها الناس في بيوتهم ومجتمعهم وليست مقصورة على مبادىء تعلم للنصح او الارشاد

وهذه القيمة الانسانية للانسان هي التي جعلتنا ندرك ان الرجل المثقف ليس هو ذلك الذي يستنير بالثقافة الانجليزية او الثقافة العربية وانما هو الذي يحتوي الثقافة البشرية . هو الذي يدرس الاسلام اذا كان مسيحيا ويدرس البوذية اذا كان يهوديا . هو الذي يجد التاريخ سلسلة متصلة من الرقي البشري العام . وهذا التاريخ لن يكون عندئذ حافزاً للزهو السخيف وقت الحرب بل مهمازاً للرقي والسلام والتعاون . لن يكون تاريخ كل أمة على حدة بل تاريخ العالم أمة واحدة

وهذا النظر الجديد يقتضي التسليم بالاختراع الاجتماعي لتحسين المجتمع كما نسلم بالاختراع الكيميائي لتحسين المصنوعات . بل يقتضي أكثر من ذلك . وهو ان الاجتماع والفلسفة والصوفية والاخلاق يجب أن تكون علوماً تجريبية لا نسلم بصحة شيء فيها الا ما أثبتته التجربة

الأوهام وتولدها ونموها

أخبرنا صديق صادق رفيع المقام انه يعرف رجلاً اذا سألته ان يحضر لك نوعاً من الفاكهة تفاحاً او موزاً او برتقالاً مدَّ يديه في الهواء وأعادهما مملوءتين بالفاكهة التي طلبتها . وقال انه رآه يفعل ذلك عياناً . وطلب منه مرة ان يأتيه بخمسين جنيهاً فمدَّ يديه في الهواء وأعادهما مملوءتين بالذهب . ولا شبهة في انه قصَّ علينا ما يعتقد صحته ولكن هل هو صحيح لذاته . نحن تجاه هذا الخبر بين أمرين إما ان نصدق أن بعض الناس يستطيعون ان يقطفوا الأثمار من الهواء وان يستخرجوا منه الذهب المسكوك ، واما ان نسلم بأن بعض الناس يتوهم انه رأى ما لا حقيقة له . أما الأمر الأول فينفيه اختبار البشر في جميع العصور والبلدان ولو وجد انسان واحد يستطيع ان يستخرج الذهب من الهواء لصار أغنى من قارون وتعلّم الناس منه هذه الصناعة فصار الذهب أرخص من الماء . ولو أمكن قطف الأثمار من الهواء لأبطل الناس زرع الجنائن والبساتين وعاشوا بلا تعب ولا نصب . وأما الامر الثاني أو الفرض الثاني وهو ان يتوهم الانسان أنه رأى ما لاحقيقة له ، فكثير الوقوع وما من أحد الا ويرى كل يوم في أحلامه أموراً كثيرة لا حقيقة لها وكثيراً ما يتخيلها وهو صاح ومن ذلك الخيالات والتخيلات والهواجس على انواعها . واذا ضعفت قوة الحكم فيه حينئذٍ ولو قليلاً كما تضعف وقت التعب العقلي والنعاس والسكر والبحران حسب ان ما يخيل له حقيقي . ويصيبه مثل ذلك في حالة الاستواء سواء استهواه غيره أو استهوى هو نفسه

وبديهي اننا اذا كنا بين فرضين احدهما مناقض لاختبار الناس في جميع العصور والآخر لا يناقضه الاختبار بل يؤيده وجب علينا ان نأخذ بالفرض الثاني لا الأول

[من كلمات : للدكتور يعقوب صروف]

طبيعة الفكر والمعرفة

للاستاذ موكلي

نقلها الى العربية : حسن السلمان

لا نستطيع ونحن كائنات مفكرة إلا ان نكثر الاهتمام بالظاهرات العادية التي نظمت انطباعاتنا الحسية بعد ما كانت مشوشة مضطربة . وفي هذا البحث الجديد يكشف الاستاذ موكلي الستار عن طبيعة الفكر والعقل ويرمي نوراً على ما يسمى بجهاز الذاكرة — العامل الاساسي في بناء حياتنا العقلية

هل للانسان كفايات

التفكير او المراس العقلي هو الظاهرة التي تدفعنا الى تحقيق رغباتنا وإشباع أهوائنا ، وتثير في نفوسنا حب الاطلاع على الحوادث التي جرت على مرأى ومسمع منا او معرفة ما يحيط بنا او من كانت له علاقة بنا . وكان الأقدمون يعتبرون التفكير فعالية غريبة اختص بها الانسان دون غيره من أفراد المملكة الحيوانية لاعتقادهم بوجود « كفايات » خاصة لأبناء الجنس البشري دعوها بالعقل او الرشد . أما المعاصرون من السيكولوجيين فلا يأخذون بهذا الرأي لشدة غموضه ولكثرة تعقيده . والتحليل الدقيق يوحي للباحث بأن التفكير ليس بظاهرة ناجمة عن تدريب تلك الكفايات الخاصة ، وانما عن تآلف عوامل فعالة معقدة تؤثر في المستوى الأدنى للحياة العقلية ، أهمها الوعي والتمييز والتذكر والتداعي والتلمس والامعان . ويستدل من قابليتنا لتذكر بعض الحوادث التي جرت فيما مضى من حياتنا على ان الانسان يستطيع حفظ التجارب الماضية . أما كيفية تحقق ذلك فمن الأمور التي ما زالت خافية عنا . وتعتقد فئة قليلة من العلماء بأن الأعمال التي نأتيها والصور التي تمر أمام عيوننا والتجارب التي تجري علينا تحدث تغيرات مكرسكوبية في بناء جهازنا العصبي تدعو الى حفظ تلك الاعمال ولانطباع تلك الصور والتجارب في ذاكرتنا

أما الوعي فناجم عن الافعال المنعكسة الشرطية وحدها . فاسالة لعاب كلب ملتقط مباشرة

رائحة طعام شهي ، أمرٌ طبيعي يتكرر حدوثه في جميع الكلاب . ولكن اذا ما سال لعاب كلب في أثناء تقديم طعام له وقرع جرس على مقربة منه ، فستكون تلك الاسالة فعلاً منعكساً شرطياً يتكرر كلما سمع ذلك الكلب صوت الجرس حتى وان لم يقدم له طعام في أثناء ذلك . وبعبارة أخرى ان تكرر التجارب على الكلب كيّف من فعاليته وجعله يسلك سلوكاً مغايراً لما طبع عليه سابقاً

الادراك الحسي والاحساس

وماذا يقصد بالتمييز ؟ خيرٌ لنا ان نؤجل الاجابة عن هذا السؤال ريثما يتم لنا شرح حقيقة الادراك الحسي . ان الادراك هو معرفة كل ما في العالم المحيط بنا من بشر وحيوان ومن مواد ، ومما يطرأ علينا من ظروف . وليس الادراك الحسي والاحساس بشيئين معربين عن ظاهرة واحدة ، إذ الفرق بينهما ، وان كان دقيقاً جداً ، على غاية من عظم الشأن . فالأصوات والألوان والروائح وغيرها من المؤثرات التي ندركها بنواحي تأثيرها في أعضائنا الحسية هي ما ندعوه بالاحساسات . أما الادراك الحسي فالظاهرة الفعالة التي تدرك حقيقة هذه المؤثرات او الاحساسات . فاذا ما وخز ذراع انسان مثلاً فالاحساس بالوخز هو الشعور بملامسة الابرة للجلد . وتكون الاحساسات مليئة بالمعاني ممثلة لرموز مشيرة الى الأشياء المحيطة بنا والى الحوادث الجارية أمام عيوننا ، والى كل ما يؤثر فينا . فليصغِ القارىء لحظة الى الأصوات التي تطرق سمعه في اثناء قراءته هذا البحث فانهُ ان اعتبر ما يصل الى سمعه أصواتاً مجردة لا معاني لها فان ذلك ما نسميه « الاحساس بالاصوات » ، ولكن ان عرف ان أحد تلك الاصوات هو صوت بوق سيارة وان الآخر نباح كلب فان معرفته هذه هي الادراك الحسي للاصوات

والتشبيه التالي يوضح تمام التوضيح الفروق بين الاحساس والادراك الحسي . في ردهة تيت علقت صورة تمثل الشارع الايطالي بباريس في أثناء الليل . وهي من ريشة الرسام الايطالي بيسارو . فالواقف على بعد بضع خطوات من هذه الصورة يشاهد كذلك الشارع بألوانه الزاهية وأعمدته المضاءة مصابيحها ووجهات الحوانيت وعربات النقل ويتخيل نفسه كأنه واقف في ناحية من نواحي ذلك الشارع الباريسي العظيم . ولكن ما ان يقترب من الصورة حتى تختفي معالم الشارع وتبدو الصورة كأنها مجموعة من البقع الزيتية المتنافرة الألوان

فلو حللت الهيئات والأشكال التي يقع بصرنا عليها ، الى عواملها الاولية لكانت أشبه الاشياء بتلك الصورة الزيتية الغريبة ، واذا ما اعتبرنا تلك الهيئات والاشكال اشياء مادية فسيكون امرها أمر تلك الصورة عندما تشاهد من بعد بضع خطوات . والواقع اننا عندما

فتحلل الشارع المرسوم في الصورة نرى صوراً أكثر عدداً مما تعكسه لنا اللوحة المرسومة عليها . ذلك لاننا نلاحظ رموزاً عديدة ناجمة عن ترتيب الاصباغ ترتيباً خاصاً . ومعرفتنا لتلك الرموز هي الأدراك الحسي لصورة الشارع في أثناء الليل . ولو حللنا المثال الاول -- مثال الاصوات -- هذا التحليل ايضاً ، لعرفنا ان ما يسمع من الاصوات ليس الا مجموعة من رموز كل منها يشير الى شيء من الاشياء المحيطة بالسامع المؤثرة فيه

ولكن كيف ترمز الاحساسات للاشياء المؤثرة فينا ؟ وكيف يتسنى لنا تعلم الاشياء والحوادث التي تتكرر علينا تأثيراتها . ان وعي الحوادث التي جرت فيما مضى من حياة الانسان أمر على غاية من الشأن فانني لا استطيع التمييز بين صوت السيارة والاصوات الاخرى ما لم أكن قد سبقت لي مشاهدة سيارة ومعرفة الجهاز المحدث للصوت وكيفية التصويت به . كذلك تختلف الاحساسات باختلاف نوعيتها ، وهذا ما يدعو الى تصنيفها اصنافاً مرتبة ترتيباً منظماً . فالرجل الاعمى الذي يعاد اليه بصره فيقع نظره لاول مرة على حقل زراعي واسع لا بد ان يشعر بخضرة الارض وبزرقة السماء وبجمال المنظر وبسعة الحقل وبغير هذه من الاحساسات المؤثرة في اعضاء حسه . وليس معنى ذلك ان الانسان يتنبه الى جميع الاحساسات مرة واحدة . فالحيوان الجائع لا يتجه الا نحو الوضع الذي تنبعث منه رائحة طعام ، والوليد الذي لم تمر على ولادته غير بضعة ايام لا يتجه ببصره الا نحو الهيئات البصرية والسمعية -- اي نحو وجه امه وصوتها -- حتى وان تكن المؤثرات فيه غير هذه من الاحساسات . وعلى هذا نستطيع ان نقرر بان الادراك الحسي ليس الا ظاهرة تمييزية يقوم بها الكائن الحي بداعي الرغبة والفائدة فيتعلم من جراء ذلك أشياء وحوادث وأموراً تكررت عليه تأثيراتها

هيئات الادراك الحسي

ليس من السهل على الانسان التمييز بين الهيئات الحسية المؤثرة فيه -- ذلك لان بعضها متداخل ببعض . يتعذر عليه تذكر بعض تلك الهيئات ما لم يتذكر قرائن اخرى مختلفة عن القرائن الاولى . لننعم النظر في الهيئة البصرية التي تملأ عالم الطفل في ايامه الاولى -- اي صورة وجه امه . فالطفل عند ما يبكي لجوع يعتريه ترضعه امه او تطعمه ، وعند ما يصرخ من تعب أصابه او من وضع غير مريح وضع فيه ، تسارع امه الى تخليصه من ذلك الوضع المضني . وفي كل من هذه الحالات يشعر الرضيع بالرضى حالما تتناوله امه بين ذراعيها وبعد ان تتوالى هذه الحالات على الطفل ينتهي عقله الى ربط وجه الأم بالتخلص من الجوع او الألم . وبالطريقة ذاتها يصبح

صوت الام هيئة حسية ذات معانٍ خاصة للطفل وبعبارة اخرى ان جزءا من الحالة الكلية — صورة الوجه او الصوت عندما يكونان هيئات بصرية وسمعية — يقوم مقام الكل فيثير انفعالات وسلوكاً ملائماً للكل

ان العالم محيط كثيرة حوادثهُ ، معقدة اموره وان المعاني البسيطة التي يكتسبها الرضيع لا تجديه نفعاً ازاء تلك الحوادث وهذه الامور . وضرورة الحياة تحتم عليهِ التمييز بين امرٍ وآخر او بين حادثة وأخرى . فالطفل الذي اعتاد اللعب بقطته الصغيرة الاليفة ، والذي حاول في احد الايام اللعب مع قطة كبيرة غريبة عنهُ فخمشتهُ وآذته ، لا بد ان يدرك الفروق بين قطته وغيرها من القطط فيتعلم التمييز بين القطط الاليفة والاخرى المتوحشة . ويلاحظ ان التمييز بين الهيئات الحسية المتشابهة يتم عندما يعجز المرء عن ادراك الفروق بين ما يؤثر فيه من اشياء فيؤدي عجزه هذا الى وقوعه في مشاكل لا ترضيه ولكنها تعلمه كيفية التمييز بين تلك الاشياء

ويتوقف التذكر على الحفظ فلولا الحفظ لما تذكر الانسان شيئاً من الامور التي جرت عليهِ . فالتلميذ الصغير عندما يسأله معلمهُ أين مدريد ، يتذكر انها مدينة في اسبانيا ، وعندما يرد على سؤال معلمه هذا لا يتذكر الحقائق الجغرافية فحسب بل يتذكر الظروف التي تعلم فيها تلك الحقائق . ومما يجب ملاحظته في هذا الصدد اننا نتذكر بعض وجهات الامور ونتناسى الوجهات الأخرى . فعندما نقوم بعمل تم لنا حذقه كالكتابة او القراءة أو أي عمل من الاعمال التي تمكنا من حذقها ، فاننا نقوم بسلسلة من الاعمال المشتبكة او نتفهم طائفة مترابطة من المعاني . وفي كل حالة من هذه الحالات يتوقف نجاحنا في ما نقوم بهِ من الاعمال على مبلغ تأثير تجاربنا الماضية في أحوالنا الحاضرة . فمثلاً اننا عندما نطالع بحثاً من الابحاث ندرك المعاني المقصودة في البحث لاننا نتذكر المعاني لكل كلمة من الكلمات المختلفة التي نقرأها . وليس من الضروري بل ليس من النافع لنا ان نتذكر الظروف التي تعلمنا فيها معاني تلك الكلمات

والحقيقة ان التذكر ليس الا صورة من صور تداعي الأفكار الذي يتم بحسب « ناموس التداعي بالتلازم » [1] القائل بأنهُ « اذا ما حدث لأحدنا أمران وتكرر وقوع أحدهما فلا بد من تذكر الآخر » . فمثلاً اذا ما صادفت على حين فجأة رجلاً تعرفت به في فرنسا خلال أيام الحرب الماضية ، فانني لا بدَّ ان أتذكر حالاً ، سلسلة من الحوادث التي جرت لنا في فرنسا . ولولا هذا التصادف لما تذكرتها أبداً . ولا تتم الملازمة بين الحوادث والوقائع ما لم تكن ملائمة لرغباتنا . فاذا ما كنا نكثر الاهتمام بناحية من نواحي العلم الحديث فان

(1) Law of Association by Contiguity

كلّ حقيقة من الحقائق المتعلقة بتلك الناحية تدعو الى تذكر حقائق أخرى ذات صلة بها وكلما زادت رغباتنا في الأشياء ، تضاعفت قابلياتنا لتذكر الأمور المترابطة بعضها ببعض حتى اذا ما تغلبت علينا رغبة طارئة ضعفت قابلية تذكرنا لتلك الأشياء ريثما تتحقق رغباتنا العابرة

أما الامعان والتلمس فيمكن ادراك حقيقتهما من التجربتين التاليتين المتعلقتين بقابلية التعلم عند الحيوانات . وضعت قطة جائعة في قفص تستطيع منه مشاهدة الطعام دون الوصول اليه ، ولا تتمكن القطة من الخروج من القفص ما لم تتحرك حركة خاصة فتدفع مزلاجاً فينفتح باب القفص . وقد حاولت القطة بشتى الطرق التخلص من القفص فكانت تارة تسعى الى قطع اسلاك القفص بأسنانها وأخرى تضرب الباب بمخالبها . وفي حين فجأة وبدون قصد تحركت الحركة المقصودة فضربت المزلاج فانفتح باب القفص . وبعد أن أعيدت التجربة مراراً على تلك القطة بدأت تتعلم كيفية دفع المزلاج وفتح باب القفص للتخلص من حبسها رويداً رويداً . ويستدل بهذه التجربة على ان التلمس عامل أساسي من عوامل ظاهرة التعلم دون ان يكون للقصد دخل في تلك الظاهرة

والتجربة الأخرى التي تكشف القصد من الامعان هي التجربة التي أجراها الاستاذ كولر [١] على الشمبانزي ، التي شرحها في بحث « المذاهب المتباينة في علم النفس الحديث » فلا نرى ضرورة لايراد تفصيلاتها في هذا البحث مكتفين بالاشارة الى ان تعلم الشمبانزي تركيب قطعتي العصاة للحصول على قطعة الموز المعلقة جاء عن طريق الامعان وليس بواسطة التلمس

ولنعد الى البحث في طبيعة التفكير ، ولنفرض اننا سئلنا عن اسم تاريخي ذائع الشهرة قوامه خمسة حروف ، اولها (س) ، وثالثها (ر) ، وآخرها (ط) . فما ان نتغلب على هذه المشكلة لحلها حتى تتبادر الى ذهننا عدة كلمات تتوافر فيها بعض هذه الشروط . وكما لا يخفى ان الباعث على اثارة هذه الكلمات في ذاكرتنا هي الرغبة الملحة في استخراج الاسم المطلوب . وبعد محاولات متعددة، لا بد اننا منتهون الى تذكر كلمة (سقراط) الكلمة التي تتوافر فيها جميع الشروط وهي الحل الصحيح للمسألة . يعطينا هذا المثال البسيط صورة جلية عن علاقة التلمس والتمعن في التفكير . ففي بادىء الأمر يكون التلمس الصفة الغالبة على تفكيرنا ولكن بعد أن تؤدي كل مرحلة من مراحل التلمس الى تمييز بعض مظاهر المشكلة المراد حلها ، وبعد ان يتزايد التمعن في الكلمات لا بدّ ان يصل المفكر الى الحل الصحيح للمشكلة التي استهدف حلها . ومدى الزمن الذي يستغرقه الشخص الساعي إلى حلّ مشكلة من المشاكل مرتبط بمبلغ قابلياتنا لحفظ الحوادث الماضية ومبلغ قدرتنا على تذكر تلك الحوادث

(١) Kohler

المعاني الكلية

ان المعاني الكلية من أهم العناصر الاساسية في التفكير . فكلمة « كلب » مثلاً تحمل معنى كليًّا لحيوان خاص . وليس من الضروري ان تنفرد هذه الكلمة بنقل المعنى الكلي لذلك الحيوان فقد تطلق عليه كلة Dog الانكليزية او كلة Chien الفرنسية او كلة Hund الالمانية . وليست الكلمة ذاتها المعنى الكلي لذلك الحيوان وانما المعنى الذي تتضمنه أو تشير اليه تلك الكلمة . فالمعاني الكلية هي معانٍ لا تشير الى أشياء خاصة وانما الى أشياء عامة أو الى أصناف من الاشياء أو الى صفات عامة في الأشياء كالحلاوة والصلابة والناس والحيوان والنبات الخ . وقابلية ابتكار المعاني الكلية هي في الأصل قابلية تحليل بعض الحالات الواقعية وتمييزها عن كل حالة أخرى شبيهة بها . فكلب الصيد حيوان يختلف عن كلب الشارع ولكن كلا الحيوانين يشترك في بعض الصفات العامة التي تجمع بين الحيوانين وترجعهما الى فصيلة واحدة من فصائل الحيوان . ونستطيع بعد هذا ان نقول ان ظاهرة تكوين المعاني الكلية للاشياء هي ظاهرة تمييز بعض الصفات وتفريق الروابط العامة التي في عالم الحوادث والاشياء والحيوان

وليس تكوين المعاني الكلية من الامور البسيطة السهلة ، فان تاريخ الفكر في الواقع هو تاريخ الأخطاء التي تعرض لها هذه الظاهرة . ولسنا بمغالين اذا ما قلنا إن التفكير العلمي ظاهرة من ظواهر التلمس لاحلال المعاني الكلية الملائمة المعبرة عن بعض الحوادث الجارية، محل المعاني التي كان يتصورها الانسان البدائي . ومن المهم أن يلاحظ أن ليس في التفكير العلمي ثمة « كنايات » عقلية خاصة كما كان يظن سابقاً . فالفرخة التي تأبى التقاط يساريع شائكة ، بعد أن علمتها التجارب عدم صلاحية تلك اليساريع للأكل ، تظهر قابلية تمييز بعض أنواع اليساريع عن غيرها أو الاستجابة لطائفة من الصفات المشتركة بين بعض أفراد هذه الطائفة من الحيوانات . والفأر الذي درّب على التحرك حركة خاصة عندما يوضع على أرض بيضاء مثلثة الشكل ولا يتحركها عندما يوضع على أرض سوداء، سيتعلم التفريق بين الاشكال المثلثة وغيرها من الاشكال ، وكذلك التمييز بين الأرض السوداء والارض البيضاء . والعالم المفكر الذي يستطيع وضع معاني كلية للجاذبية الارضية — كنيوتن — يمارس قابلية كانت كامنة في المستوى الادنى للحياة العقلية

نوعا التفكير

ترتكز ظاهرة التفكير على قابلية تمييز الفروق وملاحظة الصفات المتشابهة المؤدية الى تكوين المعاني الكلية للاشياء . والتفكير نوعان : الاستقراء ويقصد به الوصول الى القواعد العامة

بعد جمع الحقائق الخاصة ، والاستنتاج ويعني به البدء بالقواعد العامة ثم الانتقال منها الى الحقائق الخاصة . والتفكير الاستقرائي ، كما يبدو لأول وهلة ، ليس من الامور العسرة التي تتطلب جهداً كبيراً . فقد توجد بذرته حالما يتنبه المرء الى تكرر حادث واحد مراراً في ظروف معينة . فالطفل الذي يتجنب النار لانها احرقت اصابعه من قبل تتولد في مخيلته بكيفية استقرائية حقيقة عامة هي ان النار تحرق الانسان فعليه تجنبها . وليست هذه الحقيقة العامة قانوناً يردده الطفل لنفسه كلما لاحظ ناراً ، وانما هي فكرة تجول في مخيلته فتمنعه عن ملامسة النار . ويقرر ماكدوجل « ان الميل لوضع قواعد عامة بأسلوب استقرائي ظاهر في جميع أدوار الحياة العقلية . في المستوى الادنى للحياة العقلية يكون ميلاً للاستجابة الى أشياء تبدو منها إشارات حسية متشابهة كأنها شيء واحد يؤثر تأثيراً متكرراً . ولما كان العالم مليئاً بالاشياء التي تصنف تصنيفاً طبيعياً فان كلاً من هذه الاشياء الطبيعية يكون في منزلة اشارة حسية شبيهة بالأخرى .... ولهذا الميل منزلة عالية في تطور الفكر ، فهو المصدر الاساسي لجميع نواميسنا العلمية ، وان أدى الى بعض الاخطار أحياناً » .

أما التفكير الاستنتاجي فهو اقرار ضمني يقره الشخص دون أن يجهد نفسه للاستيثاق من صحته . فاذا ما شاهد القارىء طيراً أبيض حائماً فوق سطح الماء وصرخ « هذا بجع » فلا بدَّ أن تكون ثمة قاعدة عامة مستقرة في طيات عقله تتلخص في أن كل طير كبير أبيض يسكن قرب الماء ويطير على سطحه هو بجع . وهذا ماجعله يستنتج ان ذلك الطير الابيض بجع . ويمكن تصوير التفكير الاستقرائي بالمثال التالي : « كل (س)=(ص) . ولما كان هذا (س) فلا بدَّ ان يكون (ص) أيضاً » . وقد رافق هذا الأسلوب من التفكير الحياة العقلية في جميع أدوارها المختلفة مع انهُ كثيراً ما ذهب بالمفكرين الى الزلل والشطط . والحقيقة انهُ لا يمكن ان يتبع بصورة صائبة مالم يبلغ الفكر المستوى الأعلى للحياة العقلية ، أي عندما يستطيع التمييز بين الفروق الدقيقة ويتمكن من حصر هذا الأسلوب من التفكير في الاشياء والحالات المتشابهة تمام التشابه

طبيعة اللغة

لم تخص الطبيعة الانسان وحده بالتصويت فهناك عدد من الحيوانات التي تعبر عن انفعالاتها النفسية بأصوات خاصة كنباح الكلاب وخوار الثور وتغريد الطير وزئير الأسد . غير ان استعمال الاصوات لتسمية الاشياء وللتعبير عن الحوادث الجارية من الأمور التي ابتكرها الانسان وحده . وأبسط أنواع الاصوات تلك التي تسمي أشياء مفردة

وتشير الى أشياء قائمة بذاتها . وهذه هي أسماء الاعلام وأسماء الاشارة . أما أصوات الكلمات الأخرى ولا سيما أصوات الاسماء والصفات والحروف فمعان كلية لتلك الهيئات اللغوية . وهذا ما يثبت الرأي القائل بان اللغة أداة تنقل الفكر من شخص الى آخر

واللغة بما فيها من مجموعات الرموز المتفق عليها (حروف الكلمات) : توجد للناس نظاماً محكماً لحفظ نتائج الفكر عند أبناء الأجيال الماضية . واننا عند ما نتعلم كيفية التخاطب بلغة من اللغات فانما نتوغل في اكتشاف اسرار ذلك التراث الفكري العظيم . أما الكلمات التي ننطق بها فهي التي تفك المغلق من مجاري الحوادث وتفرط عقودها فتمكننا من معرفة كل جزء من اجزاء الطبيعة الواسعة التي صرف الانسان جهوداً جبارة واستغرق قروناً متعددة لمعرفتها وللاطلاع على كنهها . وليس لعقل فرد واحد ان يقوم بمفرده بتحليل وتمييز جميع الأفكار والمعاني المودعة في اللغة . ولهذا استعمل الانسان بعض الكلمات التي تشير الى مجموعات من الحيوانات المتشابهة أو من الأشياء المماثلة والظروف المتقاربة . وبهذا استطاع تصنيف ما يحيط به اصنافاً يسهل عليه بحثها . خذ مثلاً كلمة « طير » . فقد أطلقها على طائفة من الحيوانات تجمع العصفور والبط والنسر والغراب معاً . وتشير هذه الكلمة الى الصفات العامة التي تشترك فيها جميع هذه الحيوانات . وما من شك في ان هذا الاطلاق لم يكن مستعملاً عند الشعوب البدائية . فما هي لغات الشعوب المتوحشة غنية بالكلمات التي تعني انواعاً خاصة من الاشياء والحيوان والنبات ولكنها مفتقرة الى الكلمات التي تشير الى الطوائف من هذه الاشياء والحيوان والنبات . فهي لا تعرف مثلاً كلمة شجرة أو طير أو سمك أو غيرها من الكلمات التي تشير الى الصفات العامة في الاجسام

ولنبدأ بالبحث شطر ناحية اخرى من نواحي اللغة . لا ريب في ان التفكير ظاهرة من ظواهر الارتياد والاستكشاف . ومع ان الكلمات تحفظ نتائج تفكير الاجيال الماضية وتنقلها الى الأجيال القادمة ، فان هذا النقل وذلك الحفظ يعرقلان توغل الفكر في مجاهل جديدة . فما زلنا مثلاً عاجزين عن التمييز بين أشياء أطلق عليها اسم واحد أو اشير اليها بكلمة واحدة مع اننا نعرف من امر الفروق الدقيقة الكائنة بينها ما نعرف . فكم من الناس يدرك أن الحوت والبقرة من طائفة واحدة او ان قردة العالم الجديد تختلف عن قردة العالم القديم ؟ اللهم الا من درس التاريخ الطبيعي وعرف شيئاً عن حياة الحيوان

ويتضح مما تقدم ان لغة التخاطب تجمع بين كثير من الافكار الخاطئة والآراء الصائبة . وان الطفل الذي يتعلم التكلم بلغة من اللغات انما يتعلم التفكير الصحيح والتفكير الخاطىء معاً . وعلاوة على هذا فان لغاتنا ما زالت تحتفظ بكثير من التعابير التي كانت تمثل شعور الانسان

البدائي . فعندما نتفوّه بكلمات « دنيء » و« فظيع » و« جميل » و« بهيج » أو بغيرها من الكلمات المعبرة عن انفعالات الانسان فانما نعبر في الحقيقة عن ميولنا الانفعالية دون الصفات التي تتصف بها الاشياء والظروف التي نقصد وصفها . ويتجلى هذا الامر في الكلمات المعبرة عن أحكامنا الخلقية ومقاييسنا السلوكية . فاكثر هذه الكلمات يعبر عما نشعر به من رضى أو سخط على الاشخاص الذين نحاول الحكم على سلوكهم متأثرين في ذلك بالضغط الاجتماعي الذي تفرضهُ علينا المجتمعات والذي أودعهُ الانسان في لغة تخاطبه . وتأثرنا بذلك الضغط هو في الحقيقة فعلٌ منعكسٌ شرطيٌ شبيهٌ بالفعل المنعكس الشرطي الذي أوجده بافلوف في كلبهِ

ولا يتسع لنا المجال للتطرق الى نواحٍ أخرى من نواحي اللغة كتغييرات معاني الكلمات بحسب اختلاف قرائن الجمل او البحث عن الروابط بين الكلمات — تلك الروابط التي تزيد من معانيها كما تزيد انصاف الانغام من شدة الانغام الاساسية في الآلات الموسيقية ، مكتفين بما اوضحناه عما كان للغة من شأن عظيم في تكوين الحياة العقلية . ان اللغة نتيجة معقدة من نتائج التطور الاجتماعي تمكن الأفراد من اكتساب قدر ليس بقليل من العلوم والمعارف ويتعذر عليهم هضم ما اكتسبوا بدون هذه الأداة الفعالة . وقد حرمت الطبيعة الحيوانات الأخرى هذه النعمة فجعلتها عاجزة عن استعمال أصواتها لجمع حقائق الحياة ولنقلها من جيل الى آخر من أجيالها . وهذا في نظرنا أهم فارق بين الحيوانات العليا والانسان البدائي الاول

***

وقبل ان ننتهي من هذا الفصل نود ان نكرر للقارىء ان لقابلية الانسان استعمال أداة اللغة كما يريد ، محاسن ومساوىء . فهي تمكنهُ من نقل الاخطاء والأوهام كما تمكنهُ من نقل حقائق الحياة وحكمتها . وهذا كما لا يخفى معرقل لتقدم العلوم ولتصور المعرفة . ويعزى السبب في وجود الكثير من الاباطيل والاوهام بين ما ورثناه من علوم وآداب وفلسفة الى ان اللغة واسطة لنقل تعابير انفعالاتنا مع المعاني الكلية للاشياء والظروف ، أي أنها تنقل المعاني المعبرة عن أغراضنا الذاتية مع المعاني المستمدة من تمتعنا بالاشياء وبالظروف التي تحيط بنا . وتدلنا سيكولوجيا اللغات على أن جميع الابحاث والعلوم تتأثر بنفسيات المشتغلين بها اللهمَّ إلاّ العلوم الرياضية التي استعاضت عن الكلمات برموز صمٍّ لا معانيَ لها ، تعجز عن نقل الانفعالات النفسية من شخصٍ الى آخر

دراسات أيوبية :

الجاسوسية

في حروب الأيوبيين

لجمال الدين الشيال

منذ أقدم العصور وتاريخ الحرب يصاحب تاريخ الانسانية ، وكان قواد الجيوش في كل حقبة من حقب التاريخ يعتمدون — لاحراز النصر — على الجاسوسية أكثر مما يعتمدون على الخطط الحربية وإعداد الجيوش . فالجواسيس هم الذين يزودون الخصم بمواطن الضعف في جيش خصمه ، ونواحي النقص في جنده وسلاحه ، وهم الذين يدعون له في نفوس الشعب الذي يحاربه ، ويمهدون له السبيل ليسهل عليه النصر ، وهم أخيراً الذين يقدمون للقواد الوصف المسهب لأصلح الطرق وأقربها وأوهنها لتسير الجيوش عبرها

والحرب العالمية الحالية تظهر كل يوم ألف دليل ودليل على قيمة الجاسوسية ، والدور الخطير الذي يلعبه الجواسيس . والمانيا دولة أفادت من هذا النظام كثيراً فأنشأت وزارة خاصة للدعاية ، وبثت رجالها وأعوانها في كل مملكة تريد ضمها ، يتخذون في كل بلد لبوساً خاصاً فهم تارةً علماء ، وتارةً سيَّاح ، وهم حيناً رجال أعمال ، وحيناً آخر مهندسون وأطباء ومدرسون الخ

ولقد كان تاريخ ملوك بني أيوب جميعاً تاريخ حرب وجهاد فسطع نجم مؤسس الدولة صلاح الدين في ميادين القتال ، وظلَّ خلفاؤه جميعاً في نضال يتممون رسالته ، وقضى آخر عظيم منهم وهو الملك الصالح نجم الدين أيوب وهو يبذل الجهد أكبر الجهد لصد الفرنسيين عن مصر . وفي تراجم هؤلاء الأفذاذ صفحات مجيدة من تاريخ الجاسوسية فيها صور واضحة لما كان يسديه جواسيس المسلمين من خدمات جليلة الى جيوشهم ، كان لها دائماً فضل كبير في كسب المعارك وإحراز النصر ، وسنحاول في هذا المقال عرض بعض هذه الصور :—

كان الصراع على أشده بين جنود المسلمين وجنود الصليبيين في الشام ، وأعدَّ صلاح الدين

لعدوه ما استطاع من قوة ومن رباط الخيل، وحشدت أوربا رجالها وصفوة شبابها. وأرسلتهم وفوداً بعد وفود يقودهم جميعاً أعاظم ملوك هذه القارة

وفي سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩م) حاصر الفرنج ثغر عكا براً وبحراً. واشتدوا في حصارها، وضيقوا عليها الخناق نيفاً وسنتين، ولاقى المسلمون داخل حصونها المحن والشدائد وهم يجاهدون في سبيل الله. وقلق صلاح الدين فكان دائم التفكير في اخوته سكان عكا من أهلين وجنود فكان يرسل الى مصر يأمر رجاله بها ان يبعثوا الى عكا بالسفن محملة بالقوت والذخيرة وخرجت هذه السفن تحميها شواني الاسطول المصري، وحملت الى المحاصرين الزاد والمؤونة. وكان صلاح الدين يختار من العوّام من اشتهر بالمهارة في السباحة يحمّلهم المال والكتب يربطونها على أوساطهم ثم يعومون بها الى أن يصلوا عكا، ويعودون الى قائدهم البطل بأجوبة الرسائل وأخبار المدينة وأهليها وجنودها

***

وكان في معسكر صلاح الدين جندي شغف حبًّا بتربية حمام الزاجل يرسله ليطير ويطوف بخيمته، وأقام له برجاً من خشب ليرتحل طول نهارهِ ثم يعود فيحط عليهِ، فكان صحبه من الجند يتندرون عليه، ويقولون: « ما لهذا الرفيق يولع بما لا فائده فيه، ولا طائل تحته! » فلما كان هذا الحصار المضروب حول عكا أفاد هذا الحمام كل الفائدة، فكان يطير بالرسائل بين السلطان وجند المسلمين داخل أسوار عكا فساعده هذا على معرفة أخبار العدو تباعاً، فكان يدبر له الخطط التي تفسد عليه ما يبذل من جهد لتضييق الحصار على المدينة. وكان أجرأ هؤلاء السابحين بين معسكري المسلمين مسلم من أهل الساحل اسمهُ عيسى وهب نفسه للجهاد فكان يخاطر بروحه ويلقي بنفسه في اليم فيتخذ طريقه في البحر سَرَباً بين سفن العدو المحاصرة للمدينة، يحمل الى مسلمي عكا المال والرسائل، وكان اذا ترك البلد عائداً أطلق الحمام بالرسائل تفيد خبر رحيله ولكنه عام مرة ليلاً نحو عكا وعلى وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار وكتبٌ للعسكر، ومضت أيام وقد أبطأ في العودة، والمسلمون يرتقبون على الشاطىء أن يروه كالعادة يغلب الموج في عودته ظافراً بأخبار المدينة — والبشر والفرح يطفحان على وجهه —، ولكنهُ لم يعد وتقوّل عليهِ البعض وتناولت الظنون أن يكون قد خان جيشه ودينه ولكن عيسى كان أنبل نفساً، وأقوى روحاً، فقد قضى عليهِ البحر، ومات شهيد الواجب والجهاد، وظلت الامواج تتقاذفه حتى ألقته بعد أيام على ساحل عكا والاموال والرسائل كما هي على وسطه لم يمسسها انسان

وفطن الفرنج لهؤلاء السابحين ، وحاولوا أن يفسدوا على المسلمين طريقتهم في استطلاع اخبار المدينة ، ويقضوا على هؤلاء الجواسيس ، فنصبوا الشباك في البحر . فكان إذا خرج سابح وقع فيها ، فقبض على البعض بهذه الطريقة ، وتخوّف البعض الآخر فامتنعوا عن السباحة ، وأحجموا عن المخاطرة بأرواحهم

واشتد الضيق ثانية بأهالي عكا ، وانقطعت اخبارهم عن السلطان وبعث قراقوش —والي المدينة والمدافع عنها— على أجنحة الحمام يشكو قلة الميرة فلجأ صلاح الدين إلى طريقة اخرى تعتبر في الحق من أحدث طرق الجاسوسية ، فالشبه كبير جدًّا بينها وبين الأسلوب الذي يتبعه هتلر الآن لايصال جنده إلى البلاد التي يسعى الى ضمها. أعدَّ السلطان بطسة (سفينة) كبيرة ، وملأها بنفر من نصارى بيروت الذين أسلموا ، وأمرهم فتزيوا بزي الفرنج وحلقوا لحاهم ، ووضعوا الخنازير على ظهر البطسة ، ورفعوا الصلبان ، وخرجت السفينة بهم فاعترضتها سفن الفرنج وحسبوها من سفنهم « فقالوا : — نراكم قاصدين البلد ? — قالوا : — أوَما أخذتموه بعد? ! — قالوا : — لا — قالوا : — وراءنا بطسة أخرى ، ردوها — فذهبوا عنهم ، فردوا القلاع الى البلد ، ودخلوا الميناء (عكا) ، وكبّر المسلمون »[١]

***

هذا ما حدث إبان حصار عكا في عهد صلاح الدين وشبيه به ما حدث سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) عند حصار الفرنج لمدينة دمياط في عهد الملك الكامل الايوبي ، فقد أحاطوا— في هذه السنة — بالثغر المصري ، وأهله يدافعون عنه الدفاع المجيد ، ويبذلون الارواح فداء لبلدهم ، مع قلة الأقوات وغلاء الأسعار

وكان الملك الكامل يعسكر بجيشه جنوب المدينة ، وتحايل ليعرف أخبارها فلم يستطع حتى تقدم له رجل أصله من بعض قرى حماه واسمه علم الدين شمائل ، وسعى حتى صار يخدم في الركاب السلطاني جانداراً « فكان يخاطر بنفسه ، ويسبح في النيل — ومراكب الفرنج به محيطة ، والنيل قد امتلأت به شواني الفرنج — فيدخل الى مدينة دمياط ، ويأتي السلطان بأخبار أهلها . فاذا دخل اليها قوّى قلوب أهلها ، ووعدهم بقرب وصول النجدات »[٢] وقد أعجب السلطان به وبجرأته فشمله بعنايته ورقاه حتى صار أمير جانداره ، ثم عينه أخيراً والياً على القاهرة .

---

(١) شفاء القلوب في مناقب بني ايوب ص ١٤٥
(٢) المقريزي ، السلوك ، نشر الدكتور زيادة ج ١ ص ١٩٨

ويقول صاحب شفاء القلوب ان المعظم عيسى بن الملك العادل ابي بكر كان يختار الجواسيس — أثناء جهاد الأيوبيين ضد الصليبيين — ليأتوه بالاخبار ، وكان هؤلاء الجواسيس — شأن الجواسيس في كل زمان ومكان — يعتمدون على النساء في تصيد الاخبار فقد جاء في هـذا الـكتاب ان جواسيس المعظم بجبل عكا كانوا قد اتفقوا مع بعض نساء الفرنجة بها ان يشرنَ اليهم بالشموع ليلاً لينقلنَ اليهم أخبار العدو ، فاذا عزم الفرنجة على إخراج مائة جندي أوقدت المرأة شمعة واحدة ، وان كانوا مائتين أوقدت شمعتين ، وهكذا — ثم تشير المرأة بهذه الشموع الى الجهة التي يريد الجند قصدها : وكان المعظم لا يضن بالمال الوفير يعطي لهؤلاء النسوة جزاءً لما يؤدينَ من خدمة جليلة فحدثهُ بعض الخاصة مرة منتقداً بقوله : « هـذا إسراف لا يحلّ » فقال : « أنا أفدي الـكثير باليسير »

ويروي المعظم عن نفسه أن الانبرور (يقصد الامبراطور فردريك الثاني) لما عزم على غزو الشام بغتة أرسل فارساً من لدنه يستطلع له الاخبار ، فبعثت امرأة فرنجية جميلة — كانت على اتصال بهذا الفارس — بالخبر الى المعظم فأرسل اليها « الثياب الحرير وعنبراً وأشياء كثيرة » فلما عاد الفارس ووجد هذه الهدايا عندها ، سألها عن مرسلها فأخبرته ، فذعر أول الأمر . ولـكنها ما زالت به تلاطفه وتتودد اليه حتى اتفقا ، فـكان اذا أتاه خطاب بعد ذلك من الامبراطور حمله اليها فترسله الى المعظم مختوماً كما هو

***

وتتحدث الصحف هذه الأيام أن هتلر نفى — من بين من نفى من اليهود — كثيرين من رجال النازي ، ليظهر للعالم سخطه عليهم ، وليتيح لهم الفرصة كي يأتوه بالاخبار دون أن تثار حولهم الشكوك ، وقد فعل المعظم عيسى فعل هتلر منذ نيف وسبعة قرون ، فقد أرسل مرة الى واليه على الشوبك يأمره بنفي راهب كان يسكن الجبل منفرداً يتعبد ، فنفاه . وبعد قليل جاءه خطاب المعظم يأمره باعادة الراهب ويوصيه به خيراً ، ويقول الوالي انه عجب لهذا التصرف :— « فبحثتُ عن القصة فاذا به قد بعثه يكشف أخبار الانبرور ، وانما نفاه لئلاّ يُتهم ، وأطلق لهُ أرضاً ، وأعطاه مائة دينار »

***

وبعد ، فهذه صور طريفة مما حفظه المؤرخون عن أخبار الجاسوسية في حروب الايوبيين بينها وبين أساليب الجاسوسية الحديثة شبهٌ كبير ، فهل نستطيع أن نقول مع القائلين : « إن التاريخ يعيد نفسه » وان اختلفت المسوح التي يبدو فيها في كل عصر عنها في العصر الآخر

معادن الحرب [1]

الكروم والصلب الذي لا يصدأ ومنافعهما في عتاد الحرب

لعوض جندي

نوهت الجرائد في شهر اكتوبر الماضي بمعدن الكروم ومنزلته من صنع العتاد الحربي ووافتنا الانباء البرقية بما دار من المفاوضات بين مندوبي المانيا والولايات المتحدة وبريطانيا العظمى من جانب ، والحكومة التركية من الجانب الآخر ، بشأن شراء المقادير التي تستغني عنها تركيا منه ، فرأينا ان نفي الكروم حقه من التعريف في هذا المقال

الكروم معدن من المعادن التي ارتقت صناعتها ارتقاء عظيماً في العهد الحديث. وهو من طائفة عناصر الكبريت الاصفر والسلينيوم (وفي عرفي انه قد يكون الكبريت الأحمر) والطنجستن. واسم الكروم مشتق من الكلمة اليونانية كروما Chroma او كروماتيكوس Chromaticos ومعناها (لون) التي اطلقت عليه لأن مركباته جميعها ملونة بألوان مختلفة

وهو فلز صلب سنجابي ضارب للبياض ، يُصهر في درجة حرارة ١٩٢٠ سنتيغراد . ويؤلف الكروم أخلاطاً عظيمة الشأن عند خلطه بفلزات الحديد والنيكل والكوبلت والنحاس الأحمر ، وقد يخلط بالزئبق إيضاً . واذا خلط الكروم بالفولاذ، صار صلباً قاسياً . والاخلاط المحتوية على نسبة كبيرة من الكروم تظل لامعة دائماً في الهواء الرطب . والكروم عنصر من العناصر التي تدخل في تركيب الفولاذ العادم الصدأ اذ يحتوي هذا الفولاذ على نحو ١٢ ٪ من ذلك الفلز . ويعدّ الكروم من المعادن النفيسة للطلي

والفولاذ الكرومي اي الذي لا يصدأ ، صلب مرن ، وقيمته لا تقدر في صناعة المبارد والمقذوفات وكرات (بلي أو بيل) كراسي المحاور . ويخلط الكروم بالنيكل فتصنع منه أسلاك رفيعة تمد في الدفايات الكهربائية التي تحمر كثمر الكرز حينما ينطلق فيها التيار الكهربائي . وكان اكتشاف هذا الخليط مسهلاً لصنع الأجهزة الكهربائية اذ أتاح لها عنصراً للتسخين لا يحترق

---

(١) عن مجلة خلاصة العلم Science Digest

بسهولة. ويدخل الكروم في صناعة العجلات المعدنية والنوابض «الزنبركات» والمحاور وألواح التدريع وفي رؤوس القنابل. ويستعمل لطلي الحنفيات وسائر أجهزة الحمامات، وفي حواجز الاصطدام في مقدمات السيارات ومؤخراتها

ويستعمل الكروم في دباغة الجلود، اذ المعروف إن الدباغة بلحاء الاشجار والخضراوات تستغرق زمناً طويلاً يتفاوت بين ٩٠ يوماً و١٠٠ يوم. على حين أن طريقة الكروم أو الدباغة الميكانيكية تستغرق أقل من ثلث هذه المدة. واخترعت هذه الطريقة سنة ١٨٨٤ ومخترعها أميركي، فأصبحت أهم الطرق لدباغة الجلود الخفيفة. وتستعمل أيضاً لدبغ الجلود الثقيلة حيث يحتاج الأمر الى قوة شديدة. والسائل الذي يستعمل فيها هو محلول املاح الكروم المعروف باسم كرومبت Chromite وهي توجد في جنوب افريقيا Chrome iron ore وروسيا والولايات المتحدة الاميركية وبلاد الهند وآسيا الصغرى وكاليدونيا الجديدة وبوهيميا

وفي الحرب الحالية تزحف الجيوش في الفيافي مدججة بدباباتها وسياراتها المدرعة وغيرها من عتاد الحرب، حيث تسحق اعداءها وتستولي على أهدافها، الواحد تلو الآخر، غير مقتصرة على ذلك، بل مواصلة زحفها، مقتفية آثار اعدائها، على حين يرقب الخلق، تلك المشاهد عن كثب فيعروهم كل الدهش، ليس من القوى الطبيعية التي يتحلى بها المقاتلون، بل من عظم متانة عتاد الحرب الحالية

وترى الدبابات وعربات الاستكشاف والنقالات والمدفعية في ساحات الوغى، تصخب يوماً فيوماً وقلما تقف بغية الترميم. وهذا دليل على التقدم الذي بلغهُ اختراع معادن الحرب الجديدة، وتحسين معادنها القديمة منذ سنة ١٩١٨

وازاء التحسينات التي تمت حديثاً في عتاد الحرب، لا يني رجال المباحث الصناعية، في مواصلة ترقية منتجاتهم، فترى أحدهم مثلاً قائماً باحناء قطعة من الفولاذ، وآخر بلَفّ قطعة أخرى منه، وكل منهما يدرس كيفية جعلها أصلب مما هي عليه أو تجنيبها التصدئة، أو تصييرها أخف مما كانت عليه، دون اضعاف قوتها. لأن الفولاذ قد يعدُّ المعدن الاصلي للحرب، وعلى تحسين انواعهِ الجديدة أو تحسين قديمها، تتوقف حياة الجنود، بل مصير الدولة

وكان الفولاذ الذي لا يصدأ أول التحسينات التي تمت في تلك السبيل. وليس السبب أنه كان مجهولاً في أثناء الحرب العالمية، بل لأنهُ كان حديث الظهور حينئذٍ، حداثة لم تسمح بالانتفاع به. ومما لا شك فيهِ ان الطلب التجاري الكبير الاول للفولاذ الذي لا يصدأ في الولايات المتحدة الاميركية لم يقدم الاَّ في سنة ١٩٢٤ اذ اشترت شركة

F. J. du Pont de Nemours ده بون دي نامور من ذلك المعدن ما قيمته ٤٠٠٠٠٠ ريال ليجعلوه المادة الاساسية في أبراج الحامض النيتريك . والفولاذ الذي لا يصدأ ، على عكس أشياء شتى . اخترع لاجل الانتفاع بهِ في زمان السلام . ثم اغتصبهُ مثيرو الحروب ، وهو ثمرة من ثمار مباحث كيمياني انكليزي كان يبغي صنع بطانة لأنبوب مدفع ، تقاوم التأكل والقذر . فركَّب لتلك الغاية . سلسلة من انواع الفولاذ ، تحتوي على مقادير معدن الكروم ، تختلف من ٦ ٪ الى ١٥ ٪ فلحظ عرضاً أن هاتيك النماذج قد قاومت عوامل التأكل التي كانت مستعملة في مختبره العلمي . ولما أن عجز عن الانتفاع تجاريًّا بذلك النوع من الفولاذ ، الذي حضَّره ليصنع منهُ بطانات لانابيب المدافع ، خطر له استعماله في صناعة الآلات القاطعة ، فأنشأ على ذلك المبدأ صناعة جديدة [1]

وليس معقولاً ان معدناً لا يتأثر بالصدأ مثل هذا الفولاذ ، تقتصر منافعهُ على صنع الآلات القاطعة . فلا عجب اذا وجدت فيه صناعة الطائرات ضالتها المنشودة لعشرات من المنافع ، ومنها حيطان النيران التي تحجب مقصورة الطيار عن محرك طائرته ، ودعائم المصاعد وجنيحات الطائرات التي تضبط توازنها الجانبي وصهاريج وقودها السائل ، و«قاريات» أذنابها ودعائم دفاتها بل أجنحتها بأجمعها . ثم ان الطائرات الطاردة والطائرات القاذفة تحتوي على مقادير كبيرة من هذا الفولاذ الذي لا يصدأ . وستصبح الطائرات في المستقبل القريب مصنوعة كلها من هذا الفولاذ الصلب . وحسبنا دليلاً على تحقيق هذا الرأي ان شركة ادوارد . ج . بدْ Edward G. Budd الصناعية الاميركية صنعت في سنة ١٩٣١ طائرة على سبيل التجربة كانت كلها من هذا المعدن ، ما عدا أغطية جناحيها وذنبها . ثم طار بها كثيرون من الطيارين فعبروا بها جبال الألب مرتين مشحونة شحنة كاملة وذلك على ارتفاع ١٦٠٠٠ قدم . وقد فككت أجزاء تلك الطائرة من عهد قريب ، فتبين من فحصها ان تركيبها

---

(١) وفي هذا الصدد تقول المعلمة الانكليزية المسماة Popular Science Educator « المعلم للعلم العام » ما يأتي : — يحتوي الفولاذ العادم الصدأ المستعمل كثيراً في صنع الآلات القاطعة وما اليها على ١٢ ٪ من معدن الكروم . وهو من المنتجات الانكليزية . ومخترعه هو المستر . ه . بيرلي H. Bearley وذلك انه كان يجرب تجربة صناعية يبغي بها انتاج فولاذ لغرض يختلف عن الاغراض المعروفة كل الاختلاف فطبخ طبخة معدنية محتوية على ١٤ ٪ من معدن الكروم ، فكانت تلك الكمية اكبر منها في أية تجربة سابقة ، فجاءت ثمرتها على عكس مشتهاه . فألقى الفولاذ الناتج منها في زاوية من زوايا النسيان في مختبره الكيميائي . واتفقى على ذلك الحادث اسبوعان اذ شاهد احد معاوني بيرلي الفولاذ المنبوذ وهو لا يزال لامعاً . فلم يسعه وقتئذ الا لفت رئيسه اليه . فقام بأبحاث استدل منها على ان الفولاذ المشار اليه لم يكن عادم الصدأ فحسب ، بل انه لا يتأثر بالاحماض فأدرك المخترع في الحال أنه أنتج نتاجاً جديداً نفيساً جداً . ويجدر بكاتب هذه السطور أن يقرر في هذا المقام ان الريش الفولاذية التي يكتب بها هي من الفولاذ الذي لا يصدأ من طراز ايريدينويد iridinoid الذي لا تحفيه كثرة الصفحات التي تكتب به

سليم من البلى والتلف والصدأ . وتمّ ادخال هذا المعدن في صنع دعائم أجنحة الطائرات وفي أجزاء كبيرة من أغطية أجنحتها وذلك في أحد أنواع طائرات سلاح طيران الولايات المتحدة الاميركية

والفولاذ العادم الصدأ الذي تصنعه لأجل مصانع الطائرات ، فروع مصانع الفولاذ لشركة « يونيتد ستايتس ستيل » يصهر في أفران كهربائية . ومن هاتيك الأنواع المختلفة المستعملة لذلك الغرض نوع أطلق عليه اسم ١٨ و٨ لأنه يحتوي على ١٨ ٪ من الكروم و٨ ٪ من النيكل وهذا الخليط المعدني يحول معظمه الى ألواح وشرط . ومتوسط عرض اللوح منها ٣٦ بوصة وثخانته ١/٨ من البوصة . وكان النتاج الصناعي الأخير شريطاً لامع طوله ٣٠٠٠ قدم نتج من تطريق لوح طوله ١٨ قدماً دون احداث تغيير في عرضه . وفي احدى مراحل عمليات الانتاج يحمى ذلك الشريط احماءً محكماً مدة عشر ساعات الى درجة فوق ٢٣٠٠ فارنهيت

وفي مرحلة اخرى يطرق ذلك اللوح الذي طوله ١٨ قدماً ، فيحول الى شريط طوله ٤٦٥ قدماً في مصنع ساخن يعمل بلا انقطاع عرضه ٨٠ بوصة ، حيث يتخذ الصناع في خلال تلك العملية ، أشد الاحتياطات التي تمكنهم من السيطرة على العوامل جميعها سيطرة محكمة يقتضيها حجم الشيء المصنوع وصعوبة انتاجه . وهذا مما يحتم على الصناع محادثة بعضهم بعضاً بالتليفون والصفارات والاشارات الضوئية المتباينة الالوان ، ابتغاء التوفيق بين مجهوداتهم وتنسيق ثمرات اعمالهم

وللفولاذ العادم الصدأ بعض منافع اخرى في صنع الطائرات ، فتصنع منه صناديق للذخائر الحربية ومجار لمرور الوقود وأخرى لقذف العادم منه أو لقذف القنابل ورفوف لحمل القنابل وصناديق للخرطوش اللازم للمدافع الرشاشة ومجار للمشاعل التي تقذف لاضاءة منطقة الهدف

وكانت التحسينات التالية التي عقبت الحرب العالمية ، هي اتساع نطاق الاخلاط الفولاذية اتساعاً كبيراً على حين ان الذي كان معروفاً منها ومستعملاً في سنة ١٩١٤ طائفة صغيرة نسبياً . اما الآن فالمشهور منها يعدُّ بالعشرات . ويحضر كل منها بطريقة خاصة متقنة اتقاناً يلائم اغراضاً معينة

واستعملت جمعية « مهندسي الآلات المتحركة بذاتها » أكثر من ١٠٠ نوع من اخلاط الفولاذ لاستخدامها في صنع اجزاء شتى من السيارات . وغدا كثير من تلك الأنواع صالحاً للآلات الحربية . وبما ان تروس الدبابات الحربية يجب ان تكون من المرونة بحيث تقاوم وطأة الجهد العظيم الذي يقع على آلات سوقها ، ولا تنكسر ، فتعوق حركة الحملات الحربية كالتي تشنها بريطانيا العظمى في افريقية

وقد أسفرت المباحث المدققة التي قامت بها الشركة الاميركية للمحاريث الميكانيكية وهي شركة (The Caterpillar Tractor Co) عن خليط معدني خاص من الفولاذ استطاعت ان تصنع منه تروساً تقوى على احتمال الجر فوق جذور النباتات المتأصلة في التربة التي كثيراً ما تحطم المحاريث الميكانيكية

وانقضت أولاً على استعمال هذا الخليط المعدني سنون عديدة ثم استخدم في ألوف من الجرارات الميكانيكية ، التي ابتاع كثيراً منها جيش الولايات المتحدة الأميركية . ويستعمل هذا الخليط المعدني وأمثاله في الدبابات الحربية ، لكي تستطيع تلك الآلات الحربية التوغل في الخنادق وتحطيم الاشجار والحواجز والحصون وامالة كثبان الرمال ثم السير في الطرق العامة بسرعة لم يكن امرؤ يحلم بها قبل خمس وعشرين سنة

وتوجد الاخلاط المعدنية الاخرى في محركات هاتيك الدبابات الحربية ، كما توجد في دروعها الواقية . ومعدن الكروم الذي يؤدي الى صلابة الفولاذ ، لهو من الألفاظ السحرية التي تتردد في الحديث الذي يدور حول الأخلاط الفولاذية الصالحة لآلات الحرب وأسلحتها . ويستعمل بعضه مختلطاً بالفولاذ ومتحداً بغيره من الفلزات في صنع القذائف التي تخرق الدروع الحربية . ويستطيع المدفع الذي عياره ١٦ بوصة ، من مدافع جيش الولايات المتحدة الأميركية قذف القذائف الكبيرة قذفاً شديداً على هدف يبعد عنه ثلاثين ميلاً في البحر . هذا مع العلم بأن اكبر قنبلة تلقيها مدفعية الولايات المتحدة الأميركية هي التي تطلقها مدافع الدفاع الساحلية . وهذه القذيفة التي عيارها ١٦ بوصة يمكنها اختراق درع فولاذية ثخانتها ١٦ بوصة ايضاً ، قبلما تستطيع قوتها الهائلة تمزيق جسمها الفولاذي الثقيل ، بتلك القوة شذر مذر . وضربتها الواحدة المباشرة تسبب تلفاً يكفي لاغراق أية مدرعة تصادفها

وتستعمل الأخلاط الفولاذية ذات الصلابة العظيمة في الدروع التي تدرع بها البوارج المستهدفة لنيران مدافع الدفاع الساحلية . وكذلك تدخل في صنع اجزاء المدرعات أي في المحركات ، وفي أبراج النيران وفي تروس القيادة وضوابط المدافع وما اليها من عشرات الادوات والآلات

وللأخلاط الفولاذ شأن عظيم في صنع الطائرات الضخمة القاذفة للقنابل وكذلك في الطائرات الصغيرة المطاردة ، وفي محركاتها اذ ساعدت على التخفيض من ثقلها خفضاً كبيراً . وذلك ان طائرات رايت Wright الأصلية كان ثقل محركها يصنع بنسبة ٢١ رطلاً لكل حصان بخاري من قوتها فأصبح ثقل تلك المحركات التي تبرد بالهواء ، ضئيلاً جداً أي بنسبة رطل واحد لكل حصان

بخاري . ومع ذلك فهي أمتن من سابقتها وأقوى كثيراً . وتتفاوت حاجة صناعة الطائرات الاميركية بوجهٍ عام ، الى الخاليط الفولاذية من نحو خُمس طن للطائرة الصغيرة من الطائرات الخاصة ، وستة أطنان ونصف طن او تزيد لطائرة النقل الكبيرة . وهذه المقادير لا تشمل الفولاذ العادم الصدأ والسلك الفولاذي والمسامير المحرّاة (البرمة) والصواميل

والموليبدينوم معدن أبيض ، وفي الولايات المتحدة الاميركية موارد كافية منه . وهو ذو مكانة عظيمة تزداد دائماً في ميدان اخلاط الفولاذ ، لأن موارد المعادن الأخرى التي تستخدم في مثل هذه الاغراض ، مهددة بالحصارات الحربية

ومنذ سنة ١٩٢٥ اشتهر هذا المعدن بكونه بديلاً جيداً لمعدن التنجستن ، وذلك في فولاذ الآلات ومخلوطاً صالحاً في عناصر فولاذ المباني ، ولذلك زاد استعماله منذ سنة ١٩٢٥ في اخلاط الكربون والفولاذ

وقد بيّن الدكتور م . ا . جروسمان M. A. Grossman مدير المباحث في شركة فولاذ كارنيجي بولاية إلينوي ان الخطورة العظيمة التي للفولاذ في صناعات العصر الحالي ، تؤيدها المعلومات الضافية الخاصة بكل خطوة في كل صناعة يدخلها الفولاذ ، وهو الأمر الذي كان مجهولاً من قبل . وهذا الى جانب احكام السيطرة على كل عملية من تلك العمليات . وهذا ما أفضى الى بلوغ نتاجه مبلغاً فائقاً . وقد نتجت تانك النتيجتان من المباحث التي دار معظمها حول منافع الفولاذ في زمن السلم

ومن أهم المباحث الدائرة الآن ، ثلاثة أمور وهي الصلابة والعلاج بالحرارة وحجم دقائق الفولاذ . لأن الصلابة في أنواع الفولاذ العظيمة القوة ، لها شأن مهم في آلات الحرب وأسلحتها كشأنها في صنع السيارات والادوات الزراعيـة والسكك الحديدية وما اليها من المنافع الكثيرة

وظهر للباحثين ان شكل عنصر التركيب له تأثير في صلابته ، وأنه السبب في انشاء التجارب الخاصة بدراسة هذا التأثير . وتسمى العملية التي تعمل بالحرارة لزيادة صلابة الفولاذ بعملية التصليب ، بيد ان البحث الخاص بحجم الدقائق أهم من ذلك اذ اتضح لصانعي الفولاذ ان حجم الدقائق في الفولاذ يتاح تغييره بعلاجات شتى ، وان بعض الانواع المنشودة ، يمكن الظفر بها عن طريق ذلك العلاج . وتطريق الفولاذ بالطريقة الباردة وسيلة من الوسائل الصالحة لانتاج فولاذ دقائقه اصغر وصلابته اشد منها عنها في سائر الوسائط . ويؤكد رجال الفولاذ ان صناعته قد حدث فيها انقلاب من أوائل العشرين السنة الماضية إذ اخترعت منه منتجات جديدة وتم تحسين كلي في سائر أنواعه بحيث أصبحت جديدة حقيقة ، وان كانت

اسمى بأساليبها الاصلية . وهذه التحسينات التي تمت في منتجات الفولاذ الصقيل قد اقتضت تغييرات أساسية في صنعه ، إذ بدأت بالمواد الأولية ثم تدرجت تدرجاً ثابتاً الى صنع الحديد الزهر الخام وسبائك الفولاذ بل الى كل خطوة من خطوات عمليات الصقل

ثم ان صنف الفولاذ الذي تنتجه الآن أفران سيمنز مارتن (وقد أشرت اليها في مؤلفي الصناعات والصنائع الذي أصدرته في سنة ١٩٢٧) أجود كثيراً من الأنواع القديمة إذ يصلح كل الصلاحية لكل عملية من العمليات المتقنة الدائمة التغير . وتنتج الافران ذات المراوح حديداً من الزهر أجود من الاصناف القديمة ، وذلك بالتحسينات العلمية ، وبخلط أنواع الركاز ، وقد وصفتها أيضاً في كتابي المتقدم ذكره وصفاً شاملاً) بعضها ببعض او بسحقها عند اللزوم وخلطها بتراب الفحم الكوك وحجر الجير اللذين يدخلان في صنع الحديد الزهر وقد صارت طريقة سيمنز لصهر الفولاذ من عمليات المعامل الكيميائية حيث يحضر الفولاذ بطريقة علمية وذلك بالتحكم في الخبث والسيطرة على درجة الحرارة وعناصر التركيب التي تدخل في صنعه

أما أنواع الفولاذ التي على نسق واحد وكذلك الحرارة التي على نسق واحد وغيرها من العلاجات التي يحتاج اليها في صناعة الاشياء الصقيلة فتتم بسهولة وذلك بالتمكن من الحصول على الفولاذ الذي تم التحكم في تركيب دقائقه

ومن أدلة التحسين الذي أحدث في خواص الفولاذ الاساسية أن قانون المباني يبيح الآن استعمال ضغط يبلغ ٢٠٠٠٠٠ رطل على البوصة المربعة الواحدة بينما كان الضغط المسموح به عليها منذ اربع سنين ١٦٠٠٠ رطل ، وكان منذ سنتين ١٨٠٠٠ رطل

واخترع مهندسو شركة وستنجهوس الاميركية غازاً يعالجون به ، بالحرارة ، الاجزاء الصغيرة المصنوعة . ويعدُّ هذا العلاج حلاً لاحدى المعضلات المويصة في المعالجة بالحرارة ونعني بها تصليب الفولاذ دون تليين سطحه أو تقشيره

واسم ذلك الغاز اندوغاز Endogas ويستعمل كهواء واق لافران الصهر . وتستعمله الآن جميع المصانع الكبرى القائمة بانتاج محركات الطائرات وأدواتها الاضافية إذ تنتج الوفاً من قطع التصليب . ولا يقتصر نفع الاندوغاز على ابطال تأثير الغازات التي تلين سطح الفولاذ فتتلفهُ عند معالجته بالحرارة ، بل أنه يوفر الوقت والمال ايضاً لانهُ يغني عن عملية الكشط التي تتطلبها الاجزاء الفولاذية بعد اتمام تصليبها

واخترعت الشركات الاخرى مزيجاً من الغازات او طائفة من الطرق لاجل استعمالها في منع تقشر الفولاذ عند علاجه بالحرارة

غدٌ يحيا

ليوسف الخال

غدٌ يحيا بنا هيا ، لنشد العهد بالعهد
ونروي ظمأ الأجيال ما تنهل من وجد
فتحدونا سراة الشك والظن — وتستهدي
مجالاً شُقّ من بعدك في الحب ، ومن بعدي
دعينا نزرع الوهم يقينا في ذرى الرغد
فأنت لي ، ولي وحدي

أسومي : إنْ سألت الزمن الريّان ما نحن
فنحن اللحن في دنياه إمّا خانه اللحن
ورجعٌ سرمديُّ اللون قد أفلتهُ لحن
فدارت من صداه العبقريّ الانس والجن
دعينا نزرع الوهم يقينا في ذرى الرغد
فأنت لي ، ولي وحدي

سأبني لك في سرّيَ محراباً وفي جهري
وما سري وما جهري سوى اليقظة من فكري
أنا لولاك لا أفتح جفنيْ على فجر
فأنت الأمس ، والحاضر ، والمقبل ، في عمري
دعينا نزرع الوهم يقينا في ذرى الرغد
فأنت لي ، ولي وحدي

لنا في غدنا الذروة ، والمغنم ، والعرس
فلا يدري بنا نحس ، ولا يهفو لنا بؤس
فنّا يُولد الآتي ، وفينا يمّحي الأمس
ولولانا يغور الكون لا بدر ولا شمس
دعينا نزرع الوهم يقينا في ذرى الرغد
فأنت لي ، ولي وحدي

أصل الحياة

لا يزال سراً غامضاً

ولكن العلم يرسم صورة لها قريبة من الحقيقة

كيف يجوز للعلماء ان يعربوا عن رأيٍ في أصل الحياة ، بينما طبيعة الحياة نفسها لا تزال سرّاً مستغلقاً ؟ والردّ الوحيد على هذا السؤال منتزع من تاريخ العلم وارتقائه . فكثير من الكشوف العلمية الخطيرة التي قلبت أركان التفكير العلمي ، وغيرت وجه الحضارة ، بدأت وليس للقائمين بها من أمل في نجاحها يفوق أملهم في الرد على السؤال الخاص بأصل الحياة . ولو كان كلّ كشفٍ علميٍ ممهّد الطريق، لانتفى روح المغامرة من البحث العلمي وهو ملحُ البحث وحافزه الأول . ولو امتنع علماء الأحياء عن المضيّ في بحثهم عن أصل الحياة ، لما في البحث من مشقة ، ولما دون الحقيقة من عقبات ، لطالبهم الجمهور المتعلم بالسعي على الاقل ، وإذا امتنعوا عن السعي وتنكبوا ابداء الرأي ، خلا الجو وأفسحت الطريق لآراء يختلط فيها العلم بالوهم . فعلى علماء الأحياء أن يستوثقوا من ان الآراء التي تعرض في هذا الموضوع الخطير ، لا تتنافى على الأقل ، مع الحقائق البيولوجية المثبتة

وفي دوائر علوم الأحياء ان القول بنشوء الاجسام الحية على سطح الارض من مواد غير حية ، هو القول الغالب

فبعدما بردت كرة الارض حتى غدت حرارة قشرتها معتدلة ، كانت جانب كبير من سطح الارض يغطيه الماء . وكان الغلاف الغازي المحيط بالارض يحتوي على بخار الماء وثاني إكسيد الكربون والنتروجين وبعض غاز النشادر ، ومن المرجح ان مقدار الأكسجين فيه كان يسيراً جداً . أما الأكسجين الذي نجده في الهواء الآن فردّه الى الأكسجين الذي كان متحداً بالكربون في ثاني إكسيد الكربون. وقد انطلق الأكسجين من عقاله بعد ترسب الكربون صخوراً محتوية على كربونات الجير مثلاً ، او فحماً في عروق الفحم ، او نفطاً في طبقات الارض . وكان لنمو النبات شأن أي شأن في انجاز هذا العمل الواسع النطاق . فعمل التركيب الضوئيّ ، يتمّ في الاوراق الخضر ، بفعل اليخضور (كلوروفيل) واشعاع الشمس ، فيفصل الكربون عن الأكسجين — وهما متحدان في ثاني إكسيد الكربون كما تقدم — فينطلق الأكسجين حرّاً في الهواء ويترسب الكربون . ومن أدق البحوث العلمية الحديثة ، بحثٌ

غرضهُ الموازنة بين مقدار الاكسجين الحرّ في الهواء، ومقدار الكربون المستقر في أشكال شتى في قشرة الارض، وقد أسفرت هذه الموازنة عن حمل العلماء على القول بأن كل أكسجين الهواء تقريباً مردّهُ الى الأكسجين الذي كان متحداً بالكربون في ثاني أكسيد الكربون عند ما كان مقدار هذا الغاز المركّب — ثاني اكسيد الكربون — في الهواء أعظم جداً من مقداره الآن

ولا يخفى ان الاوزون يحجب الاشعة التي فوق البنفسجي بعض الحجب. وجزيء الاوزون قوامهُ ثلاث ذرات من الاوكسجين. ومعظم اوزون الهواء الآن في طبقات الجوّ العليا. فهي اشبه ما يكون بدثار يدثر الأرض على بعد عظيم من سطحها. ففي العصور الخالية، عند ما كان مقدار الاوكسجين الحرّ في الهواء اقلّ كثيراً مما هو الآن، كان ما يصل سطح الأرض من الاشعاع الذي فوق البنفسجي، أعظم مما يصلها الآن

ومن الحقائق المعروفة ان جزيئات ثاني اكسيد الكربون، تتفاعل متأثرة بالاشعة التي فوق البنفسجي، مع جزيئات الماء، فتولّد جزيء مادة «كربو ايدراتية» بسيطة كالنشا او السكر. فاذا كان هناك نشادر في المكان الذي يحدث فيهِ هذا التفاعل، تولّد جزيءٌ اشد تعقيداً واكبر حجماً من جزيء السكر او النشا وقد يقترب في حجمهِ وتعقيد بنائهِ من جزيء البروتين. وعلى هذا الوجه تتولد المادة العضوية من المادة غير العضوية. ولكن هذه المادة العضوية ليست مادة حية، فكيف نفخت فيها شعلة الحياة

على كرّ الزمن تتولد مقادير كبيرة من المواد العضوية كافية لتغذية الأحياء البسيطة التي قد توجد او تظهر. والرأي ان تأثير اشعة الشمس، ولاسيما الاشعة قصيرة الامواج في طرفها افضى على الزمن الى نشوء جزيئات عضوية على جانب من تعقيد البناء كافٍ لظهور بعض خواص الاحياء فيها. واذا كان هذا القول قد تمّ حقيقة فالعوامل المؤاتية لنموّ هذه الأجسام الحية كانت متوافرة. فالطعام وفير والمنافسة منتفية. اما اذا ظهرت جزيئات من هذا القبيل على النحو المتقدم فمسألة فيها نظر. ولعلّ جزيئاً واحداً ظهر وتكاثر. فجميع الأحياء تتأثر تأثراً واحداً بالضوء المستقطب، وتتحرك حركة واحدة في مستوى الاستقطاب بينما هناك حركتان مشاهدتان في الاجسام غير الحية وفي الاجسام العضوية البسيطة كأصناف السكر والنشا. فكأن هذه الصفة دليلٌ على ان جميع الاحياء ترتدّ الى هذا الاصل — الجزيء — البعيد البسيط

واذا ظهر جزيءٌ من هذا القبيل واتصف بخواص الاحياء فنشوء الاحياء منهُ وتنوعها مسألة زمن طويل وتفاعل مستمرّ ويكفي ان نسلم بنظرية التطوُّر العضوي لتفسير اشكال الاحياء المتعددة التي تعمر سطح الارض سواءٌ أنباتية كانت أم حيوانية

وغاية ما يستطيعه البحث العلمي الآن في سعيه الى ادراك أصل الحياة انما هو التوفر على بحث اشكال الحياة البدائية وهي مرتبة بحسب تعقد بنائها وتنظيم جزئياتها كما يلي من الأدنى الى الأعلى

الأنزيمات

الفيروسات الراشحة

البكتيريوفاج (آكل البكتيريا)

البكتيريا

البروتوزوى

الأحياء المتعدد الخلايا من نبات وحيوان والانسان في اوجها

ولعل البكتيريا هي ادنى الاجسام تعقيداً وتنظيماً في البناء التي ثبت انها حية حقيقة . ولكن بعض الافعال التي تتصف بها اجسام دون البكتيريا مرتبةً ، تشبه افعال الاجسام الحية فعلاً من بعض نواحيها

ولا يعلم ان الانزيمات الموجودة في الخمائر ، والفيروسات الراشحة والبكتيريوفاج ، تستطيع ان تتكاثر وحدها ، فالانزيمات تتكاثر في اثناء فعل التخمر ، والفيروسات تولد خواصها في أجسام أرقى منها مرتبة في سلم الحياة كما يحدث عندما يصاب ورق التبغ بمرض مردّه الى فيروس . والبكتيريوفاج يتكاثر في أثناء قضائه على البكتيريا . أما البكتيريا والبروتوزوى فتتكاثر بانشطار الخلايا على ان تكون درجة الحرارة وأحوال البيئة من طبيعية وكيمائية مؤاتية لهذا الانشطار . ولذلك من أشق الأمور الحكم في هل تعتبر الاجسام التي دون البكتيريا أجساماً حية حقيقة أو لا . فالاشعة التي فوق البنفسجي أفعل جداً في تدمير البكتيريا والاحياء التي فوقها في سلم الحياة ، منها في تدمير الاجسام التي دونها في هذا السلم . وهذه الحقيقة قد تكون كافية لتعليل وجود خلايا تصف حية على سطح الارض عندما كان الاشعاع الذي فوق البنفسجي الواصل الى سطح الارض أعظم جدًّا — لقلة الاكسجين الحر — منه الآن . ومن الجائز ان الاجسام التي في أسفل السلّم — أي الانزيمات والفيروسات والبكتيريوفاج — التي تعجز الآن عن التكاثر وحدها بغير معونة تسدى اليها من أجسام اخرى ، كانت قادرة على التكاثر في أحوال أشد مواتاة لتكاثرها عند ما كانت الارض في بدء مرحلتها ككرة صلبة . ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد ان الجنين الانساني يعيش الساعات الاولى بعد تكونه في معزل تام عن الاكسجين ، والنمو في هذه المرحلة الاولى من حياة الجنين يسير على وجه أشبه ما يكون بفعل التخمر وهو فعل يتم بمعزل عن الهواء اي بمعزل عن الاكسجين . ولعلّ هذه المرحلة من حياة الجنين ليست الا ظلاً لمرحلة الاولى من مراحل الحياة على سطح الارض

الفكاهة

وحضور البديهة في الأدب العربي

لمحمد عبد الغني حسن

جرت العادة عند المترجمين اليوم ان يضعوا كلمة الفكاهة في مقابل كلمة Humour وكلمة فطنة أو بديهة في مقابل كلمة Wit . وهو وضع قصدوا به الى التفريق بين معنى الكلمتين الانكليزيتين اللتين أصبحتا سمة يتسم بها الأدب الانكليزي والطبع الانكليزي في مختلف عصوره . وقولنا ان الفكاهة والبديهة من سمات الطبع الانكليزي هو حقيقة نقصد بها ان ننفي ما علق بالاذهان من برود الطبع الانكليزي وميله الى العبوس والصرامة والتزمت . والحق ان الانكليز بعيدون من ذلك كله . فالدارس لأدبهم يعرض ألواناً شتى من روح الفكاهة الشائعة فيهم ، والتي تسودهم في أحرج الساعات وأشد الملمات فتحيل الجو العابس الكئيب الى جوٍّ مرح يسعف الطبع المكدود والذهن المضنى

وكلمة « الفكاهة » العربية تمت الى الضحك وحسن الحديث بصلات ، ويقابلها في اللسان العربي «الفكيهة» كما جاء في القاموس المحيط وغيره ، وبالفكيهة يسمي العرب بناتهم . وفكّه الرجل القوم بمُلح الكلام أطرفهم بها ، والرجل الفكه الذي يصنع الفكاهة ، والفاكه الطيب النفس الضحوك او الذي يضحك القوم بحديثه كالفكه . والمفاكهة والتفاكه الممازحة والتمازح[1]

وكلمة Humour الانكليزية تمت الى الضحك بسبب كذلك . وهي مشتقة من أصل لا تيني معناه افراز غددي كان يعتقد ان له سبباً في اثارة الأمزجة المختلفة للجسم . وفي طب العصور الوسطى كانت تستعمل كلمة Humours دلالة على زيادة عصارة من العصارات الأربع التي يفرزها الجسم وأثر تلك الزيادة في أخلاق الشخص العامة . على ان هذا الفهم لكلمة Humour أخذ يتغير تدريجيًّا وخاصة عند ما ظهر «بن جونسون» الانكليزي في القرن السابع عشر وحدد الكلمة تحديداً ساعد على حسن استعمالها والموازنة بينها وبين كلمة Wit[2]

(١) القاموس المحيط مادة «فكه» (٢) دائرة معارف الدايلي اكسبرس مادة Humour

وللاستاذ مرغوليوث المستشرق المعروف بحث في الفكاهة عنوانه : Wit and Humour in Arabic Authors نشرته مجلة Islamic Culture أي « الثقافة الاسلامية » وهي تظهر في الهند باللغة الانكليزية . وقد بدأ البحث بالتنبيه على صعوبة تعريف الظاهرتين او ترجمتهما ، واستعان بتعريف « ماكولي » « لكلمة Wit » وقال ان اللغة العربية على غناها ودقتها لا تجد فيها عبارة تنقل معنى هذا التعريف . وقد ردَّ هذا الرأي في سطور قليلة الأستاذ محمد خلف الله بكلية الآداب [٣]

ولقد وجدت في دوائر المعارف الانكليزية فرقاً واضحاً بين الفكاهة والبديهة او بين أل Humour وال Wit . فالرجل الفكه أو الفكاهي يكون هو نفسه موضوعاً للفكاهة ، أو يشترك مع آخرين ليكوّن الجميع موضوعاً فكاهيًا لذيذاً ، أما الرجل ذو البديهة والنادرة فانه يستخرج من بعض الأمور أمراً مضحكاً على أن لا يكون هو ذاته موضوعاً للضحك

وعلى ضوء هذه التفرقة نستطيع أن نمضي قدماً في دراسة بعض الشخصيات الفكهة أو الشخصيات ذوات البديهة الحاضرة في الأدب العربي

***

الفكاهة والبديهة في الامة مقياس تقاس به نظرتها الى الأشياء واضطلاعها بالاعباء . وقد عدّها مؤلف كتاب « العبقرية الانكليزية » بعض الميادين التي تتجلى فيها اخلاق الانكليز ومزاجهم وسر كيانهم [٤] . ومن الغريب أن الفكاهة والمزاح والنادرة عند الانكليز لم تخرجهم عن جدٍّ عرف بهم وشُهر عنهم . فهم اذا جدَّ الجد واشتد الأمر يحتاجون الى « النكتة » اللطيفة يروّحون بها عن نفوسهم . وتراهم لا يسرفون في النكتة ولا يتمادون في الفكاهة ولا يُلحفون في طلب المزاح مخافة أن يخرجهم الالحاف والاسراف عن حد الجدّ فتنقلب الآية وينعكس الوضع

وقد يعدمُ الشخص الفكاهة في نفسه أو يفقد البديهة في ذاته فيلتمسهما عند غيره ، ويدفع في سبيل ذلك الأموال ، ويغدق العطاء او يمنح الصلات كما كان يفعل الخلفاء والأمراء

ومن عجب أن الواحد من هؤلاء الخلفاء لا تراه يضن بالمال ينفقة على مضحكيه ومجّانيه وقد يبخل بالمال القليل على مشروع ينفع بلده أو نعمة تعود على رعيته ، ولكنه لا يبالي بالألوف تخرج لأصحاب المساخر والمضاحك

ولقد اشتهر من هؤلاء المضحكين « أشعب » في عهد بني أمية ، والخليع الدمشقي في

(٣) من مقال في مجلة الثقافة عدد ١٣٧ ص ١٨ (٤) مجلة الثقافة العدد الثامن ص ٧

في أيام الرشيد ، وأبو العبر في زمن المتوكل وكان بعض الخلفاء اذا استخفهم الطرب كلفوا هؤلاء المضحكين ما لا يطاق من ألوان العذاب (٥)

وقد لوحظ أن أكثر الناس فكاهة هم أكثرهم على الحياة صبراً وأطولهم في الحياة عمراً ، لأنهم يطاردون الهم بدوائه الصحيح ، والهم — وقاك الله — يخترم الاعمار ويشيب الولدان :

والهم يخترم الجسيم نحافة ويشيب ناصية الصبي ويهرم

***

على ان الاغراق في الفكاهة والاسراف في الضحك يصرف المرء عن الجد الى الهزل ويرمي به الى ميادين اللهو والتبذل ويفقده الاحساس الكريم بمواضع الكرم في الحياة فيموت قلبه وقد يقصر عمره . وقد علل المرحوم «جورجي زيدان» موت كثير من خلفاء العباسيين قبل سن الكهولة بافراطهم وتبسطهم في العيش وتمتعهم بالملذات (٦)

ومن هنا كانت الحكمة في الحديث الشريف « اياكم وكثرة الضحك فانها تميت القلب » وكانت الحكمة في قول عمر بن الخطاب « من كثر ضحكه قلت هيبته (٧) » وكانت الحكمة في قول أكثم «المزاحة تذهب المهابة» (٨)

وقد علل « النويري » صاحب « كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب » لايراده كثيراً من الفكاهات والنوادر والملح في كتابه بقوله (... فيه راحة للنفس اذا تعبت وكلت ، ونشاطاً للخواطر اذا سئمت وملت . لأن النفوس لا تستطيع ملازمة الاعمال ، بل ترتاح الى تنقل الأحوال ، فاذا عاهدتها بالنوادر في بعض الأحيان ولاطفتها بالفكاهات في أحد الأزمان عادت الى العمل الجد بنشطة جديدة ، وراحة في طلب العلوم مديدة) (٩) . وهذا مأخوذ من قول النبي عليه السلام «روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فان القلوب اذا كلت عميت »

والفكاهة في الادب العربي قديمة ، لأن طبيعة النفس البشرية الارتياح الى كل ما يشيع فيها السرور والضحك . والفكاهة غالباً تقترن بضحك مثيرها حتى يبعث بذلك الضحك في سامعيه ومن هنا مدح العرب القدماء الرجل بقولهم هو « ضحوك السن بسام الثنيات » (١٠) وذموه بقولهم « عبوس الوجه ، جهم المحيا » . وفي هذا الكلام نظر . فقد يكون في مظهر الرجل ما يدل على الشدة وينبيء بالصرامة فاذا تفكه أشاع في سامعيه سروراً كثيراً

والبرهان على ذلك حاضر وان لم يكن آتياً من الأدب العربي ، ولكنه يأتي مع الطبع

(٥) تاريخ التمدن الاسلامي لجورجي زيدان ج ٥ ص ٤٠١ (٦) نفس المصدر والجزء والصفحة (٧) عيون الاخبار ج ١ ص ٣١٩ (٨) نفس المصدر (٩) نهاية الارب ج ٤ ص ١ (١٠) العقد الفريد ونهاية الارب

البشري . فالمستر لويد جورج رئيس الوزارة والخطيب الانكليزي المشهور عرف بسرعة البديهة وحلو الفكاهة على تزمت في مظهره ، وصلابة في وجهه . فقد رووا عنه النكات ، وحفظوا عنه النوادر والأجوبة المسكتة التي تتصل بهذا الموضوع وتدخل في هذا المدخل . ولا بأس بالاستطراد بذكر بعض « بداهته » . فقد زعموا أنه خطب مرة عن الحكم الداخلي بارلندة (Home Rule) فقال. اننا سنعطي الحكم الداخلي لارلنده ، وسنعطيه لاسكتلندا وسنعطيه لويلز ، وسنعطيه لـ ... ووقف متلبثاً يتذكر اسماً جديداً فردَّ عليهِ أحد السامعين بقوله : لجهنم ! فقال الخطيب : [انهُ لـكذلك ! يعجبني ان يذكر كل انسان وطنه !]

على ان الفكاهة والمزاح والنكتة والنادرة والجواب المسكت والظرف والكياسة والبديهة وغيرها ليس شرطاً ان تكون وقفاً على الرجل المضحك او صاحب المسخرة ! فقد تقع الفكاهة من رجل الجد او تحدث النكتة من صاحب الدين فتقع الموقع العذب وتنزل المحل الرفيع

ولقد ذكروا في كتب الأدب والتاريخ الطريف من فكاهات النبي [١١] ومزاحاته. ولا بأس من ايراد احداها هنا : فقد جاءته عجوز من نساء الأنصار تسأله الدعاء لها بالمغفرة فقال لها : « أما علمت ان الجنَّة لا يدخلها العُجز » فصرخت فتبسم النبي وقال اما قرأت قوله تعالى (إنّا أنشأناهنَّ انشاءً ، فجعلناهنَّ أبكاراً ، عُرباً أترابا) [١٢]

على ان النبي وحده لم ينفرد — مع وقاره وسمته — بالمزاحة الحلوة فقد كان عمر بن الخطاب ونعيمان الصحابي البدري ، وعبدالله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق المشهور بابن أبي عتيق ممن يمزحون ، وكان أكثرهم مزاحاً الاخير على ورعه وعفافه وشرفه [١٣]

وتذكرنا هذه الظاهرة بمثلها في الادب الانكليزي . فالقس سدني سميث الانكليزي المعروف كانت تروى فكاهاته أكثر مما تروى خطبه، وتحفظ مزاحاته اكثر مما تحفظ مواعظه. وقد يحسن ان نذكر هنا احدى فكاهاته . فقد عابثهُ مرة احد أصدقائه قائلاً : أيها القس الجليل اذا وهب لي الله غلاماً أبله ناقص العقل فليس من حيلة أمامي الا ان أخرجهُ قسيساً . فردَّ عليهِ القس سميث قائلاً : أرى يا صاحبي أنك خرجت في الحياة على خلاف رأي والدك

والمتتبع لكتب الادب يرى ان الذين تحدثوا عن النوادر والمزاحات والفكاهات قد قسّموها طوائف تبعاً لأصحابها . فللقضاة نوادر، وللنحاة نوادر ، وللمتنبئين نوادر. ومثل ذلك للمتطفلين والنبيذيين والنساء والجواري والعميان والسؤّال وأصحاب المجون والمعاتبة [١٤]

---

(١١) نهاية الارب ج ٤ ص ٣ . والمستطرف للابشيهي ج ٢ ص ٢٣١ طبع مطبعة المعاهد «الطبعة الثانية» وعيون الاخبار لابن قتيبة ج ١ ص ٣١٥ (١٢) كتب الادب (١٣) نهاية الارب ج ٤ ص ٥
(١٤) نهاية الارب والمستطرف

وأغلب الظن عندي ان هذه النوادر قد تزيّد الناس فيها ، وأكثروا منها وبالغوا فيها على حسب عادتهم ، وكثير من تلك النوادر يظهر فيه أثر الصنعة وتلوح عليه عوارض الكلفة كما فعل الجاحظ في نوادره عن المعلمين فقد صورهم بصورة تتفق مع رأيه فيهم — ورأيه فيهم غير محمود — وتزيّد الحديث عليهم حتى بان أثر تكلفه وتعنته

وتجد الصنعة بادية ظاهرة في نوادر النحاة ، وكثير من فكاهات النحويين لم يصح وقوعها ، ولكن بعض اصحاب النحو او بعض أعدائهم وضعوها عليهم ، ونسبوها اليهم إما لأن تكون مادة للظرف ، وإما للتشنيع على النحاة والمعابثة بهم . وأغلب هذه النوادر يدور حول الاعراب ، والمصروف وغير المصروف . وقصة « هارون لا ينصرف » معروفة فلا داعي لذكرها (١٥)

وقد يتبين للقارىء أو الأديب الفطن اذا كانت الفكاهة التي يقرؤها موضوعة ام مطبوعة. وليس لذلك من علامات الا الذوق السليم والفطرة الصحيحة ، والبصيرة النافذة . فنادرة عدي بن ارطأة مع شريح القاضي فيها كثير من الصناعة . وهي نوع من الأجوبة المسكتة التي كان يتندر بها الناس زمناً . فقد رووا أن عديًا أتى شريحاً القاضي ومعه امرأة له من الكوفة يخاصمها اليه . فلما جلس عدي بين يدي شريح قال عدي : أين أنت ؟ قال بينك وبين الحائط ، قال أني امرؤ من أهل الشام . قال بعيد الدار ، قال : واني قدمت العراق ، قال : خير مقدم ، قال : وتزوجت هذه المرأة قال : بالرفاء والبنين ، قال : وأنها ولدت غلاماً ، قال : ليهنك الفارس ، قال : وقد أردت أن أنقلها الى داري ، قال : المرء أحق بأهله ، قال : كنت شرطت لها دارها ،قال : الشرط أملك ، قال اقض بيننا ، قال :قدقضيت .قال : فعلى من قضيت ؟ قال : على ابن امك

ومثل ذلك ما روى عن الشعبي القاضي فقد لوحظ عليه ميله الى النساء في مجالس الخصومة فوضعت له في ذلك النوادر

ولقد أحكم واضعو هذه النوادر والمزاحات سردها وزمنها ، فلكل خليفة قاض ، ولكل قاض نادرة ، فالشعبي قاض على عهد عبد الملك بن مروان ، واياس بن معاوية قاضي البصرة لعمر بن عبد العزيز ، وابو يوسف تلميذ الأمام أبي حنيفة قاضي الرشيد وكذلك الاوزاعي ، والسكوني قاضي الخليفة المعتمد . وما منهم الا له نادرة طريفة أو حكاية لطيفة

ولقد اعترف الجاحظ عن نفسه (١٦) بأنه الف كتاباً في نوادر المعلمين وما هم عليه من التغفل ثم رجع عن ذلك وعزم على تقطيع الكتاب ولكنه دخل يوماً مدينة فلقي فيها معلماً

(١٥) نهاية الارب ج ٤ (١٦) عن المستطرف للابشيهي ج ٢ ص ٣٤٢

حسن الهيئة لحادثة حتى بان للجاحظ عوار كلامه وفساد عقله فقال له بنص عبارته [يا هذا أني كنت الفت كتاباً في نوادركم معشر المعلمين وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه والآن قد قويت عزمي على ابقائه وأول ما أبدأ بك ان شاء الله تعالى]

ولقد لفتت هذه النوادر الموضوعة عن المعلمين والمنسوبة الى الجاحظ نظر العالم المستشرق الطيب الذكر « آدم متز Adam Mez » صاحب كتاب الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري فعلق عليها بقوله [أما مقدار تأثر الجاحظ فيما كتبه من السخرية بالمعلمين بكتب اليونان الهزلية التي كانت شخصية المعلم من أكبر صورها فهو موضوع للبحث] [١٧]

وهناك من الفكاهات والنوادر ما قصد به اللعب بالالفاظ ، فتخلق الحادثة ، وتصنع القصة او النادرة من أجل كلمة او لفظة يقصد العبث بها . ومن ذلك ما يقولون ان اعرابياً سرق غاشية على سرج ثم دخل المسجد يصلي فقرأ الامام قوله تعالى (هل أتاك حديث الغاشية) فقال السارق يا فقيه لاتدخل في الفضول . فلما قرأ الامام قوله تعالى (وجوه يومئذٍ خاشعة) قال السارق : خذوا غاشيتكم ولا يخشع وجهي لا بارك الله لكم فيها ثم رماها من يده وخرج. [١٨] ومن هذا الباب ما يحكون ان اعرابياً اسمه موسى سرق صرة فيها دراهم ثم دخل المسجد فقرأ الامام بعد الفاتحة قوله تعالى (وما تلك بيمينك يا موسى) فقال الاعرابي والله أنك لساحر ثم رمى الصرة وخرج [١٩]

ونظرة تجلى الى النادرتين تريك كيف كان الوضع فيهما ، فهما يشتركان في السرقة وفي دخول المسجد وفي قراءة الامام لآيات من القرآن الكريم تناسب الاسم الذي تتم به الرواية

وأمثال هذه الفكاهات والنوادر شائعة في الأدب العربي تجدها في كتب الأبشيهي والمستعصمي والشريشي والقليوبي وابن قتيبة وابن الطقطقي والاتليدي والأصبهاني والحصري القيرواني صاحب زهر الآداب وجلال الدين الحلي والنواجي والثعالبي والنويري والجاحظ والعاملي صاحب الكشكول والمخلاة وغيرهم

وقد جمع الأب لويس شيخو اليسوعي طائفة كثيرة من هذه النوادر ووضعها تحت اسم (الفكاهات) في المجموعة النفيسة التي أسماها « مجاني الادب في حدائق العرب » [٢٠]

وقد وضع العرب للفكاهة شروطاً ، وجعلوا للدعابات والمداعبات وما انخرط في سلكها من الملح والمزح أصولاً لا يخرج فيها عنها وفصولاً لا يخرج بها منها ، وقبلوا الفكاهة

---

(١٧) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ـ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ج ١ ص ٣٩٣
(١٨) المستطرف ج ٢ ص ٢٣٤ (١٩) المصدر السابق (٢٠) مجاني الادب ج ١ ص ٨٩ ، ج ٢ ص ٢٠٣ ، ج ٣ ص ٢٢٥ ، ج ٤ ص ٢٤٤ ، ج ٥ ص ١٢٦ الطبعة العاشرة بيروت

الباردة المثلجة كما استحسنوا الحارة المنضجة لأن افراط البرد يعود به الى الضد[٣١]

وقالوا ان النادرة اذا وقعت فاترة خرجت من رتبة الهزل والجد ودرجة الحر والبرد فيكون بها جهد الكرب على القلب وقد صدقوا في هذا فانه لا وسط في الفكاهات كما لا وسط في الغناء ، وما أبدع ابن الرومي حين هجا احمد بن طيفور الشاعر المغني بقوله

فقدتك يا ابن ابي طاهر وأطعمت فقدك من شاعر[٣٢]

فلست بسخن ولا بارد وما بين ذين سوى الفاتر

وأنت كذاك تغني النفو س تغشية الفاتر الخاثر

وأحسن ما قرأت في باب شروط الفكاهة والنادرة ما ذكره ابو اسحق بن علي الحصري القيرواني في كتابه « جمع الجواهر » الذي جعله ذيلاً لكتابه النفيس « زهر الآداب » فقد جعل من شروط النادر ان يكون (خفيف الاشارة ، لطيف العبارة) . وهذا حق لأن الفكاهة لا تحتاج الى الطول قدر ما تحتاج الى القصر ولا تملح بالتفسير قدر ما تملح بالرمز ولا تحسن نكتتها مثل ما تحسن بعبارتها

وجعل من بقية الشروط ان يكون (ظريفاً رشيقاً لبقاً رفيقاً غير فدم ولا ثقيل ولا عنيف ولا جهول قد لبس لكل حالة لبابها وركب لكل آلة أفراسها فطبق المفاصل وأصاب الشواكل وكان برائق حلاوته ورائق طلاوته يفض الهناء مواضع النقب ويعرف كيف يخرج مما يدخل فيه اذا خاف ان لا يستحسن ما يأتيه) وضرب على ذلك المثل بما جرى لابن خاقان مع الخليفة المتوكل فقد ذكروا ان ابن خاقان خرج مع المتوكل للصيد فرمى الخليفة عصفوراً فأخطأه . فقال ابن خاقان : أحسنت يا أمير المؤمنين فنظر اليه المتوكل نظرة منكرة (لأن عدم اصابة الطائر ليست موضعاً للاحسان) فقال ابن خاقان : أحسنت الى الطائر حتى سلم فضحك المتوكل

وعلى ذكر المتوكل نقول انه اول خليفة اسلامي اهتم بالفكاهة والمزاح الى حد كبير ،وزاد فيهما على يزيد بن عبد الملك الأموي والمنصور والرشيد العباسيين ، وقد ظهرت في عهد المتوكل شخصية فكاهية لمضحك اسمه « ابو العبر » ويعد أبو العبر هذا من زعماء الفكاهة والأدب العربي ولقد زاد فيها على « أبي دلامة » «وأشعب ». وكان « ابو العبر »هذا يُصنع به من الخليفة ما لا يصنع بالبهائم فيحتمله ببرود غريب وصبر عجيب . قالوا ان المتوكل اذا طرب « أمر بأبي العبر » « أن يرمى به في المنجنيق الى الماء وعليه قميص حرير فاذا علا في الهواء

---

(٣١) جمع الجواهر في الملح والنوادر الحصري القيرواني ص ٦ (٣٢) المصدر السابق وديوان ابن الرومي طبع كامل كيلاني ص ١٠٢

صاح :— الطريق ! الطريق ثم يقع في الماء فيخرجه السباحون[٢٣]

وكان المتوكل يطرب ويرتاح الى الفكاهات والمزاحات تحدث في مجلسه وكان يبلغ به الضحك مبلغاً فيفحص معه الارض برجليه[٢٤] وحادثته مع البحتري الشاعر مشهورة في القصيدة البحترية التي مطلعها :

من أي ثغر تبتسم وبأي طرف تحتكم

فقد عارضها في مجلس المتوكل « المضحك » أبو العنبس الصيمري بأبيات تنطوي على الفحش الموجع فغضب البحتري وضحك المتوكل ضحكاً شديداً

وكانت لابي العبر طريقة خاصة في الفكاهة وهي تعمُّد المقلوب من الكلام مجانة ورقاعة ويشاركه في هذه الطريقة ماجن آخر اسمهُ محمد بن حكيم الكنتجي . فهو يقول مثلاً « اما قبل فأحكم بنيانك على الرمل واحبس الماء في الهواء حتى يغرق الناس من العطش »[٢٥]

ويتحدث أبو العبر عن طريقته المقلوبة وكيف تعلمها فيقول (كنا نختلف ونحن أحداث الى رجل يعلمنا الهزل فكان يقول : اول ما تريدون قلب الاشياء فكنا نقول له اذا أصبح كيف أمسيت ؟ واذا أمسى كيف أصبحت ؟ واذا قال تعال تأخر الى خلف وكانت له ارزاق تحمل كتابتها في كل سنة ، فحمل مرة وأنا معهُ الكتاب فلما فرغ من التوقيع وبقي الختم قال : أتربهُ (اي جففهُ بالتراب) وجئني به فمضيت فصببت عليه الماء فبطل ، فقال ويحك ما صنعت ؟ قلت : ما نحن فيه طول النهار من قلب الاشياء ! قال والله لا تصحبني بعد اليوم فأنت أستاذ الاستاذين)

هذه القصة التي يرويها أبو العبر عن نفسه وشهادة معلمه له بأنهُ استاذ الاستاذين تدلنا على مكانته في قلب الكلام وقلب الاشياء ، وليس في ذلك كثير من الذكاء او الحذق الذي تتطلبهُ الفكاهة او النادرة ولكنهُ على كل حال كان ميزة امتاز بها هذا المضحك المجان ، ولقد كان المتوكل يعجب به أيما إعجاب ويصله بأحسن الصلات

ومن غريب أمر هذا الفاكه انهُ لم يكن من عامة الشعب ، ولا من سواد الرعية ولكنهُ كان أميراً من أمراء العباسيين ، عاش جاداً مقتبل حياته ومستهلّ عمره ثم رأى ان الجد أقصاه من الخلفاء ، فاتخذ الشعر صناعة له لولا انهُ مني بمنافسين أشداء كأبي تمام والبحتري فصرف عن الشعر راحلته واتخذ الفكاهة صناعته ، الا انه تفكه بحماقاته ، وتندر بسخافاته ولم يؤثر عنه ما يدل على حضور ذهن او توقد قريحة ، ولكن عرف عنهُ دائماً ما يدل على

(٢٣) تاريخ التمدن الاسلامي ٥ ص ١٤٥ (٢٤) كتب التاريخ والادب (٢٥) جمع الجواهر ص ٦٦

تنازله عن كرامته وتهاونه في حق انسانيته . وكانت مضحكات أفعاله وفكاهات أعماله أكثر طرافة وافتنانا من مضحكات أقواله

ـــ

ولعل « أبا دلامة » أحق من غيره بالمكان الذي احتله بين الفاكهين والمضحكين ، ويمتاز على أبي العبر وغيره باصالة الروح الفكاهية فيه، فهو لا يجنح الى التهريج والتمحل ومقلوب الكلام ليجعل لفكاهاته قيمة ، ولكن النكتة تأتيه عفواً من غير تكلف وتجيء اليه طوعاً من غير تعسف . ولقد استفاضت كتب الادب بذكر نوادره واختصه الاصفهاني بدراسة طويلة في كتاب الأغاني [٢٦]

وقد اختصه المنصور العباسي بالتقريب والكرامة ، وأعفاه مما كان يقيد به الشعب ، فأعفاه من لبس السواد والقلانس لتلطفه في طلب الاعفاء من هذا الزي الذي أمر المنصور أصحابه باتخاذه [٢٧]

وكان يحلو لأبي جعفر المنصور ، وقيل لأبي العباس السفاح العبث بأبي دلامة فيسأل عنه في كل مكان يُظن أنه فيه ويؤتى به اليه ليفاكهه [٢٨] . وبلغ عند المهدي مبلغاً عظيماً فكان يستطيب حديثه ونصله . ولقد كان من حديثه معه أنه لما قدم المهدي من مدينة الري دخل عليه أبو دلامة فأنشأ يقول :—

اني نذرت لئن رأيتك سالماً بقرى العراق وأنت ذو وفر
لتصلين على النبي محمــــد ولتملأن دراهماً حجري

فقال المهدي : صلى الله على النبي وسلم ؟ وأما الدراهم فلا . فقال ابو دلامة : أنت أكرم من ان تفرق بينهما ثم تختار أسهلهما ، فأمر بأن يملأ حجره دراهم

وكتب مرة الى المهدي أبياتاً يقول في مطلعها :—

أدعوك بالرحم التي هي جمّعت في القرب بين قريبنا والأبعد

فلما قرأها المهدي قال : أي قرابة بيني وبينك ؟ قال : رَحِمُ آدم وحواء . . . أنسيتهما يا أمير المؤمنين ؟ ! فضحك وقال : لا والله ما نسيتهما وعجل له ما طلب وزاد فيه

وخرج مرة مع أبي مسلم الخراساني في بعض حروبه مع بني أمية ، فدعا رجل الى البراز فقال له ابو مسلم ابرز اليه ، فأنشأ يقول :—

---

(٢٦) الاغاني جـ ١٠ ص ٢٣٥ طبعة دار الكتب (٢٧) الاغاني جـ ١٠ ص ٢٣٦
(٢٨) الاغاني جـ ١٠ ص ٢٤٨

ألا لا تلمني ان فررت فانني أخاف على فخارتي ان تحطما
فلو أنني في السوق أبتاع مثلها وجدك ما باليت ان أتقدما

فضحك أبو مسلم وأعفاه

***

كانت ناحية الفكاهة في « أبي العبر تقوم على قلب الالفاظ والاشياء والخلط والهذيان ، وكانت ناحية « أبي دلامة » تقوم على خفة الروح التي كثيراً ما كان يستخفها الطرب والشراب وهناك شخصية ثالثة قامت الفكاهة فيها على الطمع والجشع والفضول والشراهة في الأكل ، وهي شخصية أشعب

ولقد جاء ذكره وكثير من اخباره ونوادره وطرفه وفكاهاته في كتب الجاحظ وابن عبد ربه والخطيب البغدادي وبديع الزمان . وأتيح للكاتب المسرحي المعاصر الأستاذ توفيق الحكيم ان يقرأ هذه الطرائف والفكاهات في كتب هؤلاء الاعلام وان يخرج من ذلك كتاباً طريفاً اسمه « تاريخ حياة معدة »

ولقد أحسن الحكيم في عرض هذه الألوان الشهية من الأدب عرضاً مسرحياً طريفاً فقد كانت كما يقول مبعثرة [٢٩] على غير نظام حتى جاءها هو فلاً يده مما تخير من أطايبها وذهب بها الى « مطبخ » فني حيث مزجها وخلطها وجعل منها عجينة واحدة

والحق ان أشعب خفيف الظل في نوادره وقد وصفه الخطيب البغدادي بقوله (وله نوادر مأثورة وأخبار مستطرفة) [٣٠].

***

قلنا ان الفكاهة والدعابة ليست وقفاً على طائفة من الناس دون طائفة ولا خاصة بفريق منهم دون فريق . ولقد كان النبي يمزح ولا يقول الاّ حقاً [٣١] . وكان ابن الخطاب يمزح وكان الخلفاء يمازحون ويمابثون كما كان كثير من فلاسفة المسلمين وحكمائهم يميل الى الفكاهة ويجنح الى الدعابة . فان اسحق بن حنين العبادي المشهور بالنقل ومعرفة اللغات في زمن المعتضد العباسي كان فيه ميل الى الفكاهة وكان يرد دعابة الوزير القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد [٣٢] . وكان ابن بطلان البغدادي الطبيب معاصراً لعلي بن رضوان الطبيب المصري

---

(٢٩) تاريخ حياة معدة لتوفيق الحكيم من مقدمة الكتاب (٣٠) تاريخ بغداد ج ٧ ص ٣٧
(٣١) من كتب الحديث والسيرة (٣٢) عيون الانباء لابن ابي أصيبعة ج ١ ص ٢٠١

في عهد المستنصر بالله الفاطمي وجرت بين الاثنين نوادر لطيفة أشار اليها ابن ابي أصيبعة في كتابه (٣٣)

وكان ابو الفرج بن هندو الحكيم والطبيب والشاعر الذي ترجم له الثعالبي في يتيمة الدهر — كان مفاكهاً خفيف الظل

***

ومن الحكماء الذين اشتهروا بالفكاهة وسرعة البديهة الطبيب اسحق بن سليمان الاسرائيلي المشهور بالمصري . قدم بعد رجوعه من مصر على زيادة الله بن الأغلب . وندعه هنا يروي قصة دخوله عليه بنفسه [فأدخلت اليه ساعة وصولي فسلمت بالأمرة ، وفعلت ما يجب ان يفعل للملوك من التعبد ، فرأيت مجلسه قليل الوقار والغالب عليه حب اللهو وكل ما حرك الضحك فابتدأني بالكلام ابن خنيش المعروف باليوناني فقال لي : تقول ان الملوحة تجلو . قلت نعم . قال : وتقول ان الحلاوة تجلو قلت : نعم قال لي فالحلاوة هي الملوحة والملوحة هي الحلاوة . فقلت ان الحلاوة تجلو بلطف وملاءمة، والملوحة تجلو بعنف فتمادى على المكابرة وأحب المغالطة، فلما رأيت ذلك قلت له تقول : أنت حي قال نعم قلت والكلب حي، قال: نعم قلت فأنت الكلب والكلب أنت، فضحك زيادة الله ضحكاً شديداً فعلمت ان رغبته في الهزل اكثر من رغبته في الجد]

***

ولقد كان من شعراء العربية من عرف بالفكاهة واشتهر بالمزاح والنادرة كالحكم بن عبدل ، والدارمي وبشار بن برد والدلال وأبو العنبس الصميري وغيرهم . كما وجد من المؤلفين الفكاهيين من وضع كتباً خاصة في الفكاهات والمعابثات كنوادر (٣٥) أبي العنبس ونوادر أبي العبر ، ونوادر الغلمان للمداكي ، وكتاب الملح للكنتجي ، وكتاب النوادر والمضاحك لجراب الدولة أحمد بن علوجة السجزي ، وكتاب النوادر والمضاحك للبرمكي . وهي كتب تقرأ اسماءها في الفهرست لابن النديم ولم نر منها شيئاً ، ولعلها مما ضاع من تراث العرب وصار هشيماً تذروه الرياح

(٣٣) عيون الانباء لابن أبي أصيبعة ج ١ ص ٢٤١ ، ٢٤٢ (٣٤) عيون الانباء ج ٢ ص ٣٧
(٣٥) الفهرست لابن النديم ص ٢١٦ طبعة مصطفى محمد

صناعة الاشوريين وزيارة سم العقارب في مصر

فضل الحيوان

على الانسان

اذا ذكر الحيوان مقترناً بصحة الانسان ، تبادر الى الذهن الحيوانات الناقلة للامراض والاوبئة على اختلافها . فالطاعون وهو من أفتك الاوبئة وأقدمها ، ثبت ان مصدر عدواه الجرذان . والظاهر ان الاشوريين الاقدمين كانوا يعرفون ذلك . وانتبه اهالي ايطاليا في القرون المتوسطة الى أن الطاعون ينتشر حينما يكثر موت الجرذان . والمعروف الآن ان براغيث الجرذان تنقل مكروب الطاعون من الجرذان الى الانسان فيصاب به

وهنالك مرض آخر تنتقل عدواه الى الانسان من الجرذان . وهو نوع من اليرقان شديد الخطر ، يتولّد من شرب الماء الذي وقع فيه براز الجرذان ، ويتولد ايضاً من عضّها الانسان

ومن هذه الامراض التي ينقلها الحيوان ، حمى تعرف بحمى مالطة التي مصدرها الماعز . وتصل الى الانسان من شرب لبنها . ومنها الكَلَب ومصدره الكلاب وحيوانات أخرى . ولعلّ الكلاب وهي أشدّ الحيوانات تعلقاً بالانسان ، من أشدّها جناية عليه بما تنقله اليه من الادواء . وكذلك مرض النوم فقد ثبت ان مكروبه يصل الى الانسان من لسع ذبابة معروفة باسم ذبابة تسه تسه

ومن الامراض التي قد يكون الذبان سبباً في نقلها الحمى التيفودية والدوسنطاريا . فقد يحطّ الذبان على براز ملوث بمكروبات أحد المرضين فتعلق ببعض قوائمه ، ثم قد يحطّ على طبق من الحلوى مكشوف للهواء فتترك بعض هذه المكروبات على سطحه ، فيصاب آكل الحلوى ، باحدهما

ومن الأمراض التي تنقلها الحيوانات حمى الملاريا ، ينقلها نوع من البعوض فاذا لسع هذا النوع الخاص من البعوض انساناً مصاباً بالملاريا ، امتصّ بعض طفيلياتها التي في الدم ، ثم تتم هذه الطفيليات دورة حياتها في معدة البعوضة ، وتنتقل الى خرطومها الدقيق فاذا لسعت بعد ذلك انساناً سليماً تركت بعض هذه الطفيليات في دمه فتنمو وتتكاثر ويصاب بالملاريا

هذه أمثلة قليلة ، لطائفة من أشهر الأمراض التي ينقلها الحيوان الى الانسان . وليس الغرض مما تقدم الحصر ، بل التمثيل . فاذا قلنا ان للحيوان فضلاً على الانسان ، من ناحية الصحة ، عجب القارىء لهذا القول . ولكن عندنا ما يؤيده وهو ما سنرويه في ما بقي

من هذا الفضل . بل لقد ذهب بعض الكتّاب الى القول : بأن فضل الحيوان على صحة الانسان عظيم جدًّا ، حتى يجب على الانسان ان ينصب تماثيل لهذه الحيوانات اعترافاً بفضلها عليه

اذا أصيب احد بالجدري ، او الدفتيريا ، او غيرها من الامراض المعدية ، أو لدغتهُ أفعى سامة او عقرب ، فشفاء المصاب أو الملدوغ ، يتوقف على حصان ، او عجل ، او أرنب ، أو خنزير من خنازير الهند . ذلك ان الاطباء ، قد وجدوا في العصر الحديث ، ان أجسام هذه الحيوانات وأمثالها أفضل المعامل الكيميائية في العالم ، لصنع الامصال المختلفة التي تشفي من هذه الأمراض او تقي منها ، أي انها أفضل الوسائل لمكافحة المرض وعلاجه

فرض الجدري يميت من يصاب بهِ واذا لم يمتهُ تركه مشوهاً في الغالب . وقد ظلَّ ذكر الجدري مرادفاً للموت لشدة فتكه ، الى ان انبلج فجر الطب الحديث . أما الآن فبفضل العجول التي تساق كالأغنام الى المعامل البكتيريولوجية ، وتستعمل في تحضير اللقاح الواقي من الجدري ، أصبح كل انسان قادراً ان يقي نفسه من هذا المرض القاتل . وكذلك سيطر العلماء والاطباء على هذا المرض ، وزال الذعر الذي كان مقترناً باسمه من قديم الزمان . فقد جاء في الاحصاءات الطبية ان ١٢٥ الفاً من الجنود الفرنسية أصيبت في أثناء الحرب السبعينية بهذا المرض فمات منهم خمسهم أي ٢٥ الفاً . ولكن الحرب العالمية الأولى التي دامت ما يزيد على اربع سنوات ، واشترك فيها ملايين من أبناء فرنسا وغيرها لم تحدث فيها في الجيش الفرنسي ، سوى ١٢ اصابة بالجدري ، واحدة منها فقط انتهت بموت صاحبها

اما العجول التي تستعمل لتحضير اللقاح الواقي من الجدري فتنال من العناية الطبية والصحية ما يناله طفل نحيف البنية ضعيف الصحة . فهي تطعم لبناً نقيًّا من الشوائب ، وتحفظ في مبانٍ نظيفة جدًّا ولا يسمح لها بالوقوف على ارض الحجرة ، بل تقف على حصر معقّمة ، ويضرب عليها الحجر الصحيّ ، حتى يثبت للاطباء انها سليمة من كل مرض ، قبلما تستخدم في تحضير اللقاح المطلوب في دمها . ثم يجزُّ شعرها وتغسل بمادة قلوية (كالبوتاس) يفرك بها جلدها ثم تؤخذ الى المعمل البكتيريولوجي ، حيث يحلق شعر بطونها في غرفة خاصة بذلك ، وبأدوات معقمة ، ومنها تنقل الى غرفة العمليات حيث توضع على مائدة خاصة معقمة ويعقم المكان الذي حلق الشعر عنهُ ، ثم بعد كل هذا ، تلقح بمكروبات الجدري مراراً

بعد ما تلقح بمكروبات الجدري ، تنقل الى غرفة خاصة ، غير الغرفة التي كانت فيها قبل التلقيح . وهنا تنال من العناية الطبية ما يناله المريض في أحدث المستشفيات وأعظمها اتقاناً ، بل أكثر ، لان سلامتها مرتبطة بحياة الالوف من الذين يستعملون اللقاح المستخرج منها . ومتى انقضى على تلقيحها خمسة ايام الى سبعة تكون البثور التي تنمو على بطنها قد كبرت وامتلأت

صديداً فتكشط ويمزج « الصديد » المحتوي على سموم المرض والاجسام المضادة بالجليسرين وهذا هو اللقاح . على انهُ قبل ان يوضع اللقاح في الانابيب ، يجب امتحانه لتثبت نقاوته من مكروبات معدية اخرى ، فتحقن بهِ خنازير الهند بمقادير اكبر من المقدار المستعمل في حقن الانسان عشرين ضعفاً ومتى ثبتت نقاوته يوضع في الانابيب وتختم الانابيب ختماً محكماً ثم توزع فيستعملها الأطباء في تلقيح الناس المعرضين للجدري وقاية منه

***

وهنالك أيضاً الدفتيريا او الخُناق ، ولهذا المرض مصل خاص مضادّ له ، يصنع في أجسام الخيل . تؤخذ مكروبات الدفتيريا وهي من نوع يعرف باسم باشلس ، وتزرع ، ثم ترشح ، وبعد ترشيحها يحقن سمها في أجسام الخيل في جرعات متزايدة المقدار . فتحقن أولاً في جرعة صغيرة ، ثم يزيد مقدار الجرعة رويداً رويداً ، في أوقات معينة ، مدة تتباين من ثمانية اسابيع الى عشرين أسبوعاً . وليست كل الخيل متساوية في مقدرتها على توليد الاجسام الدقيقة التي تقاوم فعل هذه السموم ، فبعضها لا يولده مطلقاً وبعضها يولده سنوات متوالية والبعض الآخر بين بين . ولما كان ثمن الخيل كبيراً ، وحقنها بسموم الدفتيريا قد يميتها توصل العلماء ، الى أنهم اذا صبوا قليلاً من مادة تدعى الفورمالين ، على سموم الدفتيريا ، نقص فعلها السمي من دون أن تنقص مقدرتها على توليد الاجسام المضادة للسمّ ، وهو المقصود

وبعدما تقوى مناعة الحصان ضدّ سموم الدفتيريا ، بحقنهِ حقناً متزايدة من سمومها ، — وهذا يعني أن الاجسام المضادة لفعل السموم قد زادت في دمه — يُنقل الحصان الى غرفة تعرف بغرفة الفصد ، ويؤخذ منهُ نحو ١٨ لتراً من الدم ، من وريده ، ثم يترك هذا الدم في إناء معقم محكم الغلق ، حتى يتخثر ، وترسب كرياته في قعره ، فيؤخذ المصل ويركّز وبعد ذلك يرشح ويمتحن حتى تثبت نقاوته ثم يمتحن لتعرف قوته ثم يوضع في أنابيب معقمة

ومن أشهر ما يذكر في هذا الصدد تجارب العلاّمة الفرنسي باستور في إعداد لقاح ضدّ الكَلَب . وقد قال فيها العلامة الانكليزي الاستاذ هكسلي ، ان مكتشفات باستور تساوي المليارات الخمسة التي دفعتها فرنسا غرامة لألمانيا في الحرب السبعينية . ونحن نقرر أنها لا تقدر بمال مهما يعظم لأن حياة الناس لا تقاس بالجنيهات

ولا يتسع مجال هذا الفصل لتفصيل ما يصنع من أنواع اللقاح والمصل للامراض المختلفة ولكن لا يفوتنا أن نذكر طرفاً من عجيب المباحث التي تمت في العصر الحديث لصنع مصل يقي من سموم الأفاعي والعقارب . وبهذه الامصال استطاع الانسان أن يفوز في مكافحتها

وقد أخذت المصانع الطبية الآن تصنع مصلاً يدعى انتيفنين يرجع الفخر في اكتشافه الى

الدكتور كالمت الفرنسي ، وهو يقي من لدغ الأفاعي في أميركا الشمالية ، وغيرها كالأفعى المسماة ذات الأجراس والأفعى ذات الرأس النحاسي وهو يباع في أنابيب يستطيع الصياد او الرحالة او أي شخص آخر معرَّض للدغ الأفاعي ان يحملهُ في جيبهِ ويجب ان يستعمل حالاً بعد حصول اللدغ او على الأكثر في أثناء ١٢ ساعة الى ٢٤ ساعة بعد اللدغ ويبقى فعالاً مدة خمس سنوات بعد تحضيره

ومما يؤخذ على هذه الطريقة ان نوعاً واحداً من المصل لا يستطيع ان يقي من جميع أنواع سموم الأفاعي ، فالرجل الذي يتعرض للدغها يجب ان يكون حاملاً في جرابهِ أنواعاً مختلفة من الأمصال الواقية من سمومها وعليهِ ان يكون جامعاً لجميع حواسه حين يلدغ ليعرف نوع الأفعى ، التي لدغتهُ ليستعمل المصل الخاص بها والذي يقي من فعل سمها

والعلماء ماضون في البحث للتغلب على هذه الصعوبة . ولا ريب في انهم بالغون الغرض

يؤخذ السم من الأفعى بحملها تعض بأنيابها على إناء زجاجي مستطيل تحيط بهِ مادة غروية . فيستقطر من كل أفعى ٣٠ قطرة من السمّ الى ٤٠ قطرة . او يقبض على الأفعى وتدلك فوق الغدد التي تحتوي على سمها ، فيتقطر السم من نابيها . ثم يحقن هذا السمّ في حصان حقناً متزايدة المقدار مدة ١٦ شهراً في الغالب وبعد ما تنقضي بضعة أيام على الحقنة الاخيرة يفصد الحصان ثم يعاد فصده ثلاثة أشهر بعد ذلك ويحضّر المصل الواقي من السم كما يحضر مصل الدفتيريا

ويسرنا ان نقول ان للدكتور شوشه بك وكيل وزارة الصحة مباحث على جانب عظيم من خطر الشأن في تحضير المصل الواقي للتطعيم ضد سم العقارب . ولا جدال في ان لدغ العقارب منتشر في بعض انحاء القطر المصري وخصوصاً في بعض انحاء القاهرة والواحات والصعيد ، وينجم عنهُ وفيات متعددة كل سنة بين الأطفال عادةً . ففي سنة ١٩٢٢ مثلاً حدثت ٨٣٦ وفاة بلدغ العقارب

وقد أثبت الدكتور طلعت سنة ١٩٠٤ انهُ يمكن تلقيح الماعز ضد سم العقرب وان مصل الماعز الملقح يبطل فعل هذا السم . وتوسع الدكتور طه سنة ١٩٠٨ في هذا الموضوع ونجح في تطعيم الخيل ضد هذه السموم فوجد ان مصل الخيل المطعمة ذو فائدة في علاج المصابين .

وهذه الطريقة وان تكن صعبة الاستعمال خطرة على الحيوانات المحقونة الا انها المستعملة في تحضير المصل الواقي من لدغ العقرب

وقد استخرج الدكتور شوشه بك بعد ذلك القواعد العلمية التي بمقتضاها يحضّر اللقاح الواقي من لدغ العقرب فيحدث مناعة فعّالة . وأثبت ان الارانب والخنازير الهندية يمكن اكسابها مناعة فعالة بتلقيحها بهِ

وليس ثمة ريب في ان تحضير الانسولين من المسائل التي لها صلة وثيقة بالصحة العامة، بعدما ثبتت فائدته في علاج المصابين بالبول السكري . وفي ذلك يقول الدكتور علي حسن أستاذ الكيمياء الحيوية في كلية الطب في جامعة فؤاد الاول «لا غرابة في ما بدا من القلق الشديد عندما قامت هذه الحرب وشعر الناس بصعوبة الحصول على الانسولين . ولذلك فكر قسم الكيمياء الحيوية في كلية الطب في محاولة تحضير مقادير منه تكفي على الأقل مستشفيات الجامعة وهذه المستشفيات تستهلك منه في العادة ما بين عشرين وثلاثين زجاجة في اليوم بها ألفان الى ثلاثة آلاف وحدة وهذه كمية لا يستهان بها» ثم بين الدكتور علي المصاعب الفنية وغير الفنية التي تعترض هذا التحضير في مصر اذا كان الغرض تحضير مقادير كبيرة . ومن المصاعب الفنية الحصول على أجهزة جيدة صالحة لعمل التحضير . وقد قال ان الجهاز المستعمل في تحضير الأنسولين في قسم الكيمياء الحيوية صنع في مصر وقد استغرق صنعه وقتاً طويلاً واقتضى جهداً كبيراً «لانعدام الصناعات الكيميائية بمصر ولعدم وجود مهندسين كيميائيين يتولون مثل هذه الاعمال . وقد لجأنا الى صنع الجهاز محلياً لأن جميع الوسائل التي توسلنا بها للحصول على جهاز من الخارج لم تجد» . أما المصاعب غير الفنية فتصلة بالحصول على كمية وافية من الغدد وحفظها باردة وضرورة استيراد مواد كيميائية لاغنى عنها. وخلص الدكتور علي الى القول انهُ في وسعنا ان نقول «ان تحضير مقادير وافرة من الانسولين في مصر في الوقت الحاضر تعترضهُ صعاب جمة لا يمكن تذليلها جميعاً في وقت قريب وهي لذلك عملية غير رابحة من الوجهة المالية . واذا استدعت الحال رغم ذلك تحضيره لانقطاع الوارد مثلاً فعلى الحكومة ان تتولى ذلك بنفسها في قدرتها الاستيلاء على الغدد جميعها بثمن معقول والحصول بسرعة على الأجهزة والأدوات اللازمة عن طريق ممثليها في الخارج والحكومة بحكم ولايتها على الصحة العامة تملك حق الانفاق على مثل هذه المشروعات بغير ان تنتظر ربحاً ما دام في العمل مصلحة حيوية للجمهور»

***

هذه أمثلة مختلفة تبيّن فضل الحيوانات علينا من ناحية الصحة . والامراض التي دانت لهذا النوع من العلاج أشهرها التيفود والكزاز والطاعون والكوليرا والبثرة الخبيثة والجدري والحمى القرمزية وغيرها ولا بدَّ ان تتبعها أمراض أخرى . والأمل وطيد ان يحل يوم قبل زمن طويل ، يسيطر فيهِ الانسان على جميع الأمراض بهذه الطريقة ، أو بطريقة فعّالة مثلها . فاذا حلَّ ذلك اليوم وجب ان نقيم في مدننا تماثيل تنطق بفضل هذه الحيوانات الوديعة الصبورة السائرة الى الموت بسكينة واستسلام لتنقذنا من أهوالهِ

الموسيقى والأدب يلتقيان

بتهوفن وتلحيناته الخالدة

كان رجلٌ يسيرُ ذات مساء بين المزارع والحقول، والفصلُ خريف والشفقُ يُلقي بظلاله على الارض. وكان الرجلُ كئيباً كآبة المتفوّق الفقير الذي فُرض على عبقريته احتمال السفاسف والمذلّة والهوان. وكان كئيباً كآبة القلب الكبير عاش على غمٍّ وحرمان، ولم يجدْ بين بني الانسان روحاً تبادله عواطف الاعزاز والحنان. وكان كئيباً لاستشعاره بأن مصيبةً مجهولة ستدهمه عمّا قريب

كدّهُ التعبُ، والمنازلُ في الخلاء أشعلت مصابيحها ذات النور المرتعش. فقصد إلى أقرب تلك المنازل يطلبُ الراحة قبل استئناف المسير. ولحظ اهلُ الدار نظر الضيفِ موجهاً إلى البيانو المفتوح فدعوهُ الى التوقيع فيما لو كان له بالفنّ إلمام

جلس الغريبُ إلى البيانو وعزف. حتى إذا ما أحكمت أناملهُ الايقاعات الخاتمة نهض فرأى وجوه القائمين حوله وقد لاحت عليها سِماتُ الدهشةِ والتأثر، وأبصر الشفاه منهم متحركةً فكاد يُدركُ ما ينطقون به. إلاّ انه لم يسمع اصواتهم فاستفهم عمّا يقولون

فردّوا عليهِ يكررون السؤال: «كثيراً ما حدّثونا عن موسيقيٍّ عظيم اسمهُ بتهوفن. وإن من يعزفُ مثلما عزفتَ، ويخلقُ من أوتار النحاس الروحَ التي خلقتَ فذلك، لابدَّ أن يكون هو بتهوفن. أفأنت بتهوفن؟»

كانت الشفاهُ تتحرك والرجل يستجلي في تلك الوجوه آيات الروعة والخشوع. لكنّ الاصوات المخاطبة لم تصل اليهِ. وكان ثمّت منشأ انزعاج بتهوفن في صممهِ، لأن التقادير قضت بأن يختم على سمعه طول الحياة

لجيعة في حياة من تتغذى عبقريته بالهمسات والنبرات ، وهي أظهر الحكم أثرت في حياته الخارجية. بيد أنه — شأن جميع الأفذاذ والمتفوقين في الشعور والادراك — كان منهل الآلام في قرارة ضميره وينبوع الحسرات والكروب كان يتفجر له من صميم وجدانه. وعن طريق التأثرات والانفعالات النفسية والغموم البكماء اتصل بجوهر الحياة الشاملة. وفي محراب اللهفة والأسى راض فنه حتى امتلك منه الأعنة وجنى من غوره ومداه غاية ما تناله المقدرة الانسانية في أعلى مراتبها وأسنى مجاليها. حتى غدا زعيم أركان الموسيقى بين المتقدمين والمتأخرين

ترى بماذا يشتري المرء السعادة والعافية والطمأنينة ؟ أبالفضل والتضحية والنبوغ والاحسان — كما يقولون ؟ لقد جمع كل ذلك في بتهوفن وتشعع منه ، ولكنه كان من أشقى بني العالمين. وأخذت بوادر تلك العلة القاسية تتسرب الى سمعه ويتفاقم أمرها حتى أوصدت دونه عالم الأصوات. وكان يعذبه الفقر والمسؤولية والجهاد المتواصل ونكران الجميل ممن كان لهم غوثاً ، وتراكمت عليه الآلام والخيبات حتى زهد في حياة المدينة وعمد الى عزلة هايلجنشتاد قرب فينا وهو في الثانية والثلاثين. وهناك كتب «وصيته» الشهيرة في صيغة رسالة كانت في الراجح موجهة الى اخويه ، وقد وجدت بين أوراقه بعد وفاته وتاريخها ٦ اكتوبر ١٨٠٢ ، وهاك سطوراً من تلك الوصية البالغة في التأثير والحزن :

اعلموا انتم الذين ترمونني بالكراهة والمرارة ، وتجيزون علي نعوت التوحش والشكاسة ، انكم في هذه التهم أظلم ما تكونون. انكم تجهلون الاسباب الخفية التي تضطرني الى الانفراد والظهور بمظهر الوحشة والنفور. ذلك ان قلبي وفكري متعطشان الى الرفق والحنو منذ نعومة أظفاري ، وبي توق يدفعني دواماً الى تخيل اشياء عظيمة نبيلة والسعي الى تحقيقها. ولكني فوق جميع آلامي ومصائبي فجعت بسمعي في علة لا أرتجي منها الشفاء ولا يزيدها جهل الاطباء الا تفاقماً. وعاماً بعد عام أرى آمالي في تهدم وانهيار. لقد جئت العالم بنفس حارة وروح متلظية ، ومزاج رقيق حساس ، فصدمتني الاحوال واقسرتني على ان أسجن نفسي في العزلة وان أفني حياتي في الوحدة والانزواء

« رباهُ ! إنَّ نظرك من الاعالي يتغلغلُ الى مجاهل ضميري وخفاياه ، وأنت تعلم بي عليم ! انك تدري بان هذا القلب المتفطر لم يخفق قط إلاَّ بحبّ بني الانسان وبالرغبة في الخير والصلاح ! .. »

فن بتهوفن

فن بتهوفن غنيٌّ بتنوعهِ وتفرعهِ ، غناهُ بطرازه الفاخر ونفسهِ العالي . ولم تكن وفرة النتاج والايناع لتغضّ من جودة الاتقان وطرافة الابتكار . بل هو في كل فرع من ذلك الفن ، وفي كل غصين من ذلك الفرع ، اهتدى الى حسٍّ جديدٍ يعالجهُ ومعنىً مستحدثٍ يشدوه . مع انهُ لم يكن لهُ من منهل يرتاده غير هوَّة نفسهِ ورحبة ماضيهِ . هناك يسترق السمع من هاتيك الاصوات السالفة و « يلمسها » شوقهُ بعذوبة الذكرى ، ويعكف عليها يعالجها ويرعاها حتى ينال منها أقصى الاسرار ومنتهى الغايات . ويرسلها بعدُ نغوةً تترنح بمرح الطفولة وسذاجة الغفلة وأنس العذوبة . انما ينوح في قرارها صوتٌ يحدّث بان اليوم غير الأمس ، وبان الذكرى وليدة شوق استحال تحقيقهُ في عالم المحسوس فانطلق يستطلع بوادر الرجاء والامكان في عالم أسمى وأشرف ، على ان ذلك الانتخاب مهذبٌ مثقفٌ يتستر من نفسهِ بنفسهِ لا تشوههُ المرارة ولا تقلقهُ الحدَّة . فاذا تفاجئك منهُ بغتة نفحاتٌ وفوراتٌ من الابتهاج والحبور فتحار من أي السبل نفذ الوجيب الى الانشاد . وطريقة بتهوفن هذه في إغفال جواذبه وهو في أشده عجيبة الفعل في النفس الموسيقية وكثيراً ما تجلب الدمع الى المآقي

لكل نغمة عنده معنى ، ولكل نبرة مساجلة . واذا هدأت الأوتار وسكنت الآلات فسكوتٌ ملؤهُ عجيج القلوب وحفيف الاسرار واعلان الخفايا . ذلك ان بتهوفن العالم في أصول الفن ، البارع في تخريج الانغام ونسجها وتصييرها ، يخدمه المفكر في معاني الحوادث وتصاريف الاقدار . والفنيُّ الذي يلفُّ الحقائق القاسية بدثار من الملاحة والرونق والبهاء ، والرجل المتوجع المنفعل بمقتضيات حياتهِ وبأعمال البشر ، والمتحمس المظيم للموسيقى الذي يرى مزاولتها

ضرباً من طقوس العبادة . وهو الذي عرّف فنه التعريف التالي :—

الموسيقى « وحي » يفوق كل علم ويسمو على كل حكمة . وهي المقدمة الوحيدة المجرّدة من الجسديات والمحسوسات ، التي تمضي بنا الى ملكوت المعرفة الربانية . ذلك الملكوت المحيط بالانسان في حياته هذه التي تمزقها المقاومة والنزاع ، والذي لا يجهر بخفاياهُ ويكشف عن كنوزه الا عن طريق هذا العامل الأثيريّ الشفاف المعروف باسم الموسيقى »

تلحيناته التسعة العظمى

وأبدع ما صنّف سمفونياته التسع التي وصفها ڤاجنر (هذا العظيم الآخر الذي يمكن اقتران اسمه باسم بتهوڤن) بقولهِ « ان بتهوڤن دوّن بها تاريخ الموسيقى وأدمج فيها جميع ألحان العالم » . والسمفونيا في اصطلاح اهلها قطعة موسيقية من صيغة السوناتا على انها أوفى بياناً وأجل اكمالاً ، وذات بنود وأقسام تتفاوتُ بين الاسراع والتباطؤ لكل منها « رويّ » موسيقيّ خاص . وقد وضعت لتوقيع الاوركستره الكبرى . ومع ان سمفونيات بتهوڤن تمثل عواطف ومدركات مختلفة فهي كذلك سجلّ لما كان يفكر فيه ويشعر به لدى تدوينها وانشائها

أما السمفونيا الاولى فعلاقتها باخواتها واهية . وليست في أصول الفنّ والاصطلاح الموسيقي والمضمون الغنائي لتظهر مقدرة مؤلفها . واما السمفونيا الثانية فعلى النقيض . اذ هي تتوهج بحرارة الشباب ونبل العواطف ، وتنشر أوهام الرجاء ورؤى الحياة ، وتجاهر بعقيدة المجد والحب والتضحية . . . فكم من استسلام في ثقة ، وكم من جولةٍ في اطمئنان ، وكم من احكام في ارتباط الانغام وتجاوزها ، وبحقٍّ دُعيت هذه السمفونيا انشودة الشباب الوطني الحالم المستسلم

وفي انتظام العدد تأتي السمفونيا الثالثة المدعوة بسمفونيا البطولة ، وفي حكايتها ما يوضح جانباً من خلق بتهوڤن الأبي ، رغم فقره ورغم حاجته . فقد باشر هذا التلحين بدعوة من برنادوت يومئذٍ سفير فرنسا في النمسا ، وتحت وقع اسم نابليون الذي كان يكبره الموسيقي ويرى فيه ممثل العبقرية الأكبر في

ذلك العصر ورجل التفوق الشخصي والديمقراطية الخالصة فجعل لسمفونيته هذا العنوان «الى نابليون بونابرت . . . من لدويج فان بتهوفن» . وكان بونابرت اذ ذاك قنصلاً اول في الجمهورية الفرنسية الجديدة . وما خط بتهوفن آخر سطر منها في سنة ١٨٠٤ حتى ذاع الخبر بأنّ القائد العظيم قد جلس على عرش الملوك وتوّج امبراطوراً على الفرنسيس. والفني الذي كان يعتقد بأن اقدام نابليون وبطولته نتيجة حبه لوطنه وسعي في سبيل نشر الحرية في العالم — خاب ظنه عند تلقي هذا الخبر ، وحنق على أنانية القائد فمزق عنوان السمفونيا الأول واستبدله بآخر يدل على خيبته في الاعجاب به فدعاها « سمفونيا البطولة للاحتفاء بذكرى رجل عظيم » . ولم تُنشر الاّ سنة ١٨٠٦

وهي تمثل في ألحانها علواء جميع الغزاة والفاتحين منذ أول نشأتهم الى تغلبهم في وقائعهم الى ارتقائهم ذروة المجد بعد مرورهم بكل عذابٍ وكل تكالب يهيئه المتفوقين عجز الخاملين وغرورهم . وفيها نبذة تستعمل « كمارش » جنائزي وكأن بها شيّع بتهوفن ذلك الرجل الذي غزا العالم ، الى لحده قبل ان ينطفئ سراجه في منفاه البعيد بسبعة عشر عاماً . وهي عميقة الحزن مترعة بالغمّ والحسرات الرائعة الهادئة . فلا يخفّ وقعها الرهيب إلاّ في النهاية اذ يرتفعُ البطل بالموت الى سماء الغبطة الدائمة

وقد أهدى السمفونيا الرابعة إلى جوليت جيشار ، احدى النساء اللائي أحببنّ بحرارة في العواطف وطهرٍ في الخيال . فوصف فيها الحبّ المتراكم على نفسه المفطومة المحرومة ومقدار ما يشعر به من الحلاوة الرضية والسحر الفتّان وفي هذه السبيل الملتوية بين مرارة الحرمان ووعود الغرام نصل الى السمفونيا الخامسة ، أشهر اخواتها ومن أروعهنّ جمالاً . وضعها أثر تلقيه تلك الضربة الظالمة من يد القدر ونفيه عن عالم الهمسات والنبرات فقد جثمت نفسه عندئذٍ حول وتد القضاء وأخذ يتساءل عن غاية الحياة وسبب الألم ، ومضى يتوغل من استفهام الى استفهام لعله يعثر على الجواب ... ومن ثم الجوّ الروحاني الخفيّ المخيم على تلك الالحان . وهو الذي حمل اهل الباطنية والثيوصوفية في الغرب على ضمّ تلك القطعة الى موسيقاهم فدعوها « سمفونيا الكارما » . والكارما

عندهم ضرب من القدر [نسخوا معناها كما نسخوا لفظها عن الهندية] بمعنى اتصال العلة بالمعلول والنتائج بالاسباب اتصالاً لا يقبل التوسط والانفصال

وقد وصف فاجنر هذا الطور من فنّ بتهوفن بما يلي : « صمم بتهوفن فتلاشى العالمُ حياله هو الذي لم يكن يصله بالارض غير حاسة السمع ، فيها كان يعيش بعد انقطاعهِ عن كل ما عداها . والآن عند ما يسير هذا الحالم المأخوذ في شولدرع فينا يحدّق فيما حوله بعينيه الكبيرتين ، ماذا تراه يبصر من كل ذلك ، هو الذي يقطن ضمن جدران نفسه الحافلة بالاحلام والانغام ؟ أيمكن أن يكون في العالم موسيقيٌّ بلا سمع ؟ وهل في وسع انسان ان يتخيل رساماً بلا نظر ومصوراً بلا اصابع ولا يد ؟ على تلك الحال ودون ان تقلقهُ الآن جلبةُ الحياة ، ها هوذا متفرغ للانصات الى ما يدوي ويترنم في صميم ذاكرتهِ ، مساجلاً عالماً لا يخلقهُ له احد . عالم يعيش في رجل ! بصر الموسيقيّ وسمعه يتحولان الى بصيرةٍ ترى الأشياء من الداخل . فيكلمه جوهر البرايا وبناجيه ضمير الوجود وينكشف له ضياءُ الجمال الهادىء . الآن أصبح يفقهُ سرّ الغاب والنهر والروض والاثير الازرق ، والجماهير المبتهجة ، وغرام العشاق ، ونشيد الاطيار ، وسوابح الغيوم وزئير العاصفة ، ولذاذة الهناء . وفي هذا الوقت وفي هذا الصفاء العجيب تنتشر عبقريتهُ في كل ما يتخيل وتتغلغل في كل ما يرى . فالقوة المولدة عنده في أشدها ، وجميع آلام الحياة ترتدُّ عنها حسيرة بعد إنالتها وقوداً لزكوتها . لقد بسط في هذه السمفونيا الخامسة فكره المكنون وآلامه المبرحة ، وغيظهُ المكظوم ، وأحلامهُ المتناثرة بانكسار القلب والقنوط الكئيب . قصيدةٌ وحيدة . . . بل مرثاة قبل الموت لرجل يمتحنه مقدور عنيد ، وكل مغامرة في سبيل الخلاص باطلة . وحياة الرجل تنقضي يوماً بعد يوم بين التمرد والامتثال الاّ ان يدهُ ما فتئت مجاهدة ، وجبينهُ عالية ، ووجههُ في مصابه يقابل وجه الشمس ، ريثما يختم هذه المصنفات التي لا مثيل لها ، بنشيد جبار للمجد والانتصار تكسّر فيهِ روح الملحّن قيودها وتطير سنيةً متبلجة الى أجواز النعيم ! »

أما السمفونيا السادسة فهي أنشودة الطبيعة . فا غنت الاوتار حياتها ،

ولا عزفت الآلات او رتلت الحناجر بمثل هذه الانغام الفضية لامتداح جمال الاشياء والبرايا والموجودات . بلاغة وأيُّ بلاغة في تلك الجمل المشمسة بالتلوين والرونق والرواء ، وتلك الصور الناطقة بصدق الحياة ، وذلك النور الرجراج وتلك العطور الفائحة من مواطئ الانغام في منبسط الآفاق . وذلك السكون الرضي عند منعطفات الغياض وفي ظل الغصون . وذلك المرج الوادع المترامي الاطراف تحت سيول الالحان المصقولة كالمرايا ، المجلوَّة كالأشعة . وإذ يتم وصف الطبيعة يأتي الانسان ، رجل الخلاء القويّ المجرد المؤمن ... فتفاجئه أهوال العاصفة ويشعر بالرعب والوحدة والفزع ، ثم لا يلبث ان تعود اليه الطمأنينة فينشد نشيد الشكران

والسمفونيا السابعة مهداة الى الاهة الوزن والتناسق والانسجام الرامزة الى الاحتمال والصبر الباسم عند تراكم الاوصاب . إنك لتسمع في الاوركسترا شهيقاً وزفيراً وتكاد تلمس العبرات المتناثرة ، ثم تتجمع الألحان في أغنية حزينة تقبض على القلب بمقابض الغصة والحسرة والجوى . كأنما الانسانية كلها تقاسي دهقاً ونكالاً في تسلقها سبيلاً متعرجاً شائكاً كلُّ خطوة فيه مرحلة عذاب . ولكنها لا تفقد الايمان وتظلُّ متطلعة الى الانتظار في النهاية وتتمثل طيفه يلمع بعيداً كوميض الرجاء

والسمفونيا الثامنة أنشودة البشاشة والرضا . لان بتهوفن يرى ان الرجل الخالص النية الصافي الطوية اذا هو استسلم لطمأنينة النفس يظل بشوشاً راضياً مهما يلقَ من الحياة ومن الناس . وفي هذا التلحين كثير من الحلاوة الرائقة والدلال اللطيف حتى لتخاله أغنية ينشدها الاطفال وهم يقطفون الازهار في صباح ربيع بهيّ

وهكذا من أعجوبة الى أعجوبة ومن تحفة الى تحفة ينتهي بتهوفن الى تصنيفه الفريد الاعظم الذي قال فاجنر على ذكره « أليس منا غروراً وسذاجة ان نعالج تلحين السمفونيا مع علمنا ان منتهى ذلك ارسلة بتهوفن في السمفونيا التاسعة وهي البحر الفيّاح بهولها وجمالها .وكل ما نلحنه بعدها فأفأة عيّ امام تلاطم الرياح وهدير الأمواج »

هذه السمفونيا التاسعة من الأهمية بحيث أفرد لها الناقد الموسيقي « ماتيو باروسو » كتاباً تاماً في ما يزيد على مائتي صفحة . ففي الاوضاع الأصولية وفي بلاغة البيان وعظمة الوحي جميعاً ارتفع بتهوفن الى علو شاهق باذخ لم يدانه قط مظهر من أيّ المظاهر الفنية . وأفرغ فيها من المدركات الروحية ونزعة الانسان الى الاتصال بالله وتعرُّف الروح العليا الشاملة حتى ان السامع ليعتريه بحران وينتابه الخوفُ والوجل كأنما هو وقف عند عتبات الغيوب ليطلع على ما وراء هذه الارض من الاسرار المخيفة الباهظة . ويخيل اليك ان مئات الاصوات والمنشدين والعازفين يتقاطرون جماعات وأفراداً من أقطاب الارض السحيقة ليتلاقوا ويتعاونوا على ارسال نشيد واحد عظيم ، هو نشيد الاطمئنان عند الفزع والثقة حيال الرهبة . لان هذه القطعة الخطيرة نشيد الفرح الشريف العالي، نشيد الاستئناس بالكائنات المجهولة والاستسلام للارواح النقية القادرة

***

هذه صورة ضئيلة من بتهوفن الذي لا تجد تصويره الا مآثره . هو اكبر موسيقيّ في التاريخ وليس ليعلو عليه أحدٌ وجلّ ما يمكن ، هو أن يرتفع الى سماء عبقريّ آخر أو عبقريان اثنان من بعض وجوه فنهما . فهو حقيق بكل حفاوة جدير بكل اكرام واعجاب . ويحسبهُ هيبوليت تاين الناقد والمؤرخ الفرنسي ، رابع الاعمدة العظيمة التي تقوم عليها قبّة الفنّ . أما الثلاثة الآخرون فهوميرس اليوناني ، وميكلانجلو الطلياني ، وشكسبير الانكليزي

هذا هو بتهوفن . فلتعزف المعازف ، ولتنشد الاجواق ، وليخطب الخطباء وليكتب الكاتبون ، فشيءٌ من ذلك لن ينتهي اليهِ صداهُ عن طريق السمع الانساني . اما روحه التي غاصت في تلك الاعماق البعيدة من الألم الأصم والحرمان الأبكم ثم حلّقت بعبقريتها وفنها في تلك الاجواء العالية فاذا عساها تصنع إذ تشهد مظاهر التكريم والتعظيم ؟ [1]

انها تذيب ما تشعر به في ابتسامةٍ صغيرة بطيئة ... ابتسامة العبقريّ الذي خبر الناس والحياة فتألم، وتحوّل الى منفى نفسه فأبدع

(١) الاحتفال بانقضاء مائة سنة على وفاته سنة ١٨٢٧

الحرب الجوية

وتأثيرها في الصناعة الالمانية [1]

كانت قوة القاذفات في السلاح الجوي الملكي البريطاني، قد أنشئت لضرب صناعات الحرب في المانيا، ولا سيما في الرور، حيث ٧٥ — ٨٠ في المائة منها . وكانت القاعدة العامة في هذه الخطة استعمال قاذفات سلاح الطيران، معواناً للأسطول في فرض حصر دقيق على المانيا والمحافظة عليه . فوقع على كاهل سفن الأسطول مهمة اكتساح السفن الالمانية من بحار الارض ومنع كل وارد الى المانيا من الوصول اليها . وتعين على قيادة القاذفات أن توجه قاذفاتها فوق حاجز الجيوش، لتضرب ارض العدو في مواقعها الحيوية لتدمير مصانعه ومكررات زيته وتقطيع أوصال مواصلاته — أي بث الفوضى في اقتصاده الحربي وتدميره

مراحل الهجوم

والهجوم على الصناعة الالمانية، مقسوم ثلاث مراحل . كانت المرحلة الأولى من ١١ مايو ١٩٤٠ الى ٨ يونيو ١٩٤٠ وهي تشمل الفترة التي انتهت بعقد الهدنة الالمانية الفرنسية، والمرحلة الثانية انتهت في ليلة ٣ — ٤ دسمبر ١٩٤٠ عندما هوجمت دسلدورف للمرة الأولى، والثالثة بدأت في تلك الليلة ولا تزال الاعمال جارية، وهي تتسع نطاقاً وتشتد بمرور الايام

ففي المرحلة الأولى شغلت طائفة من قاذفاتنا بتأييد الجيشين الفرنسي والبريطاني تأييداً وثيقاً بقذف الاهداف القريبة من مؤخرة الجيش الألماني الزاحف . وما لم يكن مشغولاً منها بهذه الأعمال وُجه الى ضرب خطوط المواصلات البعيدة، ولا سيما الممتدة من الرور الى بلجيكا وهولندا، وكذلك الى أهداف في منطقة الرور نفسها وفي بريمن وهمبورج . وكانت الغارة الكبيرة الأولى في ليلة ١٥ — ١٦ مايو (١٩٤٠)، عندما اشتركت ثلاث وتسعون قاذفة — وكانت تحسب قوة مغيرة كبيرة في تلك الأيام — في قذف قنابلها على أهداف في الرور . وفي هذه الأهداف تلتقي خطوط السكة الحديد، وساحات مركباتها وقد قذفت سبع منها، ومصانع الزيت ومنها مصانع دويزبرج، وأفران الحديد في دويزبرج كذلك . وللمرة الأولى في هذه الحرب شق لهب النيران ووميض القنابل المتفجرة، ظلامَ الليل، فوق المنطقة الصناعية الرئيسية في المانيا، ولم يكن ذلك الا استهلالاً

---

(١) نلخص في هذه الصفحات تلخيصاً وافياً فصلا من كتاب « قيادة القاذفات » وهو التاريخ الرسمي لعمل « القاذفات البريطانية » في هذه الحرب من مستهلها الى شهر يونيو سنة ١٩٤١ وتنشره مصلحة الاستعلامات البريطانية العربية

وفي خلال الاسبوع الذي نهايته ٢٢ مايو ، توالت الغارات ، فشبت النيران في مستودعات الزيت في همبورج وبريمن في ليل ١٧ — ١٨ مايو وكانت طائفة من هذه النيران لا تزال مشبوبة بعد انقضاء أربع وعشرين ساعة عليها . وفي الليلة التالية أزلت التلف نفسه بمكررات الزيت في مسبرج قرب هانوفر . وفي ليلة ٢١ — ٢٢ مايو سجلت قوة صغيرة من طائرات « همدن » خمس اصابات مباشرة على قطارات ، وسبعاً على محطات ، واحدى عشرة على طريق سكك الحديد الدائم في غرب بلاد الرين . وفي الليلة التالية لذلك ، أصيب قطاران ونسف آخران في المنطقة نفسها . وفي خلال ما بقي من شهر مايو والى ١٨ — ١٩ يونيو ألقيت القنابل على هذا النوع من الأهداف من أسراب تتفاوت حجماً . وقد كان عدد القاذفات فيها محدوداً بعدى الحاجة الى قاذفات ضخمة مطلوبة لضرب أهداف قريبة في مؤخرة الجيش الألماني الموالي زحفه وانتصاره . وكانت أشد هذه الغارات نجاحاً غارة ٢٧ — ٢٨ مايو وقد وجهت الى أفران الحديد ومكررات الزيت . ومضت الأعمال على هذا الوجه خلال أيام يونيو الواقعة بين أول الشهر و١٨ منه ، فأصيب أهداف زيت في همبورج وبريمن في أثناء ليلتين في الاسبوع الأول من يونيو

كان وزن القنابل التي ألقيت على المانيا في المرحلة الأولى من الهجوم الجوي ، يسيراً حتى إذا قيس بوزن القنابل التي ألقيت في المرحلة الثانية . ولكنها أحدثت تعطيلاً في مواصلات سكك الحديد والطرق . ودمرت مقادير من الزيت المخزون ، وأصيبت بعض مكررات الزيت بشيء من التلف . ولكن آلة الحرب الالمانية لم تتأثر بهذه الغارات تأثراً خطيراً ، ولا تعطلت بل مضت هذه الآلة — ببذل قدر اضافي من الجهد — في تموين الجيوش البرية والجوية الماضية في طريقها الى اخضاع غرب أوربا . وكان لا بدّ من نشاط أعظم جداً لوقفها . ولم تقف . ذلك بان « قيادة القاذفات » لم تكن تملك القوة الكافية ، حينئذٍ ، لتحقيق هذا الغرض . وكان يعوزها العدد الوافي من الطائرات ، ورجالها المدربين . ومع ذلك لم تضنّ بما عندها . في خلال اسبوع واحد بين ٢٩ مايو و ٥ يونيو ، عندما بلغ الصراع ذروته ، خرجت القاذفات الضخمة للقيام بـ ٣٥٠ غارة ليلية ، وخرجت القاذفات الخفيفة والمتوسطة ٢٩٨ مرة للاغارة في النهار و ١٤٢ مرة للإغارة في الليل في الفترة نفسها

غير ان انهيار فرنسا ، أنشأ بين ليلة وضحاها ، حالة وجدت « قيادة القاذفات » نفسها فيها حاملة عبء جميع اعمال الهجوم المستطاعة على الأعداء . ثم كانت قيادة السواحل تمرس بمهمتها ولكنها كانت مهمة دفاعية على الأكثر ، وهي استكشاف غواصات الأعداء ، وحماية القوافل والنهوض بأعمال الدورية المستمرة على سواحلنا . وكانت قيادة المطاردات

في دور تنظيمها تنظيماً جديداً ، وكأنها تتأهب لمريعة السلاح الجوي الألماني ، فبل كثير ، في ذلك الصراع العنيف الذي اشتهر باسم « مرقعة بريطانيا » . فاتجهت قيادة القاذفات في الحال الى النهوض بهذه المهمة ، وهي ضرب العدو في كل ما تستطيع الوصول اليه من « مفاصل سرجه » الاقتصادي. ولم يكن برنامج المرحلة الثانية برنامجاً متواضعاً. وقد بدأ تنفيذه يوم ١٨ يونيو ١٩٤٠ وانتهى يوم ٥ دسمبر ١٩٤٠ وشمل اربعة أصناف من الأهداف وهي مصانع الطائرات ، ومصانع الألومنيوم ، والمصانع المنتجة للزيت ، والمواصلات . وكانت مصانع الطائرات ذات شأن خاص مستعجل ، لاتساع الهجوم الجوي الالماني على بريطانيا

بدأت المرحلة الثانية من الهجوم الجوي على المانيا بقذف مصانع طائرات فوك ولف في بريمن في ٢٢ يونيو و ٢٦ يونيو ثم في ست ليالٍ من شهر يوليو ، وفي الوقت نفسه قذفت دايشاوزن حيث تصنع طائرات يونكر ٥٢ مرتين في يونيو، وثلاث مرات في يوليو . وكذلك قذفت جوثا أحد المواقع الذي تصنع فيه طائرات مسرشمدت ١١٠ وكاسل حيث توجد مصانع طائرات ذات شأن ، سبع مرّات في خلال هذين الشهرين . واتجهت قاذفات أخرى تابعة لقيادة القاذفات الى مصانع الألومنيوم فقذفتها في يونيو ويوليو واغسطس ، وأهم الأهداف من هذا النوع كانت في كولون وراينفلدن وبترفلد وبعد ذلك في لوين ولدوجزهافن وجريفنبرويتش

قذف الصناعات الحربية

كان الغرض من هذه الغارات اضعاف قوة السلاح الجوي الالماني ، وتخفيف الضغط الواقع على قيادة المطارات في أثناء مرقعة بريطانيا في الصيف . وعقد الرجاء فترة ما ، بأن يفضي قذف مصانع الالومنيوم الى نقص انتاجها نقصاً يؤثر تأثيراً كبيراً في انتاج الطائرات الالمانية ، ولكن عندما اجتيحت فرنسا ، استولت المانيا على مقادير وافرة من البوكسيت (وكاز الالومنيوم) فزاد ما تملكه من موارد خام الالومنيوم زيادة مكنتها من الاحتفاظ بمستوى انتاجها . وكانت أفعل غارة شنّت على مصانع الالومنيوم غارة ١٩ أغسطس على رينفلدن ، عندما أصابت الطائرات اصابات مباشرة مصنعاً جديداً جديداً يوشك ان يشرع في الانتاج . واستغرق ترميمهُ أربعة أشهر ولم يبدأ الانتاج فيه قبل دسمبر

وبينما كانت مصانع الطائرات والالومنيوم تستهدف لقنابلنا ، لم نهمل اهداف الزيت . ولكن مشكلة ضربها كانت أشد تعقيداً من مشكلة ضرب الاهداف الأخرى . فمصانع الزيت مختفاة تخفية دقيقة في المانيا ، وبعضها قائم في قلب البلاد ، على بعد يجعل ضربهُ في ليالي الصيف القصيرة

متعذراً . ولكن الأهداف الرئيسية التي هوجمت وقذفت في خلال يونيو ويوليو وأغسطس وسبتمبر (١٩٤٠) كانت في جيلزنكرخن ولوينا ومسبرج قرب هانوفر وأمريخ وبولتز قرب ستتين . وكانت أفعل الغارات على أمريخ ومسبرج . فقد قذفت مصانع تكرير الزيت في أمريخ في ٥ يوليو ثم في أول اغسطس و٣ أغسطس . ومعروف أن الانتاج هنا توقف في الواقع مدة . وكانت الغارات على مسبرج في ٢٠ مايو و١٩ و٢٧ يونيو . ثم شنت غارة في أول أغسطس لتعرقل أعمال الترميم ، فعطلت مصنع التكرير مدة غير يسيرة قد لا تقل عن ستة أشهر . وقد هوجمت جيلزنكرخن ثماني وعشرين مرة بين ٢٧ مايو و٢ دسمبر . ولوينا عشر مرات بين ١٧ اغسطس و١٩ نوفمبر . وبولتز مرتين في سبتمبر وثلاث مرات في اكتوبر ومرة في نوفمبر . وفيها جميعاً حدث تلف على جانب كبير من خطر الشأن . وعندما تهاجم اهداف من هذا القبيل ترتبط النتيجة ارتباطاً وثيقاً بالمكان الذي تقع فيه القنابل . فاذا أحسن تسديد قنبلة ما ، او اذا حالف الحظ مسددها ، وسقطت في موضع معين فقد تعطل المصنع عن العمل مدة طويلة . بينما قد تشن غارة أكبر منها وتصاب الأهداف اصابات متعددة ، فاذا نجت بعض المواقع الحيوية من الاصابة ، فعرقلة العمل في المصنع لا تكون الا عرقلة عابرة

وقد شنت الغارات على هذه المصانع وغيرها من الأهداف الصناعية في نفس الوقت الذي شنت فيه غارات على مراكز الغزو . وشن هذه الغارات في وقت واحد ، اقتضى ان يكون عدد القاذفات المتاح لهدف بعينه ، صغيراً وهذا حد من التلف الناشىء عن الغارة . ومن العوامل التي عاوضت هذه الغارات حالة الجو ، اذ كانت سيئة على الغالب في فترة الليالي المقمرة . وفي أثناء هذه الفترة ، حولت طائرات كثيرة عن الأهداف التي تقدم ذكرها الى الإغارة على برلين وقد هوجمت أولاً في ليلة ٢٦ — ٢٧ اغسطس وتعرضت بعد ذلك لأربع وثلاثين غارة أخرى قبل نهاية السنة

وكان الصنف الرابع من الاهداف التي توختها قيادة القاذفات نظام المواصلات في الرور ومنطقة الرين وهو نظام متسع مشتبك ويشمل الاقنية والطرق وسكك الحديد . فتمزيق خطوط المواصلات او على الأقل احداث ازدحام عليها يجب ان يكون ضربة فعالة حقاً . وكان بين طرق النقل المائي الداخلية : هدف واحد يعلو عليها شأناً وهو قناة دورتمند امز . هذا الطريق المائي يصل منطقة الرور الصناعية بشمال غرب المانيا ثم يسير الى البحر عند امدن ، وفي مياهه الساكنة ، يسير صف متصل من الصنادل حاملة منتجات الصناعة الثقيلة ، فسده يحمّل السكك الحديد الالمانية المرهقة عبئاً إضافياً . وقد هوجمت أجزاء شتى من هذه القناة ست عشرة مرة بين مايو ونوفمبر ومنها الاحواض والأهوسة بوجه خاص

قطع الاقنية

هذه القناة — قناة دورتمند أمز — معرضة للخطر على وجه خاص في موقع معين. فهناك الى الشمال من مونستر مجريان للماء، أحدهما قائم على أربع قناطر والآخر على قنطرتين، وبهذين المجريين تجتاز القناة نهر امز. وسعة كلٍّ من المجريين نحو مائة قدم عند مستوى الماء. فاذا دمر المجريان قطعت القناة قطعاً تاماً، وتدمير أحدهما فقط ينقص السفن التي تعبرها نقصاً كبيراً. فوجّهت اليهما غارات متعددة أصابت درجات متفاوتة من النجاح. وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر يوليو علم ان الفرع الجديد أصيب بتلف كبير، والصورة الضوئية التي صوّرت في ذلك اليوم تبين أبواب الأهوسة وهي مقفلة، وجزءاً من القناة جافاً، وصنادل الترميم مصابة ومقذوفة الى الضفة

وفي ليلة ١٢—١٣ اغسطس بذلت محاولة صادقة لنسف المجرى الحامل فرع القناة القديم. وتولى هذا العمل خمس قاذفات من طراز «همدن» وكانت حاملة ضرباً خاصاً من المواد المتفجرة وكان القمر نصفاً، فكان ضوءه كافياً لمشاهدة الهدف. ووقتت القاذفات هجومها توقيتاً دقيقاً، بحيث تكون الفترة بين القاء المتفجر من احداها والقائه من الأخرى دقيقتين ابتداء من الساعة الواحدة والنصف صباحاً. وكان المجرى محمياً بقوة كبيرة من المدافع المضادة للطائرات، وكانت موزعة على جانبي خطٍّ لا بدَّ للطائرة المغيرة من الطيران فوقه اذا شاءت أن تبلغ الهدف

ولكن القرار صدر بالهجوم من مستوى منخفض للاستيثاق من اصابته. وتوالت قاذفات همدن في هجومها قادمة من الشمال وضوء القمر ينعكس على وجوه رجالها فيبدي الهدف بارزاً فأصيبت الطائرة الأولى وجرح عامل اللاسلكي فيها. وشبت النار في الثالثة ولكن قبل ان يفلت زمام الطائرة من يد طيارها، تمكن من الارتفاع بها ارتفاعاً كافياً مكّن رجالها من الهبوط بالمابطات فأسروا. وأصيبت الرابعة في ثلاثة مواقع ولكنها عادت الى الى قاعدتها. اما الخامسة والأخيرة فطارت فوق خط المدافع المضادة، على ارتفاع مائتي قدم. قال الطيار: «... وبعد هنيهة ظهرت ثلاثة ثقوب في الجناح الايمن. وكانت المدافع تطلق نيرانها عن كثب. إلاَّ أن الملاّح مضى في توجيهي الى الهدف. ولكنني لم أتمكن من رؤيته لأن ومض الاضواء الكشافة بهر عيني فاضطررت أن أطاطىء رأسي. وأخيراً سمعت الملاح يقول: «سقطت القنابل». فانحرفت في الحال انحرافاً حاداً الى اليمين ونجوت وظلت النيران تطلق علينا مدى خمس دقائق. وقد باضت حمامة الزاجل التي كانت معنا في أثناء الغارة». وعلاوة على الثقوب في الجناح، نسف جهاز الضغط المائي، فغدا من المتعذر تحريك أهداب الجناحين وعجلات الطائرة. وأدرك الطيار ما وقع فلما وصل الى مطاره بقي

محوماً فوقه الى أن طلع النهار واستطاع أن ينزل بها سالماً الى الأرض . ومنح صليب فيكتوريا

ان نظام سكك الحديد الالمانية شديد التعقيد ، ولكنه محكم عظيم الكفاية إلاّ إنه لتعقيده واتساعه، عرضة لمهاجمته مهاجمة ناجحة . وهو أشدّ ما يكون كذلك في الرور وهي اعظم منطقة صناعية في المانيا . فهناك طائفة من اكبر مصانع الحديد والصلب في المانيا . وهناك كذلك يستخرج ٨٢ في المائة من الفحم في المانيا . ونظام سكك الحديد الالمانية الى الشرق من الرين انما انشىء لسدّ حاجات الرور . فتعبئة عدد وافر من مركبات النقل وقطرها بأقصى سرعة مستطاعة الى حيث يحتاج اليها في المانيا، مرتبط اوثق ارتباط بما يعرف باسم (Marshalling Yard) اي « حوش الحركة » وهو ساحة تصف فيها مركبات النقل وتنظم قطارات . واكبر هذه الساحات وأهمها هي ساحة بلدة « هام »

هذه الساحة واقعة على الزاوية الشمالية الشرقية من الرور وهي تشترك مع ساحات اوزنا بروك وسوست وشثيرت، في السيطرة على حركة النقل بالسكك الحديد بين الرور من جهة والمانيا والمتوسطة والشرقية من جهة اخرى . وهي تتسع لعشرة آلاف مركبة كل يوم . وقد هوجمت هام اولاً في ليلة ١ — ٢ يونيو ١٩٤٠ وبلغ عدد الغارات عليها بين اول يونيو ١٩٤٠ و ١٢ — ١٣ يونيو ١٩٤١ ثمانين الى تسعين غارة ، ولكن طائفة غير يسيرة منها كانت غارات صغيرة النطاق

وساحات مركبات السكك الحديد أي « أحواش الحركة » شديدة التأثر بالهجوم الجوي ولاسيما ليلاً ، لأن فرز المركبات يتم معظمه ليلاً فالحاجة شديدة الى مصابيح الاشارة . فالعمل في اثناء الغارة يجب إما ان يتوقف وإما ان يقلّ كثيراً . والتأخر يعرقل برامج النقل ويحدث ازدحاماً واحتقاناً في الشرايين . وهذا يؤثر حالاً في جميع الجهات على مختلف الخطوط المنصبة الى الساحة . وكلما ازداد الازدحام تأثرت به الخطوط فينجم عن ذلك ان عرقلة حركة النقل تصبح متجمعة ومنتشرة الأثر . وهذا ما يحدث كثيراً في المانيا . فالبيانات الواردة عن مصاعب الانتقال في المانيا كثيرة وبليغة في دلالتها فلا يجوز اهمالها . ان قطارات الركاب العادية تسير بغير نظام متبع ومتاعب الركاب تتفاقم لأن الحكومة قرَّرت منع القطارات من الوقوف في مناطق صفرت فيها صفارات الانذار بغارة جوية . وكثيراً ما يشاهد الركاب الواقفون على رصيف محطةٍ ، قطاراً مفروضاً فيه ان يقف في كل محطة، فيمرُّ بهم بغير وقوف . والركاب الذين في القطار ينقلون الى اماكن تبعد اميالاً عن المكان الذي ينوون النزول فيه . ثم ان الرحلة تستغرق وقتاً طويلاً . فالذين رحلوا الى ليبزج لمشاهدة معرضها استغرقت رحلتهم من تلك المدينة الى البرتوغال خمسة أيام بدلاً من يوم ونصف يوم وهو المدة

المألوفة . والمسافرون من برلين الى كولون وبال في اكتوبر اضطروا ان يغيروا القطار اثنتي عشرة مرّة في الطريق

استهلال المرحلة الثالثة

ان التحول الذي طرأ على هجومنا الجوّي على المانيا بدأ يظهر في اوائل دسمبر سنة ١٩٤٠ اذ شرعنا نوجه اقوى الغارات الى مناطق خاصة حيث احتشدت الصناعة وازدحمت خطوط المواصلات ، اي حيث يكون احتمال احداث اعظم الضرر اكبر ما يكون . وهذا التحول مردّه الى سبب غاية في البساطة . ذلك بان المتاح لنا من الطائرات والرجال كان آخذاً في الازدياد . وقد بدأ التحوُّل قبيل عيد الميلاد (١٩٤٠) ولا يزال نطاقه آخذاً في الاتساع اتساعاً مطرداً

كانت المدينة الأولى التي تأثرت بهذا التحوُّل مدينة دوسلدورف ، وقد هوجمت وقذفت في ليلة ٤ — ٥ دسمبر ثم في ليلة ٧ — ٨ دسمبر . وتلا ذلك الغارة على مانهيم في الليلة التالية وليلة ٢٠ — ٢١ دسمبر . وقد زاد الآن مقدار ما يلقى من القنابل في ليلة واحدة فيفرق ما كان يلقى حينئذٍ في ليالٍ ، ومع ذلك فقد كانت غارات تلك الليالي من اعظمها قسطاً من النجاح . ففي الغارة الاولى على مانهيم أصابت قنبلة انبوب الماء الرئيسي الممتد من برج الماء فعرقلت هذه الاصابة عمل مكافحي النار عرقلة كبيرة . وأهم من ذلك ان العمل في ساحات مركبات السكك الحديد ، تعطّل بانقطاع الماء والتيار الكهربيّ . ذلك بأن اجهزة التحويل في الساحات تعمل بالضغط المائي ، « والتحويلات » بالتيار الكهربيّ . فأسفر هذا عن تأخير عظيم لأن المركبة التي يستغرق اجتيازها الساحة ثماني ساعات ونصف ساعة أصبحت لا تجتازها إلاّ في سبعة ايام . وكانت ساحات مانهيم عندئذٍ تتناول سبعة آلاف عربة كل يوم فالازدحام الذي نشأ عن التلف كان عظيماً جدًّا . وتعطل المرور في ساحات بال على مسافة ١٦٠ ميلاً الى الجنوب . وكان لا بدَّ من تحويل الفحم المنقول من الرور الى ايطاليا لأن تفريغه في مانهيم كان متعذراً . وقد طالت عملية التحويل هذه فخسرت ايطاليا مائة الف طن من الفحم في اثناء الشتاء . ولم تعد حركة المرور الى حالتها الطبيعية الاّ في مارس سنة ١٩٤١

وشنت غارة عنيفة على بريمن في ليلة ١ — ٢ يناير ١٩٤١ ثم في ليلة ٣ — ٤ يناير وتلت هاتين الغارتين غارتان أخريان متتاليتان على فلهلمزهافن في ١٥ و ١٦ يناير ، وتدلُّ الصور الضوئية التي صوِّرت على وقوع مجاميع من القنابل في منطقة الهدف فأصيبت بتلف كبير ، ثم جاءت الغارة على هانوفر في ١٠ — ١١ فبراير ، وكانت أكبر غارة شنت في ليلة واحدة الى ذلك التاريخ . وقد اعترف الالمان أنفسهم بلسان محافظ المدينة بالتلف الكبير الذي حدث ولعل كيال أصيبت أكثر من كل مدينة أخرى في المانيا وتليها توًّا مدينة همبورج . وكانت

أشدُّ الغارات على كيال في ٧ — ٨ و ٨ — ٩ ابريل عندما ألقيت عليها ٦٠٠ ٦٣ قنبلة محرقة علاوة على أطنان كثيرة من قنابل متفجرة مختلفة الاوزان ومنها نوع جديد من القنابل، ألقي على مناطق المرفأ ودور الصنعة البحرية . وكان الخراب عظيماً

كانت الغارات على كولون متفرقة في سنة ١٩٤٠ فبدأت تشتدُّ في مستهلّ سنة ١٩٤١ وقد بلغ عددها الى ٣١ مايو ٢٠ غارة كان أعظمها حظاً من النجاح غارتا ١ — ٢ مارس و ٣ — ٤ مارس . أما الغارات على برلين فقد كانت أشدها في ١٧ — ١٨ أبريل ١٩٤١ . ولشبت نارٌ عظيمة في تلك الغارة أحدثتها قنبلة من نوع جديد . وقد استعملت هذه القنبلة أولاً في ليل ٣١ مارس — اول ابريل، عندما كان الهدف دور الصنعة البحرية في امدن وعندما انفجرت، شوهدت مقادير من الانقاض منقذفة في الجوّ على ضوء الحرائق وكان التخريب كبيراً على ماجاء في البلاغ الرسمي . وقال الطيار الذي ألقاها « قذفت البيوت في الهواء »

« لماذا تهاجم أهدافٌ في المانيا ليالي متوالية » . سؤال كثيراً ما يوجهه الناس ولا سيما عندما توصف الغارة بأنها كانت غارة شديدة

والجواب : لأن الأهداف كبيرة . فساحات مركبات السكة الحديد ، والأحواض ، ودور الصنعة البحرية ، ومصانع الطائرات ، وغيرها من الأهداف العسكرية تغطي على الغالب مساحات واسعة فلا يمكن تعطيلها في هجوم واحد . وفي هذه المساحات كثير من الارض الفضاء حيث تقع قنابل بغير أن يحدث تلفاً ما . وزنة ما تلقيه قاذفاتنا من القنابل في ليلة واحدة لم يكن كبيراً ، حتى الآن . فكان لا بدَّ من ضربها رويداً رويداً . والذين شاهدوا اطلاق المدفعية في الحرب الماضية على قرية أو منطقة عامرة يعلمون السبب . ذلك بأن تدمير هدف من هذا القبيل تدميراً كاملاً يقتضي وقوع قنبلة في كل ذراع مربعة . ومع أن القنبلة الحديثة أضخم من قنبلة الحرب الماضية وعدد القنابل اللازمة لتدمير هدف ما ، أقلّ الآن مما كان، فانه مع ذلك لا يزال عدداً كبيراً . وإن ضرب مثل واحد يكفي للبيان . فقد اضطرَّ الألمان أن يستعملوا قوة كبيرة جداً من القاذفات لمحو جزء من روتردام فقط . ثم هناك أسباب أخرى لاعادة الكرة على الأهداف نفسها . ذلك بأن القذف المتوالي بالقنابل يعرقل عمل الترميم وقد يحول دونهُ . والعمال المكبون على الانتاج الحربي يعرضون لمشقة متصلة وهذا يبطئ عملهم ويخفض انتاجهم ويشجعهم على الامتناع عن العمل أو على الفرار اذا كان ذلك في وسعهم لأن العمل يصبح محفوفاً بخطر عظيم

وما أقبل يوم ١٨ يونيو من سنة ١٩٤١ حتى كان سلاح القاذفات البريطاني قد شنَّ ١٦٦٦ غارة على المانيا بست قاذفات أو أكثر . والغارات مطردة في ازدياد شدتها واتساع نطاقها

حرب المواصلات [1]

وصفت هذه الحرب أوصافاً شتى . فقيل إنها حرب خاطفة آيتها الدبابات والطائرات والسيارات المدرعة . وقيل إنها حرب موارد ومصانع ، فالدولة التي تستطيع ان تصمد أكثر مما يصمد غيرها على ما تبليه الحرب من آلات الحرب ، وتستطيع ان تنتج منها ، أكثر مما يستطيع غيرها ان ينتج منها ، هي الدولة التي يلتوي في يدها غصن الظفر النهائي . وقيل إنها حرب ستكون القوة البحرية فيها بالاشتراك مع قوة الطيران العامل الحاسم في آخر الأمر . كما قيل إنها حرب الشعوب ، لابد ان يكتوي بنارها جميع طبقات الشعب من مجندين وغير مجندين رجال ونساء وصغار على السواء

وهي أوصاف جميعها صحيح ، ولكن كل وصف منها ينطبق على ناحية واحدة من الحرب ، او على مرحلة من مراحلها . فالدبابات والطائرات والسيارات المدرعة ، كما استعملها الالمان في الحرب الخاطفة ، قضت على بولندا وبلدان أوربا الغربية . والقوة البحرية بالاشتراك مع القوة الجوية ، أتاحت عجيبة دنكرك ومعركة ماتابان وتأثيرها في سير الحرب مستمر متصل لا يقف عند حد من حدود الزمان والمكان. ومنزلة الموارد والمصانع متجلية في ما يبذله الفريقان المتحاربان من جهد في ميدان الانتاج ، فألمانيا تحاول من جهة ان تكسب الحرب قبل ان يثمر الانتاج الحربي البريطاني الاميركي ، وقبل ان تشتد حاجتها الى موارد غير متاحة لها ، الا في أقاصي الارض او في أقاصي روسيا على الأقل ، بينا تهددها المشاق التي تعانيها في الاستيلاء على هذه الموارد بفراغ الرمل من المزولة ، وارتفاع المد الطاغي عليها من جهة الغرب بيما بريطانيا والولايات المتحدة تحثان الخطى الى التفوق في الانتاج وهو في متناولهما

الى هذه الاوصاف المتعددة ، يجب أن نضيف وصفاً آخر ، وهو ليس بالوصف الجديد ، ولكن الحوادث تفرضه علينا فرضاً ، وقد يبدو من قبيل تحصيل الحاصل ولكن منزلته تطرد ارتفاعاً وتتعاظم شأناً حتى ليصح ان نقول ، انه غدا من وراء جميع نواحي الحرب الأخرى ، واليه مردها ، وعليه مصيرها . ذلك بأن هذه الحرب علاوة على كونها حرباً خاطفة في نواحٍ ومراحل ، وعلى كونها حرب موارد ومصانع في جميع نواحيها ومراحلها ، هي كذلك حرب مواصلات

فانتشار مدى الحرب في القارات الثلاث واحتمال امتدادها الى القارات الخمس او الست ،

---

(1) حديث لرئيس تحرير المقتطف أذيع في ٦ نوفمبر ١٩٤١ من محطة الاذاعة اللاسلكية في القاهرة

يجعل مسألة المواصلات في المقام الاول شأناً وخطراً. فنقل الانتاج الحربي الاميركي والبريطاني الى بريطانيا وروسيا والشرق الاوسط والشرق الأقصى، ونقل السلاح والمهمات من غرب المانيا الى شرقها، ومن غرب المانيا عن طريق إيطاليا الى شمال افريقية، ومن غرب المانيا ووسطها الى جنودها المنتشرة على طول الساحل الاوربي من النروج الى أسبانيا او الى قواتها المحاربة في شمال الميدان الروسي — كل ذلك يحمل أسباب المواصلات والنقل عبئاً عظيماً. وقد يكون الظفر في ابقاء طرق المواصلات مفتوحة والنقل ميسوراً، بينما تعرقل مواصلات العدو، وبث الاضطراب في أسباب نقله، من العوامل الحاسمة في النتيجة النهائية في هذه الحرب — حرب المواصلات — لمعركة المحيط الاطلسي منزلة خاصة، ولكنها ليست بالمعركة الوحيدة، بل لأوربا المتلرية معركة مثلها من هذه الناحية، وهي ليست دون معركة المحيط الاطلسي منزلة وشأناً. وفي أنباء الاسبوع طائفة غير يسيرة من الانباء تؤيد كل ما تقدم

معركة المحيط الاطلسي

أذاعت الاميرالية البريطانية في أوائل نوفمبر، خارجة عن ما جرت به عادتها، ان عدد ما أسر من ضباط غواصات المحور ورجالها، بلغ حتى آخر اكتوبر الماضي ١٢٧٦ ضابطاً وبحاراً. وهو رقم جدير بالعناية. خليق بالتحليل. ونحن اذا اعتبرنا متوسط عدد رجال الغواصة الواحدة اربعين، وهو اعتبار معقول، فالرقم الذي أوردته الاميرالية البريطانية يمثل ثلاثين غواصة الى خمس وثلاثين. ولكن من أندر النوادر في الحرب البحرية، أن يؤسر رجال غواصة ما، كاملي العدد. والغالب أن ينقذ فريق متفاوت العدد من رجالها. ثم ما كل غواصة تغرق ينقذ منها بعض رجالها، بل كثيراً ما تدمر غواصة ما، بغير ان ينجو من رجالها وضباطها احد. فالرقم الوارد، في بلاغ الاميرالية البريطانية، يشمل فئات متفاوتة العدد، من غواصات كثيرة، متجاوزين عن الغواصات التي دمرت، بغير أن يبقى احد من رجالها، يروي روايتها

ولم تشر الاميرالية في بيانها، الى عدد الغواصات التي أغرقت من بدء الحرب، وذلك لأسباب وجيهة، أهمها ان ذكر هذه الحقائق، ولو كانت في بيان عام، مصدر يستخرج منه الالمان والايطاليون أشياء قد لا يعرفونها. ثم ان الامتناع عن ذكرها، له وقع نفسي غير يسير في رجال الغواصات العاملة، لانهم يمضون في عملهم، وفي نفوسهم اثارة من القلق على زملائهم، وعلى انفسهم كذلك. ولكن اذا كانت الاميرالية البريطانية قد امتنعت عن ذكر عدد الغواصات التي اغرقت، فاننا نستطيع أن نعتمد بعض الاعتماد، على احصاءات تدل على مصير

في مياه آلسوند وحدها سبع سفن في يوم واحد ، والمواصلات الايطالية الالمانية على شمال افريقية عرضة للمشكلات نفسها. والسفن بين جنوب ايطاليا وبين طرابلس أهداف للطائرات البريطانية وللغواصات والطرادات والمدمرات . وتقول السلطات البريطانية أن غرضها في البحر المتوسط مناجزة الأسطول الايطالي وقطع سبل البحر على السفن الايطالية الناقلة ، واباحته طريقاً للقوافل البريطانية . أما احتمال مناجزة الأسطول الايطالي فرتبط بمدى التزامه قواعده . واما قطع سبل البحر على السفن الايطالية الناقلة فالمعدَّل في الشهرين الماضيين ان نصفها يذهب بين غارق ومعطوب. واما استعمال البحر طريقاً للقوافل البريطانية فالنجاح فيه متجلٍّ في تدفق الامداد من كل صنف على الشرق الاوسط من جميع النواحي

موقف اميركا في هذه الحرب

في هذه الناحية من الحرب العامة أي في حرب المواصلات للولايات المتحدة الاميركية منزلة عظيمة لانها تشترك في حماية مسالك المحيط الاطلسي بسفنها الحربية من « الحيات ذوات الاجراس » وهو وصف روزفلت للغواصات، ولانها ترسل بسفنها رافعة العلم الاميركي الامداد الاميركية الى الشرق الاوسط عن طريق البحر الاحمر وخليج ايران والى الشرق الاقصى وروسيا والصين . ولذلك كان لاغراق المدمرة الاميركية « روبين جيمس » في أواخر أكتوبر رنة خاصة في دوائر وشنطن حيث يشرف النقاش في تعديل قانون الحياد أو الغائه على مرحلته الاخيرة . وقد لاينقضي أسبوع آخر قبل ان يصبح الجانب الاكبر من هذا القانون ذكرى تاريخية لأمل منهار[1]. هذا الأمل المنهار هو أمل فريق من الاميركيين في المحافظة على سلامتهم وسلامهم في عالم تتنازعه ثورة جامحة عالمية ليست الحرب الاّ عرضاً من اعراضها

اذن لماذا لا تدخل اميركا الحرب ؟ قلت لصاحبي الذي سأل هذا السؤال ألم « تدخل الولايات المتحدة الحرب ؟ ألم تخض غمارها في ناحيتها السياسية باعلانها نيتها وعزمها على بذل كل ما تستطيع للقضاء على الهتلرية وناحيتها الاقتصادية والصناعية بتعبئة مواردها واقرار قانون التأجير والاعارة ، وناحيتها النارية باصدار الامر الى الاسطول باطلاق النار على مغيرات المحور ! نعم انها لم تعلن بعد انها في حالة حرب ، وفقاً لقواعد الدستور ، وقد يمهد الغاء قانون الحياد من الوجهة الدستورية لهذا الاعلان ، وقد لا يكون الاعلان الآن خير الامور ، ولا أهم ما تسديه أميركا لتحقيق سياستها ، وان كان يضع الطابع الرسمي على هذه السياسة »

(١) عدل قانون الحياد فعلا بعد انقضاء أسبوع تماماً على القاء الحديث

باب المراسلة والمناظرة

يهودية اشبنجلر

عزيزي الاستاذ الفاضل محرر المقتطف

بعد التحية ، اطلعت على ما كتبهُ الاستاذ الحسيني في مقتطف نوفبر وأرجو ان تسمحوا لي بنشر الكلمة الآتية التي سأحاول فيها للمرة الاخيرة ان أضع الأمر في نصابه ، وأن أكشف عن بعض ما في آراء الاستاذ الحسيني من زيف وانحراف ، ولست أبالي بعد ذلك أرفع الاستاذ رأسهُ في شواهقه « الاولمبية » ام خفضها لان هذا من شؤونهِ الخاصة ، وأنا انما أكتب احقاقاً للحق وازهاقاً للباطل

المقصود بيهودية اشبنجلر هو كونه من أصل يهودي ، ولا يستلزم ذلك بطبيعة الحال ان يكون الرجل يهودي العقيدة ، لان أمثال اشبنجلر وفرويد وبرجسن ومن اليهم من كبار المفكرين وأعلام الثقافة أحرار الفكر ، ولهم عقائد فلسفية خاصة يدينون بها ، وفرويد مثلاً يعتقد ان الاديان جميعها وهم من الاوهام التي تغشى النفوس ، وهينريك هيني خرج من الديانة اليهودية ودخل في المسيحية ولم يجرده ذلك من يهوديته الاصيلة ، وقد أغفلت الاشارة الى ذلك لاعتقادي ان هذا مفهوم من مضامين الكلام وواضح في سياق الحديث ، ولكن يخيل اليَّ أن اغفال النص على ذلك كان له شيء من الأثر في توجيه الاستاذ الحسيني الى تلك النظرية العجيبة التي أعلنها غير هياب ولا وجل واعتصم بها وهي نظرية الاكتفاء في الحكم على الرجل بأقواله وأفعاله والاعراض عن شهادة الشهود لانها في نظر الاستاذ الحسيني لغوٌ وفضول ، واني استنكر صدور مثل هذا الرأي من رجل عادي مبتدىء فضلاً عن رجل مثل الاستاذ الحسيني يستقي الفلسفة من ينابيعها الاصلية . ومن المسلم به اننا نعرف أعمال الناس من طريقين ، طريق الرواية او طريق المشاهدة ، والمعرفة عن طريق الرواية تستدعي التثبت من صحة الوقائع المروية والموازنة بين اقوال الرواة وفحصها وغربلتها ، وطريق المشاهدة لا يؤمن عثاره ، لان مسالك هذا الطريق عرضة للاغترار بالظواهر والاتجاه الخاطىء في تفسير الاعمال وقد يأتي احد الناس عملاً من الاعمال ظاهره الخير وباطنه لا يمت الى الخير بسبب فيخدع الشاهد عن حقيقته ، والحكم على الاعمال البادية يقتضي معرفة الدوافع الخفية والسيئات المبيتة . اما الحكم على الناس بأقوالهم فماذا اقول فيه ? ربما صح الاخذ به بين سكان « المدينة الفاضلة »

اما العالم الذي نعيش فيه فليست اموره بهذه البساطة التي تسمح لنا بأن نكتفي في الحكم على الناس بأقوالهم كما يسمح لنا الاستاذ الحسيني دون ان يقدم لنا دليلاً واحداً على ان البشر قد أصبحوا معصومين ، والفلسفة كما يعلم الاستاذ الحسيني قائمة على الشك ، والعلم قائم على التجربة وهي في صميمها ضرب من الشك، وأخذ الناس بأقوالهم بلا مراجعة ولا تمحيص ينافي الروح الفلسفية ويناقض المذاهب العلمية وأنا أتهم الاستاذ الحسيني نفسه بأنه غير وفي لنظريته لانه لم يكتف في الحكم على تأثير اسبنوزا في جيتي بحديث جيتي عن نفسه بل حاول ان يشكك في ذلك معتمداً من ناحية على رأي شبنجلر ومن ناحية أخرى على مفكر او مفكرين مجهولين في مجلة او مجلات مجهولة وكان من حق نظريته عليه أن لا يخذلها كل هذا الخذلان المبين ويتخلى عنها في المواقف الحرجة وقد عودني الاستاذ الحسيني في مناقشته أن يقول غير ما يريد ويريد غير ما يقول ولعله في تقرير هذه النظرية قد جرى على عادته وأراد شيئاً آخر أقرب الى الحق وأدنى من المعقول واني أحسن به الظن وأعتقد انه قد تورط في هذه النظرية

ويرى الاستاذ الحسيني اني لم أكن دقيقاً في تفهم مرامي كلامه لاني لم أعن بالتفريق بين قوله عن اسبنوزا بأنه كان صدى للفلسفة العربية الى حد كبير وأنه صدى على الاطلاق وأحب أن يعرف الاستاذ الحسيني ان اعتراضي هنا ليس على « الكم » وانما على « الكيف » والرجل الذي يكون صدى لغيره الى حد صغير فضلاً عن الحد الكبير لا يصلح للفلسفة ولا تصلح له الفلسفة والقول عن اسبنوزا بأنه كان صدى الى حد كبير أو حد صغير امتهان لا يعادله امتهان وقد تأثر شوبنهاور بفلسفة كانت ولم يقل احد انه كان صدى لكانت الى حد كبير او صغير وتأثر نيتشه بفلسفة شوبنهاور ولم يجترىء احد على ان يعرفه بأنه كان صدى الى حد ما واستعمال لفظة صدى في مثل هذه المواقف من المسائل غير اللائقة وهذا من البديهيات التي يضطرني الاستاذ الحسيني الى الخوض فيها كما اضطرني الى أن اتبعه في استطراده ليتهمني بعد ذلك بالخروج عن الموضوع

واني أعيد على سمع الاستاذ — اذا تفضل هذه المرة وأعارني سمعه — اني قد اعتمدت في تقرير ان شبنجلر من أصل يهودي على النص الوارد في كتابة المفكر الكبير والكاتب النابه ريشارد كالرجي وما ذكره الاستاذ الحسيني من الحجج التي لا تكاد تتماسك قد تصدع على صخرة هذا النص القوي واني أعد الاستاذ الحسيني وحضرات القراء بأني سأبادر الى نقضه اذا عثرت على رأي ارجح وزناً وأقوى حجة في نفي اليهودية عن شبنجلر . وقد اخذ علي الاستاذ استعمال لفظة « افترض » ولا أذكر اني وقفت عليها في الشعر الجاهلي ولم يتسع

وقتي لتحقيق ذلك في هذه الأيام على اني قد جريت في استعمالها على القياس ، وورودها في كتابة الكثيرين من كتاب العصر المجيدين ربما يشفع لي في ذلك ، واني أشكر للاستاذ الحسيني ، على أي حال ، أنه استرعى نظري الى ضرورة التدقيق في استعمالها ، وأود ان أنبه الاستاذ الحسيني الى ان استعماله لفظة « ممتن » بمعنى شاكر من الاخطاء النحوية الشائعة وقد نصّ على ذلك الاستاذ « الزعبلاوي » في صفحة ٢٦٦ من كتابه القيم « اخطاؤنا في الصحف والدواوين » وذكرها كذلك الاستاذ داغر في صفحة ٥٤ من كتابه « تذكرة الكاتب » وفي مستطاع الاستاذ الحسيني ان يرجع الى هذين المصدرين ليقتنع بضرورة الاقلاع عن هذا الاستعمال

واني أشكره لما أثار من جدل لان مناقشة الاستاذ شائقة ومسلية وان كانت من ناحية الانتهاء الى نتيجة ثابتة محققة غير مجدية

علي ادهم

***

[المقتطف] طالت المناقشة بين الكاتبين الفاضلين وتشعّبت وتمددت فيها مطارحات الأدب والفلسفة . ولكنها لم تحسم بالوصول الى نتيجة يقبلانها كلاهما . فالاستاذ علي أدهم مستندٌ الى نصٍّ جاء في مقالٍ للكاتب المشهور ريشارد كالرجي وقد نشرته مجلة « العصر الحي » بغير تعقيب عليهِ او تشكك في صحة أقواله . وليس للاستاذ الحسيني نص صريح يستند اليهِ في انكار يهودية شبنجلر وانما اعتمادهُ على آرائهِ وتشيّع النازيين لها مع ما هو معروف عنهم من عدائهم لليهود واضطهادهم إياهم

وقد وردت ترجمة موجزة للفيلسوف شبنجلر في الطبعة الرابعة عشرة من دائرة المعارف البريطانية فلم يرد فيها ذكر لأصلهِ وكل ما جاء فيها انهُ « فيلسوف الماني ولد في بلانكنبرج في هارتز يوم ٢٩ مايو ١٨٨٠ » الخ

وفي مكتبة رئيس تحرير المقتطف كتاب انكليزي عنوانهُ « ما أسداه اليهود الى الحضارة » وفيهِ ذكر العلماء والفلاسفة ورجال الادب والفن من اليهود وليس فيهِ ذكر لشبنجلر بينهم . ولكن هذا ليس الاّ دليلاً سالباً على انهُ ليس بيهودي

وقد يتعذر علينا الآن الوصول الى نصوص صريحة فاصلة في هذا الموضوع تأييداً لقول كالرجي او إدحاضاً له . ولعلّ حضرة صاحب السيادة ناحوم افندي الحاخام ، المعروف بسعة علمهِ ، والاستاذ علي حسن الحاكم المتوفر على دراسة شبنجلر باللغة الالمانية — وقد كتب فصلاً ممتعاً في فلسفته في مقتطف مايو ١٩٣٥ — يتفضلان بابداء الرأي ولهما الشكر

وقد أخذ الاستاذ علي أدهم على الاستاذ الحسيني استعمال لفظ « ممتن » وهو مع الأسف من وضع مصحح التجارب بالمقتطف



الحيوانات البرية
خلال الحرب وفي ميادينها

من سخرية الحضارة الحديثة ، ان توجه الحكومات والقيادات العليا عنايتها الى المحافظة على الحيوانات البرية ، بينما تتعرض زهرة شباب العالم لأفتك الاسلحة. فقد روى الباحث المواليدي « بارتون » في مجلة « التاريخ الطبيعي » الاميركية ، ان القيادة الالمانية العليا أعربت في أثناء الحرب العالمية الاولى ، عن استعدادها لاصدار أمر بالامتناع عن صيد الطير والحيوان في جميع المناطق التي تحتلها جيوش القيصر ، وفي الوقت نفسهِ نشرت جريدة التيمس في لندن بياناً بحظر صيدٍ من هذا القبيل في المناطق التي عسكرت فيها الجيوش البريطانية بفرنسا

حتى لو لم تصدر أوامر من هذا القبيل لما كان ينتظر ان تصاب الحيوانات البرية اصابات كبيرة . فدافع الجيوش توجّه الى الجيوش ولا توجه الى الحيوان ، والخروج الى صيدها ما كان ليتفق مع مقتضيات القتال، ولو أتيحت فرصة الصيد لما وجد الصيادون صيداً بل لوجد معظم الحيوانات قد هجر ساحات القتال الى ما ورائها

فما كادت تنطلق المدافع حتى ارتدّ الخنزير البري والأيل الى المناطق الجبلية على جانبي نهر الرين ، وفضل الخنزير الاعتصام بمرتفعات سويسرا . ومن الغرائب ان الذئب وهو موصوف في الاساطير الالمانية بأنه يقتفي اثر « مارس » اله الحرب ، من أشدّ الحيوانات تجنباً للمدفع وخوفاً منه ، فهاجر من مناطق القتال ، بينما الأرانب البرية لبثت في مكانها وتكاثرت . ومما يروى في هذا الصدد ان هدنة عقدت في الساحة الغربية يوم عيد الميلاد سنة ١٩١٤ فاختلط جنود الجيوش المتقابلة بعضهم ببعض . وراح بعضهم يصطاد ، فكانت كلاب الصيد لا تدري أين تتجه لكثرة الارانب

ويلوح ان انشغال الجنود باصطياد بعضهم بعضاً أفضى الى تكاثر هذه الحيوانات البرية. وفي السجلات الالمانية والفرنسية ان الخنازير البرية كثرت في فرنسا والمانيا في أثناء الحرب وهذا يؤيد القول بأن الحرب الحديثة تردّ جانباً من أذى الناس عن الحيوانات البرية

ولكن ما صدق في أثناء الحرب العالمية الأولى . لم يصدق في عصور التاريخ السابقة إذ من الثابت ان الأيائل كادت تفنى في أثناء غزوة « أتيلا » . والغالب ان مرد ذلك الى ان الجيوش الغازية كانت تنتزع طعامها من

الأرض التي تعزوها فكانت الأيائل تطلب لحمها
ولكن الأيائل والخنازير البرية الأوربية لم تفر من وجه الجيوش في الحرب العالمية الثانية، خوفاً من العطب بل فراراً من الصوت. فما أصيب من هذه الحيوانات بشظايا القنابل يسير ولكن دمدمة المدافع في ساحات القتال كانت الدافع الذي دفع هذه الحيوانات الى الفرار وهي على ما يقوله العارفون بطبائعها عصبية مرهفة الاحساس

ومما هو جدير بالذكر ان البغال (وهي نغال) أقل تأثراً بدمدمة المدافع من الجياد الأصيلة. ومن هنا كانت جياد فرسان القوزاق في روسيا أشد نفاراً في القتال من جياد الألمان

ومعظم الطيور لم تبال هذه الدمدمة، فالقنابر والشحارير والعنادل وأصناف من السمان والعصافير والخطاطيف والشوارج كانت كثيرة في ساحات القتال بالميدان الغربي وكان تغريدها السموي شعاعة جمال تشق قتام الدخان الخانق المخيم على تلك البقاع

وقد سمنت الحشرات اسوة بصناع الاسلحة وتجارها في اثناء ذلك الصراع، فكانت الحشرات تحوم على جثث القتلى، بينما كانت العصافير تغتذي بالديدان التي تكشفها الحفر الناشئة عن وقوع قنابل المدافع

الكسندرسن وجهاز الاصبليزين
وصلتهما بأعمال الدفاع الاميركية

عند ما خاضت الولايات المتحدة الأميركية غمار الحرب العالمية الأولى، بدأ الالمان يقطعون أسلاك المواصلات البرقية الممتدة في المحيط الاطلسي، فالتفتت الحكومة الاميركية الى مهندس أميركي من أصل سويدي يدعى الكسندرسن Alexanderson ليستنبط طريقة تمكن الحكومة من المحافظة على صلتها بالحلفاء وبالجنود الأميركية في اوربا فحقق ما طلب منه، وأضاف اليه وسيلة اخرى مكنت الرئيس ولسن من اذاعة شروطه الأربعة عشر في المانيا، فلما حاول الألمان انشاء حاجز كهربي للحيلولة دون وصول الاذاعات الأميركية الى المانيا، اخترع الكسندرسن طريقة تبدد هذا الحاجز

وعندما شرعت الحكومة الاميركية تتسلح تسلحاً واسع النطاق في السنة الماضية استدعت الكسندرسن ثانية الى وشنطن، وكان عند ما استدعى في الثانية والستين من عمره ولكنه لبى الدعوة بغير ابطاء او تلكؤ

ولا يُعلم ما هي المخترعات التي يُعنى بها الآن. فذلك سر مكتوم «منظار التسديد» المستعمل في الطائرات الاميركية. ولكن لا يكاد يكون هناك شك ما، في ان عنايته ليست مقتصرة على المخاطبات الكهربية.

ولعل الكسندرسن أعظم من أسدى خدمة سريعة جليلة الى المخاطبات الكهربية بعد مركوني . ولكن ذهنهُ ليس منحصراً في شؤون المخاطبات بل يجول ويصول في ميدان الكهربية بوجهٍ عام . ويرجح انهُ يصنع الآن ما صنعهُ في سنة ١٩١٧ أي أنهُ يطبق مبادىء كان كشفها وحققها سنوات قبل ذلك

إن الكسندرسن لم يخترع في سنة ١٩١٧ الأجهزة الثلاثة التي مكنت الراديو من قفز المحيط ، بين ليلة وضحاها . بل كان قد صنع « المذبذب » قبل ذلك باثنتي عشرة سنة . والمذبذب هو مولد كهربي يولد تياراً عظيم التردد او عالي الذبذبة . حتى « المضخم المغناطيسي » وهو الجزء الأصيل في أجهزة التلفون اللاسلكي البعيد المدى ، كان قد صنعهُ قبل سنة ١٩١٢ وفي سنة ١٩١٦ كشف أسلوباً يمكنهُ من تضخيم التيار الذي يلتقطه سلك هوائي ، بتثبيتهِ في الارض في فترات رتيبة . وكان يعلم ما ينتظر من جميع هذه المخترعات . ولكن تطبيقها لم يُتَح له الاَّ بعدما نشبت الحرب وخاضتها الولايات المتحدة واقتضت الحاجة الحربية تطبيقها

والحالة الآن تشبه من بعض الوجوه ما كانت عليهِ سنة ١٩١٧ . وعند ما دعي الكسندرسن للذهاب الى وشنطن لبَّى الدعوة في الحال وذهب الى العاصمة وفي حقيبتهِ جهاز جديد ، سابق لزمانهِ كما كانت أجهزتهُ التي اخترعها سنة ١٩١٢ سابقة لزمانها

لانهُ لم يطبقها الاَّ بعد انقضاء سنوات خمس

وهذا الجهاز يُدعى Amplidyne « امپليدين » وهو جهاز يضبط من تلقاء نفسهِ السرعة والقوة في استعمال الطاقة ، ضبطاً لا تفوقهُ في دقتهِ أدق الساعات . ومن وجوه الفائدة في استعماله ، ضبط اطلاق النار من المدافع المضادة للطائرات . ذلك بان سرعة الطائرات الحديثة ، تقتضي ضبط المدافع ومواعيد اطلاقها ضبطاً دقيقاً بالغاً منتهى الدقة وإلاَّ فان قنابلها تذهب هباءً على الغالب في الفضاء الأوسع . وليس من الاسرار التي لا تباح ان « الامپليدين » يتيح هذا . وقد اخترعه الكسندرسن قبل سنتين ، ليضبط به السرعة والقوة ، في محركات كهربية ضخمة في احد مصانع الصُّلب . وفي الوسع استعماله لتعجيل الانتاج في صناعات اخرى . وهو يستعمل فعلاً في بعضها . ومن الواضح انهُ يصلح لضبط الدبَّابات والطائرات والطرابيد وقاذفات اللهب

وطبع الكسندرسن لا يميل به الى المباهاة والتبجح ، ومع ذلك فهو يقول في وصف هذا « الجهاز » انهُ يصلح لضبط « كل شيء تقريباً » تحركه القوة المحرِّكة

كانت الحرب الماضية فرصة لاتقان الراديو . وينتظر ان تتيح هذه الحرب فرصة لاتقان « الامپليدين » والتلفزة . ولا الكسندرسن يدٌ على « التلفزة » لا تجحد . فمن نحو احدى عشرة سنة تلفز في أميركا

حفلة موسيقية من مسرح مشهور ، فكان الجلاّس أمام التلفاز اللاّقط في شركة « جنرال الكتريك » يشاهدون صورة رئيس (الجوق) بالتلفاز ويسمعون ألحان جوقهِ بالراديو

لالكسندرسن مائتان واثنان وثمانون مخترعاً مسجلة باسمهِ ومعظمها أساليب متنوعة لتضخيم الطاقة الكهربية والسيطرة عليها . وقد يستعمل بعضها في توفير الطاقة اللازمة لبرنامج الدفاع الاميركي . ومنها أساليب لتحريك المحركات بسرعات مختلفة وقد طبقت في بناء البارجة الاميركية نيومكسيكو وحاملة الطائرات الاميركية « لكسنغتن » وغيرهما من سفن الاسطول الاميركي .

ومن المرجح الذي في حكم اليقين ان السفن الحربية الاميركية الجديدة والدبابات ستنطوي على تطبيق هذه المبادىء وغيرها

حاجة النبات الى معادن

عند ما يبدو طفلٌ ما هزيلاً شاحب اللون ، يقال فيهِ إنهُ في حاجة الى مقوٍّ يحتوي على أحد مركبات الحديد . وعند ما تبدو أوراق نبات ما شاحبة اللون فالغالب أنها تحتاج الى العنصر نفسه . واذا كان المصابون من الناس بعلة ما يستطيعون أن يدلّوا الطبيب على موضع الألم ، فالنبات العليل عاجز عن الكلام ولكنهُ يعرب عن علتهِ في ما يبدو على ورقهِ وجذوعهِ وزهره وثمره من آثار العلة . وقد ظهر كتاب حديث عنوانهُ « دلائل الجوع في النبات » كتبهُ أربعة عشر عالماً من المتوفرين على موضوعات النبات والزراعة ، وقد وصفوا في فصوله الانواع الرئيسية لسوء التغذية في النبات وكيف تعالج

فالحاجة الى النتروجين تظهر في اصفرار الورق في انواع شتى من النبات ، كالذرة . وتظهر في صبغة خضراء مصفارّة عكرة في أوراق القطن

وأهم أنواع البحث في العناصر التي يحتاج اليها النبات، يتناول العناصر التي يحتاج النبات الى مقادير يسيرة جدًّا منها . فقد كان الرأي قبل سنوات أن النبات يحتاج الى سبعة عناصر معدنية لا غير وهي النتروجين والبوتاسيوم والفصفور والكبريت والمجنيزيوم والكلسيوم والحديد . وكانت الحاجة الى مقادير وافرة من العناصر الستة الأولى . ولكن البحث الحديث أثبت أن النبات يحتاج الى معادن أخرى هي المنجنيس والبورون والكلورين واليود والزنك والنحاس . ولكن الحاجة تقتصر على مقادير يسيرة جدًّا من هذه العناصر . ولا يزال هذا النوع من البحث في مستهله — مع انقضاء سنوات عليهِ — والنتائج التي يتوصل اليها الباحثون تترى

زائدة دودية مزدوجة

أجريت عملية لمصاب بالتهاب الزائدة الدودية في إحدى مدن فلوريدا فتبين الجرّاح عند شق البطن ان أمامه زائدتين ملتهبتين فاستأصلهما وشفي المصاب . وبعث الجرّاح بالزائدتين الى الدكتور هرس أستاذ الباثولوجيا في جامعة تولان حيث بعد فحصهما بأنهما زائدتان حقيقيتان

وقد وضع الجرّاح رسالة وصف فيها هذه الحالة الشاذّة وعرضها على الجمعية الطبية الاميركية

توقيت افراز الدرقية

الغدة الدرقية تولد افرازاً هرمونيًّا له تأثير عجيب في الصحة والمرض . وقد اشترك ثلاثة اطباء اميركيين في فحص عمل هذه الغدة في توليد الافراز فوجدوا ان هذا العمل يستغرق ساعتين

وقد استعانوا في تجربتهم هذه بذرات عنصر اليود ، بعد تحويلها ذرّات مشعة في الجهاز الرحويّ (السيكلوترون) ثم دسّوها في طعام الحيوانات التي اجريت التجربة عليهم ثم تتبعوا سير هذه الذرّات في جسم الحيوانات بأجهزة خاصة تتأثر بالامواج المنطلقة من الذرّات المشعة

فوجدوا ان هذه الذرّات لا تستغرق أكثر من بضع دقائق في وصولها من المعدة الى الغدة الدرقية وانها تظهر في افراز الغدة بعد انقضاء ساعتين على وصولها اليها من المعدة . اي ان فعل توليد الافراز في الغدة استغرق ساعتين

والغدة الدرقية تفرز افرازين احدهما يدعى دايودوتيروسين diiodotyrosine ولا يعرف فعله على وجه التحقيق الآن ، والثيروكسين ويظن انهُ الافراز الهرموني الأصيل . فاذا قلّ افراز الثيروكسين في الصبا افضى الى ضعف النموّ الجسمي والعقلي . واذا زاد على المعدّل السوي ، افضى الى التضخم (العملقة)

تأثير السلفانيلاميد في النبات

أجرى الدكتور تروب Traub الاميركي تجارب أثبت بها ان محاليل خفيفة من عقار السلفانيلاميد او احد مشتقاته تؤثر تأثير الأتوار (الهرمونات) في النبات اي تضبط نموّه ولكن اذا كانت المحاليل قوية توقف فعل انشطار الخلايا في النبات او اصبح بطيئاً وقد يفضي الى زيادة عدد الصبغيات (الكروموسومات)

وهذه الزيادة قد تحدث تحولات خلقية وهي أساس التطوّر العضوي

كوكب البحر ونسله

«كوكب البحر» سمك تبيض أنثاه في السنة أكثر من مائتي مليون بيضة . ولو تفقست جميعها وعاشت لطمت علينا ، ولكن سمكاً قليلاً متولداً من هذا البيض يبلغ أشده ذلك بأن المخاطر التي يتعرض لها البيض وصغار هذا السمك متعددة . وأعظم هذه المخاطر ان أصنافاً أخرى من السمك تلتهم البيض والصغار . ومع وفرة ما تبيضه أنثى كوكب البحر فانها لا تبلغ مبلغ حيوان بحري آخر في وفرة النسل ، وهو المحار oystre (المحار او الاسترديه)

فكوكب البحر يتغذى بالمحار ولكنه لا يقتصر عليه . غير أن تكاثر المحار يفوق التصور . وقد قدّر نسل محارة واحدة برقم ٦٦ يليها الى اليمين اثنان وثلاثون صفراً ، ولولا كوكب البحر لطما المحار على البحر

الصدأ يرفع بناية كبيرة

أنشأت شركة جنرال الكتريك الاميركية أحد مبانيها على طبقة معدنية تحتوي على مركبات الحديد المعروفة باسم بيريت . فلما كشفت هذه الطبقة للهواء بدأت تصدأ أي بدأ الحديد يتحد بالاكسجين . وقد بلغ من سرعة الصدأ ان الطبقة الأرضية في هذه البناية ارتفعت عن مستواها السابق خمس عشرة بوصة في خمس عشرة سنة أي بوصة في السنة على المعدّل

وهذا يعني أن حجم مقدار من الصدأ أكبر من حجم مقدار مثله من البيريت وأن نمو « الصدأ » على جانب من القوة يكفي لرفع بناية

خراطين استراليا

قد يبلغ طول بعض الخراطين في استراليا اثني عشر قدماً . وهناك طائر يقتات بهذه الخراطين كما يقتات بالحيات ويعرف باسم القاوند الضاحك . والقاوند أحد الاسماء التي يعرف بها طير يسمى بالانكليزية Jackass والقاوند الضاحك صنف خاص بزيلندا الجديدة وأستراليا

والخراطين الاسترالية لا تختلف عن الخراطين المألوفة إلاَّ في طولها . وقد جاء في معجم الحيوان (أمين المعلوف) ان الخراطين فارسية معربة وهي تقابل earthworms وأورد المعلوف أسماء اخرى تقابل هذا اللفظ منها دودة الارض وشحمة الارض و«حبليل» عن لغة العرب لصاحبها الأب أنستاس الكرملي



الصناعات الكيميائية في مصر

تأليف حسن عبد السلام — صفحاته ١٧٦ قطع المقتطف — مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

ليس في وسع دولة ما أن تتبوأ المنزلة التي ترنو اليها في هذا العصر اذا بقيت عالةً على غيرها في العلم والصناعة . نعم ان العلم دوليٌّ واساسهُ التبادل بين طوائف العلماء . والاساليب الصناعية الاساسية معروفة مطبَّقة في شتى البلدان . ولكن لكلّ بلدٍ مشكلاته الخاصة ومزاياهُ التي ينفرّد بها من موارد مطمورة في باطن الارض وخواصّ تتصف بها التربة ، واحوال الجوّ والماء في انهارهِ وعلى سواحلهِ . واذا كان العلم في دولة ناشئة من الوجهة العلمية والصناعية ، لا يبلغ بوجهٍ ما منزلته في الدول التي تعاني مسائلهُ العويصة من سنين ، فالتدريب العلمي . والتطبيق العمليّ على الصناعة والزراعة ، يجب ان يكونا غاية تحثُّ اليها المطايا . ويلوح لنا أن مصر سائرة في خطوات ثابتة الى هذه الغاية

فالتجارب العلمية الدقيقة ، يجريها رجال الاقسام الفنية في وزارة الزراعة في ما يتعلّق بالقطن خاصة وغيره من المحصولات المصرية ، ويتولاها رجال البحث العلميّ المتوفرين على بحث الامراض المتوطنة وعلاجها والوقاية منها ومكافحتها . اما الصناعة في مصر ولاسيما الصناعة الكيميائية فلا تزال في مرحلتها الاولى . ومؤلف هذا الكتاب النفيس يقول « وراعيت في وصف حالة الصناعة المصرية الامانة والدقة التامتين . فلم اجتهد ان أشيد بذكرها او أبالغ في درجة تقدمها لان الحقيقة ان الصناعة المصرية لا تزال على حالة من التأخر ، والواجب علينا مجابهة الحالة الموجودة الآن بالصدق والصراحة حتى ندرك اخطاءنا ونصل الى الاصلاح الذي ننشدهُ »

ومع هذا الاعتراف ، يسرُّ المطلع على هذا الكتاب ان يجد فيه فصولاً في تسع صناعات كيميائية مصرية ، في مراتب شتى من التقدم وهي على الترتيب : ١ — صناعة تكرير البترول . ٢ — صناعة الصابون . ٣ — دباغة الجلود . ٤ — صناعة التبريد . ٥ — صناعة الورق . ٦ — صناعة الثقاب . ٧ — صناعة الزجاج . ٨ — صناعة الكحول . ٩ — صناعة المشروبات الروحية

وهذه الصناعات مدارس للتدريب العلمي العملي ، علاوة على كونها وسائل لمرافقة

للارتزاق وهي في الحالين ركن من أركان الاستقلال الاقتصادي . وقد أشار المؤلف الى جميع هذه المعاني في خلال حديثهِ عن المعمل الأميري لتكرير البترول في السويس وهو المعمل الذي أنشىء على سبيل التجربة سنة ١٩٢٢ قال :— والحقيقة ان اقامة هذا المعمل كان كسباً عظيماً لمصر . فقد كنا نعتمد قبل انشائه على الشركات الاجنبية ، في الحصول على منتجات لها أهميتها في زمن الحرب والسلم وفي ذلك ما يمسُّ استقلالنا السياسيّ والاقتصادي . أضف الى ذلك ان انشاء هذا المعمل أفسح مجال كسب العيش لعدد لا يستهان به من الموظفين والعمال المصريين وأصبح في الوقت نفسه مصدراً قيماً لتعليمهم وتدريبهم على الاعمال الفنية »

ووصفهُ الصناعات الكيميائية في مصر لايقتصر على ايراد ما تمَّ من الانشاء والانتاج فيها ، بل يتخللهُ بسط علميّ للحقائق والأساليب العلمية التي من وراء التطبيق الصناعي . والمؤلف متأهب للكتابة في الناحيتين بفضل تخرجه العلمي في احدى جامعات انكلترا حيث حاز درجة الشرف من الطبقة الأولى في الكيمياء وتوليهِ منصبِ مفتش الكيمياء بوزارة المعارف ثم بفضل زيارتهِ مع طلاّب المدارس المصرية هذه المنشآت الحيوية

وقد عرض المؤلف في فصله الأخير لموضوع الخامات الصناعية فقال:— «أما القول بأن بلادنا خالية من الخامات الضرورية لقيام المصانع بها فقول مبالغ فيه . وسترى بعد مطالعتك فصول هذا الكتاب،أن مصر تتوافر فيها المواد الأولية اللازمة لكثير من الصناعات.كما أن الخامات المعدومة في مصر يمكن استيرادها من الخارج دون أن يكون ذلك عقبة في انتشار الصناعات التي تعتمد عليها . ويضيق المقام على المؤلف اذا اراد أن يحصي الممالك التي قامت فيها صناعات كبيرة بدون أن يتوافر لديها جميع الخامات الضرورية لها . ولكن أقرب مثل لذلك انكلترا فهي لا تزرع القطن وانما تستورده من بلاد نائية عنها وهي مع ذلك أعظم بلاد العالم قاطبة في صناعة المنسوجات القطنية »

وخلاصة القول في رأي المؤلف أن للصناعة في مصر أركاناً لا يجب اهمالها ، ومنها خامات متعددة وايدٍ عاملة تحذق الأعمال الصناعية في مصر بعد تدريب يسير . ولذلك فالصناعة في مصر في حاجة الى الرعاية ومن وسائل هذه الرعاية انشاء بنك للتسليف الصناعي ، والتوسع في إنشاء المدارس الصناعية والمصانع النموذجية . وعنده كذلك «أن إقرار الوسائل الكفيلة بحماية الصناعة الناشئة حتى تقوى على الوقوف في وجه المنافسة الاجنبية لا غنى عنهُ» . ولكن هذه الناحية من الموضوع ، على مايلوح لنا ، لا بدَّ أن ترتبط بالنظام الاقتصادي الذي ينشأ بعد الحرب . ومع ذلك « ففترة الحرب القائمة فرصة حسنة لانشاء بعض الصناعات الجديدة واستكمال مراتب التحسين والنمو للصناعات التي انشئت من قبل، فليس كالحاجة تفتق الحيلة وامتناع المنافسة الخارجية كفيل بأن يتيح للصناعة المصرية فرصة الازدهار والتشجيع »

قصص محمود كامل

باللغتين الفرنسية والانكليزية

I — Zahira et autres nouvelles Egyptiennes

2 — Blue Wings

ظهر في خلال الشهرين الماضيين كتابان أحدهما باللغة الفرنسية والثاني باللغة الانكليزية وهما يحتويان على ترجمة طائفة من قصص الاستاذ محمود كامل وأقاصيصه . وهذا حدث يذكر في أدب القصة المصرية . أما المجموعة الفرنسية فتشتمل على «زهيرة» و«عينان معصوبتان» و « صوت زينب » وغيرها من آثار المؤلف العربية ، والمجموعة الانكليزية تحتوي على « الأجنحة الزرق » و « الحب الخامد » و « عينان معصوبتان » و « امرأة ... »

وقد تولى ترجمة المجموعة الانكليزية المستر برانكبري المدرس في جامعة فؤاد الاول وقدم لها بمقدمة موجزة بيَّن فيها « ان الحياة الاجتماعية في مصر لم تسترع حتى الآن عناية الجمهور البريطاني استرعاء كبيراً فهذا الجمهور أعرف بالفراعنة منهُ بالخديويين . والدوائر التي تتداول اسمي أوزيرس وحاتشبسوت تجهل اسمي مصطفى كامل وهدى هانم شعراوي » . وقد ردَّ المترجم هذا الى أسباب منها « ان حياة المصريين في العصر الحديث ليس فيها كثير مما يذكي الخيال » ولأن بعض الروايات الانكليزية التي وضعت فيها عن الحياة المصرية انما كتبها أجانب عن مصر لم يختلطوا بصميم هذه الحياة او كتبها كتَّاب اتخذوا من البيئة المصرية مسرحاً لصور أوربية

ونقل كتابات المصريين المعاصرين الى اللغة الانكليزية عمل شاق لأن الناشرين يترددون كثيراً قبل الاقدام على النشر ، وعذرهم في ذلك قلة من يستطيع ان يفهم تفاصيل الحياة المصرية ويقدر الروايات التي تصفها وتحللها ، ثم قلة قرَّاء الروايات الانكليزية في مصر نفسها . قال المترجم : وفي تقديمي ترجمة «الاجنحة الزرق» الى القارىء البريطاني أرجو ألاَّ تحول العقبات السابقة دون ذيوعه . فهو لا يحتوي على مسائل معقدة يجفل منها من لا يقيم في مصر . والكتاب في اتجاههِ العام مجارٍ لروح العصر ، ومداره يسترعي اهتمام الناس في كل عصر ومصر ، والتقاليد الاسلامية فيهِ يتناولها المؤلف من ناحية تأثيرها في أدب المصري الحديث وخلقهِ ونظرتهِ الى الحياة

اما الترجمة الفرنسية فقد وقف عليها المسيو لويس اوفيد الاستاذ بكلية التجارة في جامعة فؤاد الأول والاستاذ احمد فاضل الدكتور في الآداب من جامعة السوربون

وإذا كان الناشرون في انكلترا وأميركا يترددون في نشر ترجمات مثل هاتين المجموعتين للقصاصين المصريين للاسباب التي أوردها الاستاذ براكنبري فالرجاء أن يكون ظهور هاتين المجموعتين باعثاً على تذليل بعض هذه العقبات باقناع الناشرين بأن مدار هذه الروايات والقصص يسترعي اهتمام الناس في كل عصر ومصر » وهذا الذي قصدنا اليه عندما قلنا في مستهل هذه الكلمة « وهذا حدث يذكر في أدب القصة المصرية » . والمجموعتان مطبوعتان في مصر طبعاً متقناً

الدانيمركة

للدكتور أمير بقطر — اصدره قسم التربية بالجامعة الاميركية — صفحاته ١٣٧

كانت مملكة الدنمارك ، قبل ان غمرها سيل هذه الحرب ، من أهنىء الممالك عيشاً وأوفرها نصيباً من الارتقاء في نظم الاقتصاد والاجتماع والتربية . ولكن المانيا طغت عليها ، وهي آمنة لا جيش لها ولا أسطول ، واحتلت أرضها وسلبتها مقادير كبيرة من طعامها وماشيتها ، وساقت ألوفاً من عمالها الى المانيا للعمل في الارض او في مصانع الحرب ، فهي تعاني الاستبداد والقلة في آنٍ واحدٍ . والمقابلة بين حالها الآن ، وحالها قبل الحرب ، فيها عبرة للمعتبرين

وهذا الكتاب الشائق النفيس ، يحتوي على نواحٍ من حياة مملكة الدنمارك قبل الحرب وقد وضعه الدكتور بقطر على أثر زيارته لتلك البلاد واطلاعهِ على منشآت التربية والاجتماع فيها ، وقد خصَّ هذه المنشآت بالبحث على الاكثر

ويصح أن يقال ان « التعاون » في أدق معانيه وأشملها ، هو شعار الحياة الاقتصادية والاجتماعية في تلك البلاد ، ويليه او يسير معهُ جنباً الى جنب ، مبدأ الجمع بين العلم والعمل ، في المدارس والحقول . وعلاوة على ذلك ان طائفة كبيرة من مدارس الدانمرك الشعبية ليست معاهد لتلقين العلم وحسب ، بل هي منشآت وطنية ، تلتفُّ من حولها حياة الجماعة التي قامت المدرسة في منطقتها . فالمشكلات التي تعانيها الجماعة تذهب بها الى المدرسة ، حيث يهتم المدرّسون والمختصون ببحثها لعلهم يجدون الحلَّ الملائم لها

وبين موارد العيش في الدنمارك وموارده في مصر شبه كبير فجدير أن يكون هذا الكتاب وما يحتوي عليهِ من عِبَرٍ في منزلة دستور للمصلحين المصريين الذين يعنون بشؤون الفلاح وترقيته

والدكتور بقطر كاتب مترسل واسع العلم دقيق النظر الاجتماعي فكتاباته تجمع بين المتعة الفكرية والدراسة الاجتماعية ، وهذا الكتاب على صغر حجمه ، من أعظمها نفعاً

القاموس الحديث

فرنسي — عربي — ٦٦٤ صفحة من القطع الصغير — المطبعة العصرية بمصر — ثمنه اربعون قرشاً

منذ أشهر أخرج الاستاذ متري الياس للطلبة معجماً فرنسيًّا عربيًّا أسماه « القاموس المدرسي » كان من خيرة المعاجم التي وضعت لهذه الغاية ، وقد أبى نشاطه الاَّ أن يتبع هذا القاموس بآخر أوفى وأعم وهو الذي نكتب عنه

بذل المؤلف في هذا المعجم جهداً شاقًّا وعناية فائقة وحرصاً على الغاية التي وضعها نصب عينيه وهي خدمة امتهِ بتسهيل اللغة الفرنسية للراغبين في تعلمها . وهذا يظهر واضحاً جليًّا لكل مطلع على المعجم ، فوضع علامات وحركات تيسّر للمتكلم النطق كما أتبع بعض الكلمات بنطقها الصحيح بحروف عربية مطبقة عليها العلامات التي وضعها ولم يقصر في ابداء النصح وتوجيه النظر الى نقط الضعف عند من ليس له احتكاك بالفرنسيين مع تدريبه على اللفظ بمفرده بطريقة اختصار المقاطع . وحلّى صفحاته بالصور لتفسير ما يحتاج الى كثير من الكلام لشرحهِ بالعربية . كما اضاف اليها نماذج وامثالاً وجملاً اصطلاحية تختلف في معناها عن حرفيتها وهي مما يكثر استعماله بين الفرنسيين ويفوت معناها الكثيرين

ولم يلهه كون القاموس فرنسيًّا عن ان يدقق في وضع الكلمات العربية على صحتها في اللغة الفصحى لتتعود الألسن صحة نطقها فأسدى الى لغته خدمة جليلة كما صاغ كلمات عربية في بعض الاحوال

وقد أدرج اسماء كثير من البلاد الشهيرة والمآكل والمشروبات الفرنسية مع شرحها جهد الاستطاعة لأنها من أكبر اسباب الحيرة لمن لم يتعود السفر ، وأدرج فيهِ لغة العامة في فرنسا لان بعضها شائع ومستعمل . وذكر كثيراً من المعلومات المهمة كطريقة حساب الوقت على ٢٤ ساعة وما يجب أن يتحاشى من الأغلاط الشائعة

ولقد ذلّل صعوبة تصريف الافعال للمبتدىء باستنباط سهل يتجلى في الصفحات التي ألحقها بمعجمه ومن هنا يبدو الفرق بين هذا المعجم وغيره من المعاجم التي لا تضع الفعل الا في صيغة المصدر فيحار المبتدىء في كتابة تصاريف الفعل لصعوبته ولكثرة الشاذ منها . لهذا ابتكر المؤلف طريقة الارقام للرجوع الى الفعل في أهم تصاريفه وخصص قسماً للاجرومية في آخر المعجم

هذا الى دقة الطبع ونقائه ، وهو ما عرف في كل ما تخرجه المطبعة العصرية من مؤلفات أعجب بها أدباء العربية في جميع الاقطار ، وهذه المطبعة من الدور التي أسدت أيادي بيضاً الى لغة الضاد

كتاب الدرر النفيسة — المجلد الاول

هو كتاب يشتمل على تاريخ الكنيسة في القرون الاربعة الاولى للنصرانية . مؤلفه غبطة البطريرك الانطاكي للسريان القدماء . ومقرّه مدينة حمص سورية

استند في هذا التأليف الى سبعة وستين مصدراً أورد ذكرها في أول الكتاب ص ٦ — ٢٥ ثم قال ان معرفة التاريخ الكنسي يوجب الالمام بالوضع العالمي اثناء تأسيس الكنيسة ص ٢٦ وذكر الفلسفة المنتشرة حينذاك في الشرق والغرب وأورد بعدها خلاصة اخبار الرسل الاطهار وتلاميذهم

ومما اثبته من الحقائق في هذه الفترة اولاً ان اللغة التي تكلم بها الرب يسوع في حياته الارضية هي السريانية التي كانت لغة القوم بفلسطين. ثانياً ان بطرس هو مؤسس كنيسة انطاكية وثالثاً ان الكنائس الرسولية في القرون الاولى هي كنيسة اورشليم ام الكنائس . فكنيسة انطاكية . فكنيسة الاسكندرية . فكنيسة رومية . وكان بعض اساقفتها يدعون بلقب بابا

وذكر بعد ذلك الاضطهادات العشرة التي سبقت تنصر الامبراطورية الرومانية في عهد قسطنطين . وأفاض في بيان سيرة الشهداء وأخبارهم

وذكر علماء النصرانية وكبار لاهوتييها ومن أشهرهم يوسطينس النابلسي واوريجانوس واثناسيوس وفم الذهب وغريغوريوس النزيانزي واوغسطينوس وامبروسيوس واضراب هؤلاء . ص ٤١٨ و ٥٨٩

وأفاض في بيان انتشار النصرانية في بلاد العرب ص ٤٨٩ وهي بصرى وحوران وعمان والصفا واللجا وجولان وعبر الاردن وبلاد النبطيين وجزيرة سينا ونجد والحيرة وبادية تدمر وديار ربيعة واليمن وتهامة ونجد واليمامة والتنوخيون والغساسنة وكندة ولخم وسليم وبنو تميم وغير هؤلاء . وذكر ان الرتب الكنسية في القرون الاولى ثلاث الاسقف والقسيس والشماس وان كلمة بطريرك نشأت في القرن الخامس ص ٨٩٨ وبين نشوء الصيام والصدقة في النصرانية ص ٤٠٤ — ٤٠٧ وعرّج على ذكر المجامع المسكونية التي نشأ منها اثنان في القرون الاربعة وهما مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ومجمع القسطنطينية سنة ٣٨١

وأفاض في ذكر البدع في النصرانية وأهمها بدعة اريوس والدور الذي مثلته في القرنين الرابع والخامس واليك مثلاً من كتابته. قال في وصف القديس ثاوفيلوس الانطاكي في صفحة ٢١٤ ما بعضه : —

كان القديس ثاوفيلوس من صدور العلماء ، المحققين في علم العقائد ، ضليعاً من التاريخ . وهو دون مار يوسطينس واثناغورس في التبحر الفلسفي . لكنهُ أعلى كعباً منهما في صناعة

الأدب . انشاؤه محكم السبك ، ناصع البيان ، عليهِ رونق الفصاحة . . . .

وقال في مدرسة الأسكندرية صفحة ٢٢٧ : —

هي دار العلوم القدسية . كان يتولّى امرها رجال عرفوا بقوة العارضة وتميزوا بالاجتهاد في الصلاح والحث على التقوى . . . أطولهم باعاً بنطينس النابغة في ادب الحكمة . . . وكان فيها اساتذة مسيحيون تصدّوا لشرح العقائد الكنسية لطالبين ، وتفوقت على مدرسة القديس يسطينس في رومية

يقع الكتاب في أكثر من سمائة صفحة حسنة الطبع والتجليد . وهو كتاب بادي النزاهة ، غزير الفادة قصير العبارة قوي الحجة صادق المبدأ عربي الصبغة عالي المطلب . لا أعرف له نظيراً في تواريخ الكنيسة . وصدوره من قلم بطريرك طويل الباع مالك زمام اللغات العربية والسريانية والفرنسية والتركية وغيرها من اللغات يعطيه منزلة عالية بين مؤلفات هذا العصر

ومما يجب ان اذكره ان الكنيسة المسيحية الى ختام القرن الرابع سنة ٤٠٠ لم تكن قد انقسمت الى شرقية وغربية كما هي اليوم . وكانت وحدة جامعة رسولية . اما البدع والانشقاقات التي نبتت فيها فلم تنشىء مذاهب بل زالت في وقتها كالغنوسية والاريوسية والمونتانية

فلم يكن في طريق المؤلف اشواك مذهبية . بل سار في تاريخه حرّاً من العنعنات والتحيز وسيلي هذا الكتاب الاول كتبٌ في بسط احوال الكنيسة في عصورها . وسيكون هذا المؤلف من أثمن التحف الدينية في القرن العاشر فيخلد ذلك البطريرك اغناطيوس افرام الاول رحموم بطريرك انطاكية وسائر المشرق على السريان وسيكون كنزاً لمن أراد الاغتراف من تاريخ الكنيسة المسيحية

حماه — حنا خباز

الغدد الصم وتكييفها للشخصية

هذا الموضوع من الموضوعات الدقيقة التي أميط اللثام في خلال السنوات الأخيرة عن أسرارها ومازال الابحاث قائمة تأتي كل يوم بجديد في وظائف هذه الغدد . وهذه المحاضرة التي القاها الدكتور محمد سعيد عبد العال الاخصائي في الامراض الباطنية والاعصاب العصبية الوظيفية وأستاذ علم النفس بكليتي أصول الدين واللغة العربية بالجامعة الأزهرية هي مقدمة لفهم الانفعالات والعواطف والطبائع والأمزجة الشخصية بيّن فيها كل نوع من هذه الغدد وقصد أن يأتي فيها بكل ما هو صحيح علميًّا وواجب نشره بين الطبقات المثقفة والأوساط العلمية لكي يحيا الانسان حياة كاملة صحيحة قائمة على فهم صحيح ومعرفة سليمة علاوة على ما فيها من متعة ولذة فهم للطبيعة البشرية وهو ما تحاول جميع العلوم الانسانية أن تحققهُ أو تدنو منه على الأقل

فهرس الجزء الخامس

من المجلد التاسع والتسعين



كهربة القطر المصري
لحسين بك سري

المقتطف

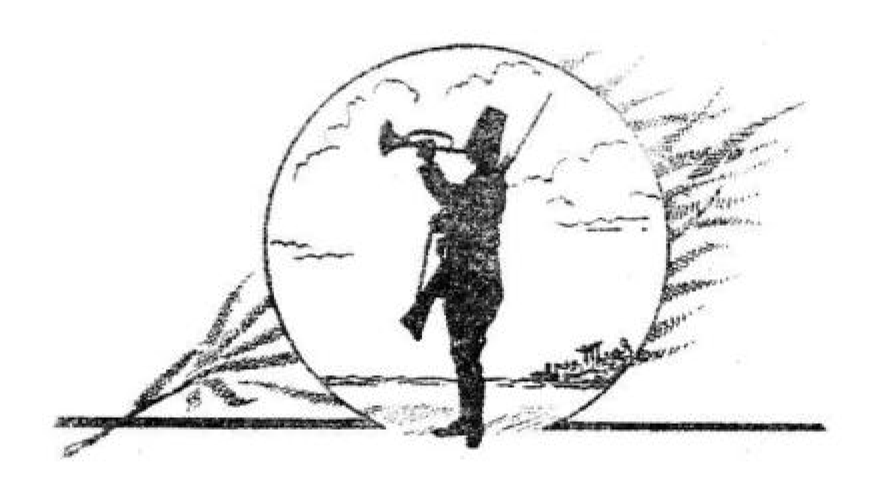
العلم والصوفية
للدكتور مشرفة وكيل كلية العلوم

الكولونل لورنس
والثورة العربية
للدكتور عبد الرحمن شهبندر

ذكاء الحيوان
للدكتور محمد ولي من اساتذة كلية العلوم

اجنحة المستقبل
لمستنبط الاتوجيرو ده لاشيرفا



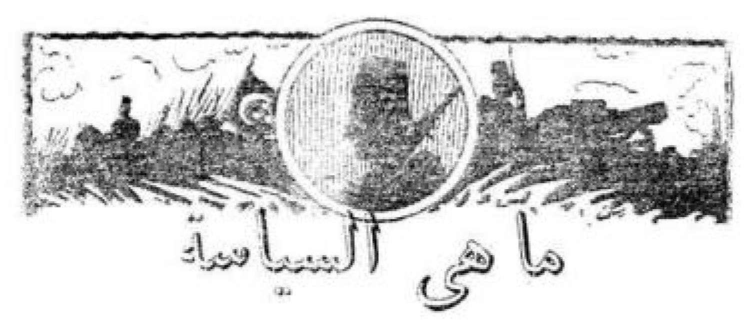


ما هي السياسة

الواجب اتباعها للنهوض بقوات الدفاع المصرية وزيادتها
مراعين مساحة مصر وعدد سكانها وثروتها وموقعها الجغرافي

للصاغ عبد الرحمن زكي
مدير الشؤون العامة بوزارة الدفاع وامين المتحف الحربي

الجيش السليم في الأمة السليمة



ما هي السياسة

الواجب انتهاجها للنهوض بقوات الدفاع المصرية وزيادتها
مراعين مساحة مصر وعدد سكانها وثروتها وموقعها الجغرافي

لاصاغ عبد الرحمن زكي
مدير الشؤون العامة بوزارة الدفاع وامين المتحف الحربي

١ — الارض التي ندافع عنها

تتألف الدولة المصرية من الوحدات الجغرافية السبع الآتية :—
١ — وادي النيل والدلتا ٢ — الفيوم ٣ — قناة السويس ٤ — الصحراء الغربية
٥ — الصحراء الشرقية ٦ — شبه جزيرة سيناء ٧ — جزائر البحر الاحمر
ومساحتها في مجموعها ٢٤٢٧٦٠٠٠٠ فدان فتبلغ ١/٣٠ من مساحة افريقيا
تبلغ مساحة مصر حوالي ١٫٠٢٠٫٠٠٠ كيلو متر مربع منها ١/٣٠ صالح للزراعة (أي ٧٫٣٠٠٫٠٠٠ فدان) والباقي أراض صحراوية قاحلة يسكنها قليل من الاعراب الرحل
تبلغ مساحة وادي النيل والدلتا ٣٢٫٠٠٠ كيلو متر مربع
تبلغ مساحة الصحراء الغربية ٧١٠٫٠٠٠ كيلو متر مربع بالفيوم
تبلغ مساحة الصحراء الشرقية ٢٢٢٫٠٠٠ كيلو متر مربع
تبلغ مساحة شبه جزيرة سيناء ٥٦٫٠٠٠ كيلو متر مربع
وتمتد مصر من الشمال الى حدها الجنوبي نحو ١٠٧٣ كيلو متراً ومن الغرب الى الشرق نحو ١٢٢٦ كيلو متراً فهي تشغل رقعة من الارض تفوق مساحة اي دولة أوربية اذا استثنينا روسيا . ويبلغ طول الشاطىء المصري ٢٤٠٠ كيلو متر تقريباً (١٣٠٠ ميل بحري)
﴿ وادي النيل والدلتا ﴾ تبلغ المساحة التي تزرع أو يمكن زرعها في القطر المصري

٧٫٣٠٠٫٠٠٠ فدان منها في الوجه البحري ٤٫٩٠٠٫٠٠٠ والباقي وقدره ٢٫٤٠٠٫٠٠٠ فدان (اي نصف الوجه البحري) هو أراضي الوجه القبلي الصيفية والحوضية[1] . ولقد استقرَّ الرأي على ترك مساحة قدرها ٢٠٫٠٠٠ فدان من بحيرات المنزلة وادكو لمصايد الأسماك وبذلك تصبح المساحة التي تصلح للزراعة فعلاً ٧٫١٠٠٫٠٠٠ في الوجهين. والمساحة المزروعة حاليًّا (احصاء ١٩٣٧) مقسمة كالآتي ٣٫٣٠٠٫٠٠٠ في الوجه البحري و ٢٫٢٠٠٫٠٠٠ في الوجه القبلي منها ١٫٠٠٠٫٠٠٠ يشملها الري الصيفي و ١٫٢٠٠٠٠٠ مليون يشملها الري الحوضي. من ذلك نرى انهُ من الواجب التفكير جديًّا في إضافة ١٫٤٠٠٫٠٠٠ فدان من الوجه البحري من الأراضي البور الى الأراضي المنزرعة. وتحويل ١٫٢٠٠٫٠٠٠ فدان في الوجه القبلي من الري الحوضي الى الري المستديم وتحويل ٢٠٠٫٠٠٠ فدان في الوجه القبلي تروى في مدة الفيضان فقط الى الري المستديم وتحويل مساحة قدرها ٤٥٠٫٠٠٠ فدان في الوجه القبلي من ري الحياض الى الري المستديم — كل هذا لكي نجد الارض الصالحة الوافية لسكن المصريين الذين يزداد عددهم ازدياداً كبيراً

﴿ مديرية الفيوم ﴾ تقع مديرية الفيوم الخصبة في منخفض من صحراء لوبيا على بعد ٩٠ كيلو متراً جنوب غربي القاهرة وهي وان كانت خارجة عن حوض وادي النيل ولكنها تروى من مياه النهر بواسطة ترعة بحر يوسف وتبلغ مساحة الفيوم ٤١٣٠٠٠ فدان وعدد سكانها ٦٠١٩٠١

﴿ قناة السويس ﴾ تشق قناة السويس منطقة من ارض مصر الشرقية بين مدينة السويس ومدينة بورسعيد وتصل البحرين المتوسط والأحمر او بالحري المحيطين الاطلسي والهندي. ويحدها من الشرق سهل الطينة وسيناء ومن الغرب بحيرة المنزلة ومديرية الشرقية والصحراء الغربية وتخترق في سيرها البحيرة المرة وبحيرة التمساح وبحيرة البلاح. ثم تسير في محاذاة بحيرة المنزلة الى بورسعيد وطول هذه القناة ١٧١ كيلو متراً اي ١٠٦ أميال وقد أعدت منطقة عند مدخلها مساحتها ١٫٢٠٠ كيلومتر وعمقها ١٣ متراً للسفن الكبيرة وانشئت على القنال ثلاثة «كبار» متحركة تصل شاطئيها أحدها بالآخر

﴿ الصحراء الغربية ﴾ تمتد الصحراء الغربية من النيل الى حدود لوبيا وتشغل $\frac{٢}{٣}$ مساحة الدولة المصرية وهي تشتمل على عدة واحات أهمها : —

(١) ذكر سعادة فؤاد باشا أباظه في تقرير له ان مساحة الاراضي المنزرعة هي ٥٫٣٦١٫٣٨١ فداناً ومساحة الاراضي المزروعة (أي قابلة للاصلاح والزراعة) هي ٢٫١٤٣٫٠٤٤ فدانا ومساحة المنافع العمومية (غير مزروعة) هي ٨١١٫٨٢٦ فداناً وان جملة مساحة الأراضي المزروعة بأقسام الحدود (الصحراوات الغربية والجنوبية وسيناء) ٥٠٦٫٥٤٨ والاراضي المزروعة بمحاصيل وأشجار النخل ٢٨٢٫٤٣٣ فداناً ومساحة المراعي ٢٢٤٫١٢٥ فداناً

واحة سيوة	وتعدادها	٤٠٠٠	نسمة
الواحة البحرية	»	٦٤٠٠	»
واحة الفرافرة	»	٦٧٠	»
والداخلة	»	١٩٥٠٠	»
والخارجة	»	٩٦٠٠	»

وهذه متصلة بوادي النيل بخط سكة حديد

وفي وسعنا ان نضيف الى ما تقدم ان هذه الواحات منخفضات مأهولة وهناك منخفضات اخرى غير مأهولة وقاحلة أهمها منخفض القطارة ، وقعره على ١٣٤ متراً تحت سطح البحر

﴿ الصحراء الشرقية ﴾ تمتد الصحراء الشرقية من النيل الى قناة السويس والبحر الاحمر وتبلغ مساحتها ٢٢٣٠٠٠ كيلو متر مربع وهذه الصحراء تكاد تكون محرومة من ينابيع المياه الطبيعية وأهم الآبار تكفي سكان هذه الصحراء في اماكن تقطنها جماعات البدو كما هو الحال في الصحراء الغربية . وهؤلاء يقطنون الاماكن الصغيرة بالقرب من البحر الاحمر حيث مناجم الفوسفات والبترول في القصير (تعدادها ٤٧٨٠ نسمة) وسفاجة (٣٥٠) والغردقة (٣٨٩٠)

﴿ شبه جزيرة سيناء ﴾ تبلغ مساحتها ٦١٠٠٠ كيلومتر مربع ومياهها وافرة لما يتجمع منها في باطن الأرض وأهم مدنها العريش (١٠٠٠٠) نسمة والطور (٣٥٠) وابو زنيمة وغيرها

﴿ فضل الصحراء ﴾ في الوطن المصري مساحة كبيرة من الأرض الصحراء . ومصر مدينة الى هذه الصحراء بوجودها . ففي الزمن القديم في ابان تكوين الشعب المصري والحضارة المصرية كانت هذه الصحراء هي العامل الأقوى في منع العدوان عن مصر وهي الوسيلة التي مكنت المصريين من أن يندمجوا ويصيروا شعباً ممتازاً بخصائصه وحضارته . ولا تزال منزلة الصحراء في الدفاع عن مصر اليوم مثلما كانت من آلاف السنين . فهي جزء من الوطن المصري لا ينفصل عنه الا ولحقه الخسران[1]

في الحرب الكبرى الماضية استهدفت مصر لهجوم الألمان والأتراك عليها من الصحراء الشرقية والصحراء الغربية . والآن تواجه مصر في الصحراء الغربية مثل الذي واجهته في الحرب الماضية في الصحراء الشرقية

غير أن وسائل القتال تبدلت فقد كان اعتماد المغيرين في تلك الحرب على الرجال والمدافع والسيارات المدرعة وكان اعتماد المدافعين على مثل ذلك وعلى البوارج ولم يكن للطائرات مقام

(١) الدكتور محمد عوض محمد استاذ الجغرافية لجامعة فؤاد الاول من مقال له في جريدة « الجهاد » في « جغرافية مصر »

في القتال معد . اما اليوم فالاعتماد الأكبر هو على الطائرات والمعدات الميكانيكية الأخرى وفي مقدمتها الدبابات والسيارات المدرعة

« جزائر البحر الاحمر » ليس لها من الناحية الاقتصادية منزلة خاصة ولكن لها من الناحية العسكرية مكانة لا تنكر وأهم هذه الجزر الاشرفي وجوبال وشدوان وجفاطين وزبرجل وفي خليج العقبة ثلاث جزائر وهي تيران والسنافر وفرعون ويطلق على جزيرة شدوان « صخرة جبل طارق مصر »

٢ — موقع مصر

ان تاريخ العالم السياسي هو سلسلة من المطامع حركتها شهوة التسلط على بلاد ذات رزق موفور أو ذات موقع منيع ، ومصر تمتع بهاتين النعمتين فوقعها يشغل الزاوية الشمالية الشرقية من افريقيا وتمتد من البحر المتوسط شمالاً الى خط عرض ٢٢ جنوباً . وغرباً من خط طول ٢٥ الى البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء في خط ممتد بين رفح والعقبة

امتازت مصر في وضعها الجغرافي بكونها أهم موقع يتحكم في القارات الثلاث افريقيا وآسيا وأوربا . وهذه المزية ليست راجعة الى عهد شق قناة السويس وحسب ، بل هي متغلغلة في القدم . وبفضل هذا الموقع الممتاز كان الغزاة يتخذون مصر قاعدة للتوسع في فتوحاتهم غرباً وشرقاً

وحينما غزاها بونابرت كان أهم غرض يرمي اليه هو كفاح البريطانيين وحرمانهم استخدامها في مواصلاتهم الى الشرق . وكان في نيته بعد أن يوطد مقامهُ فيها أن يستولي على ممتلكاتهم الشرقية . ولم يفت البريطانيين ذلك فبادروا بالمساعدة على اخراج الفرنسيين منها بعد أن دمروا أسطول بونابرت في معركة أبي قير

ولما حفرت قناة السويس ارتفعت منزلة مصر وقد عارضت بريطانيا العظمى في حفر القناة قبل البدء فيه ولكنها بعد أن تمَّ فتحها اشترت أسهم خديو مصر في شركتها

فمن الطبيعي أن تهتم بريطانيا العظمى بسلامة هذا الشريان الحيوي في مواصلاتها الامبراطورية ووقايته من كل ضرر يصيبهُ . كما تهتم مصر نفس اهتمام بريطانيا بصيانة القناة لوقوعها في أرضها

لذلك كان من الحيوي ربط مصالح مصر بمصالح الامبراطورية البريطانية بعقد معاهدة التحالف الحالية

ان مصر ستصبح مع أسبانيا صاحبة مركز ممتاز في السياسة الدولية وسيكون لها شأن في الصراع على التوازن في البحر المتوسط وسيكون شأن مصر أهم من شأن اسبانيا الآن لأنهُ

اذا كانت اسبانيا قائمة على باب من أبواب هذا البحر فانه في استطاعة مصر أن تراض على قلبه بيدها وهي الحارس الوحيد على نقط الاتصال بين هذا البحر وبين البحار الشرقية

٣ — السيادة البحرية

مصر منذ أقدم عصورها الى اليوم واقعة تحت تأثير السيادة البحرية . فمصر الفراعنة لم تسد الا عن طريق سيادة اسطولها خلال الاسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة عند ما كان لا ينافسها منافس من دول البحار في البحرين المتوسط والأحمر وحافظت مصر على مكانتها في عهد البطالمة لما كان الاسطول المصري أقوى اساطيل البحار . فلما انتقلت تلك السيادة الى روما استولت بدورها على مصر . وفي العصر الاسلامي — ولا سيما في العصر الطولوني والفاطمي والأيوبي — كان لمصر شأنها العظيم في تاريخ العالم لسيادتها البحرية ايضاً

فلما بزغ نجم آل عثمان واستولوا على القسطنطينية ظهر اسطول العثمانيين بكبريائه فقضى على اساطيل الدول المجاورة الى ان جاء دورهم في التدهور وخلفهم المماليك والبنادقة واسبانيا والبرتغال ثم ظهر في الافق البطل الكبير محمد علي . فسادت مصر زمناً لان أسطولها كان لا يضعف امام اساطيل البحر المتوسط . إلا أن مقام فرنسا البحري لم يطل أمده فقد انتزع الانكليز منها سيادة المياه ولقبت بريطانيا سيدة البحار فلما فازت به كان من الطبيعي أن تنتفع بريطانيا بموقع مصر بعد سلسلة من الوقائع البحرية ابتدأت بموقعة الطرف الأغر (ترافلجار)

رأينا مصر في جميع العصور الى اليوم تتأثر بمبدأ سيادة البحار (البحر المتوسط) سواء أكانت مصر هي سيدة الموقع ام غيرها . وعند ما نتكلم عن موقع مصر يجب ان لا ننسى هذا المبدأ مبدأ سيادة البحر Sea Command فنه بدأت المسألة المصرية في القرن التاسع عشر

لذلك كان استيلاء الانكليز على مصر او احتلالهم او نفوذهم ثم محالفتهم وصداقتهم . . الخ من اهم اركان تدعيم الأمبراطورية البريطانية . واذا وقفت مصر موقف العداء او وقعت في أيدي اعداء الانكليز أصبح موقعها مهدداً للامبراطورية وشوكة مميتة في طريقها حتى ولو كانت تسيطر عليها حكومة محايدة . بينما مصر الحليفة لسيدة البحار تؤلف أهم عقود البناء العسكرية في تلك الناحية من العالم القديم الذي يربط المملكة المتحدة بممتلكاتها في الشرق

ان جبل طارق ومالطة وقبرص وفلسطين تؤلف سلسلة من الحصون والقواعد والمستودعات الحربية . وما دامت هذه في قبضة دولة بحرية قوية فانها تستطيع أن تسيطر بقوتها على البحر المتوسط

ولما كانت قوة السلسلة في أضعف حلقاتها ، فان مصر تكون مصدر خطر على بريطانيا اذا خرجت من نطاق الصداقة البريطانية فمن الطبيعي ان تمنع انكلترا انزلاق مصر نحو خصومها .

ومن المحتمل البعيد ان تكون مصر ثانيةَ دولة بحرية كبيرة لتستطيع وحدها أن تتولّى السيادتين البرية والبحرية في هذه المنطقة من سطح الارض

من اجل هذا المبدإ تنظر الى الدفاع عن مصر كأنه مسألة قوة بحرية لدولة صديقة قبل كل شيء ومن هذا الوقت الى وقت ما . . . يجب ان يرتبط مصير وادي النيل بالدولة البحرية القوية . ان مصر لن تكون كتلك الثمرة الناضجة على الشجرة التي التف حولها النهمون في انتظار سقوطها على الأرض ليلتهمها الجوعان اليقظ . وعلى أساس سيادة البحر يجب ان تشيد قوات الدفاع المصري

٤ — سكان مصر

يبلغ عدد سكان القطر المصري بحسب الاحصاء الأخير ١٥٫٩١٤٫٣٧٨ نسمة منهم ٩٩٪ يسكنون وادي النيل والفيوم ومنطقة قناة السويس والباقي مبعثر في الصحارى وشبه جزيرة سيناء وتبلغ نسبة عدد السكان ٤٥٠ نسمة في الكيلو متر المربع من وادي النيل . وينمو سكان مصر باطراد سريع فقد كان في عام ١٨٥٠ — ٤٫٦٠٠٫٠٠٠ نسمة وآل في عام ١٨٩٢ الى ٨٫٦٥٠٫٠٠٠ وأصبح في عام ١٩١٧ — ١٢٫٧٥٠٫٨٨١ وصار في الاحصاء الأخير ١٩٣٧ — ١٥٫٩١٤٫٣٧٨ نسمة فلو استمر الحال في الزيادة على هذه النسبة تضاعف عدد سكان مصر بعد ٦٠ سنة وقد يبلغ نحو ٥٠ مليوناً بعد قرن من الزمان لذلك نجد انفسنا امام الحقائق الآتية :—

(١) — زيادة كبيرة ومستمرة في نمو السكان مع العلم بأن معدل المواليد والوفيات والزواج في مصر أعلى منهُ في بلدان أخرى فنحن في غنى عن وضع سياسة لنمو السكان او عمل اجراآت خاصة لزيادة النسل عملاً بالعبارة Be fruitful and multiply التي يُعمل بها في بعض الدول الاوربية كايطاليا والمانيا . فالزيادة الطبيعية مستمرة بدون تشجيع كما اننا لا نطالب بتخفيف ضغط السكان بوسائل ما

(٢) حيث ان زيادة السكان مستمرة فيجب كذلك التفكير في الموارد التي تكفل لجميع الأهالي مستوى مريحاً من المعيشة بقدر ما تبيحهُ الوسائل الأقتصادية والصحية مع مراعاة ان يكون العدد كافياً للدفاع عن كيان الوطن في كل وقت وبحسب الظروف الدولية

(٣) زاد سكان مصر حوالي ٦٠٪ عما كانوا عليه منذ اربعين عاماً (١٨٩٧—١٩٣٧) فاذا راعينا هذه النسبة فسيكون عدد سكان القطر المصري حوالي ٢٥ مليون نسمة حوالي سنة ١٩٨٠ اذا فرضنا ان الأحوال الصحية لم تتحسن وهذا غير ما ننتظره ونتوقعهُ . فالمفروض ان تتحسن تلك الأحوال وترتقي كثيراً عما هي عليه الآن . فضلاً عن نموّ الموارد الصناعية

ولكن مع هذا النمو الكبير في السكان يلاحظ ان الارض الزراعية قد زادت في المتوسط

نحو ٧ ٪ فقط وجميعنا يعلم ان الفلاح المصري حالته لا تزال سيئة جداً

(٤) ان البلاد تستطيع في المستقبل أن تتسع لزيادات اخرى في السكان خصوصاً عند ما يتم اصلاح الاراضي الزراعية في شمال الدلتا مثلاً البور منها والتي سيحوّل ريها الى ري دائم فتدخل مساحات كبيرة في نطاق الارض الزراعية ودخولها الآن متوقف على اتمام مشروعات تانا والبرت . واصلاح منطقة السدود . . . الخ مع ما ينتج من تعلية خزان اسوان وخزان جبل الاولياء مما يضمن ٨ مليارات في الامتار المكعبة من المياه وبذلك تعد للزراعة مئات الآلاف من الأفدنة في الشمال في جهات نائية تقل فيها الأيدي العاملة

(٥) لاحظ الأستاذ كليلاند ان ثلثي سكان القطر المصري اي ٦٥ ٪ منهم يقل عمرهم عن الثلاثين بينما نجد هذه النسبة في انكلترا وفرنسا ٥٠ ٪ في عام ١٩٣٠ او ٥٣ ٪ في عام ١٩٣١

(٦) نجد أنفسنا امام حقيقة مؤلمة فان ٩٠ ٪ من أهل القطر المصري في حاجة الى العلاج الطبي . وقد بلغ سوء الحالة الصحية ان المتقدمين للقرعة العسكرية لا يصلح منهم للخدمة دون علاج سوى ٤ ٪ و ١٦ ٪ منهم يصلح للخدمة بعد معالجته بينما ٨٠ ٪ لا يصلح قط ونجد ان هذه النسبة في بريطانيا العظمى هي ٣٦ ٪ صالح للخدمة و ٢٢ ٪ في حاجة الى العلاج و ٤١ر٥ ٪ غير صالح للخدمة العسكرية . في مصر ١٢٠ر٠٠٠ أعمى و ١٤ر٥٠٠ر٠٠٠ مصاب بالتراخوما و ١٠ ملايين مصاب بالبلهارسيا والانكلستوما هذا فضلاً عن الامراض الأخرى الشائعة ومن الحظ الحسن ان مصر بلد زراعي ولذلك فأثر ضعف الصحة العامة فيها غير محسوس كما لو كانت بلداً صناعيًا . ومع ذلك فان العامل الزراعي المصري في حالة صحية غير مرضية

﴿ السكان والثروة الأهلية ﴾ مصدر الثروة في مصر الزراعة . فنهر النيل المبارك يمنح مصر كل عام ما يزيد عن ٩٠ مليوناً من الأمتار المكعبة من الماء تروي مساحة تبلغ ١٢ر٥٠٠ ميل مربع ويبلغ ما يستعمل من هذه المساحة للزراعة ٦٤ ٪ او ما يقرب من ٥ر٥٠٠ر٠٠٠ فدان وفي الوسع زيادتها الى ٧ر١٠٠ر٠٠٠ اذا تمكنا من تنفيذ بعض مشروعات الري . فتنتج الارض محصولاً ونصف محصول لكل فدان مما يجعل قيمة الاراضي الزراعية تعادل ٨ر٥٠٠ر٥٠٠ فدان من ذات المحصول الواحد . وقد يمكن رفع ذلك الى ما يعادل محصول ١١ر٤٣٠ر٠٠٠ .

واذا بحثنا الايراد الأهلي وتوزيعه على السكان وجدناها في عام ١٩٣٥ قدرت بمبلغ ١٨٥ مليون جنيه اي بمعدل ٢٠ جنيهاً لكل مصري ولا شك ان هذا المبلغ ضئيل جداً اذا قابلناه بمثله في الممالك الأخرى ففي بلاد السويد يبلغ معدل إيراد الفرد نحو ٦٠ جنيهاً (١٩٣٥)

ففي عام ١٩٣٥ استولى ١ر٥ ٪ من مجموع السكان على نصف الايراد الأهلي المذكور اي

ان ٢٣٢٠٠٠ رجل نال كل منهم ٤٢٠ جنيهاً بينما لم ينل كل رجل من باقي السكان سوى ستة جنيهات و٤٠٠ مليم . فاذا قسمنا ٣١ ٪ من مجموع الأفدنة (نسبة الذين يملكون اقل من خمس افدنة نحو ٩٣ ٪ من مجموع الملاك وبلغت نسبة ما يملكون ٣١ ٪ من مجموع الاراضي) على سواد الشعب وهو ٩٣ ٪ من السكان ، فان نصيب الفرد لا يتعدى مبلغ اربعة جنيهات في العام ومعنى ذلك ان الأسرة المصرية العادية التي قوامها خمسة أشخاص تتفاوت ميزانيتها السنوية بين ٢٠ و ٣٢ جنيهاً

هذه الارقام تبين بجلاء ان القطر المصري لم يكشف بعد الموارد اللازمة لاعالة عدد من السكان أكبر من العدد الحالي . بل في الواقع ان هذه الموارد لا تكفي السكان كما هم الآن . فما بالك اذا تضاعف عددهم حوالي عام ١٩٩٠ وبقيت الحالة الصحية على ماهي عليه الآن؟

﴿ الحل ﴾ إن عدد سكاننا في الحال وفي المستقبل يكفل لنا جيشاً كبيراً فيجب وضع برنامج لهذا المستقبل والعمل عملاً جديًّا لترقية مستوى المعيشة قبل تنفيذ أي مشروع وطني فترفع الايراد الاهلي غير ناسين عدد السكان . وليس هنا مجال البحث في ابتكار الوسائل التي تكفل رفع الثروة الاهلية وانشاء منافذ للعدد الزائد من السكان عن طريق الهجرة أو إسكانهم في الاراضي التي تعمر ولكن في ميدان التجربة مجال كبير للنجاح

٥ — موارد الرفاع

مصر بلاد غنية بطبيعتها ولكن شعبها فقير لأن أكثر من ٩٠ ٪ منهم مسخرون بأزهد الأجور لخدمة اصحاب الأراضي ورخص اليد العاملة الى أدنى حد جعل البون شاسعاً بين الفقر والثروة

يرى البعض ان أكبر عناصر قضية الدفاع الوطني هو المال . ومع أن المال عنصر جوهري ولا بد من انفاق مال طائل في اعداد معدات الدفاع وشراء ما يلزم من سلاح وذخيرة ومعدات قتال ، والانفاق على الضباط والجنود وبناء الثكنات ومدّ الطرق العسكرية وسواها ، فهنالك عناصر اخرى لا تقل منزلةً وشأناً عن المال

في مقدمة هذه العناصر تنبيه الرأي العام الى ضرورة الانتقال من الحالة التي نحن فيها الى الحالة التي يتعين علينا فيها انشاء جيش قوي يؤدي واجب الجيوش الحديثة في هذا العصر

﴿ الثروة الزراعية ﴾ يمكن تقسيمها بوجه عام الى نوعين :—

خامات زراعية . لا نتردد في تأكيد اعتقادنا بوفرتها مع الثروة الحيوانية وفي الكشف الآتي نبين اهم المزروعات الزراعية

أهم محصولات مصر الزراعية عام ١٩٣٩

الغلة	المساحة المزروعة	المحصول	متوسط محصول الفدان الأردب
القمح	١٫٤٤٦٫٣٥٥	٨٫٨١٣٫٢٦٧	٦٫١٥ (١)
الأذرة الشامي	١٫٥٤٧٫٥٤٩	١٠٫٨٨١٫٠٠٠	٧٫٠٣ (٢)
الأذرة الرفيعة	٤١٢٫٢٤٥	٣٫٨١٨٫٠٠٠	٩٫٢٦
الشعير	٢٦٢٫٩٤٦	١٫٩٨٤٫٧٠٤	٧٫٥٥ (٣)
الأرز	٥٤٦٫٨٧٠	٩٥٠٫٠٠٠ (ضريبة)	١٫٧٣٧ (٤)
الفول	٣٨٤٫٥٨١	١٫٩٧٤٫٠٣٩	٥٫١٣ (٥)
الحلبة	٨٣٫٢١٠	٣١٩٫٩١٠	٣٫٨٤
البصل	٣٥٫٠٧١	١٫٩٩٧٫٣٨١	٧٫٥٠
العدس	٨٠٫٩٥٩	٣٩١٫٩١٥	٤٫٨٤
الفول السوداني	٢٣٫٧٥٦	٢٢١٫٠٠٠	٩٫٣٢
قصب السكر (٩٣٨)	٦٨٫٢١٦	٥١٫٢٢٠٫١٤٦ قنطار	٧٥١

﴿ الثروة المعدنية ﴾ أهمها الحديد الذي يعتبر أساساً لأغلب الصناعات الكبرى . وهو —او بالحري أكسيد الحديد— موجودة بكثرة في الصحاري المصرية وأهم بقاعه شبه جزيرة سيناء وفي وادي الدب وابو مروة في الجزء الشمالي من الصحراء الشرقية وفي وادي ابو جريدة على مسافة من الطريق القديم بين قنا والقصير وفي الجزء الجنوبي الشرقي من الصحراء الشرقية على مقربة من شاطىء البحر شمال رأس بناس وفي الواحات البحرية والخارجة . وفي منطقة اسوان . ومن الابحاث المتتالية التي قامت بها مصلحة المناجم والمساحة وبعض الأفراد يستنتج ان مصر لا يعوزها معدن الحديد، وان مقادير كبيرة من ركازه توجد في بعض الجهات وبها نسبة جيدة من الحديد ولكن عقبة المواصلات يجب تذليلها . لأن هذا الحديد يحتاج الى فحم ونفقات نقل الفحم من بلاده الينا ليست أمراً سهلاً ولو أتيح لصناعة الحديد ان تقوم في هذه البلاد لكان في الوسع انشاء صناعة أنواع مختلفة من الفولاذ بفضل ما يوجد من الخامات المعدنية الأخرى كالمنجنيز والكروميوم . . . الخ وحاجة الصناعة الحربية اليه لا تنكر

كذلك مقادير الرصاص والزنك لا بأس بها والنحاس والفوسفات والنيكل ولكي تنمي موارد ثروتنا ونخلق جيلاً صناعيًّا وننشىء صناعات حربية لا يستهان بها يجب

(١) الاردب = ١٥٠ كيلو (٢) الاردب = ١٢٠ كيلو (٣) الاردب = ١٠٠ كيلو
(٤) الضريبة = ٩٣٤ر٥ كيلو (٥) الاردب = ١٥٥ كيلو

ان لا نضيع الفائدة من وجود المعادن في بلادنا فهي جزء عظيم الشأن من ثروتنا وعلينا ان لا نعتمد في حياتنا على الزراعة فحسب . بل نحن لا نكاد نعتمد الا على صنف واحد منها . لذلك وجب علينا ان نعمد جادين لوضع وتنفيذ برنامج معدني صناعي لعشر سنوات[1]

﴿ الصناعات الكبرى ﴾ ان الحالة الجديدة التي تواجهها مصر — وقد أصبحت مسؤولة عن اعداد قوات كبيرة للدفاع تحملنا على مضاعفة جهودنا لتحقيق تحويل مصر الى بلد صناعي فان مطالب الدفاع الحربية سواء في البر او في البحر او الجو توجب قيام الصناعات المختلفة . ولاسيما المتصلة منها بالضروريات الحربية . وقيام الصناعات الكبرى في بلد ما يقتضي ان تتوافر له عوامل من حيث رؤوس الأموال والأيدي العاملة وطرق المواصلات وما الى ذلك من الظروف التي يجب أن تلائم كل صناعة على حدتها . على ان حاجتها الرئيسية هي :—

أولاً : الى القوة المحركة — الوقود

ثانياً : الى المواد الخام الاولية

لا غنى في جميع الصناعات الكبرى عن قوى ميكانيكية محركة ، وهذه في حاجة الى احد الأشياء الآتية : —

١ — الفحم ٢ — البترول ومشتقاته ٣ — مساقط المياه

١ — ففيما يتعلق بالفحم الحجري فقد أثبتت البحوث في المائة السنة الأخيرة عدم التعويل على وجوده في مصر وعلى ذلك نغفله من حسابنا عند تقدير ما في البلاد من وقود

٢ — النفط او البترول (هو عصب الحرب) ، هذا السائل بفضل ما يستخرج منهُ من مواد كالبنزين والكيروسين وزيوت الديزل والمازوت هو من أهم أنواع الوقود وتستعمل منتجاته المختلفة في ادارة شتى الآلات . وحظ مصر من هذه المواد أحسن من حظها في الفحم الحجري وان كانت المقادير التي تنتجها الحقول المصرية لا تزال أقل من حاجة القطر الآن وأقل كثيراً مما يحتاج اليه لو انتشرت الصناعات

وقد انتجت حقول النفط في مصر عام ١٩٣٥ حوالي ٢٣٠ الف طن متري . واذا أضيف الى هذه ما يرد الينا من الخارج فاضت مقادير كبيرة تموِّن بها البواخر المارة بقناة السويس كما تصدر منهُ مقادير الى الخارج . ويتضح من هذا ان ما تنتجهُ المعامل المحلية من البنزين يكفي حاجة القطر وان كان لظروف خاصة يستورد مقادير خاصة للاستهلاك المحلي ويصدر مقادير من اصناف أخرى من الانتاج المحلي . أما الكيروسين فنحن في حاجة الى استيراد مقادير كبيرة الا اذا أتيح استكشاف موارد مصرية جديدة

(١) راجع بحث لصاحب الدولة اسماعيل صدقي باشا — المقتطف يوليو ١٩٢٢

كذلك الحال في شأن زيت الديزل المستعمل في الآلات التي شاع استخدامها في اغلب المنشآت الصناعية الحديثة فان الناتج منهُ محليًا أقل من استهلاك القطر ولذلك تستورد منهُ مقادير كبيرة

أما فيما يختص بالسولار والمازوت فان الناتج منهُ محليًا يزيد عن حاجة البلاد فاذا استوردت منهُ مقادير كبيرة من الخارج كان ذلك لتموين البواخر التي تمر بالموانىء المصرية

والاسفلت يزيد الناتج منهُ عن حاجة البلاد

ومع ان هذه الارقام تبعث على الاطمئنان من حيث تموين البلاد بما تحتاج اليهِ من منتجات البترول فان الامر يدعو الى وضع سياسة بترولية تراعى فيها الاحوال المقبلة ويراعى معها العمل على توفير المخزون منها بالبلاد تفادياً مما عساهُ ان يحدث في حالة الحرب او الاضطراب الذي يؤدي الى انقطاع الوارد من الخارج ولو بصفة مؤقتة [1]

٣ — مساقط المياه وتوليد الكهرباء — تصلح بعض الخزانات والقناطر المقامة على مجرى النيل لتوليد الكهرباء . ويجري البحث منذ سنوات في دراسة مشروع خزان اسوان ومساقط بعض القناطر الاخرى وهذا المشروع لا يكون اقتصاديًا الاَّ اذا سار مع مشروع صنع السماد من الخزان جنباً لجنب بحيث يستهلك هذا المصنع الجزء الاكبر من القوة المتولدة

واذا كان مشروع توليد الكهرباء في منخفض القطارة قد يبدو للبعض خياليًا في الوقت الحالي فقد لا يطول الزمن الذي يصبح فيهِ مشروعاً قابلاً للتنفيذ [2]

﴿ الميزانية ﴾ نصف ايرادات الميزانية تأتي من الضرائب الجمركية التي قدر لها في الميزانية لعام ١٩٤٠ مبلغ ١٠٠ر٥٢٥ر١٨ جنيه بينما كل ما يأتي من الاموال المقررة هو ٣٠٠ر١٦٤ر٦ جنيه ولهذه المقارنة مغزى كبير فان الضرائب الجمركية على خلاف الضرائب العقارية الثابتة هي رسوم غير مباشرة من النوع المتقلب (Fluctuating) الذي يتغير بتغير الأحوال الاقتصادية فهي كما قد تعلو تهبط هبوطاً كبيراً فتصبح وتمسي واذ بثروتنا الجمركية قد نقصت الى حد يتعذر معهُ التوفيق بين الدخل والخرج [3] . فكيف لنا الانفاق على الجيش ؟ اذن لا يصح ان نستند الى الضرائب الجمركية لموازنة الميزانية المصرية ولا علاج لذلك الاَّ ان يكون لنا ضرائب ثابتة مباشرة غير الضرائب العقارية والرسوم القضائية والسكك الحديدية والتليفونات والبريد ... الخ لتكون هذه الضرائب الثابتة هي الدعامة الحقيقية لميزانية الدولة وأهمها ضريبة الدخل وضريبة التركات وغيرها وتنمية موارد الثروة الأهلية

---

(١) من بحث للدكتور حسن باشا صادق وزير الدفاع الوطني في محاضرة بالمجمع المصري للثقافة العلمية

(٢) دولة حسين سري باشا — راجع محاضرة عن هذا المشروع في مجموعة محاضرات المجمع المصري للثقافة العلمية عام ١٩٣٥

(٣) محمود المتجوري — كتاب اتجاهات العصر الجديد في مصر ص ٩٨

مصروفات الدولة

هل نستطيع أن نوفر شيئاً من مرتبات الموظفين؟ لقد خبر بعض الفنيين من رجال وزارة المالية هذه المسألة فرأيا ان توفير الحكومة مبلغ ٣٤٨٥٠٠٠ من اعتمادات مرتبات الموظفين البالغة ١٤٠ و ٣٦٧ و ١٣ في ميزانية ١٩٣٩ — ١٩٤٠ يقتضي منها أن تلجأ الى الحل الآتي : —

أولاً — الغاء طائفة من الوظائف الكبيرة التي تكاد تكون وظائف شرف لا أكثر وبذلك يتوفر لدى الخزانة ما لا يقل عن ١٠٠٠٠٠ جنيه سنويًّا . ثانياً — تخفيض ٢٠ ٪ من مرتبات موظفي الدرجات الأولى والثانية والثالثة والرابعة وبذلك يتوفر للخزانة ما لا يقل عن ٣٠٠٠٠٠ جنيه سنويًّا . ثالثاً — خفض عدد وظائف الدرجات الخامسة والسادسة والسابعة والثامنة بنسبة ٢٠ ٪ ثم خفض مرتبات الموظفين الباقين في هذه الدرجات بنسبة ١٥ ٪ وبذلك يتوفر للخزانة ٦٢٣٠٠٠ ر ٢ جنيه. رابعاً — خفض عدد وظائف المستخدمين الخارجين عن هيئة العمال بنسبة ٢٠ ٪ دون خفض المرتبات فيتوفر للخزانة نحو ٥٠٠٠٠٠ جنيه خامساً — خفض مرتب الوزراء بنسبة ٣٠ ٪ فيتوفر للخزانة بذلك نحو ١٢٠٠٠ جنيه فلو تم تخفيض مرتبات الموظفين على هذا الأساس لبلغ مجموع ما يمكن توفيره ٣٤٨٥٠٠٠ جنيه في العام دون أن يختل نظام العمل (١)

هذا فيما يتعلق بالاقتصاد من مرتبات الموظفين عموماً وفي الوسع الغاء بعض الوظائف الكبيرة الزائدة عن الحاجة والاستغناء عن بعض الوزارات واعادة تنظيمها مصالح أو ادارات والغاء معظم مصروفات التمثيل السياسي التي تكلفنا كل عام مبالغ كبيرة دون أن نجني من ورائها مغنماً فضلاً عن القضاء على مظاهر الترف والاسراف التي أصبحت معروفة ثم تحريم المشتريات الكمالية

« النتيجة » يبدو مما أوردناه تضخم المصروفات العامة واضحاً في مصر ولا سيما في العشرين السنة الاخيرة وهذا الازدياد هو مظهر للتطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ولا بدَّ منه

ان ميزانيتنا في وضعها الحالي لا تستطيع مواجهة الالتزامات الخاصة بتسلح القرن العشرين ومن الضروري تعديلها تعديلاً جوهريًّا لكي نستطيع الانفاق على قوات الدفاع الوطني

٦ — الامة قبل الجيش

في وسعنا أن نقول أن الجيش المصري يستطيع ان يضطلع وحده بمهمة الدفاع عن الدولة المصرية بعد ١٦ عاماً تقريباً على ان تظل المحالفة البريطانية المصرية قائمة لأن الدول الصغيرة

---

(١) من مقال نشر في مجلة المصور عام ١٩٣٩

مهما تكن قوية لا تستطيع ان تقف وحدها حيال الامم القوية اذا ما اعتدت عليها ولا بد للنجاح في انشاء قوات مصرية للدفاع من ان تكون لنا غاية مرسومة يجمع عليها الرأي العسكري والسياسي والاقتصادي تسعى الحكومة الى تحقيقها مهما يختلف لون الحكومة القائمة بالأمر . وان تكون السبل التي تسلكها مرنة قابلة للتوسع والتعديل

《 اعداد الأمة 》 أصبح النهوض بشئون الجيش وحده لا يحقق مقتضيات الدفاع الوطني فلا بد من ان تسير جميع مسائل الاصلاح جنباً الى جنب

ففي الوقت الذي نفكر فيه في توسيع جيشنا واعداده اعداداً فنيًّا صحيحاً يجب اعداد المدة لزيادة الانتاج الأهلي والثروة العامة ، ورفع مستوى صحة الشعب وتعديل برامج التربية في مدارسنا لكي نخرج جيلاً مشبعاً بمبادىء الوطنية السامية

١ — 《 تربية الروح 》 اشترط حلفاؤنا ان نقوي جيشنا قبل ان تجلو جيوشهم عن وادي النيل وحبذا لو اشترطوا علينا اصلاح تربيتنا

كل واجب يدعو اليه الوطن انما هو واجب مكلفة بأدائه المرأة قبل سواها . فالأم هي الداعية الأولى لتوطيد النظام العسكري لانهُ الوسيلة الوحيدة لحماية الاستقلال

فمن اذن يحمي بلادنا غوائل الاطماع غير جيل ناشىء مقبل تهيئهُ المرأة الآن بتربيتها

اذن اعداد الشعب للنظام الجديد يجب ان يتقدم كل عمل آخر

فاذا اريد الاقتصار على تكبير الجيش وتعزيز سلاح الجو وشراء اسطول صغير بالقدر الذي تسمح بهِ البلاد ، فهذا لا يفي بحاجة الدفاع الوطني على اساس ثابت

الاعداد الروحي يجب ان يشمل في الحال جميع طبقات المصريين وعلى الأخص الجيل الجديد الذي يجب ان يعلم ان عليه مهمة عظيمة . هي مهمة الدفاع عن مصر

《 الجسم 》 ريلي الاعداد الروحي اعداد جيل قوي سليم من الامراض والاوبئة يستطيع ان يضطلع باعباء الدفاع ويكون له من قوة افراده وما يتمتعون بهِ من حقوق وامتيازات ما يعينهم على بذل الارواح في هذا السبيل

اي ان انشاء جيش منفصل عن سائر الامة كما كان الامر لا يكفل بلوغ الغاية فلا بد من اعداد أساس متين

فاذا اريد ان تكون مصر من القوة بحيث تستطيع الدفاع عن سلامتها وجب ان لا يقتصر السعي على الجنود والضباط وما يتصل بهم من مدارس وثكنات وسيارات وتموينات بل يجب ان تشمل آلة الدفاع الوطني الشعب كله حتى تصبح مصر قوية وحتى يكون وراء الجيش شعب يشد ازره ويعززه بالقوة المعنوية والمادية لأن الجيش السليم في الأمة السليمة A Sound Army is in a Sound Nation

والدفاع لا يشتمل على ناحية الجيش فقط الا اذا نظرنا الى الجيش كأنه اداة الدفاع عن البلاد بدون اشتراك الدعائم الأخرى وهو نظر خاطىء . فالدفاع الوطني يحتاج الى اجسام سليمة كما يحتاج الى سيارات ودبابات ومدافع . بل ان حاجته الى الرجال ذوي الأجسام الصحيحة ليس دون حاجته الى السيارات والمدافع والدبابات

فالدعامة الأولى ترتكز على الرجال . جنوداً وضباطاً اقوياء جسماً وعقلاً وروحاً وبتفاعل الجسم والعقل والروح واتحادها تفوز بشبان يصلحون للجندية . فالخلق ينشأ بالتربية وتقوية الأجساد تكون بكفالة المسكن الصحي والطعام الجيد وتقريب وسائل العلاج في متناول جميع الطبقات . والعقول السليمة نتيجة التعليم القويم

والتربية تقوم عليها وزارة المعارف بعد الأم وتوفير وسائل الطب والعلاج من اخص شؤون وزارة الصحة . والتعليم العسكري تتولاه وزارة الدفاع

ولا يستطيع ان ينكر هذه الحقائق اشد المتحمسين للدفاع الوطني . الا اذا اريد القول ان الجيش يستطيع ان يحقق مهمته بدون ان يتصف رجاله بالفضائل الوطنية . وباهمال جميع موارد الثروة المحلية وبجنيد الأصحاء للجيش والمرضى للقوات الاحتياطية . ان قصر الجهد كله أو اكثره على الشؤون الحربية المحض، ينطوي على نقص في برنامج الدفاع الوطني لأنه لا يؤدي بنا الى الغاية المرجوة . فهو يقدم لنا جيشاً قد يكون مخصصاً له خمسة ملايين من الجنيهات المصرية في ميزانية الدولة . ولكنه يكون فقيراً في روحه المعنوية فقيراً في صحته ورجاله وربما ضعيفاً ايضاً في تسلحه المادي وننتهي الى النتائج التالية

اولاً — تحقيق الدفاع القومي على وجهه الصحيح يكون باعداد الرجال القادرين الأقوياء كما يكون باعداد السلاح والذخيرة . ثانياً — جعل التربية والتعليم على اسس وطنية . ثالثاً — لاعداد هؤلاء يجب بذل العناية الفائقة بشؤون الصحة العامة ورفع مستوى المعيشة . رابعاً — العمل على زيادة الانتاج الأهلي والبحث عن موارد جديدة للثروة

هل الجيش ضروري

ليس هنا مجال التعرض للجدل الذي أثير في السنوات الأخيرة حول لزوم الجيوش للامم . ولسنا نستطيع ايضاً ان نبحث موقف بعض الدول (الدنمارك) مثلاً التي خفضت قواتها الدفاعية الى العدد الذي يكاد يكفي للمساهمة في اقامة الأمن وحراسة المرافق العامة . فانا نؤمن بأن الجيش لازم للبلد لزوم المدارس . وهو في مصر ألزم منه في أي مكان آخر . وحسبك ان تقارن المواطن المصري عند دخوله « لواء الأساس » به عند انتهاء خدمته العسكرية لترى ان

الجيش مدرسة تسدي إلى الامة أجل الخدمات ليس من الناحية الحربية فحسب ، بل من ناحية التربية العسكرية والبدنية والعقلية والنفسية كذلك

ان الجيش أفضل مدرسة لتربية الأخلاق ولذلك أمني نفسي بأن يمر بهذه المدرسة كل مصري قادر على الخدمة . ان الضابط يستطيع بل يجب ان يصبح المربي والمقوم الحقيقي لنشئنا التي غدت اليوم مجبرة على المرور من باب الثكنة العسكرية

﴿ الظروف المحيطة بالدفاع الوطني ﴾ إن سياسة الدفاع المصرية مبنية على التزامات المعاهدة البريطانية المصرية الى ان تنتهي مدتها ونستنتج من هذا الوضع نتيجتين :—

النتيجة الأولى : ان مصر أصبحت حرة في أمورها وأمور جيوشها وتسلحها

النتيجة الثانية : ان اعباء الدفاع عن سلامة مصر أصبحت ملقاة على عاتق مصر بصفة أصلية وعلى بريطانيا باعتبارها معاونة فقط

وما دامت مهمة بريطانيا فيما يتصل بالدفاع عن مصر — كما حددتها معاهدة تحالفنا معها — مهمة معاونة فقط ، فالواجب ان تدرج في العمل لتقوية الجيش تدرجاً سريعاً ليصل كل منا — انكلترا ومصر — الى النصاب المخصص له في مضمار الدفاع بعد ١٥ عاماً . فيؤدي جيشنا وحده مهمة الدفاع ، لا استناداً الى جيش دولة أجنبية . وعلى الرغم من خطورة الظروف المحيطة ببلادنا والأحوال الدولية لا تزال خطواتنا بطيئة في التسلح وفي اعداد احتياطي الجيش والطيران معاً ، ولا نرى من ناحية المال عقبة في سبيل ما أعددناه [١] . وقد رأينا ان نقيس حالتنا بحالة أقطار أخرى قريبة الشبه بنا من حيث ميزانيتها ومواردها وعدد سكانها . ففي تركيا — ١٧٥,٠٠٠ جندي و٢٠ الف ضابط وما يقرب من ٥٠٠ طائرة وفيها — ١٠,٠٠٠ ضابط وميكانيكي . ونحن نعلم ان ميزانية الدولة التركية تعادل ٤٣ مليون جنيه (١٩٣٩ — ١٩٤٠)

وفي إيران ٣١,٥٠٠ جندي و١٦٢٢ ضابطاً و٢٠٠ طائرة و٩٠٠ ضابط وميكانيكي لقوة الطيران وميزانيتها العامة لا تتجاوز ١٤ مليون جنيه مصري

تلك هي حال الأقطار التي رأينا الاستشهاد بها للشبه بينها وبين بلادنا وميزانية بلادنا في عام (١٩٤٠ — ١٩٤١) بلغت ٤٧ مليون جنيه

---

(١) لما كنا سنقارن بعض المسائل المصرية بشبيهتها في تركيا ، نورد هنا ان مساحة تركيا هي ٢٩٤٠٠٠ ميل مربع منها ٢٩١٠٠٠ ميل اراضي زراعية منها ٤٨٣٠ ميلا مربعاً مزروعة أشجاراً وشجيرات و٣٤١٠٠ ميل مربع غابات والباقي اراضي غير مزروعة ويبلغ عدد سكان تركيا طبقاً لتعداد سنة ١٩٣٥ — ١٦,١٥٨,٠٠٠ نفس اغلبيتهم العظمى (نحو ٨٠,٥ ٪) يشتغلون بالزراعة . وهكذا نرى دولا ليست بأغنى من مصر ولا أكثر منها نفوساً ومع ذلك استطاعت ان تنشىء جيشاً كافياً للدفاع عن سلامتها ولم تكن مقدرة مصر المالية في عهد محمد علي الكبير او عدد سكانها اعظم مما هي الآن . ومع ذلك كان لمصر جيش قوي منظم استطاع ان يصون البلاد من الاعتداء وان يعين الدولة العلية في حرب المورة وكريت وحروبها مع روسيا وان يعيد اليها الحجاز وان يهاجم تركيا ويغلبها وذلك بغير ان يعقد قرضاً دولياً ما

ان دفاع انكلترا عن مصر او النهوض بأكبر قسط منه غير مأمون العواقب . فقد تضطر الى ان تسترد جنودها من مصر لسبب استراتيجي هام . فتصبح مصر مجردة من معظم أسباب الدفاع وهذا الاحتمال لا بدَّ من ان يحسب حسابه مهما يقل من شأن مصر كطريق يصل بين أجزاء الامبراطورية . ومن المسلم به ان تهيؤ مصر لاستيفاء أسباب الدفاع العسكري في الوقت العصيب الذي نعيش فيه يجب ان ننتهزه فرصة للعمل بنشاط وهذه الفرصة لن تعود

فما هو مجال النشاط وعلى أية قاعدة نؤسسه ؟

يؤسس مجال نشاطنا على قواعد وطنية متينة قوامها القواعد التي مرَّ ذكرها في صفحة ١٤ من هذا البحث وشعارها الجيش السليم في الأمة السليمة

٧ — القواعد التي نؤسس عليها الجيش

انتهينا من شرح المسائل المتعلقة بمساحة مصر وموقعها وعدد سكانها ومواردها الزراعية والمعدنية والثروة الأهلية وميزانية الدولة ثم عرجنا على اعداد الأمة للحرب. والآن ننتقل الى بحث أهم القواعد التي ينهض عليها تنظيم قوات الدفاع البرية والجوية

﴿ ١ — الخدمة العسكرية ﴾ اشتراك جميع طبقات الأمة في تأدية الخدمة العسكرية وتدريب الشبيبة على الاعمال الشبيهة بالعسكرية من طلبة وموظفين وعمال وزراع .. الخ وذلك يتطلب قلب نظم التجنيد الحالية وهي عتيقة لا تتفق مع روح العصر

نرى ان يمحى الاعفاء ويلغى البدل العسكري معاً . وان يطلق عنان الجندية في الأمة فيجند كل مكلف من كل بيئة فيها وكل محيط. فتنتشر الروح العسكرية المنظمة في البلاد ، ويؤدي ذلك الى ازالة الاستثناء والتمييز بين الطبقات ، فيمكن الاستفادة من الشبان المتعلمين المجندين فترات قصيرة في تعليم الأمة تعليماً الزامياً كما فعلت تركيا

ونرى مؤقتاً عدم الغاء البدل النقدي دفعة واحدة بل نرفع قيمتهُ الى خمسين جنيهاً ثم الى أكثر من ذلك قبل الغائهِ نهائيًّا. وبذلك نضمن ضم عدد اكبر من المتنورين الى صفوف الجيش

ونرى خفض مدة الخدمة العسكرية من خمس سنوات الى ثلاث فقط

ولتشجيع الخدمة العسكرية يجب ان لا يسمح لأي مصري بالالتحاق بخدمة الحكومة او الشركات او مزاولة حقوقه المدنية الاَّ اذا أثبت انهُ أدى الخدمة العسكرية او مدة التدريب العسكري في المعاهد العالية

ولا نعفي طلبة الجامعة او المعاهد او غيرهم من رجال الاعمال من الخدمة العسكرية لكن تجزأ مدتها لهم بما لا يتعارض دراستهم

﴿ ٢ — الطيران ﴾ مصر مع ما خطته في سبيل ترقية سلاحها الجوي ما زالت أقل دول البحر المتوسط قوة جوية وبلادنا هدف جيد للطائرات وعلى مسافات قصيرة من القواعد الجوية الأجنبية فبورسعيد تبعد عن رودس ٤٢٥ ميلاً تقطع في ساعة وأربعين دقيقة وتبعد عن طبرق ٣٦٠ تقطع في ساعة و٢٧ دقيقة تقريباً ومن السويس الى اقرب نقطة على ساحل ادبتريا ٨٠٠ ميل تقطع في ٣ ساعات و١٢ دقيقة وبين الخرطوم واديس ابابا ٦٠٠ ميل تقطع في ساعتين و٢٤ دقيقة على أساس اقصى السرعة الجوّية المعروفة الآن

تستطيع مصر تدريجيًا ان تصل بقواتها الجوية بعد ١٦ سنة الى امتلاك ٥٠٠ طائرة برية وبحرية متنوعة الاطرزة للقتال وقاذفات القنابل والاستكشاف وحاملات الجنود . . . الخ من طائرات التعليم . على ان تصل كفاءة رجالها من ملاحين ومدفعين وميكانيكين وهابطي المظلات الى درجة فائقة من التدريب لا تقل عن زملائهم الأوربيين على ان يصبح الدفاع الجوي كاملاً عن المدن والمرافق الحيوية

وتتحكم العوامل الآتية في انشاء القوات الجوية وصيانتها :—

١ — وفرة المال وكثرة المواد الأولية وكثرة المصانع والآلات والأدوات اللازمة لها وكثرة الحظائر والمطارات المشيدة تحت الارض وكذلك مخازن البترول

٢ — عدد عظيم من الطيارين واحتياطي لهم وكثرة المدربين والمعلمين والصناع والميكانيكين والمهندسين . وهذا ما ينقصنا مع تشجيع فكرة الطيران في الأندية الرياضية والمعاهد ونشر الدعاية الجوية وتشجيع صنع نماذج الطائرات بانشاء مسابقات وجوائز

﴿ ٣ — الجيش ﴾ نضع برنامج التوسع العسكري على اساس النواة الحالية للجيش على ان تتوفر فيها قوة التسلح والروح المعنوية وسرعة الحركة . وبعد الاطمئنان على كفاءة هذه القوة ومتانتها الفنية في جميع الاسلحة نعمل على زيادتها سلاحاً ورجالاً بمعنى ان لا ننشىء وحدة ما قبل الأسلحة التي ستدرب عليها فنصل في عام ١٩٥٥ الى جيش تعداده مائة الف

ولكي نعطي فكرة عن قوة تسلح الفرقة في العتاد الحربي (War-Materials) نضرب مثلاً بالقوات الفرنسية التي دخلت الحرب عام ١٩١٤ولم تنل النصر وما آلت اليه (من ناحية التسلح) في عام ١٩١٨ لما نالت النصر الحاسم (نقلاً عن مجلة أسلحة الجيش البريطاني عدد مايو ١٩٢٧) ونحن لا نرى ما يدعونا الى مقارنته بتسلحنا الحالي فهو مدون في البيانات السرية

ومن هذه المقابلة سترى ان العتاد الحربي والتسلح هو الفوز او الفشل كما ان كفاءة الجيش تقاس بقوة النار وكنها الجهنمية (وفرة الذخيرة وجودتها) لا بعدد الجند والضباط .

عند نشوب الحرب في سنة ١٩١٤

القوات الفرنسية	مدافع آلية خفيفة	مدافع رشاشة	دبابات	٧٥ ملليمتر	مدافع ثقيلة	طائرات
٢٥٠٠٠٠٠	—	١ ٢٠٠	—	٣٩٠٠	٣٠٠	٢٠٠

وفي أوائل عام ١٩١٨ صار التسلح كالآتي

القوات الفرنسية	مدافع آلية خفيفة	مدافع رشاشة	دبابات	٧٥ ملليمتر	مدافع ثقيلة	طائرات
٢٨٠٠٠٠٠	٤٧٠٠٠	١٨٠٠٠	٢٥٠٠	٥٦٠٠	٥٢٠٠	٣٢٠٠

من هذا البيان نرى أن الزيادة اشتملت على التسليح الثقيل والمتوسط والأسلحة الصغيرة كما أضيفت الدبابات الى وسائل الهجوم. هذا فضلاً عن تكدس الذخيرة والمعدات الحربية في المخازن

والجيش المستعد تمام الاستعداد يجب أن يطمئن الى ما يشمله

أولاً — من عقول ذكية تدير آلة الحرب وتتركز في قيادة هيئة أركان الحرب. ثانياً — معاهد للدراسات والابحاث المتصلة بالعتاد الحربي والعمل على تقدمها علميًا وصناعيًا . ثالثاً — مصانع وافية لصناعات الحرب المتنوعة. رابعاً — تدريب الوحدات على استخدام أنواع العتاد الحربي بتفوق في جميع أحوال القتال وكذلك تمرين الاحتياطي على استعمال جميع انواع الأسلحة بتفوق

وقد اقترحنا تعميم الخدمة العسكرية الاجبارية مع تخفيض مدتها . وعلى ذلك سيكون من السهل انشاء احتياطي عام للجيش يبلغ عدده حوالي المليون وهؤلاء يدعون كل عام للتمرن مدة شهرين على ان يوزعوا على الاسلحة المختلفة فلا تقتصر أعمال الاحتياطي على أعمال المشاة

وتنظيم قوات الاحتياطي يجب أن يقوم به ضباط من الجيش العامل من رتبة صاغ فما فو[ق] أما بقية الرتب فيملؤها الضباط من كادر الاحتياطي نفسه والذين سينتهون من طلبة الجامـ[ـعة] (تدريب فرق الضباط) وبذلك يزداد عدد المواطنين الذين يتمون هذه الخدمة ويكونون عـ[ـلى] استعداد للدفاع

ولا يمكن ان يوافق احد على أن يقوم بتدريب الاحتياطي ضباطٌ احيلوا الى المعاش منـ[ـذ] عشرات السنين . ويمكن أن يمد الاحتياطي بما يلزمهُ من الضباط النظام الموجودين حالاً [في] الجيش العامل . وفيما يلي اقسام وهيئات مساعدة للاحتياطي العام (فضلاً عن القوات المرابطة — احتياطي مساعد — احتياطي للطوارىء (من الفنيين وأصحاب المواهب الخاصة بين ٣١ و٥٥ سنة)— قوات متطوعة من الطلبة للأعمال الخفيفة (المراسلات والتليفونات — بالسكا[ن] للدفاع المدني) أعمار رجالها بين ٣٦ و ٦٠ سنة — قوات المرابطين لمساعدة احتياطي قو[ات] الطيران الملكي — احتياطي آخر متطوع — احتياطي مساعد قوات أسراب المناطيد — الحرس المدني الجوي — احتياطي الخدمات الطبية (نساء ورجال) — قوات المراقبين ضد الغارات الجوية — قوات المطافىء وأخرى مساعدة — قوات الاسعاف — قوات البوليس . ومعنى هذا تنظيـ[ـم]

أفراد الدولة رجالاً وشباناً وفتياناً وفتيات وتدريبهم على أعمال الحرب في قوات منظمة

﴿ ٤ — القوات المرابطة ﴾ يجب أن لا نخدع أنفسنا فمواردنا الحالية ضئيلة وجمهورنا فقير النفس والى ان نصل الى درجة تبعث على الرضا في موارد ثروتنا وفي درجة الرقي النفساني علينا أن نقنع بوسيلة تحقق بعض أغراضنا العسكرية

وفي إنشاء القوات المرابطة ما يحقق لنا أمل تكوين قوات مدربة على الاعمال العسكرية الاولية والنظام . فنستخدمها في حراسة المرافق الحيوية والثكنات والمخازن والمستشفيات والمطارات والقناطر والسكك الحديدية . . . الخ وغيرها من الأعمال المساعدة للجيش العامل في حظيرة البلاد لا خارجها وتقوم على أساس تدريب الذكور بين سن الـ ١٩ والـ ٢٤ الذين يزيدون عن حاجة الجيش العامل

ونظام القوات المرابطة اذا عني بتدريبها تدريباً فنيًّا على أيدي مدربين منتخبين من الجيش قوة مساعدة للقوات الاحتياطية للجيش ومن السهل الاستفادة بها عند الحاجة فاذا أمكن تدريب ٢٤٠٠٠٠ من المرابطين سنويًّا استفدنا من هذا النظام مزايا لا عدلها من النواحي العسكرية والصحية والاجتماعية . ونكون قد خطونا به خطوة نحو المساواة في الخدمة العسكرية وتغيير الحالة المعنوية تغييراً أساسيًّا . وعن طريق القوات المرابطة نستفيد فائدتين

الأولى — معاونة الجيش العامل في حالة الحرب بعدد كبير من الجنود الذين سيقومون بأعمال عسكرية لا غنى عنها في الدفاع الوطني

والثانية — في أيام السلم اداة للاصلاح الاجتماعي ولتقويم الأبدان والنفوس واستخدام الأيدي للانشاء والتعمير . ونرى أنهُ يجب أن لا تقل مدة تدريب الجندي المرابط عن ستة أشهر وهي أقل مدة للتدريب العسكري التام فضلاً عن تدريب بعض المنتخبين منهم على قيادة السيارات والموتوسيكلات وأعمال التليفون والتطهير

﴿ ٥ — الاسلحة والذخيرة ﴾ ان الاتفاق على وحدة الاسلحة بين الجيشين البريطاني والمصري لا يمنع مصر من صنع الذخيرة في مصانع تنشئها داخل البلاد . لذلك نرى أن لا تفوتنا العناية بانشاء صناعة الاسلحة والذخيرة بأنواعها قبل التفكير في زيادة الجيش . فاليد العاملة والرأس المدبرة والمال اللازم موفورة لصناعة الذخيرة[1] وان كنا نرى ايفاد مائة من الصناع المتعلمين للتمرين والعمل في مصانع الأسلحة الأجنبية والبدء في العمل بموجب مشورة خبراء بريطانيين يساعدهم لفيف من الضباط والمهندسين

ان المواد الكيميائية وأخصها الحمض الكبريتيك والحمض النتريك يمكن توفيرها في البلاد

(١) اشترت وزارة الدفاع الوطني خلال العامين الاخيرين ما يعادل انشاء مصنعين عظيمين

باستخراجهما من النترات والكبريت الخام بعد استيرادهما من الخارج لامداد جميع الصناعات وخصوصاً صناعة الذخائر. كذلك استخراج مادة الجلسرين من فضلات المصابن المصرية بعد عمل الصابون وهي غنية بها فاذا تم تنفيذ مشروع توليد الكهرباء من مسقط المياه بخزان اسوان حصلنا على هذا الحمض من النترات المستخرجة من نيتروجين الهواء والكهرباء

وأما حمض الكبريتيك فيمكننا استخراجه من المعادن الموجودة في المناجم المصرية بشكل (كبريتورات). فاذا تعذر علينا الحصول عليها بهذه الطريقة استخرجنا هذا الحمض من الكبريت الخام الذي يسهل علينا استيراده من اليونان او ايطاليا[1] هذا مع العلم بأن في كفر الزيات مصنعاً له

والقطن هو اهم مواد المفرقعات وهو بخلطه مع الحمض النتريك يولد نترات القطن (النتروسللوز) والقطن موجود طبعاً وستستفيد المصانع من آلاف القناطير السكرتو وكذلك من الضروري انشاء مصنع على الأقل للاسلحة الصغيرة ونعلم انه سيكبدنا مالاً وفيراً في البداية لكنه سيعود علينا بأعظم الفوائد وأهمها فسح مجال العمل لعمال مصريين وسد حاجة مصر والبلدان الحليفة المجاورة الى الاسلحة والذخيرة

﴿ ٦ — التعليم العسكري ﴾ الغرض من التعليم العسكري رفع مستوى ضباطه وضباط صفه وجنوده ثقافيًّا وعسكريًّا وهذا لا يتم الاَّ بترقية المعاهد العسكرية وما يدرس فيها بواسطة أكفأ العقليات الموجودة في الجيش

لذلك يجب توحيد التعليم في الجيش بجملته تحت اشراف ادارة للتعليم العسكري بريًّا وبحريًّا وجويًّا تمثل فيها عناصر الجيش المختلفة وتكون فيها لجان لوضع البرامج ودرسها اولاً بأول

والتعليم العسكري — يتناول تعليم الضباط — تعليم ضباط الصف — تعليم الجنود

تقوم الكلية الحربية الملكية بتعليم وتدريب الطلاب الضباط الذين يتخرجون للجيش ولكنها لا تقوم بتربيتهم تربية عسكرية. فهي تكنة كبيرة يعنى فيها بصحة الطلبة وتعليمهم مبادىء النظام والعلوم العسكرية لكنها لم تحقق كل ما ينتظر منها في غرس الفضائل العسكرية. ويجب ان يكون همها الأول تربية النفس على الفضائل العسكرية وهذه يجب غرسها ولست أبالغ اذا قلت انني أرى تخصيص الستة الاشهر الأولى لغرس هذه المبادىء على ان تأتي محاضرات عامة يتولاها اخصائيون في جميع سني الدراسة. هذه التربية العسكرية هي التي تكوّن الجندي وليست العلوم وحدها فهذه يمكن تلقيها بواسطة الكتب بخلاف الأخرى فهي « تربية »

والعلوم العسكرية الموضوعة في البرنامج الحالي لا وجه لا نتقادها على شرط ان يعلمها ضباط اكفاء يفهمون أنهم مسئولون عن نتيجة تعليمهم في الجيش. لذلك يحتاج هذا التشديد الى ان

---

(١) الدكتور جبرائيل بحري بك — من حديث له مع مندوب مجلة المصور

لا تقتضي مدة الدراسة أقل من ثلاث سنوات . ليس كل ضابط يصلح لأن يكون مدرساً فالواجب ان يمضي الضابط الذي يقع عليه الاختيار حوالي ستة أشهر في معهد التربية العالي لاستماع محاضرات في علم النفس والتربية .. الخ وذلك في اثناء قيامه بالدراسة او يندب الاخصائيون في التربية لالقاء محاضرات على الضباط المدرسين

الكتابة والمناقشة والبحث — هذه الثلاثة يجب ان يتدرب عليها الطالب في اثناء التعلم فاذا تخرّج عرف كيف يكتب ويناقش ويعلم ويبحث ويطالع

التوسع في برنامج الجغرافية العسكرية عمليًا وبالمشاهدة بواسطة الرحلات والمعسكرات السنوية وبالسينما هذه يجب ان تكون أهم وسائل التعليم في الكلية الحربية

ننتقل الى الخطوة التالية وهي تعليم الضباط الممتازين ذوي الشخصية الجيدة في كلية أركان الحرب. والمرشحون لها تطبق عليهم شروط كثيرة يجب مراعاتها ويستحسن ان يكونوا ممن خدموا على الأقل عشر سنوات وتؤهلهم عقلياتهم للاضطلاع بمهمة (ضابط عام محترم) ويجب ان لاتقل مدة الدراسة عن عامين ويشترط ان يقدم كل خريج رسالة هامة في أي موضوع عسكري تناقش فيها لجنة عسكرية فنية

مدارس الضباط العظام وهذه تهيء الضابط من رتبة البكباشي فما فوق للاضطلاع بقيادة الوحدات الكبرى ومدتها ستة أشهر يكون المرشحون لها ممن يجيدون اللغة الانكليزية على الأقل ولا يرقى الى رتبة البكباشي الا من يمتاز في برنامج هذه المدرسة

مدرسة فن القيادة (School of Leadership) — لليوزباشية القدماء مدتها ثلاثة أشهر تلقى فيها على الضباط محاضرات في التربية العسكرية والقيادة وعلم النفس وأثر ذلك في الجنود ومعاملتهم ودراسة مشاهير رجال الحرب في جميع العصور وعوامل نجاحهم . فمنصر فن القيادة يكاد يكون معدوماً الآن في برنامج تربيتنا العسكرية

كلية الدفاع الوطني — لايزيد عدد طلبتها عن عشرة منتخبين بين اكفاء ضباط اركان الحرب الذين لاتقل رتبتهم عن قائم مقام ويسمح لاثنين يرشحهم رئيس هيئة أركان الحرب من الضباط الممتازين بالاندماج في هذه الكلية مع اثنين من كبار الموظفين الاخصائيين في شؤون سياسة الدولة العليا واقتصادياتها ممن يرشحون لتقلد مناصب هامة في الحكومة

وفي هذه الكلية تدرس المسائل المتعلقة « بالاستراتيجي » وبادارة الحرب وتسيير دفتها سياسيًا وماليًا واقتصاديًا ونفسيًا . وباختصار بكل ما له ارتباط بالدفاع عن الدولة من تعليم وتربية وتموين وتجارة وصناعة حربية ومدنية وثروة وتوجيه الامة .. الخ

تأتي بعد ذلك المدارس الفنية العالية والمتوسطة لأسلحة الطيران والصيانة والمدفعية والهندسة

العسكرية والاسلحة الصغيرة والاشارة والسواري الخ. وهذه مسؤولة أمام قوادها لأنهم سيمدونها بالرجال الصالحين للحرب وموطن انتقادها يدور حول كفاءة مدرسيها ودقة نظامها

ننتقل الى مدارس ضباط الصف وهذه تخرج السلسلة الفقرية للجيش، وأرى ان لا يلتحق بهذه المدرسة سوى الحائزين على شهادة الكفاءة او الدبلومات المتوسطة بعد خدمتهم في الجيش ملعاً على الاقل فلا يمضون مدة دراستهم في المدرسة في الطوابير والتمرينات الابتدائية كما هو الحال الآن بل يوجهون لدراسة العلوم والمواد العسكرية اثناء العام الدراسي على ان لا تزيد مدة التمرينات اليومية على ساعتين وأرى العناية بتربيتهم النفسية . وحبذا اليوم الذي نرى فيه طبقة من ضباط الصف جديرين بالاحترام كما نرى ضباط الصف الأوربيين

« مدرسة الكتّاب العسكريين » من حسن الرأي ان نسعى الى «عسكرة» الموظفين المدنيين بوزارة الدفاع الوطني وذلك بتخريجهم من مدرسة الكتاب العسكريين وأرى ان مدة الدراسة فيها قصيرة وبرنامج دروسها ضعيف . فالواجب اعادة النظر فيه وحبذا لو أنشىء بالمدرسة فرع لحملة دبلوم التجارة المتوسطة يمنحون رتب صولات بعد ترقيتهم للقيام بالأعمال الفنية والحسابية في ادارة الرئاسات وأقسام الوزارة

« مدارس الأورط » لا فائدة مطلقاً منها في وضعها الحالي . ومن العبث وضع اقتراحات خاصة بها فمن الرأي ان يكون الجيش آلة لمحو الأمية فيتعلم جميع جنود الجيش بوسائل منتجة يعود بعدها الجندي الى قريته ملماً بالقراءة والكتابة ولا تحقق هذه الفكرة بدون الغاء بعض الأعمال العسكرية الشاقة التي لا فائدة منها والطلبات المتعبة التي يستطيع عدد قليل من الجنود القيام بها

« مدارس لتعليم الحرف الصغيرة » في تركيا يتدرب الجنود اصحاب الحرف على ممارستها في أثناء الخدمة أو التدريب على أشغال مماثلة لها فلا يكونون عالة بعد انتهاء خدمتهم العسكرية على الدولة ويمكن الاخذ بهذه الفكرة ولو بمقياس صغير . اما المدارس الفنية الاخرى التي يشترك فيها الضباط والجنود فلا اقترح شيئاً جديداً لها وحبذا لو عمل على توسيع نطاق الالعاب الرياضية في الجيش لتعم روح الجماعة والالفة بدلاً عن روح الاثرة والكراهية

« ٧ — تنظيم وزارة الدفاع الوطني » لم تصل وزارة الدفاع الوطني في تنظيم أعمالها المالية الى المستوى المنشود وهذا راجع الى أسباب شتى [1]

« ٨ — المواصلات الداخلية » من الضروري بذل جهود نشيطة لاستكمال النقص في شبكة المواصلات بريًّا ونهريًّا. ونهر النيل من عوامل النقل الهامة وحبذا لو انشىء اسطول

(١) تحاشى الكاتب ذكرها في المقتطف

نيلي صغير يستخدم للنقل وقت الحاجة . ويجب الاكثار من الطرق لانها خير من مضاعفة خطوط السكك الحديدية وهذه أهداف يمكن تدميرها وتعطيلها وأهم الطرق العسكرية التي نحتاج اليها هي التي تربط بين شاطيء البحر الاحمر ووادي النيل وفي الحدود الجنوبية بين اسوان وحلفا على أن تكون متينة التأسيس لتتحمل النقل الحربي الحديث ومتسعة ومزودة بمحطات الوقود والمياه وقطع التغيير

﴿ ٩ — البعثة العسكرية البريطانية ﴾ القاعدتان اللتان قام عليهما التحالف المصري البريطاني خاصًّا بالجيش هما

اولاً — جعل الجيش مصريًّا بحتاً وتحريره من كل سيطرة بريطانية

ثانياً — الانتفاع ببعثة عسكرية بريطانية للتدريب والتعليم والمشورة عند الاقتضاء وليس هناك ادنى شك في حاجتنا الى بعثة عسكرية لتنظيم شئون الجيش المصري وتمامه وهذا التنظيم يستغرق مدة لا تقل عن عشر سنوات

فنقترح أن يكثر ضباط البعثة العسكرية الفنيون من المحاضرات الفنية تلقى على ضباط الاسلحة الملحقين بها وكتابة رسائل في الموضوعات العسكرية وتشجيع المناظرات.ونرى أن يدوّن كل ضابط من البعثة شهريًّا ملاحظاته عن السلاح الملحق به

﴿ ١٠ — دراسة مصر والبلدان المجاورة ﴾ أرى ان تعنى ادارة العمليات الحربية ممثلة في القسم الجغرافي بدراسة جغرافية القطر المصري دراسة وافية . . . . الصحاري والشواطيء والجزر والبحيرات والوديان . . . . . الخ فاننا لم نصل بعد الى مستوى راقٍ في معرفة بلادنا حق المعرفة من الناحية الحربية كالمستوى الذي وصل اليه غيرنا ، وتتحقق فوائد هذه الدراسات بإيفاد الرحلات العلمية والقاء المحاضرات والبعثات القصيرة ويجب ان تتضمن هذه الرحلات البلاد المجاورة كشرق الأردن وفلسطين وسوريا والعراق وتركيا وأقاصي السودان وجزر البحرين الاحمر والابيض واليونان وايطاليا

﴿ ١١ — الانتفاع بالعناصر البدوية ﴾ ويجب أن لا يغيب عن بالنا الانتفاع الى أقصى حد ممكن بالعناصر البدوية في الصحاري المصرية ويأتي ذلك عن طريق ترقية احوالهم الاجتماعية والصحية فهم عون كبير لقوات الدفاع ولاسيما في حرب العصابات فيؤلف منهم سرايا شبه منظمة مدربة تدريباً جيداً على الاعمال العسكرية في الصحاري وبذلك نربح شيئين : — قوات مسلحة تؤيدنا وتحسين احوال فئة من الشعب المصري تعيش في الواحات والبراري عيشة القرون الوسطى

﴿ ١٢ — الحصون والاستحكامات ﴾ لا أرى ان مصر في حاجة الى صرف الاموال

الطائلة في بناء الخطوط التي من طراز الحصون المستديمة في اية منطقة على مثال خط ماجينو مثلاً ولكن يستعاض عنها ببناء نقط دفاعية ذات اعماق في المناطق العسكرية الحيوية في الحدود الشرقية والغربية والجنوبية وكذلك الجنوبية الشرقية (البحر الاحمر) . وبناء الحصون تمليها السياسة الدفاعية ولكن أرى ان تكون سياستنا هجومية في تمرينها ومناوراتها وهذه تتطلب الاكثار من المركبات الميكانيكية والدبابات الى اقصى حد . ان الحصون لا تحمي البلدان ولكن الرجال هم الذين يحمونها

﴿ ١٣ — الملحقون العسكريون ﴾ يجب من الآن تدريب فئة من الضباط الذين لا تقل خدمتهم العسكرية عن عشر سنوات على اعمال الملحقين العسكريين . وأرى ان يكونوا من ضباط اركان الحرب والمخابرات العسكرية ممن يجيدون اللغات الاجنبية ويجب ان لا تقل رتبة الملحق عن صاغ لانهُ يمثل (عسكرية الأمة) ويجب ان يكون متصفاً بصفات عالية ومثقفاً وذا مؤهلات خاصة . وأرى البدء بنظام الملحقين العسكريين في البلدان المجاورة أولاً

﴿ ١٤ — اللغات الأجنبية ﴾ من الأسف ان تكون نسبة المتضلعين من اللغات الاجنبية (ما عدا الانكليزية) ضئيلة جداً بين ضباط الجيش فلا تتجاوز واحداً في المائة ويجب ان ترفع هذه النسبة الى ٥ ٪ بأفعل الوسائل كمنح المكافآت المالية وتشجيع الاجازات الطويلة في الخارج (عام مثلاً) ومنح علاوة خاصة للغة وهكذا . الجيش المصري في حاجة الى عدد من الضباط الذين يجيدون اللغات الألمانية والايطالية والفرنسية واليونانية والتركية وبعض اللهجات الافريقية ومن الغريب أن لا تنجح وسائل الاغراء التي استعملت لتعليم اللغات الأجنبية منذ عامين

﴿ ١٥ — قوات الدفاع عن السواحل ﴾ لا بدَّ من اعادة انشاء نقط مدفعية للسواحل بين السلوم ورفح . كان عدد الحصون الساحلية في عصر محمد علي بين الاسكندرية وبور سعيد خمسين وما زال يندثر باكثرها الى الوقت الحاضر . كذلك تقام نقط مدفعية ساحلية ضد الغارات على شاطىء البحر الاحمر من السويس الى بور سودان ويقام بعضها في الجزر الهامة التي في البحر الأحمر . ولقد انشئت نقط دفاعية متعددة في الاسكندرية ونقط مراقبة على الساحل . ومن حسن الحظ أن توجد منطقة ممتدة بين المنزلة والبرلس وادكو ورشيد وأبو قير ومريوط معززة بالعراقيل الطبيعية كالمستنقعات والبحيرات لا تسمح لرسو السفن الحربية

﴿ ١٦ — الجيش المصري في السودان ﴾ ان الاحوال الحاضرة جعلت للسودان منزلة عظيمة ولا بدَّ أن تكون القوات العسكرية المتعاونة كافية لحمايته

﴿ ١٧ — المال ومراقبة المشتريات ﴾ رائدنا الأول عند توسيع جيشنا ان يتم هذا التوسع بأقل ما يمكن من النفقات نظراً للظروف التي نعيش فيها

وان كل زيادة في الرجال لا يسبقها ورود الأسلحة والعتاد من أحدث طراز لا قيمة لها ولا تنتج الا انهاك الميزانية دون ان تستفيد منها البلاد فائدة ما

نصت المعاهدة البريطانية المصرية على وجوب توحيد الأسلحة والنظم العسكرية بين الجيشين ولكن ذلك لا يعني الكرم والاسراف فيما نريد مشتراه . كانت مشتريات الجيش المصري قبل عام ١٩٣٧ من الأسلحة والمهمات محدودة وفي نطاق ضيق جداً ولكنها ازدادت زيادة كبيرة في عهد الجيش الجديد فارتفعت الاعتمادات المخصصة لها من بضعة آلاف الى الملايين

ولمواجهة هذا الموقف الجديد يجب ان نفرض مراقبة دقيقة على مشترياتنا وان نعتمد على انفسنا في ذلك واضعين امامنا هذا المبدأ الاقتصادي . نشتري أفضل المصنوعات وأرخصها

﴿ ١٨ — ميزانية الدفاع الوطني ﴾ ان انفاق ملايين الجنيهات على الدفاع الوطني لا يعد خسارة من الوجهة الاقتصادية على ان يتم هذا الصرف بمعرفة ووطنية . ان الجانب الأكبر من هذه النفقات سيصرف في مصر ويروج اسواقها وينعش صناعتها وتجارتها فهناك الوف الشبان سيعملون في اسلحة الجيش كجنود وضباط ومهندسين وأطباء وعمال . وهناك المصانع المصرية للغزل والنسج والمتاجر تمد الجيوش بحاجتها . وهناك الروح العسكرية — روح الطاعة والنظام — تسود ابناء الأمة وتساعد على تقويم الأخلاق ولكن يجب ان لا يساعد الجيش على التبذير

بلغ مجموع اعتمادات الدفاع الوطني لعام ١٩٤٠ — ١٩٤١ — ٨٠٠ر٦١٤ر٦ جنيه يضاف اليها ٧٨٤ر١٩٧ جنيهاً كمصاريف أخرى تقوم بها وزارات اخرى على نفقة الدفاع الوطني وأول ما يصادفنا هو الباب الأول الخاص بالماهيات والاجور والمرتبات ويبلغ ٨٨٠ر٤٦٧ر١ جنيهاً . وأرى انه من الممكن توفير مبلغ جسيم اذا الغيت معظم علاوات الضباط[1] فنقتصر على عدد محدود من الضباط ويخفض بدل المراسلة والسايس ويقتصد في عدد الضباط العظام في الوحدات وفي المصالح وعلى الأخص في رتب (القائم مقام والأميرالاي) ويجب ان يكون هناك تناسب بين الوظيفة والرتبة التي يتقلدها شاغل الوظيفة كقائد بلك النقل مثلاً وقائد بلك الأعمال الطبية الميداني وما أشبه فهو في الأول صاغ وفي الثاني قائم مقام . لماذا لا يكون يوزباشي وصاغ

فاذا انتقلنا الى المباني العسكرية تساءلنا هل لنا سياسة مرسومة للمباني العسكرية ؟ الجندي المصري لا يحتاج الى مبان كالتي يحتاج اليها الجندي الأوربي لأنه لا يعيش في مثلها قبل تجنيده ولا يعيش فيما يشابهها بعد انتهاء خدمته ، ولقد بنيت بمئات الآلاف من الجنيهات مبان فخمة من ثكنات ومستشفيات ومخازن ، في مناطق معينة كان الأجدر ان تشيد في داخلية البلاد . لست أعارض في بناء مبان ضخمة للمصانع والورش والمدارس والمخازن . كل هذا نحتاج اليه ، لكنني أعارض في بناء ثكنات جديدة ما دام من المنتظر ان تخلي القوات البريطانية ثكناتها للجيش

(١) العلاوات الاضافية في الجيش المصري تكلف الخزينة العامة ١٢٤٠٠٠ جنيه في السنة

المصري وفي السنوات المقبلة يمكن التعسكر خارج المدن فالمعروف ان الجيوش لا تعيش داخل المدن بل تقيم في مناطق الحدود والصحارى لتتدرب

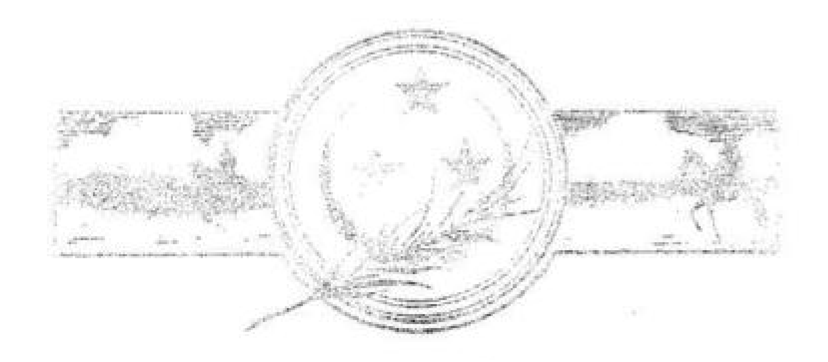
﴿ ١٩ — العمل في الورش العسكرية ﴾ تكاليف العمل في جميع الورش العسكرية باهظة اذا قيست بالاثمان التي تصنع بها في الورش المحلية فان الدولاب او الكرسي او السلاحليك الذي يصنع في سلاح المهمات أغلى ثمناً من مثلها المصنوع محليًّا . وتصليح البندقية والسيارة أو مدفع المكينة في سلاح الصيانة يكلف الحكومة مبلغاً مرتفعاً . ومرجع هذا الاسراف الى فساد الطرق التي تتبع في المشتريات وخزنها واستهلاكها وانعدام مراقبة الانتاج اليومي للعمل والعمال وهذا يحتاج الى صناع مهرة أكفاء يفهمون الواجب الوطني ويقدرون معنى الاشراف . كذلك ارتفاع الاجور اليومية التي يتناولها الصناع أمر واضح فضلاً عن انحطاط المستوى الصناعي للاغلبية . وحبذا لو أرسلت تلك الاسلحة مقدمي صنّاعها الى المصانع الأجنبية المحلية للوقوف على طرق العمل المنتج فيقتصد في أبواب المصروفات العسكرية . ويمكن الاقتصاد وتعديل الملابس العسكرية ومهماتها فيوفر الكثير من الاعتمادات

﴿ ٢٠ — الاسطول ﴾ نتكلم عن حاجتنا الى الاسطول لاتصاله بآلة الدفاع الوطني . ان مصر لا يحتمل أن تكون قوة بحرية كبيرة ولكنها تحتاج الى عدد من لاقطات الالغام وبعض المدمرات وطوافات لمراقبة السفن بين الموانىء المصرية وما بين مناجم الزيت بالبحر الاحمر والسويس لتأمينها من الغواصات[1] . ونرى ان يسبق انشاء اية قطعة بحرية لمصر ان توفد الحكومة مائة شاب لا تتجاوز اعمارهم ١٥ سنة ممن درسوا الصناعة الميكانيكية الى انجلترا للتدرب على الاعمال البحرية في السفن مدة ست سنوات على الأقل وتوفد حوالي الثلاثين طالباً بحريًّا للغرض نفسه ليساهموا مع غيرهم وليحضروا بأنفسهم السفن التي توصي عليها مصر اسوةً بما تعمله سيام وإيران وتركيا

﴿ الخلاصة ﴾ ذكرنا اهم الاعتبارات التي تبنى عليها آلة الدفاع المصري واضطرنا ضيق المقام الى اختصار التفصيلات المطولة ومع ذلك يجب ان لا يغيب عن بالنا ان الحرب الحديثة قد أملت علينا دروساً كثيرة سوف نرى أثرها بعد قليل . هذه الدروس سوف لا تتناول مبادىء الحرب كلها ولكنها ستتناول فلسفة الحرب ووسائلها بانقلاب عظيم فالعلم الحديث والمبادىء النفسية والأحوال الاقتصادية أدخلت عليها انقلاباً عامًّا سيشعر به كبار العسكريين . والذي وصل اليه الجيش المصري منذ عام ١٩٣٧ الى اليوم لا يعدو توسعاً في الاساليب التي كانت معروفة حتى عام ١٩١٨ فلا بدَّ من ان يصيبه التحول من الألف الى الياء برًّا وبحراً وهواء . ونحن لم نتعود بعد الطفرة ولكن لا بد منها اليوم فلا نكون محافظين الى حدود الجمود في آرائنا وأساليبنا ورجالنا .....

---

(١) راجع مقال « هل تحتاج مصر الى قوة بحرية ؟ » للبوزباشي البحري عز الدين عاطف بالعدد الخامس (المجلد الاول) من مجلة الجيش المصري



أقسام الجيش

فيلق	Army corps
فرقة	Division
لواء	Brigade
آلاي	Regiment
أورطة	Battalion
بطارية	Battery
سرية	Company
فصيلة	Platoon
جماعة	Section

رتب الجيش

فريق	Lieut. general
لواء	Major—general
أميرالاي	Brigadier
قائمقام	Colonel
بكباشي	Lieut. colonel
صاغ	Major
يوزباشي	Captain
ملازم أول	Lieutenant
ملازم ثاني	Second Lieutenant

مدارس الجيش

١ — كلية أركان الحرب الملكية
٢ — الكلية الحربية الملكية
٣ — مدرسة الضباط العظام
٤ — مدرسة الهندسة العسكرية
٥ — مدرسة الصناعات الميكانيكية
٦ — مدارس الأسلحة الصغيرة
٧ — مدارس التربية البدنية
٨ — مدرسة الاشارة
٩ — مدرسة علم الصحة
١٠ — مدرسة الكتّاب العسكريين
١١ — مدرسة ضباط الصف
١٢ — مدرسة الموسيقات
١٣ — مدارس الوحدات

